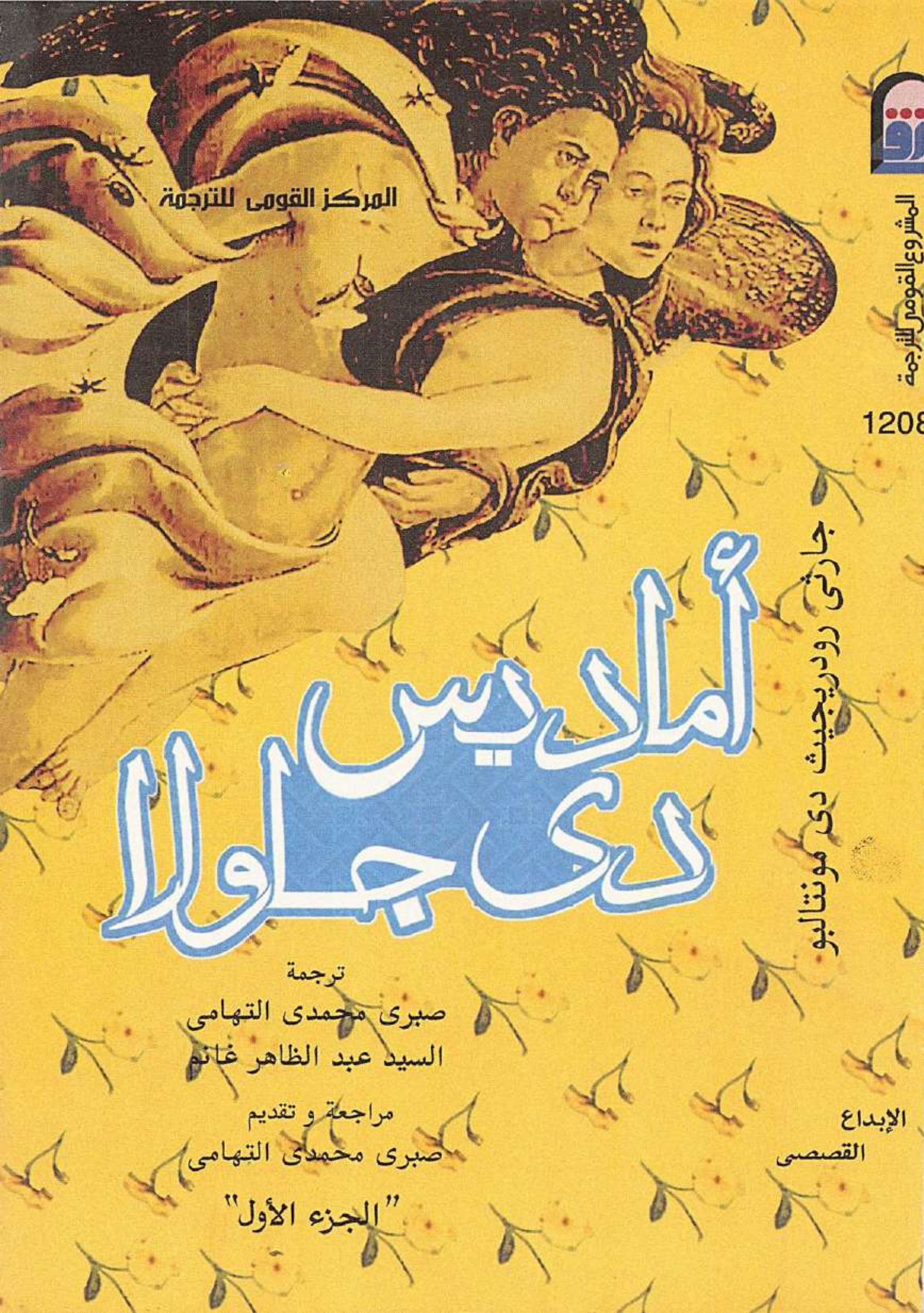

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
1208
جارثى رودريجيث دى مونتالبو
أماديس دى جاولا
ترجمة
صبرى محمدى التهامى
السيد عبد الظاهر غانم
مراجعة و تقديم
صبرى محمدى التهامى
"الجزء الأول"
الإبداع القصصى



أماديس دي جاولا

(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد : ١٢٠٨
- أماديس دى جاولا ج ١
- جارثى رودريجيث دى مونتالبو
- السيد عبد الظاهر غانم
- صبرى محمدى التهامى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Amadís de Gaula

Garci Rodríguez de Montalvo

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

أماديس دى جاولا

(الجزء الأول)

تأليـــــــف : جارثى رودريجيث دى مونتالبو

تـرجـــــمـة : السيد عبد الظاهر غانم

وصبرى محمدى التهامى

مراجعة وتقديم : صبرى محمدى التهامى



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دي مونتا لبو ، جارثي رود ريجبيث .
أماديس دى جاولا / تأليف : جارثي رودريجيث دي مونتالبو ،
ترجمة : السيد عبد الظاهر غانم ؛ مراجعة وتقديم: صبرى محمدى التهامى
- ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٥٩٦ ص مج ١ ، ٢٤ سم
١ - القصص الإسبانية
(أ) غانم ، السيد عبد الظاهر (مترجم)
(ب) التهامى ، صبرى محمد (مراجع ومقدم)
(جـ) العنوان ٨٦٣

رقم الإيداع ٢٦٢٩٦ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-437-568-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الكتاب الثانى

الإهـــداء

إلى

روح خالي الطاهرة ، إلى روح ذلك الوالد الحنون

الذى شملني برعايته ، وخصَّني بالنُّصح والإرشاد ، فاللهم اجعل الجنَّة مثواه

د. صبري محمدي التهامي زيدان

مقدِّمة الترجمة

تعتبر قصَّة "أماديس دي جاولا" من أهمِّ قصص الفروسية التي انتشرت في إسبانيا قبل أنْ يكتب ميجيل دي ثيرفانتس رائعته الخالدة "دون كيخوتة"، تلك القصَّة التي كتبها خصيصاً لمحاربة قصص الفروسية.

وقبل الاستطراد في مقدِّمتنا لهذه القصَّة نرى من الواجب علينا أنْ نشير إلى ظروف مشاركتنا في ترجمتها. بدأ أخي وزميلي الأستاذ الدكتور/ **السَّيد عبد الظَّاهر** غانم ترجمة "أماديس دي جاولا"، وظلَّ يعمل بجهدٍ جهيدٍ إلى أنْ انتهى من ترجمة أربعمائة وثمانٍ وتسعين صفحة أي قبيل انتهاء الفصل الحادي والسَّبعين، لكنَّه - رحمه الله - لم يمهله الأجل لاستكمالها نظراً لوفاته المفاجئة إثر حادث أليمٍ أصاب قلوبنا بالفجيعة، فالله نسأل أنْ يسكنه فسيح جنَّاته. ولمَّا علمنا بأنَّ الكتاب لم تكتمل ترجمته وأنَّ هناك ثلاثمائة وتسعًا وعشرين صفحةً إلى جانب مقدِّمات النُّقَّاد، قمنا بتقديم طلبٍ للأستاذ الدكتور/ **جابر عصفور** الأمين العام للمجلس الأعلى للثَّقافة لكي نستكمل التَّرجمة. وافق سيادته مشكوراً على الفور فآلينا على أنفسنا أنْ نوفِّر الوقت لإتمام العمل رغم أنَّنا كنَّا نقوم في ذلك الوقت بترجمة أكبر قصةٍ في الأدب الإسباني في القرن التَّاسع عشر، ألا وهي قصَّة "فورتوناتا وخاثينتا" التي تقع في ألفٍ وثمانٍ وثلاثين صفحةً فتركناها جانباً إلى أنْ انتهينا -بعون الله وتوفيقه- من ترجمة ومراجعة قصَّة "أماديس دي جاولا".

تتكوَّن قصَّة "أماديس دي جاولا" من مائةٍ وثلاثة وثلاثين فصلاً مع فهرس بأسماء الشَّخصيات في نهاية العمل إلى جانب مقدِّمتين: إحداهما للنَّاقد الإسباني الكبير فرانثيسكو ريكو، والأخرى للنَّاقد خابير ثيركاس. كما أنَّ بالقصة ملحوظات هامشية

في معظم صفحاتها تشرح معانى التعبيرات والألفاظ الصَّعبة، تلك التعبيرات/ الألفاظ الإسبانية القديمة ومايقابلها فى الإسبانى الحديث؛ لذلك أعددنا تعريباً لها فى معجمٍ بنهاية التَّرجمة من ص ٧٦٨ إلى ص ٨٢٩؛ أى أنَّ المعجم ضم إحدى وستين صفحةً.

والقصَّة عبارة عن سردٍ لأعمالٍ بطولية قام بها بعض الفرسان، وخاصة أماديس ووالده الملك بيريون، وقد كانت كلٌّ بطولاتهما لنصرة المظلومين والمهمَّشين كإنقاذ فتياتٍ من أسرٍ ظالم، أو تخليص مدينة أو جزيرةٍ من وحشٍ كاسرٍ أو حيوانٍ خرافيٍ كان يهدِّد حياة سكانها، أو نصرة ملك تعرضت مملكته لاعتداء من جانب ملوك آخرين؛ فالبطل أماديس كرَّس حياته لنصرة المظلومين دون أنْ يكترث بالمخاطر الجسيمة التى كان يتعرَّض لها.

يوجد فى هذه القصة الكبيرة حشدٌ غفيرٌ من الشَّخصيات الصَّالحة والطَّالحة، وقد غلب على بعض الشَّخصيات إخفاء أسمائها الحقيقية خلال سرد الأحداث، ثم إعلان هوية كلٍّ منهم فى نهاية البطولة أو فى الوقت المناسب وفقًا لمعايير المؤلِّف.

تميزَّت القصَّة بجمال الأسلوب، وسهولة اللغة، وجودة السَّرد. وعلى الرَّغم من التِّكرار فإنَّ كثرة الأحداث والبطولات وتنوعها واختلاف أماكنها لم يصب القارئ بالملل، لأنَّ كلَّ بطولةٍ كانت تضيف مغزىً جديداً.

وإلى جانب ذلك فإنَّ القصَّة عبارة عن غابةٍ من العجائب فأحيانًا كانت تقدِّم لنا سيف أماديس غريب الشَّكل لم يُر مثله قط فى أىِّ مكان بالعالم، كان غمد السَّيف مكونا من لوحين أخضرين كالزُّمرد. وكان اللوحان من العظم شفافين لدرجة أنَّ حديد السَّيف كان يرى داخل الغمد كما أنَّ السَّيف لم يكن بوسع أىِّ فارس آخر إخراجه من غمده إلاَّ أماديس الذى يحبُّ أوريانا حبا جما. هذا إلى جانب صورٍ أخرى لا تُحصى سنترك للقارئ فرصة الاطلاع عليها أثناء قراءة القصَّة.

فالخيالية التى يلفت نظرنا إليها الكاتب البيروانى الشَّهير ماريو بارجاس يوسا ماهى إلا ملمح ، وذلك الواقع التَّاريخى ماهو إلاَّ أساسٌ فقط وليس هدفًا للرِّواية، لأنَّ

مقصد قصَّة "أماديس دى جاولا" يكمن فى جانبٍ آخر، وهو تصوير عالمنا من جديد فى عالمٍ آخر متماسكٍ ذاتيا، يرتبط كلٌّ عنصر منه بالعناصر الأخرى بمقتضى قواعد خاصة طبقًا لمنطقٍ لا تمتد جذوره إلاَّ فى القصَّة نفسها، وتقديم ذلك العالم بهذا التَّصوير العجيب عالمًا قويا يشعر القارئ أو المستمع عند التَّوغل فيه أنَّه واقعٌ حقيقى أكثر من ذلك الذى يحيط به. إنَّه فنُّ الخيال الصَّافى.

ترجع أوَّل طبعة لقصَّة "أماديس دى جاولا" إلى عام ١٥٠٨، وقد تتابعت الطَّبعات مكتسبةً شهرة كبيرةً وذيوعًا هائلاً، وعلى الرُّغم من انتقاد ثيرفانتس فى رائعته "دون كيخوتة" لهذا النَّمط الأدبى (قصص الفروسية) فإنَّ هذا النَّقد كان بمثابة تكريم له. فقد انكبَّ على الاطلاع عليها جمهورٌ غفيرٌ من القرَّاء يتقدَّمه الجمهور الأرستقراطى، فكان من بين القرَّاء أباطرةٌ وملوكٌ مثل الإمبراطور كارلوس الخامس وفرانثيسكو الأوَّل، وكذلك أشخاص مرموقون مثل سانتا تريسا دى خيسوس، وسان إيجناثيو دى لويولا وخوان بالديس. وفيما بعد أصبحت القصَّة شعبيةً أيضًا بين أبناء الطَّبقات الوسطى فى المجتمع، وامتدت تلك الشَّعبية إلى الطَّبقات الدُّنيا.

ويكفى للتَّدليل على شهرة هذا الكتاب أنَّ قصة أماديس طبعت تسع عشرة طبعة منذ الطَّبعة الأولى فى ١٥٠٨ إلى عام ١٥٨٦، وهذا عدد كبيرٌ من الطَّبعات خلال ثمانية وسبعين عامًا.

وقد امتدت شهرة قصَّة "أماديس دى جاولا" إلى العديد من الدُّول الأوروبية، مثل فرنسا وإنجلترا وهولندا، وكان لها تأثيرٌ واضحٌ فى الآداب اللاحقة فى تلك الدُّول.

ويعتقد ماريو بارجاس يوسا أنَّ قصَّة "أماديس دى جاولا" من أفضل كتب الخيال قاطبةً فالكتاب يمثِّل واقعًا متكاملاً لشمولية لا تتجزَّأ يتعايش فيها دون حواجز أو فواصل أفرادٌ حقيقيون من دمٍ ولحم مع أشخاص من عالم الفنتازيا والأحلام، شخصيات تاريخية مع شخصيات من عالم الأسطورة، الإنصاف والظُّلم، الممكن والمستحيل.. إنَّ كتاب "أماديس دى جاولا" يعبِّر عن الواقع الذى يعيشه بنو الإنسان

بموضوعيةٍ وبوجدانيةٍ، ذلك الواقع الذى يوجد باستقلالية تامةٍ عنهم، والنَّاجم فقط عن معتقداتهم وكوابيسهم وخيالهم.

فكتاب "أماديس دى جاولا" هو أفضل وأخلد شاهدٍ على كتب الفروسية؛ فهو يحكى بسحرٍ خالدٍ وأخَّاذٍ بطولات الفارس أماديس نجل الملك بيريون ملك جاولا، وغرامياته مع متيَّمته أوريانا كريمة عاهل إنجلترا. كما تُحدث قراءته متعةً حقيقيةً ومستمرةً للقارئ فى أىِّ عصر من العصور مهما كان انتماؤه الطَّبقى أرستقراطيا كان، أم برجوازيا، أم من أبناء الطَّبقات الدُّنيا.

وختامًا نحمد الله عزَّ وجلَّ على توفيقه لنا فى استكمال التَّرجمة ومراجعتها والتَّقديم لها، تاركين للقارئ الكريم نصا سيصافحه بعينيه، راجين الله العلى القدير أنْ يحظى باستحسانه وإعجابه.

والله ولى التَّوفيق

د. صبرى محمَّدى التُّهامى زيدان

مصر الجديدة فى ٢٠٠٧/٤/٩

تصدير

> إنَّ مكتبة أساسية للكتّاب القدامى يمكن أنْ يُنظرَ إليها جيدًا على أنَّها استعراضٌ للشّخصيات الأكثر سحرًا وجاذبيةً فى تاريخ إسبانيا. بالتّأكيد يوجد هؤلاء جميعًا من مسلمين ومسيحيين وصالحين وخطائين، الصغار مع الكبار .
>
> فإلى جانب الـ Cid المحارب صاحب البطولات هناك أبطال الرُّومانس : الملك رودريجو وأمراء لارا السّبعة وبرنارندو الكاربيو... فإنَّ الفارس الذى لا يُشقُّ له غبار، فارس الخيال الصّافى أماديس دى جاولا، وعلى بعد خطوات من الفاتح ذى الحقيقة الأمريكية الفظّة بيرنال دياث ديل كاستيو. إنَّ لاثاريو دى تورميس وتريسا دى خيسوس وسيخيسموندو: " نحلم معهم بروحنا، نحلم مرّةً أخرى ". كلُّ الأعمال الغرامية أعمال الحبُّ: السّيد خوان تينوريو، وفارس أولميدو المأساوى، وكاليستو بين السّحاب، وميليبيا على سطح الأرض، وثيليستينا على أهبة الاستعداد لتلبية ما يُطلب منها. وفوق الجميع، وقبل أىٍّ من هؤلاء الشّخصيات دون كيخوته.

لكن لا ينبغى أنْ ننخدع بأنَّ هذه الشّخصيات التى لا تُمحى هى انعكاس لتاريخ إسبانيا. لأنَّ ما يحدث هو العكس تماما؛ إنَّ تاريخ إسبانيا نتخيّله انعكاسًا لهذه الشّخصيات. فعندما لم تكن الشّخصيات نفسها التى صوّرها الكتّاب القشتاليون القدامى جسدًا وروحًا حيث أبدعوها بملامح وسماتٍ جليةٍ واضحةٍ، وقد أحاطوها

بحبكات حيوية للغاية وغاصة بالمغزى مما جعلنا نعتقد أنَّ هذه الشَّخصيات أكثر واقعيةً من الواقع ذاته وموثوقٌ فيهم أكثر من التَّاريخ نفسه. إنَّ هذه الشَّخصيات "ليست أنماطًا أو نماذج تمثِّلنا" إنَّهم أفرادٌ يتَّسمون بالإنسانية بكلِّ معانيها، فلا شيء يوجد في بني البشر الحقيقيين لا يوجد في هؤلاء، إنَّهم نماذجُ تُحتذى من أجل الخير والشَّر. فعندما نقول إنَّ شخصًا ما صعلوكٌ أومكَّارٌ أو طائش جدًا، أو إنَّه دون جوان (زير النِّساء)، فإنَّنا نعترف بالحياة الخاصة والذَّاتية للكتَّاب القدامى.

فرانثيسكو ريكو

مقدمة النّاقد فرانشيسكو ريكو

أماديس دى جاولا والخيال الصافى

بدايِة العمل

كان جارتينير ملكًا لبريطانيا الصُّغرى، وكان له كريمتان؛ أما الكبرى متزوجة من لانجينيس ملك إسكتلندا، وقد أنجبا أجراخيس ومابيليا، أمَّا الصُّغرى والأكثر جمالاً فهى إيليسينا، وقد رفضت جميع الأمراء الذين خطبوها وكرَّست حياتها لأعمال البر والخير والإحسان.

ذات يومٍ كان جارتينير يسير فى الغابة ويقضى وقته فى الصَّلاة والدُّعاء، فرأى كيف أنَّ فارسًا تغلَّب على فارسين آخرين كانا قد اعتديا عليه وقتلهما : إنَّه الملك بيريون دى جاولا الذى كان يريد التَّعرف على جارتينير، وفى نفس الملك أن يواجه أسدًا معًا عضدً شهرته كأفضل فارس فى العالم.

أحبَّ بيريون وإيليسينا كلٌ منهما الآخر بمجرَّد أن رأى أحدهما الآخر، وقد وجد بيريون الوسيلة لكى يعبِّر لها عن حبِّه على الفور. أرادت الأميرة التَّأكُّد مما إذا كان الأمر مجُرد نزوة قوية مثلما كانت تُحسُّ هى فى قرارة نفسها. قامت داريوليتا وصيفة إيليسينا بالتَّحرى عمَّا إذا كان الأمر هكذا، فعرضت على بيريون أن تعد له لقاءً مع سيدتها شريطة أنْ يعدها بأنْ يتخذها زوجةً له عندما يحين الوقت، واستطاعت أنْ تتركه بمفرده فى

غــرفته، حيث يوجد هناك بابٌ يُطلُّ على الحديقة، وكان المفتاح مع داريوليتا....

إنَّ السطور السَّابقة توجز مقدمة قصَّة أماديس دى جاولا، والفقرات التى عُنوِن لها باقتباس "بداية العمل" تسبق الفصل الأوَّل. ومن يجد أمامه هذا الموجز بوسعه قراءة الكتب الأربعة لقصة أماديس بلا أيَّة صعوبة، لكنه سيكون قد فقد معظم العناصر التى تضمنها هذا الاستهلال أو المقدمة التى تجعل من قراءتها خبرة لا تنسى، تلك العناصر التى استمرت من البداية إلى النَّهاية خلال قرنين من الزَّمان، أكدت للعمل نجاحًا هائلاً فى أوروبانا كلها (لدرجة أنَّ طبعةً مصغرةً باللغة العبرية ظهرت فى تركيا فى ١٥٤٠). لنترك بعض الأحداث

سُميت الابنة الكبرى لجارتينير وزوجة لانجينيس بـ DUENA DE LA GUI RNALDA (أى: صاحبة إكليل الزَّهر)، لأنَّ الملك زوجها لم يوافقــها عـلى تغطية شعرها الجميل أبدًا إلاَّ إذا كان بإكليل الزَّهر الرَّائع، لأنَّه كان يسعده أنْ يرى شعرها هكذا؛ فقد كان شعرها لا يوصف؛ إنَّنا مدعوون لكى نتخيَّل إلى أىِّ مدى كان شعرها جميلاً، ولنحكم على ذلك من خلال أمر لانجينيس غير المألوف، حيث حرَّم على زوجته تغطية شعرها بالإيشاربات والطُّرح المعتادة لسيدةٍ من العصور الوسطى من الطَّبقة الرَّاقية، وفضَّل دائمًا أنْ يرى شعرها مكشوفًا عاريًا - كما كان يقال فى ذلك الوقت - كما لو كانت طفلةً أو فلاَّحةً، دون أيَّة زينةٍ مهما كانت بسيطة يمكن إعدادها اللهم إلاَّ إكليل الزَّهر. فمن الطَّبيعى جدًا -وأكثر الأمور بساطةً- أنَّ المؤلف يُطلُّ علينا بمثل صفات الكمال هذه، التى تجعل من هذا الشَّعر معجزةً. إنَّها صاحبة إكليل الزَّهر، ومن ناحية أخرى لن نذكرها مرَّةً أخرى بهذا الاسم عندما تظهر من جديد، بصفةٍ عارضةٍ، كمرافقة كمبارس لزوجها لانجينيس، إنَّها فقط الملكة. إنَّ الإشارة إلى شعرها الجميل، إذن، لن تؤثر على مسيرة الحدث، ولا دورها فى هذا الحدث؛ فليس لديها مهمةٌ أخرى سوى أنْ تُضىء بجمال خاطف عالم أماديس.

ولم يكد بيريون وإيليسينا يرى كلٌّ منهما الآخر حتى شُغفا حبا؛ فالأميرة لكى تستخدم حوض غسيل الأيدى كانت قد تركت خاتمها على تنورتها، وبعد ذلك ونتيجة الاضطراب نسيت أنْ تضعه فى إصبعها، وبالتَّالى سقط منها وهى تحاول النُّهوض من على المائدة. وعندما ذهبت لتأخذه حاول بيريون أنْ يسبقها، وصلت الأيدى فى آنٍ واحدٍ "فأمسكها الملك من يدها وشدَّ عليها" كان ذلك لمدة لحظةٍ فقط، ولكن الأمور التى سبقت ذلك لها ما يبررها بكل دقةٍ، ولحسن الحظ فإنَّ القارئ يرافق الأبطال فى كل صغيرةٍ وكبيرةٍ فى الحدث ويعيش ذلك الاتصال السَّريع بمزيج من العمدية والمفاجأة والدَّهشة مثلهما تمامًا. إنَّ التَّفاصيل التى سُرد بها احتكاك الأيدى تجعله سريعًا ومكثَّفًا وقويًا. "احمرَّ وجه إيليسينا خجلاً ونظرت إلى الملك بعينين ولهانتين متيَّمتين، وقالت له: تمهَّل، أشكرك على تلك الخدمة الجليلة نعم، يا سيدتى - قال بيريون - لكن لن تكون الأخيرة، فسأكرِّس كلَّ حياتى لخدمتكم !" كان خجل السَّيدة عندما قدَّمت الشُّكر بصوت متهدجٍ (تمهَّل) يتناقض مع عزم وتصميم بيريون فى تلاعب واضح بالألفاظ: فكلمة SERVICIO تعنى FAVOR AYUDA أى أنَّ لفظة خدمة تعادل وتساوى معروفًا ومساعدةً أى الاستعداد التَّام لخدمة الحبِّ، كان ذلك بمثابة التَّصريح بالحب والتَّعبير عن المشاعر والأحاسيس، لكن ستكون إيليسينا -على الفور- هى التى ستأخذ بزمام المبادرة، وسينساق الملك للأحداث....

ولنلاحظ أنَّ تصوير الحدث تمَّ بشكل ملائمٍ للمشهد، هكذا يحدث ذلك فى كلِّ جزءٍ يخدمنا كعينة أو نموذجٍ وبدرجةٍ كبيرةٍ فى قصة أماديس كلِّها. يمكن أنْ تكون داريوليتا قد تحدَّثت مع بيريون فى غرفتها لأنَّ حامل الأسلحة لم يستغرب أنْ تكون الوصيفة هى التى قامت بتلبيس سيدها ملابسه، "لقد فكَّر فى أنَّ ذلك يحدث لنيل مزيدٍ من الشَّرف". لم يتردَّد بيريون فى أنْ يصارح محبوبته، لأنَّه لاحظ بكلِّ جدوى أنَّ إيليسينا تحيط داريوليتا بثقتها. فالوصيفة ليست فى حاجة لكى تكشف له أىَّ شيءٍ؛ فالملك بنفسه سبق إيليسينا لكى يعترف لها بحبه. فالمحادثة مع حامل الأسلحة سمحت لداريوليتا بالتَّعرف على ما إذا كانت لدى بيريون ارتباطاتٌ، وجعلت جارتينير الفطن الذَّكى يتوجَّه بالحديث إلى بيريون، مما سمح للفتاة داريوليتا بانتهاز الفرصة كى تبعده عن الغرفة التى يشارك بيريون فيها.

إنَّ تلاعب المحب بالكلمات امتدَّ كثيراً فى لحظات أخرى من القصَّة وفى الحوار، خاصة لربط الأحداث والمشاعر والأحاسيس. خلعت إيليسينا قناعها أمام داريوليتا "فالألم الجديد أو المعاناة الجديدة هزمت الفكرة القديمة، وتغلبت عليها بكلِّ قوة" وطلبت منها النُّصح والإرشاد "بدموع عينيها ومزيد من دموع قلبها". عندما عرضت الفتاة خدمتها لكي تُلبس بيريون ملابسه انتهز العاشق الولهان الفرصة على الفور "إنَّ هذا ينبغي أنْ يدخل السُّرور على القلب -قال بيريون- فالقلب كان خاوياً من السَّعادة والمتعة تماماً." في الحقيقة إنَّ قصة أماديس تسرد بصدق المعلومات والأحداث فقط لكونها في غاية الأهمية بحيث تنقل المعاني والعواطف بدقَّة.

هكذا فإنَّ من الجوهرى أنْ تؤثر المغامرة وتدهش القارئ بكل تفاصيلها الموحية. "قتل بيريون أسداً بسيفه عندما كان الحيوان المفترس يمسك بضحيته وعلى وشك قتلها"، لكن لم يكن ذلك كافياً، فالسِّمات والملامح التي تثير الإعجاب أكثر من ذلك؛ كان الأسدُ قد قتل الظَّبي الذى كان بيريون وجارتينير يطاردانه من قبل "بقر بطنه بمخالبه القوية جدا"، وقد التقى الملكان عندما خرج الظَّبي منتصراً مظفَّراً على خصمين في معركة شجاعة. لكن الحكايات أو النَّوادر في المقام الأخير لها أهميتها الكبيرة؛ لأنَّها تؤكد منزلة "ليس بلا سبب - قال جارتينير - إنَّ ذلك الملك (بيريون) مشهورٌ بأنَّه أفضل فارس في العالم". بالفعل إنَّ بيريون والأبطال الآخرين لقصة أماديس يتردَّدون ذهاباً وإياباً بصفة دائمة على أحداث ومعانى القصة. إنهَّم يتصرَّفون بطريقة محدَّدة ومعيَّنة لأنَّهم يمثِّلون نماذج معيَّنة (لم يبق إلا أنْ نضيف -على سبيل المثال- أنَّ بيريون بوصفه ملكاً وفارساً كان قد وعد داريوليتا بأنَّه سيتزوج إيليسينا، أقول حامل الأسلحة " رجلٌ نبيل "، "وحتى هو ابن فارس")، ومثل هذا السُّلوك يشهد ويؤكِّد أنَّ هؤلاء الأبطال يجسدون بلا أدنى خطأ الشَّخصية المثالية التى تناسبهم تماماً. لذلك من الشَّائع في القصَّة ظهور شخصيات مجهولة أو إخفاء الأسماء الحقيقية للشخصيات، التى يتم التَّعرف عليها فيما بعد، لأنَّ في قصَّة أماديس دى جاولا هناك أمرٌ جوهرى لا غنى عنه ألا وهو التَّعرف على هوية الأبطال، والطَّريقة التى يكشفون فيها أو يخفون بها شخصهم الحقيقي، وحتى عندما لا يعرفونه هم أنفسهم ولا القرَّاء.

فالمشاعر لا تسمح بحلول وسط. فإيليسسينا بعد أنْ تحدَّثت مع بيريون "ظلَّت مضطربةً اضطراباً شديداً، حتى كادت تفقد بصرها "، وعندما علمت بأنَّهما سيكونان معًا جنبًا إلى جنبٍ كانت مندهشةً مذهولةً من المتعة والسَّعادة، لدرجة أنَّها لم تستطع الكلام ". أمَّا هو -أي بيريون- فمن جانبه كان معذَّبًا مثقلاً بالهموم والأحزان لدرجة الموت ". إنَّ التَّوافق في مثل هذا الأمر يضطرنا في بعض الأحيان إلى التَّفكير في أنَّه ليس ضروريًا أنْ نميز بين الأبطال على حدة ونبرز سماتهم وخصالهم، ويكفي أنْ نكرِّر ما ذكر عن أحدهم وما قيل عن الآخرين "مثل تلك الأميرة الحسناء، والملك لكونه مماثلاً وشبيهًا"، "لم تستطع إيليسينا الفكاك من أسر ذلك الحبِّ الكبير الذي لا علاج له، كما لم يستطع الملك بيريون الإفلات منها.... "

تسلية النَّاس أو إعادة إبداع العالم

أعتقد أنَّ هذه النَّماذج القليلة في الصَّفحات الأولى كافيةٌ لكي تعطي فكرةً عن سبب هذا النَّجاح الباهر والمستمر الذي حقَّقه كتاب أماديس دي جاولا، حتى لو لخصنا وأوجزنا موضوع القصَّة فإنَّ أحداث الحبكة كانت ذات أهميةٍ ملحوظةٍ. لكن الأحداث كما سردت وتمَّ إعدادها بمثل هذا الإتقان في التَّفاصيل والقوة التَّعبيرية جعلت من القصَّة مصدراً دائمًا للسُّرور وللرَّصانة السَّعيدة لمكونات وعناصر العالم القصصي؛ ففي الجزء الذي تصفَّحناه تظهر عبارتان للرَّاوي قد تكرَّرتا كما هما في مواضع أخرى من القصة، ألا وهما "كما سمعتم من قبل"، "وما سترونَّه فيما بعد أو في وقتٍ لاحقٍ" ينبغي أنْ نفهمهما حرفيًا؛ ففي العصر الوسيط ومعظم العصر الذَّهبي، كان أدب التَّسلية ظاهرةً شفهية وجماعيةً في المقام الأوَّل : كانت الكتُب تقرأ بصوت مرتفعٍ أمام عدد من المستمعين. مازال تقفي أثر رواية دون كيخونة يؤكد أنَّه في وقت الحصاد فإنَّ أعياد الحصاد يتجمَّع فيها كثيرٌ من الحاصدين، ودائما كان بعضهم يعرف القراءة، فيأخذ أحدهم واحداً من هذه الكتب (كتب الفروسية) في يده، وكنَّا نلتفُ حوله أكثر من ثلاثين شخصًا، وكنَّا نستمع إليه في سرورٍ بالغٍ، مما يعيد

إلينا شبابنا وفتوتنا." كانت هذه القراءة العامة تهدف إلى زيادة المتعة بالمكان الذى أشرت إليه؛ فالبوح وتوجيه التحية للجنس اللطيف له متعة فردية، حسناوات جميلات كنَّ بلاشك ينضممن إلى المستمعين لكى يشاركنهم ذلك الأحساس، وعندما يجدها جارها (مثل القهقهة فى المسرح أو القلق يسريان بين المشاهدين)، وينقلهما الرَّاوى إلى منطقة نموذجية حيث يمتزج الواقع بالخيال.

فصاحب ألحان بالوميكي عندما يستمع إلى القصص المكرَّرة في رواية أماديس، وعلى وجه الخصوص تلك الضَّربات القوية والمرعبة التى يسدِّدها الفرسان بعضهم لبعض، كان بالوميكي يصاب بالدَّهشة والذُّهول وينسى انتهار - وحتى الشجار مع - زوجته. أمَّا الخادمة ماريتورتيس فكانت هذه الحكايات تُعجبها، وخصوصًا عندما تحكى أنَّ السيدةً الأخرى يعانقها الفارس تحت أشجار البرتقال، وأنَّ سيدةً تحرسهما، وهى تكاد تتميَّز من الحسد وفى ذعرٍ شديد "أىَّ مثل المواقف المشابهة التى حدثت بين إيليسينا وبيريون التى كانا يستمتعان فيها بمساعدة داريوليتا، التى قبل أنْ تتركهما وحدهما نظرت إلى سيدتها، وفتحت لها عباءتها، ونظرت إلى جسدها، وقالت ضاحكةً : "نعمت السَّاعة التى وُلد فيها الفارس الذى سيقضى معكم هذه الليلة..." إنَّ نجلة بالوميكى كان يسعدها على وجه الخصوص بكاء الفرسان عندما يغيبون عن زوجاتهم؛ فلنكترث بما يقوله نقادٌ أذكياء : فى قصة أماديس كان كلُّ شخص يجد الأحداث والعناصر قد تمَّ تعظيمها والوصول بها إلى درجة الكمال تلك التى كانت تشد انتباه صاحب الأحان، دون أنْ نذهب بعيدا، فعندما كان يستمع إلى البطولات الهائلة التى كان يقوم بها السَّيد ثيروخيلو وفليلسمارتي، كانت تراوده الرَّغبة فى " أنْ يقوم ببطولةٍ مماثلة"، وعلى الفور سنذكر بطولات أخرى خارقة للعادة، لم نتعرض لها لكنَّنا سنبرزها الآن فى استعراض سريعٍ قدَّمناه فى الأجزاء التَّمهيدية، للعمل وقد فُتنَّا بتفاصيلها ودقَّتها، مثل (شعر السَّيدة صاحبة إكليل الزُّهر)، ورقة بعض التَّفاصيل ودقَّتها مثل احتكاك وتلامس الأيدى، واللغة الرَّاقية وشدَّة العواطف). وقد لاحظنا أيضًا أنَّ الشَّخصيات كانت صورة طبق الأصل لبعض الأنماط أو الأشخاص دون أىِّ عيبٍ ممكن، وأنَّ سلوكها كان يكمن فى التخلُّص من بعض العوائق (قطاع الطُّريق، الأسد)

الذين كانوا يعترضون طريقهم، وفي النهاية كانت تفيد في التَّأكيد على تقديم النَّموذج المثالي الذي ينطبق عليهم كما ينبغي. لكنَّنا أيضا ننبِّه على أنَّ مثل هذا الجو من الأمور والأشخاص دون أي عيبٍ، وعندما يتدخَّل الشرُّ، سيكـــون أيضًا شرا بـــلا رحـــمةٍ ولا هوادة، شرًا في غاية العنف؛ فإنَّ الحبكة لم تكن تنساب بنفس سهولة الأحلام : كان يتحفزُّ بوجهة نظر "واقعية" تهتم بصغائر كثيرة من الممارسة اليومية في ترابطٍ صحيحٍ ورائعٍ للمشاهد (ينبغي إبعاد حامل الأسلحة وجارتينير عن غرفة بيريون، إلخ) بدلاً من التَّغاضي أو المرور مرَّ الكرام على هذه التَّفاهات – كما كان من المنتظر أنْ يحدث – للمضي قُدمًا إلى المقصد والهدف الأساسي من القصة.

وينتمي إلى نفس الهيمنة الواقعية مظهر أو جانب حيوي في باقي قصة أماديس (وعلى وجه الخصوص في الكتاب الأوَّل)، وهو الحدث العسكري؛ فعلى الرَّغم من أن المواهب والقدرات البدنية والمهارات الحربية للأبطال لا يُمكن تصديقها في حالات كثيرة، فإنَّ وصف الأسلحة ومراحل ومراوغات القتال، وتقنيات وفنون المصارعة تتناسب تمامًا مع الاستخدامات الفروسية في العصور الوسطى (لمقاصد معينةٍ وقديمة عفى عليها الزَّمن في زمن مؤلف القصة جارثي رودريجيث دي مونتالبو)

لكن –كما أشرت– إلي جانب الأسلوب الجمالي والصُّور القياسية واللمسات الواقعية ينبغي أنْ نضيف عاملاً لم نجده في الصَّفحات الأولى التي استخدمناها كعينة أو نموذجٍ، وهو العامل الخارق للطَّبيعة؛ فقصه أماديس دي جاولا عبارة عن غابة من العجائب؛ فأحيانا يقدِّم لنا السَّيف أكثر غرابة لم ير مثله قط، وأنَّ غمده كان مكونًا من لوحين أخضرين مثل لون الزُّمرد، وكان اللوحان من العظم، شفَّافان لدرجة أنَّ حديد السَّيف كان يظهر داخـل الغمـد، وما كان لأحدٍ أنْ يستطيع إخراجه من غمده "إلاَّ الفارس الذي يحبُّ صديقته أكثر من أيِّ فارسٍ في العالم" وفي الوقت نفسه يشير إلي تسريحة ذات ورود جميلةٍ جداً، نصفها ورود جميلةٌ وخضراء ذوات لون حيوي ناضر كأنَّها قطعت حين تفتحت، والنصف الآخر ورود جافة جدا، وكانت تبدو كأنَّ الورود عند الاقتراب منها تجفُّ وتموت ": عند وضعها على رأس السَّيدة أو الفتاة التي

تحب زوجها أو صديقها بالدرجة نفسها التى يحبها بها ذلك الفارس تتحوَّل الورود الجافة إلى خضراء جميلة مثل الأخريات "تسلَّم ليسوارتى تاجًا" كلَّما وضعه الملك على رأسه سيكون شرفه محفوظًا، "وكانت زوجته ترتدى عباءةً زركشت بكلِّ طيور وحيوانات العالم"، والتى ترتدى هذه العباءة لن يحدث لها أىُّ كرب أو غم مع زوجها " لكن التَّاج والعباءة بهذه السِّمات الرَّائعة اختفيا بلا تفسيرٍ من الغرفة المغلقة " رغم أنَّ المفتاح كان فى حوزتها دائمًا " فى لحظةٍ معينةٍ يأتى ظبىٌ مزوَّدٌ بقناديل مضاءة فى قرنيه، أحدهما مذَّهبٌ والآخر أبيض مشبَّعٌ بالحمرة، "وجزء من جسده أبيض ناصع البياض كالجليد، والعنق والرَّأس أسود مثل القار"، هذه التَّشبيهات العجيبة تكثر حيث توجد أورجاندا لاديسكونوثيدا، "كانت تسمَّى هكذا لأنَّها فى كثير من الأحيان كانت تتحوَّل وتتبدَّل ولا يعرفها أحدٌ "، وتتبنَّى المظهر الذى يحلو لها، وهى تأتى إلى جانب أركالاوس، السَّاحر الشِّرير حيث قدَّم لنا أردان كانيليو "الذى كان وجهه... مثل وجه الكلب" "كان ضخم الجثة ثقيل البدن لدرجة أنَّه لم يوجد جواد يستطيع حمله" أو العملاقة أنداندونا، التى" كان كلُّ شعرها أبيض ومجعَّدًا لم تستطع تسريحه "، كانت " قميئة الوجه لم تكن تُشبه إلا الشَّيطان ". اكتشفنا فى قصة أماديس -فى الواقع- كلَّ نوعٍ من الكائنات، والحيوانات والمواقف والأفراد العجيبين، فى سلسلة متنوِّعةٍ بدءًا من المدهش الذى يمكن تفسيره إلى ما هو خارق للعادة أو معجزة.

إنَّ الإطار العام للعمل يشتمل على "شمولية لا يمكن تقسيمها حيث يتعايش فيها دون تفرقةٍ أو حدودٍ رجال من بنى البشر وأفرادٌ من الخيال والأحلام، شخصيات تاريخية ومن الأساطير، العدل والظُّلم، ما هو ممكنٌ وما هو مستحيلٌ؛ أى الواقع الذى يعيشه بنو الإنسان بموضوعية (أفعالهم وأفكارهم وعواطفهم)، والواقع الذى يعيشونه ذاتيا ووجدانيا، الذى يوجد مستقلٌ عنهم والذى هو فقط نتاج معتقداتهم، وكوابيسهم أو خيالهم ".

سيكون من الصَّعب إضفاء ميزة أو سمةٍ على قصتنا أفضل من تلك التى نسختها عن ماريو بارجاس يوسا لكن ربَّما نستطيع إيجازها فى عبارةٍ واحدة؛ إنَّ قصة

أماديس لا تزعم إعادة خلق العالم، بل تسليته في أخص معانيه؛ ففي عالم قصة أماديس -بلا شك- هناك عناصر كثيرة كانت تتعلّق بالمعايشة اليومية للجمهور، ولذلك كانت تدعو إلى مواجهة كلّ العوامل الأخرى بلغةٍ مشابهة - جوهر الأشياء والنّماذج المثالية والمعجزات أو العجائب - التي لم تكن تمثّل جزءًا من نفس سجل ما هو مألوف. لكن تلك العوامل الأخرى لم تكن أيضًا غريبةً عن القرّاء والمستمعين، وإذا لم تكن في عالمهم اليومي، فإنّها كانت تسكن خلف عالمهم، في لا شعورهم بشأن ما ينبغي أنْ تكون عليه الأشياء التي ليست أمام أعينهم.

من الملائم مرةً أخرى أنْ نترك الكلمة لماريو بارجاس يوسا : إنّ البلاط الرُّوماني الأصل الذي جاءت منه قصة أماديس دي جاولا وكتب الفروسية الأخرى "يصف الواقع الحقيقي والرُّوماني المدفون في الأرض التي تخفيها الخيانات والآثام الإنسانية في الحياة اليومية. إنّ مهمة الأدب تكمن في إخراج هذا الواقع الخفي أملاً في أنْ يشعر الرِّجال بأنّهم ناجون وآمنون؛ فالخيالات كانت تبرهن لهم على أنّ الحياة الحقيقية ليست تلك التي كانوا يعانون منها كلّ يوم، بل الحياة الأخرى الكائنة في اللاشعور، حياة كان الشّرُّ يُهزم فيها دائمًا على أيدي الخير، حيث كانت طيبة قلب البشر أو شره وسوء خلقه كانا ينعكسان على جمال أو قبح الوجوه، وفي قوة أو ضعف الذِّراع. حيث كانت المعجزة أو الأمر العجيب يمتزجان، ويتعايشان مع كلّ مبتذلٍ وتافهٍ. فالواقع الذي كان يريد أنْ يراه رجل العصر الوسيط ممثّلاً في الكتب ليس الواقع العنيف والمخيف الذي كان يعانيه في دمه ولحمه بل ذلك الواقع الذي تصوره الكتب المقدّسة، الواقع الذي ترسمه كتب أصول العقيدة، الواقع الذي يصوِّره هذا الإحساس غير المتبلور في الوجوه والأجساد والأسماء والمناظر والمشاهد الطبيعية والمغامرات والموسيقى الجميلة للكلمات، إنه الحياة اليومية، ووصف النِّظام البديع والدّائم والإلهي للعالم. فالحياة الواقعية كانت مزيّفةً، والخيال أكيدٌ صحيحٌ. كان الرّاوي ينزع قناع الواقع السِّحري والعارض للزّمن والجسد ويغرس خيالاته وأوهامه في الواقع الخالد أو اللازمني والمهم للرُّوح" .

فلا أهمية لعدم إشارة الكاتب العبقرى البيراونى (ماريو بارجاس يوسا) إلى كتاب أماديس دى جاولا هنا بشكل مباشر ومع ذلك ثبت لى أنَّه بهذه الفقرة الصائبة أراد الاشارة إليه من بعيد، كما لم ينتبه أو يدرك أنَّ شرحه وتفسيره هذا يمكن أنْ ينطبق على روايات أخرى كثيرة بعيدة كلَّ البعد عن تراث البلاط الملكى الرُّومانى، وعن كتب الفروسية. على العكس من ذلك تمامًا إنَّ التَّبرير المنطقى الذى ساقه ماريو بارجاس يوسا يكمن فى تعريف صورة من السَّرد الأسطورى بوضوح تام ينبغى أنْ يكون فهمها وإدراكها سابقًا على تقويم عادل ومنصف لقصة أماديس دى جاولا.

إرضاءً للبعض واغضابًا للبعض الأخر فإنَّ نثر الخيال يتجه اليوم إلى أنْ يتم تأمله فى المقام الأوَّل من وجهة نظر القصة الواقعية القديمة، التى تجد أعظم رائدٍ لها قصَّة لاثار يو دى تورميس، وكمالها المبِّكر فى جوثمان الفراتش والكيخوته، وازدهارها لدى الرِّوائيين الكبار فى القرنين الثامن عشر والتَّاسع عشر. فمعظم القرَّاء اعتاد الحكم على أىٍّ عمل خيالى طبقًا للطرح النمطى لتلك الواقعية؛ سرد حكايات يمكن أنْ تتكامل فى عالم الخطاب الذى نوجد بداخله بشكل عامٍ، وتقديم روايات يمكن أنْ تدخل دون عنفٍ فى التَّنسيقات اللغوية الأكثر شيوعًا فى الحياة اليومية.

ومع ذلك فإن تلك الواقعية القديمة لم تكن إلا طرفة عينٍ فى تاريخ الأدب؛ فمن الإلياذة إلى مائة عام من العزلة، ومن الخطابات والقصص المصوَّرة، كان لقصص الخيال ذيوع "وانتشار" أكبر من القصص الواقعية؛ نظرًا لكونها لا تخضع لقيود وملل الحياة اليومية، ولا لروتينيات التَّجريبية، بل لكونها مطابقة لمقياس الرَّغبة، طبقًا للتَّحليق الحُرِّ للفانتازيا، لأنَّ الأمر لو كان يتعلق بالابتكار، لماذا يتم تحجيم الابتكار وفرض قيود عليه وإخضاعه للقوانين الرَّتيبة للواقع المألوف ؟

إذنْ لكى نُنصف قصة أماديس دى جاولا، فأوَّل شيءٍ ينبغى علينا أنْ نعتبر قوالب القصة الواقعة التَّقليديه ونماذجها بعيدة كلَّ البعد عن قصة أماديس دى جاولا. بالتَّأكيد تلجأ القصة فى بعض النِّقاط إلى الدَّافع الواقعى الذى سبق أنْ أشرنا إليه آنفًا، بالتَّأكيد إننا بعد الخيالات يمكننا أنْ نميِّز واقعًا تاريخيًا لا لبس فيه ولا غموض

(نظرية وممارسة مجتمع يقوم على الطبقية، نظرة محدَّده للعالم... إلخ). لكن ذلك الدَّافع ليس إلاً معلومة فقط ضمن "الشُمولية التي لا يمكن تقسيمها" الخيالية التي لفت نظرنا إليها ماريو بارجاس يوسا، وذلك الواقع التَّاريخي ما هو إلا أساسٌ فقط، وليس هدفًا للرِّواية؛ لأن مقصد قصة أماديس دي جاولا يكمن في جانب آخر، وهو تصوير عالمنا من جديد في عالم آخر متماسك ذاتيا، يرتبط كلُّ عنصرٍ منه بالعناصر الأخرى بمقتضى قواعد خاصة طبقا لمنطق لاتمتد جذوره إلاَّ في القصة نفسها، وتقديم ذلك العالم بهذا التصوير العجيب، عالمًا قويا يشعرُ القارئ أو المستمع عند التَّوغل فيه أنَّه في واقع حقيقي أكثر من ذلك الذي يحيط به. إنَّه فن الخيال الصَّافي.

تصميم الأعجوبة أو صياغتها

في ملخصنا للصَّفحات الأولى من قصة أماديس دي جاولا، وفي الملاحظات السَّطحية التي أكملناها حتى هنا قد أشرنا فقط إلى صورٍ ومشاهد وأحداث تمَّ التَّفكير والتَّأمل فيها قليلاً كأنَّها وحدات أو أجزاء وكيانات قائمة بذاتها، لأنَّ القصة تمَّ الاستمتاع بها على وجه الخصوص في تلك الأجزاء أو البؤر الصَّغيرة حيث يتكثَّف الحدث في الإسهاب والتَّفصيل في صورة ذات جمالٍ فريدٍ أو قوة لاتُضارع، ولا يعني هذا على الإطلاق أنَّ المؤلف أو المؤلفين الأصليين وناسخ الكتاب مونتالبو قد أهملوا بنيته الإجمالية. بالفعل إنَّ كلَّ واحدة من تلك التَّفاصيل تضيء الرِّواية بومضات تطلب الامتداد في تفاصيل أخرى ذات طابع مشابه، ومن هنا، فهي تحدِّد البداية الأساسية في وحدة العمل، وهي الحفاظ على مناخ عجيب وإتقان أكيد دائمٍ (والشَّخصيات الرَّئيسة تخضع تمامًا لذلك الأمر نفسه). لكن علاوة على ذلك فإنَّ الرِّواية تستجيب مع مناهج أخرى وأساليب فعَّالةٍ وبناءةٍ.

هكذا تُمثل سيرة البطل تصميماً واضح المعالم؛ لذلك فإنَّ من السِّمات الكبيرة أن نجد أنَّ الكتاب الأوَّل يرسم شجرة نسب أماديس (وعند إعداد شجرة النَّسب يظهر مقدَّمًا أن لا شيء يتعارض مع قوة الدَّم) وبحثه عن نفسه (حتى يعود إلى أصوله)،

(إلى أنْ يسترد اسمه) وبلوغه القمة وذروة الفروسية. أمَّا الكتاب الثَّاني فيحكي كيف أنَّ أماديس في ذروة مجد الفروسية يقع في بلوى الحبِّ العاطفي وفي النِّهاية يعود إلى الرُّقي والصُّعود كمحبٍ ولهانٍ إلى الذُّروة مثل تلك التي بلغها فارسًا. لقد اتهم زورًا وبهتانًا "بالخيانة وعدم الوفاء والثبات" وبسبب غيرة أوريانا يعتزل النَّاس ويذهب إلى الصَّخرة الفقيرة حيث سمَّى نفسه "بليتينيبروس"، وكان على استعداد لكي يفني نفسه ويهلكها كمن يعرف جيداً قدر زوجته ويعيش بداخلها، وعندما علمت أوريانا بخطئها لم تستطع فقط إنقاذ حياته بعد أنْ كان قد أشرف على الموت، بل سريعًا ما برهنت على أنَّه أوفى الأوفياء " المحبِّين " وقد اختفى كلاهما بروعة عاطفتهما الغرامية وحبِّهما. وفي الكتابين الثَّالث والرَّابع سقط أماديس في هاويةٍ أخرى هي سخط الملك ليسوارتي، ثم خرج منها من جديد لكي يرتقي إلى أعلى عليِّين حيث هزم العاهل ليسوارتي وفي النهاية أنقذه. فالبطل إذنْ وجد نفسه وحقَّق ذاته وأثبت للجميع من هو في الفروسية، وفي الحبِّ وفي السُّلطة والنُّفوذ. لكن قصة أماديس دي جاولا ليست بالَّطبع أماديس فقط؛ فالمؤلِّفون يحركون أمامنا عددًا كبيرًا من الشَّخصيات حيث تتجاوب مغامراتهم إلى حدٍ ما مع مغامرات البطل؛ فقصة أحدهم تتوقَّف هكذا في لحظاتٍ معيَّنةٍ لكي تفسح المجال لقصة آخرين، وكلتاهما يتمُّ نسجهما معًا ممَّا يسبِّبُ انطباعًا حيويا لسردهما في آن واحدٍ. فالتَّوافق أو التَّناقض في الأحداث يضفي على الكتاب أحيانا الطابع الكورالي، ويجعله ذا حبكةٍ جماعية، وفي جميع الأحوال فإن التوافق والتناقض يحمسان الكتاب ويحرِّكان أحداثه بهذا التَّنوع. وهذه الازدواجية موحيةٌ على وجه الخصوص عندما يترك حدث بلا سردٍ، حتى عند النقطة الجوهرية، على سبيل المثال، عندما ذهب أماديس مع شقيقه جالاور، الذي لم يكن يعرفه حتى ذلك الحين، وكان يسير برفقة فتاةٍ تودُّ الموت لكليهما. وفي نقطةٍ ما نجد أنَّ القصَّة بأكملها هي التي تردُّ على توقُّفٍ قريبٍ من ذلك أو على عنصر تشويقٍ من هذا القبيل. هكذا فإنَّ أماديس وأوريانا تزوَّجا سرا في الكتاب الأوَّل، لكن الزَّواج على الملأ، أو إشهار الزَّواج سيتأخَّر حتى نهاية الكتاب الرَّابع. فالزَّواج السِّرِّي -أي بتدخل المتعاقدين فقط بلا قسيس، كما كان مسموحًا به قبل ذلك من جانب مجمع ترينتو المسكوني- أمدَّ القوة الغرامية بسحرٍ خفي. لكنَّه في الوقت نفسه ترك الزَّوجين في وضع مؤقَّتٍ وغير سارٍ،

ومن هنا كانت النكبات والمصائب المتعددة مماً أخر الحبكة التي تُحسُ على أنَّها اضطرارية، هذا إلى جانب سبلٍ أخرى تهدف إلى ترك خيط السَّرد الأساسي، وتثير وتحفز التَّرقب الطَّويل لدى القرَّاء.

فالرَّاوى يقوم في أحيان كثيرة بدور المتنبئ القلق، فهو يشير إلى أنَّ قصةً ينبغي أنْ يستمر سردها لكن دون أنْ يقدِّم لنا مسبقًا اتجاه السَّرد "وبهذه الطَّريقة ظلَّ ذلك الغلام المدعو جالاؤر في حوزة النَّاسك وكنفه، أمَّا ما حدث له فسوف يحكى فيما بعد"، وأحيانا أخرى يحدث العكس لكن بنفس النتيجة (أي: لزيادة الاهتمام)، إنَّه يتظاهر بأنَّه لا يعرف أكثر مما يعرفه أي شاهد عارض لمشهد ما : على سبيل المثال، عندما التقى أماديس في النِّهاية مع جالاؤر في غابة تُسمَّى أنجادوثا (وهو اسمٌ يسهل على الشَّخص أنْ يتذكَّره، لكن يتم إعداد التَّسلسل المناسب للأحداث)، أمَّا الثَّاني فقد قُدِّم فقط على أنَّه " فارسٌ " بشكل يمكن أنْ يُشكك في هوية أيٍ منهما، لكن دون وسيلة لتأكيده إلا أنْ يناسب ذلك المؤلف. وأيًا كان النَّهج الأوَّل أو الثَّاني، فإنَّ صفحات أماديس دي جاولا دعوةٌ دائمة لحل ألغاز ولتمحيص المستقبل؛ ففي الجزء الأوَّل على وجه الخصوص، نجد الأحلام والتنَّبؤات لها دور بارزٌ لدرجة أنَّ أي متلقٍ للقصَّة يمكن أنْ يتحوَّل بفعل الخيال إلى عرَّافٍ أو ساحر؛ فقراءةٌ متأنيةٌ للقصَّة تمكِّن القارئ من حلِّ ألغازها وفكَّ شفرتها بطريقةٍ صحيحة. فالقارئ -أيًا كانت نتيجة تفسيراته- كان في حوزته التَّنبؤ بالمستقبل القصصي. فالكلمة كان لها مدلولٌ مستقبلي شبه سحري" (خ. م. كاتشو بليكوا). لكنَّ ذلك المدلول كان موجوداً علاوة على ذلك في الأشياء، وجعل منها مكونات أو عناصر حاسمة لتطور الحبكة والتَّرابط الكامل للرِّواية.

لقد ذكرت آنفًا بعضاً من العجائب الكثيرة الموجودة في قصَّة أماديس دي جاولا، مثل تاج ليسوارتي وعباءة زوجته، والسَّيف الغريب جداً الذي لم ير أبداً مثيلٌ له، والتَّسريحة ذات الزُّهور النَّضرة والجافة... لم يكن لأيٍّ منها في القصة مهمة زخرفية، لقد تمَّ وصفها بتؤدةٍ وتريثٍ وإتقانٍ لم يحظ به الأشخاص ولا الأماكن، وبالتَّالي فتلك

العجائب ليست إبداعات بسيطة للعبقرية والفانتازيا الزُّخرفية، بل إنَّها تشكِّل جزءًا من الحبكة القصصية، فخصائص وسمات التَّاج والعباءة واختفاؤهما أشياء توجه الحدث بشكل بارز، والسَّيف والتَّسْريحة يبرهنان بصورة حاسمة وقاطعة على فضائل أماديس وأوريانا بعد أن تمَّ الصلُّحُ بينهما في قلعة ميرافلوريس... فالعناصر العجيبة إذن، ليست فقط سببا للإعجاب والمتعة للقُرَّاء، بل هي عناصر بنائية في القصة، إنَّها بمثابة حجر الأساس للسُّلوكيات والمشاعر والأحاسيس، وليست أدوات قاصرة ذاتيًا وجامدة بل إنَّها متحرِّكةٌ وذات مغزىً.

ولعلَّ أبلغَ أمرٍ في هذا الصَّدد هو "قوس المحبِّين الأوفياء"، الذي قدَّم بصورةٍ رائعةٍ للغاية في بدايةِ الكتاب الثَّاني. لقد اجتازه أماديس منتصرًا كما كان متوقَّعًا، وبالضَّبط عندما علمت أوريانا بذلك أدركت أنَّ غيرتها لا أساس لها من الصِّحة، وأرسلت تبحث عن محبوبها الذي كان يُسمَّى جينذاك " بيلتينبروس "، وأنقذته من الموت في آخر لحظة. خاضت شخصيات أخرى اختبار قوس المحبِّين الأوفياء، الذي كان وسيلةً فعالةً للتَّميُّز (على سبيل المثال، بريولانخا، في نهاية الكتاب الثَّاني) وللسَّبب نفسه كان مخصَّصًا بشكلٍ حتميٍ لإبراز كمال أوريانا الفريد الذي لا مثيل له. لكن البطلة لم تجتزه حتَّى الصَّفحات الأخيرة من العمل، وفي تلك النُّقطة "تمَّ التَّخلص من أعمال السِّحر التي كانت في الجزيرة اليابسة ولم يبق منها شيءُ..." وقصة أماديس تعتبر منتهية. في الحقيقة إنَّ القصة كلها "قوس المحبِّين الأوفياء"، هي جو من العجائب قام بها أشخاصٌ وأشياءٌ وأحداث وقيم، إنَّها بحق كلٌّ لا يتجزَّأ "

أنباءٌ عن أماديس دى جاولا

إنَّ الكتاب الذى بين يدى القارئ هو - بلا أىِّ شكٍ - أحد أشهر الكتب، وأكثرها قراءةً فى الأدب الإسبانى كلهً، وذلك اعتباراً من اللحظة نفسها التى طبع فيها (أقدم طبعة -على مانعرف- ترجع لعام ١٥٠٨)، أمَّا الطَّبعات التَّالية واستمراريات وترجمات أماديس دى جاولا فقد تتابعت دون توقف خلال القرنين السَّادس عشر والسَّابع عشر. ولم يتم اعتبار العمل فقط أصل نوع أدبى جديد، كتب الفروسية[1]، بل أيضًا مارس تأثيراً كبيراً على الواقع الاجتماعى للعصر؛ فالقارئ المعاصر لا ينبغى أنْ ينسى أنَّه على الرَّغم من حملة التَّشهير التى تعرَّض لها هذا الجنس الأدبى عقب ماوُجِّه له من انتقاد، والذى كان فى الوقت نفسه تكريمًا، على الرغم من هذا الانتقاد، وذلك التشهير اللذين وجههما ثيربانتيس فى تحفته الرَّائعة دون كيخوته، فإنَّ كتاب أماديس دى جاولا قُرئ بشغفٍ من جانب جمهور غفيرٍ، وإن كان فى المقام الأوَّل جمهوراً أرستقراطيا : فمن بين القرَّاء نجد أباطرةً وملوكًا، مثل الإمبراطور كارلوس الخامس، وفرانثيسكو الأوَّل وحتى أشخاص راقين مثل سانتا تريسا دى خيسوس، وسان إيجناثيو دى لويولا أو خوان بالديس، وفيما بعد أصبحت القصة شعبيةً أيضًا بين الطبقات الوسطى فى المجتمع، وقد بلغت القصة ذروة شهرتها لدرجة أنَّ بعض الكلاب قد سمِّيت من جانب أصحابها باسم البطل.

---

(١) إنَّنا نتبنَّى التَّمييز اللفظى الذى اقترحه مارتين دى ريكير بين كتب الفروسية وقصص الفروسية. فكتب الفروسية تبرز بسبب طابعها الخيالى البعيد عن الواقع القريب ولأنَّ حبكتها تتم فى زمنٍ بعيدٍ وفى أراضٍ غريبة "، وأكبر ما يمثل تلك الكتب هو أماديس دى جاولا. وعلى العكس من ذلك، فإنَّ قصص الفروسية التى ينبغى أنْ نذكر منها TIRANT LOBLANC، التى كُتبت باللغة القطلانية، والتى تتناول المجتمع وعادات ذلك القــرن (القــرن الخامس عشر) بإخلاص كبيرٍ، فهى مزوَّدةٌ بكثير من الأمور والأحداث التى لا يمكن تصديقها، لكن أحداثها تتم فى زمنٍ قريبٍ وأرضٍ معروفة "

فالاستفهام عن أسباب النَّجاح الهائل للكتاب هو أيضًا -بطريقةٍ ما- البحث عن أصوله. وكأيٍّ عملٍ أدبي عظيمٍ، فقصَّة أماديس دى جاولا لم تظهر بشكل تلقائى، بل تستند إلى تراثٍ واسعٍ يتوغَّل تكونه فى غرس جذوره فى العصر الوسيط؛ فليس من المستبعد أن يكمن هنا سرُّ نجاحها خلال عصر النَّهضة؛ فالقصَّة تتناول بعض موضوعات وبعض تقاليد العصور الوسطى، التى ظلت شعبية للغاية، لكنَّها كانت قد نضُبت إبداعيًا، فجددتها أماديس دى جاولا بشكل جذرىٍ، وزودتها بطاقة جديدةٍ، وكيفتها، وطوعتها لروح وأذواق وجوِّ عصر النَّهضة.

ملخَّص الموضوع :

لكن من الملائم أنْ نتذكَّر - حتى لو كان ذلك على سبيل الإيجاز- موضوع قصَّة أماديس دى جاولا؛ تعرَّف بيريون ملك جاولا على إيليسينا كريمة الملك جارتينير عاهل بريطانيا الصُّغرى فى إحدى مغامراته. أحبَّها، وأثمر هذا الحب الخفى عن ميلاد أماديس، الذى ألقى به فى نهرٍ لإنقاذ شرف الأميرة وحياتها، لكنَّه أخذ من البحر بواسطة فارس من اسكتلندا، حيث ربَّاه كأنَّه ابنٌ له، وبعد سنوات عاد الملك بيريون لكى يتزوَّج إيليسيناو أنجبا ابنًا (جالاوْر) لكنَّ عملاقا قام باختطافه عندما أكمل السَّنة الثَّالثة من عمره. ألم اليأس إيليسيناو فاعترفت لبيريون بالحقيقة كاملةً.

فى تلك الأثناء كان أماديس يَشب ويترعرع، وبدأ يمارس التَّدريب على الأسلحة. تعرَّف فى بلاط اسكتلندا على أوريانا التى أحبَّها منذ الوهلة الأولى. وصل الملك بيريون إلى اسكتلندا لكى يطلب مساعدة من الملك ليسوارتى لأنَّ الأيرلنديين كانوا يهاجمون مملكته، كان أماديس يعرف الفضائل العظيمة لهذا الملك، وتمكَّن من أنْ يكون بيريون هو الذى يعلمه فنون الفروسية، ورحل على الفور لكى يقاتل فى جاولا. حُسمت الحرب هناك فى مبارزةٍ أو نزالٍ بين الملك أبييس عاهل أيرلندا وأماديس، الذى فاز فى النِّزال.

وهناك أيضًا -بفضل خاتم وسيفٍ كانا قد أُلقِيَ بهما معه في النَّهر- تعرَّف بيريون وإيليسينا على نجلهما، بعد ذلك بقليل، رحل أماديس إلى بلاط الملك ليسوارتي عاهل بريطانيا العظمى، ووالد أوريانا. وفي طريقه درَّب غلامًا لم يكن يعرفه على الفروسية، لكنَّه كان شقيقه جالاؤر، الذي كان متوجِّها لخوض أوَّل مغامرةٍ له. وصل أماديس إلى بلاط الملك ليسوارتي، وأصبح فارسًا للملكة وكريمتها أوريانا، لكنَّه خرج بحثًا عن شقيقه. وأثناء هذا الخروج التقي بأركالاوس السَّاحر، الذي بفضل فنون سحره الشريرة استطاع أنْ يفقده وعيه، لكنَّ أماديس استطاع الهروب، وأنقذ أسرى أركالاوس، وواصل البحث عن جالاؤر. تعرَّف حينئذٍ على الطفلة بريولانخا، ملكة سوبراديسا التي وعدها بالدُّخول في بطولةٍ. بعد ذلك حارب فارسًا آخر مجهولاً، وعندما كان كلاهما خائر القوى من جرَّاء القتال اكتشفا أنَّها كانت خدعةً كبيرةً وأنَّ أماديس كان يحارب شقيقه، وعاد معه إلى بلاط الملك ليسوارتي.

حينئذٍ قرَّر الملك ليسوارتي دعوة البلاط للاجتماع في لندن، فاستغلَّ أركالاوس هذه الظُّروف لكي يخونه. استطاع أن يجعل أماديس وجالاؤر يتركا المدينة، وفي تلك الأثناء، طلب من الملك ليسوارتي مطلبًا وهو على يقين من أن الملك لن يستطيع تلبيته. وبعد أنْ وقع ليسوارتي في الشَّرك قامت مجموعةٌ من الفرسان باختطاف الملك وأوريانا، بينما قام الآخرون بالاستيلاء على مدينة لندن. لكن سرعان ما عاد الشقيقان، فقام جالاؤر بوصفه فارسًا للملك بإنقاذه، على حين قام أماديس بإنقاذ أوريانا. حقَّق الفارسان مأربهما واستردَّا مدينة لندن.

بعد ذلك بقليل رحل أماديس وجالاؤر ونجل عمهما أجراخيس صوب المبارزة التي سيقومون بها باسم بريولانخا، لكنهم وجدوا فارسًا غامضًا في الطريق. تتبَّعه جالاؤر واكتشف أنَّه فلوريستان، ابنٌ آخر للملك بيريون دي جاولا. وفي تلك الأثناء دخل أماديس وأجراخيس القتال وأعادا عرش سوبراديسا إلى بريولانخا. لكنَّ أوريانا

اعتقدت أنَّ أماديس لم يعد يُحبُّها وقرَّرت التَّخلص من فارسها. وأثناء رحلة العودة، مرَّ أماديس وشقيقاه وأجراخيس بالجزيرة اليابسة، حيث استطاع أماديس وحده اجتياز اختبارات كونه أخلص وأوفى وأفضل فارسٍ في العالم؛ لذلك أصبح سيداً للمكان، أيَّ: الجزيرة اليابسة. حينئذ تلَّقى رسالة الكراهية التي أرسلتها أوريانا له، ودون أنْ يدري أحدٌ قرَّر مغادرة الجزيرة وتعريض نفسه للهلاك والفناء، وانتهى به الأمر إلى أنَّه رحل إلى جزيرة صغيرةٍ في رفقة ناسكٍ. بحث عنه رفاقه بلا جدْوى، وكذلك أوريانا التي ندمت على ما فعلت، وأرسلت فتاةً لتبحث عنه، وبعد مشقَّةٍ بالغةٍ وجدته واصطحبته مرَّةً أخرى إلى محبوبته، لكن أماديس أخفى هويته عن الفرسان الآخرين.

عندما اجتمع مرَّةً أخرى بأوريانا قرَّر كلاهما خضوع اختبارات تبرهن مَنْ مِن المحبين كان أكثر وفاءً وإخلاصًا للآخر في حياته، وبالطَّبع كان أماديس وأوريانا أوفى المحبين – كانا قد غطَّيا وجهيهما حتى لا يتعرَّفوا عليهما – وقد فازا في الاختبارات، وكان الملك ليسوارتي آنذاك في حربٍ مع الملك ثيلدادان، حيث كشف أماديس عن هويته أمام أصدقائه، وبعد المعركة كان ينبغي عليه أنْ يحارب أردان كانيليو حيث هزمه أماديس، لكن الملك استمع لمشورة ونصح أهل السُّوء، ودخل في عداوة مع أماديس، لذلك قرَّر الفارس ترك خدمته والرَّحيل عن البلاط الملكي مع بعض الفرسان من أصدقائه، وأصاب اليأس أوريانا إزاء هذا التَّهديد بالحرب بين حبيبها المتيَّم ووالدها، لكنَّ الذعر ألمَّ بها أكثر عندما علمت بأنَّها تنتظر ابنًا لأماديس. تمكَّنت من إخفاء حالتها، وأبعدت مولودها عن القصر، فأخذه النَّاسك ناسيانو. ذهب أماديس لكي يستريح في جاولا لكن أصدقاءه تحصَّنوا في جزيرة مونجاثا، حيث هاجمهم ليسوارتي، وجالاوْر وجيشهما، واستطاع الملك هزيمة المتمرِّدين، لكنه كان كريماً مع المهزومين واستجاب لمطالبهم. وبعد ذلك بقليلٍ، قام أماديس وبيريون وفلوريستان معًا بمحاربة الملك ليسوارتي، وكانوا متنكرين حتى لا يعرفهم أحدٌ، وبعد انتهاء المعركة عادوا مرَّةً أخرى إلى جاولا، وقرَّر أماديس الذهاب بحثًا عن مغامرات في أوروبا، وفي تلك الأثناء كبُر نجله إيسبلانديان إلى جانب النَّاسك ناسيانو، وكان يدهش الملوك أنفسهم بجماله.

طاف أماديس ألمانيا وبوهيميا ورومانيا، وتوجَّه بعد ذلك إلى جزر بحر إيجة حيث قاتل الجهنَّمي إيندرياجو وقضى عليه، وزار بلاط إمبراطور القسطنطينية، وبعد ذلك عاد إلى بريطانيا العظمى متخفيًا تحت اسم الفارس الإغريقي، وهناك وجد أنَّ زواج أوريانا بإمبراطور روما على وشك الحدوث، لكن دون موافقة أوريانا. أعدَّ الرُّومان أسطولاً للرِّحلة قام أماديس بمهاجمته، وأخذ أوريانا إلى الجزيرة اليابسة.

قرَّر أماديس وأصدقاؤه مواجهة الملك ليسوارتي للدِّفاع عن أوريانا، لذلك طلبوا مساعدة ملوك آخرين : بريولانخا، وملك بوهيميا، وبيريون دي جاولا، وإمبراطور القسطنطينية إلخ. أمَّا ليسوارتي، وحلفاؤه الرُّومان الذين أرسلوا جيشا قويًا إلى بريطانيا العظمى فقد اشتركوا معًا في عدَّة معارك، حيث استطاع النَّاسك ناسيانو والغلام إيسبلانديان وقفها. في تلك الأثناء تحالف أركالاوس، والملك أرابيجو، وأعداءٌ آخرون لأماديس وليسوارتي؛ لكي يغزوا بريطانيا العظمى منتهزين في ذلك الحرب الدَّائرة بين أماديس وليسوارتي، لكن الجميع، نعني أماديس ورجاله وليسوارتي وجيشه- اتحدوا ضدَّهم وهزموهم شرَّ هزيمةٍ. في النِّهَاية حَصُل كل منهم على جائزته : تزوَّج أماديس أوريانا، واعترف بابنه إيسبلانديان، وتزوَّج جالاور بيريولانخا، وتزوَّج إمبراطور روما من ملكة سردينيا... وقد أنهى الكتاب الرَّابع لقصَّة أماديس مغامرات أخرى، لكنها لا أهمية لها وكانت تهدف إلى إطاله أحداث الكتاب الخامس، إيسبلانديان للمؤلف جارثي رودريجيث دي مونتالبو.

أصول كتب الفروسية

ظهر في فرنسا في القرن الثَّاني عشر نوعٌ أدبيٌ جديدٌ يسمَّى ROMAN COURTOIS "القصة المهذَّبة"، وتتألَّف من حكايات قصصية تتناول أحداثًا واقعيةً تقريبًا، كانت موضوعاتها مرتبطة كثيرًا سواء بالتحمس للمعلومات والمعارف التَّاريخية الذي انتاب رجال ذلك العصر، أو لقلة الخجل عندما أقدموا على تشويهها وتحريفها ظلمًا وعدوانًا.

وإزاء ملاحم البطولة الأولية التي كانت تكتب بالشِّعر بصفة عامة، متجانسة القافية. في البداية كانت هذه الرِّوايات تقدِّم أبياتًا ثنائية يتكون كلٌّ منها من ثمانية مقاطع ذات قافية موحَّدة، وأسماء مؤلفيها –على عكس ما كان يحدث في قصص الملاحم أو البطولات– كان من المألوف أنْ تظهر في النَّص.

ومن ناحية أخرى، فإنَّ القصة المهذَّبة كانت رواية تُعدُّ إعدادًا جيدًا متكلِّفًا ومتقنًا للغاية، لم يكن جمهورها الأرستقراطية المحاربة الفظَّة، ولا النَّاس الأميُّون الذين كانوا يتجمَّعون في الميدان لكي يستمعوا إلى الرَّاوي أو المدَّاح، بل كان جمهورها أرستقراطية جديدة مهذَّبة راقية تعيش في القصور، وطبقة متوسطة في رقي مستمر، وكانتا تطالبان بمنتجات تتوافق وتناسب أذوقهما ومستواهما الثَّقافي المتزايد دائمًا. كما أنَّ طريقة النَّشر اختلفت تمامًا : كانت حكايات البطولات والملاحم القديمة تكتب لكي تُنشدَ، أمَّا الحكايات الجديدة فكانت تُكتب لكي تقرأ عادةً بصوت عالٍ أمام العديد من المستمعين في كتب أعدت بإتقان، وكانت جميلة الشَّكل والمظهر. وكانت الموضوعات التي تتناولها هذه الأعمال يمكن تصنيفها في ثلاثة أنواع : الحروب الصَّليبية، والموضوعات القديمة، وموضوعات بريطانيا. وكانت نصوص النَّوع الأوَّل تشير إلى أحداث أخذت من روايات كثيراً ما كانت غير محتملة التصديق كانت قادمة من الأراضي المقدسة (فلسطين). أمَّا الموضوعات الكلاسيكية القديمة التي تعلَّموها من الاطلاع على أعمال المؤلفين اللاتينيين فقد كانت تُزين وتزوَّد بكثير من العناصر العجائبية، والتي أعيدت صياغتها قصصيا بطريقة مبالغ فيها للغاية. وكانت روايات هذا النَّوع أيضًا تهدف إلى تهيئة وإعداد هذه الموضوعات كي تناسب العقلية في العصور الوسطى. ومن بينها تبرز ثلاثة أعمال كُتبت فيما بين ١١٥٠و١١٦٠ : قصة ROMA DE ENÉAS وقصة ROMAN DE TBEBS LUCANO وهي ترجمات مجهولة LA ESTOIRE DE TROIE و VIRGILIO و LA ENEIDA DE و LA FARSALIA DE الكاتب BENOÎT DE SAINTE MORE التي كانت تستند إلى عملين متأخرين عن أسطورة طروادة. وقد نالت قصة بطولات الإسكندر الأكبر قبولاً عظيما بين قرَّاء ذلك العصر.

أمَّا موضوعات بريطانيا فإنَّها تستحق الدراسة على حدة؛ حيث إنَّ معظم العناصر الأساسية لما سيسمى فيما بعد بكتب الفروسية مشتق منها، نجد هنا العالم الخرافى نفسه فى رواياتنا، نجد فرسانًا شاردين محبِّين ولهانين -فى وقتٍ حسيٍ ومثالي- بلسيدات يقومون من أجلهنَّ بمغامراتٍ خطيرة جداً، فى بيئة غامضةٍ ومملوءة بالقوى الشِّريرة التى تعارض طموحات البطل ورغبات. ومع ذلك، فإنَّ أصل هذه الرِّوايات ينأى كثيراً عن أنْ يكون واضحًا جليا. فعلى الرَّغم من أنَّ أسطورة الملك أرتورو القائد البريطانى القديم الذى حارب فى القرن الخامس ضدَّ الغزاة الأنجلوساكسونيس، وترك عقب موته أثرًا أسطوريا، وفرسان LA TABLA REDONDA (اللوح المستدير) ظهرت استناداً إلى بعض الأساطير تناقلتها الأجيال عبر العرف الشَّفوى الغامض، تلك الأساطير التى من الممكن أنْ يكون أصلها يرجع إلى القرون الخامس والسَّادس والسَّابع من تاريخنا الميلادى، على الرغم من ذلك فإنَّ ما هو أكيد هو أنَّ مسيرتها الأدبية بدأت فى القرن الثَّانى عشر مع تاريخ ملوك بريطانيا للمؤلف جودفريدو مونماوث؛ فرجل الدِّين البريطانى هذا شوَّه وحرَّف تاريخ وطنه من النَّاحية القصصية - وإنْ كان معاصروه اعتبروا الرِّواية حقيقة - ووسَّع موضوعات لمؤلفين سابقين مثل GILDAS Y BEDA؛ ففى عام ١١٥٥ كتب WACE قصة بروتو - وهى ترجمة فرنسية لكتاب مونماوث - لكن بظهور CHRÉTIEN DE TROYES (1135 - 1190) ظهرت هذه الموضوعات بصفة نهائية، وحقَّقت انتشاراً حقيقيًا؛ فهذا القصَّاص الكبير قام بنشاطه الأدبى فى بلاط ماريا دى شاميان، وكتب فى الأنماط الثلاثة التى أشرنا إليها آنفًا؛ وقد زوَّدها بترابط فنيٍ جديدٍ فى مجموعة القصص التى نحتفظ بها: إيريك، وكليجيس، ولانسيلون أو فارس العربة، وإيفان أو فارس الأسد، وقمة أعماله - التى يكملها المؤلف نظراً لوفاته - بيرثيفال أو قصة جرال التى كُتبت فى الفترة مابين ١١٨٠ و١١٩٠. كما أسهمت فى نشر واثراء موضوعات بريطانيا أعمال الكاتبة ماريا الفرنسية، وهى عبارة عن قصصٍ قصيرةٍ ذات طابعٍ عرضيٍ، وكانت أحيانًا تتناول نادرة أو حكاية طريفة هائلة سُردت فى أبيات شعرٍ قليلة.

فـفي القـرن الثَّالث عشر ظهرت هذه الرِّوايات مجمَّعةً في مجلَّد كبيرٍ في قالب نثرى : لانثاروتى - جريال التى أُطلق على شكلها العام VULGATA، وتتكَّون من خمسة أجزاء، وقصة جريال، وميرلين وتكملتها، ولانثاروتى في ثلاثة أجزاء، ومطلب جريال وموت أرتوس.

من قصة لانثاروتى - جريال هذه، وعلى وجه التَّحديد من كتبها الثَّلاثة الأخيرة، فإنَّ قصة لانثاروتى النَّثرية أخذت نموذجها من كتاب أماديس دى جاولا، ليس فقط لمغامراته -كما سنرى- بل بسبب شكله. إنَّ قصَّة أماديس لا تشبه قصص ماريا الفرنسية، على سبيل المثال، إنَّ تلك القصص كانت تحكى حكاية قصيرةً، بلا مقدِّمات، وأحيانًا لم يكن لها بداية ولا نهاية، بل كانت عبارة عن مشهدٍ بسيطٍ في البلاط الملكي، وليست أيضًا المغامرة الوحيدة تقريبًا لفارسٍ مثل قصص CHRéTIEN de TROYES، بل هى مغامرةٌ أكثر طولاً وتعقيداً. إنَّ قصة لانثاروتى - شأنها شأن أماديس دى جاولا- كُتبت نثرًا، وهى مثلها تمامًا؛ لأنَّها تسرد قصة طويلة يشترك فيها عددٌ لا حصر له من الشَّخصيات مهمينة أو غير مهيمنة، تتوالى المبارزات والمعارك الفريدة وعمليات الاختطاف فضلاً عن المعارك بين جيشين في قصة تحدث فيها عدَّة مغامرات في آنٍ واحدٍ، إنَّها رواية طموحةٌ تدور أحداثها في معظم أنحاء العالم المعروف آنذاك (من أيرلندا إلى تركيا، ومن بلاد العرب إلى النرويج) وعلى مدى سنوات طويلة؛ فقصة لانثاروتى النَّثرية على سبيل المثال تُحكى منذ ميلاد البطل إلى وفاته وهو عجوزٌ، وفى مخطوط فقط نُسخ في أوائل القرن السَّادس عشر من مخطوط ١٤١٤، تمَّ الاحتفاظ به؛ في أجزاء التَّرجمة الإسبانية لقصة لانثاروتى هذه، كشهادة وحيدةٍ في شبهه الجزيرة الأيبيرية للقصص الشعبية للملك أرتورو.

وأهم إعادة نسخ أو كتابة شهدتها هذه المجموعة القصصية الشَّعبية هى تلك التى نُسبت إلى الاسم المستعار ROBERTO DE BORTON - وهى ذات قيمة أدبية أقل بكثير من القصص الشَّعبية ذاتها - التى خفضت المجموعة إلى ثلاثة أجزاء متشابهة في حجمها وطولها، وحذفت منها قصة لانثاروتى، وحوَّلت وفاة الملك أرتوس إلى حكاية

مـخـتـصـرة جـدا، وأدرجت قـصـة DEMANDA. هذا هـو الشّكل الذى وصلت عليـه موضوعات الملك أرتوس إلى إسبانيا. وعلى الرّغم من أنّه لم يتم الاحتفاظ بها كاملةً، فإنّنا نستطيع إعادة بناء المجموعة الإسبانية الأولية فى ثلاثة أجزاء، ومن المحتمل أنْ يكون الرّاهب خوان بيباس هو الذى ترجمها عام ١٣١٣. وكان اسم المجموعة ، HISTORIA DE LA DEMANDA DEL SANTO GRIAL، أمّا أسماء أجزاء الكتاب: JOSEP ABARIMATIA، وقصة MERLÍN (أو صرخة العالم ميرلين)، وDEMANDA DEL SANTO GRIAL

وفيما يتعلّق بموضوعات بريطانيا فقد تمّ تجميع مجموعة أخرى عظيمة من قصص العصر الوسيط : مجموعة تريستان، وقصة الغراميات التّعيسة لتريستان وإيسيو التى تُذكر اليوم بالشّكل الإيطالى Isolda وتُشكل أحد الدّوافع والأسباب الرّئيسية للإلهام بالنّسبة لأدب الفروسية. لقد طافت هذه الأسطورة فى أوروبا منذ منتصف القرن الثّانى عشر، وإنْ كنا نجهل كنه وحقيقة ترجمتها الأولية، فالنّصوص الأولى التى تحتفظ بها من هذه المجموعة عبارة عن قصيدة كتبها الرّاوى أو المدّاح BEROUL عام ١١٨٠، وأخرى للمواطن الإنجليزى النورماندى THOMAS عام ١١٧٠، وهو شاعرٌ أكثر ثقافةً ولكنه أقل إلهاما شعريا مقارنة بسابقه BEROUL. واعتباراً من منتصف القرن الثّالث عشر فإنّ الأسطورة أو القصة – التى كتبت بلا شك بتعاون شعراء مختلفين زودوها بعناصر متعددة – كتبت نثراً وترجمت إلى جميع اللغات الرّومانسية تقريبًا. وعرفت فى إسبانيا ترجمتان نثريتان مصدرهما قصة فرنسية كانت قد كُتبت ما بين ١٢١٥، و١٢٣٠. ومن إحدى هاتين الترجمتين نحتفظ فقط بمخطوط كُتب بالجليقية (البرتغالية)، أمّا الأخرى فهى أرقى أدبيًا من الأولى، كما أن هناك عدة مخطوطات مجزّأة : منها مخطوطةٌ باللغة القطلانية، وأخريات بالإسبانية، أحدها بالقشتالية الأراجونية وطبعة كاملة لـ "TRISTÁN DE LEOULS" الذى طبع عدّة مرّات فى القرن السّادس عشر.

كما وجدت أيضًا قصص الحروب الصّليبية لها صدى فى إسبانيا مثل LA GRAN CONQUISTA DE ULTRAMAR (الفتح العظيم لما وراء البحار) فى أواخر القرن

الثَّالث عشر، وهو عمل يتكوَّن من أكثر من ١١٠٠ فصلٍ وزعت على أربعة كتبٍ، وجوهر موضوعه الرئيسي عبارة عن قصة الحروب الصلَّيبية التي خاضها GUILLERMO DE TIRO، وهو ترجمة لـ LIVRE D ERACLES (كتاب هرقل) الذى كان يطلق عليه أيضًا اسم ESTOIRE D' OULTRE MER أو LIVRE DE CONQUEST (أو قصة ما وراء البحار) وتكملته المؤرِّخة في ١٢٩٥. إلى سرد قصص فتوحات أنطاكية والقدس - التى تستند إلى أغانٍ فرنسية مفقودة - يضاف إليها أعمال نثرية لأنشودة البطولات والملاحم، وقصص أخرى مثل قصة فارس العنزة، وحفيدة جودوفريدو دى بويلون التى تعطى للرِّواية مزيداً من الأهمية القصصية أكثر من الحشو الزُّخرفي. وتتناول عدة أعمال إسبانية أيضًا موضوعات من الأدب القديم. ولم تظهر قبل ١٢٧٠ ترجمة مجزَّأة شعراً ونثرًا ROMAN DE TROIE (قصة طروادة) التى ترجمت فيما بعد كاملةً بناء على طلب ألفونسو العاشر الحكيم، كما أن قصَّة BENIT DE SAINTE MORأألهمت قصة HISTORIA DESTRUCTIONIONIS TROIE (دمار طروادة) للمؤلف جيدو دى كولومنيس، وقد تُرجمت معظمهما فى SUMAS DE HISTORIA TROYANA (مقتضبات تاريخ طروادة) الكاتب ليومارت، وهو عملٌ لقى رواجًا وانتشاراً كبيراً من خلال تلخيص له في نهاية القرن الخامس عشر LA CRóNICA TROYANA (أخبار طروادة).

يمكن اعتبار أنَّ أوَّل كتاب إسبانى فى الفروسية هو EL CABALLERO CÍFAR فى مطلع القرن الرَّابع عشر، وهو عمل من تأليف رئيسة الشَّماسين مدريد فيَّران مارتينيث. بالإضافة إلى أنَّهاأخذت عن موضوعات بريطانيا، وتلتقى فى هذا العمل عناصر متعددة يمكن أن تُشرح فى قشتالة فى أوائل القرن الرَّابع عشر : موضوعات بطولات الملاحم الفرنسية، والأساطير المسيحية وبدرجة أقل أهمية روايات وحكايات مصدرها الآداب الشَّرقية، هذا فضلاً عن كمية كبيرة من الاستطرادات ذات الطَّابع الأخلاقى والسِّياسى تتناسب مع معيارٍ تعليمى مشبع بالرُّوح الدِّينية. إنَّ عدم التجانس هذا للعناصر التى تتكون منها تلك الأعمال، إلى جانب تنوع المصادر بدءًا من الأمثال والحكم العربية، إلى الأعمال التى تتناول سير القديسين، مما يضفى على العمل ملامح

فريدةً، وفى الوقت نفسه فإن مقصدها التربوى الواضح (لذلك فإن CIFAR يجمع بين الفارس والتقديس) وواقعيتها المبتذله الرَّكيكة تبعدها عن أعمال البيئة البريطانية.

وعلى الرَّغم من الكتـاب السَّابق (يعنى: EL CABALLERO CÍFAR)، فـإنَّه مع صدور كتاب أماديس دى جاولا بدأت كتب الفروسية تكتسب مكانتها كنمط قصصى. لقد وضع كتـاب أمـاديس دى جـاولا أسس هذا النَّمط فى الوقت الذى بدأت قـصـة الفروسية تتدهور فى أوروبا، وقد أمدَّ كتاب أماديس هذا النَّوع بمغزىً جديد وحيويةٍ عندما أعاد من جديد – بكفاءة فنيةٍ كبيرةٍ – موضوعاتٍ وقصصًا كانت قد سكنت خيال أوروبا الغربية طوال قرونٍ. ويمكن اعتبـار قصتنا – بإنصاف – الثَّمرة النَّاضجة لأدب الفروسية فى إسبانيا، لأنَّها لا تُجمِّع وتُقلد فقط كمية ضخمة من الدَّوافع لهذا التُّراث – كان رجال ذلك العصر يجهلون الفكرة الحديثة للأصالة، وكانوا يبحثون فى الأدب عن قليل من مفاجأة الجديد أكثر من بحثهم عن التأكيد على التَّرقب – بل لأنَّ الحبكة الأساسية للكتاب –كما لاحظ BOHIGAS BALAGUER– على الرَّغم من أنَّها خضعت لتغيراتٍ كثيرة من جانب ناسخيه المتعددين، فإنَّها تتفق فى ملامح كبيرة أو فى معظمها مع قصة لانثاروتى. ففى كلتيهما نجد شابًا مجهولاً، من سلالة ملكية، أخذ فى بلاط ملك حيث قام بخدمته بإخلاص وولاءٍ. أحبَّ أماديس كريمة العاهل، أمَّا لانثاروتى فقد أحبَّ زوجة الملك. وهناك حدثان مهمَّان يشيران إلى هذه العلاقات الغرامية : ففى الكتاب الأول قام الفارس بإنقاذ سيدته من خاطفها، وفى التَّالى، نجد أنَّ السَّيدة ثارت غيرتها بسبب تقرير مزيَّفٍ، فرفضت الفارس الذى كان على وشك أنْ يفقد عقله، واعتزل النَّاس لكى يعيش بمفرده. وفى كلتا القصتين يظهر البطل محاطًا بمجموعةٍ من الفرسان الذين يشاركونه مغامراته، وفيها أيضًا نجد سحرةً شريرين، وسحرة يخدمون البطلين، كما أنَّ الرُّومان هزموا فى نهاية العملين.

أماديس قبل مونتالبو

ظهـرت أوَّلُ طبـعـةٍ لأمـاديس دى جـاولا فى سـرقـسطة (١٥٠٨) منسـوبةً إلى المؤلف–النَّاسخ جارثى رودريجيث دى مونتالبو، الذى سُمِّى بطريق الخطأ جارثى أودوثيث

في الطَّبعات التي تلت هذه الطَّبعة (وجارثي جوتيريث في استكمال القصة)، ونحن نعرف قليلاً من المعلومات عن هذه الشخصية. نعرف أنَّه من المحتمل أنْ يكون قد وُلدَ في زمن السَّيد خوان الثَّاني وفي ١٤٩٢ عام استرداد غرناطة كان عمره يناهز خمسين عاماً، كان من أهالي MEDINA DEL CAMPO، وعضوا بمجلسها البلدي، ومنذ شبابه كرَّس نفسه لحمل السِّلاح. ومن المحتمل أنْ يكون قد عمل لسنوات طويلة في نسخ وتكملة أماديس؛ لأنَّ عمره كان متقدِّمًا عندما كتب كتاب إيسبلانديان، العمل الذي أتمَّه بعد عام ١٤٩٢، وقد عُلِمَ أنَّ مونتالبو تُوفي ١٥٠٥.

ومع ذلك فإنَّ أماديس دي جاولا كقصة تمَّ تداولها في القرن الرَّابع عشر. ونحتفظ بالعديد من الوثائق التي تثبت هذا الحدث. فأوَّل إشارةٍ أكيدةٍ يمكن أنْ تستنتج نجدها تظهر في الكتاب الثَّالث (AL REGIMIENTO (LA GLOSA CASTELLNA de PRINCIPES الشَّرح الإسباني لسلاح الأمراء لإخيديو رومانو الذي ألَّفه الرَّاهب خوان جارثيا كاستروخيريث في عام ١٣٥٠ أو قبل ذلك بقليل، حيث ظهر أماديس إلى جانب تريستان والفارس ثيفار. كما ثبت أيضاً أنَّه في عام ١٣٧٢ قام الأمير السَّيد خوان دي أراجون دوق جيرونا، الذي كان لديه عدَّة كلابٍ بإطلاق أسماء شخصيات أدبية عليها ومن بينهم كلب أبيضُ اسمه أماديس. وفي كتاب EL RIMADO DE PALACIO للمستشار (PERO LÓPEZ DE AYALA (1332-1407 – ومن المحتمل أنْ يكون قد ألَّف بعد عام ١٣٧٨ بقليل– ونقرأ فيه :

ساءني أنْ أسمع ترَّهاتٍ كثيرةً

كتب هرامات، ذات أكاذيب أكيدة،

أماديس ولانثاروتي وسخريات متكررةٍ

أضعت فيها وقتي في أيامٍ تعيسةٍ جدا

على الرَّغم من أنَّه لا شيء يسمح بالتَّحقق من ذلك، فإن هناك احتمالٌ من الشكوى المريرة للمستشار تأخذنا إلى شبابه، ممَّا يجعل قراءته لأماديس فيما بين ١٣٤٠

و . ١٣٥٠ وفي مؤلَّف أهدى إلى لوبيث دى أيالا، نجد أنَّ الشَّاعر PERO FERRUS، بعد أنْ ذكر اسم الملك أرتورو، ولانثاروتي وتريستان وأبطالاً آخرين مشهورين، كتب فى أواخر القرن الرَّابع عشر :

أماديس الجميل جدا،

فالأمطار والعواصف الثَّلجية

لم يجدها صعبةً

لكونه مخلصًا وجميلاً.

ستجدون بطولاته

فى ثلاثة كتْبٍ وستقولون :

فليمنحه الله راحة خالدةً

تمَّ تقفِّى إشارات أخرى لكتابنا طوال القرن الخامس عشر : فشعراء مثل

MICER FRANCISCO IMPERIAL ،ALFONSO ALVAREZ DE VILLASANDINO

أو UAN ALFONSO DE BAENA من بين آخرين ذكروا بطل العمل فى مؤلفاتهم. هكذا إذنْ من المؤكد أنَّه اعتباراً من منتصف القرن الرَّابع عشر تمَّ تداول أماديس الذى كان يتكوَّن من ثلاثة كتبٍ، وكان مقروءاً

وقبل أنْ نفحص هذا الشَّكل التَّخميني لكتاب أماديس الأوَّلى ذلك، ينبغى أنْ نضع فى الاعتبار مشكلةً مسبقةً، وهى فى أىِّ لغة كُتبت الرِّواية الأولى إلى جانب اللغة القشتالية، فهناك لغتان يتنازعان أو يتنافسان على هذا الشَّرف، وهما الفرنسية والبرتغالية. إنَّ الأصل الفرنسى للكتاب هو الأكثر ضعفاً، ولا يحظى اليوم بمدافعين عنه، وبدءاً من تأكيد لنيقولاس إيربيراى ديس إيسارتس، مترجم العمل إلى اللغة الفرنسية استجابة لأمر فرانثيسكو الأوَّل. أكَّد إيربيراى أنَّه وُجِدَ نصٌ للقصة باللغة البيكاردية (نسبة إلى إقليم بيركارديا فى فرنسا : المترجم) وكان هذا هو أصل ونموذج النَّص الإسبانى، ولا يوجد أىُّ دليلٍ جديرٍ بالاعتبار قدِّم لصالح هذا التَّخمين.

أما مسألة الأصل البرتغالي الممكن فهي أكثر تعقيداً. ففي LA CRÓNICA DEL CONDE DON PEDRO DE MENSES الذي كُتب فيما بين ١٤٥٨ و ١٤٦٣ بواسطة جوميس إينانيس دي أثورارا، يُقرأ أنَّ " كتاب أماديس أُلف استجابة لطلب رجلٍ، كان يدعى باسكو دي لوبيرا في عهد الملك السَّيد فرناندو، وكانت كلُّ احداث الكتاب المذكور من خيال المؤلف ". إنَّ هذا التَّأكيد القاطع كان نقطة ارتكاز مهمة للذين يدافعون عن الأصل البرتغالي، ومع ذلك، فإنَّ مؤلف الأحداث التَّاريخية (المؤرِّخ) لم يحدد اللغة التي كُتب بها النَّص وحذف اسم المؤلف الذي نسخ العمل تلبيةً لطلب باسكودي لوبيرا. يبدو أنَّ أثورارا يشير إلى أنَّه إمَّا أن يكون قد عرف نسخة من القصة التي أهديت إلى باسكو دي لوبيرا، أو أنَّه رأى مخطوط الكتاب الذي كان ملكًا لذلك الرَّجل وكان عليه اسمه. نعم يمكن مما سبق -وعلى العكس من ذلك- استنتاج التأكيد أنَّه في عهد الملك السَّيد فرناندو البرتغالي (١٣٦٧ - ١٣٨٣) كانت توجد نسخة من كتاب أماديس، وهو ما ينطبق بالتأكيد على الذي ذكره جارثيا دي كاستروخيريث. فمن ناحية، ثبت أنَّ باسكو دي لوبيرا تعلَّم الفروسية على يد السَّيد خوان الأوَّل في يوم معركة ALJUBARROTA عام ٣٨٥ -حيث أُسِرَ لوبيث دي أيالا- لذلك، وطبقًا لعادات ذلك العصر، ينبغي أنْ يكون عمره في ذلك الحين يناهز العشرين عامًا، ونتيجة لذلك، فإنَّه من الصَّعب جدًا أنْ يكون قد أَلَّفَ كتابًا يمكن أنْ يكون قد قرأه في شبابه فيما بين ١٣٤٠ و ١٣٥٠. فالمستشار أيالا، كما رأينا كانت تقرأ مؤلفاته باللغة القشتالية منذ سنوات طويلة.

ويضافُ إلى إسهام إينانيس دي أثورارا حدثٌ آخر: حيث ظهر في القصَّة جزءٌ يبدأ بـ"ليونوريتا، هي في النِّهاية وردة " وهي إعادة كتابة لقصة أخرى في أواخر القرن الثَّالث عشر -على وجه التَّقريب- للشاعر الغنائي جواو بيريس دي لوبيرا. وعلى الرَّغم من أنَّ إدراج القصيدة- وهي بلا شك عبارة عن أغنية تقليدية كان من المفروض أنْ يعرفها النَّاس أجمعون- فإنَّها ليست مبررًا كافيًا لكي تنسب تأليف القصَّة لهذا المؤلف، فتوافق الأسماء وكون الشَّاعر الغنائي أحد رعايا أمير وهو السَّيد ألفونسو

شقيق الملك ديونيس البرتغالى، الذى عُرِف خطأً بأنَّه الأمير الذى - كما سنرى على الفور - اقترح تغيير مشهدٍ معيَّنٍ من العمل، مما أدَّى ببعض الدَّارسين إلى الاقتناع بذلك. كما استنتج أيضًا، لكى نبرهن على أفضلية قصَّة أماديس البرتغالية الأوَّلية، فإنَّ مشهدًا شهيرًا بالقصَّة يؤكدّ أنَّ الأمير السَّيد ألفونسو البرتغالى الذى عُرِف -فيما بعد بأنَّه السَّيد ألفونسو الرَّابع، المولود في ١٢٩٠، وتُوِّج ملكًا منذ ١٣٢٥ حتى ١٣٥٧ أمر - شفقةً منه على الفتاة بريولانخا- بتغيير النَّص بشكلٍ جعل أماديس يُلبى العواطف الغرامية الجيَّاشة لبريولانخا، ومع ذلك، فلايبدو أنَّ المؤلِّف الأصلى قبلَ تغييرًا مثل هذا الذى يلغى المضمون الجوهرى للعمل؛ فأماديس هو النَّموذج لهؤلاء المحبِّين الأوفياء والقصَّة تُفسِّرُ ذلك طالما أنُّه مستمرٌ على وفائه وإخلاصه لأوريانا، ولكن من الأنسب التَّفكير فى أنَّ تغيير الأمير تمَّ فى نسخٍ للعمل فى مطلع القرن الرَّابع عشر، من المحتمل أنْ يكون التَّغيير هو نفسه الذى أشار إليه أثورارا. كما لا توجد معلوماتٌ لغويةٌ تعضد هذا الافتراض البرتغالى للغياب المطلق للمصطلحات والألفاظ البرتغالية فى النَّص؛ لذلك فعلى الرَّغم من أنَّ العرف السَّائد يؤكد وجود مخطوطات برتغالية أوَّلية (بدأها ميجيل ليتى فيرِّيرا، الذى أكَّد فى ١٥٩٨ أنَّ أصل أماديس) من المفترض أنْ يكون برتغاليًّا (كان موجودًا فى منزل أبيرو)، فمنً المؤكَّد أنَّ كل هذه التَّخمينات بشأن أصل برتغالى محتمل ما هى إلاَّ افتراضات محضة لم يتم إثباتها أو البرهنة عليها.

والآن إذن كيف كان الكتاب الأوَّلى لأماديس ؟ ليس من المستحيل أن تكون النُّسخة الأوَّلية من العمل مكوَّنَة من كتابين، وقد وصلا حتى حدوث الخلافات بين أماديس والملك ليسوارتى، ومع ذلك فقد رأينا أنَّ الوثائق الأولى التى تمَّ الاحتفاظ بها تتحدَّث عن أماديس الذى يتكون من ثلاثة كتب : " ستجدون بطولاته فى ثلاثة كتب"، كما يقول بيرو فيروٍّس. وفى مقال رائع عام ١٩٥٣ افترضت ماريا روساليدا دى مالكييل أنَّ فى كتاب أماديس الأوَّلى لقى البطل مصرعه على أيدى نجله إيسبلانديان فى نزالٍ حكى فى يومنا هذا فى تكملة الكتاب التى تحمل العنوان التَّالى : " مغامرات إيسبلانديان "، وبعد معرفة ذلك انتحرت أوريانا حيث ألقت بنفسها من نافذةٍ فى

عام ١٩٥٦ تمَّ تأكيد هذا الافتراض بصورة جليَّةٍ واضحةٍ بصدور أربعة أجزاء مخطوطة من كتاب أماديس يرجع تاريخها إلى ١٤٢٠؛ فدراسة هذه الأجزاء أثبتت أيضًا -على عكس ما كان يعتقده دارسون بدءًا من مينينديث إى بيلايو- أنَّ مونتالبو لم يوسِّع النَّص، بل من المحتمل أنْ يكون قد اختصره في الجزء الثَّالث، على الأقَلّ الكتاب الثَّالث؛ حيث أنَّ مادته كوَّنت الكتابين الثَّالث والرَّابع، وبدرجة كبيرة مغامرات إيسبلانديان، ومن ناحية أخرى، ثبت أنَّ إيسبلانديان والنَّاسك ناسيانو شخصيتان نسبهما النَّقد إلى جارثى رودريجيث مونتالبو نظرًا الطبيعته الدِّينية والأخلاقية، وهما شخصيتان كانتا قد ظهرتا في الكتاب الثَّالث الأوَّلي. وعلاوة على ذلك فإنَّ دراسة لغويةً أفصحت عن غيبة الألفاظ البرتغالية في النَّص، على الرَّغم من أنَّه ظهرت فيه ملامح طفيفة للنَّكهة الغربية (يعني البرتغالية).

أماديس مونتالبو

في مقدِّمة الكتاب يؤكِّد مونتالبو أنَّه أتمَّ عمله " بتصحيح هذه الكتب الثلاثة لقصة أماديس، والتي نظرًا لتقصير الكتاب غير المجيدين أو النَّاسخين الفاسدين والمعيبين كانت تُقرأ، وقد نقل وصحح الكتاب الرَّابع مع مغامرات إيسبلانديان نجل أماديس الذي لم يتذكَّر أحدٌ هنا أنَّه رآه، ولحسن الحظ ظهر الكتاب في مقبرةٍ حجريةٍ تحت الأرض في صومعة ناسكٍ، بالقرب من القسطنطينية، عثر عليه تاجر مجرى وأحضره إلى إسبانيا....."

اتَّبع مونتالبو عرفا أدبيا قديما يرجع إلى القصص الفرنسية في القرن الثَّاني عشر؛ حيث كذب عندما أكَّد أنَّه ترجم الكتاب الرَّابع من أصل خيالي وتكملته، اللذين عثر عليهما في مقبرةٍ بعيدةٍ جدا. لكنَّه لم يكذب - على العكس - عندما أكَّد أنَّه صحح الكتب الثلاثة التي كان يتمُّ تداولها لأماديس في نسخٍ معيبة كتبت بخط اليد. ويؤكِّد مونتالبو نفسه في المقدمة وجود عدَّة نسخٍ سابقةٍ على نسخته عندما أكَّد أنَّه نسخ العمل وصححه" اعتمادًا على الأصول القديمة التي كانت معيبةً ومكتوبةً بأسلوب قديمٍ

نظرًا لتقصير وإهمال العديد من النَّاسخين أو الكتَّاب غير المجيدين ". وعلى الأقلّ فإننا نجده ذات مرّةٍ -في مشهد بريولانخا المذكور- يعارض عدة روايات للحدث نفسه. وعلاوةً على ذلك، فإنَّنا لا نعرف كم أصلاً كان في حوزة مونتالبو وقت نسخه للعمل. إنَّ ما عرفناه - على العكس - هو أنَّ النَّاسخ الذي ينتمي إلى MEDINA DEL CAMPO لم يغير فقط ترتيب المادة التي كان يتكوَّن منها الكتاب الثَّالث، بل أيضًا وصل به الأمر إلى أنَّه غيرَّ نهاية القصَّة، بلا شكٍ لأنَّها لم تلائم مقصده لكتابة التَّكملة. لذلك، وبسبب النَّهج الوراثي للعمل - الذي تمَّ توسيعه بشكلٍ كبيرٍ في كتابات متتالية - يصعب تحديد مدى تدخل مونتالبو، والطريقة التي تمَّ بها هذا التَّدخل.

فأيُّ قارئٍ يستطيع أنْ يدرك الخلافات العميقة التي تفصل بين الكتابين الأوَّلين والأخيرين : خلافات في الشَّخصيات في الأيديولوجية (في الفكر)، ومسارح الأحداث نفسها، وفي الأسلوب، وفي اللغة، وحتى في الاهتمام بالحبكة. هكذا نجد أنَّ أوجاندا لاديسكونوثيدا امرأةٌ عاشقةٌ ومتيمةٌ بالحُبِّ، ومثيرةٌ للمشاكل، كانت في حاجةٍ لمساعدة الأبطال ,بينما نجدها في الجزء الثَّاني ساحرةً قادرةً على كلِّ شيءٍ، تستطيع التَّنبوء بالأحداث الرَّئيسية في القصَّة، فإنَّ تدخلها أصبح بعد ذلك أكثر عشوائيةً كلما تقدَّمت أحداث الرِّواية. كما أنَّ أماديس تغيرَّ أيضًا؛ فبعد فترة من الخمول أو الكسل في جاولا، أصبح شخصيةً بالبلاط الملكي، ملمًا بالعديد من اللغات، ومحاورًا ممتازًا بالنِّسبة للموضوعات الغرامية وهناك شخصياتٌ أخرى أدخلت عناصر فكريةٍ جديدة؛ فإيسبلانديان يمثِّل نمطًا جديدًا لبطلٍ مثالي بسلوكٍ وأهدافٍ حيويةٍ مختلفةٍ، إذا لم تكن معارضة لسلوك وأهداف والده، فالنَّاسك ناسيانو هو الذي أخذ إيسبلانديان وربَّاه، وهو يجسِّد في العمل روح الاستقامة الكنسية، الأمر الذي لم يُسمع عنه في الكتابين الأوَّلين، ولا حتى في تراث أعمال الفروسية، اللَّهم إلاَّ في استثناءات معدودة؛ ففي الكتابين الأوَّلين -بالإضافة إلى ذلك- نجد أنَّ أسماء الشَّخصيات تأتي فقط من أدب الملك أرتورو، بينما في الكتابين الأخيرين نجد أنَّهما أفسحا المجال أمام تكوينٍ غريبٍ (على سبيل المثال براندسيديل)، و (سالوستانكيديو)، وطروادي مثل، (أركيليس) حتى أنَّه في الكتاب الرَّابع اختفى تماما استلهام الأسماء من أدب الملك أرتورو.

من جهةٍ أخرى، جرى العرف على أنَّ الاستطرادات الأخلاقية التي توجد بالعمل تُنسب إلى جارثي رودريجيث مونتالبو، فالرَّاوي عندما يشير إلى أحداثٍ معيَّنةٍ يعتبرها نموذجية إلى حدٍ ما، نجده يدرج تعليقات تضع الأحداث أمام القارئ من وجهة نظر الرَّاوي، الذي يحكم عليها بأنَّها ملائمةٌ هكذا: فبعد سرد وقائع حبِّ الملكة إيليسينا لفت نظر القارئ إلى الطَّابع الانتهاري والتَّوبيخي لسلوكه، وأسدى بعض النَّصائح للوالدين عن كيفية تربيتهم لأبنائهم، وفي مرَّاتٍ أخرى يُفكِّر مليا في فناء وزوال العظمة الإنسانية أو عن قوة الحبِّ. إنَّ هذه الاستطرادات التَّربوية الأخلاقية -التي نجد لها سبقًا وحيداً فقط في أعمال نمطنا هذا عندما تتقفى أثرها في كتاب "الفارس ثيفار"- موجزةٌ مقتضبةٌ وعارضةٌ في الكتب الأولى، لكنَّها في الجزء الثَّاني بدأت تتزايد كثرة وطولاً وإسهابا حتى تحوَّلت إلى خُطبٍ حقيقية.

يمكن اعتبار أنَّ هذا اشتقاقٌ من ذلك الحماس الأخلاقي بانتقاد - في كلِّ مرَّةٍ أكثر وضوحًا - مثاليات الفروسية التي أخذت عن الموضوعات البريطانية؛ فعلى الرَّغم من الانبهار بعالم كان يُعده مونتالبو من جديد، ويسهم في نشره؛ فإنَّ مونتالبو كان يشعر بقلقٍ غامضٍ إزاء المثاليات التي كان الرَّاوي يقترحها، فالجو الأخلاقي العام والمرن في كتب أدب الملك أرتورو هو هدف لانتقادات عضو المجلس البلدي جارثي رودريجيث مونتالبو، الذي أصبح بذلك أوَّل ناقدٍ لهذا النَّمط الذي كان يكتب فيه، كما أنَّه كوَّن أول مجموعةٍ كبيرةٍ من رجال الدِّين وعلمائه والأخلاقيين الذين انتقدوا - طوال القرن السادس عشر وقبل الانتقاد الذي قام به ثيربانتس- كتب الفروسية من جرَّاء تأثيرها الضَّار الذي يمكن أنْ يلحق بالشَّباب، خاصة من العلاقات الشَّهوانية الغرامية التي تكثر في مثل تلك الكتب، ويبلغ هذا النَّقد ذروتة في مغامرات إيسبلانديان؛ حيث بلغ به الأمر إلى أنَّه وصف الفروسية البريطانية بأنَّها ما هي " إلاَّ مجدٌ زائفٌ في هذه الدُّنيا وجنونٌ معروفٌ "؛ فالمغامرات الفردية التي كان يقوم بها الفارس كانت تهدف إلى تحقيق الشُّهرة وتشريف، وزوجته تُعتبر الآن من قبيل الطَّيش، وينبغي أنْ تكون مهامها مشتملةً على غاية دينية؛ فهذا النَّموذج المثالي لكتاب الفروسية، الذي يتعارض مع

قصَّة أماديس، يُجسِّد فى إيسبلانديان، لأنَّ الفروسية من خلال خدمة مبرِّرات نزوِيَة تحوَّلت إلى قوة فى خدمة الدِّين أو العقيدة. فمن غير المحتمل أنَّ هذا التَّحول يعكس تحولاً ووضعًا تاريخيًا خاصًا؛ ففى بداية العصر الحديث، نجد أنَّ الفارس الهائم الرَّحالة والمنعزل ينبغى أنْ ينتمى – سواء فى الواقع أو فى القصص– إلى المجموعة الكاثوليكية الكبيرة تحقيقًا للمهام والأهداف والمصالح الجماعية. ففى كتاب أماديس دى جاولا نجد أنَّ النِّزالات المبارزات الفردية تكثر فى بداية العمل، وقد حلتْ محلها فى الجزء الثَّاني المعارك، أمَّا مغامرات إيسبلانديان فنجدها قد تراجعت إلى المقام الثَّانى بالنِّسبة للمهمة التى تسلَّطت على عقل الرجال فى القرن الخامس عشر : فنجد الكفاح لاسترداد القسطنطينية وفى هذا المكان تدور أحداث الجزء الثَّالث لمغامرات أماديس – طبقًا لبعض إضافات مونتالبو – والتى بهذا الشُّكل كانت تربط بينها وبين الوقائع والأحداث البيزنطية فى مغامرات إيسبلانديان، بينما نجد فى الكتابين الأوَّلين أنَّ الجغرافيا تتمشَّى مع قصص المجموعة أو السِّلسلة البريطانية : بريطانيا العظمى، وإسكتلندا، وإيرلندا وجاولا وهى مملكة إقطاعيةٌ صغيرةٌ كائنة خياليا فى بريطانيا.

من الملاحظ أيضًا الفارق الكبير فى النَّهج أو المسيرة السَّردية، الذى يقدِّمه الجزءان؛ ففى الكتابين الأوَّلين نجد الإيقاع السَّردى زجزاجيًا وفيهما يكتسب مبدأ مهما نظرًا لطبيعة كتب الفروسية ذرات الأهمية : خصوبة الحدث، ومبارزات فردية بين الفرسان، ولقاءات فى الغابة، وعمليات إنقاذ لفتيات عزل محفوفات بالأخطار، وأعمال سحرٍ، ومبارزات وبطولات ومسابقات تتتابع بسرعة دون أنْ تمهل القارىء كى يلتقط أنفاسه، فالنثَّر مقتضبٌ ودقيقٌ، مع نهج سردى يسهم فى إسراع إيقاع الحبكة وإضفاء أهمية عليها : عملية الرَّبط التى من خلالها يتم سرد عدَّة حكايات بتخطى إحداها للتعريج على الأخرى؛ من أجل تحفيز التَّنوع وعنصر التَّشويق. كلُّ هذه الخصائص والسِّمات اختفت أو ذابت فى الكتابين الأخيرين، اختفى تنوع الأحداث وسرعة الحدث، أمَّا النَّثر فقد عاد إلى التَّكلف، وأصبح إنشائيًا بلاغيًا (ففى المقدِّمة أكَّد مونتالبو أنَّه صحَّح الكتاب " ووضع كلمات أخرى ذات أسلوب أكثر نقاءً يتناسب مع الفروسية وأحداثها") فالقصَّة تتبَّع خيطًا لحدث موحَّدٍ.

فيما يتعلَّق باللغة، يمكن ملاحظة أنَّ الكلمات القديمة، الأكثر شيوعًا في الكتابين الأوَّلين، اختفت تدريجيًا في منتصف العمل، ويبدو من الممكن أيضًا أنَّه في هذه النُّقطة ينبغي أنْ تُعزى مسئوليتها إلى مونتالبو على الأقل ولو جزئيًا. ويصبح أكثر أهمية، مع ذلك، التَّطوير والتَّحديث الهائل لكلمات القصَّة، خاصةً إذا قارناها بنصوصٍ أخرى من الفترة نفسها، وحتى بنصوص لاحقة لها، إنَّ هذا يمكن تفسيره واضعين في الاعتبار التَّأثير الهائل الذى مارسته -سواءً كانت مقروءةً أو مقلَّدةً من جانب كبار الكتاب في العصر الذَّهبى- في تكوين النثر الأدبى الإسبانى القديم. كما أنَّه من المألوف أيضًا أنْ تُنسب إلى مونتالبو نزعة عامةً، تمَّ إثباتها جزئيًا بالعثور على مخطوطات ترجع لعام ١٤٢٠، حيث اختصرت فصولاً من المخطوط الأصلى أو المخطوطات الأصلية الأوَّلية، وفى المقدِّمة يؤكِّد ابن MEDINA DEL CAMPO (أى. جارثى رودريجيث مونتالبو) أنَّه أنجز عمله " بحذف كثيرٍ من الكلمات السَّطحية التى لا معنى لها "، وفى بعض الأحيان وصل به الأمر إلى حذف بعض الأحداث، مثل ما أشرنا إليه آنفًا عند موت أماديس وانتحار أوريانا هكذا في كتاب PERO FERRÚS، حيث دار الحديث عن أمطار وعواصف ثلجية لم تظهر فى النَّص الذى نحتفظ به. إنَّ يد نائب المجلس البلدى (يقصد مونتالبو) تمكَّنت أيضًا من تغيير الصِّيغة الجوهرية لمفاهيم مهمة جداً مثل مفهوم الشُّهرة.

لقد نبهنا من قبل إلى أنَّه من الصَّعب تحديد مدى تدخل مونتالبو؛ لأنَّ ما بين كتاب أماديس الأوَّلى، الذى نجهل مضمونه ومحتواه بالضَّبط، والنَّص المطبوع وجد عدد من النُّسخ غير محدَّد، ولا نعرف كيف ولا إلى أىِّ مدى أثَّرت هذه النُّسخ فى ذلك الكتاب الأوَّلى، ومع ذلك فليس من باب المغامرة أنْ نشير إلى الطَّابع العام لتدخل ابن MEDINA DEL CAMPO أى مونتالبو، حيث إنَّ بعض السُّطور المطوَّرة على الأقل التى أشرنا إليها منذ قليل، والتى تحدد الخلافات أو الفروق بين الجزء الأوَّل والثَّانى للكتاب تأكَّدت فى التَّكملة التى كتبها لقصَّة أماديس دى جاولا : فالطَّابع الأخلاقى والدينى الذى أدَّى إلى مفهومٍ جديدٍ للفروسية وتحديث اللغة والتَّقنيات السَّردية والأسلوب... واستنادًا لهذا... فإنَّ مونتالبو ظلَّ محافظًا فى البداية على النُسخة الأصلية أو النُّسخ

الأصلية التى خطَّها أو نسخها، ولكن بالقدر الذى كان يتقدَّم به فى إنجاز عمله، وبدأ يشعر بأنَّ المواد التى كانت فى حوزته كأنها ملك له، فأطلق لنفسه مزيداً من الحريات فى الأسلوب واللغة والعمل ككل، وفرض عليه شخصيته ذاتها، وغيرَّ وحذف وأضاف أحداثًا أو فصولاً، حتى أنَّه قرَّر تغيير نهاية النُسخة الأوَّلية أو الأصلية، وأعاد توزيع المـــواد التى كـــانت تتألف منها. وهذا يمكن أنْ يكون -لدرجةٍ كبيرةٍ- النَّهج الذى اتَّبعه ابن MEDINA DEL CAMPO؛ أى: مونتالبو، لكن مهمة تحديد ذلك على وجه الدِّقَّة لا يمكن أن تتجاوز مضمار التَّخمين المحض.

البنية القصصية

على الرَّغم من تكوينة المعذَّب، فإنَّ كتاب أماديس دى جاولا يقدِّم بنية قصصية موحدةً ستصبح نموذجًا يحتذى لكتب هذا النَّوع اللاحقة عليه؛ فنسيج العمل تُكوِّنه مـــغـــامـــرات أمـــاديس - تطوَّرت في جـــوٍ مـــثـــالى خـــالٍ تمامًـــا من أيِّ لون مـــحلى - والصُّعوبات التى ينبغى عليه التَّغلب عليها لكى يتمكَّن من الزَّواج بأوريانا، وحول ذلك تجمَّع حشدٌ كبيرٌ من الشَّخصيات بلا أىِّ تعقيدٍ نفسيٍ، منهم الطَّيِّبون والأشرار : فالطيِّبون يتمتَّعون بالجمال الفاتن، وهم شجعانٌ وشرفاء أوفياء، وأمَّا الأشرار فهم مكابرون ومتوحِّشون غير متحضرين؛ كما أنَّ البطلين لا يتعدَّيان كونهما نموذجين : فالفارق الأساسي الذى يُميِّر أماديس عن الفرسان الآخرين للملك ليسوارتى هو أنَّه تفوَّق عليهم جميعًا فى الشَّجاعة، وأنَّه كان ينجز ما لم يستطع أحدٌ منهم إنجازه، أمَّا أوريانا، فمن جانبها كانت أجمل فتاةٍ وأكثر وفاءً، وهى محبوبة البلاط الملكى، وإنَّ أكثر ما يُميِّز البطلين عن الآخرين هو عظمة حبِّهما وإخلاصهما القوى المتين .

إنَّ نموذج البطل الذى يظهر فى قصَّة أماديس، هو وريث تراث الملك أرتورو، إنَّه يتصرَّف دائمًا فى المقام الأوَّل مدفوعا بهدفين : الحماس فى خدمة السَّيدة، وتحقيق الشُّهرة والشَّرف. هذه الفكرة الأخيرة فى غاية الأهمية : الرَّغبة فى الشُّهرة، والحرص على توسيعها والحفاظ عليها هى رغبةٌ دائمة لدى الفرسان الذين ظهروا فى العمل،

الذين يريدون أنْ تكون بطولاتهم الخيرة الطَّيبة وسلوكهم القويم وجمال سيداتهم - يتمُّ الحفاظ على كلِّ ذلك بقوة الأسلحة إذا لزم الأمر - رائجًا في العالم بأسره في حياة كليهما؛ لكن الشُّهرة تظهر أيضًا على النَّهج القديم، نهج عصر النَّهضة بمغزىً مؤقتٍ كشهادةٍ دائمة للجدارة والاستحقاق؛ فهذا المغزى الأخير الذي يظهر فقط في الكتاب الرَّابع، يمكن أنْ يكون مثاليًا بالكلمات التي تُحدِّد مقصد فرسان قصة أماديس دي جاولا : " إنَّهم يقومون... ببطولات عظيمةٍ كي يحظوا بالمدح والثَّناء دائمًا، ويظلَّ ذكرهم خالدًا في الدُّنيا " (الفصل الثَّالث والثَّمانون). وإلى جانب السُّلوك المحب للشُّهرة والمجد توجد أيضًا في العمل بأكمله - كمقابلٍ أخلاقي - اعتبارات بشأن زوال وفناء الشُّهرة والمجد وقلَّة قدرهما.

ومن ناحية أخرى، فإنَّ سلسلة المغامرات المعقَّدة والمتشابكة التي يقدمها كتاب أماديس دي جاولا تحترم خطة أُعدَّت بوضوحٍ؛ فالكتاب الأوَّل يشير إلى وصف البطل بأنَّه أشجع فارسٍ، وإنَّ هذا يتحقَّقُ من خلال سلسلةٍ من المعارك والاختبارات التي يقوم بها البطل - في المقام الأوَّل - وهو في الطَّريق إلى بلاط الملك ليسوارتي، المركز الذي تتجه إليه الشَّخصيات الأخرى، ثم رحل أماديس فيما بعد - الذي قبل أنْ يعرف هويته الحقيقية كان يُسمَّى بفتى البحر- بحثا عن الشُّهرة كفارس من أسرة ملكية. وذورة هذا الأمر ستتأتَّى بإطلاق سراح أوريانا من أيدي السَّاحر أركالاوس، وهو شخصٌ شريرٌ دوره يتعارض في العمل كلِّه مع دور أورجاندا لاديسكونوثيدا، التي تحمي البطل.

ويصف الكتاب الثَّاني أماديس بأنَّه أوفى حبيبٍ، وبسبب سوء فهمٍ رأى البطل نفسه مهملاً محتقرًا من جانب أوريانا؛ فرحل يائسًا إلى الجزيرة الفقيرة لكي يكفِّر عن ذنبه، وغيرَّ اسمه، وأطلق على نفسه اسم بيليتينيبروس، بعد ذلك، علمت أوريانا أنَّ أماديس اجتاز اختبارين آخرين (اختبار السَّيف المتقد، واختبار تسريحة الزُّهور التي نصفها أخضر والنِّصف الآخر جاف ستزدهر فوق رأس السَّيدة التي وفاؤها في حبِّها لا تشوبه شائبةٌ)، تمَّ اجتياز الاختبارين من جانب أماديس وأوريانا على التَّوالي، وقد

أثبتا كمال المحبَّين؛ فكان بالإمكان أنْ ينتهي العمل هنا، بالزَّواج بين كليهما، ومع ذلك ظهر عنصر خلافٍ آخر.

فالملك ليسوارتي نتيجة نصائح مستشاري السُّوء غضب على أماديس، فانسحب أماديس ورفاقه من البلاط الملكي وذهبوا إلى الجزيرة اليابسة التي تحولت هكذا إلى المركز الثَّاني (إلى جانب بلاط الملك ليسوارتي) لسرد حدث القصَّة؛ فالكتابان الثَّالث والرَّابع سيبيِّنان كيف تمَّ تجاوز الخلاف بين أماديس وليسوارتي كآخر الصُّعوبات والعوائق التي تقف عائقا أمام زواج البطلين. سافر أماديس إلى القارة حيث زار كلا من بوهيميا واليونان والقسطنطينية، وعند عودته إلى بريطانيا العظمى صادفته نقطة خلاف أخرى فيما يتعلَّق ببلاط الملك ليسوارتي، التي ستتحوَّل إلى نقطة اتفاق وتقارب في الجزيرة اليابسة؛ لقد خُطبت أوريانا من جانب والدها لكي تكون زوجةً لإمبراطور روما ضدَّ رغبتها وإرادتها، وبينما كانت في طريقها عبر البحر إلى موطنها الجديد أنقذها أماديس واصطحبها مع سيداتها إلى الجزيرة اليابسة، وهو الأمر الذي تكرَّر مع الشَّخصيات النِّسائية تكرر كذلك بالنِّسبة للرِّجال؛ فهذا النَّوع من التَّكرار أمرٌ أصيلٌ في بنية قصَّة أماديس، إلخ. وعلاوة على ذلك فإنَّ الوئام والوفاق ساد من جديد بفضل تدخل ناسيانو و إيسبلانديان، وفي النِّهاية تمَّ الاحتفال بالزَّواج.

بدأت القصَّةُ تنتظم -كما نرى- من خلال عملية تقارب واختلافٍ في مركزي جذبٍ (لندن والجزيرة اليابسة)، وآخر للنِّزاع انتهى بالوفاق والوئام بين البطل وتلكما الشَّخصيتين (أوريانا وليسوارتي)، اللذين يعتمد عليهما تنفيذ هدفهما ومقصدهما وهو الزَّواج. وفي تلك الأثناء، أثبت أماديس عظمته فارسًا وكذلك أثبت عظمته محبا وقائد جيوش ومواطنًا وفيًا.

وهناك عنصر أساسي في البنية يتكَّون من النُّبوءات، فإلى جانب التَّكهنات الأخرى التي تسبق مواقف تفصيلية، فإنَّ كلتيهما المدرجين بصورةٍ عامةٍ يمكن اعتبارهما مركز الطَّاقة في القصَّة. أولاهما توجد في الفصل الثَّاني من الكتاب الأوَّل، وترسم الخطوط العامة التي على أساسها تتوالى أحداث الكتابين الأوَّل والثَّاني : وذِكر

فيها أنَّ أماديس سيكون أشجع فارسٍ وأوفى حبيبٍ، وثانيتهما توجد في نهاية الكتاب الثَّاني، وتوجز مضمون الكتابين الثَّالث والرَّابع وفحواهما : قتال "الدَّاهية الكبير" (إمبراطور روما) مع "الأسد القوي" (أماديس)، والمعركة بين هذا "الحنش الكبير" (الملك ليسوارتي)، وكذلك السَّلام الذي سيحلُّ بينهما بتسليم "الظَّبية البيضاء" (أوريانا) لأماديس بتدخل "النَّعجة الوديعة ذات الشَّعر الأسود" (النَّاسك). إنَّ هاتين النُّبوءتين تمثلان الصُّورة العامة لتطور الأحداث كلِّها.

من جهة أخرى، تُوجد التَّقنيات المستوحاة بكثرة من قصص سِيَرِ القديسين، وكذلك من الرِّوايات التي تُنسبُ للملك أرتورو، والتي تُسهم في إضفاء ترابط على العمل. إحدى هذه التقنيات هي التَّشابك أو التَّداخل، ويكمن في سرد قصة، أواثنتين، أو ثلاث قصصٍ لأشخاص مختلفين، وقد وقعت في أماكن متنوِّعة، تقريبًا في آنٍ واحدٍ يتم سردها بلا توقُّفٍ؛ كي يتم تجمعها عند التَّوقف الثَّاني؛ فالانتقال من بعض الشَّخصيات والقصص إلى آخرين يمكن أن يحدث دون رابطٍ واضحٍ؛ أو بروابط من ذلك النَّوع أو النَّمط الذي يتركه المؤلِّفُ.... ويعود إليه......" أو "يترك القصَّة..... ويحكي،..." على عكس القصة الأولى، هذه النزَّعة الأخيرة تهدف إلى شرح أو توضيح الانتقال من قصةٍ إلى أخرى كانت شائعة مع تطور أحداث الرِّواية. إنَّ التَّشابك أو التَّداخل في آنٍ واحد لأحداث قصصٍ مختلفة، وتقنيات أخرى شائعة في القصَّة الأوَّلية أيضًا، هي تقنيات تحاول إشراك القارئ أو المستمع في سير الرِّواية بالاستعانة به كمخاطب جمع في أفعال مثل SABER YOIR "يعرف ويسمع" إعلموا الآن أنَّ أماديس موجودٌ في البلاط الملكي... "، "كما تسمعون الآن... " وبصيغٍ أخرى مشابهة : " المتعة التي أحسَّا بها لا يمكن أنْ أسردها لكم "، "ذلك الفارس الجريح الذي نحكي لكم عنه....". إلخ. ومن خلال هذا النَّهج تضيق المسافة التي تفصل بين القارئ والقصَّة. ويشعر القارئ بأنَّه مشاركٌ بشكلٍ مباشرٍ في الرِّواية.

وهناك عنصرٌ آخر يسهم في إضفاء الملامح المميزة لقصة أماديس دي جاولا يكمن في نظام الإشارات المتوالية ذات الطَّابع التَّأملي لأحداث المستقبل والماضي، الذي

يكثر فى القصَّة، حيث يمكن أنْ نُميِّز بين ثلاثة أنماطٍ : إشارات إلى أحداث ماضيةٍ بصيغٍ مثل: "كما سمعتم الآن"، و"كما سمعتم آنفًا"، و"قلنا لكم آنفًا"، والإعلان المسبق أوتقنية الإخبار عن شيء سيحدث فيما بعد: "كما ستسمعونه فيما بعد"، و"ستحكيه القصَّة في وقت لاحق"، وإشارات للماضى أو المستقبل بإحالات دقيقة إلى الكتاب الذى وقع فيه الحدث أو الذى سيحدث فيه وذلك مثل: "في الكتاب الرَّابع من هذه القصَّة سيُحكى لكم". وهذا النَّوع الأخير من الإشارات يمكن تصوره تمامًا لدى ناسخ أمامه نصٌ كاملٌ يقوم بإعادة تكوينه ووضع اللمسات الأخيرة عليه، وليس لدى مؤلفٍ مهما كانت خطَّته تفصيليةً للغاية، وربُماً يمكن أن تنسبها إلى مونتالبو.

نجاح القصة وانتشارها وتأثيرها

لقد قلنا ذلك فى البداية : إنَّ كتُبًا قليلةً حقَّقت نجاحًا وانتشاراً وتأثيراً خلال القرنين السَّادس عشر والسَّابع عشر في أوروبا، سواء فى الأدب، أو الحياة الاجتماعية مثلما تحقق لقصة أماديس دى جاولا؛ فما بين ١٥٠٨ (تاريخ أوَّل طبعةٍ معروفة لها التى طبعها خورخى كوثى) و١٥٨٦ نجد أنَّه صدرت تسع عشرة طبعة، من بينها تلك الطبعة التى صحَّحها فرانثيسكو ديليكادو (بالينثيا ١٥٣٣)، مؤلِّف LA LOZANA ANDALUZA ١٥٢٨ (الأندلسية الشَّابة). بعد ذلك بعامين -فى ١٥١٠- كان تاريخ أول طبعة للتَّكملة المعروفة لمونتالبو مغامرات إيسبلانديان، الكتاب الخامس لقصة أماديس الذى يُصيرُ فيما بعد إلى جانب الكتب الأربعه الأولى. فنجاح هذا الكتاب الخامس أدَّى إلى تكملاتٍ كثيرة فلم يمل أحد من قراءة القصة من أحفاد أماديس، وأحفاد الأحفاد، وأحفادهم؛ فالقدِّيسة تريسا تعترف شخصيا بأنها كانت شغوفةً فى شبابها بمثل هذه الرَّوايات " إذا لم يكن لدى كتابٌ جديدٌ، لم يكن يبدو لى أنَّنى سعيدةٌ " (كتاب الحياة الفصل الثَّانى). فى عام ١٥١٠ ظهرت قصة نجل الملك فلوريستان ونجل شقيق أماديس (السَّيد فلوريساندو) للمؤلِّف بايث دى ريبيرا، الكتاب السَّادس لأماديس دى جاولا، أمَّا السَّابع فقد كان ليسوارتى الإغريقى (١٥١٤)، ويحكى مغامرات نجل

إيسبلانديان. إنَّ فيليسيانو دى سيلبا مؤلِّفُ هذا الكتاب، هو أيضًا مؤلف الكتاب التَّاسع، أماديس الإغريقى (١٥٣٠)، حيث حلَّ مشكلة وفاة أماديس المطروحة فى الكتاب الثَّامن (١٥٢٦) للمؤلف خوان دياث؛ حيث استبدل البطل بحفيد ليسوارتى الإغريقى وحفيد حفيد أماديس، في هذا الكتاب التَّاسع؛ كما تمَّ إدراج عناصر ذات طابع رعوى لأوَّل مرَّةٍ فى هذا النَّوع الأدبى. وفى الكتاب الثَّانى عشر، أسيلبس بطل الغابة، من تأليف بيدرو دى لوخان؛ فعلى الرَّغم من أنَّه ظهر مجهول المؤلِّف عام ١٥٤٦ فإنَّه ينهى مجموعة كتب أماديس.

إنَّ نجاح كتب أماديس أدَّى إلى ازدهار كبير لكتب الفروسية، التى من بينها تبرز سلسلة كتب بالمارينيس، في كتب مثل: بالمارين دى أوليبا (١٥١١)، وبريماليون (١٥١٢)، وبالمارين الإنجليزى (١٥٤٧)، الذى حاز موافقة سيربانتيس الحماسية؛ كما كانت هناك كتب فروسية أخرى حقَّقت نجاحًا كبيرًا فى القرن السَّادس عشر، مثل: كلارين دى لاندانيس في ثلاثة أجزاء (١٥١٨ و١٥٢٢ و ١٥٢٤) وكتاب الفارس الذى لا يقهر ليبوليمو الملقَّب بالفارس الصَّليبى (١٥٢١)، ووبليانيس الإغريقى فى أربعة أجزاءٍ، الجزءان الأوَّلان صدرا عام ١٥٤٧ والأخيران ١٥٨٧ من تأليف خيرونيمو فرنانديث. وفى النِّهاية تجدر الإشارة إلى كتب الفروسية الدِّينية، التى حوَّلت هذا النَّمط الأدبى إلى أداةٍ ذات مقاصد رمزية ودينية، ومن بينها نجد كتاب رحلة عبر الحياة الإنسانية (١٥٥٢) والفروسية السَّماوية للوردة العطرة (١٥٥٤)، لخيرونيمو سيمبيرى. وعلى الرَّغم من أنَّ هذه الأعمال طوَّرت وغيَّرت أو جددت معايير هذا النَّمط الأدبى، فمن المؤكَّد أنَّها انتهجت الخط الذى انتهجه الكتاب الأساسى "أماديس دى جاولا". هكذا اعترف بذلك ثيربانتس فى الحوار الشهير بين القسيس والحلَّاق:

> **– يبدو أنَّ هذا الأمر غامضٌ طبقًا لما سمعت من قولٍ بأنَّ هذا الكتاب هو أوَّل كتب الفروسية التى طبعت فى إسبانيا، وكلُّ الكتب الأخرى اقتبست منه البداية والأصل من هذا الكتاب، وهكذا كواضع عقيدة لطائفةٍ شرِّيرةٍ جدا، ينبغى علينا –دون أىِّ عذرٍ مهما كان– أنْ نحكم عليه بالإعدام حرقًا.**

- لا ياسيدى – قال الفارس – لقد سمعت أيضًا القول بأنَّه أفضل الكتب التى أُلِّفت فى هذا النَّوع الأدبى، وهكذا فهو الوحيد فى هذا الفنِّ الذى ينبغى الصَّفح عنه. (دون كيخوته الجزء الأوَّل، الفصل الرَّابع).

مما لا شك فيه أنَّ ثيربانتس قرأ كتاب أماديس بإعجابٍ وقدَّره قدره خلاصة الأمر، إنَّ الكيخوته من بين أمورٍ أخرى كثيرةٍ ما هى إلا تكريمًا مملوءًا بالحنين والاشتياق إلى عالم قيم بالية عفا عليها الزَّمن، يُجسِّدها كتاب أماديس بشكل متقنٍ رائعٍ. ليس بلا جدوى أنَّ قصَّة أماديس تُمثِّل بالنِّسبة لدون كيخوته قصة ثيربانتيس الفارس المثالى الأعظم الذى يُقتدى به، والشَّخصية التى ينبغى أنْ يحذو حذوها الفرسان الجائلون. لقد أحسنت قولاً عندما أكدت أنَّه كان الوحيد (الأوَّل) كان ملك كلِّ كتب فى عصره فى العالم أجمع. (الكيخوته، الجزء الأوَّل، الفصل الخامس والعشرون).

وليس فقط بالنِّسبة لدون كيخوته، فقد لاحظ مينينديث بيلايو أنَّ القصة بلغ بها الأمر أنْ أعدت قانونًا للشَّرف التزمت به أجيالٌ كثيرةٌ. كان كتاب أماديس يمثل فى هذه الصدَّد نمطًا إنسانيا مملوءا بالقيم التى كان ينبغى تطبيقها على السُّلوك الذاتى.

يمكن اكتشاف مؤشرات أخرى كثيرة لتأثير العمل فى إسبانيا حينذاك؛ فعلى سبيل المثال، أنه على الرغم من كثرة القوانين التى كانت تحرِّم انتقال كتب الفروسية إلى الأمريكتين – حيث كان الهنود الحمر أو أهالى البلاد الأصليون يعتبرونها خطيرة لأسباب متنوِّعةٍ – فإنَّ هذه الأعمال الخيالية سافرت مع الغزاة أو الفاتحين، الذين فى أحيانٍ كثيرةٍ استطاعوا إضفاء الهوية على الأماكن الحقيقية الموجودة فيها من الأماكن الخيالية لكتب الفروسية، وأطلقوا عليها أسماءً اقتبسوها أو استلهموها من هذه الأعمال، مثل: نهر الأمزون أو جزيرة كاليفورنيا؛ فأحد هؤلاء الرِّجال (بيرنال دياث ديل كاستيو) الذى كان خياله –بلا شكٍ– مفعمًا بكتبٍ من هذا النَّمط، لجأ إلى كتاب أماديس دى جاولا كمرجعٍ لكى يأخذ فى الاعتبار العجائب التى قابلته عند مروره بالعالم الجديد.

لكن النَّجاح لم يقتصر على إسبانيا؛ فعلى الرَّغم من أنَّ لودوبيكو أريوستو قرأ كتاب أماديس دى جاولا باللغة الإسبانية فى مطلع القرن السَّادس عشر؛ فإنَّ آثاره

ظهرت في أولاندو الغاضب، التَّرجمة الإيطالية الأولى التي يرجع تاريخها إلى ١٥٤٦. منذ ذلك التَّاريخ حتى ١٥٩٤ طبعت وترجمت في البندقية ليس فقط كتب أماديس الأربعة ومغامرات إيسبلانديان، بل أيضًا جميع الكتب الإسبانية لهذه السِّلسلة، التي أضيف إليها أعمالٌ إيطاليةٌ أخرى وصل عددها إلى ثلاثة وعشرين جزءًا. وقد أعيدت طباعتهما جميعًا عدَّة مرَّات ونالت قبولاً شعبيًا حتى الحقبة الأولى من القرن السَّابع عشر.

كان التَّأثير أكبر في فرنسا، فمع قصة أماديس دي جاولا استعادت تراثًا خاصًا بشكل ما؛ ففي عام ١٥٤٠ ظهرت أوَّلُ ترجمة فرنسية، قام بها نيقولاس إيربيراي دي إيسارتس تلبيةً لأمر فرانثيسكو الأوَّل، الذي لابُدَّ أنه قرأ العمل أثناء أسره في مدريد عقب معركة PAVÍA (١٥٢٥)؛ كذلك نجد إيربيراي، وخيل بويلياو، ومترجمون آخرون بعده قد كُلِّفوا بترجمة تكملات عديدة إلى الفرنسية أيضًا، حتى أنَّ سلسلة أماديس – التي أدرج فيها كُتب مترجمة عن الإيطالية وتقليدات فرنسية – أصبحت كاملة في أربعة وعشرين مجلَّدًا، وكانت المجلَّدات الثَّلاثة الأخيرة بتاريخ ١٦١٥. إنَّ معظم نجاح القصَّة – التي كان تأثيرها في العادات الفرنسية عميقًا لدرجة أنَّها أصبحت مرجعًا للتَّهذيب والأنس – يرجع الفضل فيه إلى كفاءة وجدارة المترجم، التي كيَّفها طبقًا للذَّوق الفرنسي في ذلك العصر، وقد خفَّف من الجزء الأخلاقي والتَّعليمي وعزَّز الجانب الشَّهواني.

واستنادًا إلى التَّرجمة الفرنسية جاءت التَّرجمة الهولندية (١٦١٩-١٦٢٤)، والإنجليزية (١٦١٩)، والألمانية (١٥٦٩-١٥٩٥)، وحقَّقت الأخيرة نجاحًا هائلاً وأصبحت -كما حدث في فرنسا- مرجعًا في التَّهذب -كما في الحالة الفرنسية- وتركت تأثيرًا كبيرًا محسوسًا وملحوظًا في الأدب اللاحق لها، وأوَّل ترجمةٍ كاملةٍ باللغة الإنجليزية قام بها أنطوني مونداي، وكان لها تأثيرٌ ملحوظٌ في مؤلفي عهد الملكة إليزابيث؛ ففي عام ١٦٥٢ ترجم فرانسيس كيركمان الكتاب السَّادس، كما تُرجم الكتابان الخامس والسَّابع من جانب كاتبين مجهولين، ونشرا في عامي ١٦٦٤ و ١٦٩٣.

خابيير ثيركاس

ملحوظة على النَّصِّ
ودليل المراجع

١- فى الطَّبعة الحالية تمَّ اختيار أهم فصلين فى كتاب أماديس دى جاولا، وهما اللذان يشتملان على أكبر أهمية للقارئ الحديث، أمَّا الفصول الأخرى فقد تمَّ إيجازها، حيث أشير إلى موضوعها. وخلاصة الأمر أننا حافظنا على ستين فى المائة من الكتاب الأصلى.

فالنصُّ الذى اخترناه أساسًا لذلك هو الذى طبعه خورخى كوثى فى سرقسطة فى عام ١٥٠٨، والذى صحَّحنا فيه بعض الأخطاء المطبعية الواضحة، وهى ليست الطَّبعة الأولى، لكنها أقدم طبعة تمَّ الاحتفاظ بها (نسخة فريدة فى المكتبة البريطانية)، لذلك قبلنا بعض التَّغييرات التى اشتملت عليها طبعتا روما وأشبيلية فى ١٥١٩ و١٥٢٦، والتى حسَّنت قراءة كثير من المشاهد، هكذا فإنَّ هاتين الطَّبعتين أفادتا أحيانًا فى تصحيح أخطاءٍ مطبعية، فعلى سبيل المثال فى الفصل الثَّانى عشر نجد أنَّ طبعة سرقسطة تقول :

"OTRO DÍA FUERO ALLI ASONADOS TODOS DE LA TIERRA ENDERREDOR "

لكن طبعتى روما وأشبيلية تستبدلان كلمة ASONADOS بكلمة أخرى هى REUNIDOS، وفى الفصل الرَّابع عشر كان يقرأ : "EN AQUELLO QUE AMIS FUERZAS NO GASTAN"، أمَّا الطَّبعات التَّالية فقد كتبت BASTAN بدلاً من GASTAN، وفى الفصل الثَّالث والأربعين حيث يقرأ " FINCÓ ANTE ÉL LOS HINOJOS POR LE PESAR LAS MANOS"، وينبغى أنْ يُقرأ كما جاء فى طبعتى روما وأشبيلية BESAR بدلاً من PESAR، وأحيانا أخرى يكون الاختيار أكثر صعوبة، لكن هاتين الطَّبعتين دأبتا على

تحسين القراءة الملوءة بألفاظ من اللهجات فى نسخة سرقسطة، كما هو الحال فى الفصل الثَّالث عشر؛ حيث نجد كلمة "AJINOLLAR" أمَّا الطَّبعات اللاحقة فقد جاء فيها ABINOJAR، كذلك كلمة LAS DONADAS، أمَّا فى طبعتى روما وأشبيلية تُقرأ LAS AMADAS .

٢ - إنَّ الطَّبعات الحالية الميسورة والجديرة بالثقة هى E . B .PLACE (مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، المجلَّد الأوَّل، ١٩٥٩ ، والمجلَّد الثَّانى، ١٩٦٢، والمجلَّد الرَّابع ١٩٦٩) وخ. م. كاتشوبليكوا (مدريد، كاتيدرا، ١٩٨٧ و١٩٨٨، فى مجلَّدين) تمدنا بملاحظات مفيدة.

فكلُّ اقتراب من كتاب أماديس دى جاولا ينبغى أنْ يكون انطلاقًا من الكتاب الذى لاغنى عنه لمارثيلينو مينينديث بيلايو " أصول القصَّة"، المجلَّد الأوَّل، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، ١٩٦٢ ، الصَّفحات من ٣١٤ - ٣٨٧، هنا تُطرح جميع المشاكل البارزة للعمل، وتقترح كثير" من التَّفسيرات والإيضاحات التى مازالت حتى اليوم سارية المفعول أو معمولاً بها، فضلاً عن تقديم فحص شامل للقصَّة، وكذلك كتاب ماريا روساليدا دى مالكيل "نهاية أماديس الأصلى أو الأوَّل " ROMANCE FILOLGY، العدد الرَّابع (١٩٥٣)، الصَّفحات ٢٨٣ - ٢٨٩، والمنصوص عليه فى دراسات للأدب الإسبانى والمقارن، وبوينوس أيرس، EUDEBA ١٩٦٩ الصَّفحات ١٤٩ - ١٥٦ (مقال هائل استند إلى معلومات داخلية من العمل، ويقترح نهاية ممكنة لأماديس الأصلى)، أ. رودريجيث - مونينو، "المخطوط الأوَّل لأماديس دى جاولا"، صحيفة المجمع الملكى للغة الإسبانية، العدد السَّادس والعشرون (١٩٥٦) الصَّفحات ١٩٩-٢٢٥ (تأكيد لبعض الافتراضات لماريا روساليدا بفضل صدور ودراسة أربعة أجزاء بخط اليد لكتاب أماديس دى جاولا المؤرَّخة فى ١٤٢٠)، وصمويل خيلى جايا، أماديس دى جاولا، جامعة برشلونة، (١٩٥٧ فحصٌ مقتضبٌ وموحٍ للعمل فى مجمله يُقدِّم بعض الملاحظات المهمة حول طبيعة تدخل مونتالبو فى القصَّة)، وخوان مانويل كاتشو بيليكوا، أماديس : البطولة الأسطورية فى البلاط الملكى، سرقسطة كوسبا ١٩٧٩ (دراسة

كبيرة مستفيضة للعمل؛ حيث قام بتحليله بدءاً من بنيته والتَّقنيات السَّردية؛ ووصولاً إلى الخلافات بين مختلف الطَّبعات، وتدخل ناسخه مونتالبو، مروراً بالمستويات الأسطورية والرَّمزية المكنة للنَّص)، ومارتين دى ريكير، دراسات عن أماديس دى جاولا، برشلونة، سيرميو ١٩٨٧ (يشتمل على بحث عن أسلحة أماديس، وآخر أعاد فحص كتابه الأوَّل بوضوحٍ، وخاصة بعض المشاهد المثيرة للجدل والنِّقاش فى القصَّة).

فالقارئ المهتم بمزيدٍ من التدقيق والتمحيص المرجعى يمكن أن يجد ذلك فى فرانثيسكو ريكو، مدير سلسلة تاريخ ونقد الأدب الإسبانى، الجزء الأوَّل آلان ديرموند، دار نشر العصر الوسيط برشلونة، كريتيكا (نقد)، ١٩٧٩ ، الملحق الأول، الفصل الأوَّل، ١٩٨٨

خابيير ثيركاس

مقدِّمة المؤلِّف

يَعتبِرُ الحكماء الأقدمون أنَّ الأحداث العظيمة لفنون القتال التي كُتب عنها تركت بالفعل أثرًا في وقتٍ قصير حول حقيقة ما حدث فيها من الصِّدق، وكذلك فإنَّ معارك عصرنا التي شاهدناها قد أمدَّتنا بالخبرة والأنباء بشأن أساس صدق لحقيقة مثل هذه البطولات الغريبة، وهي بالتَّالي لم تُفكر في ترك ذكرى خالدةٍ أبديةٍ لهواة تلك البطولات، بل أيضًا إعجابٍ كبيرٍ للذين يطالعونها، مثل ذلك الاعجاب الذي كان يحدث تجاه القصص القديمة لبلاد الإغريق وطروادة، وكذلك قصص آخرين ممن كتبُ عليهم خوض المعارك. هكذا يقول سالوستيو (من مؤامرة كاتلينا، الجزء الثَّامن، ٢، ٣). :إنَّ بطولات أهل أثينا كانت عظيمةً؛ لذلك أراد الكتَّاب توسيعها والثَّناء عليها؛ إذنْ ففي زمن هؤلاء الخطباء الذين اهتموا تمامًا بأمور الشُّهرة والمجد -وقد تسلَّطت على عقولهم وأرهقت أرواحهم- حدث فتح مملكة غرناطة الذي قام به ملكنا الشُّجاع، بالكثير من الزُّهور،"بالكثرة الورود التي غرست" كذلك بشجاعة الفرسان، في التَّمردات والمناوشات والمبارزات والمعارك الخطيرة، وفي كلِّ الأمور الخطيرة، والمصاعب التي تجمَّعت وواجهوها في مثل تلك الحرب، فضلاً عن المبرِّرات الشُّجاعة للملك العظيم الذي استطاع أن يجمع حوله كبار القوم في المخيَّمات الملكية، وإجابات الطَّاعة التي ردُّوا عليه بها، وخاصةً المدائح والثناءات العظيمة والإطراءات الكبيرة التي يستحقها ذلك الملك لإقدامه على هذه المهمة الكاثوليكية.

أعتقد -بالتَّأكيد- أنَّ ما هو واقعي وما هو خيالي، وما حُكي من جانب الكتَّاب عن شهرة ذلك الأمير، الذي كان يحارب من أجل قضيةٍ عادلةٍ قائمةٍ على أساسٍ حقيقي وراسخ، يمكن لهذه الشُّهرة وذلك المجد الوصول إلى عنان السَّماء كما يمكن الاعتقاد فيه وفقًا لمؤرخيه الحكماء، وإذا انتهج هؤلاء أسلوب الأقدمين تمجيداً لذكرى رجال

المستقبل القادمين، وتركوا ذلك مكتوبًا، مدافعين بحماسٍ عن قضية عادلة، وأضفوا عليها مزيدًا من الشُّهرة والمجد، ومن تمجيدٍ حقيقيٍ لبطولاتهم العظيمة أكثر من الأباطرة الآخرين، فإنَّ ملكنا وملكتنا تفوَّقا عليهم في المجد، وكانا جديرين بمزيد من الثَّناء والمدح والإطراء مقارنةً بهم لأنَّهما اتبعا الشَّرائع الدِّينية التي تمسَّكا بها، وخدما العالم خدمةً جليلةً، واستحقا على ذلك الجزاء من خالق الكون، الذي أمدَّهما بحبِّه، ومنَّ عليهما بمساعدته وعونه لأنَّه وجدهما جديرين بتنفيذ تلك المهمة بمزيدٍ من الجهد والمشقَّة وإنفاق الأموال في سبيل الله، وإذا كان شيءٌ من هذا قد اكتنفه النِّسيان لدى البشر، فإنَّه لن ينساه ذو الجلال والإكرام؛ حيث أعدَّ لهم الجائزة وحسن الجزاء اللذين يستحقانه.

هناك طريقة أخرى ذات ثقةٍ مقنعةٍ في قصة ذلك المؤرِّخ العظيم (إشارةً إلى ث. مونتيو)، الذي عندما رأى نفسه محاصرًا بالنِّيران في محاولته لاغتيال الملك PORSENA حرق يده بنار القُربان (TITO LIVIO، D?CADAS C11،) لكي يعلي شرف ومجد الرُّومان، فهو إلى جانب الثَّناء على بنيانهم الجسدي وقوَّتهم البدنية أثنى على حماسة وشجاعة قلوبهم، لأنَّه إذا كان هناك شكٌ في الأمر الأوَّل، فإنَّه لا مجال لذلك في الثَّاني، وإذا كان بالجهد الشَّاق قد استطاع أنْ يترك في الذَّاكرة مدى شجاعته عند حرق ذراعه بنار القربان TITUS LIVIUS، وذلك الذي بمحض إرادته ألقى بنفسه في البحيرة الخطيرة (من المحتمل أنَّه يشير بذلك إلى MARCUS CURTIUS ، وهي شخصية مبتكرةٌ لكي يشرح اسم LACUS CURTIUS الذي كان موجودًا في وسط المحفل). واستنادًا لما يقوله TITO LIVIO في D?CADAS (عقود) في الجزء الثَّامن، ٦، من ١ إلى ٦)، لقد ألقى هذا الشَّاب بنفسه في فتحة كانت في المحفل؛ لكي يثبت أنَّ الشَّجاعة كانت أكبر سمةٍ من سمات الرُّومان)، لقد رأينا بأعيننا تضحياتٍ أخرى مماثلةً من جانب هؤلاء الذين ضحَّوا بحياتهم، وأرادوا معانقة الموت رغبةً منهم في انتزاع حياة الآخرين، وممَّا رأيناه نستطيع أنْ نصدِّق ما قرأناه عنهم، وإنْ كان يبدو لنا غريبًا، لكن، بالتَّأكيد، في كلِّ قصته العظيمة لا توجد أيَّةُ ضربةٍ من تلك الضربات المخيفة والمرعبة، ولا تلك اللقاءات العجيبة التي توجد في القصص الأخرى، مثل الذي

يحكي عن ذلك القوى هيكتور، والشَّهير أكيليس، والشجاع ترويلوس، والجسور أخاث تبالامون، وآخرين كثيرين خالدى الذِّكر، طبقًا لحبِّ هؤلاء الذين تركوا ذلك مكتوبًا لنا. هكذا فإنَّ تلك الرِّوايات وأخريات قريبةٌ منها قد نُسبت لذلك الدُّوق الشَّهير جودوفرى دى بويون فى ضربة السَّيف التى ضرب بها جسر أنطيوتشو، وذلك التركُى المدجَّج بالسِّلاح الذى قصمه نصفين عندما كان ملكًا للقدس. إنَّ شهرة الشخصية التَّاريخية لجودوفرى دى بويون بلغت الآفاق لمشاركته فى الحرب الصَّليبية الأولى؛ فعقب فتح المدينة المقدَّسة (القدس) تمَّ تأسيس مملكة القدس اللاتينية، حيث مُنح تاجها لجودومرى دى بويون، وقد احتلت هذه الشَّخصية مكانًا عظيمًا فى أنشودات الملاحم الفرنسية فى سلسلة الحروب الصَّليبية.

إنَّ الفصل الذى يشير إليه مونتالبو ظهر أيضًا فى كتاب GRAN CONQUISTA DE ULTRMAR (الفتح العظيم لما وراء البحار) (الكتاب الثَّانى الفصل السَّابع عشر بعد المائة)؛ إذن يمكن وينبغى الاعتقاد أنْ تكون هناك طروادة بالفعل، وأنْ تكون قد حوصرت ودمِّرت على أيدى الإغريق، وكذلك فتح القدس وأماكن أخرى قام بغزوها ذلك الدُّوق ورفاقه، لكن مثل هذه الضَّربات التى نُسبت إلى هؤلاء الشُّجعان تُنسب أكثر إلى الكتَّاب كما ذكرت آنفًا أكثر من كونها قد حدثت بالفعل. وهناك نوع آخر أقل حظًا قاموا بكتابته، وهو ذلك النوع الذى لم يؤلفوا أجزاءه على أساس من الحقيقة ولا حتى على أثر الحقيقة. هؤلاء الذين كتبوا القصص الخيالية التى توجد بها الأشياء الجديرة بالإعجاب، وهى أمورٌ خارقة لنواميس الطَّبيعة، والتى ينبغى أنْ يطلق عليها اسم الخرافات والأساطير أكثر من كونها كتبًا تاريخيةً متعقلةً.

إذنْ لنر الآن ما إذا كانت خطورة القتال بالأسلحة ستحدث مثل تلك التى نراها وتحدث يوميا، وحتى لو كانت معظمها منحرفةً وبعيدة عن الفضيلة والضَّمير الطَّيِّب، وتلك الغريبة والخطيرة جدا التى يبدو لنا أنَّنا نعرف أنَّها مؤلفةٌ وخياليةٌ، ماذا نأخذ من هذه وتلك؟ هل تحمل لنا ثمرةً مفيدةً ؟ بالتَّأكيد -ومن وجهة نظرى- لا شىء أخر أكثر من الأمثلة الرَّائعة والآراء والعقائد التى فيها خلاصنا، لأنَّها تمثل السَّماح بغزو لطف

العلى القدير لقلوبنا، ولكى نصل إلى لطف الله ورحمته، فلتحلق أرواحنا بأجنحة فى ذروة المجد فى ملكوت السماء، فمن أجل هذا خُلقت أرواحنا.

وأنا أرعى هذا أودُّ أنْ يبقى منى ظل من الذِّكرى، فأنا لا أجرؤ أنْ أضع عبقريتى الضَّعيفة فى ذلك الذى شغل ذهن الحكماء العقلاء، أردت تجميع هذه الأنباء بعد وفاتهم، وأنْ أصحح الأمور الشَّهوانية والأفكار التَّافهة التى كتبوها، حتى لا ينساق إليها ضعف الإنسان، ولذلك قمت بتصحيح الكتب الثَّلاثة الأولى لأماديس أو لهؤلاء الفاسدين الذين يقومون بتجميع الحروف الطِّباعة، ويقرأون بشكل خاطئ، قمت بتنقيح وتنسيق وتصحيح وتعديل الكتاب الرَّابع مع الخامس بعنوان مغامرات إيسبلانديان نجل أماديس، وحتى الآن ليس تذكاراً لأى شخصٍ رأيته، لحسن الحظ ظهر فى قبرٍ من الحجر، فى باطن الأرض فى صومعة ناسكٍ، بالقرب من القسطنطينية، وقد عثر عليه وجلبه تاجرٌ مجرى إلى هذه الأماكن فى إسبانيا مكتوباً على رقٍ قديمٍ جداً، وتمكَّن من قراءته بشقٍّ الأنفس وبصعوبةٍ بالغةٍ هؤلاء الذين كانوا يجيدون اللغة فى الكتب الخمسة، والتى كانت إلى هنا تعتبر خرافات أكثر من كونها كتب تاريخ، تمَّ تصحيحها وتهذيبها وأدرجت فيها الأمثلة والآراء والمبادئ العقائدية، التى بحق تمَّ التَّمكن من مقارنتها بالأمور الشَّهوانية والتَّافهة مثل ملاَّحات الفلين التى تُغلَّفُ وتزيَّن بأشرطةٍ ذهبيةٍ وفضيةٍ، لأنَّها هكذا يستطيع الفرسان الشُّباب وكذلك المسنون أنْ يجدوا فيها كلَّ ما يناسب أذواقهم. وإذا ظهر فى هذا العمل غير المنظَّم أىُّ خطأٍ من تلك الأخطاء المحرَّمة إلهيًا وإنسانيًا، فإنَّنى أطلب -فى تواضعٍ جمٍ- الصَّفح والعفو، لأنَّ إيمانى راسخ واعتقادى لا يتزعزع فى كلِّ ماتأمر به الكنيسة الكاثوليكية أكثر من مجرَّد التَّسلية البسيطة والرَّصانة المتواضعة التى كانت سببًا فى كتابة هذا العمل.

يبدأ هنا الكتابُ الأوَّل

للفارس الشُّجاع والفاضل المستقيم أماديس، نجل الملك بيريون دى جاولا والملكة إيليسينا، والذى صُحِّحَ ونُقِّح بواسطة الأمين والتَّقى الفارس جارثى رودريجيث دى مونتالبو عضو المجلس البلدى لمدينة MEDINA DEL CAMPO النَّبيلة، وقد قام بتصحيح أصوله القديمة التى كانت مكتظةً بالأخطاء والمكتوبة بأسلوب قديمٍ نظرًا لتقصير الكتَّاب غير المجيدين، وقد قمت بحذف كلمات سطحيةٍ كثيرةٍ واستبدلتها بأخرى مهذبة وبأسلوبٍ أنيقٍ يناسب الفروسية وأحداثها.

بداية العمل

بعد سنوات قليلة من وفاة السَّيد المسيح عليه السَّلام كان هناك ملك مسيحي في بريطانيا الصُّغرى يُدعى جارتينير، وبما أنَّه كان على الدِّين الحق فقد كان رجلاً تقيًا ورعًا يتحلَّى بالأخلاق الفاضلة والخصال الحسنة. وكان لهذا الملك كريمتان من سيدة نبيلة، تزوَّجت كريمته الكبرى لانجينيس ملك اسكتلندا، وكانت تُسمَّى صاحبة إكليل الزهور، لأنَّ الملك زوجها لم يقبل أنْ تُغطِّي شعرها الجميل أبدًا اللهم إلاَّ بإكليل زهور فاخر؛ لأنَّه كان يُسرُّ لرؤيته هكذا، وقد أنجبا أجراخيس ومابيليا، كان الأوَّل فارسًا، أمَّا الثَّانية فقد كانت فتاةً في هذه القصة العظيمة حيث ذكرت مراراً وتكراراً فيها. أمَّا الابنة الأخرى فقد كانت تُسمَّى إيليسينا وكانت أكثر جمالاً من الابنة الأولى، وقد خطبها كثيرٌ من الأمراء، لكنها رفضت الزَّواج من أيٍّ منهم، بل كانت تفضِّل حياة الـرَّهبنة على أن تتزوَّج واحداً منهم، لكن لم يكن يناسب هذا الجمال الفتَّان حياة العزلة والرَّهبنة خاصة أنَّ كثيرين طلبوها للزَّواج، وبما أنَّ جارتينير كان متقدِّمًا في السِّنِّ فقد كان يرفِّه عن نفسه قليلاً بالذَّهاب أحيانًا إلى الجبل للصيد، وذات مرَّةٍ، وهو يخرج ذات يومٍ من مدينته التي كانت تدْعى ALIMA، وعندما ابتعد عن الأشخاص الذين يستفزون الطير لكي يتوجه إلى مكان الصيَّادين، وابتعد كذلك عن الصيَّادين حيث كان يسير في الغابة في أوقات الصَّلاة، رأى عن يساره معركة شجاعةً بين فارس واحدٍ من جهة وفارسين من جهة أخرى، عرف الملك الفارسين؛ لأنَّهما كانا من رعاياه؛ ولكونهما مكابرين وسيئي الخلق فضلاً عن كونهما من أقاربه، وقد استشاط غضبًا منهما عدة مرات؛ لكنَّ ذلك الذي كان يحاربهما لم يستطع التَّعرف عليه، وقد أعجب بثقة الفارس الوحيد في نفسه، وأنه لم يخش الفارسين الآخرين، ابتعد عنهم ليشاهد المعركة، وفي النِّهاية هُزِمَ وقُتِلَ الفارسان على يد ذلك الفارس، وبعد أنْ تمَّ هذا توجَّه الفارس إلى الملك، ولماَّ رآه بمفرده قال له:

– يا أيُّها الرَّجل الطَّيِّبُ ما هذا الوطن الذى يتم فيه الاعتداء على الفرسان الجائلين ؟

قال له الملك :

– لا تندهشوا من ذلك يا أيُّها الفارس، فكما فى جميع الأوطان يوجد الفرسان الطيِّبون والأشرار يوجد أيضًا فى هذا الوطن، وهذان اللذان تتحدَّث عنهما لم يرتكبا الآثام والأذى الكبير فقط فى حق الرَّعايا، بل اقترفا ذلك في حقِّ ملكهما وسيدهما، ولم يستطع القصاص منهما؛ فلكونهما قريبين جدا من أقارب الملك قد اقترفا كثيرًا من الآثام والفظائع فى المدينة، وكذلك في هذا الجبل الكبير الذى يعيشان فيه.

قال له الفارس :

– إذن جئت أبحث عن ذلك الملك الذى تتحدَّثون عنه، جئت من أراضٍ بعيدة، وأحضر له أخبارًا من صديقٍ كبيرٍ له، وإذا كنتم تعرفون مكانه فإننى أتوسَّل إليكم أن تخبرونى به .

قال له الملك :

– ليحدث ما يحدث، لن أتخلَّى عن الإفصاح لكم عن الحقيقة : اعلموا أنَّنى الملك الذى تبحثون عنه.

– نزع الفارس درعه وخوذته وأعطاهما لحامل أسلحته، وذهب ليعانقه، وأخبره بأنَّه هو بيريون ملك جاولا الذى كان توَّاقًا لمعرفته.

غمرت السَّعادة كلا الملكين؛ لأنَّهما التقيا وتحدَّثا عن كثيرٍ من الأمور، وتوجَّها إلى المكان الذى كان يوجد فيه الصيَّادون؛ لكى يذهبا إلى المدينة، لكن قبل ذلك جاءهم ظبىٌ أرهقته مطاردة مطاردى الصَّيد وأفلت منهم، فركض الملكان بجواديهما بأقصى سرعةٍ رغبةً فى صيده، لكن حدث ذلك بطريقة أخرى، لأنَّهما عندما خرجا من بعض الأحراش الكثيفة كان أمامهم أسدٌ، لحق بالظبى وقتله، بعد أنْ بقر بطنه بمخالبه، وأبدى شجاعته وسوء نيته ضدِّ الملكين، ولما رآه الملك بيريون هكذا، قال :

- لا تكن غاضباً واترك لنا جزءًا من الصَّيد.

واستل أسلحته ونزل عن الجواد، الذى انتابه الهلع من الأسد القوى الذى لم يرد الانصراف، فوضع درعه أمامه، وأمسك بالسَّيف في يده، وتوجَّه إلى الملك، ولم تعقه الأصوات العالية التى صدرت عن الملك جارتينير. ترك الأسد الفريسة وتوجَّه صوب الملك بيريون، والتحم الاثنان، فهجم الأسد على بيريون وأسقطه على الأرض وكان على وشك أنْ يقتله، لم يفقد لكن الملك شجاعته الكبيرة فأصابه بسيفه فى بطنه فأسقطه على الأرض صريعًا أمامه، كان الملك جارتينير مذعوراً ويقول فى نفسه :

- ليس سدى أنَّ الملك مشهورٌ بأنَّه أفضل فارس فى العالم.

تمَّ هذا، وتم تجميع النَّاس كلهم، ثم حمل الأسد والظبى على جوادين وأخذوهما إلى المدينة في سعادةٍ بالغة. وقد تمَّ إبلاغ الملكة بقدوم هذا الضَّيف الكبير، فتمَّ تجهيز القصور الكبيرة، وزيِّنت بأفخر وأفخم الزِّينات، وأعدَّت الموائد، وعلى أعلى مائدة جلس الملكان وبجوارهما إيليسينا نجلتهما، وقد خُدِما على أفضل ما يكون لكونهما فى حضرة رجلٍ طيِّبٍ. وبينما كان الجميع يستمتعون بهذه السَّعادة البالغة، وعندما ذهبت تلك الأميرة الحسناء، وكان الملك بيريون على قدرٍ كبيرٍ جدا من الجمال المماثل، إلى جانب شهرته الكبيرة من جرَّاء بطولاته فى فنون استخدام الأسلحة فى مختلف أنحاء العالم، ولمَّا رأى كل منهما الآخر، لم تستطع الأميرة الحسناء، ولم تتمكن الحياة الدينية العفيفة أن تمنع إيليسينا من الوقوع فى حبِّ الملك بيريون، ولم تستطع الأميرة الفاتنة الفكاك من أسر ذلك الحبِّ، وكذلك لم يتمكَّن الملك بيريون الإفلات من حبِّها، لم يكن قلب بيريون خاضعًا لأيَّة فتاة أخرى حتى ذلك الحين فقد كان خاليًا تمامًا، لدرجة أنهما ظلاَّ طوال وقت المائدة ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر وهما شبه فاقدى الوعى . وبعد انتهاء الطَّعام أرادت الملكة الذهاب إلى غرفتها، أمَّا إيليسينا فحينما أرادت النُّهوض سقط من تنورتها خاتمٌ جميلٌ جدا كانت قد انتزعته من إصبعها لتغسله، ومن الاضطراب الكبير لم تتذكَّر أن تعيده إلى إصبعها، ونزلت لتأخذه، لكن الملك بيريون الذى كان قريبًا منه أراد أنْ يعطيها إياه، هكذا وصلت اليدان فى آنٍ واحد، فأمسك الملك بيدها

وضغط عليها، احمرَّ وجه إيليسينا خجلاً، ونظرت إلى الملك بعينين عاشقتين وقالت للملك: إنَّها تشكره جزيل الشُّكر على تلك الخدمة الجليلة.

– آي ياسيدتي – قال بيريون – فلن تكون الأخيرة، بل كلُّ حياتي سأكرِّسها لخدمتك.

انصرفت إيليسينا في أعقاب والدها باضطراب كبير لدرجة أنَّها كانت شبه فاقدةٍ لبصرها، ولم تستطع هذه الأميرة –التي تغلَّبت على فكرتها القديمة بمزيدٍ من القوة– تحمل هذا الألم الجديد، فباحت بسرِّها لفتاةٍ من فتياتها كانت تثق فيها ثقةً كبيرةً، وكانت تُدعى داريوليتا، وبدموعٍ في عينيها ومزيدٍ منها في قلبها طلبت منها النُّصح لكي تعرف ما إذا كان الملك بيريون قد أحبَّ امرأة أخرى، وما إذا كان ذلك الوجه العاشق الذي أظهره لها لدرجة أنَّ حبَّه اقتحم قلبها بقوةٍ كبيرةٍ مما أصاب الفتاة بالذُّعر لهذا التَّغيير الفجائي، لإنسانةٍ بعيدةٍ كلَّ البعد عن مثل هذه الأمور، فأشفقت الفتاة على تلك الدُّموع الرَّقيقة، وقالت لها :

– سيدتي، إنَّني أرى جيداً أنَّه طبقًا لتلك العاطفة الجيَّاشة لهذا الحبِّ المستبد الذي هيمن عليك، والذي لم يترك مجالاً في عقلكم لنصح أو لإرشاد، فإنَّني التزامًا بواجبي في خدمتكم كما ينبغي، ليس أمامي بد سوى الالتزام والطاعة، سألبي كلَّ ما تأمرينني به منتهجةً في ذلك نهجًا شريفًا وأمينًا ورغبتي الكبيرة في خدمتكم قدر استطاعتي.

حينئذ انصرفت عنها، وتوجَّهت إلى غرفة الملك بيريون التي كان يقيم فيها، فوجدت حامل أسلحته لدى الباب بالملابس التي أراد تقديمها له لكي يرتديها، وقالت له :

– يا صديقي اذهب للقيام بأمرٍ آخر، سأظلُّ هنا مع سيدكم وسأسعده.

فكَّر حامل الأسلحة في أنَّ ذلك فيه مزيدٌ من التَّشريف والتَّكريم، فأعطاها الملابس ورحل عن هناك. دخلت الفتاة حجرة الملك بيريون الذي كان في فراشه، وعندما رآها عرف أنَّ تلك الفتاة كانت مع أخرى تتحدَّثان مع إيليسينا، وأنَّها لم تأت إلاَّ بحل لإشباع رغباته الفانية، وقد تزايدت نبضات قلبه، وقال لها :

- يا أيَّتها الفتاة الطيِّبة، ماذا تريدين ؟

- أريد أنْ ألبسكم ملابسكم - قالت داريوليتا.

- إنَّ ذلك ينبغي أنْ يكون كساء القلب -قال الملك بيريون- الذى حُرِم من السَّعادة والمتعة فهو عريان تماماً.

- فى أىِّ صورة ؟ قالت داريوليتا.

- إنَّنى جئت إلى هذا الوطن - قال الملك بيريون - وأنا حر طليق، كنت أخشى المغامرات فقط، وأنْ تقهرنى الأسلحة، لا أدرى بأىِّ شكل عند دخولى إلى منزل سادتك أصبحت جريحاً مصاباً بالجراح والقروح القاتلة، وإذا كنت فتاةً طيِّبة بوسعك أنْ تقدِّمى لى أىَّ دواء لعلاجها، وسيكون لك من جانبى خير الجزاء.

- بالتَّأكد ياسيدى -قالت داريوليتا- وسأكون فى غاية السَّعادة أن أخدم رجلاً ذا مكانة مرموقة وفارساً طيِّباً مثلكم، إذا عرفت فى أىِّ أمر أخدمكم فيه.

- إذا وعدتِنى -قال الملك- بصفتك فتاة وفيَّة مخلصة بألاَّ تكشفى هذا السِّر إلاَّ عندما أخبرك بذلك.

- قولوا ذلك دون ارتيابٍ - قالت الفتاة -سأحفظه تماما لكم.

- إذن ياسيدتى الصَّديقة -قال الملك- أقول لكم إنَّنى فى لحظة سيئةٍ رأيت جمال سيدتكم إيليسينا الباهر، وأنا معذَّب بسبب همومى وكروبى وأحزانى لدرجة أنَّنى على وشك الموت، وإذا لم أجد حلاً فلن أصفح عن نفسى.

كانت الفتاة تعرف تماما ما يشغل قلب سيدتها فى هذه الحالة -كما سمعتم من قبل- فغمرتها سعادةٌ بالغةٌ عندما سمعت ذلك، وقالت له :

- ياسيدى، إذا وعدتمونى بصفتكم ملكًا فى صون وحفظ الحقيقة أكثر من أىِّ شخصٍ آخر، ولكونكم فارسًا واستنادًا إلى شهرتكم التى نلتموها من جرَّاء تعرضكم لكثير من الأخطار أنْ تتزوَّج سيدتى عندما يحين وقت ذلك،

سأضعكم في مكان حيث لا يسعد قلبكم فقط، فإن قلبها لحسن الطالع يعاني هموماً وكروباً أكثر منكم منذ أن أصبتم بالقرح، وإذا لم يحدث ذلك، وإذا لم تلتزموا بذلك فلن أصدِّق كلامكم وسأعتبره لم يخرج عن حب حقيقي وفي.

كانت إرادة الملك تهيمن عليها إرادة الله لكي تتحقَّق له أمنيته كما ستسمعون فيما بعد، فأمسك بسيفه الذى كان قريباً منه، ووضع يده اليُمنى على الصليب، وقال :

– أقسم بأنَّني سأنفِّذ لكوني فارساً ما تأمرينني به يا أيَّتها الفتاة عندما تأمرني بذلك سيدتك إيليسينا

– إذنْ أبشروا –قالت الفتاة– فسأنفِّذ ماقلته لكم، وانصرفت عنه وعادت الي سيدتها، وقصَّت عليها ما اتفقت عليه مع الملك بيريون، فغمرتها سعادةٌ بالغةُ في نفسها، وعانقتها، وقالت لها :

– ياصديقتي الحقيقية، متى أرى تلك السَّاعة التي سأكون فيها بين ذراعي ذلك الملك الذى أعطيتنيه؟!.

– الآن سأقول لكم – قالت الفتاة – أنتم تعلمون ياسيدتي، كيف أنَّ تلك الغرفة التي يأوي إليها الملك بيريون، لها باب يُطلُّ على البستان، حيث اعتاد والدكم الخروج أحيانا للتنزه، إنَّها الآن مغطاةٌ بالسَّتائر، ومفتاحها معي، إذنْ عندما يخرج من هناك، سأفتحها، وبما أنَّ ذلك سيكون ليلاً، وسيكون أهل القصر في راحة وسكون، يمكننا الدُّخول من هناك، ولن يشعر بنا أحدٌ، وفي لحظة الخروج سأنادى عليكم وسأعود الي فراشكم.

عندما سمعت إيليسينا ذلك، ذُهِلت من الفرحة والسَّعادة، فلم تستطع الكلام، ولما عادت إلى نفسها قالت :

– ياصديقتي، أودعك كلَّ سرِّي، لكن إذا تحقَّق ما قلتِه فإنَّ والدى مع الملك بيريون في الغرفة، وإذا أحسَّ بذلك سيكون كلانا في خطرٍ داهمٍ ؟

– قالت الفتاة دعي ذلك لي فسأجد له حلا.

وبذلك انتهت محادثتها. وقضى الملك والملكة والأميرة إيليسينا طعام الغداء والعشاء، وعندما جنَّ الليل أبعدت داريوليتا حامل أسلحة الملك بيريون، وقالت له :

- أى يا صديقى أخبرنى عما إذا كنت رجلاً نبيلاً !

- نعم إنَّنى رجلٌ نبيلٌ، وأنا نجل فارس، لكن لماذا تسألين عن ذلك ؟.

- سأقوله لكم - قالت الفتاة - لأنَّنى كنت أريد أنْ أعرف منكم شيئًا، وأتوسَّل إليكم بحق الله والملك الذى أنتم فى خدمتة أنْ تخبرونى به.

- أقسم لك بمريم العذراء البتول - قال حامل أسلحة الملك بيريون - أنَّنى سأخبرك بكلِّ ما أعرفه شريطه ألاَّ يضرَّ ذلك بسيدى.

- أؤكد لك ذلك - قالت الفتاة - إنَّنى لن أسألكم لكى ألحق الضَّرر بملككم، ولن تضطروا لإفشائه لى، لكن ما أريد أنْ أعرفه هو أنْ تخبرنى من هى الفتاة التى يحبها ملككم حبا جما.

- سيدى! -قال حامل أسلحة الملك بيريون- إنَّه يحب جميع الفتيات بصفة عامة، لكنَّنى لا أعرف على وجه التأكيد أنَّه يحب فتاةً بعينها بالشَّكل الذى تتحدَّثين عنه.

وبينما كانا يتحدَّثان جاء الملك جارتينيز حيث كانا يتكلَّمان، ورأى داريوليتا مع حامل الأسلحة، فنادى عليها وقال لها :

- أنت فيم تتحدَّثين مع حامل أسلحة الملك بيريون ؟

- بحقِّ الله ياسيدى، سأخبركم به : لقد نادى علىَّ وقال لى إنَّ سيده اعتاد على النَّوم بمفرده، وينتابه خجلٌ كبير لرفقتكم إيَّاه.

ابتعد الملك عنها وذهب إلى الملك بيريون، وقال له :

- سيدى، إنَّ لدى كثير من الأشغال فى مملكتى، وإنَّنى أستيقظ مبكِّرًا جدا، ولكى لا أزعجكم، فإنَّه من الأفضل أن تظلُّوا بمفردكم فى الغرفة.

قال له الملك بيريون :

- افعلوا ياسيدى ما يحلو لكم.

- إنَّه ليسعدني ذلك، قال الملك جارتينير.

حينئذ أدرك أنَّ الفتاة داريوليتا قالت له الحقيقة، وأمر ضباط القصر بأنْ يخرجوا فراشه من حجرة الملك بيريون، وعندما رأت داريوليتا ذلك، وتحقَّق لها ما أرادت، ذهبت إلى سيدتها إيليسينا، وقصَّت عليها كل ما حدث.

- يا أيَّتُها السَّيدة الصَّديقة -قالت إيليسينا- أعتقد الآن أنَّ الله أراد أنْ يحقِّق أمنيتك، وأنَّ هذا سيكون من تدبير الله فأخبريني بما سنفعل، لأنَّ السَّعادة الكبيرة التى تغمرنى قد انتزعت منِّى معظم عقلى.

- سيدتى - قالت الفتاة - سنفعل هذه الليلة ما تمَّ الاتفاق بشأنه؛ فباب الغرفة الذى حدثتكم عنه سأفتحه.

- إذنْ أترك لك أمر مرافقتى عندما يحين الوقت. هكذا ظلُّوا مستيقظين حتى نام الجميع.

الفصلُ الأول

كيف تسلَّلت كل من الأميرة إيليسينا وخادمتها داريوليتا إلى حجرة الملك بيريون.

فى وقت خَلَدَ فيه الجميع إلى الرَّاحة والسُّكون، استيقظت داريوليتا وحملت معها إيليسينا بملابس النَّوم، حيث ما كانت تضع على جسدها سوى القميص، ثم لفَّت جسدها بدثارٍ رقيقٍ، وخرجتا إلى البستان تحت ضوء القمر السَّاطع. رمقت الخادمة سيدتها بنظرةٍ، ثم أماطت عنها دثارها، وجالت بناظريها بين ثنايا جسدها ثمَّ قالت ضاحكةً :

– سيدتى، لكم هو محظوظ ذلك الفارس الذى ترينه الليلة، وحسنا قالوا إنك صاحبة أجمل وجه بين فتيات عصرك.

ابتسمت إيليسينا ثم قالت :

– هذا هو قولك فىَّ، إنَّنى محظوظةٌ أنْ نلتُ هذا الفارس.

هكذا وصلتا إلى باب الحجرة، وحينما رأت إيليسينا نفسها ذاهبة إلى أسمى شىء تحبه فى حياتها ارتعدت فرائصها وحُبس صوتها فما استطاعت أنْ تنطق بكلمة، بدأتا تطرقان الباب ليفتح لهما، إلا أنَّ الملك بيريون الذى – بسبب الهم الذى اعتصر قلبه، والأمل الذى بثته في نفسه الخادمة – لم يتمكن من إغماض عينيه، حلَّ عليه التَّعب فى هذه اللحظة فغلبه النُّعاس فأسلم جسده للفراش، ثم رأى فى منامه أنَّ هناك شخصًا مجهولاً قد اقتحم عليه غرفته عبر باب زائفٍ، ثم أدخل يديه بين ضلوعه فانتزع قلبه وألقى به فى النَّهر. وهنا بادره الملك بقوله :

- لماذا فعلت بي كل هذه القساوة ؟ إنَّ هـــذا ليس بالكـثــير -قال الآخر فقد بقي لك قلب آخر- وسآخذه منك، وهو أمر لا إرادة لي فيه.

وهنا استيقظ الملك فزعًا، وقد أحَّس ضيقًا كبيرًا، فهرع إلى الصَّلاة، وفي هذه الأثناء كانت الفتاتان قد فتحتا الباب ودخلتا، وحين أحًس دخولهما خاف الخيانة لما رآه في منامه، وحين رفع رأسه نظر من خلال السِّتائر فرأى طيف الفتاتين، وهنا انتفض من سريره الذي كان يرقد عليه، واستل سيفه ودرعه وتوجَّه نحوهما، وحين رأته داريوليتا على هذه الهيئة، قالت له :

- ما هذا يا سيدي ؟ ألق سلاحك، فلست بحاجة إلى كل هذا في مواجهتنا. عرفها الملك، ثم نظر فرأى إيليسينا محبوبته، ألقى بسيفه ودرعه على الأرض، ثم التحف بدثار كان على سريره غالبا ما كان ينهض يحمله على جسده، ثم هرول صوب محبوبته ليلفها في أحضانه، وعانقته هي الأخرى كمن تعانق شيئًا فاق حبها لنفسها.

قالت داريوليتا لسيدتها :

- ابق، سيدتي، مع هذا الفارس، فأنت فتاة تمكنت من حماية نفسك حتى الآن في مواجهة الكثيرين، كما أنه قد دافع عن نفسه أمام الكثيرات، إلا أنَّه لن يبقى لديكما من قوة ليحمي كل منكما نفسه من الآخر.

وهنا أخذت داريوليتا تبحث عن سيف الملك الذي ألقى به على الأرض، وأخذته معها كإثبات لليمين والوعد الذي قطعه على نفسه ليتزوَّج من سيدتها، وخرجت قاصدةً البستان. ظلَّ الملك وحيداً مع صديقته، ووسط الضَّوء المنبعث من المشاعل الثَّلاثة التي أضاءت الغرفة نظر إلى محبوبته فرآها قد حازت جمال الدُّنيا كله، رأى الحظ قد حالفه أنْ هيَّأ له الله هذا الموقف، تعانق الحبيبان وذهبا ليأخذا مكانهما في فراشه.

كانت إيليسينا، بما حازت من جمال وشباب فائقين، محط أنظار العديد من الأمراء والعظماء من الرجال لزمنٍ طويلٍ، غير أنها لم تبد موافقة تذكر، وفضَّلت أنْ

تتمتَّع بوضعها آنسة، غير أنَّه في أقل من يوم، حين حملت فكرها وشردت به بعيداً عن هــذا الوضـع، وتمكـن الحــبُّ من كسـر السِّيــاج المنيع الذي فرضـتـه علي حيـاتها الشَّريفة المقدسة ، فقدته، فأصبحت من الآن فصاعداً تحمل وضعًا جديداً، لا وضع آنسةٍ، بل سيدةٍ.

من هنا نرى أن النساء حين يضعن حائلاً بينهن وبين التَّفكير في الأمور الدُّنيوية، ويحقرن الجمال الذي وهبته الطَّبيعة لهن، والشَّباب الغض الذي تزودهن به، والمتع التي وجب عليهن ارتيادها نظرًا للثَّروات الكثيرة التي حازها آباؤهن، ترى أولئك النسوة أنه من أجل خلاص أرواحهن يجب عليهن البقاء في البيوت محصورات، يقدمن خدماتهن عن طيب خاطر، ويخضعن لمطالب الغير، حيث يرقبن العمر يمر وما حققن أيَّة شهرة أو مـجدٍ في الحيـاة، مثلما يعـرفن عن تمتـع قريبـاتهن وأخـواتهن بكل ذلك، وهنا يصـبح عليهن تـغطية الآذان وإغماض العيـون، حتي لا يرين أحداً من أقاربهن أو جيرانهن، قاصـرات حيـاتهن على التَّأملات الأخلاقيـة الدِّينية، على الصَّلوات المقدسـة ، فينظرن إليها على أنها المتع الحقيقية، إذ يرين في تبادل الكلمات والنَّظرات إضـراراً بأهدافهن المقدَّسة ، بينما لم يكن الأمر هكذا بالنسبة للأميرة الجميلة إيليسينا، التي بعد أمد بعيد تمكَّنت من حبس نفسـها فيه، فتـغير هدفها، وتبدَّلت رغبتها، في لحظة، حين رأت جمـال الملك بيريون، ولولا رصـانة وخدمـة خادمتـها، التي أرادت إصـلاح شـرفـها عبر الزَّواج، فقد كانت مـصممةً بكل جوارحها على السُّقوط فيما هو أسوأ وأسفل بالنسبة لعارها، مثلها في ذلك مثل كثيرات غيرها يمكن إحصاؤهن في الحياة الدُّنيا. وحين صرفا أنظارهما عما قلناه سابقًا أقدما على فعل ما رأينا وسيفعلونه غير عابئين به.

وبينما يعيش المحبـان سلواهمـا سـألت إيليسينا الملك عما إذا كـان سيرحل بعد فترةٍ وجيزةٍ، فقال لها :

– لماذا تسـألين، سيدتي، هذا السُّؤال ؟

– لأنَّ قـدري السَّعـيد هذا – قـالت – الذي ألقى برغبـاتي الإنسـانيـة في كل هذا الإطار من المتـعة والراحـة، يهـددني بما يأتي به من حـزن وضـيق لرحيلك عني الذي سيجعلني أقرب إلى الموت مني إلى الحياة.

وحين استمع الملك إلى هذه الأسباب قال :

– لا تخافى هذا الأمر، فرغم بعدى عنك بجسدى، فإن قلبى سيظلُّ بجوار قلبك، وفى هذا الأمر قوةٌ لنا، وقوةٌ لك على تحمل المعاناة، ولى حتى أرجع بأسرع وقتٍ ممكنٍ، فرحيلى بدون قلبى لن يمكن أية قوة كائنة ما كانت من الوقوف أمامى.

حين رأت داريوليتا أنَّ الوقت قد حان للرحيل دلفت إلى الغرفة، ثم قالت :

– سيدتى، كم أرى سعادتك فى هذا الوقت، غير أنه من المناسب أن تنهضى وأنْ ننصرف، فقد حان الوقت.

نهضت إيليسينا، وقال الملك :

– ستتعلَّق نفسى بهذا المكان أكثر مما تظنين، وهذا بسببك أنت، وأرجوك ألا تنسى هذا المكان.

ذهبتا كلٌ إلى فراشها بينما ظلَّ هو فى سريره راضيًا بما قدمته إليه صديقته، غير أنَّه أصبح فزعًا للحلم الذى رويناه على مسامعكم، وهنا عاوده الحنين للرُّجوع إلى وطنه، حيث يعج بالعديد من الحكماء الذين بمقدورهم تفسير مثل هذه الرؤى، كما أنه كان يعرف شيئا من ذلك منذ نعومة أظافره. فى هذا الجو من المتعة عاش الملك بيريون عشرة أيام، طالبًا الرَّاحة إلى جوار محبوبته وصديقته كل ليلة، وفى نهاية هذه المدة – ورغم طمعه فى البقاء وما ذرفته محبوبته من دموع – باح بأنه لم يعد أمامه وقتٌ للبقاء، وعليه أنْ يرحل. وهنا أقبل يودِّع الملك جارتينير Gartinter والملكة، وتدَّرع بكل ما يملك من أسلحة، ثم بحث عن سيفه كى ينتطقه فلم يجده، ولم تواته الجرأة ليسأل عنه، وهو أمرٌ آلمه كثيرًا لأنه كان سيفًا جميلاً وجيداً، وقد أتى ذلك منه حتى لا ينكشف أمر الحب الذى جمع بينه وبين إيليسينا، وحتى لا يغضب الملك جارتينير، ثم أمر حامل سلاحه بأنْ يبحث له عن سيفٍ آخر، أحاط جسده كله بالدروع سوى رأسه ويديه، وامتطى جواده لا يصحبه فى الطريق سوى حامل سلاحه، وشق طريقه مباشرة صوب مملكته. وقبل أنْ يرحل تكلَّم إلى داريوليتا Darioleta التى أخبرته بمدى الحزن والوحدة اللتين ترك فيهما صديقته، ثم قال لها :

– آه صديقتى، أعهد بها إليك كقلبى تماماً.

وهنا نزع الملك من إصبعه خاتماً غاية فى الجمال مكوناً من فصَّين، يشبه أحدهما الآخر، ثم قدمه لصديقته كي تضعه في يدها علامة على الحب الذى جمع بينهما. هكذا وجدت إيليسينا نفسها وحيدة تعاني الوحدة والألم النَّاجمين عن فراق محبوبها، ولولا هذه الوصيفة التى تصحبها وتخفف عنها كثيراً، لعانت أكثر وأكثر، غير أنها كثيراً ما شعرت بالرَّاحة حين تتحدَّث إليها.

هكذا مرت الأيام حتى أحسَّت إيليسينا أعراض الحمل، وما عادت تأكل أو تنام ثم فقدت رونقها وجمالها. وهنا تفاقم الحزن والألم بدرجةٍ كبيرةٍ، وهو أمر له أسبابه ودوافعه، فقد كانت القوانين صارمةً آنذاك، إذ مهما بلغت المكانة الاجتماعية التى تتمتع بها المرأة لم تكن القوانين القائمة آنذاك تعفيها بأىِّ شكل من الأشكال، حين ارتكابها لجريمة الزنا، من عقوبة الموت، ولقد ظلت هذه العادة السيئة القاسية قائمةً حتى مجيء الملك الفاضل أرتوس Artus الذى فضل غيره من الملوك حكمًا، ثم أصدر أمراً بإبطال تلك العقوبة فى نفس الوقت الذى قتل فيه فلويان Floyan في معركة على أبواب باريس، غير أنَّ هناك العديد من الملوك الذين حكموا في الفترة ما بين حكمه وحكم الملك ليسوارتى Lisuarte أبقوا على ذلك القانون. ورغم وجود العهود التى قطعها الملك بيريون على نفسه مسجلة على نصل سيفه –كما تعلمون حضراتكم– والتى تبرئ ساحته أمام ربه، فليس لها نفس الفاعلية أمام الناس، فهى وعود تتوارى عن عيون الجميع، ولم يكن ممكنًا أنْ تحيط صديقها علماً بما حدث، لكونه شاباً يافعاً يفتخر بشجاعته وبسالته، وما لجأ إلى الرَّاحة والمتعة فى أى مكان إلا ليحوز الشَّرف والشُّهرة، وما قضى وقته فى شيءٍ آخر سوى التنقل من مكان إلى آخر فى صورة فارسٍ متجولٍ. وهكذا، لم يعد أمامها من وسيلة لإنقاذ حياتها، وأصبح أمر الموت هيناً في نظرها، فقد رغبت في وداع الدُّنيا، كما ودعت من قبل سيدها المحبوب وصديقها الحميم، غير أن ذلك السَّيد القدير، الذى بإذنه حدث كل ذلك لأجل متعته، استودع تلك القدرة والفطنة خادمتها داريوليتا، التى غدت مساعدتها كافية لمعالجة الأمر، كما ستسمعونه الآن.

فى ذلك القصر الذى كان يمتلكه الملك جارتينير وجدت غرفة منزوية، ذات قبو، فوق نهر يمر من أمام القصر، وكان لها بابٌ من الحديد كانت الفتيات يخرجن منه أحيانًا للنُّزهة، وظلَّت خالية لم يسكنها أحد، وهنا، وبعد نصيحة قدمتها داريوليتا طلبت إيليسينا من والديها من أجل معالجة الوضع السَّيئ الذى أحاط بها وحياة العزلة التى تعيشها –وهو أمر دائمًا ما كانت تتوق إليه– أنْ يتركا لها الغرفة، حتى تتمكن من إقامة صلواتها دون مضايقةٍ من أحدٍ، سوى داريوليتا، التى تعلم آلامها، والتى تريدها فى خدمتها وصحبتها، وهو أمر حصلت عليه بكل سهولة منهما، بعد أنْ ظنَّا أنها ما أرادت ذلك إلا لرغبتها فى إصلاح الجسد بصحة أكبر، والرُّوح بمزيد من التَّقشف والصَّلابة، ثم قدما مفتاح الباب الصَّغير للخادمة حتى تحفظه وتفتح به الغرفة كلما أرادت ابنتهما اللجوء إلى السَّلوى. هاهى إيليسينا تتبوأ مقعدها بالغرفة فأحسَّت بشىء من الرَّاحة لوجودها فى هذا المكان، إذ ترى أنه هنا فقط يمكنها أنْ تجد علاجًا لحالتها الخطرة، ثم اجتمعت وخادمتها للتَّشاور بشأن المولود القادم.

– ماذا هناك سيدتى ؟ –قالت الخادمة – أقدم نفسى، فداءً لحريتك.

– آه، يا ماريا القديسة ! –قالت إيليسينا– كيف لى أن أسمح بقتل ذاك الذى أتى بأفضل الطرق وأحبها إلى نفسى فى هذه الدنيا ؟

– لا تشغلي بالك بهذا الأمر –قالت الخادمة– إذا ما أقدموا على قتلك فلن يكون هذا مصير المولود.

– مع قتلهم لى على أنى مذنبة –قالت إيليسينا– فليس لهم أن يتركوا الطِّفل البرىء يعانى الموت.

– لنكف عن مواصلة الحديث فى هذا الشَّأن – قالت الخادمة – فمن الجنون أنَّه من أجل إنقاذ شىء لا فائدة من ورائه أن توجه الإدانة إليك وإلى محبوبك، الذى لا يمكنه العيش بدونك، وفى حياتكما أنت وهو بإمكانكما إنجاب كثير من الأبناء، الذين لن يخرجوا إلى الحياة مع تمنى الموت.

ولكون الخادمة تتمتَّع بفطنة عالية وتتحرك بفضل من ربها، أرادت البحث عن مخرج قبل وقوع الكارثة. وهذا ما فعلته؛ وجدت أمامها أربعة ألواحٍ كبيرةٍ، إذا ما صنع منها صندوقٌ أمكن لمولود الاختفاء داخله بملابسه، كما أنها ستمكن من صنع صندوق طويل كالسيف، وكلفت بإحضار شيء أشبه بالقار يمكنها من لصق الألواح بعضها ببعض، بحيث تمنع نفاذ الماء إلى داخل الصُّندوق، ثم أخفت كل شئ تحت سريرها دون أن تحس إيليسينا شيئًا، إلى أن تمكنت بنفسها من تجميع الألواح ولصقها بذاك القار القوى، فجعلتها متساوية ومحكمة الصنعة كما لو كانت قد خرجت من بين يدى معلم ماهر، وهنا أرتها لإيليسينا، ثم قالت :

– ما رأيك سيدتى فى هذا، ولأى شئ صنع ؟

– لا أدرى – قالت إيليسينا.

– ستعلمين مهمته – قالت الخادمة – حين يصبح الأمر ضروريًا.

قالت إيليسينا :

– لا ألقى كثير بال لأمر لا طائل منه، فأنا على وشك أنْ أفقد صوابى وبهجتى.

حزنت الفتاة حزنًا شديداً أن رأت سيدتها فى هذه الحال، وحين اغرورقت عيناها بالدَّمع فرَّت من أمامها، حتى لا تراها تبكى. لم يتأخر الوقت الذى أصبحت فيه إيليسينا على وشك الوضع، وشعرت بآلام لم تشعر بها من قبل، غريبة عليها، وهنا امتلأ فؤادها مرارةً وأسىً، وأصبح من المناسب لها ألا تئن أو تشتكى، حتى لا يتضاعف همها وحزنها. وفى نهاية الأمر شاء الرب القدير أن تلد مولودها دون أن يصيبها نصبٌ أو أذىً، وما إن حملته الخادمة بين يديها حتى وجدته آيةً فى الجمال، لم تتوان فى تنفيذ ما يجب فى هذه الحال، الذى يتوافق مع ما دبرته آنفا، ثم لفته فى قماش فاخر، ووضعته قريبًا من أمه، ثم أحضرت الصُّندوق الذى تعلمونه، وهنا قالت لها إيليسينا :

– ماذا تصنعين ؟

– أود أن أودعه هذا الصُّندوق ثم ألقيه في اليم – قالت الخادمة – وليحفظه الإله.

– حملته بين ذراعيها باكيةً بكاءً مريرًا، ثم قالت :

– آه، يا صغيرى لا تدرى كم سأحزن لفراقك !

تناولت الخادمة ريشة وورقة، ثم خطت رسالةً تقول : "هذا هو أماديس حديث الولادة من أسرة ملكية."

وقد كتبت الخادمة تعبير "حديث الولادة" اعتقاداً منها بأنه سيموت لاحقًا، وكان هذا الاسم محل تقدير لكونه اسمًا لأحد القديسين الذى عهدت بالتَّسمية إليه. غطت الرسالة عن آخرها بالشَّمع ثم علقتها فى حبل ربطته حول عنق الطِّفل. وهاهى إيليسينا ما زالت تحتفظ بالخاتم الذى قدمه لها الملك بيريون حين وداعه لهما، فعلقته فى الحبل نفسه، وفى ذات الوقت الذى قامتا فيه بوضع الطِّفل داخل الصُّندوق وضعتا أيضًا سيف الملك بيريون الذى أطاح به على الأرض فى أول ليلة بات فيها معها -كما تعلمون- وكان فى حوزة الخادمة، ورغم أنه كان سيفًا عزيزًا على الملك، إلا أنه لم يجرؤ قط على السُّؤال عنه، وذلك حتى لا يثير غضب الملك جارتينير على أولئك الذين دخلوا الغرفة.

وعقب الانتهاء من هذا العمل، وضعت الخادمة بعض الألواح المحكمة كغطاء للصُّندوق، بحيث لا يمكن للماء أو أىٍّ شىء آخر النفاذ إلى داخله، ثم حملت الصُّندوق بين يديها وفتحت الباب، ثم ألقت به فى اليم فحمله، وحيث كان الموج هائلاً وشديد، فسرعان ما حمل الصُّندوق فألقاه فى البحر الذى كان على مسافة نصف فرسخ. فى هذه الأثناء أطلَّ الفجر بنوره على الدُّنيا، ووقع شىءٌ عجيبٌ، من تلك العجائب التى تقع حين يريد المولى ذلك؛ وجدت فى تلك الأثناء سفينة تُبحر فوق أمواج البحر على متنها فارس اسكتلندا تصحبه زوجته، التى خرجت من بريطانيا الصُّغرى بعد أنْ وضعت مولودها الملقب بجندالين Gandalín، أمَّا الفارس فكان يُدعى جنداليس Gandales. كانت السَّفينة متوجهة بسرعةٍ فائقةٍ صوب اسكتلندا، وكان

الصَّباح مشمسًا في غاية الوضوح فتمكنا من رؤية الصُّندوق الذي كان طافيًا على سطح الماء، نادى الملك أربعةً من البحارة ثم أمرهم بأن يسرعوا في النزول إلى الماء بقارب صغير ليأتوا إليه بذاك الصُّندوق، وقد صدع الجميع بالأمر فأحضروه في الحال رغم أنه كان في مكانٍ بعيدٍ عن السَّفينة. أخذ الفارس الصُّندوق فنزع عنه غطاءه، ثم رأى الطِّفل فحمله بين ذراعيه، وقال :

- لقد وفد هذا الطِّفل من بيتٍ كريمٍ.

وقد بني الفارس قوله على أساس القماش الذي كان يتدثَّر به الطِّفل والخاتم والسَّيف، الذي رآه في غاية الجمال، ثم أخذ يسبُّ تلك المرأة التي دفعها الخوف إلى التخلي بهذه القسوة عن هذا الطِّفل، وبعد أنْ احتفظ بما معه من حاجيات أمر زوجته أن تكرم مثواه وتربيته، فأمرت بأنْ ترضعه نفس المرضعة التي تربى على يديها ابنها جندالين، أقبل الطِّفل على ثدي المرضعة برغبةٍ عارمةٍ في الرِّضاعة، ففرح الفارس وزوجته لرؤيته هكذا. سارت بهما السَّفينة عبر البحر وسط جو معتدل حتى وصلا إلى الميناء ومنه إلى مكان باسكتلندا يدعى أنطاليا Antalia، ثم رحلا من هناك إلى واحدة من أجمل القلاع التي يمتلكانها في تلك الأرض، حيث تعهدا الطِّفل بالرعاية كما لو كان ابنهما، واعتقد الجميع أبوتهما له، حيث لم يعد أحد يعرف شيئًا عن أولئك البحارة، الذين قد أبحروا في سفينتهم إلى وجهةٍ أخرى.

الفصلُ الثّانى

كيف كانت مسيرة الملك بيريون في الطّريق إلى جوار حامل سلاحه بقلب مصحوب بالحزن أكثر من الفرح

ما إن رحل الملك بيريون عن بريطانيا الصُغرى -كما أذيع على مسامعكم- حتى رأى نفسه أسيرة العذاب والحزن لما يشعر به من هم وضيق، فضلاً عن الشّوق والحنين إلى صديقته التى أحبها من كل قلبه، ونظرًا للرؤية التى رآها وسمعتموها، والتى ألحت عليه آنذاك وفور وصوله إلى مملكته بعث فى إحضار العظماء من رجاله الأثرياء، ثم أمر الأساقفة بأن يأتوا إليه بأفضل الرُهبان من مُفسرى الرُؤى أو الأحلام، حتى يفسّروا له الرُؤيا التى رآها.

وحين علم أتباعه بقدومه أقبل عليه من أرسل فى إحضارهم، وغيرهم الكثير يرغبون جميعًا فى رؤيته، فقد كان محبوبًا من الجميع، وغالبًا ما كانت قلوبهم تتألم لسماعهم الإهانات التى كانت تلحق به من جراء الحروب التى خاضها، لكنهم لم يستطيعوا إرجاعه عن هذا الأمر ووضع حد له، حيث لم يكن لقلبه القوى أن يحظى بالسعادة إلا حين يصبح الجسد فى خطر جسيم. تحدث الملك معهم فى أمور المملكة وغير ذلك من الأمور التى لم يقصروا فى أدائها، ولكن بدت عليه علامات الحزن طيلة حديثه إليهم، الأمر الذى غلفهم بالحزن الشديد. وفور الانتهاء من هذا الحديث فى شئون المملكة، أمرهم بالعودة إلى بلادهم، واستبقى عنده ثلاثة رهبان يعلم براعتهم فى معرفة الأمر الذى أراد، استصحبهم إلى مصلاه الخاص، وعند مقر القربان المقدس طالبهم بأنْ يقسموا على قول الحقيقة فيما سيسألهم عنه، وألا يخافوا شيئًا

مهما بدا لهم خطره. فى النِّهاية أمر قسيسه الخاص بالخروج وبقى بمفرده معهم، وفى تلك الأثناء أخذ يقصُّ عليهم رؤياه كما قلنا، ثم أمرهم بأنْ يستنبطوا منها ما يمكن أنْ يقع له. قال أحدهم -ويُدعى أونجان إلبيكاردو- وأكثرهم علمًا :

- سيدى، الأحلام عبثٌ، وهكذا يجب أنْ ننظر إليها، ولكن بما أنَّه يسعدكم تفسير رؤياكم بشىءٍ ما، فلتمنحنا مهلة نتدارس فيها ما يمكن قوله.

- هو لكم - قال الملك - لتبحثوا الأمر فى مدة اثنى عشر يومًا.

بدأ كل منهم فى إعمال ذهنه فى مجال التَّنجيم بكل ما أوتى من قدرة ومعرفة، وحين بلغ الكتاب أجله أقبلوا على الملك، الذى اصطحب ألبرتو دى كامبانيا فى مكانٍ منعزلٍ، ثم قال له :

- أنت تعلم ما أقسمت عليه، فأفصح عن قولك الآن.

- ليأت الآخرون - قال الرَّاهب - وأمامهم سأفصح عن رأيى.

- ليأت الجميع - قال الملك.

أتى الرُّهبان. وما إنْ اجتمعوا حتى قال ألبرتو :

- سيدى سأقصُّ عليك ما فهمته. فى رأيى أنَّ الغرفة التى كانت مغلقة جيدًا ورأيت أن أحدًا دخل من أصغر أبوابها فهذا يعنى أنَّ مملكتك ستظلُّ محصنةً محفوظةً إلى أنْ يدخلها شخصٌ من أحد جوانبها فينتزع منك جزءًا، وبما أنَّه قد مدَّ يده بين أضلاعك، فأخرج قلبك ثم ألقاه فى اليم، فسوف ينتزع منك إقطاعيةً أو قلعةً ثم يضعها فى قبضة من لا تقدر على استرجاعها منه.

- وماذا عن القلب الآخر -قال الملك- الذى قال إنه سيبقى معى وسوف يجعلنى أخسره رغما عنه ؟

- هذا - قال المعلم - فيما يبدو أنَّه سوف يدخل إلى مملكتك رجل آخر فينزع منك شيئًا مماثلاً، ويفعل ذلك مجبرًا من قبل شخصٍ آخر لا عن طيب خاطرٍ منه، وهنا لا أدرى، سيدى، ماذا أقول لك بعد.

وهنا أرسل الملك فى طلب الآخر، وقد كان يُدعى أنطاليس Antales ليقول رأيه. فَصَدَّق على كلِّ ما قاله الآخر، ثم قال :

- مع أنَّ النُّجوم تطلعنى على أنَّ الأمر قد وقع بالفعل، وعلى يد من تحبه حبا جما، وهذا ما يثير دهشتى، إذ حتى الآن لم تفقد شيئًا من مملكتك، وإذا ما حدث ذلك فلن يكون على يد شخصٍ يحبك.

وحين سمع الملك هذه الكلمات ابتسم قليلاً، إذ رأى أنه لم يقل شيئًا. غير أن أونجان إلبيكاردو -أعلمهم جميعًا- أطرق رأسه وضحك من كل قلبه، رغم أنه لا يفعل ذلك إلا نادرًا، حيث تنم طبيعته عن الخشونة والحزن. تأمَّل الملك قوله، ثم قال له :

- الآن، معلمنا قل ما تعرفه

- سيدى - قال المعلم - مصادفةً رأيت أشياء لا يجب أنْ أبوح لك بها إلا على انفرادٍ.

- إذنْ اخرجوا جميعًا خارج المكان -قال الملك.

- وحين أغلقت الأبواب وأصبحا وحيدين قال المعلم :

- تعلم، أيُّها الملك، أنَّنى ضحكت من تلك الكلمات التى سخرت منها، والتى قال فيها إنَّ الأمر قد وقع على يد من يحبك حبا جما. والآن أودُّ أنْ أُفصح لك عما يكنه صدرك وتظن أنَّ أحدًا لا يعلمه: إن لك محبوبة فى ذلك المكان الذى قضيت فيه حاجتك، وتلك المحبوبة على قدرٍ كبيرٍ من الجمال. وأفصح له عن جملة ملامحها كما لو كانت ماثلة أمامه.

- وأمَّا عن الغرفة التى رأيتها مغلقة فأنت تعلمها حقا، وبما أنَّ المحبوبة أرادت أنْ تنزع من قلبك وقلبها تلك الهموم والأحزان فقد رغبت دون علمك الدخول عبر الباب الذى لم يكن فى حسبانك، وأما اليدان اللتان امتدتا إلى أضلاعك فهما كناية عن عناقكما، والقلب الذى استخرجته يعنى ابن أو ابنه من صلبكما.

- إذنْ معلمي -قال الملك- وماذا يعني أنها ألقت به في اليم ؟

- هذا، سيدى، ليس مما يناسبك معرفته، فلن يفيدك فى شيء.

- رغم ذلك - قال الملك - عليك أنْ تبوح لي به ولا تخشى شيئًا.

- إذا ما كان يرضيك هذا -قال أونجان- فأطلب منك الأمان أنَّه رغم كل ما سأبوح لك به فلن يكون في صدرك ضيق من تلك التي تحبك فى أيِّ وقتٍ من الأوقاتِ.

- أعدك بهذا - قال الملك.

- اعلم - قال أونجان - أنَّ ما رأيتـه فى النَّهر هو ذلك الطِّفل الذى ألقت به والدته فى اليمِّ.

- والقلب الثَّانى - قال الملك - الذى يبقى لى، ماذا يعني ؟

- كان يجب أن تدرك - قال المعلم - أحدهما عن طريق الآخر، إنَّه سيكون لك ولد آخر، وبطريقة ما ستفقده رغمًا عن إرادة تلك التي أفقدتك ابنك الأول.

- قلت لي أمرًا جللاً - قال الملك - وأتمنَّى من الله ألا يصبح آخر ما رويته لي عن الأبناء حقيقة، فضلاً عن أمر السَّيدة التى أحبها حبا جما.

- إنَّ أوامر الله ووعوده - قال المعلم - لا يمكن لأحد أنْ يمنعها، أو أنْ يعلم مدى بلوغها، ولهذا فليس للناس أنْ يفرحوا أو يحزنوا لها؛ لأنَّه فى كثير من الأحيان يقع الخير والشُّر من الأمور للنَّاس بصورة غير التى كانوا ينتظرونها. وأنت أيها الملك النَّبيل، امح من ذاكرتك كل هذا الذى أردت هنا معرفته بشغف كبير، ولتضع مكانه دومًا التَّوسل إلى الله، الفعال لما يريد فى أمرك هذا وغيره، لأنَّ هذا هو -بلا شك- أفضل شيءٍ تصنعه.

ظلَّ الملك بيريون فرحًا جدا بما أراد أنْ يعرفه، وكانت فرحته أكبر بتلك النَّصيحة التى أسداها له أونجان إلبيكاردو، وداوم على هذا الحال، فكان خيرًا له وفضلاً. وحين خرج إلى القصر وجد فتاةً فى أبهى صورةٍ وأجمل زينةٍ، ثم قالت له :

- اعلم أيُها الملك بيريون، أنَّه حين تحين لحظة هلاكك سيفقد عرش أيرلندا زهوه.

ثم انصرفت دون أنْ يتمكن من إيقافها. هكذا ظلَّ الملك يفكِّر فى هذا الأمر وغيره.

هنا يتوقف المؤلف عن الخوض فى هذا الحديث، ثم يعود للكلام عن ذلك الصَّبى الذى يرعاه جنداليس، والذى أطلق عليه فتى البحر، وهو الاسم الذى أطلقه عليه الفارس جنداليس وزوجته وتعهداه بالرِّعاية فى أحسن صورها، حتى أصبح ذا حسن وبهاء، سلب أنظار المحيطين به. وذات يوم امتطى صهوة الجواد متدرعًا بسلاحه، فقد كان جنداليس فارسًا حقا وشجاعًا، ودائما ما كان يخرج فى صحبة الملك لانجينس Languines فى تلك الآونة التى تتابعت فيها المعارك، ورغم أنَّ الملك قد كف عن متابعتها، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنِّسبة لجنداليس؛ فكثيرًا ما ظل على حاله، وبخروجه متسلحًا كما قلت لكم عثر على فتاة قالت له :

- آه يا جنداليس، لو يعلم القوم ما أعلم الآن لقطعوا رأسك !

- لماذا ؟ -قال جنداليس.

- لأنك تحتفظ بما فيه موتهم - قالت هى.

ولتعلموا حضراتكم أنَّ هذه هى الفتاة التى أخبرت الملك بيريون بأنَّه حين تأتى نهايته سيكون فى هذا نهاية لعرش أيرلندا. لم يفهم جنداليس ما صرَّحت به الفتاة، وقال :

- أيَّتها الفتاة أستحلفك بالله أنْ تخبرينى ماذا يعنى ذلك.

- لن أخبرك به - قالت هى- غير أنه سيحدث.

وما إنْ انصرفت من أمامه حتى سلكت طريقها. ظل جنداليس يتأمَّل ما قالته، وبعد برهةٍ رآها تعود مسرعةً، تصيح بأعلى صوتها :

– آه جنداليس، أغثنى فأنا أحتضر !

التفت فرأى فارسًا مدججًا بالسِّلاح شاهرًا سيفه فى يده يجرى خلفها، وهنا ضرب جنداليس جواده بمهمازه، فأسرع حتى استوقفه بين الاثنين، ثم قال :

– أيُّها الفارس، الذى أتى بصحبة حظه التَّعس من قبل الرب، ماذا تريد من الفتاة ؟

– ماذا تقول ! –قال الفارس – أتريد حماية هذه التى سلبت منِّى جسدى وروحى بخداعها ؟

– أنا لا أدرى شيئًا عن هذا – قال جنداليس – غير أنه من واجبى الدِّفاع عنها، لأنه ليس من اللائق استخدام هذا الأسلوب فى تعليم النِّساء وتأديبهنَّ، رغم استحقاقهنَّ لذلك.

– سترى الآن – قال الفارس.

وبعد أنْ أدخل سيفه في غمده عاد إلي غابة من الأشجار توارت بها فتاةٌ حسناء، أعطته درعًا ورمحًا، وأخذ يعدو صوب جنداليس، وهذا بدوره نحوه، وصوَّب كل منهما رمحه فى درع الآخر، فقطَّعه إربًا، والتقيا بجواديهما وجسديهما معًا فى وحشيةٍ ضاريةٍ، فوقع كل منهما على الأرض جانبًا ومعهما الجوادان، ثم بذل كل منهما جهده في النُّهوض أولاً، ونشب العراك بينهما مترجلين، ولم يدم طويلاً، إذ تدخلت الفتاة الهاربة بينهما، ثم قالت :

– أيها الفارسان، ليظل كل منكما ساكنا فى مكانه.

وهنا توقف الفارس الذى أتى يلاحقها ثم ابتعد، فقالت له :

– لتمثل هنا أمامى.

– سأمثل راغباً –قال هو– كأغلى شيءٍ أحبه فى هذه الدُّنيا.

نزع الدِّرع عن رقبته والسَّيف من يده، ثم أقدم جاثيًا أمامها، وهنا أعرب جنداليس عن دهشته لما يحدث. ثم توجَّهت الفتاة بالكلام إلى الفارس الذى يجثو أمامها قائلةً :

– قل لتلك الفتاة المتوارية بين الأشجار أنْ تنصرف توا، وإلا فسوف أطيح برأسها.

التفت إليها الفارس، وقال لها:

– آه يا شريرة، إنَّنى أتعجَّب كيف لم أُطح برأسك حتى الآن ؟

هنا رأت الفتاة أنَّ صديقها كان مسروراً، فصعدت إلى الجواد باكيةً ثم انصرفت.

هنا قالت الفتاة :

– يا جنداليس، أشكر لك ما صنعته من أجلي، لتذهب تصحبك السَّلامة، وإذا ما كان هذا الفارس قد أخطأ فى حقى فقد عفوت عنه.

– لا عليَّ من عفوك عنه – قال جنداليس– فأنا لن أدع نزاله طالما لم يعترف بهزيمته.

– كف عن هذا – قالت الفتاة – فإذا ما كنت أفضل فارس فى الوجود فسأعمل على أن ينتصر عليك.

– لتفعلى أنت ما تريدين –قال جنداليس – أما أنا فلن أتركه حتى تقولى لى لماذا أخبرتنى بأنه يحمل سرَّ موت العديد من علية القوم.

– سأخبرك به توا – قالت هى – لأنَّنى أحبُّ هذا الفارس كحبِّى لصديقى، وأحبك حبَّ من مدَّ لى يد المساعدة.

وحينئذ أقصته، ثم قالت له :

- عدني بوصفك فارسًا وفيًا أنك لن تبوح قط بما أقوله لك لأحد حتى آمرك به.

أعطاها العهد، فقالت له :

- أخبرك بذاك الذى عثرت عليه في البحر، والذى سيكون زهرة فرسان عصره، سترتعد منه فرائص الشُجعان، على يديه يبدأ كل شىء وتنتهى على يديه حياة الآخرين، سيفعل هذا الشخص هذه الأشياء بحيث لا يصدق أحد أنها بدأت وانتهت بفعل إنسان، سيجعل من المتعجرفين أناسًا طيبين، سيحمل في قلبه قساوة لأولئك الذين يستحقونها وأزيد على ذلك، فهذا سيكون أوفى فرسان الدُنيا فى الحب، وسيكون حبه في ذلك المكان الذى يتناسب وماله من مفاخر عظيمة، ويعلم أنه ينحدر من أبوين ينتميان إلى أسرةٍ ملكيةٍ. هنا أنت قد علمته -قالت الفتاة- وصدقنى فسوف تقع الأحداث على النحو الذى ذكرته لك، وحين تكتشفها سيصيبك منها شرورٌ كثيرةٌ.

- آه سيدتى - قال جنداليس - أستحلفك بالله أنْ تقولى لى أين يمكننى العثور عليك كى أتكلّم معك فيما يخصُّه.

- هذا أمر لن تعرفه منِّى ولا من غيرى - قالت هى.

- إذا أخبرينى ما اسمك، بحق أغلى شىء تحبينه فى الدُنيا.

- كثيرًا ما ناشدتنى أنْ أخبرك به، غير أنَّنى لم أعلم أنَّ أفضل ما أحبه في هذه الدُنيا يكرهنى أشد ما تكون الكراهية، وهذا هو الفارس الجميل الذى ناصبته العداء، ورغم هذا فلن أتنازل عن أن أجعله طوع إرادتى دون دونما ما خيار له فى فعل شىء آخر. ولتعلم أنَّ اسمى هو أورجاندا لاديسكونوثيدا Urganda la Desconocida (أورجاندا المجهولة). والآن انظر إلىَّ وتعرَّف على إن استطعت.

وبعد أنْ رآها فى أول الأمر فتاةً لم تكن تتجاوز فى رأيه الثَّامنة عشرة من عمرها، رآها الآن عجوزًا شمطاء يلفها هزالٌ شديدٌ، فتعجَّب، وبدأ يصلى بيديه دهشة من هذه العجيبة. وحين رأته على هذه الحال مدت يدها فى صندوقٍ صغيرٍ كانت تحمله فى حجرها؛ كى لا تعود سيرتها الأولى، ثم قالت :

- أترى الآن أنَّك ستجدني حين تبحث عنِّي ؟ أقول لك لا تتحمَّس لهذا الأمر، فإذا ما خرج كل من في الأرض يبحثون عنِّي فلن يعثروا علي إذا لم أرد لهم ذلك.

- هكذا ليحفظني الرَّب -قال جنداليس- وهذا ما أعمله وأعتقده. غير أنِّي أستحلفك بالله أن تذكري ذلك الفتى الذي طرد من عناية الجميع إلا من عنايتي وحمايتي.

- لا تفكر في هذا الأمر- قالت أورجاندا - فهذا المخذول سيكون حاميًا وراعيًا للكثيرين، وأنا أحبه أكثر مما تعتقد، والآن أتركك في رعاية الله كي أرحل وسنرى ماذا أنت فاعلٌ.

تناولت الخوذة والدِّرع كي تسلمهما لصديقها، وأمَّا جنداليس الذي رآها حاسرة الرَّأس، بدت له في صورة أجمل فارس لم يره في حياته قط، وهكذا انفصل كل منهما عن الآخر.

رحلت أورجاندا مع صديقها، وظل السَّيد جنداليس الذي تحرَّك بعد مغادرته لأورجاندا صوب قلعته وفي الطَّريق قابل الفتاة التي كانت في صحبة صديق أورجاندا، والتي كانت تبكي بالقرب من إحدى النَّافورات، وحين رأت جنداليس عرفته، وقالت له :

- ما هذا أيُّها الفارس ؟ كيف لم تقتل تلك الخائنة التي ساعدتها.

- ليست بخائنة -قال جنداليس - لكنها طيبة ومجربة، ولو كنتِ فارسًا لجعلتك تدفعين ثمن الحماقة التي تفوَّهت بها الآن جيداً.

- آه يا لها من مسكينة -قالت هي- كيف تعرف خداع الجميع !

- وما خداعها لك أنت ؟ قال هو.

- سلبتني ذلك الفارس الجميل الذي رأيته؛ فلو تُرك وما يريد لاختار الحياة بجانبي على أن يعيش معها.

- فعلت هذه الخدعة بهذا الشَّكل -قال هو- لأنه ليس من المعقول أو من الفطنة أنْ يكون قسمةً بينكما وفق ما أرى.

- أيًا كان الأمر - قالت هى - سأنتقم منها حين يمكننى ذلك.

- هراء ما تفكِّرين فيه - قال جنداليس - أتودِّين إيذاء تلك التى تعلم ما ستقدمين على عمله قبل فعله، أو حتى قبل التَّفكير فيه.

- انصرف أنت الآن - قالت هى - فمرات كثيرة يقع أولئك الأذكياء فى أشدِّ المكائد خطورةً.

تركها جنداليس، وأخذ طريقه السَّابق يفكر فى مصير فتاه، وما إنْ وصل القلعة، وقبل أنْ ينزع عنه سلاحه، احتضنه بين ذراعيه وأخذ يقبله، انهمر الدَّمع من عينيه ثم قال فى نفسه :

- أيها الابن الجميل، لو أراد الله أن يمتد بى العمر حتى ألحق بزمانك!

كان الفتى قد بلغ الثَّالثة من عمره، وكان آيةً فى الجمال الذى أُسِر به النَّاس من حوله، وحين رأى سيده يبكى مسح الدُّموع بيديه، الأمر الذى أفرح جنداليس معتقداً أنَّه إذا ما وصل إلى سن متقدم، فكم سيتألَّم من الحزن، وهنا أنزله إلى الأرض ثم ذهب لينزع عنه أسلحته. ومن الآن فصاعداً بدأ جنداليس يهتم به على أفضل وجه حتى بلغ سن الخامسة. وعندئذ صنع له قوسًا على مقاسه وآخر لابنه جندالين، وأمرهما بالتَّدرب عليهما أمامه، وهكذا تعهده بالرِّعاية حتى سن السَّابعة.

فى هذه الأثناء حضر الملك لانجينس إلى قلعة جنداليس، فقد مَّر بها فى طريقه هو وزوجته وأفراد حاشيته، واستُقبل استقبالاً حسنًا. هنا أمر جنداليس بحبس فتى البحر وابنه جندالين مع غيرهما من الفتيان بأحد الأفنية؛ كى لا يروا أحداً، كانت الملكة تنزل بأعلى مكان بالبيت، وكانت تنظر من النَّافذة، فرأت الفتيان الذين كانوا يتدرَّبون على الأقواس، ورأت فتى البحر بينهم رشيقًا ووضيئًا كالقمر؛ فانبهرت كثيراً لرؤيته، رأته يرتدى ثيابًا أجمل من تلك التى يرتديها أقرانه، حتى بدى فى هيئته سيدهم، ولما لم تلحظ أحداً من حاشية السَّيد جنداليس كى تسأله طلبت خادمتها وفتياتها، ثم قالت :

- أقبلن على لترين أجمل مخلوقٍ لم يُر مثله قط.

وبينما ظلَّ الجميع ينظرنه كمن يرقب شيئًا عجيبًا آيةً في الجمال شعر الفتى بالعطش، فألقى بقوسه وسهامه على الأرض ثم ذهب إلى ماسورة مياه كي يشرب، وهنا تناول فتى يكبر الجميع قوس فتى البحر، وأراد أنْ يضربه، غير أنَّ جندالين لم يسمح له بذلك، فدفعه الآخر بقوة، هنا قال جندالين :

- أغثني يا فتى البحر !

وحين سمعه ترك ما كان قد ذهب من أجله وتوجَّه صوب الفتى الكبير، الذى ترك له القوس، فأخذه فى يده ثم قال :

- لقد جرحت أخى جُرحًا مهينًا.

ثم ضربه ضربةً موجعةً بالقوس على رأسه، ثم تعاركا، وحين رأى الفتى الكبير نفسه في مأزقٍ فر هاربًا، فلقى المؤدب الذى كان يرقبهم، فقال له :

- ماذا بك ؟

- إنَّه فتى البحر - قال - الذى جرحنى.

وهنا توجَّه نحوه يحمل الحزام، وقال :

- كيف هذا، يا فتى البحر ! أتتجرأ على جرح الفتيان ؟ سنرى الآن كيف أعاقبك على ذلك.

هنا خرَّ فتى البحر راكعًا أمامه، وقال :

- سيدى، كم أفضل أنْ تهيننى على أنْ يتجرأ أحد على أنْ يلحق الأذى بأخى.

وحين رأى المؤدب دموع فتى البحر تنهمر من عينيه أشفق عليه، وقال له :

- إذا ما فعلت هذا مرةً أخرى، سأجعلك تبكى حقًا.

- شاهدت الملكة كل هذا الحدث، وعلتها الدهشة لإطلاق اسم فتى البحر على ذلك الغلام.

الفصلُ الثَّالث

كيــف حمــل الملـك لانجينس معه فتى البحر، وجندالين ابن السَّيد جنداليس

في هذه الأثناء دخل الملك وجنداليس، فقالت الملكة :

- قل لي، يا سيد جنداليس ، أهو ابنك ذلك الفتى الجميل ؟

- نعم سيدتى- قال هو.

- إذن لماذا يطلقون عليه اسم فتى البحر ؟

- لأنه وُلِد فى البحر - قال جنداليس - لحظة عودتي من بريطانيا الصُغرى .

- بالله إنَّه لا يشبهك كثيرا - قالت الملكة.

قالت ذلك لما كان يتمتع به الفتى من جمال، وأما السَّيد جنداليس فقد كان يتمتع بالطِّيبة أكثر من الجمال، وهنا نظر الملك إلى الفتى فأسره جماله، ثم قال :

- أحضره إلي، يا جنداليس، فأنا أود أنْ أرعاه.

- سيدى -قال جنداليس- نعم سأفعل، غير أنَّه ليس الآن في سن تسمح له بأنْ يفارق أمه. وهنا ذهب ليحضره، وأتى به، ثم قال له :

- يا فتي البحر، هل ترغب فى الذَّهاب مع سيدى الملك ؟

- سأذهب إلى حيث تأمرني - قال الفتى - وليذهب أخي معي.

- ولن أمكث هنا بدونه - قال جندالين.

- أرى سيدى -قال جندايس- أنْ تأخذهما معا؛ فما لهما من رغبة فى الانفصال.

- هذا يسعدنى كثيرا- قال الملك.

وهنا قرَّبهما منه، وبعث فى طلب ابنه أجراخيس Agrajes، ثم قال له :

- بُنى، أحب هذين الغلامين كثيرًا، فأنا أحُّب والدهما كثيرا.

وحين رأى جندايس هذا الموقف، وأنَّ الفتى المعروف بفتى البحر قد أصبح فى حوزة آخر لا يوازيه فى الرِّفعة، أجهش بالبكاء، ثم قال فى نفسه :

- بُنى الجميل، هأنت بدأت فى سنٍ مبكرةٍ السَّير فى طريق المغامرات والمخاطر، والآن أراك فى خدمة من كان عليهم خدمتك، ليحفظك الرَّبُ ويهديك لخدمته وخدمة شرفك، وليجعل تلك الكلمات التى قالتها عنك الحكيمة أورجاندا حقيقةً يومًا ما، وليمهلنى حتى يأتى ذلك اليوم الذى تظهر فيه عجائبك فى ساحة الوغى التى تنتظرك.

هنا، وبعد أنْ رأى الملك أنَّ عينيه قد اغرورقتا بالدُّموع قال :

- ما اعتقدت يومًا أنَّك بكل هذا الجنون.

- لست مجنونًا بهذه الدَّرجة التى ترونها -قال جندايس- لكن لو أذنت لى، سأقول شيئًا فى حضرة الملكة.

- وهنا صدر الأمر بانصراف الجميع، وبدأ جندايس حديثه إليهما :

- أيُّها الملك، أيتُّها الملكة، هأنتما تعلمان حقيقة هذا الفتى، لقد لقيته فى البحر.

ثم حكى لهما القصة كاملة، وروى لهما ما أخبرته به أورجاندا.

- والآن اصنعا معه ما يمليه عليكما الواجب، فهو -يرحمنى الله- حسب الملابس التى كان يرتديها ينتمى فى رأيى إلى أصلٍ عريق.

- سُرَّ الملك لسماع ذلك، وأعظم قدر الفارس الذى رعاه وحفظه، ثم قال للسيد جندايس:

– لقد حفظته العناية الإلهية بقدرٍ كبير، وعلينا أنْ نوليه العناية نفسها عند تعهده وتربيته، وأنْ نكرم مثواه طيلة ما يلزم من الوقت.

هنا قالت الملكة :

– أريده لنفسي –إذا ما راق لك ذلك– طيلة عمره الذى يصلح فيه لخدمة النساء، ثم يكون لك فيما بعد؛ فمنحها الملك إيَّاه.

وفى صباح اليوم التَّالى رحلوا عن المكان، حاملين الفتيان معهم، وساروا فى طريقهم عائدين. وأحيطكم هنا علما بأنَّ الملكة تعهدَّت فتى البحر بالرعاية الفائقة، والأمانة المطلوبة كما لو كان ابنها تماماً. ولم يذهب مجهودها الذى بذلته لذلك سدى، لأنَّ الفتى كان عبقريا، وذا أصلٍ نبيلٍ انعكس على طباعه، فأخذ يتعلم الأشياء أفضل وأسرع من أقرانه الباقين، أحبَّ الصَّيد والجبال كثيراً، بحيث لو تركوه لانشغل بهما دومًا مستخدمًا قوسه، ومطعمًا كلاب الصَّيد الطَّعام الذى تهواه. سُرَّت الملكة لوضعه هذا، ولم تكن تسمح له بأنْ يغيب عن حضرتها.

يعود المؤلف هنا للحديث عن الملك بيريون وصديقته إيليسينا. وكما تعلمون فقد وصل بيريون إلى مملكته، واستراح بها بعد أنْ تشاور مع الرُّهبان الذين عبروا له رؤياه، وأخذ يفكِّر مراراً وتكراراً فى الكلمات التى قالتها له الفتاة، دون أنْ يستطيع فهمها. وبعد عدَّة أيَّام، وهو فى قصره، دخلت فتاةٌ عبر الباب، وأعطته رسالةً من إيليسينا صديقته، تخبره فيها بموت والدها الملك جارتينير، وأنها قد أصبحت وحيدةً، وليشفق عليها، فلقد همَّت أختها ملكة اسكتلندا، وزوجها الملك بانتزاع ملكها. وعلى الرَّغم من أنَّه قد حزن لوفاة الملك جارتينير حزنًا كبيراً، فإنه كان فرحا حين فكَّر فى الذَّهاب إلى محبوبته، التى لم ينسها يوما، ثم قال للفتاة :

– الآن اذهبى، وقولى لسيدتك إننَّى لن أتوانى فى الحضور إليها قدر استطاعتى.

عادت الفتاة سعيدة جدا، فى حين جهز الملك ما يلزمه من عتادٍ ورجالٍ، ثم أخذ طريقه مباشرة صوب مقر إيليسينا، قطع شوطًا طويلاً، وصل فى نهايته إلى بريطانيا

الصُّغرى، حيث جاءته أنباءٌ تشير إلى أنَّ الملك لانجينس قد أحكم قبضته على البلاد، فيما عدا تلك المقاطعات التي تركها والد إيليسينا لها، وحين علم بوجودها في إحدى المقــاطعـات المعروفة باسم أكارتي Acarte مــضى إليـها، واستُقبل استقبالاً حسنًا، لا يصفه كلام قط، واستقبلها هو الآخر استقبالاً حارًا، فقد جمع الحب بينهما بقوة؛ طلب منها الملك أنْ ترسل في طلب جميع أقاربها وأصدقائها؛ لأنَّه يود أن يتزوجها. هكـذا فعلت إيليسينـا على الــرَّحب والسَّعـة، فقد كان هذا هو منتهى ما تصبو إليه وتتمنَّى.

وحين علم الملك لانجـينس بقـدوم الملك بيـريون، وكـيف أنَّه راغبٌ في الزَّواج من إيليسينا، وجَّه دعوةً إلى جمـاعةٍ من عليـة النَّاس في مملكتـه، ثم حمـلهم معـه وتوجَّه صـوب مقره. استقبل كل منهمـا الآخـر على أكمل وجه، وحيـاه أفضل تحية، ومـا إن انتهت احتفالات العرس حتى قرَّر الجميع العودة إلى ديارهم. وفي نزهةٍ جمعت بين الملك بيريون وزوجته إيليسينا، بالقرب من أحد الشَّواطئ النَّهرية، حيث أراد أنْ يكون هذا المكان سكنًا لهما، سار الملك وحده إلى أعلى المنطقة وظل يفكر في كيفية معرفة أخبار الابن الذي أنجبته إيليسينا، والذي أخبره به الكهنة حين تعبيرهم لرؤياه، وطال به المسـير وهو يفكِّر في هذا الأمر، حتى وصل إلى صـومعةٍ للعبادة، ربط الجواد إلى شـجرة هناك، ودخل إلى الصـومـعة ليصلي، فرأى داخلهـا رجلاً عجوزًا يرتدي ثياب الكُهان، فقال للملك :

– أيُّها الفارس، أحقا تزوَّج الملك بيريون بابنة سيدنا الملك ؟

– نعم حقا – قال الملك.

– كـم أنا سـعيدٌ لهذا – قال الرَّجل الطَّيب – فـأنا على يقينٍ من أنَّها تحبه من كلِّ قلبها .

– من أين علمك بهذا ؟ – قال الملك.

– من لسانها – قال الرَّجل الطَّيب.

ولما كان الملك يطمع فى معرفة ما تمنَّاه، عرَّف بنفسه أمام الكاهن، ثم قال :

- أتوسَّل إليك أنْ تخبرني بما قالته لك.

- بهذا أكون قد ارتكبت خطأً كبيراً - قال الرَّجل الطَّيِّب - ولك أنْ تصفني بالمروق إذا ما أعلنت لك ما سمعته على كرسي الاعتراف السرِّي، في كل ما قلته لك كفاية، فهي تحبك حبا حقيقيا وصادقا، ولكنني أودُّ أنْ تعرف ما قالته لي إحدى الفتيات وقت قدومك إلى هذه الأراضي، وهي التي تبدو لي حكيمة، وما فهمت الذي قالت : سيخرج من بريطانيا الصُّغرى تنينان، سلطانهما في جاولا Gaula وقلباهما في بريطانيا الصُّغرى، ومن هناك سيخرجان فيأكلان كلَّ دواب الأراضي الأخرى، وسيكونان متوحِّشين وشديدين أمام بعض الدَّواب، ووديعين وذليلين أمام مجموعةٍ أخرى، كما لو نزعت عنهما الأظافر والقلوب، وظللت أتعجَّب لسماع هذا الكلام.

اندهش الملك، ورغم أنه لم يفهم هذا في الوقت الرَّاهن، فإنه بمرور الوقت سيعرفه حق المعرفة. أقدم على وداع الرَّجل الطَّيب المتعبد، ثم عاد إلى الخيام التي ترك فيها زوجته ورفقتها، حيث بات ليلته متأفِّفا، وحين استلقى على فراشة في متعةٍ وسرورٍ قال للملكة كل ما يتعلق بتفسير رؤياه من قبل الحكماء، وتوسَّل إليها أنْ تخبره بما إذا كانت قد أنجبت طفلاً، وحين سمعت الملكة ذلك اعتلاها الحياء وحمرة الخجل وتمنَّت أنْ لو أتاها الموت، ثم نفت كل ما تردَّد، وقالت إنها لم تنجب قط. هكذا لم يتمكن الملك في هذه المرة من معرفة ما كان يصورةٍ، وأنجب من الملكة ولدًا وبنتًا، أمَّا الولد فأسمياه جالاؤر Galaor، والبنت أسمياها ميليثيا Melicia. وحين بلغ الولد عامين ونصف حدث أنَّ أباه كان في محلةٍ قريبةٍ من بحر يدعى بأنجيل ينظر من نافذة تطل على البستان، والملكة لاهية به مع خادماتها وفتياتها، والطِّفل قريبٌ منها يحاول تعلم المشي، رأى الجميع عملاقًا مدجَّجا بالسِّلاح في يده يدخل عبر باب مطل على البحر،

وكان ضخماً ومرعبًا، بحيث لم يكن يـره أحد إلا فـزع منـه، وهــو ما وقــع للمـلكة وحاشيتها، فبعضهم منها فرَّ هاربًا بين الأشجار، وبعضهم الآخر خرَّ على الأرض مغمِّضًا عينيه كي لا يراه. غير أنَّ العملاق توجَّه صوب الطِّفل، الذي كان وحيدا لا يرعاه أحد، وما إنْ وصل إليه حتى مدَّ الطِّفل إليه ذراعيه ضاحكًا، فحمله بين ذراعيه قائلاً :

– حقا ما قالته لي الفتاة.

ثم عاد من حيث أتى، وركب سفينةً في البحر، واتخذ سبيله هربًا، وحين رأته الملكة قد ذهب حاملاً الطِّفل بين ذراعيه صاحت بأعلى صوتها، غير أنَّ ذلك لم ينفعها بشيءٍ فقد خيم الحزنُ عليها وعلى حاشيتها بصورةٍ مؤلمةٍ، كما تألَّم الملك أشدَّ الألم لعدم تمكنه من إنقاذ ابنه، وما إن رأى عدم جدوى الألم والحسرة، نزل إلى البستان من أجل التَّرويح عن الملكة ومواساتها، والتي كانت تعتصر ألما لتذكرها لابنها الذي ألقت في اليم، وكانت تأمل في أنْ تكون سلواها في هذا الابن الثَّاني إلى جوارها، غير أنَّها قد فقدته في مناسبةٍ كهذه، وهاهي الآن قد فقدت الأمل في استعادته بعد ذلك، فحاق بها غمُّ الدُّنيا جميعًا، غير أنَّ الملك قد حملها للرَّاحة في غرفتها، وحين هدأت قال :

– سيـدتي، الآن أعلم أنَّ ما قاله لي الكهنة حقيقة واقعة، فقد كان هذا هو القـلب الثَّاني، ولتقولي لي الحقيقة، ففي الوقت الذي حدث فيه ذلك لا تتحملين عنه أيَّة مسئولية.

وهنا وفي خجل تام بدأت الملكة تقصُّ عليه كلَّ ما حدث للابن الأوَّل، وكيف أنَّها ألقت به في البحر.

– لن أدع الغضـب يتملكني –قـال الملك– فقد أراد الله ألا ننعم بهذين الطِّفلين إلا قليلاً، وأنا أضع كلَّ أملي في الله أنْ يأتي ذلك اليوم الذي نعرف فيه أيَّة أخبارٍ عنهما.

كان هذا العملاق الذي اختطف الطِّفل من أرض تدعى ليونس، وكان يملك قلعتين في إحدى الجزر، وكان يُدعى جندالاس، ولم يكن شريراً كغيره من العماليق، كان

يتمتَّـع قبل ذلك بنيةٍ حسنةٍ، إلى أنْ تملَّكه الحنق والغيظ، وبعد ذلك بدأ في ممارسة أشد أنواع الأعمال قسوة. لقد ذهب يحمل الطِّفل حتى وصل إلى جزيرة بها أحد النُسَّاك، رجل ذو حياة عامرة بالإيمان. وهنا أمره العملاق- الذى وطَّن العديد من المسيحيين فى هذه الجزيرة- أنْ يعطيه إحسانًا، ليتمكَّن من إطعام الطِّفل ورعايته، ثم قال :

- صديقى، أقدم إليك هذا الطِّفل لترعاه، وتعلمه كل ما يناسب حياة الفارس، أخبرك بأنَّه من نسل ملكي من ناحية الأب والأم، وأحذرك ألا تقف منه موقف العداء أبداً.

قال له الرَّجل الصَّالح :

- قل: لماذا فعلت هذه الفعلة الشَّنعاء ؟

- سأخبرك بهذا - قال العملاق - اعلم أنَّه حين أردتُ ركوب إحدى السُّفن كي أحارب ألبادان Albadán العملاق الشُّجاع الذى قتل والدى، واغتصب منِّى محلة بنيا دى جالتاريس، التَّابعة لى، تقابلت مع فتاة قالت لى :

"هذا الذى تريد لن يتم إلا على يد ابن الملك بيريون دى جاولا، الذى سيحوز قوة ومهارة تفوق ما لديك"، وسألتها عما إذا كان قولها حقيقةً.

"هذا ما ستتأكد منه - قالت الفتاة - فى الوقت الذى سيلتحم فيه فرعا إحدى الأشجار بعد حالة التَّباعد الحالية بينهما"

بهذه الطَّريقة بقي هذا الطِّفل إلى جوار هذا المتعبِّد بعد أنْ سُمى جالاؤر، وما سيكون من أمره سوف نرويه فيما بعد.

فى هذه الأثناء أدرك الموت فالانجريث Falangriz ملك بريطانيا العظمى، دون أنْ يترك وراءه ذريةً قط. وهنا أتى المسئولون فى المملكة إلى ليسوارتى Lisuarte شقيق المتوفى وزوج بريسينا Brisena ابنة ملك الدَّنمارك، كي يعتلى عرش مملكة بريطانيا العظمى.

الفصلُ الرَّابع

وصل ليسوارتي، مصطحبًا معه زوجته وابنته أوريانا، إلى إسكتلندا، حيث كان في استقباله الملك لانجينس والملكة، وترك ابنته أوريانا في رعايتهما؛ حتى يتمكَّن من الانتهاء من مراسم تسلم قيادة المملكة الجديدة.

هنا يتوقَّف المؤلف عن الحديث عن ليسوارتي، فيتركه يدير حكمه في هدوء وسلام في بريطانيا العظمى، ثم يعود للحديث عن فتى البحر، الذي بلغ الآن الثَّانية عشرة، رغم أنَّ بنيته الجسمانية تدلُّ على أنَّه في الخامسة عشرة. كان في خدمة الملكة، وأصبح محبوبًا منها ومن الفتيات والخادمات بصورةٍ كبيرةٍ، وحين أقدمت أوريانا، ابنة الملك ليسوارتي، أسلمتها إلى فتى البحر كي يقوم على خدمتها، قائلة :

– صديقتي، هذا الفتى سيكون في خدمتك.

أجابت بأنَّ ذلك من دواعي سرورها. وقعت هذه الكلمات موقعًا طيبًا في قلب الفتي، لدرجة أنَّه ظلَّ يتذكَّرها دون أنْ تفارق ذاكرته قط، وبالتزامٍ شديدٍ، لم يغتر قط عن خدمتها، وتعلَّق قلبه بها على الدَّوام، واستمر هذا الحبُّ طيلة فترة تواجدهما معا، فكما أحبَّها هو أحبَّته هي أيضًا، وما أتت لحظة تلاشى فيها حبُّهما. غير أنَّ فتى البحر لم يكن يدري أو يعلم شيئًا؛ ولكن هذا الحبُّ فضحته عيونهما، التي أبانت للقلب عن أغلى حبٍ في الوجود بينهما. هكذا عاش الطرفان يتحابان خفيةً دونما تصريح بينهما بشيءٍ يذكر.

وبمرور الوقت –كما أقصُّ عليكم– وجد فتى البحر في نفسه إمكانية حمل السِّلاح لو أنْ هناك من يجعل منه فارسًا، وهذا ما كان يتمنَّاه ظنا منه أنَّه سيكون ذلك الفارس الذي يصنع أمورًا شتى يلزم عنها تقدير سيدته له حيا أو ميتًا؛ مدفوعًا بهذه

الرَّغبة ذهب إلي الملك الذى كان متواجداً بالبستان، فوجده قد سكت عنه الغضب، فقال له :

- سيدى -لو أذنت لى- لفقد حان الوقت لكي أكون فارساً.

قال الملك :

- و كيف ذلك، يا فتي البحر؟! ابذل جهدك حتى تنضَّم إلي عالم الفروسية؛ تعلم أنَّ هذا أمرٌ سهل المنال لكن من الصَّعب الحفاظ عليه، ومن يرد الانضمام إلي هذا العالم، ويجعله جزءًا من شرفه، فعليه أنْ يهم بعمل أشياء عظيمة وجليلة ربما تجعل صدره ضيقًا حرجًا أحيانًا، وإذا ما تخلى ذلك الفارس عن القيام بالواجب خوفًا أو طمعًا، فأفضل له أنْ يموت على أنْ يعيش حياة الخزى والعار، وعليه فلتنتظر بعض الوقت، فهذا ما أراه مناسبًا لك.

قال فتى البحر لسيده :

- لن أتخلَّى عن الفروسية رغم هذا الذى ذكرته كله؛ فلو لم يختمر فى ذهنى الوفاء بكل ما صرحت به، لما أتعبت نفسي من أجل هذه الغاية وبما أنَّنى قد عشت وتربيت فى كنفك ورعايتك، فأرجو أنْ تتم معروفك معى فى هذا الأمر، وإلا فسوف أبحث عن آخر يجعل منِّى فارساً.

خاف الملك أنْ ينفذ فتى البحر تهديده، فقال له :

- يا فتى البحر، أنا أعلم الوقت الذى تصبح فيه فارساً، وأعدك أنَّنى سأفعل ذلك حين يلزم الأمر، وفى تلك الأثناء تكون قد زينت عدتك وجهزت أسلحتك. ولكن من ذا الذى كنت سترعاه ؟

- كنت سأرعى وأحمى الملك بيريون - قال الفتى - فقد أخبرونى بأنَّه فارسٌ عظيمٌ ومتزوجٌ بأخت سيدتى الملكة، فأريهم كيف قامت على رعايتى وإعدادى، وعلى هذا القصد أردت أن أكون فارساً عن طواعية منِّى.

- والآن - قال الملك - عليك بالصُّبر، وإذا ما حان الوقت فسوف أجعل منك فارسًا.

ثم أمر بإعداد كل ما يلزم من شئون الفروسية، وأحاط جنداليس علمًا بكل ما صدر عن خادمه، وهو ما أثلج صدره وسرّه، فأرسل إليه مع إحدى الفتيات السَّيف والخاتم والرِّسالة المغلفة بالشَّمع على نفس الهيئة التى كانت عليها هذه الأشياء حين عُثِر على الصُّندوق فى مياه البحر وفيه الطِّفل. وذات يوم تواجدت الجميلة أوريانا مع خادمتها وفتياتها داخل القصر يلعبن ويتسلّين، بينما كانت الملكة نائمةً، فحضر إليهن فتى البحر، الذى لم يجرؤ حتى على النَّظر إلى سيدته، ثم قال فى نفسه :

- آه، يا إلهى ! لماذا وهبت هذه السَّيدة كل هذا الحسن والبهاء، وغمرتنى بالحزن والألم بسببها ؟ لقد رأيتها فى لحظةٍ عصيبةٍ بعينى رأسى، اللتين إنْ فقدتا بريقهما، فستدفعان ثمن هذا الجنون الذى تورط فيه القلب غاليًا، ألا وهو الموت.

وقد ظلَّ هكذا، دون أنْ يعى وجوده أحد، حتى دخل فتى ثم قال له :

- هناك بالخارج توجد فتاةٌ أجنبيةٌ أتت لك ببعض الهدايا وتودُّ رؤيتك. أراد فتى البحر الخروج إليها، غير أنَّ تلك التى أحببته، حين سمعت ما قيل، ارتجف قلبها، بصورة لو نظرها أحدٌ، لأحس ما طرأ عليها من تغير وتبدل، فما فكرا فى مثل هذا الأمر. ثم قالت له :

- يا فتى البحر، لتنتظر أنت، ولتدخل الفتاة؛ حتى نرى ما تحمل من هدايا.

ظلَّ فى مكانه، ودخلت الفتاة -وكانت مبعوثة جنداليس- وقالت :

- سيدى فتى البحر، أنقل إليك خالص تحيات سيدك جنداليس، فضلاً عن حبه واشتياقه، ويرسل لك هذا السَّيف وهذا الخاتم وهذا الشَّمع، ويرجوك الحفاظ على هذا السَّيف طيلة بقائه معك من أجله.

أخذ فتى البحر الهدايا، ثم وضع الخاتم والشَّمع فى حجره، وهنا أخذ فى فك قماش من الكتان كان يغطى السَّيف، متعجبًا من كون السَّيف لا غمد له، فى حين أخذت أوريانا الشَّمع، الذى اعتقدت أنَّه لا وجود لشىءٍ آخر هناك، ثم قالت :

- أريد هذا من بين الهدايا.

كان فتى البحر يأمل أن لو أخذت الخاتم، فهو أجمل خاتم فى الوجود. وبينما ينظر إلى السَّيف دخل الملك، ثم قال :

- يا فتى البحر، ما رأيك فى هذا السَّيف ؟

- سيدى، يبدو لى فى غاية الجمال، غير أنَّنى لا أدرى لماذا لا أرى له غمداً.

- يبدو أنَّه لا غمد له -قال الملك- منذ خمسة عشر عاماً.

أخذه من يده، وابتعد به قليلاً، ثم قال له :

- أنت تودُّ أن تكون فارساً، ولا تدرى ما إذا كان ذلك مناسبًا لك حقًا، وأودك أن تعرف قصتك كما أعرفها أنا.

وحكى له كيف تم العثور عليه فى مياه البحر مع السَّيف والخاتم داخل الصُّندوق، معقبًا "وهذا مثلما سمعت". قال الفتى :

- أُصدِّق ما تقوله لى، لأنَّ تلك الفتاة قالت لى إن سيدى جنداليس هو من أرسل إلىَّ هذا السَّيف، وقد ظننت أنَّها أخطأت التَّعبير حين لم تقل لى والدى. غير أنَّنى لا أعبأ كثيراً بما تخبرنى، وإنما أحزن لأنَّنى أجهل أصلى ونسبى، كما أنَّ أهلى لا يعرفوننى. غير أنَّنى أحس فى أصلى نُبلاً، فقلبى يدفعنى لهذا الإحساس. والآن سيدى فمن الأجدر بى قبل الفروسية، أنْ أبحث عن الشَّرف وأحوزه كذلك الذى لا يدرى من أيِّن أتى، وكمن مات أهله الذين ينتمى إليهم، والذين أحسبهم كذلك، فما يعرفوننى وما أعرفهم.

رأى الملك أنه سيكون رجلاً حقًا، ومندفعًا دومًا فى طريق الخير، وبينما يدور هذا الحوار، دخل فارس قائلاً له :

– سيدى، لقد حضر الملك بيريون دى جاولا ضيفًا عليك في بيتك.

– كيف في بيتى ؟ –قال الملك.

– إنه في قصرك – قال الفارس.

ذهب الملك إلى حيث يوجد ضيفه على جناح السُّرعة، فهو رجل مضيافٌ يستقبل الجميع على الرَّحب والسَّعة، وحين التقيا، تبادلا التحية، ثم قال لانجينس لضيفه :

– سيدى، ما سببُ حضورك المباغت إلى هنا ؟

– أتيت باحثًا عن أصدقاء –قال الملك بيريون– فأنا في حاجة إليهم الآن أكثر من أيِّ وقت مضى، فقد ناصبنى أبييس Abies. ملك إنجلترا العداء، وها هو بكل ما أوتى من قوة قد احتل أرضى، يصحبه في معركته ابن عمه داجانيل Daganel، وقد جمعا أناسًا كثيرين لمواجهتى، ولهذا فأنا في حاجةٍ إلى جمعٍ كبيرٍ من الأقارب والأصدقاء، لأنَّنى فقدت كثيرًا من رجالى في الحرب، وما عاد معى من الرِّجال من أثق فيهم.

قال له لانجينس :

– أخى لكم حزنت لما أنت فيه، ولسوف أقدم لك يد العون على أكمل وجهٍ يمكننى.

كان أجراخيس فارسًا، مثل في أدب أمام والده، ثم قال :

– سيدى، أطلب منك معروفًا.

هنا، قال الملك، الذى أحبه كنفسه :

– بُنى، أطلب ما شئت.

– أطلب منك، سيدى، أنْ تأذن لى بأن أذهب لأدافع عن خالتى الملكة.

– قد أذنت لك –قال الملك– وسوف أرسل لك أعظم وأغلى ما يمكننى.

غمرت السَّعادة الملك بيريون لما سمعه ورآه. أخذ فتى البحر الذي كان متواجداً ينظر إلى الملك بيريون، لا على أنَّه والده، فما كان يدري مثل هذا الأمر، بل لما سمعه عنه من جرأة وجسارة في القتال، فضلاً عن رغبته في أنْ يصبح فارساً على يديه دون غيره من النَّاس. وظنَّ أنَّ تدخل الملكة في هذا الأمر سيكون له أثرٌ عظيمٌ، ولما أنْ وجدها حزينة لفقدان مُلك أختها، كفَّ عن الحديث معها في هذا، وانصرف إلى حيث توجد سيدته أوريانا، وبعد أنْ قدَّم لها التَّحية، قال :

– سيدتي أوريانا، هل لي أنْ أعرف منك سبب حزن الملكة ؟

ولما أنْ رأت أوريانا أمامها ذلك الذي تحبُّه أكثر من نفسها، الأمر الذي لا يعرفه هو ولا أحد غيره، ارتجف قلبها، ثم قالت له :

– آه يا فتى البحر، هذا أول شيء تطلبه مني، وسآتيه لك عن طيب خاطر.

– آه، سيدتي ! –قال فتى البحر– لست بهذه الجرأة، ولا أنا أستحق أنْ أطلب شيئًا من مثلك؛ بل أنا من يفعل ما تطلبينه منه.

– وكيف؟ –قالت هي– أقلبك بهذا الضَّعف بحيث لا يقوى على طلب شيء ؟

– كم هو ضعيفٌ، سيدتي، بحيث يخذلني حين أقف أمامك، لكنه لا ينثني ولا يتواني في خدمتك كائنًا ما كان طلبك، فرغم أنَّه ليس قلبك فإنَّه طوع أمرك وملكك.

– ملكي أنا ؟ –قالت هي– منذ متى ؟

– منذ أن ظهر لطفك – قال هو.

– وكيف ذلك؟ – قالت أوريانا.

– لعلك تذكرين سيدتي –قال الفتي– ذلك اليوم الذي رحل فيه والدك عن هذا المكان، وأخذتني الملكة من يدي، وأوقفتني أمامك ثم قالت : "أقدم إليك هذا الفتى ليكون في خدمتك"، وقلت بأن هذا من دواعي سرورك، ومنذ هذه اللحظة

وأنا أعتبر نفسي وسأعتبرها ملكًا لك وفي خدمتك، دون أنْ يكون لغيرك أو حتى لنفسي سلطانٌ علَى ما دمتُ حيا.

- لقد حملت الكلام -قالت هي- على أفضل محمل له، وهذا ما يسعدني.

أصيبت بالدَّهشة للسَّعادة التي غمرتها، حين انعقد لسانه فلم يعرف كيف يردُّ عليها، ورأت أن لها سلطانًا قاهرًا عليه، وما إنْ انصرفت من أمامه، حتى ذهبت إلى الملكة، وعرفت أن سبَّب حزنها يكمن في ضياع مُلك أختها، ثم عادت إلى فتى البحر فأخبرته به. هنا قال الفتى :

- إذا ما أحببت سيدتي أن أكون فارسًا، وليكن ذلك من أجل مساعدة أخت الملكة، فامنحيني فرصة الذهاب لهذا الغرض.

- وإذا لم أمنحك الفرصة -قالت هي- ألن تذهب إلى هناك ؟

- لا -قال هو- لأنَّ قلبي المهزوم هذا لا يمكنه أنْ يحتمل أيَّة إهانةٍ دون معروف منك.

ابتسمت في أبهى هيئتها، ثم قالت له :

- وحيث قد كسبتك الآن، أمنحك أنْ تكون فارسي، وأنْ تمدَّ يد العون لأخت الملكة تلك.

قام الفتى بتقبيل يديها، ثم قال :

- إذًا طالما أنَّ الملك سيدي لم يشأ أنْ يجعل مني فارسًا، فأريد الآن طواعيةً أنْ أكون كذلك في خدمة الملك بيريون بفضلك أنت.

- سأفعل ما في وسعي من أجل هذا -قالت هي- لكن الضَّرورة تدعو إلى التَّصريح بهذا أمام الأميرة مابيليا Mabilia، فرجاؤها وتوسلها لهما أثره أمام خالها الملك.

وحينئذ ذهبت إليها وأخبرتها كيف أنَّ أمير البحر يودُّ أن يكون فارسًا على يد الملك بيريون، وأن مثل هذا الأمر في حاجة إلى تدخلهما شخصيًا. وهنا قالت مابيليا، التي كانت تتحلَّى بالشَّجاعة، وتحبُّ أمير البحر حبًا طاهرًا وعفيفًا :

– إذن لنفعل هذا من أجله، فهو يستحقه، وليحضر إلى مصلَّى والدتي مدججًا بكل سلاح، وننحي عنه حراسة الفتيات، وحين يهم الملك بيريون بالرَّحيل، الذي سيكون حسب ما أعلم قبل طلوع الفجر، سأرسل له أنِّي أودُّ رؤيته، وهناك نرجوه ما نشاء، فهو رجلٌ فارسٌ بكل معنى الكلمة.

– حسنًا ما قلت – قالت أوريانا.

أرسلتا في طلب أمير البحر فأخبرتاه بما تمَّ الاتفاق عليه؛ فشكر لهما صنيعهما. هنا انصرف الثَّلاثة على أساس هذا الاتفاق، ثم نادى الفتى جندالين، وقال له :

– أخي، احمل أسلحتي كلها خفيةً إلى مصلَّى الملكة، فأودُّ أن أصبح فارسًا هذه الليلة، وحتى أرحل في الوقت المناسب لي، أودُّ معرفة ما إذا كنت ترغب في المجيء معي.

– سيدي، أخبرك بأنَّ رغبتي هي ألا أفارقك أبدًا. وهنا أجهش فتى البحر بالبكاء، وقبله في وجهه، ثم قال له :

– صديقي، الآن افعل ما قلته لك.

وضع جندالين الأسلحة في المصلَّى، وتجهز أمير البحر بكل أنواع السِّلاح –فيما عدا الرَّأس واليدين– ثم أدَّى الصَّلاة أمام المذبح، ثم دعى الله أنْ يؤيده في أنْ يصبح فارسًا، وأنْ يحقِّق له ما يتمنَّى تجاه محبوبته. وحين ذهبت الملكة إلى فراشها لتنام، ذهبت أوريانا ومابيليا في صحبة فتيات أخريات إلى الفتى ليصبحن في معيته، ولما كانت مابيليا تعلم أنَّ وقت رحيل الملك بيريون قد حان، أرسلت في طلب رؤيته أولاً، أتى إليها لاحقًا، فقالت له مابيليا :

– سيدي، لتتفضل بعمل ما تطلبه منكم أوريانا، ابنة الملك ليسوارتي.

– قال الملك إنه سيفعل بكلِّ سرورٍ ورغبةٍ، فهذا ما حتمه قدر والدها عنده. أقدمت أوريانا أمام الملك، حيث رآها آيةً في الجمال لا يمكن أن يكون لها مثيل في الوجود. قالت :

– أودُّ أنْ أطلب منك معروفًا.

– بكل سرور – قال الملك – سأفعل ما تطلبين.

– أودُّ أنْ تجعل هذا الفتى الذى يرعانى فارسًا.

ثم أشارت إلى الفتى الذى كان راكعًا أمام المذبح كى يراه الملك. رأى الملك الفتى وسيمًا فأعجب به، وما إنْ وصل إليه حتى قال له :

– أتودُّ الانضمام إلى عالم الفروسية ؟

– نعم – قال الفتى.

– باسم الله، ولتكن مشيئة الله أنْ تكون هذه بركة عليك وبك، ومزيدًا لك فى الشَّرف كما زادك المولى حسنًا ووسامةً.

ثم قدم إليه مهماز الفروسية، وقال له :

– الآن أصبحت فارسًا، ويمكنك أن تحمل السَّيف.

تناول الملك السَّيف ثم أعطاه إيَّاه، فانتطقه الفتى بكلِّ رشاقةٍ؛ فقال الملك :

– حقًا، إن هذه المناسبة التى أُعلنت فيها فارسًا، وأبديت كل هذا المظهر والرَّشاقة مما تطلعتُ إلى تنفيذه باحترامٍ وتشريفٍ كبيرين. غير أنَّنى آمل فى الله أن تكون شهرتك ذائعة الصِّيت، حتى تكون شاهدًا على ما كان من الواجب عمله من الاحتفاء والتقدير.

غمرت الفرحة كلاً من مابيليا وأوريانا، وقبلتا يد الملك، ثم أخذ الفتى طريقه ترعاه عناية الرَّبِّ.

ما إن أُعلن فتى البحر فارسًا حتى خرج بحثًا عن المغامرات. وبعد مدةٍ وجيزةٍ وجد في منتصف إحدى الغابات امرأة تضمِّد جراح أحد الفرسان. كان هذا الفارس زوجًا خدعته زوجته الشرِّيرة، وطلب مساعدة فتى البحر، الذي حمله إلى إحدى دور العبادة كي تعالجه. هنا أخذت المرأة تحرِّض بادعاءات كاذبةٍ ثلاثة من إخوتها ضدَّ فتى البحر، هزمهم الفتى في معركة نشبت بينهم ثم أجبرهم على حمل الفارس الجريح وزوجته إلى بلاط الملك لانجينس، وهناك استمع الملك لما حدث.

الفصلُ الخامس

واصل فتى البحر طريقه. وبعد مدةٍ وجيزةٍ رأى فتاة تحمل رمحًا مزينًا بشريطٍ من حرير، وانضمت فتاة أخرى إلى الأولى فى الحال. قامت الفتاة الأولى (أورجاندا لاديسكونوثيدا) بتقديم الرُّمح إلى الفتى، مؤكدةً له أنَّه سيحرر به البيت الذى خرج منه، ثم واصلت طريقها. أما الفتاة الثَّانية، القادمة من الدَّانمارك، فقد لازمت الفتى، حيث وصلا ليلاً إلى قلعةٍ أحسن أهلها وفادتهما، وفى اليوم التَّالى بلغا قلعةً جديدةً. وعلى أبواب هذه القلعة أخبر العاملون الفتاة بأنَّ عليها أنْ تقنع الفتى بالحلف على نصرة الملك أبييس ضد الملك بيريون .

وهنا أفزع الفتى العاملين من أمامه، وحين أصبح داخل القلعة أخبر من فيها بأنَّ هناك جمعًا من الفوارس يهاجم الملك بيريون. ومع ذلك هزم الأب والابن سكان القلعة، ثم رحلا من جديد. ورغم عدم رغبتها فى الكشف عن شخصيتها أمام الملك، فقد عرف هو فتى البحر بفضل تدخل الفتاة. تابع الملك سيره حتى جاولا Gaula، وأما الفتاة، التى هى خادمة أوريانا، فقد انفصلت أيضًا عن فتى البحر حتى تنضمَّ إلى سيدتها.

فى تلك الأثناء كان جالاوْر -الذى انتزعه العملاق من بين يدى والديه، والذى بدأ يترعرع فى إحدى دور العبارة- راغبًا فى أنْ يصبح فارسا، وهاهو العملاق يعمل على إعداده لمثل هذا الأمر منذ عامٍ.

وهنا يتوقف المؤلف عن الحديث فى هذا الأمر، وسوف يشير إلى ما فعله جالاوْر هذا، ثم يعود ليروى لنا ما حدث لفتى البحر بعد رحيله عن الملك بيريون والفتاة الدَّانماركية والقلعة القديمة. سار فتى البحر مدة يومين دون بعد عن المغامرات، وفى

اليوم الثَّالث، وفى منتصف النَّهار، وجد نفسه أمام قلعة غاية فى الجمال، تابعة لفارسٍ يدعى جلبانو، كان أشجع وأمهر رجل فى هذه النَّاحية، حتى خافه الجميع. وحين تجمعت له شجاعته وحصانة قلعته، بدأ فى ممارسة عادات كثيرا ما فعلها أى رجل متكبرٍ، سار فى طريق الشُّر، وتجنَّب طريق الرَّب، فأصبح يفعل السُّوء فى حضره الآخرين، حسب ما ستسمعون. كان يأمر السَّيدات والفتيات اللاتى يمررن بالقلعة بالصُّعود إليها، وما إن يستمتع بهن عنوةً حتى يستحلفهن ألا يتخذن خليلا غيره ما دام حيا، وفى حالة عصيانهن الأمر يطيح برقابهن. وكان يعامل الفرسان بنفس الطَّريقة العنيفة، فكان يأمرهم بمنازلة أخوين له، وإذا ما تحقق لهم النَّصر أتوا لمنازلته، ثمَّ يستحلفهم بأن يطلقوا على أنفسهم، واحداً واحداً " مهزوم جلبانو "، أو أنْ تقطع رؤوسهم، وهنا ينزع عنهم كل ما كانوا يحملونه، ويدعهم يذهبون سيرا على الأقدام. غير أنَّ العناية الإلهية لم تكن ترضى استمرار كل هذه القساوة وقتًا طويلا، فألهمت الجميع الوقوف فى طريقه، وفى وقتٍ قصيرٍ تغيَّر الحال إلى النَّقيض، فحصد الشُّرور كنتيجة لما زرعه سابقا، وأصبح الآخرون فى موقف القوة يرهبهم الآخر، بعد أن عدلوا من وضعهم، كما سنقص عليكم الآن.

الفصلُ السَّادسُ

على أبواب القلعة وجد فتى البحر فتاة تندبُ حظها العثر من جراًء مطالب جلبانو، وحتى يحرًرها من تلك المطالب، لزم عليه التُخلص أولا من أربعة من الحرس المترجلًين، وبعد ذلك تخلًص من إخوة سيد القلعة، وفي النًهاية، وبعد قتالٍ عنيفٍ، تخلًص من سيد القلعة. وهنا نجد الفتى والفتاة -التي كانت تحمل رسالة إلى أجراخيس- ينفصلان عند خروجهما من القلعة، وواصل الفتى طريقه حتى وصل إلى قلعة بها فتاة - ابنة أحد إخوة سيد القلعة، والتي استعادت شرفها بفضل الهزيمة التي ألحقها فتى البحر بجلبانو - عملت على تضميد جراحه.

الفصلُ السَّابعُ

هنا وصل الفرسان الأربعة والمرأة الشِّريرة، الذين أرسلهم فتى البحر إلى الملك لانجينس إلى هناك، وشرعوا فى رواية ما حدث، ولكن ما من أحد غير أوريانا والفتيات الأخريات يعرف أنَّ فتى البحر أصبح فارسًا. وكذلك فقد حضرت إلى البلاط تلك الفتاة التى أنقذها فتى البحر من جلبانو، ثم كشفت منقذها أمام الجميع. وهنا. هم أجراخيس -الذى كان متواجدا بالبلاط- بالخروج صوب جاولا .

الفصلُ الثَّامن

كيف أرسل الملك ليسوارتى فى طلب ابنته من بيت الملك لانجينس الذى بعث بها مع ابنته مابيليا، فى صحبة فرسانٍ وسيداتٍ وفتياتٍ

بعد عشرة أيام من رحيل أجراخيس وصلت ثلاث سفنٍ، حضر على متنها جالدار دى راسكويل مع مائة فارس من أتباع الملك ليسوارتى، وسيدات، وفتيات لاصطحاب أوريانا. استقبله الملك لانجينس استقبالاً حسناً، لأنه فى نظره فارسٌ جيدٌ ويتميَّز برجاحة العقل. أبلغ جالدار الملك بمطلب سيده، وأنه أرسل فى طلب ابنته، وفضلاً عن ذلك، فقد أخبره جالدار بأنَّ سيده يرغب فى أنْ يرسل الملك لانجينس مع أوريانا ابنته مابيليا، التى ستلقى نفس التَّشريف والرِّعاية اللتين تلقاهما أوريانا. سُرَّ الملك لهذا، وزيَّنهما بأزهى الحلل واستبقى الفارس والسيِّدات والفتيات فى بلاطه عدة أيام، وأقام لهم الاحتفالات، وزودهم بجميل معروفه، ثم أمر بإعداد سفنٍ أُخرى وتزويدها بالمؤن اللازمة، وأمر بإعداد وتجهيز فرسان وسيدات وفتيات، رأى ضرورتهم لمثل هذه الرِّحلة. وهنا رأت أوريانا أنَّ مثل هذه الرحلة يجب ألاَّ تفوتها، فتأهبت لجمع جواهرها، وبينما كانت تقوم بجمعها، رأت الشَّمع الذى أخذته من فتى البحر، فتذكَّرته وأجهشت بالبكاء، وضمَّت يديها تعبيراً عن الحبِّ الذى يعتصر قلبها، وأزالت الشَّمع، قرأت الرِّسالة التى كانت داخله، وقرأتها فوجدتها تقول : " هذا هو أماديس حديث الولادة ينتمى لأسرة ملكية "

وبعد أنْ قرأت الرِّسالة، بقيت تفكرُ بعض الوقت، وعلمت بأنَّ فتى البحر يُدعى أماديس، وأنه ينتمى لأسرةٍ ملكيةٍ، وهنا امتلأ قلبها فرحًا لم يشهده قلب إنسانٍ من قبل، ثم نادت على الفتاة الدانماركية، وقالت لها :

- صديقتي، أودُّ أن أبوح لك بسرٍ ما كنت أبوح به إلاَّ لقلبي، ولتحفظيه كسرٍ يخصُّ فتاة من بيتٍ رفيع مثلي، وأفضل فارسٍ في الوجود.

- سأفعل ما تأمرين به -قالت الفتاة- سيدتي، لا تخافي شيئًا فيما تبوحين لي به.

- إذن، لتذهبي أنت -قالت أوريانا- إلى الفارس النَّبيل الذي تعرفين، وأخبرك بأنَّه يدعى فتى البحر، وستجدينه في حرب جاولا، وإذا وصلت قبله، فانتظريه، وحين ترينه قدمي إليه هذه الرِّسالة، وأخبريه بأنَّه سيجد فيها اسمه، وهو ما كتب في الرِّسالة حين ألقوا به في مياه البحر، وليعلم أنِّي أعرف أصله النَّبيل، وحيث كان حسن السلُوك حين يكن كذلك، فالآن عليه أنْ يكون أفضل، وأخبريه بأنَّ أبي قد أرسل في طلبي، وأنهم سيحملونني إليه، وأنَّني أخبره بأنْ يرحل عن حرب جاولا، ويذهب إلى بريطانيا العظمى، ويعمل على البقاء إلى جوار والدي حتى أخبره ماذا يجب عمله بعد ذلك.

هنا حملت الفتاة هذه الأوامر التي سمعتموها، وودَّعت سيدتها وأخذت طريقها صوب جاولا، والتي سنتحدَّث عنها في حينها. وهنا -بعد أنْ بارك الملك والملكة كلاً من أوريانا ومابيليا- دخلتا في صحبة السَّيدات والفتيات إلى السُّفن، وبدأ البحارة في فك السُّفن من معاقلها ونشروا أشرعتها، ولما كانت الظُّروف الجوية مواتيةً، سهَّل ذلك وصولهم إلى بريطانيا العظمى، حيث تم استقبالهما أحسن استقبال.

وما إن تعافى فتى البحر حتى بدأ مسيره من جديد، وخلاله تمكَّن من إلحاق الهزيمة بقارس. طلب منه أنْ يفصح عن اسم محبوبته. وسرعان ما التقى بفتاةٍ أرسلها أجراخيس لينضم إليه وإلى أتباعه، الذين يتوجهون إلى حرب جاولا. وهذا ما فعله الفتى، وبعد أيامٍ، وصل إلى بالادين، القلعة التي تدور فيها حرب الملك بيريون. وضع فتى البحر نفسه في خدمة بيريون والملكة إيليسينا، التي بدأت تتذكَّر ابنيها المفقودين حين تأمَّلت جمال فتى البحر. وفي اليوم التَّالي نشبت الحرب بين قوات الملك بيريون والملك أبييس، وعلى الرَّغم من شجاعة فتى البحر وأجراخيس وبيريون وأتباعه، إلا أنَّ البطل قد رأى أن النصر سيكون حليف الملك أبييس، وحتى يحول بينه وبين هذا، اقترح عليه استبدال الحرب بنزال فردي بينهما، وقبل الملك أبييس العرض.

الفصلُ التَّاسعُ

كيف نازل فتى البحر الملك أبييس بدلاً من الحرب
التى كانت بينه وبين الملك بيريون دى جاولا.

تمَّ الاتفاق على النِّزال بين الملك أبييس وفتى البحر كما سمعتم، ولما رأى أنصار الجانبين أنَّ النهار قد انقضى معظمه، اتفقوا على أنْ يؤجِّلوا اللقاء ليوم آخر، وذلك لتزيين أسلحتهم ولتضميد جراحهم. ولما وجد أتباع الجانبين أنفسهم متعبين ومثخنين بالجراح، وكانوا فى حاجة إلى مهلةٍ للراحةٍ، ذهب كل منهم إلى منزله. وهنا وفد فتى البحر على الملك بيريون –وأجراخيس حاسر الرأس– وقال الجميع :

– آه، أيها الفارس الهمام، نتمنَّى أنْ يكون تشريف الله وعونه فى جانبك، حتى نتمكَّن من إنهاء ما بدأته ! آه، يا لك من فارسٍ جميلٍ، فى هذا تكمن الفروسيةُ الحقةُ، التي تفوق فيها الجميع بقدر كبير.

وما إنْ وصلوا إلى قصر الملك، حتى حضرت فتاة إلى فتى البحر، فقالت له :

– سيدى، ترجوك الملكة ألا تنزع عنك أسلحتك إلا فى محل إقامتك حيث تنتظرك كى تهتم بذلك. هذا هو ما أمر به الملك، ثم قالت :

– صديقى، اذهب إلى الملكة، وليذهب معك أجراخيس، ليكون فى صحبتك.

وحينئذ ذهب الملك إلى مقره، والفتى وأجراخيس إلى مقرهما، حيث وجدا الملكة وفى رفقتها سيداتٌ وفتياتٌ كثيراتٌ، فخلعتا عن الرَّجلين أسلحتهما. غير أنَّ الملكة

أرادت ألاَّ تمدُّ فتاةٌ يدها غيرها إلى فتى البحر فتنتزع عنه ملابس الحرب، ففعلته هى بنفسها، وألبسته عباءة، وهنا وصل الملك ورأى فتى البحر قد تقرَّح، فقال :

– لماذا لم تؤجل لوقت أطول موعد النِّزال ؟

– ليس من الضرورى –قال الفتى– ألاَّ أتقرح حتى أقوم بالمواجهة.

وبعد ذلك عالجوا قروحه، وقدَّموا له العشاء وصحبه معه. فى اليوم التَّالى حضرت الملكة صباحًا إليهما ومعها فتياتها فوجدتهما يتحدَّثان مع الملك، وبدأت الصَّلوات، وما إنْ انتهت حتى ارتدى فتى البحر ملابس الحرب والنِّزال، ملابس غير تلك التى كانت عليه فى المرَّة السَّابقة، فما عادت صالحةً لشيء، أما الملابس الحالية فهى أجمل وأقوى. وبعد أنْ ودَّع الملكة وصحبتها من السَّيدات والفتيات امتطى صهوة جوادٍ عليه زينته وجده عند الباب. وحمل عنه الملك خوذته وحمل أجراخيس الدِّرع عنه، وهناك فارسٌ عجوزٌ كان يدعى أجونون –كانت له مكانته فى الحروب– حمل عنه الرُّمح، ونظراً لماضيه المشرِّف فى الكفاح والفضيلة كان ثالث ثلاثة، مع الملك وابنه. كان حدُّ السَّيف الذى يحمله الفتى من الذَّهب، وبه رسم لأسدين أزرقين، أحدهما فى مواجهة الآخر، كما لو كان كل منهما يريد أنْ يعض الآخر. وبخروجهم من البيت رأوا الملك أبييس على جواد عظيم أسود اللون، مدججا بالسلاح، غير أنه لم يضع خوذته وحمل درعه. وضع الملك أبييس حول رقبته درعًا ذا حدٍ أزرق مرسوم عليها صورة عملاقٍ كبيرٍ، وبالقرب منه يحز رقبته، وقد أتى يحمل هذه الأسلحة لأنها تمثل نزالاً وقع بينه وبين أحد العماليق، الذى اقتحم عليه أرضه فخرَّبها كلها، وبما أنه قد حز رقبته، فقد أتى يحملها مرسومةً على درعه. ومنذ أنْ ارتدى الفارسان ملابسهما الحربية خرجا من السَّاحة، يطلبان مباركة الرَّب، ثم تواجها بكل ما أوتى الجوادان من قوة، كرجلين يتمتعان بقوة خارقةٍ وقلبٍ شجاعٍ. وعند أول جراحهما انكسرت أسلحتهما، وبانتهاء مفعول الرمحين فقد لصقت فى درعيهما، بحيث بلغتا جسديهما. ولكون الفارسين سريعى الحركة وشجاعين، نهضا فى التَّو واللحظة، ثم نزعا عن جسديهما بقايا الرُّمحين، وأمسك كل منهما بسيفه، فاقتتلا قتالاً مريراً، لدرجة أصابت الحاضرين بهلعٍ

كبيرٍ. لم يكن النِّزال متكافئًا، لا لأن فتى البحر لم يكن متأهبًا، وعلى درجةٍ عاليةٍ من الاستعداد، وإنما لضخامة بنية الملك أبييس الذى فاق كل الفرسان طولاً، وبدت أعضاء جسده أشبه بأعضاء العملاق، كان محبوبًا من أتباعه وذا خلق حسن، غير أنه كان متعجرفًا أكثر مما يجب.

كانت المعركة قاسيةً وسريعةً، فما تركت مجالاً للرَّاحة، وجاءت الضَّرباتُ قويةً ومدوِّية، كما لو أنها صادرة عن عشرين فارسًا. تقطعت دروعهما، فتناثرت في كل أرجاء السَّاحة، تحطَّمت الخوذتان، وتناثرت الزِّينة من فوق طقمي الجوادين. وهكذا أفصح كل منهما للآخر عن شجاعته وقوته. وعمل السَّيفان عملهما فيهما، فتقطَّعت أوصالهما. وما بقى عليهما من الدُّروع شيء يغطيهما أو يصونهما، وسال الدَّم منهما أصبح البقاء على قيد الحياة معه من المعجزات، غير أنَّ القوة والشَّجاعة اللتين لازمتهما حتى جعلتهما لا يشعران بشيء من هذا. وهكذا واصلا نزالهما بكل ما أوتيا من حماسٍ. غير أنَّ الشَّمس، التي ألهبت ملابسهما الحربية، قد أصابتهما بشيء من الإعياء، وفى هذه اللحظة توقف الملك أبييس قائلاً :

- توقف وليُعدّل كل منا خوذته، وإذا ما رغبت فى الرَّاحة بعض الوقت، فلن يضر ذلك بنزالنا، ومع أنِّى أودُّ نزع سلاحك عنك، فإنى أقدرك أكثر من أى فارس نازلته، ولا يعنى تقديرى لك أنَّنى لن ألحق بك الأذى؛ فقد قتلت من أحبه حبًا جمًا وهأنت تضعني فى موقف مخجلٍ حين يطول بك المقام أمام منازلتى فى حضور وجهاء القوم.

قال فتى البحر :

- أيها الملك أبييس، هذا الأمر هو ما يصيبك بالخجل، لا حضورك المتعجرف لتلحق الأذى بمن لا يستحقه ؟! انظر واعلم أنَّ الرِّجال -وخاصة الملوك- لا عليهم أنْ يفعلوا ما فى وسعهم وإنَّما ما يجب فعله، لأنَّه فى أغلب الأحيان لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فى نهاية الأمر؛ فيخسرون كل شئ، وأحيانًا حياتهم، والآن إذا ما رغبت فى أنْ أدعك تستريح، فهذا مطلب قد طلبه غيرك من أولئك الذين لم تعطهم هذه الفرصة، وضايقتهم كثيراً، وحتى تشعر بما كانوا يعانون منه تأهَّب، فلن تستريح بإذنٍ منِّى ورغبتى.

تناول الملك سيفه، وما تبقى من الدِّرع، ثم قال :

- هــذه الجــرأةُ ستــكــون سببًا في أذيتك، والزَّج بك في بحيرةٍ لن تخرج منها إلا بقطع رقبتك

- ولتصنــع الآن مـا في وسعك - قال فتى البحر - فلن ترتاح حتى يدركك الموت، أو تبقى حيًا بلا شرف يذكر.

التقيا مرَّةً أخرى في غيظٍ شديدٍ كسابق عهدهما في المرَّة الأولى، وجرح كل منهما الآخر بجراح مؤلمة كما في بداية النِّزال، وفي ذلك اليوم ما ضرب أحدهما الآخر ضربات مباشرة مباغتة، ولكون الملك أبييس ماهرًا من جرَّاء الاستخدام الجيد للأسلحة، بارز غريمه بكلِّ عزمٍ وقوةٍ، وتفادى الضَّربات، وأثخن غريمه بجراح مؤلمةٍ. وأما فتى البحر فقد أبدى براعةً عجيبةً في التَّحرك بسرعةٍ فائقةٍ والهجوم، وفي تسديد الضَّربات التي أفقدت غريمه الوعي، وأمام هذا الموقف المخزي لم يتمكن غريمه من الصُّمود فخسر الميدان، وتمكن فتى البحر من تمزيق درعه الذي كان يحمي ذراعه، بحيث لم يتبق منه شيء، وتناثر لحمه من كل أجزاء جسده، وتقاطر الدَّم منه بغزارة، وما عاد يقوى على المواجهة، وأخذ السَّيف يهتز في يده، وقد تألم أشدَّ الألم لما هو فيه. ولما أنْ رأى ألا ملجأ من الله إلا إليه، استدار فحمل سيفه بكلتا يديه وانطلق صوب فتى البحر، عازمًا على إصابته بجرح من فوق الخوذة، ولكن الفتى رفع الدِّرع، فاتقى الضَّربة به، وغاص الرِّمح داخله لدرجة أنه لم يتمكن من إخراجه، وما إن هَم بالفرار حتى عالجه فتى البحر بضربة صريحةٍ في ساقه اليسرى فأطاح بنصفها، وخر الملك ممددًا على أرض النِّزال، فانقضَّ عليه الفتى، ونزع عنه خوذته، ثم قال له:

- ميِّت أنت، أيها الملك أبييس، إذا لم تُسلِّم بهزيمتك.

قال أبييس :

- حقا سأموت، لكنني لا أسلِّم بالهزيمة، وأرى أنْ الذي دفع بي إلى الموت هو تكبري وتعجرفي، وأرجوك أنْ تؤمِّن أتباعي، ولا تلحق بهم أيَّ أذى واجعلهم

يحـملوننى إلى أرضى، وأنا أطلب منك الصَّـفح، ومن كل من أسـات إليـهم، وسـأصدر أوامـرى بأن يُردَّ إلى الملك بيـريون كل مـا سلبتـه منه، وأرجـو منك إتاحة الفرصة لأداء الاعتراف الأخير؛ فأنا على مشارف الموت.

حين سمع فتى البحر هذا الكلام تألَّم أشدَّ الألم وتعجَّب؛ غير أنه أيقن أنَّ الآخر لم يكن ليعفو عنه لو قدر عليه. وحين وقع هذا الأمر -كما تعلمون- تجمَّع أفراد الجيش وسكان البيت آمنين. أمر الملك أبييس بأنْ يُرَدَّ إلى الملك بيريون ما سلب منه، وبعد أنْ قام الأخير بتأمين قواته كي تحمله إلى أرضه، وبعد المراسم الكنسية، فاضت روح الملك أبييس إلى بارئها، فحمله أتباعه إلى أرضه وسط الصِّياح والعويل.

أُحيط فتى البحـر بالملك بيريون وأجراخيس ومعـاونيهمـا، أخرجـوه من ساحة النِّزال في جو مجيد عادة ما يُصنع للفائزين في مثل هذه اللقاءات، ولم يكن لتحقيقه الشَّرف فحسب، بل أيضًا لاسترداده الملك الضَّائع، وتوجهوا به إلى البيت. كانت الفتاة الدَّانماركية قد وصلت إلى حلقة النِّزال وقت بدايته، ورأت كيف أنَّ الفتى أنهى النِّزال لصالحه، وفي الطريق لحقت بالفتى موفدة إليه من قبل أوريانا، كما تعلمون، ثم قالت له :

- يا فتى البحر، أودُّ الحديث إليك وحدك، وأخبرك عن نفسك ما لم تكن تعلم.

أحسن الفتى وفادتها وانزوى بها بعيداً، فقالت الفتاة له :

- أرسلتنى إليك أوريانا، صديقتك، وهذه رسالةُ منها أقدِّمها لك، وستجد اسمك مكتوبًا بها.

تناول الفتى الرِّسالة، ولم يفهم شيئًا منها، تغيَّر مزاجه حين ذُكرت سيدته، ومن قبل سقطت الرِّسالة من يده وسقط اللجام على رقبة الجواد، وظل كمن غاب عن الوعي. طلبت الفتاة من أحد الذين شهدوا النزال أنْ يأتيها بالرِّسالة ، ثم عادت إليه والجميع يرقب ما يدور ويتعجب: كيف تعكر مزاج الفتى من الأخبار التى أتت بها الفتاة! ولما وصلت إليه قالت له:

– ما هذا يا سيدى، أبهذه الطَّريقة السَّيئة تستقبل رسالة أسمى فتاةٍ فى الوجود، رسالة تلك التى تحبك حبا جما، وجعلتنى أكابد فى سبيل البحث عنك ؟

– أيَّتهُا الصَّديقة –قال الفتى– لم أفهم ما قالته لى مع هذا السُّوء الذى أصابنى، ويحدث لى مرَّةً أخرى فى حضرتك.

قالت الفتاة :

– سيدى، ما عندى من الأسرار شىء، فأنا أعلم عنك وعن سيدتى أكثر من كل ما تعلم أنت، وهذه هى رغبتها، وهى تخبرك إذا ما كنت تحبُّها فلا تعرض عنها، وهى تحبُّك حبًا كثيراً لا يمكننى الحديث عنه فى هذه العجالة، ولتعلم أنهم أخذوها إلى منزل والدها، وقد أرسلت إليك أنْ تبتعد قدر الإمكان عن هذه المعركة، ولتذهب إلى بريطانيا العظمى، وأن تحاول البقاء مع والدها حتى إشعار آخر منها. كما تخبرك بأنَّها تعلم أنَّ والدك هو أحد الملوك، وأنها ليست –بالتَّالى– أقل فرحًا منك، وأنَّك حين لم تكن تعلم بأصلك النَّبيل كنت تتصرَّف على أحسن وجهٍ، والآن عليك أنْ تتصرف أفضل من ذى قبل نظراً لوضعك الجديد.

وهنا قدمت إليه الرِّسالة، وقالت له :

– أترى هذه الرِّسالة التى تحمل اسمك، وقد كنت تحملها فى رقبتك حين ألقوا بك فى مياه البحر.

أخذ الرِّسالة، ثم قال :

– آه أيَّتُها الرِّسالة، كيف حافظت عليك تلك السَّيدة التى أسرت قلبى، حفظتك تلك التى أشرفت بسببها مرات عديدة على حافة الموت، وكم عانيت المرارة والألم بسببها، إنَّنى الآن فى أسمى درجات السَّعادة والسُّرور ! آه يا إلهى، فى اليوم الذى وجدتنى فيه قادراً على خدمة تلك السَّيدة تصنع هى هذا المعروف !

وما إن قرأ الرِّسالة حتى علم بأنَّ اسمه الحقيقى هو أماديس. قالت الفتاة له :

- سيدى، أودُّ الآن العودة إلى سيدتي، فقد أبلغت ما أمرتني به.

- آه أيتها الفتاة -قال الفتى- استحلفك بالله ! انتظرى هنا ثلاثة أيام ولا ترحلى إلى أيَّة ناحيةٍ وبأيَّة وسيلةٍ، ولسوف أحملك إلى المكان الذى تودِّينه.

- إليك ومن أجلك أتيت - قالت الفتاة - ولن أفعل شيئًا آخر غير ما تأمرنى به.

وما إنْ فرغ من حديثه مع الفتاة حتى عاد الفتى إلى الملك وأجراخيس؛ حيث كانا فى انتظاره. بدخولهم المنزل قال الجميع :

- مرحبا بالفارس الهمام، الذى أعاد إلينا شرفنا وسعادتنا.

هكذا ذهب الجميع إلى القصر، ووجدوا الملكة ووصيفاتها ومجموعة من الفتيات داخل حجرة فتى البحر تغمرهن فرحةٌ عارمةٌ، أنزلنه بأيديهن من فوق جواده، ونزعت الملكة بنفسها عنه ملابس النِّزال، وحضر إليه الحكماء يداوون جراحه، والتى -رغم كثرتها- لم يتألَّم منها ألمًا شديداً، أراد الملك وأجراخيس أنْ يتناولا طعامهما معه، إلا أنَّه لم يرغب فى تناوله إلا مع فتاته ليشرف بها، فقد رأى أنَّها هى التى ستخفف عنه آلامه ومتاعبه. هكذا ظلَّ بضعة أيام تغمره السَّعادةُ، خاصة لتلك الأخبار الطَّيبة التى أتت إليه، لدرجة أنه نسى ما قام به من مجهود فى النِّزال السَّابق، ولا حتى القروح التى يعانى منها عملت على منعه من القيام والتَّجول بالصَّالة متحدِّثًا مع الفتاة دومًا، التى استوقفها هو هناك، ومنعها من الرَّحيل حتى يتمكنَّ من حمل السِّلاح واصطحابها. غير أنَّه قد وقع له حدث عجيب تسبَّب -بعد أن ظل هناك بضعة أيام- فى رحيل الفتاة وحدها، كما ستسمعون الآن.

الفصلُ العاشِرُ

كيف تعرّف الملك بيريون والملكة إيليسينا على ابنهما فتى البحر.

فى البداية عرفنا من خلال الحكاية كيف أن الملك بيريون قدّم للملكة إيليسينا –وقت أن كانت صديقته– أحد خاتمين كان يحملهما فى يده، متشابهين تمام التّشابه، لا فرق بينهما على الإطلاق، وكيف أنَّ فتى البحر كان يحمل ذاك الخاتم في عنقه حين أُلقى به فى مياه البحر، وكيف عثر عليه بعد ذلك سيده جنداليس ومعه السيف، وقد سأل الملك بيريون الملكة إيليسينا عدَّة مرَّات عن الخاتم، وهي في خجلٍ منه لا تدرى أين وضعته، فأخبرته بأنه قد فُقد منها. وبعد ذلك وقع أمرٌ عجيبٌ، فبينما كان فتى البحر يتجوَّل بإحدى الصَّالات، يتكلَّم مع فتاته، رأى ميليثيا Millcia ابنة الملك طفلةً تبكي؛ فسألها ماذا حدث؟ قالت الطِّفلة:

– سيدى، لقد فقدت خاتمًا أعطانيه الملك كي أصونه بينما ينام بعض الوقت.

– سأعطيك –قال الفتى– خاتمًا آخر، جميلاً أو أجمل كي تعطيه للملك.

وهنا نزع الخاتم من إصبعه، وأعطاها إيَّاه قالت الطِّفلة :

– هذا هو الخاتم الذى فُقد منى.

– ليس هو – قال الفتى.

– إنَّه الخاتم الوحيد بالوجود فى هذا العالم الذى يشبهه تمام الشَّبه – قالت الطِّفلة.

- ولهذا فمن الأفضل -قال فتى البحر- أنْ تقدميه بدلاً من الآخر.

وما إنْ تركها حتى ذهب إلى حجرته بصحبة الفتاة، ثم اضطجع على فراشٍ، وهي على آخر كان هناك. استيقظ الملك، وأمر ابنته أن تعطيه الخاتم؛ فأعطته الخاتم الذى كان معها، أدخله فى إصبعه ظنًا منه أنَّه خاتمه، غير أنَّه نظر فوجد الخاتم الذى أضاعته ابنته كائنًا بأحد أطراف الحجرة، ضمه للآخر؛ فرأى أنه هو ذلك الخاتم الذى أعطاه للملكة، ثم قال للطِّفلة :

- ماذا عن أمر هذا الخاتم ؟ .

أصابها الخوف من والدها؛ فقالت :

- أحلف بالله، سيدى، أنِّى فقدت خاتمك، فمر من هنا فتى البحر، ولما رآنى أبكى أعطانى هذا الذى كان يحمله، واعتقدت بأنه خاتمك الذى فقدته.

بدأ الملك يتشكَّك فى أمر الملكة، فياليت طيبة فتى البحر، إلى جانب جماله الفائق، لم يكونا قد دفعا بها إلى التَّفكير فيما لا يجب، وأخذ سيفه ثم دخل الغرفة على الملكة، ثم أغلق الباب، وقال :

- سيدتى، دائمًا ما أنكرتنى الخاتم الذى أعطيتك إيَّاه، وهاهو فتى البحر قد أعطاه الآن لميليثيا، كيف لمثل هذا الأمر أنْ يحدث ؟ أخبرينى كيف حصل عليه، وإذا ما كذبت على فسأطيح برأسك ثمنًا لهذا.

الملكة، التى شاهدت الملك وقد تملَّكه الغضب، جثت على قدميه ثم قالت له :

- آه، سيدى، أستحلفك بالله، أنْ ترحمنى ! وبما أنَّك تظن بى سوءًا، فسوف أبث لك همى وحزنى الذى لم أروه لك.

بدأت تبكى بكاءً مريرًا، ثم صكَّت وجهها، وروت له كيف ألقت بابنها فى مياه البحر بينما وضعت معه هذا الخاتم والسَّيف.

- آه يا الله -قال الملك- أرى أنَّ هذا الفتى هو ابننا.

بسطت الملكة يدها، ثم قالت :

- هذا ما أرجوه من ربِّ العباد.

- والآن هيَّا بنا أنا وأنت -قال الملك-، ولنسأله عن أصله.

ذهبا وحدهما إلى الغرفة التي كان بها فتى البحر؛ فوجداه يغط في نومٍ عميقٍ، وما كان من الملكة إلا أنْ أجهشت بالبكاء لما أصابها من شكِّ الملك فيها. وهنا تناول الملك في يده السَّيف، الذي كان على مقدمة السَّرير، فتأمَّله جيداً ووجد أنَّه هو ذلك السَّيف الذي كثيراً ما استخدمه في النِّزال، وسدَّد به ضربات كثيرة وصائبة، ثم قال للملكة :

- بالله أعرف هذا السَّيف حق المعرفة، والآن أصدق ما قلتِه لي أكثر من ذي قبل.

- آه سيدي - قالت الملكة - ليس لنا أنْ ندعه يواصل نومه، فقد أصابت قلبي الكروب والغموم.

ذهبت نحوه، وأمسكت بيده، وجذبته في هدوء نحوها قائلةً :

- أيُّها الصَّديق، عليك إنقاذي من هذا المأزق والضِّيق الذي أنا فيه.

استيقظ الفتي فرآها تبكي بكاءً مرًا فقال لها :

- سيدتي، ما هذا الذي أنت فيه ؟ لو أنَّني أملك لذلك دفعًا، فأمريني، فسأتحمَّله لدرجة الموت.

- آه، أيُّها الصديق -قالت الملكة- ستنقذنا الآن تساعدنا حين تقول لنا ابن من أنت ؟

- ليكن الله في عوني -قال الفتي- لا أدري عن ذلك شيئًا، فقد انتشلني البعض من مياه البحر بأعجوبةٍ شديدةٍ.

سقطت الملكة أمامه فى أسوأ حال، وخرَّ هو راكعًا أمامها، ثم قال :

– آه، يا إلهى ما هذا ؟

قالت هى باكيةً :

– يا بنى، ترى أمامك الآن والدك ووالدتك.

حين سمع الفتى ذلك قال :

– بحق العذراء مريم، ما هذا الذى أسمع ؟

وهنا، وبينما أخذته الملكة بين ذراعيها، قالت :

– يا بنى، لقد أراد الله برحمته وفضله أنْ يعوضنا عن ذلك الخطأ الذى ارتكبته من جرَّاء الخوف الذى تملَّكنى، حيث قمت –كأمٍّ سوءٍ– بإلقاء ابنى فى مياه النَّهر، وهأنت ترى هنا الملك الذى أنجبك.

وهنا ركع أمامها، ثم قبل يديها وهو يذرف من عينيه دموع الفرح، شاكرًا الله أنْ أخرجه من مخاطر جمة؛ حتى يعطيه فى نهاية المطاف كل هذا الشَّرف والحظ المحمود فى وجود الأبِّ والأمِّ. قالت الملكة حينئذٍ للفتى :

– بنى، أتدرى ما إذا كان لك اسم غير هذا ؟

– سيدتى، نعم أدرى –قال هو– فحين انتهيت من ذلك النِّزال حملت إلى تلك الفتاة رسالة كنت أحملها معى مغطاة بالشَّمع حين ألقى بى فى مياه البحر، والتى ذكر فيها أنَّ اسمى أماديس.

وحينئذٍ أخرجها من صدره، وقدَّمها لها، ورأوا أنها الرِّسالة نفسها التى كتبتها داريوليتا بيدها.

قالت الملكة :

– ابنى المحبوب، حين كتبت هذه الرِّسالة كنت فى غاية الهمِّ والضِّيق، والآن أنا فى غاية السعادة والفرح، أيا كرم الله !، ومن الآن فصاعدا سوف تلقب بهذا الاسم.

- هذا، سأفعله - قال الفتى.

هكذا أصبح يدعى أماديس، وفى أماكن أخرى عرف بأماديس دى جاولا. وهنا أحس أجراخيس -ابن خالته- فرحة عارمةً لهذه الأخبار، وكذلك فرح كل من فى المملكة فرحة لا يمكن وصفها هنا، فبعد أنْ عثر الملك والملكة على ابنهما الضَّائع. -رغم ما كانا عليه من حالة غير لائقةٍ -استقبلا ذلك مع أقربائهما بكل فرحةٍ وبهجةٍ، وماذا كان عساه أنْ يحدث للفتى لو كان معروفا لكل من حوله. والآن، نكف عن الحديث في هذا الموضوع، ونحكى ما وقع بعد ذلك. قالت الفتاة الدَّانماركية :

- سيدى أماديس، أودُّ الرَّحيل حاملةً هذه الأخبار الطيِّبة إلى سيدتى، التى سوف تسرُّ بها، وأما أنت فعليك البقاء هنا حتى تدخل السَّعادة على تلك العيون التى ذرفت الدُّموع عليك رغبة منك.

اغرورقت عيناه بالدُّموع، ثم بدأت تنهمر متتابعةً على خديه، وقال :

- صديقتى، اذهبى فى حفظ الله فأنا مدينٌ لك بحياتى التى تعملين على رعايتها، فأوصيك بها خيرا، فما كنت سأجرؤ على أنْ أطلبها من سيدتى نظير المعروف الكبير الذى أسدته لى الآن، وسوف أكون هناك لأكون فى خدمتها سريعا حاملا نفس الملابس الحربية التى كنت أرتديها وقت النِّزال بينى وبين الملك أبييس، والتى تعرفيننى من خلالها، إذا لم تكن هناك فرصة لسماع ذلك منِّى.

وهنا أتى أجراخيس لوداعه، فأخبره بأنَّ الفتاة، التى قدَّم لها بنفسه رأس جلبانو نظير إهانته لها قد أحضرت له رسالةً من سيدتها أوليندا، ابنه الملك بابين، ملك النُّرويج، وليذهب لملاقاتها فيما بعد. الفتاة التى اكتسبها صديقة فى ذات الوقت الذى كان فيه هو وعمه جالبانيس بالمملكة. كان السَّيد جالبانيس هذا شقيق والده، ولما لم يكن له تركة سوى قلعة بسيطة، أطلق عليه اسم جالبانيس بلا أرض، ثم قال له :

- سيدى، وابن أخى، إنَّنى أفضل البقاء فى صحبتك على أىِّ شيءٍ آخر، غير أنَّ قلبى الذى أصبح مهموماً، لا يدع لى مجالاً للاختيار سوى الذَّهاب إلى تلك التى تتملكنى فى بعدى عنها أو قربى منها، وأودُّ أنْ أعرف منك أيْن أجدك حين عودتى.

- سيد – قال أماديس– أظن أنَّني سأكون موجودا فى منزل الملك ليسوارتى، فلتبحث عنى هناك، فقد أخبرنى بعضهم بأنَّ فى بيته جمعً من الخيالة رفيع المستوى لم يعهد مثله قط فى بيت ملكٍ أو إمبراطورٍ فى هذا الوجود، وأودُّ أن تذكرنى عند والدك ووالدتك الملكين، وبإمكانهما –وأنت أيضا– الاستفادة من خدماتى مقابل ما تعهدانى بالرِّعاية من قبل.

وحينئذٍ ودَّع أجراخيس الملك والملكة خالته، وامتطى جواده ومعه كل رفاقه، يصطحبهم الملك وأماديس، ليكونا في شرف وداع أجراخيس، وبخروجهم من دائرة البيت وجدوا فتاة أمسكت بلجام جواد الملك وقالت له :

- أتتذكر، أيها الملك، تلك الفتاة التى أخبرتك، بأنَّه حين تسترجع ما فقد منك، ستفقد مملكة أيرلندا زهرتها، ولتنظر ما إذا قالت الحقيقة، فهاأنت قد استرجعت هذا الابن الضَّائع، ومات ذلك الملك المتعجرف أبييس، الذى كان زهرة إيرلندا. والآن أزيدك أنا، فلن يُتمكَّن من استرجاعها أبدًا على يد أى سيد كائنا من كان حتى يأتى الأخ الصالح للملكة، الذى سيظهر هناك بكل صلفٍ وعجرفةٍ؛ بقوة السِّلاح، ومعاونة أمراء آخرين، وسوف يلقى حتفه على يد ذلك الذى سيموت فى سبيل أغلى شيء يحبه فى الوجود. هذا هو ما أرسلت إليك سيدتى أورجاندا، حتى تكون على علم به.

قال لها أماديس :

- أيَّتُها الفتاة، أبلغى سيدتك السَّلام من الفارس الذى أعطته الرُّمح، والآن أرى أنها ما قالت لى سوى الحقيقة : أنَّنى سوف أحرر بهذا الرُّمح البيت الذى خرجت منه فى بداية الأمر، فقد حررت والدى الملك الذى كان على وشك الموت.

تابعت الفتاة طريقها، وأجراخيس قد ودَّع الملك وأماديس، وهوما سوف نترك الحديث عنه إلى حينه.

أمر الملك بيريون بأنْ يجتمع كل من القصر، حتى يتمكَّن الجميع من رؤية ابنه أماديس حيث ظهرت علامات السُّرور عليهم، وأقاموا الاحتفالات والألعاب على شرف

ذلك السَّيد الذى أرسله الله إليهم، ويتمنون العيش معه، ومع والده في سعادةٍ وراحةٍ لا حدود لهما. وهنا علم أماديس كيف اختطف العملاق السَّيد جالاؤر أخاه، وصمم على معرفة ما يحيط بهذا الحدث، وأنْ يسترد أخاه بقوة السِّلاح، أو بأيَّة طريقةٍ أخرى تدعو الضَّرورة إليها. هناك أشياءُ كثيرةٌ جرت في البلاط الملكي، وقام الملك بتوزيع الكثير من العطايا والهدايا العظيمة، وهو الأمر الذى يطول شرحه، وما إنْ انتهت الاحتفالات حتى تحدث أماديس مع والده معربا له عن رغبته في الرَّحيل إلى بريطانيا العظمى، فحيث لا حاجة له به، فليسمح له بالذَّهاب. بذل الملك والملكة جهودهما لإثنائه عن قصده، فما استطاعا إلى ذلك سبيلا، حيث لم يترك له شوقه إلى سيدته فرصةً لسماع شيء آخر سوى نداء قلبه، اصطحب معه جندالين، وبعض الأسلحة المماثلة لتلك التي كان يحملها وقت نزاله ضد الملك أبييس، هكذا جاء رحيله، فسار طويلاً حتى بلغ البحر، واستقلَّ سفينة حملته إلى بريطانيا العظمى، ثم توجه إلى محلة تدعى بريستويا، عرف فيها بوجود الملك ليسوارتي بمقره الخاص المعروف باسم بنيندلسورا، كما عرف أنه رجلٌ قادرٌ وقويٌ وحوله حاشية من الفرسان الأشدَّاء، وأنَّ كل ملوك الجزر الأخرى يخضعون له. رحل عن هناك متابعًا طريقة، غير أنَّه لم يطل به السَّير، حتى وجد فتاة قالت له.

– أهذا هو طريق بريستويا ؟

– نعم– قال الفتى.

– أتدرى ما إذا كان لي أنْ أجد سفينة توصلني إلى جاولا ؟

– وما الغرض من ذهابك إلى هناك ؟– قال الفتى.

– أنا ذاهبة للسُّؤال عن فارس صالحٍ يدعى أماديس ابن ملك جاولا، تعرَّف على والده منذ فترة وجيزة.

دُهِشَ الفتى، ثم قال :

– أيتُّها الفتاة، من أنبأك هذا ؟

- نبأتنى به من لا يخفى عليها شيء.

- يالله -قال الفتى- أتلك التى يحتاج الجميع إليها هى فى حاجة إلى. اعلمى أيتُّها الفتاة، أنَّنى هو من تبحثين عنه، والآن هيَّا بنا إلى حيث شئت.

- كيف ! - قالت هى - أأنت من أبحث عنه ؟

- نعم، أنا هو حقا - قال الفتى.

- إذنْ فلتتبعنى - قالت الفتاة - وسأحملك إلى حيث توجد سيدتى.

هنا تخلَّى أماديس عن طريقه، وتنكب الطَّريق الآخر الذى أشارت عليه به الفتاه.

الفصلُ الحادى عشر

أخذ العملاق جالاؤر إلى الملك ليسوارتى حتى يباركه فارسًا. وفى الطَّريق شاهدا كيف أنَّ فارسًا مدجَّجا بسلاح فى هيئة أسدٍ يهاجم ويهزم -من أجل إرضاء رغبة أورجاندا لاديسكونوثيدا- سكان إحدى القلاع. وهنا قرَّر جالاؤر أنْ يصبح فارسًا على يد هذا الفارس، الذى قبل أمنيته. وحين تمت مراسم التنصيب، كشفت أورجاندا للفارس المتدرِّع بأسلحة فى هيئة أسدٍ -أماديس- أنه قام بتنصيب أخيه جالاؤر الآن فارسًا، ثم أفصحت لهذا الأخير عن هويته وهوية من منحه لقب الفروسية. خرج جالاؤر فى صحبة فتاتين، وبعض حاملى السِّلاح والدُّروع إلى لابنيادى جالتاريس.

الفصلُ الثَّاني عشر

دخل جالاوز في عراكٍ مع العملاق ألبادان وهزمه.

امتطى جالاوز صهوة جواد أحد حاملي السِّلاح، ثم رأى عشرة فرسان يخرجون من القلعة مقيدين بالسَّلاسل، وقالوا له :

– تعالى لتأخذ القلعة، بعد أنْ قتلت العملاق ومن كانوا يحرسونها.

قال جالاوز للفتيات :

– سيداتي، علينا أنْ نمضي الليلة هنا.

أجابت الفتيات بالموافقة، وهنا قام بنزع السِّلسلة عن الفرسان، وآوى الجميع إلى القلعة المزودة بأجمل البيوتات، فخلع جالاوز ملابس النِّزال وتناول طعامه، وفتياته أيضًا معه. هكذا بقوا هناك يتأمَّلون في متعةٍ كبيرةٍ صلابة ومتانة الأبراج والأسوار التي بدت لهم عجيبةً للغاية. وفي يوم آخر تجمَّع كل سكان القلعة –بعد قتله للعملاق الذي حكمهم بالحديد والنَّار– فيريدونه سيداً عليهم. شكرهم على هذا المطلب كثيراً، وأخبرهم بأنَّه يعلم أنَّ هذه الأرض تتبع جنداليس، وأنه –بوصفة خادمًا له– أتى إلى هنا ليستعيدها من أجله، وعليهم طاعته سيداً لهم كما يمليه عليهم الواجب وهو –بدوره– سيعاملهم بوداعةٍ وكرمٍ.

– مرحبًا به –قال الجميع– وهو سيدنا له من السمع والطاعة، فهذا الآخر الذي أودى بحياته كان يعاملنا كمجموعةٍ من الغرباء.

هنا أخذ جالاؤر العهد من اثنين من الفرسان، من بين أشرف سكان القلعة في رأيه، كي يقوما بتسليم القلعة إلى جنداليس فور حضوره، وما إن حمل أسلحته معه وفتياته كذلك، فضلا عن أحد حملة السِّلاح الذين أحضرهم معه، حتى سلك طريقه صوب منزل ذلك النَّاسك، وحين بلغه وجد كلَّ ترحيب من جانب ذلك الرَّجل الصَّالح، ثم قال له :

– يا بني، أنت من المغبوطين، زد من حبك لربك، فهو يحبك، إذ شاءت إرادته أنْ يقع هذا الانتقام الجميل من أجلك أنت.

هنا، بدأ جالاؤر –بعد حصوله على مباركة النَّاسك وسؤاله الدُّعاء له في صلواته– مسيرته، وطلبت إحدى الفتيات منه أنْ يأذن بصحبتها له. وقالت له الأخرى :

– ما قدمت إلى هنا إلا لأشهد نهاية المعركة، في أيِّ مكان كانت. والآن أودُّ الذَّهاب إلى منزل الملك ليسوارتي لأقابل فارسًا شابا يرتدي ملابس فروسية في هيئة الأسد، هو أخي، يعيش هناك.

– أيتها الصَّديقة –قال جالاؤر– إذا ما وجدته هناك، أبلغيه تحيات الفتى الذي تلقى الفروسية على يديه، وأنَّني سأبذل جهدي حتى أكون رجلاً صالحًا، وإذا ما لقيته، فسأروي له مزيدا عن أصلي وأصله الذي يعرف.

سارت الفتاة في طريقها، ثم قال جالاؤر للفتاة الأخرى: إنَّه هو الفارس الذي أشعل نار المعركة، وطلب أن تحيطه علمًا باسم سيدتها التي أرسلتها.

– لو وددت معرفته –قالت الفتاة– فلتتبعني، وسأريكها بعد خمسة أيام.

– إنَّ هذا –قال هو– لن يثنيني عن التَّعرف عليها، وسوف أتبعك.

سارا حتى بلغا مفترق طريقين، فسار جالاؤر في أحدهما، فقد كان يسبق الفتاة ظنا منه أنها آتية وراءه، بينما أخذت هي الطَّريق الآخر، وقد حدث هذا عند مدخل غابة تدعى براننداء، والتي تقسم ولاية كلارا وجريسكا، وما تأخر الوقت كثيرا حتى سمع جالاؤر أصواتًا تقول :

– آه، أيُّها الفارس الهمام، أغثني !

أدار وجهه، وقال.

– من ذا الذي يطلق هذه الأصوات

قال حامل السِّلاح :

– أظن أنَّها الفتاة التي افترقت عنَّا.

– كيف ! –قال جالاوز– افترقت عنَّا ؟

– نعم، سيدي، قال هو – فلقد ذهبت في الطَّريق الآخر.

– ياالله، ما رعيتها حق رعايتها.

وضع الخوذة على رأسه؛ وأمسك بالدِّرع والرُّمح، ثم انطلق قدر استطاعته إلى حيث مصدر الصَّوت ؛ فرأى قزما قبيح الهيئة يمتطي جواداً، وإلى جواره خمسة من المشاة المسلَّحين الذين يحملون على رءوسهم خوذات حديدية، وفئوسًا، وكان يضرب الفتاة بعصا كانت في يده. وصل جالاوز إليه، وقال :

– يا له من أمرٍ سيئٍ وقبيحٍ، إنه لحظك التَّعِس الذي أراده الله لك.

ووضع الرُّمح في يده اليسرى، ومضى نحوه، وما إن نزع العصا من يده حتى ضربه بها فجرحه، وسقط على الأرض مغشيا عليه ؛ هجم المشاة عليه وأوجعوه ضربا في كل أنحاء جسده، فأسدى ضربة بالعصا إلى وجه أحدهم، فطرحه أرضًا جثةً هامدةً، وجرح آخر بالرُّمح في صدره، والذي أدخل الفأس في درع جالاوز، فما استطاع أن ينزعها، فلقد اخترقته، ثم سقط والرُّمح مثبتٌ في جسده، أخرج جالاوز الفأس من درعه، ومضى نحو الآخرين، ولكنهم لم يجرءوا على ملاقاته، وفرُّوا هاربين بين الأشجار؛ فما تمكن من ملاحقاتهم، ولما عاد أدراجه، شاهدا القزم يمتطي جواده، ثم قال :

– أيُّها الفارس لقد أصبتني في مقتل، وأزهقت أرواح رجالي.

ثم انتهـر الجـواد، وأخذ طريقه مسرعا قدر الاستطاعة. أخرج جالاوز الرُّمح من جسد جندي المشاة، ورآه سليما لم ينكسر، فسره هذا، ثم قدم الأسلحة إلى حاملها، وقال :

– أيتها الفتاة، تقدَّمي أنت، وعليَّ أنْ أرعاك كما يجب وبصورةٍ أفضل.

وهكذا عاد إلى الطَّريق حيث وصلا بعد مدةٍ وجيزةٍ إلى نهر يدعى بران، وما كان بالإمكان عبوره دون استخدام مركب ؛ وجدت الفتاة، التي كانت تتقَّدم جالاوز مركبًا وعبرت إلى الجانب الآخر، وبينما كان جالاوز في انتظار المركب، وصل القزم الذي كان قد أثخنه بالجراح، وبدأ يقول :

– أقسم أيها الخائن، بأنَّني سأقتلك لا محالة، وستترك الفتاة التي أخذتها منِّي عنوةً.

– رآه جالاوز وقد حضر في صحبة ثلاثة فرسان مدجَّجين بأفضل الأسلحة، ويمتطون أعظم الجياد.

– كيف؟! –قال أحدهم– أسنهاجم ثلاثتنا شخصا واحد فقط ؟ أنا لست في حاجة إلى أي مساعدة.

وانطلق نحو جالاوز بكل ما أوتي من سرعة وقوة ؛ أسرع جالاوز –الذي حمل سلاحه– صوب مهاجمه، وتلاقت الرِّماح، فكسر فارس القزم كل ما كان يحمله من سلاح، غير أن الجرح لم يكن نافذًا، وأما جالاوز فقد سدَّد إليه ضربةً قويةً، فأطاح به من فوق السَّرج، فاندهش الجميع لذلك، وأقبلوا عليه دفعةً واحدةً، وأسرع هو إليهم وأخطأ أحدهم ضربته، وأمَّا هو فقد مزَّق الدِّرع برمحه، وسدَّد جالاوز إليه ضربةً قاسيةً أطاحت بالخوذة من فوق رأسه، وأفقدته أربطة سرج الجواد، فأصبح على وشك السقوط. وأما الآخر فعاد وسدَّد ضربة بالرُّمح إلى صدر جالاوز، كسر الرُّمح، ورغم أن جالاوز عاني من هذه الضربة، فإنه لم يخسر سترته الواقية، وهنا أمسكوا جميعا بسيوفهم وبدأوا قتاله، وصاح القزم قائلا :

– أجهزوا على جواده، ولا تدعوه يهرب.

أراد جالاوَر أنْ يسدِّد ضربةً مؤلمةً إلى الذى أسقط الخوذة، فرفع الدِّرع، وأمكن يده من الرُّمح، ثم سدَّد ضربةً بطرفه إلى رأس الفارس، وغرسه حتى بلغ فكه فسقط ميتًا ؛ وحين شاهد الفارس الآخر هذه الضَّربة ولَّى هاربا، وتعقبه جالاوَر، حيث أصابه بالسَّيف فى أعلى الرَّأس، لكنه لم ينل منه جيدا، ثم أنزل ضربته فأصابت البدن الخلفى لسرج جواده، فتمزق إربا، غير أنَّ الفارس قد أصاب الجواد إصابة بالغةً، ونزع الدِّرع عن الرَّقبة حتى يتمكن من الهرب سريعًا. وحين رآه جالاوَر يهرب بهذه الطَّريقة، صرف النَّظر عنه، وأراد أنْ يصدر أمرا بتعليق القزم من رجله، غير أنه رآه يفر هاربًا على جواده قدر استطاعته، عاد إلى الفارس الذى كان يواجهه من قبل، والذى عاد إلى وعيه، فقال له :

– لقد أسفت لك أكثر من الآخرين، لأنك كنت راغبًا فى القتال طواعيةً منك كفارسٍ همامٍ ؛ لكن لا أدرى لماذا هاجمتنى هجومًا لا أستحقه منك.

– حقا ما تقول – قال الفارس –ولكن ذلك القزم الخائن أمرنا بأنْ نقتلك بعد أنْ نثخنك بالجراح، ثم ننزع منك عنوةً الفتاة التى أراد أنْ يصطحبها معه وفق رغبتها.

– أشار جالاوَر إلى الفتاة التى كانت فى انتظاره على الجانب الآخر، ثم قال :

– أترى الفتاة لو أنَّنى أجبرتها على صحبتى لما وقفت تنتظرنى، وقد كانت تسير فى رفقتى أنا، ولمَّا أنْ ضلَّت طريقها فى هذه الغابة خطفها هو، ثم جرحها بعصًا مؤلمةٍ.

– آه، يا له من خائنٍ –قال الفارس– لقد غرَّر بى حيث أتيت إلى هنا !

أمر جالاوَر بإعطائه الجواد، ونبَّهه إلى ضرورة محاربة القزم الخائن. وهنا عبر فى المركب إلى الجانب الآخر، ثم أخذ طريقه ترشده الفتاة، وفيما بين الثَّالثة مساء وغروب الشَّمس أرته الفتاة قلعةً غايةً فى الجمال فوق أحد الأوديَّة، ثم قالت له :

– سوف نقيم نحن هناك.

ساروا مسيراً طويلاً حتى وصلوا إليها، واستقبلوا استقبالاً حسنًا كما لو كانت الفتاة فى بيتها تماما، ثم قالت :

– سيدتي، لتكوني في خدمة هذا الفارس كمن لا مثيل له في ساحات الوغى.

قالت الفتاة :

– سنقدِّم له هنا أفضل خدمةٍ ومتعةٍ.

ثم قالت الفتاة له :

– أيها الفارس، حتى أفي بما وعدتك به عليك أنْ تبقى هنا في انتظاري، وسأعود إليك برسالةٍ.

– أرجوك – قال هو – لا تجعليني أنتظر كثيراً، فهذا يؤلمني ويحزنني.

ذهبت الفتاة ولم تتأخر كثيرا في العودة إليه، ثم قالت له :

– والآن، امتطِ جوادك ولننصرف.

– باسم الله – قال هو.

وهنا حمل أسلحته، وامتطى جواده، وانصرف معها، وسارا دومًا وسط إحدى الغابات وحين اجتازاها أقبل عليهما الليل، واصلا سيرهما حتى وصلا بعد جزءٍ من الليل إلى بلدة مشهورةٍ تعرف باسم جرانداريس، وحين وصلا إلى القصر قالت الفتاة :

– الآن علينا أنْ نكون يقظين، ولترعني؛ ففي ذاك القصر سأقول لك ما وعدتك به.

– أأحمل سلاحي في يدي ؟ – قال هو.

– نعم – قالت هي –، فلا أحد يدري ماذا ينتظرنا.

سارت في المقدمة، وجالاوز خلفها حتى وصلا إلى حائط، فقالت الفتاة :

– اصعد من هنا، وادخل إلى هناك، وأنا سأذهب من ناحية أخرى وسنلتقي. صعد إلى أعلى بصعوبةٍ بالغةٍ حاملاً درعه وخوذته، ثم هبط، وانصرفت الفتاة. أصبح جالاوز وسط بستان، ثم وصل إلى باب صغير بسور القصر، وانتظر عنده بعض الوقت حتى رآه يفتح، ورأى الفتاة برفقة أخرى، وقالت لجالاوز :

- سيدى الفارس، قبل أنْ تدخل من المناسب أنْ تخبرنى ابن من أنت؟

- دعك الآن من هذا - قال هو -، فوالدى ووالدتى من ذوى المكانة الرَّفيعة لدرجة أنَّنى لا أجرؤ على الانتساب إليهما.

- ما زال مناسبا - قالت هى - أنْ تخبرنى بنسبك، ولن يكون فيه أذى لك.

- تعلمين أنِّى ابن الملك بيريون والملكة إيليسينا، وقبل سبعة أيام من الآن ما كنت أدرى ماذا أقول لك عن هذا الأمر.

- ادخل - قالت هى.

وما إن دخل، حتى نزعتا عنه ثياب الفروسية وأسلحتها، وألبستاه عباءةً، ثم خرجوا جميعهم من هناك، ذهبت إحدى الفتاتين فى المقدمة، والأخرى في المؤخرة، وجالاؤر بينهما، دخلوا قصر منيفًا وجميلاً، به سيدات وفتيات على الأرائك متكئات، وإذا ما سألت إحداهن من هناك، تأتى الإجابة من قبل الفتاتين معًا. مضى الجميع إلى غرفة بالقصر، حيث رأى جالاؤر فتاةً جميلةً تمشِّط شعرها الذى بدا فى أبهى صورةٍ، وما إن رأته حتى وضعت في شعرها زهرةً جميلةً، وذهبت نحوه قائلة :

- صديقي، حللت أهلاً، ونزلت سهلاً كأفضل فارس عرفته.

- سيدتى - قال هو -، وأنت فى أبهى صورة أراك أجمل فتاة رأيتها في حياتى.

- وهنا، قالت الفتاة التي أرشدته إلى هنا :

- سيدى، ها أنت ترى هنا سيدتى، والآن وفيت بوعدى، ولتعلم أن اسمها ألديبا Aldeba، وأنها ابنة ملك سيروليس، وقامت على رعايتها هنا خالتها زوجة دوق بريستويا.

وبعد أنْ فرغت قالت لسيدتها :

– أقدم لك ابن الملك بيريون دى جاولا، كلاكما من أسرةٍ ملكيةٍ، وتتمتَّعان بجمالٍ فائقٍ، وإذا ما تحاببتما، فلا عيب فى هذا.

وما إنْ أصبح الجميع خارج المكان حتى قضى جالاوْر مع الفتاة ليلته كما يهوى، ودون أنْ أعيد على مسامعكم ما جرى، لأنَّه فى مثل هذه الأحوال – التى لا تتلاءم والطِّباع أو الفضائل الخيِّرة – يصبح على المرء أنْ يمر بها مرَّ الكرام، جاعلاً إيَّاها فى المكانة البسيطة التى تستحقها. وحين أتت ساعة خروجه من هناك، حمل معه الفتيات، ثم عاد إلى حيث ترك ملابس الفروسية، فارتداها، ثم خرج إلى البستان. وهناك وجد القزم الذى تعرفونه، حيث قال له:

– أيُّها الفارس، لقد دخلت إلى هنا فى وقت نكد، فسوف أقتلك والخائنة التى أتت بك إلى هنا.

وحينئذٍ صاح قائلاً :

– تعالوا أيُّها الفرسان، انهضوا، فهناك رجلٌ قد خرج لتوه من غرفة الدُّوق. وهنا تسلَّق جالاوْر الحائط؛ فامتطى جواده، ولم يطل الوقت حتى خرج القزم فى رفقة أناسٍ عبر باب فتحوه، وحين رآه جالاوْر – وسط من صحبوه – قال فى نفسه :

– آه، سألقى حتفى إذا لم أنتقم من هذا القزم الخائن !

وانطلق نحوه يطلبه، غير أنَّ القزم قد تدرَّع خلف الجميع على جواده. وهنا ونظرًا للغيظ الشَّديد الذى تملَّك جالاوْر، اقتحم الصُّفوف، وبدأ الجميع يضربه من كل اتجاه، وحين رأى مروره منهم أمرًا مستحيلاً، سدَّد إليهم ضرباتٍ موجعةً، فقتل اثنين منهم بالرُّمح، الذى تكسر على إثر الضَّربة. تناول السَّيف، وسدَّد إليهم ضرباتٍ مميتةً، فلقى بعضهم حتفه، وبعضهم الآخر سقط جريحًا، وقبل أنْ ينتهى من هذه المواجهة سدَّدوا ضربةً لجواده فقتلوه، لكنه نهض من وقعته بحماسٍ وقوةٍ، فوجهوا الضَّربات إليه من كلِّ جانبٍ، لكنه بعد أنْ وقف على رجليه، أرهبهم لدرجة أنَّه لم يجرؤ أحد منهم على الإمساك به. وحين رآه القزم واقفًا على قدميه، حاول أنْ

يضربه ضربةً بزند الجواد، وهجم عليه هجمةً شنعاء، أطاح جالاؤر بنفسه بعيدا، ومدَّ يده أمسك بلجام الجواد، ثم سدَّد إليه ضربة برمانة السَّيف في صدره فأدماه، وأسقطه على الأرض، فهدَّته السَّقطة هدّا، وسال الدم من أذنيه، وأنفه، وهنا قفز جالاؤر فوق جواده وحين امتطاه فقد اللجام، وانطلق الجواد بأقصى سرعةٍ، ولَمَّا أن كان جوادا عظيما وسريعا، فقد قطع شوطًا بعيداً قبل أنْ يسترد جالاؤر مقوده، وما إن استردَّه حتى فكَّر في العودة إلى قتالهم، لكنَّه شاهد صديقته تطلُّ من نافذة أحد الأبراج، وأشارت له بعباءتها أنْ يرحل عن المكان، وبالفعل فقد رحل عن المكان، حيث أخذ النَّاس يصلون إليه فجأةً، وتابع سيره حتى وصل إلى إحدى الغابات. وهنا أعطى الدِّرع والخوذة إلى حامل سلاحه، في حين قال بعض النَّاس إنَّه من الأفضل اللحاق به ومتابعته، أمَّا بعضهم الآخر، فرأى عدم جدوى ملاحقته، حيث أصبح وسط الغابة، غير أنَّهم قد دهشوا جميعا لجسارته في ساحة الوغى. أمَّا القزم، الذي أثخن بالجراح، فقد أنهى قائلا :

- احملوني إلى الدُّوق، وسوف أخبره عن الشَّخص الذي يجب أن ينتقم منه.

حملوه بين أيديهم، وأبلغوه مكان تواجد الدُّوق، ثم حكى له كيف وجد الفتاة في الغابة، وحين أرادها أن تأتي معه صاحت بأعلى صوتها شاكيةً، فحضر لنجدتها ومساعدتها أحد الفرسان، فقتل اثنين من رجاله، ثم ضربه ضربًا مبرحًا بالعصا، وبعد ذلك تبعه هو وثلاثة فرسان بغية استعادة الفتاة منه، وكيف أدخل الفارس الرُّعب في قلوبهم فهزمهم، ثم حكى له في النِّهاية كيف أنَّ الفتاة أحضرته ورفاقه إلى القصر، وأدخلته إلى غرفة الدُّوق. سأله الملك عَمَّ إذا كان يعرف الفتاة، فأجاب بالإيجاب، وحينئذٍ أمر بإحضار كل الفتيات في القلعة، ووقف القزم وسطهن فرأى الفتاة، ثم قال:

- هذه هي التي لطَّخت شرف قصرك.

- آه، أيها الخائن ! - قالت الفتاة - لقد ضربتني ضربًا مبرحًا، وأمرت رجالك بضربي، وقد أتى ذلك الفارس الطَّيب لإنقاذي والدِّفاع عنِّي، ولا أعرف ما إذا هو الفارس نفسه أم لا.

ظهر الغضب على وجه الدُّوق، وقال :

- أيَّتُها الفتاة، سأجعلك تقولين الحقيقة.

ثم أمر بإيداعها السِّجن، غير أنها لم تفصح عن شيء رغم تعذيبها والإساءة إليها، وتركها هناك تعاني مما أضجر ألديبا Aldeba كثيراً، والتي أحبتها حبا جما، وأصبحت لاتدرى كيف، ولا مع من تُبلغ هذا الخبر إلى صديقها السَّيد جالاؤر.

هنا يكفُّ المؤلف عن الخوض في هذا الموضوع، ثم يعود للحديث عن أماديس، وأمَّا أمر جالاؤر هذا فسوف يتعرَّض له في حينه.

الفصلُ الثَّالثُ عشر

كيف انفصل أماديس عن أورجاندا لاديسكو نوثيدا، ووصل إلى إحدى القلاع، وماذا حدث له هناك.

رحل أماديس عن أورجاندا لاديسكو نوثيدا، وقد امتلأت نفسه فرحًا، لعلمه أن من قد قام بتنصيبه فارسًا إنما هو أخوه، ولاعتقاده بأنَّه سيصل إلى مكان وجود سيدته في الحال، فإنْ لم يتمكَّن من رؤيتها فإنَّ سلواه تكمن في رؤية المكان الذي كانت فيه، سار في طريقه صوب ذلك المكان عبر غابةٍ لم يعثر خلالها على أيَّة بلدة، وأقبل عليه الليل، وبعد مدَّةٍ رأى نارًا بدت كأنَّها موقدةً فوق رؤوس الأشجار، فسار في اتجاهها ظنًّا منه أنه سيعثر على مأوى. وهنا ضلَّ طريقه، وسار حتى بلغ قلعةً جميلةً رأى في أحد أبراجها أضواء المشاعل تشع من فتحاته ونوافذه، ثم سمع أصوات رجالٍ ونساءٍ تنطلق بالغناءِ والمرح. طرق الباب، لكن لم يسمعه أحدٌ، وبعد مدَّةٍ وجيزةٍ نظر أهلُ البرج من خلال الشُّرفات فرأوه يناديهم. وهنا قال له أحد الفرسان :

– من أنت يا من تنادي في هذا الوقت ؟

– قال له أماديس :

– سيدي، أنا فارسٌ غريبٌ.

– هكذا تبدو – قال من بالسُّور – فأنت حقا غريب(*)، وإذا تخليت عن السير نهارا، وهأنت تسير خلال الليل، وأرى أنَّك قد فعلت هذا لترفع عن نفسك عناء المواجهة، فلن تجد الآن سوى الشَّياطين.

(*) يأتي التقابل هنا في الحروف مخالفا للمعنى المراد من الكلمة [غريب الأولى: تعني عن البلدة، والثانية: غريب أمره]

قال له أماديس :

- إذا ما توافر لديك عنصر الخير، فسوف ترى فى بعض الأحيان ضرورة المسير ليلاً لأولئك الذين لا يمكنهم التَّخلى عنه.

- الآن عليك الانصراف من هنا - قال الفارس - فلن تدخل إلينا.

- ليكن الله فى عونى - قال أماديس -، فأرى أنَّك لا ترى شيئا نافعا فى تجمعكم هذا، لكنَّنى أودُّ قبل أنْ أنصرف معرفة اسمك.

- سأخبرك به - قال الفارس - إذن، تقدَّم، وحين تجدنى عليك منازلتى.

- وعده أماديس بذلك، وقد تملَّكه غيظٌ شديدٌ. هنا قال الفارس :

اعلم أنَّنى أُدعى داردان Dardán، وليس بمقدورك أنْ ترى أسوأ من هذه الليلة غير ذلك اليوم الذى تلقانى فيه.

- إنَّنى أودُّ - قال أماديس - الوفاء بهذا الوعد حالاً، ولينزلوا إلينا ليضيئوا لنا المكان بهذه المشاعل كي تنازلني وأنازلك.

- كيف - قال دردان - أتراني أنزل من هنا لأحمل سلاحى بغية النِّزال ليلاً ؟ لعن الله من تدرَّع بملابس النِّزال ليكسب شرفًا بالليل !

وحينئذ انصرف بعيداً عن السُّور، وتابع أماديس طريقه.

وهنا يصوِّر المؤلف المتعجرفين فى أسوأ صورة فيقول : أيُّها المتكبِّرون، ماذا تريدون؟ ما الذى تفكِّرون فيه ؟ أرجوكم أنْ تخبرونى عن جمال الشَّخصية، والشَّجاعة الكبرى، وحماسة القلب، هل ورثتموها عن آبائكم، أم اشتريتموها بأموالكم، أم حصلتموها فى مدارس كبار الحكماء، أم ربحتموها بفضل كبار الأمراء؟! بالتَّأكيد ستقولون: لا؛ إذنْ، أين وجدتموها ؟ يبدو لي أنَّكم نلتموها من ذلك الرَّب المتعال الذى لا يصدر عنه، ولا يقع فى ملكه إلا ما هو خير، وإلى هذا الرَّب، ما هى الفضائل، وما هى الخدمات التى تصدر عنه ولا يقع فى ملكه إلا ما هو خير؟ وإلى هذا الرَّب، ما

هي الفضائل، وما هي الخدمات التي تقدمونها إليه في مقابل ذلك ؟ وبالتأكيد، فلن يكون شيئا سوى احتفال العضلاء من النَّاس، والإساءة إلى شرف الخيِّرين، ومعاملة أهل طاعته بالتي هي أسوأ، وقتل الضُعفاء بما لكم من تكبرٍ ظاهرٍ، وغير ذلك من السُّباب اللا متناه لكل من يتقرَّب إليه، معتقدين في رأيكم أنكم سوف تكسبون هكذا - وبهذا العمل - الشهرة والمجد، والشَّرف في هذه الدُّنيا، وهكذا وبشيءٍ قليلٍ من التَّفكير والتَّوبة في نهاية أيامكم تكسبون مجد اليوم الآخر. آه، يا له من تفكير تافه وعقيم ومجنون، حين تقضون حياتكم الدُّنيا في مثل هذه الأشياء دونما ندم تبدونه، وبدون مرضاة الله الواجبة عليكم تجاهه، تتركون التَّوبة وكل هذا مرَّةً واحدة إلى حين يدرككم الموت في لحظة حزينةٍ وخطيرةٍ، لا تعرفون بماذا وكيف تأتيكم ! تقول إنَّ قدرة الله وفضله عظيمان جداً، هذا فضلا عن رحمته : نعم هذا حق، لكن والحال هكذا فقد كان من الواجب أنْ تغلب قوتكم بمرور الوقت غضبكم وحنقكم، وأن تبعدكم عن تلك الأمور التي يبغضها الرَّب كثيراً، لأنَّه إذا ما جعلتم أنفسكم جديرين، وتستحقون عن جدارة عفو ربكم، فمعنى هذا أنَّكم ترون أنَّ نار الله الموقدة قد أعدها الرَّب دونما داعٍ على الإطلاق.

لكنَّني أودُّ الآن أنْ أدع جانباً هذا الذي ترونه، وأن أبدأ معكم في سرد ما يحيط بنا ونراه، ونتصفحه: أخبروني، ما هو السَّبب الذي من أجله أهبط لوثيفر Lucifer الشِّرير من السَّماء إلى أسفل سافلين ؟ ليس لشئ سوى استكباره العظيم، وذلك العملاق القوي ميمبرت Membrot الذي تسيَّد في بداية الأمر على النَّاس جميعاً، لماذا هجره الجميع؟ وكيف قضى نحبه في البراري كحيوانٍ متوحشٍ لا وعي له ؟ لم يكن ذلك إلا بسبب استكباره وعجرفته التي دفعته لاتخاذ سلَّمٍ أو سببٍ يصعد فيه إلى السَّماء ويسترق السَّمع. إذنْ، نقول: إن طروادة العظيمة لماذا قد تم تخريبها وتدميرها على يد هرقل، الذي قتل ملكها القادر العظيم لاوميدون؟ ليس لشيء سوى تلك الرِّسالة المتعجرفة التي بعث بها إلى الفرسان اليونانيين مع رسله، وعليه أقسم اليونانيون بالنُّزول عند ميناء سيميونتا. هناك الكثيرون الذين لقوا حتفهم في هذه الدُّنيا بسبب هذا الكبرياء الشِّرير الملعون وفي الحياة الآخرة يمكن عدهم وإحصاؤهم طالما أنَّ مثل هذا الخلق

مباحٌ ومطبَّقٌ، ولكن لكون هذا الأمر يطول شأنه فإنَّ قراءته تصبح أمراً مضجراً، ولهذا فمن الأفضل الكف عن الكلام فيه . وفقط سوف تتذكَّرون ما إذا كان هؤلاء الذين فى السَّماء والأرض حازوا السُّلطة القاهرة والشَّرف، قد فقدوا نظير التُّكبر والاستعلاء، وأُوذوا وأهينوا فى شرفهم، فما هى ثمرة تلك الكلمات الوقحة التى تفوَّه بها داردان Dardán وغيره من أمثاله ؟ ما وقع هذه الكلمات على هؤلاء؟ أو ماذا يمكن أنْ يحدث لهم ؟ ستعلمون ذلك من رواية الأحداث القادمة.

رحل أماديس -يتميَّز من الغيظ- عن ذلك الفارس المتكبر، ونزل بإحدى الغابات باحثًا عن مجموعة من الأشجار تكون ملائمة للرَّاحة والهدوء وسطها . وبينما هو فى الطَّريق سمع صوتا قادما، فأسرع، وحث جواده على الركْض، فوجد فتاتين تمتطيان جوادين لهما، ومعهما حامل السِّلاح. وصل إليهما، ثم ألقى عليهما التَّحية. سألته كل منهما من أين يأتى فى مثل هذا الوقت مدجَّجا بالسِّلاح، فحكى لهما كل ما جرى له منذ تلك الليلة.

– أتدرى -قالتا- ما اسم ذلك الفارس ؟

– نعم أدرى -قال هو- فقد أخبرنى به وقال إن اسمه داردان.

– هذا هو الصَّواب -قالتا-، فهو يدعى داردان المتكبر، وهذا هو أشدُّ فرسان هذه البلاد تكبراً وغطرسةً.

– أنا على يقينٍ من هذا – قال أماديس.

– قالت الفتاتان :

– أيُّها الفارس، إنَّ مسكننا قريبٌ من هنا، فلتنتظر معنا.

ونحن ذاهبتان إلى هناك – قالت الفتاتان – كى نرى ماذا حدث لسيدة هى من أفضل سيدات هذه الأرض، ومن أسرةٍ نبيلةٍ، وكل ما تملك فى هذا الوجود مرهونٌ بنتيجة نزالٍ معقودٍ، وعليها المثول خلال عشرة الأيام هذه أمام الملك ليسوارتى مع ذلك

الذى يخوض النِّزال من أجلها، لكننا لا ندرى ما الذى وقع له، فإنه بالمقارنة مع من سينازله بعد الآن أفضل فارس في بريطانيا العظمى.

– ومن هو هذا الفارس – قال أماديس – الذى تقدرونه كل هذا التقدير في مجال النِّزال من بين الكثيرين ؟

– هو الفارس نفسه الذى رحلت عنه الآن –قالت الفتاتان– داردان المتكبر.

– ما السَّبب الذى من أجله سيعقد –قال أماديس– هذا النِّزال ؟ أخبرانى بالله عليكما.

– أيُّها الفارس –قالتا– إن هذا الفارس قد وقع في غرام سيدةٍ من هذا المكان، وهى ابنة فارسٍ كان متزوِّجًا من تلك السَّيدة، فقالت المحبوبة لصديقها داردان بأنَّها لن تهبه حبها إلا إذا حملها إلى بيت الملك ليسوارتي، وأعلن أنَّ ما تملكه زوجة أبيها يجب أنْ يكون لها، وعلى هذا الأساس فلينازل من يقول بغير ذلك، وحقا فعل الفارس ما أمرته به صديقته، ولم تكن السَّيدة الأخرى مغفلةً كما يجب، ثم قالت إنها ستبرهن على عدم الرَّصانة هذه بنفسها أمام الملك، وفعلت هذا لما لها من حقٍ وسلطان، باحثةً عن شخصٍ يؤدى هذه المهمة نيابةً عنها، غير أنَّ داردان كان فارسًا ماهرًا في استخدام السِّلاح، ولهذا سواء أكانت قضيته عادلة أم جائرة، لم يجرؤ أحد على منازلته.

كان أماديس مسرورًا لكل ما سمع من أخبار؛ لأنَّ الفارس كان متعجِّرفا معه، وبمقدوره الآن أنْ ينتقم منه لما ألحقه به من إهانة، كما أنَّ النِّزال سيقع أمام سيدته أوريانا، وبدأ يفكِّر في هذا الأمر بكلِّ جديةٍ. وهنا لاحظت الفتاتان ما به من همٍ؛ فقالت له إحداهما :

– سيدى الفارس، أتوسَّل إليك تأدبًا أنْ تخبرنا سبب هذا الانشغال والتَّفكير، إذا ما أمكن لك البوح به تفضلاً.

– صديقتيَّ! –قال هو–، إذا ما تعاهدتما أمامى أن تكونا فتاتين مخلصتين لا تبوحان بالسِّرِّ لأحدٍ، فسأبوح لكما به طواعيةً.

- تعهدتا بذلك، فقال لهما :

- كنت أفكر فى أنْ أخوض النِّزال من أجل تلك السَّيدة التى أخبرتمانى عنها، وهذا ما سأفعله، غير أنَّني أودُّ ألا يعرف ذلك أحدٌ.

هنا أصبح أماديس محلَّ تقدير واحترام الفتاتين، كما أنَّه محل مدح واحترام فى مجال المواجهة والنِّزال، ثم قالتا :

- أيُّها الفارس، لحسن ما صدر عنه تفكيرك، وليكن الله فى عونك ويمنحك النَّصر.

ذهب الجميع إلى مقر إقامته ليخلد إلى النَّوم، وفى صباح اليوم التَّالى امتطوا جيادهم وبدأوا المسير، وهنا توسَّلت إليه الفتاتان بألا يسير بعيداً عنهما، فهما على سفرٍ، وهذه الغابة تعجُّ بالرِّجال الأشرار. وافق على طلبهما.

ساروا جنبًا إلى جنب يتحدَّثون فى أشياء كثيرة، وتوسَّلت إليه الفتاتان -بما أنَّ الله قد جمعهم- أنْ يخبرهما باسمه؛ فأخبرهما باسمه، وطلب منهما ألا يخبرانه أحداً قط. سار الجميع فى طريقه كما علمتم، وبينما هم فى أرضٍ قفرٍ، ينعمون فى خيامهم بما أحضرته الفتاتان من مؤنة، رأوا فارسين مدجَّجين بالسِّلاح تحت الأشجار، امتطيا جواديهما، ووقفا أمامهم، ثم قال أحدهما للآخر :

- مَن مِن هاتين الفتاتين تريد، وأنا سأكتفي بالأخرى ؟

- أنا أريد هذه الفتاة - قال الفارس.

- أنا أريد هذه الأخرى.

- وأخذ كل منهما فتاته.

قال لهما أماديس :

- ما هذا أيُّها السادة؟ ماذا تريدان من الفتاتين ؟

قالا :

- نريد صحبتهما كصديقتين.

- أتريدان حملهما بهذه السُّهولة - قال هو - دون ما رغبةٍ منهما ؟

- ومن ذا الذى سيسلبناهما.

- أنا - قال أماديس -، إذا أمكن لى ذلك.

وحينئذ تناول خوذته ودرعه ورمحه، ثم قال :

- الوقت مناسب الآن لكى تتركا الفتاتين.

- قبل هذا -قال أحدهما- لك أنْ تعلم قدرى فى النِّزال.

وهنا أسرعا بجواديهما كلٌ فى اتجاه الآخر، وتلاقيا لقاء الأشدَّاء برمحيهما. كسر الفارس رمحه، وسدَّد إليه أماديس ضربةً مؤلمةً وقاسيةً، فأطاح به من على ظهر الجواد، رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى أعلى، وتقطعت أربطة خوذته فانزاحت عن رأسه. هجم عليه الفارس الآخر هجمةً شرسةً فضربه، وإن لم يسعفه سلاحه، فقد أصابه، ولكن القرح لم يكن كبيراً، وكسر رمحه، أخطأ أماديس المواجهة والتحم الفارسان، وكذلك الجوادان والدِّرعان، وأمسك به أماديس فأخرجه من سرج الجواد، وطرحه أرضًا. وهكذا أصبح الفارس فى مواجهة أماديس على الأرض، وخرج الجوادان من المعركة. أخذ أماديس الفتاتين فى صحبته، وساروا فى طريقهم حتى وصلوا إلى أحد السَّواحل، فأمروا بإعداد خيامهم وتجهيز الطَّعام. ولكن قبل أنْ ينزل أماديس عن جواده وصل الفارسان اللذان نازلهما آنفًا، وقالا له :

- من المناسب أنْ تدافع عن الفتاتين بالسَّيف، والرُّمح، وإلا فسوف نحملهما معنا.

- ليس بمقدوركما أخذهما -قال أماديس- طالما أنِّى أدافع عنهما.

- إذنْ فلتدع رمحك.

- قال أماديس- شريطة أنْ تنازلانى واحداً واحداً.

وهنا سلَّم رمحه لجندالين، وتناول سيفه، وهجم على أحد الفارسين، الذى كان يفتخر بقدرته وقوته، وبدأ النِّزال بينهما، وبعد أقلَّ من ساعة أصبح الفارس في خطرٍ داهمٍ، فأصبح في حاجة لمساعدة زميله، رغم عدم الاتفاق على هذا. هنا -وحين رآه أماديس- قال :

- ما هذا أيُّها الفارس ؟ ألا تحفظ وعدًا ؟ أحيطك علمًا بأنَّنى لا أكن لك احترامًا.

هاجم الفارس مسرورًا، ولجرأته وشجاعته فقد سدَّد لأماديس ضرباتٍ قاسيةً. ولكن أماديس، حين رأى نفسه في مواجهة الاثنين فى المعركة، لم يدخر وسعًا وسدَّد إلى ذلك الفتى الذى أقبل مسرورًا ضربةً بكل ما أوتى من قوةٍ فأصابت خوذته، أتت الضَّربة مائلةً، فنزلت على الكتف فقطعت أربطة الجزء المغطى للرَّأس والذِّراع، فضلا عن لحمه وعظمه، وسقط السَّيف من يده. أدرك الفارس أنَّه ميِّتٌ لا محالة فشرع فى الهرب، ثم ذهب أماديس بحثًا عن الفارس الثَّانى فضربه ضربةً فى درعه، فجاءت ضربةً جانبيةً في اتجاه قبضة السَّيف، فمزقها حتى بلغت الضَّربة يده، وامتدت حتى الذِّراع، فقال الفارس :

- آه، سيدى، أدركنى الموت !

وحينئذ ترك السَّيف يسقط من يده والدِّرع من فوق عنقه، وقال أماديس له :

- لا مناص، لكنَّنى لن أتركك حتى تقسم لى أنك لن تأخذ أيَّة سيدة أو أيَّة فتاة عنوةً بعد ذلك قط.

أقسم الفارس على ذلك، وقام أماديس بإدخال سيفه في غمده، ووضع درعه حول عنقه، ثم تركه يذهب إلى حيث يداوى جروحه. عاد أماديس إلى الفتاتين اللتين كانتا بالقرب من الخيمتين، فقالتا له :

- لقد كانت إهانتنا محقَّقة، سيدى، لولا وجودك، فقد كنت أطيب ممَّا توقعنا، ونأمل أنْ تكون قد شفيت غليلك نظرًا لتلك الكلمات المتعجرفة التى تلفظ بها

داردان، وليس هذا فحسب، بل لعل الملكة تنال مثل ما نلت أنت من عوض عن الإهانة التى لحقتها، إذا ما أراد القدر أنْ تخوض النِّزال نيابةً عنها.

علت حمرةُ الخجل وجه أماديس حين سمع هذا الإطراء منهما، ونزعوا أسلحتهم، ثم تناولوا طعامهم، واستمتعوا بوقتهم. بدأوا مسيرهم فقطعوا شوطًا طويلاً، حتى وصلوا إلى قلعةٍ فأقاموا بها فى صحبة سيدةٍ استقبلتهم على الرَّحب والسَّعة. وفى اليوم التَّالى واصلوا سيرهم وما وقع لهم فى طريقهم أمرٌ ذو بال يستحق الرِّواية حتى بلغوا بينديلسورا، مقر الملك ليسوارتى، وما إن وصلوا إلى البلدة حتى قال أماديس للفتاتين :

– صديقتى، لا أودُّ أنْ يعرفنى أحد، وحتى يأتى الفارس إلى المعركة فسأبقى هنا فى مكان ما مختبئًا، أرسلا معى فتىً من هؤلاء يعرف مكانى، وليأت ليناديني حين يحين الوقت.

– أيُّها الفارس –قالتا– لم يبق سوى يومين على موعد النِّزال، وإذا أردت نبقى نحن معك، ولنا فى تلك البلدة من يخبرنا وقت حضور الفارس.

– ليكن الأمر هكذا قال أماديس.

وحينئذ ابتعدوا عن الطَّريق، وأقاموا خيامهم بالقرب من أحد الشَّواطئ. وهنا قالت الفتاتان إنهما ترغبان فى الذَّهاب إلى حيث مقر الملك، ثم تعودان مرَّة أخرى. امتطى أماديس جواده، دون أنْ يتدَّرع بالسِّلاح، وصحبه جندالين، ثم ذهبا إلى ربوة كى يتمكنا من رؤية مقرِّ الملك فى أفضل حال، وعلى مقربةٍ منهما كان يوجد طريقٌ فسيحٌ. جلس أماديس عند شجرةٍ، ثم أخذ ينظر إلى قصر الملك؛ فرأى الأبراج والأسوار العالية، ثم قال فى نفسه:

– آه يا إلهى، أين هى زهرة الدُّنيا فى هذا القصر ؟ آه، أيُّها القصر، كيف أنَّك الآن تزهو وتسمو لوجود تلك السَّيدة بين جدرانك، سيدة ليس لها مثيل فى الجمال أو الطِّيبة بين أقرانها فى هذا الوجود، وأقول إنها أكثر المحبوبات حظًا، وسأدلِّل على ذلك بنفسى أمام أفضل فرسان الدُّنيا، إذا ما سمحت لى بذلك !

وبعد هذا الإطراء الذى أذاعه عن سيدته غمره الحنين، فأجهش بالبكاء، ورقّ قلبه فأصبح في الفكر غارقًا، وساد جو من النَّكد والحزن، لدرجة أنَّه لم يعد يدرى بما حوله. رأى جندالين مجموعةً من الرِّجال والنِّساء قادمةً عبر الطَّريق الفسيح قاصدةً المكان الذى يتواجد فيه سيده، فاقترب منه، وقال له :

– سيدى، ألا ترى هذا الجمع الذى يقصدنا؟

لكنه لم يرد عليه بشىءٍ، فأمسك جندالين بيده وجذبه نحوه. كان أماديس قد ضاق صدره، فأصبح يتنفَّس بصعوبةٍ، وبدى وجهة مبللاً بالدُّموع، فقال له جندالين :

– ليكن الله في عونى، سيدى، إنه ليحزننى كثيرًا أنْ تغرق فى التَّفكير بهذه الصُّورة التى لا مثيل لها عند فارسٍ آخرٍ فى هذا الوجود، وقد كان من الواجب أن تلجأ إلى السَّلوى، وأنْ تتحلَّى بالصَّبر والجلد كما تفعل فى أشياءٍ كثيرةٍ أخرى.

قال له أماديس :

– آه يا صديقى جندالين، كم يعانى قلبى ! لو أنَّك تحبنى، اعلم أنك كنت ستنصحنى بالموت قبل الحياة مع كل هذا الغمِّ الذى أعانى راغبًا فيما لا أراه.

لم يتمكَّن جندالين من ضبط نفسه ومنعها من البكاء، ثم قال له :

– سيدى، إنَّ هذا الحبَّ الجارف لمصيبةٌ كبرى، فإنَّه –وليكن الله فى عونى– كما أرى ليس هناك من طيبة تساوى تلك التى تتمتَّع بها.

بعد أنْ سمع أماديس هذا الكلام تملَّكه الغيظ، ثم قال له :

– انظر أيُّها المجنون المتبلد، كيف تجرؤ على قول مثل هذه الحماقة ؟ أأنا بهذا القدر –أو أىَّ شخص آخر– الذى تحظى به تلك التى جمعت فى شخصها خير الدُّنيا كلَّه ؟ وإذا ما قلت هذا مرةً أخرى فلن تصحبنى خطوةً واحدة بعد الآن.

قال جندالين :

- امسح دموعك كي لا يراك بهذا الشَّكل أولئك الذين أتوا.

- كيف ! -قال أماديس- أقادم أحدٌ ؟

- نعم - قال جندالين.

وحينئذ أشار إلى الرِّجال والنِّساء الذين كانوا في طريقهم قرب الرَّبوة. امتطى أماديس جواده، ثم ذهب إليهم، وألقى عليهم التَّحية، فحيُّوه بمثلها ثم رأى بينهم سيدةً غاية في الجمال، وفي أبهى زينةٍ، وتبكي بكاءً مرًا. قال لها أماديس :

- سيدتي، الله قادرٌ على إسعادك.

- ليمنحك الرَّبُّ شرفًا - قالت هي -، فسعادتي مؤجلةٌ لمدةٍ طويلةٍ، إذا لم يمنحني الرَّبُّ مشورته.

- ليمنحك الرَّبُّ إيَّاها -قال هو- لكن ما هو الهمُّ الذي يعتريك ؟

- صديقي، قالت هي- إنَّ حياتي كلها معلَّقةٌ على مغامرةٍ وعلى نتيجة معركةٍ محدَّدةٍ.

- فهم أماديس بعد ذلك أنَّ هذه السَّيدة هي السَّيدة التي حدثوه عنها، ثم قال لها :

- سيدتي، أعندك من يخوض النِّزال نيابةً عنك ؟

- لا، قالت هي -، وموعده غداً.

- إذنْ، كيف سترتبين هذا الأمر ؟ - قال هو.

- سأخسر كلَّ شيءٍ عندي -قالت هي- إذا لم يكن في منزل الملك من يخوض النِّزال من أجلي، ويخوضه فضلاً وإحقاقًا للحقِّ.

- ليمنحك الله التَّفكير والصَّواب -قال أماديس- وهذا ما يسعدني كثيرًا، لأجلك ولأنَّني أكره الذي يقف في مواجهتك.

- جعلك الله من أهل الخير -قالت هي- ويرينا أنا وأنت انتقامه منه.

انصرف أماديس إلى خيامه، وأمَّا السَّيدة فتوجهت إلى مقرِّ إقامتها، ثم عادت الفتاتان إليه بعد قليل، وقصَّتا عليه كيف أصبح داردان متواجداً بذلك المقرّ، بعد أن أخذ زينته استعداداً للمعركة. حكى لهما أماديس عن لقائه بالسَّيدة وما جرى بينهما. استراحوا ليلتهم، وفي فجر اليوم التَّالي استيقظت الفتاتان فأخبرتا أماديس كيف وصلا إلى مقرِّ إقامة تلك السَّيدة، وأنهما سيخبراه بما يفعل الفارس.

– أودُّ الذَّهاب معكما –قال هو– حتى أكون قريباً، وحين يخرج داردان إلى ساحة النِّزال، تأتي واحدة منكما لتخبرني بذلك.

لبس أماديس ملابس النِّزال، ثم انصرفوا جميعا في موكبٍ واحدٍ، وحين اقتربوا من مقرِّ إقامة السَّيدة، بقي أماديس قريباً من الغابة بعد أنْ انصرفت الفتاتان.

نــزل عـن جـواده، ونـزع عـنه الخـوذة والــدِّرع، وظـل ينتظر. كـان ذلك وقت طلوع الشَّمس.

في هذا الوقت الذي تعلمون خرج الملك ليسوارتي على متن جواده في صحبة العديد من الرِّجال الأشدَّاء، ثم ذهب إلى ميدان يقع بين مقرِّ إقامته والغابة، وهناك أتى داردان مدجَّجا بالسِّلاح فوق جوادٍ جميلٍ، ومعه صديقته أمام الملك ليسوارتي، وقال له :

– لتأمر –سيدي– بتسليم هذه السَّيدة ما هو من حقها، وإذا كان هناك فارس لا يرضى بذلك، فسأنازله.

أمر الملك ليسوارتي باستدعاء الأخرى، فمثلت أمامه، وقال لها :

– سيدتي، ألديك من يخوض النِّزال من جانبك ؟

– سيدي، قالت هي باكيةً.

وهنا أسف الملك وتألَّم لها كثيراً، لأنها كانت امرأةً طيِّبةً وخيِّرةً. وقف داردان وسط الميدان، حيث وجب عليه أن ينتظر حتى السَّاعة التَّاسعة صباحًا مدجَّجا بالسِّلاح، وإذا لم يخرج له أيُّ فارس، يصبح على الملك أنْ يمنحه شرف الفوز، فهكذا كانت

العادة تقتضى. وحين رأته الفتاتان فى هذا الموقف أسرعت إحداهما بكل ما أوتيت من قوةٍ لتخبر أماديس بما يجرى. فأمتطى جواده وحمل أسلحته، ثم قال لجندالين والفتاة أنْ يسيرا فى ناحية أخرى، وإذا ما كسب النِّزال، فليذهبا إلى الخيام، وسوف يتقابل معهما هناك، ثم خرج هو من الغابة مدجَّجا بالسِّلاح فوق جوادٍ أبيضٍ، وتوجَّه إلى حيث كان يوجد داردان شاهراً سلاحه ووحين رأى الملك والجمع المحيط به الفارس خارجًا من الغابة اندهشوا كثير؛ فهم يجهلونه، وما يعرفه منهم أحد، وقالوا ما رأينا من قبل فارسًا جميلاً كهذا مدجَّجا بالسِّلاح فوق جواد.

هنا توجَّه الملك إلي السَّيدة غريمة داردان، فقال لها :

– سيدتى، من عساه يكون هذا الفارس الذى يودُّ خوض النِّزال من أجلك ؟

– هذا مددٌ لى من الله –قالت هى– لا أدرى عنه شيئًا، فما رأته عينى قط على ما أذكر.

– دخل أماديس إلي ساحة النِّزال حيث كان يتواجد داردان، وقال له :

– يا داردان، لتدافع عن حجة صديقتك، ولسوف أدافع عن السَّيدة الأخرى بعون الله، وأحلُّ نفسى من وعدى لك.

– وبماذا وعدتنى ؟ – قال داردان.

– بأنَّنى سأنازلك –قال أماديس– وهذا هو ما قلته لك حين أردت معرفة اسمك حين خاطبتنى بكل فظاظةٍ وغطرسةٍ.

– الآن أحتقرك أكثر من ذى قبل – قال داردان.

– لا وزن لما تتفوَّه به عندى –قال أماديس– فأنا على وشك الانتقام لنفسى، بعون الله وتوفيقه.

– إذن فلتحضر السَّيدة –قال داردان– ولتفوِّضك فى النِّزال من جهتها، ولتنتقم إنْ استطعت.

وهنا أتى الملك والفرسان؛ ليروا ماذا يجرى، وقال داردان للسيدة :

– هذا الفارس يودُّ خوض النِّزال من طرفك، هل ستمنحيه هذا الحق ؟

– نعم أمنحه –قالت هى– وليكافيه الله على ذلك خيراً.

نظر الملك إلى أماديس، فوجد درعه متهرِّئًا ومصابًا من كل جانب بفعل ضربات السُّيوف، فقال للفرسان الآخرين :

– إذا طلب هذا الفارس الغريب درعًا، فمن حقه أنْ تقدموه له.

وما كان يشغل أماديس آنذاك سوى منازلة داردان، فما كان يفكِّر فى غيره، مستحضرًا تلك الكلمات القذرة التى قالها له، والتى مازالت فى ذاكرته رنَّانةً وحديثةً أكثر من وقت وقوعها، وهى أمورٌ يجب الاعتبار منها وكفٌّ الألسنة عن الخوض فيها، وخاصةً مع الغرباء، لأنَّ مثل هذه الأمور تسبَّبت فى وقوع أشياءٍ عظيمة. خرج الملك من ميدان النِّزال، وكذلك الآخرون. وقف داردان وأماديس موقف المواجهة من بعيد، والجوادان يتميزَّان بالسُّرعة وخفة الحركة، والفارسان بالقوة الهائلة، فالتقيا برمحيهما لقاءً عنيفًا هشم أسلحتهما، غير أنه لم يصب أحدٌ منهما بقرحٍ، وانكسر رمحاهما، والتحم الفارسان بجسدى الجوادين والدِّرعين؛ فتعجَّب الجميع من ذلك ؛ وأصبح داردان على الأرض بعد هذه المواجهة الأولى، وأقبل أماديس نحوه بعد أنْ استغل الفرصة، وأمسك بالمقود فى يده، ونهض سريعًا، وامتطى صهوة الجواد كأسرع فارس، وأمسك بسيفه وشهره فى شجاعةٍ تامةٍ. وحين توجَّه أماديس إليه بجواده، رآه أعدَّ العدة للهجوم عليه، فأمسك بالسَّيف، وهجم كل منهما على الآخر بكلِّ قوةٍ، مما هال الجميع وأصابه بالدَّهشة ؛ ووقف أهل البلدة بالأبراج والأسوار والأماكن العالية التى تمكنهم من مشاهدة النِّزال بأفضل صورةٍ ممكنةٍ. وكان مقرُّ الملكة فوق السُّور، وكان مزوَّداً بالعديد من النَّوافذ التى كانت بها مجموعةً كبيرةً من الفتيات، وشاهدن نزال الفارسين؛ فبدا لها أمرًا مرعبًا ومخيفًا، فقد ضرب كل منهما الآخر فوق خوذته المصنوعة من الصُّلب الرَّقيق، لدرجة تصَّور الجميع معها أنَّ رأسيهما

يحترقان، وذلك نظراً للشَّرر المتطاير منهما، ومن الدِّرعين، وتطايرت أجزاءٌ عديدةٌ لعدة أسلحة على الأرض، فضلاً عن قطعٍ من الدِّرعين. هكذا بدت المعركة بينهما قاسية، أفزعت كل من شاهدها، وما كفَّ الفارسان عن القتال فجرح كل منهما الآخر جراحًا مريرةً في كل أنحاء جسده، وبرهن كل منهما على قوته أمام الآخر. أمَّا الملك ليسوارتي الذي كان يشاهدهما، فقد بدا له كلُّ شيء كأنَّه لا شيء، لكثرة ما شاهده من نزال حضره بنفسه، ورآه بعيني رأسه، ثم قال:

- هذه هي أقسى معركة شاهدها إنسان، وأودُّ أنْ أرى النَّتيجة التي ستسفر عنها، وسوف أحتفل أمام باب قصري بذلك الذي يكون النَّصرُ حليفه، حتى كل أولئك الذين يعملون على كسب الشَّرف.

واصل الفارسان نزالهما بكل حماسة -كما علمتم- وسدَّد كل منهما ضربات قاسيةً للآخر دونما راحةٍ، وهنا قام أماديس، الذي تميَّز غيظًا من داردان، وفي ذلك المنزل الخاص بالملك الذي كانت سيدته تأمل أن تسكنه، تلك التي يقوم على خدمتها بأمرٍ منها، وبعد أن رأى صلابة غريمه، قام بتسديد أقوى الضَّربات وأقساها إليه، مثل ذلك الذي يريد أن يبرز بسالته سواء هناك أو في أي مكان آخر ليرضي سيدته، بحيث عرف الجميع قبل حلول التَّاسعة صباحًا أنَّ داردان يواجه أصعب موقف في النِّزال، ولكن ذلك لا يعني أنه لا يدافع عن نفسه بصورةٍ جيدةٍ لاتخلو من الشَّجاعة، ولاتمنعه من القدرة على منازلته. ولكن لم ينفعه شيء من هذا، حيث لم يفعل الفارس الغريب شيئًا سوى تحسين قوته وشجاعته، وسدَّد إلى غريمه ضرباتٍ مؤلمةً وقويةً كما في بداية النِّزال، بحيث ظلَّ الجميع يقولون: ما ينقصه شيءٌ سوى جواده، الذي لم يكن شجاعًا بنفس القدر الذي يتمتَّع به فارسه. وكذلك كان حال الجواد الآخر، فقد تعثَّرا معًا، وانطرحا أرضًا ومعهما الفارسان، ليعيدانهما سيرتهما الأولى بصعوبةٍ بالغة. وهنا نظر داردان، الذي أبدى مهارة في النِّزال مترجلاً -فضلاً عن كونه ممتطيًا جواده- إلى أماديس، وقال له :

- أيُّها الفارس، أوشك الجوادان على الهلاك، فهما متعبان للغاية، وهذا مما يطيل كثيراً نزالنا، وأنا أرى أننا إذا ما تلاقينا مترجلين، فسوف أصرعك، وأنتصر

عليك سـريعًا. جاءت هذه الكلمات من داردان عاليةً مـدوِّيةً سمعـهـا الملك ومن معه. وهنا أحسَّ الفارس الغريب شيئًا من الخجل، ثم قال :

- بما أنَّك ترى أفضلية النِّزال مترجلاً، فلك ذلك، ولتدافع عن نفسك، فلن يكون أمامك سوى ذلك، رغم أنَّني لا أتصوَّر أنْ يقوم الفارس بترك جواده طالما باستطاعته أنْ يمتطيه.

هكذا هبط كلٌ منهما من فوق جواده بدون تأخيرٍ، وأمسك كل منهما بما تبقى له من درعه، وفي حماسة بالغةٍ وقع الصِّدام بينهما، وسدَّد كل منهما ضربات إلى الآخر بدت أقسى من سابقتها، فاندهش الجميع لهذا. تقدَّم الفارس الغريب كثيرًا في عمليات القتال، فجاء وصوله إلى خصمه أفضل وأكثر، وسدَّد إليه ضرباتٍ بالغةً، ومتواليةً، لم تترك له فرصة لالتقاط الأنفاس، رغم رؤيته لضرورة مثل هذه الرَّاحة، وفي مرَّاتٍ كثيرةٍ جعله يتقلَّب على كل جانب، وفي غيرها يجثو على ركبتيه.

حتى قال الجميع :

- لقد أقدم داردان على خطوةٍ جنونيةٍ حين رغب في النُّزول عن متن جواده، فما كان بمقدوره الوصول إليه وهو على ظهره، فهو في غاية التَّعب.

هكذا عامل الفارس الغريب داردان وفق رغبته، والذي لم يكن يهتم بشيء سوى اتقاء الضَّربات المسدَّدة إليه، دون التَّفكير في الرَّد عليها، ثم فرَّ هاربًا خارج حلبة النزال متوجِّهًا إلى قصر الملكة، وتردَّد القول بين الفتيات وغيرهن بأنَّ داردان سيلقى حتفه إذا ما أصرَّ على مواصلة النِّزال، وحين أصبح الجميع أسفل النُّوافذ قالوا :

- ابحق مريم، لقد مات داردان !

وهنا سمع أماديس صوت الفتاة الدُّنماركية، حين رفعت صوتها بالكلام، ثم نظر إليها خفيةً، فرأى سيدته أوريانا تُطلُّ من إحدى النَّوافذ، ومعها الفتاة، وحين رآها، اهتز السَّيف في يده، وتغيَّر كل شيءٍ بالنِّسبة له نظرًا لرؤيتها. وفي هذه الأثناء تمكن داردان من التقاط أنفاسه، ونظر فرأى غريمه في عالمٍ آخرٍ، فجمع قواه وأمسك

بالسَّيف بكلتا يديه، وسدَّد إليه ضربةً قويةً على أم رأسه، فانثنت الخوذة التي كان يرتديها، لم يرد أماديس الضَّربة بمثلها، وما فعل شيئًا سوى تعديل وضع خوذته، وهنا ظل داردان يكيل له الضَّربات من كل جانب. جاءت ضربات أماديس قليلةً، فقد أصبح فكره مشغولاً بالنَّظر إلى سيدته. في هذا الوقت تحسَّن وضع داردان، وساء وضع أماديس، فقالت الفتاة الدِّنماركية :

– في وقتٍ عصيبٍ رأى ذلك الفارس امرأةً، فقدَّم نفسه هديةً لداردان، الذي كان على وشك الموت. حقًا، ليس للفارس أنْ يضيِّع مجهوده في مثل هذا الوقت.

استمع أماديس لهذه الكلمات؛ فاعتراه الخجل، وأراد مواجهة الموت؛ كي لا تظن سيدته أنَّه رجلٌ جبانٌ، وتوجَّه سريعًا صوب داردان، وسدَّد إليه ضربة قوية أصابت خوذته، وجعلته يجثو على الأرض، ثم أمسكه من خوذته وجذبها بكلِّ قوة، فنزعها عن رأسه، وسدَّد إليه بها ضربةً سقط على إثرها مغشيًا عليه، وعاجله بضربةٍ من سيفه في وجهه، وقال له :

– ياداردان، الموت في انتظارك إذا لم تترك هذه السَّيدة حرَّةً طليقةً.

قال داردان :

– آه، أيُّها الفارس، الرَّحمة، لا أرغب في الموت، سأعطيها حريتها !

وحينئذٍ وصل الملك والفرسان؛ فسمعوا كلَّ هذا الحوار. امتطى أماديس –الذي شعر بالخجل لما بدر منه أثناء المعركة– جوداه، وتوجَّه بأسرع ما يمكن إلى الغابة. وصلت صديقة داردان حيث يوجد، فرأته وقد أنهكه النِّزال، وعلته الإهانة، ثم قالت له :

– ياداردان، من الآن فصاعدا لن تهنأ بي كصديقةٍ، لا أنت ولا أيَّ رجلٍ آخر في هذا الوجود إلا ذلك الفارس الهمام الذي خاض هذا النِّزال.

– ماذا ! –قال داردان– لقد هزمت، ولحق العار بي بسبَّبك، وتريدين التَّخلي عنِّي الآن من أجل ذلك الذي كان سببًا في أذيتك وإهانتي ؟ بالله، حقا فأنت امرأةٌ، حتى تقولين هذا الشيء، وأنا سأقدِّم إليك هديةً مقابل هذه الخيانة منك.

أمسك بسيفه الذى كان لا يزال فى نطاقه، وسدَّد إليها ضربة فارقت الحياة على إثرها. ذهل داردان مما فعل، فأطرق قليلا، ثم قال :

– آه، يا للحسرة ! ماذا فعلت لقد قتلت أفضل شئ أحببته فى هذا الوجود ! ولسوف أنتقم لموتها.

وأمسك بالسَّيف من طرفه، وغرسه فى جسده، فما استطاعوا له نفعاً ولانقاذاً، رغم ما بذلوه من محاولات بهذا الصَّدد. شاهد الجميع هذا المنظر، لكن لم يذهب أحدٌ بهذا الخبر إلى أماديس ليعلمه به. بدت علامات السُّرور على الجميع بهذا الموت، فرغم أنَّ داردان كان أشجع وأقوى فرسان بريطانيا العظمى، فإن تكبُّره وصلفه قد دفعاه لاستخدامهما فى إهانة الجميع، فعارض كل القوانين، وجعل من قوته وبسالته وجسارة قلبه أموراً أسمى من يوم الحساب فى الآخرة وعدالة الرَّب، التى تجعل من الضُّعفاء أقوياء، فتنصر الأوَّلين على الآخرين، وتذل هؤلاء كذلك.

الفصلُ الرَّابعُ عشر

كيف أمر الملك ليسوارتي بدفن داردان وصديقته، وأمر بأنْ يكتب على قبرهما الطَّريقة التى مات بها كل منهما.

وما أن انتهت هذه المعركة التي نجم عنها وفاة داردان وصديقته حتى أمر الملك بإحضار خشبتين ووضعهما فوق أسدين من الحجارة، وقام المكلَّفون بوضع داردان وصديقته في نفس مكان النِّزال، ثم كتبوا على قبريهما بحروف تخبر عن داردان -كما سنرويه فيما بعد- ثم سأل الملك عن حال الفارس الغريب، فما قال له المحيطون به شيئًا سوى أنَّ الفارس قد توجَّه مسرعًا إلى الغابة ممتطيًا جواده.

- آه -قال الملك- من عساه أنْ يجعل هذا الفارس في صحبته ! إذ فضلاً عمَّا يتمتَّع به من قوةٍ كبيرةٍ، فأرى أنَّه رجلٌ رصينٌ، فكلكم سمعتم بالإهانة التى وجهها إليه داردان، ورغم أنَّه كان في حوزته، لم يرد قتله، ففي رأيي أنَّه قرأ في عيني الآخر أنه لن يكون من ذوي الرَّحمة إذا لجأ لمثل هذا العمل.

وبينما الحديث هكذا يدور، والملك قد توجَّه إلى قصره، متابعًا الحديث هو ومن معه عن الفارس الغريب قالت أوريانا للفتاة الدَّانماركية :

- أشك في أنَّ الفارس الذي خاض النِّزال هنا هو أماديس، ولا بد أنَّه قد أتى منذ وقتٍ طويلٍ، فما كان له أنْ يتأخَّر، حيث أرسلت إليه أنْ يحضر.

- بكلِّ تأكيد -قالت هي- أرى أنَّه هو، وعليَّ أن أتذكر اليوم حين رأيت الفارس الذي أتى على جوادٍ أبيض، فقد تركت فارسًا هناك حين رحلت أنا.

قالت أوريانا :

- هل علمت نوع الأسلحة التى كان يحملها ؟

- لا -قالت الفتاة- كان درعه مشوهًا من كثرة الضَّربات، غير أنَّه كان من صفحةٍ ذهبيةٍ.

- سيدتى، قالت الفتاة -، لقد كان يحمل فى نزاله ضد الملك أبييس درعًا له صفحةٌ ذهبيةٌ مرسوم عليها صورة" لأسدين أحدهما فى مواجهة الآخر، غير أنَّ ذلك الدِّرع قد تحطَّم تمامًا هناك، وأمر بعد ذلك بإحضار آخر، وقال لى إنَّه هذا، فإما سيأتى أو سيرسل إلى القصر.

- لتخرجى أنت الآن -قالت أويانا- إلى أبعد مما تعوَّدت لترى ما إذا كان قد أرسل شيئًا.

- سيدتى -قالت الفتاة- سأفعل ما أمرتنى به.

وقالت أوريانا :

- آه، يا إلهى، يا له من فضلٍ تنعم به علي لو أنَّه هو، حيث يمكننى الآن الحديث إليه !

هذا هو مضمون حديث الفتاة وأوريانا، ونعود للحديث عما وقع لأماديس.

هكذا تحدثت الفتاتان حين رحل أماديس عن المعركة، وذهب خفيةً إلى الغابة، وما عاد أحدٌ يعرف عن أخباره شيئًا، ووصل إلى الخيام فى المساء، حيث وجد جندالين والفتاتين وشيئًا من الطَّعام، وما إنْ نزل عن جواده حتى نزعوا عنه ثياب المعركة، ثم أخبرته الفتاتان بقتل صديقة داردان على يديه وكيف قتل نفسه بعدها ولنفس السَّبب. صلى أماديس من أجل هذا الحدث الجلل عدَّة مرَّات، ثم جلسوا جميعهم يتناولون طعامهم بكلِّ شهية، غير أنَّ أماديس لم يكف عن التَّفكير فى كيفية إخبار سيدته بوصوله، وماذا ستأمره بفعله. وما إن فرغ من تناول الطَّعام حتى نهض، ثم أخذ جندالين جانبًا، وقال له :

- صديقى، اذهب إلى القصر، وابذل كل جهدك فى سبيل الوصول إلى الفتاة الدَّانماركية، وليكن ذلك سرا وخفية، وأخبرها بأنَّنى هنا، ولترسل إلى ماذا أفعل.

وافق جندالين -حتى يمعن في التخفي- على أن يخرج مترجلاً، وهكذا فعل، وما إن وصل المحلة حتى توجَّه صوب قصر الملك، وما انتظر كثيراً حتى يرى الفتاة الدَّانماركية، فما كانت سوى روحة وغدوة. وصل إليها ثم ألقى عليها التَّحية، فحيَّته بمثلها، ثم نظرت إليه مراراً؛ فعلمت أنَّه جندالين.

ثم قالت له :

- آه يا صديقي، مرحباً بك، وأين سيدك ؟

- كان هنا، وانصرف في الوقت عندما رأيته -قال جندالين- فهو الفارس الذي كسب النِّزال، وقد تركته الآن في تلك الغابة مختبئاً، وأرسلني الآن إليك لتنظري ماذا تأمرينه.

- مرحباً به هنا في هذه الأرض -قالت هي- ولسوف تفرح سيدته بقدومه، تعال خلفي، وإذا ما سألك أحدٌ، فقل إنك من طرف ملكة اسكتلندا، أتيت حاملاً رسالةً منها إلى أوريانا، أتيت بحثاً عن أماديس، المتواجد في هذه الأرض، حتى تكون في صحبته، وهكذا ستكون معها دون أنْ يتشكَّك أحد في شيء.

هكذا دخلا إلى قصر الملكة، ونادت الفتاة على أوريانا :

- سيدتي، يوجد هنا حامل سلاحٍ أتى برسالةٍ إليك من ملكة اسكتلندا.

ذهبت إليها أوريانا في فرحة غامرة، وغمرتها فرحة أكبر حين رأت جندالين، حياها ثم قال لها :

- سيدتي، ترسل الملكة إليك كثير السلامات من شخصٍ يحبُّك ويقدِّرك، ويسرها ويعجبها هذا القدر الشَّريف الذي تحوزينه، ولا تدَّخر وسعاً في الإعلاء من هذا القدر والرفعة.

- ليكن الله في عون الملكة -قالت أوريانا- وأشكر لها ما تتمنَّاه لي كثيراً، تعال إلى هذه النَّافذة فهناك الكثير الذي أودُّ سماعه منك.

وهنا ذهبت معه، وأجلسته إلى جوارها، ثم قالت له :

- صديقي، أين تركت سيدك ؟

- تركته في تلك الغابة -قال هو- حيث ذهب تلك الليلة التي كسب فيها النِّزال.

- صديقي -قالت هي- ماذا عنه، هل معك أخبارٌ سارةٌ ؟

- سيدتي -قال هو- إنَّه كما تشائين، كمن هو ملِك لك، ويقدِّم روحه فداءً لك، وتعاني روحه أكثر مما تعانيه أرواح الفرسان جميعًا.

وأجهش بالبكاء، ثم قال :

- سيدتي، إنَّه لن يتجاوز أمرك شرا كان أم خيرا، وأقسم بالله سيدتي -الذي أمل رحمته وفضله لك- أنَّه في خدمتك؛ ولهذا فقد تكبَّد كثير عناء في المجيء إلى هنا، عناء لم يتكبده غيره في هذا الوجود، وفضلاً عن ذلك، فقد توقعت مرارًا سقوطه أمامي ميتا بعد أنْ تحطم قلبه وزاد نحيبه، وإذا ما حالفه الحظ وعاش حتي اليوم، فقد جاء ذلك ليثبت أنَّه أفضل فارس ارتدى ملابس النِّزال، وأخبرك -نظرًا للأحداث العظام التي مرَّ بها منذ أنْ نُصِّبَ فارسًا- أنَّه أصبح من خيرة الفرسان حقا، غير أنَّه لم يكن يحالفه الحظ يوم أنْ تعرَّف عليك، ولسوف يموت قبل أجله. ولقد كان من الأفضل بالنِّسبة له أنْ يلقى حتفه في مياه البحر، الذى ألقى فيه، دون أن يتعرف عليه أقاربه، فهم يشاهدونه يموت دون أنْ يتمكنوا من التقدم لإنقاذه.

وما كفَّ هنا عن البكاء، وقال :

- سيدتي، سيكون موت سيدى بهذه الصورة أمرًا قاسيًا، وهناك الكثيرون الذين سيتألمون لموته إذا ما كان -دونما عون يذكر- سيعاني أكثر مما عاناه آنفا.

وهنا أخذت أوريانا تفرك يديها وأصابعها في عصبية، ثم قالت باكية :

- أستحلفك -يا صديقي جندالين- بالله، لتصمت، ولا تقل لي أكثر من هذا، فالله وحده أعلم كم يحزنني هذا الذي تقول، فمن قبل أمتَّ قلبي، وكل شيءٍ جميل عندي، وموته بالنِّسبة لي أمرٌ عسيرٌ على النَّفس لا أهواه، فأنا لا أتصوَّر العيش يومًا واحداً إذا ما رحل عن دنياي، وأنت تلقي باللائمة عليَّ؛ لأنك تعلم همه وشجنه، وما تعلم عن حالي شيئًا، وإذا ما علمته، فسوف تألم كثيرًا لحالي، ولن تلومني وإنما يبقى له بدلاً من ذلك ما يؤلمه ويغضبه ولكن ليس بإمكان الإنسان أن يحظى بما يرغب ويريد، وهذا هو ما يصيبني بسبب سيدك، فالله أعلم -إذا كان بمقدوري، مدى الهمة والرَّغبة التي أودُّ بهما مد يد العون لإصلاح أمره وأمري- فيما نودُّ ونرغب.

قال لها جندالين :

- افعلي ما يجب عليك إذا ما كنت تحبينه، فهو يحبك أكثر من كل الأشياء المحبوبة اليوم، ويا سيدتي، أشيري عليه ماذا يفعل.

أشارت له أوريانا إلى بستانٍ يوجد أسفل النَّافذة،

وقلت له يأتي هذه الليلة متخفِّيًا ثم يدخل إلى البستان، وهنا بالمنطقة الأرضية توجد الحجرة التي ننام فيها أنا ومابيليا، والتي توجد بها نافذةٌ قريبةٌ من الأرض صغيرةٌ ومزوَّدةٌ بشبكةٍ حديديةٍ بسيطةٍ، والتي سنتحدث إليه من خلالها، فلكم تعرف مابيليا قلبي.

نزعت خاتمًا أنيقًا من إصبعها، وأعطته لجندالين؛ كي يحمله إلى أماديس؛ لأنها تحبه أكثر من أيِّ خاتم آخر ملكته من قبل، ثم قالت :

- وقبل أنْ تذهب، عليك بمابيليا فهي تعرف جيداً كيف يكون تخفيه، فلكم هي حكيمة، وليكن الحديث بينكما أنك أتيت إليها بأخبار من أمِّها، وهكذا فلن يشكَّ أحدٌ في شيءٍ أبداً.

أرسلت أوريانا في طلب مابيليا؛ كي تقابل هذا الرَّجل الذي أتى إليها من قبل والدتها، وحين رأت جندالين فهمت جيداً ما أرادته سيدتها، ذهبت أوريانا إلى الملكة

خالتها، التى سألتها عما إذا كان ذلك الرَّجل سيعود قريبًا إلى اسكتلندا، فهى تود أن ترسل معه بعض الهدايا للملكة.

- سيدتي، لقد أتى حامل السِّلاح - قالت أوريانا -، ليبحث عن أماديس (ابن ملك جاولا)، ذلك الفارس الهمام الذى يدور الحديث عنه كثيراً.

- وأين هو ؟ - قالت الملكة.

- يقول حامل السِّلاح -قالت أوريانا- إنه يعلم بمجيئه إلى هنا منذ أكثر من عشرة أشهر، ويتعجَّب من عدم وجوده.

- ليكن الله فى عونى -قالت الملكة- إنَّه لمن دواعى سرورى أنْ أرى ذلك الفارس بصحبه سيدى الملك، وهو ما سيكون بمثابة راحةٍ كبيرةٍ له من معاناة العديد من الأمور التى ترد عليه من كل فج، وأخبرك بأنه إذا ما أتى إلى هنا، سيكون الملك رهن إشارته، وسينفذ له ما بوسعه.

- سيدتى -قالت أوريانا- أما عن فروسيته فلا أعلم شيئًا أكثر مما يقوله النَّاس، غير أنَّنى أقول لك إنَّه أفضل الفتيان، وأجملهم فى الوقت الذى كان يخدم فى منزل ملك اسكتلندا أمامى وأمام مابيليا وأمام أخريات.

وهنا، قالت مابيليا، التى كانت ملازمةً لجندالين :

- صديقى، هل يوجد سيدك بهذه الدِّيار ؟

- سيدتى -قال جندالين- نعم موجود، ويرسل إليك كثير السَّلام، كما يرسله أيضًا إلى Cormana التى يحبُّها أغلى من أى شىء فى الوجود، وقد كان هو الفتى الذى كسب النِّزال.

- آه ربى، يا إلهى، تباركت أنْ خلقت وشكَّلت لنا هذا الفارس الهمام الطَّيِّب، وجعلته من سلالتنا، وعرَّفتنا به !

- سيدتي -قال جندالين- لعله بخير، ولو لم يكن يتمتَّع بقوة الحب، لفارقنا ورحل إلى الحياة الآخرة، بالله عليك، سيدتي، أسعفيه، وساعديه، فلو لم تهدأ عاطفة الحب عنده، فسوف يضيع أفضل فارس عرفته سلالتكم، بل والدُّنيا جميعًا.

- أمَّا من ناحيتي -قالت مابيليا- فلن أدَّخر وسعًا في ذلك، ولترحل الآن، وأبلغه تحياتي، وأخبره بالمجيء كما أمرت سيدتي، وأنت بمقدورك الحديث إلينا -بوصفك مرسلا من ناحية والدتي- كلما دعت الضَّرورة لذلك.

رحل جندالين عن مابيليا حاملاً الرِّسالة إلى سيده، الذي كان يترقبه منتظراً إمَّا الموت وإمَّا الحياة، وفقًا لما يأتي به جندالين من أخبار، فقد كان الهم يحيط بأماديس في ذلك الوقت، وقد خارت قواه فما عادت قادرة على تحمل المعاناة، كما تحوَّلت الرَّاحة التي شعر بها حين كان قريبا من المكان الذي توجد فيه سيدته إلى رغبةٍ عارمةٍ في رؤيتها، تلك الرَّغبة المغلَّفة بالهم والغيظ، التي ألقت به على حافة الموت، وما إنْ رأى جندالين قادمًا حتى أقبل عليه، وقال :

- صديقي، جندالين، ماذا تحمل لي من أخبار ؟

- سيدي، أحمل إليك أخباراً سارةً - قال جندالين.

- أرأيت الفتاة الدَّانماركية ؟

- نعم رأيتها.

- وعرفت منها ما الذي سأفعله ؟

- سيدي -قال جندالين- أتيتك بأفضل ما تتمنَّى من أخبار.

ارتجف من شدَّة السُّرور، وقال :

- بالله عليك، ائتني بها فوراً.

قصَّ عليه جندالين كلَّ ما جرى مع سيدته، والحديث الذي دار بينهما، والكلام الذي قالته له وصيفتها مابيليا، والاتفاق المبرم بينهما، بحيث لم يبق من كلِّ ما جرى

شيء لم يخبره به. ولكم أن تتصوروا مدى السَّعادة التي كان فيها حين سمع هذا الكلام، ثم قال لجندالين.

- صديقي الوفي. كنت أكثر حكمةً وشجاعةً في أمري هذا أكثر منِّي، وليس هذا منك بغريبٍ، فوالدك قد جمع بين الحكمة والشَّجاعة، الآن أخبرني: هل تعرف المكان الذي يجب أنْ أذهب إليه؟

- نعم، سيدي -قال جندالين- فقد دلتني عليه أوريانا.

- آه، يا إلهي ! -قال أماديس- كيف أردُّ لهذه السَّيدة ذلك المعروف الذي صنعته معي الآن ؟ لا أدري لماذا أشكو حزني وهمي؟!

قدَّم إليه جندالين الخاتم، ثم قال :

- خذ هذا الخاتم الذي أرسلته إليك سيدتك، لأنَّه أكثر شيءٍ تحبه.

أخذ الخاتم، واغرورقت عيناه بالدُّموع، قبَّله ووضعه على قلبه، وظل صامتًا برهةً لم يقل شيئًا، ثم أدخله في إصبعه، وقال :

- آه، يا خاتمي، كيف كنت تسكن تلك اليد التي تفضل مثيلاتها في هذا الوجود !

- سيدي -قال جندالين- اذهب إلى الفتاتين وافرح، لأنَّ مثل هذه الحالة سوف تدمرك، وبإمكانها أن تلحق كبير الضرر بحبكما.

هكذا فعل أماديس، وحين حضر طعام العشاء ظلَّ يتكلَّم بقدر أكبرٍ ومتعةٍ أكبر مما تعوَّد عليه؛ الأمر الذي أسعد الفتاتين، فهذا الفارس يصبح أظرف وألطف رجل في العالم حين لايشغل باله الفكر والحزن، وحين أتى موعد النَّوم، نام الجميع كل في خيمته كما كانت عادتهم، وفي الوقت المناسب استيقظ أماديس فوجد جندالين قد هيَّأ الجياد، وأعدَّ الأسلحة، فارتدى ملابسه -لعل أمرًا ما يحدث في الطَّريق- وامتطيا جواديهما متوجِّهين صوب البلدة المطلوبة، وما إن وصلا إلى مجموعة من الأشجار

الكثيفةٍ بالقرب من البستان، الذى رآه جندالين فى المرَّة السَّابقة حتى نزلا من فوق جواديهما، وتركاهما هناك، ثم انصرفا سيرًا على الأقدام، ودخلا البستان عن طريق فتحة صنعتها المياه، وما إن وصلا إلى النَّافذة، حتى نادى جندالين على أوريانا -التى كانت تطارد النَّوم- بصوت خافت، فسمعته، فنهضت ونادت على مابيليا، ثم قالت لها :

- أرى أن صاحبك قد حضر.

- صاحبى هو حقا -قالت مابيليا- غير أنَّ لك منه حظا أوفر.

وهنا خرجتا صوب النَّافذة، وأشعلتا المشاعل بالداخل؛ فأضاءت المكان عن آخره، ثم فتحتا النَّافذة. رأى أماديس سيدته فى ضوء المشاعل، فبدت له صورةً زاهرةً، يظنُّ المرء معها استحالة أنْ تحوز امرأة فى الدُّنيا بأسرها جمالاً كهذا. كانت ترتدى ثيابًا من حرير هندىٍ، مطرَّزة بأزهارٍ ذهبية كثيرةٍ وكثيفةٍ، حاسرة الرأس، فأبانت عن شعر يوصف بجمالٍ عجيبٍ، وما كانت تضع عليه شيئا سوى مجموعة من الزُّهور الغنية، وحين رآه أماديس على هذه الهيئة أخذ يرتجف بقوة من جرَّاء المتعة الكبيرة التى أصابته، وأخذ قلبه ينبض بشدَّةٍ، وما استطاع الانتظار. وحين رأته أوريانا على هذه الحال أتت إلى النَّافذة، ثم قالت:

- سيدى، مرحبًا بك هنا فى هذه الدِّيار، فكم أحببناك، ورغبناك، وسعدنا بما علمنا عنك من أخبارٍ سارةٍ سواء فى مجال النِّزال والمعارك، أو فى أمر التَّعرف بينك وبين والديك.

حين سمع أماديس هذا الكلام -ورغم ذهوله- بدأ يعدُّ نفسه جيداً لهذه المعركة العاطفية التى تفوق غيرها من المعارك، ثم قال :

- سيدتى، إذا لم يكن تعقلى وفطنتى كافيين لمكافأة المعروف الذى أسديتموه إلى قولاً وفعلاً بإرسالك إلىَّ الفتاة الدَّانماركية، فليس لك أنْ تستغربى هذا الأمر، لأنَّ القلب فى هياجه وحبه الزَّائد مأسورٌ، الأمر الذى لا يدع للسان حرية

الكلام، فقط بمجرَّد ورودك على ذهني وذاكرتي أجدني قادراً على قهر كلٍّ شيء، تماما كما فعلت نظراتك بى، حيث قهرتنى فما تركت بى إحساسًا، وخارت قواى جميعًا، وإذا ما كنت -سيدتى- جديراً أو لخدماتى قدر عندك، فعليك أن ترحمى قلبى المكروب هذا قبل أنْ تحطمه الدُّموع عن آخره، والمعروف الذى أطلبه منك، سيدتى، ليس من أجل راحتى، فالأشياء التى نحبها حقا حين نبلغها يزيد ذلك من رغبتنا فيها ورعايتها، لأنَّه حين ينتهى من بلوغ كل ما تمنى، ينتهى مع ذلك التَّفكير فى أىِّ شيءٍ آخر سوى فى خدمتك.

- سيدى -قالت أوريانا أؤمن بكل ما تقول، وذلك لأنَّ قلبى يخبرنى- بما لديه من إحساس- بأنَّ هذه هى الحقيقة، ولكننى أرى من غير الصَّواب أنْ تعانى كل ذلك الهم الذى حدَّثنى عنه جندالين، لأنَّ مثل هذا الأمر لن يعود علينا إلا بأحد أمرين : إمَّا باكتشاف حبنا، وهذا أمرٌ من الممكن أن يجر علينا ما لا تحمد عقباه، وإما أن يموت أحدنا ويفارق الحياة، وهو أمر لا يستطيع مكابدته الآخر ولهذا فإنِّى آمرك -بما لى عليك من سلطان- بأنَّك حين ترغب فى إحاطة حياتنا بالعفة، فليكن تفكيرك فى حياتى أيضا، فلا تفكر أبداً إلا فى البحث عن طريقة تعمل على تهدئة رغباتك.

- سيدتى -قال أماديس- سأنفذ كل ما أمرتنى به، اللهم إلا ذلك الذى سيكون خارجًا عن إرادتى وقوتى.

- وما هو هذا الشَّىء ؟ - قالت أوريانا.

- إنَّه الفكر -قال أماديس- فعقلى لا يمكنه أنْ يتحمَّل تلك الرَّغبات الإنسانية القاتلة التى تسومه سوء العذاب.

- أنا لا أقول لك -قالت أوريانا- أنْ تهجر كلَّ شيءٍ، غير أنَّه لابد لك أنْ تنفعل بالقدر المعقول الذى لا يودى بحياتك أمام علية القوم، لأنَّ المعاناة الحياتية ليست محمودة العواقب كما تعلم، وكما أرى، وأودُّ أنْ تبقى هنا إلى جوار والدى إذا ما طلب ذلك منك، حتى لا تفعل من الأشياء إلا ما آمرك

به، ومــن الآن فصــاعــداً أرجـو أنْ تكلِّمني بلا حيـاء، ولتقل لي مـايرضيك، وأنا سأفعل كلَّ ما في وسعي.

- سيدتي، أنا ملك لك، وأتيت إلى هنا وفق أمرك. ولن أفعل إلا ما تأمرينني به.

وصلت مابيليا، وقالت :

- سيدتي، امنحيني فرصة الكلام إلى هذا الفارس.

- لقد أتيت -قالت أوريانا- أودُّ أنْ أكون حاضرةً وأنت تتحدَّثين إليه.

وهنا قالت له :

- سيدي، حامل السِّلاح، مرحباً بك، فقد سُررنا لقدومك.

- سيدتي- قـال أمـاديس -، أرجـو أنْ تكوني بخيـرٍ، فـفي كل مكان أراك فـيه أجـدني ملزمًـا بحـبك ومـودتك، وفي هـذا المكان خـاصــةً، بل وزيادة، إذ مع احترامك للقرابة كنت رحيمةً بي.

قالت مابيليا:

- سأضع حياتي وجهودي في خدمتك، غير أنَّني -وحسب ما فهمت من سيدتي- أجدني معفاة من تقديمها.

وهنا قال جندالين، بعد أنْ رأى نور الصَّباح قد لاح :

- سيدي، لقد لاح الصَّباح، وما دريت بقدومه، وعليه فمن الواجب أن نرحل عن هذا المكان.

قالت أوريانا :

- سيدي، اذهب الآن، وافعل ما قلته لك.

هنا أمسك أماديس بيدي أوريانا بعد أنْ أخرجتهما من النَّافذة، كي تمسح عنه دموعه التي اغرورقت بها عيناه، وقبَّلهمـا عـدَّة مرَّاتٍ، وانصـرف من المكان، وركبا

جواديهما، ثمَّ وصلا إلى الخيام قبل أنْ ينبلج الصُّبح، نزعا عنهما ثيابهما، وذهب كل إلى مخدعه فانبطح عليه خامد الهمة. استيقظت الفتاتان، أما إحداهما فقد بقيت لتكون في صحبة أماديس، وأمَّا الأخرى فقد توجَّهت صوب البلدة، ولتعلموا أن الفتاتين أختان، وبنتا عم Cormana السيدة التي خاض أماديس النِّزال من أجلها. نام أماديس حتى مطلع الشَّمس، ثم استيقظ، نادى على جندالين وأمره بأنْ يذهب إلى مقرِّ إقامة أوريانا كما طلبت منه هي ومابيليا، ذهب جندالين، وظلَّ أماديس يتحدَّث مع الفتاة، وما تأخر الوقت حتى رأى الفتاة التي ذهبت إلى البلدة قادمةً تبكي بكاءً مرا، وتقود جوادها بأقصى سرعةٍ ممكنة. قال أماديس:

– ماذا جرى صديقتي العزيزة ؟ من ذا الذي أحزنك ؟ وإذا ما أعانني الله سأصلح هذا الأمر لو لم أمت قبله.

– سيدي، لا سبيل غيرك – قالت الفتاة.

– حدثيني إذنْ –قال أماديس– وإذا لم أسمح لك فلا تصحبي يومًا فارسًا غريبًا.

وحين سمعت الفتاة هذا الكلام منه قالت :

– سيدي، لقد أُسرت سيدتنا Cormana، التي خضت المعركة نيابةً عنها، وقد أمرها الملك بإحضار الفارس الذي قاتل من أجلها، وإذا لم يحدث هذا فلن تتمكَّن من الخروج من البلدة والمقرِّ الملكي مهما كانت الوسائل، وأنت تعلم أنها لن تتمكن من عمل هذا، فهي لا تعلم عنك شيئًا قط، وقد أرسل الملك في طلبك والبحث عنك في كل مكان، وهو في غيظٍ شديدٍ منها، ظنا منه بأنَّها تعلم بمكانك الذي تختبئ فيه.

– لكم وددت أنْ يكون الأمر بصورةٍ أخرى – قال أماديس – لأنَّني لست في مكانةٍ تؤهلني لمعرفة مثل هذا السَّيد الرَّفيع المكانة، وأخبرك بأنَّه حتى إذا ما عثر على جميع رجالات بيته، فلن أذهب معهم خطوةً واحدةً إلا إذا أجبروني عليها، غير أنَّني لا أستطيع أنْ أتخلَّى عن القيام بما تريدين، فأنا أحبُّك وأقدِّرك كثيراً.

هنا انحنت الفتاتان أمامه، وشكرتاه كثيراً

- والآن لتذهب إحداكما -قال أماديس- إلى السَّيدة المذكورة، وتخبرها بأنْ تأخذ عهداً من الملك ألا يجبر الفارس الذى يبحث عنه بشىء ضدَّ رغبته، وسوف يمثل أمامه غداً صباحًا فى تمام التَّاسعة.

عادت الفتاة سريعًا، وأخبرت السَّيدة بذلك، فبدت عليها أمارات البهجة، ومثلت أمام الملك، فقالت له :

- سيدى، إذا ما أمرت ألا يُطلَبَ من الفارس شىءُ ضدَّ رغبته، فسوف يكون هنا غدًا فى تمام التَّاسعة ؛ وإلا فلن أعثر عليه أنا، وكذلك فلن تعرف له أنت مكانًا، وأقسم بالله الذى أعاننى، أنَّى لا أعرف من هو، ولا حتَّى السَّبب الذى دفعه لخوض النِّزال من أجلى.

وافقها الملك على ما طلبت، فسوف يكون مكسبًا كبيراً له التَّعرُّف عليه. على أساس هذا العهد انصرفت السَّيدة، وتطايرت الأخبار مدوِّيةً فى القصر والبلدة تقول : سيكون هنا غداً ذلك الفارس الهمام الذى كسب المعركة. فرح الجميع لهذا الخبر لأنَّهم كانوا يكرهون داردان لتكبره وسوء الحال الذى كان عليه، وعادت الفتاة إلى أماديس وأخبرته بأنَّ الملك قد أعطى للسَّيدة العهد الذى أراده هو وطلبته هى منه.

الفصلُ الخامسُ عشر

كيف تعرف أماديس على الملك ليسوارتي وكبار رجال مملكته، واستقبل استقبالاً كريمًا من الجميع.

انتظر أماديس ذلك اليوم مع الفتاتين، وفي صباح اليوم التَّالي تدثَّر ثياب الفروسية وامتطى جواده، وما حمل معه سوى الفتاتين، وتوجَّه إلى مقرٍّ إقامة الملك. كان الملك في قصره، فما كان يدري من أي طريق سيأتي الفارس. ذهب أماديس إلى مقرِّ السَّيدة، وما إن رأته حتى قدَّمت له التَّحية المعهودة، ثم قالت :

– آه سيدي، أدين لك بكل ما أملك !

رفعها من ركوعها أمامه، ثم قال لها :

– سيدتي، هيَّا بنا نمثل أمام الملك، وحين يتمُّ إطلاق سراحك وإعلان حريتك سأكون حرا أنا الآخر في أنْ أذهب إلى حيث أشاء.

هنا نزع خوذته ودرعه، وحمل معه السَّيدة والفتاتين، وتوجَّه إلى القصر، وأينما كان يسير وجد النَّاس جميعًا يقولون :

– هذا هو الفارس الهمام الذي هزم داردان.

وحين سمع الملك بقدومه خرج إليه مع جمعٍ كبيرٍ من الفرسان، وحين رآه ذهب إليه مادا ذراعيه، وقال له :

– صديقي، مرحبًا بك، فلقد أحببناك كثيراً.

قدَّم أماديس التَّحية الواجبة للملك، وقال :

– سيدى، فليدم الله عليك الشَّرف والسعادة.

أخذ الملك بيد أماديس، وقال له :

– هذه نعمةٌ من الله، فأنت عندى أفضل فارس فى الوجود.

– سيدى –قال أماديس– بحق يمكن القول بأنَّك أفضل ملكٍ فى الدُّنيا، لكن قل لى، أحرَّةٌ هذه السيِّدة ؟

– نعم – قال الملك – وعليها أنْ تشكر لك كثيراً حضورك إلى هنا، وتلك المعركة التى خضتها نيابةً عنها، فما كانت لتخرج من هذه البلدة لولا مجيئك.

– سيدى –قال أماديس– إنَّ كلَّ ما يصدر عنك من أفعالٍ هو عين العدل والحق، ولكن صدقنى: فما كانت هذه السيِّدة تعلم حقيقة الفارس الذى خاض المعركة نيابة عنها إلا الآن.

اندهش الجميع لذلك الجمال الذى يتمتَّع به أماديس، ومن قدرته وهو لا يزال شاباً على إنزال الهزيمة بداردان، الذى تميَّز بالشَّجاعة والقوة، بحيث أصبح الجميع فى بريطانيا العظمى يرهبونه ويحسبون حسابه. قال أماديس للملك :

– سيدى بما أنَّك حقَّقت رغبتك، وأصبحت هذه السَّيدة حرة، أستودعكم الله، وليجعلك الله ملك ملوك العالم الذى أضع نفسى فى خدمته.

– آه، يا صديقى ! – قال الملك – لن تذهب بهذه السُّرعة إلا إذا أردت أنْ تحزننى كلَّ هذا الحزن.

قال أماديس :

– لا جعلنى الله كذلك، يعلم الله أنَّنى فكَّرت فى خدمتك، لكن لو أنَّنى كنت أهلاً.

- نعم، أنت أهلٌ لذلك -قال الملك- أرجوك أنْ تبقى معي اليوم هنا.

وافق أماديس على طلب الملك دون أنْ يظهر سعادته بذلك، وأخذه الملك من يده وصاحبه إلى حجرةٍ جميلة؛ حيث أمر بنزع ثيابه الحربية إلى جوار جميع الفرسان من علية القوم الذين حضروا إلى القصر، فهو ملك الملوك الذى يشرف به الجميع ويسكن قصره ؛ أمر بأنْ تقدَّم لأماديس عباءة يتدثَّر بها، ونادى على الملك أربان صاحب نورجاليس، وكونت جلوثيستى، فقال لهما :

- أيُّها الفارسان، كونا فى صحبة هذا الفارس، حتى يكون فى معية أعظم الرِّجال.

ثم ذهب الملك إلى زوجته الملكة، وأخبرها عن وجود الفارس الذى كسب النِّزال.

- سيدى - قالت الملكة - لكم يسعدنى هذا الأمر، أو تعلم ماذا يُدعى ؟

- لا - قال الملك - فقد ألزمنى الوعد الذى قطعته على نفسى ألا أسأله اسمه.

- ألا يمكن -قالت الملكة- أنْ يكون ابن بيريون ، ملك جاولا ؟

- لا أدرى - قال الملك.

- ذلك الرَّجل حامل السِّلاح - قالت الملكة - الذى يتحدَّث مع مابيليا أتى يبحث عنه، ويقول إنَّه أتى إلى هذه الديار يحمل أخباراً.

نادى عليه الملك، وقال له :

- اتبعنى وسأعرف ما إذا كنت تعرف ذلك الفارس الذى يوجد بقصرى.

ذهب جندالين مع الملك، وبما أنَّه كان يعلم الدَّور الذى يجب عليه القيام به، ما إن رأى أماديس حتى ركع أمامه، وقال :

- آه سيدى أماديس، أبحث عنك منذ زمنٍ طويلٍ !

- صديقى جندالين - قال أماديس- مرحبًا بك، ما هى أخبار ملك اسكتلندا ؟

- سيدى - قال جندالين - طيبةٌ جدا، وكذلك طيبةٌ هى أخبار جميع أصدقائك.

عانقه جندالين، وقال له :

- الآن، سيدى، لا يجب أنْ تخفى حقيقتك، فأنت أماديس، ذلك الذى عُرِفَ بأنه ابن الملك بيريون ملك جاولا، وقد جاء ذلك حين قتلت الملك أبييس ملك أيرلندا فى النِّزال الذى جمع بينكما، وأعدت إلى بيريون ملكه الذى كان على وشك الضَّياع.

وهنا حضر الجميع لرؤيته أكثر من ذى قبل، وهم قد عرفوا عنه أنَّه قد أتى بأعمال بطولية لم يسبقه إليها فارسٌ من قبل. هكذا أمضوا يومهم فى تشريفه، وما إن أقبل الليل حتى أخذه الملك أريان صاحب نورجاليس معه كما أمر الملك، ونصحه بأنْ يبذل قصارى جهده طالما أنَّ الملك قد اختاره للبقاء فى خدمته. تكلَّم الملك مع الملكة حول صعوبة المحاولة التى قام بها من أجل الإبقاء على أماديس داخل القصر، وأنَّه قد رغب فى بقائه هنا باعتباره رجلاً حقق كل هذه الشُّهرة بين النَّاس جميعًا، فبمثل هذه النَّوعية من الرِّجال أصبح الأمراء والشَّرف محيط بهم والرَّهبة منهم حق على الجميع، وأنَّه لا يدرى ما هى الوسيلة التى تمكِّنه من تحقيق مثل هذه الرَّغبة. وهنا قالت الملكة :

- سيكون الأمر مُشينًا بالنِّسبة لرجلٍ عظيمٍ مثلك، أن يفد إلى بيته مثل هذا الفارس، ثم يرحل عنه دون أنْ تمنحه كل ما يأمر به.

- إنَّه لا يطالبنى بشىءٍ -قال الملك- ومع هذا سأمنحه كلَّ ما يطلب.

- إذنْ فسوف أخبرك بما يجب أنْ تفعل : توسَّل إليه، أو فليفعله أحدٌ من طرفك، وإذا لم يفعل، فأخبره أنى أريد رؤيته قبل أنْ يغادر المكان، وسأرجوه أنا، مع ابنتى أوريانا ووصيفتها مابيليا، فهما يعرفان الكثير عنه منذ أنْ كان شابًا وكان فى خدمتهما، سأخبره بأنَّ كلَّ الفرسان الموجودين هنا يعملون فى خدمتك أنت، أما نحن فنريد من يكون فى خدمتنا نحن نظرًا لحاجتنا إليه.

- حسنًا ما تقولين -قال الملك- وبهذه الطَّريقة سيبقى معنا بلا شك، وإذا لم يفعل هذا الأمر فمن حقنا أنْ نقول عنه إنه لم يحز نصيبًا فى التَّربية يصل إلى القدر السَّامى نفسه الذى تحظى به قوته وفروسيته.

في تلك الليلة تحدَّث الملك أربان صاحب نورجاليس إلى أماديس، غير أنَّه لم يتمكَّن من الحصول على وعدٍ منه بالبقاء، وفى اليوم التَّالى ذهبا فى صحبة الملك للصَّلاة، وما إن انتهت حتى أراد أماديس وداع الملك، فقال الملك له :

– بحق، يا صديقي إنَّه ليؤلمنى فراقك، ونظراً لما قطعته على نفسى من عهد فلن آمرك بشىء لا أدرى ما إذا كان يثقل عليك، لكن الملكة ترغب في أنْ تراك قبل رحيلك.

– سأفعل ما تأمرني به عن طيب خاطرٍ – قال أماديس.

– وهنا أخذه من يده وسار به إلى حيث توجد الملكة، ثم قال لها :

– هاهو ابن الملك بيريون دى جاولا.

– يالله، يا سيدى، قالت الملكة، إنَّه لمن دواعى سرورى ومرحباً به هنا.

أراد أماديس أنْ يقبِّل يدها، غير أنَّها أشارت إليه أنْ يجلس بجوارها، ثم عاد الملك إلى حيث يوجد رجاله، فقد تركهم على كثرتهم في الفناء الصَّغير، تحدَّثت الملكة مع أماديس في أشياء كثيرة فأجابها بنباهةٍ وفطنةٍ، ولما رأته السَّيدات والفتيات أكبرنه وعظمنه لجماله وحسنه، وما استطاع أن يرفع عينيه؛ حتى لا يرى سيدته أوريانا، وهنا أتت مابيليا لتحيته كما لو كانت لم تره. قالت الملكة لابنتها :

– ليكن لك هذا الفارس الذى كان فى خدمتك منذ أنْ كان فتىً، وسيخدمك الآن حين أصبح فارسًا، إذا لم ينقصه ذلك الوقار والاحترام، ولتساعدونى فى رجائه فى تنفيذ ما أطلبه منه.

وهنا قالت له :

– أيُّها الفارس، للملك سيدى رغبةٌ عارمةٌ فى أنْ تبقى معه هنا، وما تمكَّن من الفوز بهذا منك، والآن أودُّ أنْ أعرف ما الذى يمكن للنِّساء عمله بصورة أفضل من الرِّجال أمام الفرسان، وأرجوك أنْ تصبح فارسى أنا وابنتى، وفارس كلِّ النِّسوة اللاتى تراهن هنا، وفى موافقتك نوع من التَّقدير والاحترام ورفع

الحـرج عنَّا فـى طلبنا من الملك أنْ يرسل إلينا من بين فـرسـانه من يقـوم على أمورنا، فحين تصبح فارسنا فلن نكون فى حاجة إلى كلِّ هؤلاء.

أقبلن جميعًا يرجونه، وأشـارت عليه أوريانا برأسها أنْ يقبل توسُّلهنَّ، هنا قالت له الملكة:

- إذنْ، أيُّها الفارس، ماذا أنت فاعلٌ أمام توسُّلاتنا ؟

- سيدتي -قال أماديس- ومن له أنْ يفعل شيئًا آخر غير ما تأمرونني به، فأنت أفضل ملكات العالم بما فيهن هؤلاء النِّسوة جميعًا ؟ سأبقى سيدتى من أجل توسلاتك، ومن أجل ابنتك وهؤلاء النِّسوة، وفضلاً عن ذلك فأقول لك إنَّنى سأكون خادمك فقط، وإذا ما أسديت خدمةً للملك فى شيء، فستكون لكوني خادمك لا خادمه.

- هكذا قبلناك أنا وكل هؤلاء النِّسوة -قالت الملكة.

وبعد ذلك أرسلت الملكة إلى الملك تخبره بما حدث، فأصبح فرحًا مسرورًا، وأرسل إلى الملك أربان صاحب نورجاليس أنْ يحضر إليه أماديس ففعل، وحين أتى الفارس عانقه الملك بكلِّ ودٍ، ثم قال له :

- صديقي، إنَّنى الآن فى غاية السَّعادة أنْ بلغتُ ما كنت أتمنَّى، وأرجو أنْ تتقبل شكرى وامتناني.

- عبَّر أماديس عن قبوله لهذا الامتنان. وبهذه الطَّريقة استقر أماديس فى بيت ليسوارتي بأمر سيدته.

عثر جالاؤر فى الغابة على حامل سلاحٍ قاده إلى قلعةٍ يجد فيها من يضمِّد له جراحه. وعند باب القلعة هاجمه مجموعةٌ من الجنود ومعهم فارسٌ، لكنَّه تمكَّن من التَّخلص منهم، وعندما دخل القلعة هاجمه من جديد فارسان واثنان من المشاة، فهزمهم جالاؤر فى هذه المرة أيضًا. فى الحال سمع صيحات استغاثة من إحدى الغرف التي أُسِرتْ بها سيدةٌ من النُّبلاء ضَمدت جراح البطل، وأشبعت له رغباته. حملها جالاؤر بعد ذلك إلى المعبد الذى توجد فيه أمها.

الفصلُ السَّادسُ عشر

استقبل أجراخيس مجموعةً من الغرقى النَّاجين من عاصفة ألَمّت بهم، كانت من بينهم سيدته أوليندا، ابنة ملك النَّرويج. سارت هذه إلى قصر الملك ليسوارتى، بينما عاد أجراخيس مع والده الملك لانجينس، ثم رحل من جديد، بصحبة عمه جالبانسى بلا أرض، متوجِّها إلى قصر الملك ليسوارتي. وفي الطَّريق علما -بواسطة فتاةٍ- ببطولات جالاوَر، ودخلا فى صراع مع اثنين من الفرسان في قصر دوق بيستويا، من أجل إنقاذ فتاةٍ أهانها قزمٌ تقابل معه جالاوَر من قبل. وبعد انتهاء المعركة، لم يشأ الدُّوق أن يطلق سراح الفتاة، فأعملا أسلحتهما من أجل تحريرها فى النِّهاية. وبعد ذلك أوى كل منهما إلى قلعة أوليباس، وأتى إليهما فارس يرغب في تحديه للدُّوق - الذى قتل ابن عمه - أمام الملك ليسوارتى، فقرَّر الذَّهاب إلى قصر ذلك الملك.

الفصلُ السَّابعُ عشر

هنا وصلت أماديس -المحبوب والمدلَّل بقصر الملك ليسوارتي- أنباء بطولات أخيه جالاؤر ورحل يبحث عنه. وفي الطَّريق أجبر على قتل فارس كان متربصًا بأحد الجسور، يهاجم كلَّ من يعلم صلته ببيت الملك ليسوارتي. قاده قزمٌ قدَّم إليه مجموعةً من الهدايا في مقابل أنْ يحمله إلى حيث يوجد أفضل فارس في الوجود - والذي يثق أماديس بأنه جالاؤر - مرَّ البطل بأحداث عديدة حتى وصل إلى مكان أنجريوتي دي إستراباوس - أفضل فارس في رأى القزم - وأخيه، حيث تمركزا عند مدخل وادٍ حتى يلزما أيَّ فارسٍ يمرُّ من هناك بالاعتراف بأنَّ صديقة أنجريوتي، التي تدعى جرونوبيسا، هي أجملُ امرأةٍ في الوجود. دخل أماديس في عراكٍ ضدَّ أنجريوتي وأخيه فهزمهما، لكنَّه تعهَّد بألا يفقد ذلك الفارس محبوبته بعد أنْ هُزِمَ.

الفصلُ الثَّامن عشر

أراد أنجريوتي أنْ يحمله إلي قلعته، إلا أنَّه لم يرد أنْ يغير وجهته، وبعد أنْ ودعهما أسلم قياده للقزم حتى يقدِّم إليه الهدايا التى وعده بها، وسار مدة خمسة أيَّام دون مغامرةٍ تذكر. وفى النِّهاية أراه القزم قلعةً آيةً فى الجمال والحصانة، ثم قال له :

– سيدى في تلك القلعة عليك أنْ تقدِّم لى الهدية.

– باسم الله –قال أماديس– سأعطيكها حين يكون بمقدورى.

– أثق فى هذا – قال القزم – وأكثر منه منذ رأيت بطولاتك العظيمة. سيدى، أتعرف ما اسم هذه القلعة ؟

– لا –قال أماديس– فما أتيت إلى هذه الدِّيار من قبل.

– اعلم – قال القزم – أنَّها تدعى بالديرين.

وبينما يتحدَّثان وصلا إلى القلعة، فقال القزم :

– سيدى، لتأخذ حذرك، وتعد أسلحتك.

– ماذا ! – قال أماديس – أضرورى هذا ؟

– نعم – قال القزم – فإنَّهم لا يدعون كل من يدخل إلى هناك يخرج بسهولة.

أعدَّ أماديس سلاحه، وسار فى المقدمة، وتبعه جندالين والقزم، وحين دخل من الباب نظر يمينًا ويسارًا، فلم ير شيئًا، وقال للقزم:

– يبدو لى أنَّ هذا المكان مهجورٌ.

- يالله - قال القزم - أرى ذلك أيضاً.

- إذن لماذا أتيت بي إلى هنا؟ وما الهدية التى تريدنى أنْ أقدّمها لك ؟

- قال له القزم :

- سيدى لقد رأيت هنا أشجع الفرسان الذين رأيتهم وأقواهم، وقد قتل عند ذلك الباب فارسين، كان أحدهما سيدى، حيث قتله شر قتلة لم تحدث لأحد قط، وأريدك أنْ تطلب رأس ذلك الخائن الذى قتله، وأنا قد أحضرت إلى هنا مجموعةً أخرى من الفرسان للانتقام منه، وللأسف، فقد قتلوا بعضاً منهم وأسروا البعض الآخر.

- أيُّها القزم -قال أماديس- إنَّك رجلٌ وفىٌ، لكن ما كان يجب أنْ تأتى بهؤلاء الفرسان دون أنْ تخبرهم مع من ستكون المواجهة.

- سيدى -قال القزم- إنَّ الفارس معروفٌ بأنَّه أشجع فرسان الدُّنيا، وإذا ما أخبرتهم به فما كانت الشَّجاعة والجرأة ستواتى أحداً منهم للمجىء معى.

- هل تعلم اسمه ؟

- نعم -قال- إنَّه يدعى أركالاوس الإينكانتادور.

نظر أماديس فى كلِّ مكان؛ فلم ير شيئًا أو شخصًا، ثم ترجَّل، وانتظر حتى العشية، ثم قال:

- أيُّها القزم، ماذا تريدنى أنْ أفعل ؟

- سيدى -قال القزم- لقد أقبل الليل، ولا أرحِّب بفكرة قضائه هنا.

- حقا -قال أماديس- لن أبرح مكانى هذا حتَّى يأتى الفارس أو أحدٌ من عنده.

- يالله، أمَّا أنا فلن أبقى هنا - قال القزم - فقد تملَّكنى خوفٌ شديدٌ، فأركالاوس يعرفنى، ويعلم أنَّنى حريصٌ على قتله.

- مازلت - قال أماديس- معى هنا، ولا أودُّ التَّملص من الهدية إنْ استطعت.

نظر أماديس فرأى فناءً أمامه، ارتاده فما وجد به أحداً، ثم رأى مكانًا مظلمًا، به مدرجًا يقود إلى أسفل سطح الأرض. كان جندالين ممسكًا بالقزم كي لا يفر، فقد تملَّكه الخوف، ثم قال له أماديس :

- لندخل عبر هذه المدارج، ولنر ماذا هناك.

- يالله سيدى، لا شيء فى هذا الوجود يدفعنى للدُّخول إلى ذلك المكان المخيف، وبالله عليك، دعني أذهب، فقلبى قد امتلأ رعبًا وخوفًا.

- لن أدعك - قال أماديس - حتي تحصل على الهدية التي وعدتك بها، أو أنْ ترى ما أنا عليه من قوة فى النِّزال.

هنا قال القزم الذى تملَّكه الخوف :

- دعنى أذهب، وأنا أعفيك من الهدية، وسأكون مسروراً بهذا العمل.

- بالنِّسبة لى - قال أماديس - لا أطلب منك إعفائى؛ حتى لا تقول بعد ذلك إنَّنى ما وفيت بما وعدتك به.

- سيدى، أمَّا أنت فقد أحللتك من وعدك، وأنا قد نلت هديتى - قال القزم - وأنا أودُّ انتظارك فى الخارج من حيث أتينا لأرى ما إذا كنت ستأتى.

- اذهب فى رعاية الله - قال أماديس - وأما أنا فسوف أبقى هنا هذه الليلة حتى الصَّباح فى انتظار الفارس.

أخذ القزم طريقه، ونزل أماديس عبر المدرج، وسار طويلاً فما رأى شيئًا، تابع السَّير إلى أسفل حتى بلغ سهلاً، وجده مظلمًا لدرجة أنَّه لم يعرف أين يوجد، وتابع السَّير فارتطم بحائط، ثم وضع يده يتحسسه؛ فوجد قضيبًا حديديا به مفتاحٌ معلَّقٌ؛ ففتح به قفلاً لشبكة من الحديد، وسمع صوتًا يقول :

- آه يا إلهى، يا رب، إلى متى هذا الحزن والهم العظيمان ؟ آه أيُّها الموت، أين أنت ؟ لماذا تأخَّرت حيث أطلبك وأتمنَّاك ؟!

سمع أماديس الصَّوت مرةً، ولم يسمعه بعدها قط. سار في طريقه عبر الكهف، ودرعه على عنقه، وخوذته فوق رأسه، والسَّيف خارج غمده يحمله في يده، وبعد ذلك وجد نفسه داخل قصرٍ رائعٍ به مصباح إضاءة، ورأى على أحد الأسرة ستة رجالٍ نائمين مدجَّجين بالسلاح وعلى مقربةٍ منهم دروعٌ وفئوسٌ، وصل إليهم، ثم أمسك بفأسٍ، وتابع سيره؛ فسمع أكثر من مائة صوتٍ تقول :

– ربنا، إلهنا، أمتنا حتى لا نعاني كلَّ هذا الهمِّ المؤلم.

اندهش لسماعهم، وهنا استيقظ الرِّجال من نومهم على أثر ضجيج تلك الأصوات، وقال أحدهم لزميله :

– انهض، واحمل سوطك وأسكت هؤلاء الأسرى من النَّاس؛ حيث لا يدعوننا نهنأ بنومنا.

– سأفعل هذا عن طيب خاطرٍ – قال الآخر – وليدفعوا جزاء ما أيقظوني من نومي.

وهنا نهض مسرعًا، وأمسك بالسَّوط فرأى أماديس سائرًا أمامه، فاندهش لرؤيته يسير في هذا المكان، وقال :

– من يسير هناك ؟

– أنا – قال أماديس.

– ومن أنت ؟ – قال الرَّجل.

– أنا فارسٌ غريبٌ – قال أماديس.

– ومن ذا الذي أدخلك إلى هنا دونما إذن يذكر ؟

– لا أحد – قال أماديس – أنا الذي دخلت إلى هنا.

– أنت ؟ – قال الرَّجل – لقد أتيت في وقت فيه هلاكك، والآن سوف ألقى بك مع هؤلاء الأسرى؛ لتشاركهم همومهم التي يشكون منها، أولئك الذين كانوا يرفعون أصواتهم الآن.

والتفت فأغلق الباب سريعًا، وأيقظ الآخرين قائلاً :

– يا رفاق، هنا يوجد فارسٌ دخل المكان من تلقاء نفسه.

هنا قال أحدهم الذى كان يعمل سجَّانًا، ويتمتَّع ببنيان جسدى وقوةٍ كبيرين :

– دعني وإيَّاه، فلسوف ألقى به مع هؤلاء الذين يقبعون هناك.

ثم تناول فأسا ودرعًا، وتوجَّه صوب أماديس، وقال :

– إذا ما كنت تخشى الموت فدع سلاحك، وإلا فانتظر الموت، الذى سأهبك إيَّاه بضربة من فأسي.

تميَّز أماديس من الغيظ حين سمع هذا التَّهديد، وقال :

– لا وزن لك عندى، فبما أنَّك كبير الحجم، فأنت أيضا شريرٌ، ومن أصلٍ دنيءٍ، وعليه فقد حان أجلك.

رفع كلٌّ منهما فأسه، وتضاربا بهما، ضربه السَّجَّان ضربةً أصابت خوذته فاخترقتها جيداً، وضربه أماديس ضربةً فى درعه فاخترقته، وبينما يفرُّ الرَّجل من أمام أماديس حمل الفأس معلَّقةً بدرعه، فأمسك أماديس بسيفه، وانطلق نحو الرَّجل فكسر يد الفأس التى معه، أمَّا الآخر، الذى كان يتمتَّع بقدرٍ وافرٍ من الشَّجاعة، فحاول أنْ يطوى أماديس تحت جانبه، لكنَّه لم يحظ بما أراد، فقد كان أماديس يحظى بقوةٍ لم يتمتَّع بها رجلٌ آخر فى ذلك الوقت، أخذه السَّجَّان بين ذراعيه وحاول أنْ يوقعه، فعاجله أماديس بضربة من قبضة السَّيف فى وجهه، فكسرت فكَّه وسقط أمامه يرتجف، وعاجله بضربة فى رأسه؛ فبلغت روحه الحلقوم، غير أنَّ الآخرين الذين كانوا يرقبونهما أهابوا به ألا يقتله، وإلا فسيكون جزاؤه القتل هو الآخر.

- لا أدرى كيف سيحدث هذا الذى تقولون - قال أماديس - غير أن موت هذا الآخر أمر أكيد بالنِّسبة لي، أدخل سيفه في غمده، وأخرج الفأس من الدِّرع، ثم توجَّه نحوهم حيث أقدموا عليه يضربونه ضربةً رجلٍ واحدٍ، وأفرغوا ضربتهم فيه قدر استطاعتهم، وفي هذه الأثناء ضرب أماديس أحدهم ضربةً بلغت نخاعه؛ فَخَرَّ أرضًا، ثم وجَّه ضربة أصابت ضلوعه فانكسرت، وخرَّ على الأرض خامدًا، ثم اشتبك مع آخر بالفأس فى معركةٍ حاميةٍ، فطرحه أرضًا، وهكذا طلب هذا الأخير ورفاقه الذين تجمَّعوا على ضرب أماديس منه الرَّحمة، وألا يقدم على قتلهم.

- إذنْ، ألقوا أسلحتكم - قال أماديس - وأرونى هؤلاء النَّاس الذين تتعالى صيحاتهم.

تركوا أسلحتهم، وذهبوا إليه، فسمع أماديس صوت أنينٍ وبكاءٍ فى غرفةٍ صغيرةٍ، فقال:

- من بداخل هذه الحجرة ؟

- سيدنا -قالوا جميعًا- إنَّها سيدة أصابها غم شديد.

- إذنْ فلتفتحوا هذا الباب - قال أماديس - حتى أراها.

- التفت أحدهم إلى المكان الذى يقبع فيه السَّجَّان الكبير، فأخذ منه مفتاحين كانا بنطاقه، وفتح باب الغرفة، وهنا ظنَّت السَّيدة أنَّه كبير السَّجَّانين؛ فقالت :

- آه أيُّها الفارس، بالله عليك لترحمني وتقض عليَّ الآن، ولا تجعلنى أقاسى كلَّ هذا العناء.

ثم قالت بعد ذلك :

- آه أيُّها الملك، ملعون ذلك اليوم الذى وقعت فيه أسيرة حبك، فحبك كلفنى كثيرا جدا !

بــدأ أماديس في مواساتها بعد أنْ تألمَّ كثيرًا لحالها، وبدأت الدموع تملأ عينيه، ثم قال:

- سـيدتي، لست أنا من تظنين، إنَّني ذلك الشَّخص الذي سيخرجك من هنا إنْ استطاع.

- آه أيتها القديسة مريم ! - قالت - من أنت يا من استطعت الدُّخول إلى هنا ؟

- أنا فارسٌ غريبٌ - قال أماديس.

- إذنْ وماذا فُعل بكبير السَّجَّانين والذين معه ؟

- فُعل بهم ما يُفعل بكل الأشرار الذين لا يتبدَّلون - قال هو.

وأمر أحد الرِّجال أنْ يأتي له بضياء، وقد فعل، فرأى أماديس المرأة وقد سلكت في سلسلة غليظة من عنقها، وثيابها ممزقة من كل جانب، أفصحت عن أجزاء كثيرة من جسدها، وحين رأت أماديس ينظر إليها بعطفٍ قالت :

- سيدي، وأنت تراني على هذا الحال هنا، فلتعلم أنَّني ابنة لأحد الملوك، وكذلك قد أصبحت في هذا الغمِّ والكرب بفعل أحد الملوك.

- سيدتي - قال أماديس -كفى عن الشَّكوى، فكل ما نزل بك هــو قضاء وقدر، ولا أحد يملك له دفعًا أو منه مهربا، وإذا ما كان شخصًا ذا قيمة تذكر ذلك الذي حللت هذا المكان بسببه وعانيت كلَّ هذه المتاعب، فسوف يتحوَّل فقرك وملابسك المهلهلة إلى ثــراءٍ، والحزن والهم إلى سعادةٍ، ولكن لا علينا أنْ نثق بهذا أو ذاك إلا قليلاً.

ثم أمر بنزع السِّلسلة عن رقبتها، وأمر بأنْ يحضروا لها شيئًا يمكن أنْ يواري سوأتها، وهنا أحضر الرَّجل الذي كان يحمل المشعل عباءةً من الكتَّان القرمزي اللون كان قد أعطاها أركالاوس لأحد سجَّانيه. دثَّرها أماديس بهذه العباءة، وأخذها من يدها، فأخرجها إلى خارج القصر قائلاً لها ألا تخشى عودتها مرة أخرى إلى هذا المكان

إلا على جثته هو، وبينما يصطحبها وصلا إلى حيث يوجد كبير السَّجَّانين ورفاقه الموتى، الأمر الذى أدهشها، ثم قالت :

– آه يا لها من جروحٍ، يا لها من إساءات فعلتموها وألحقتموها بى وبغيرى من الذيـــن يقبعــون فى هذا المكان دونما وجه حق ! ورغم أنَّكم لا تدرون الآن، ولا تحســون مــرارة الانتقام، فإننى أرجو أنْ تشعر به النَّفس التى كانت تدب فى أجسادكم فتحييكم.

– سيدتى –قال أماديس– سأتركك فى رعاية حامل سلاحى، وسوف أذهب كى أخرج كلَّ من بهذا المكان بحيث لا يبقى فيه أحدٌ.

ذهب أماديس ومعه الباقون، وحين وصلوا إلى الشَّبكة الحديدية جاء رجلٌ فقال للذى كان يحمل المشعل :

– يقول لك أركالاوس أين هو الفارس الذى دخل إلى هنا؟ هل قتلته أم أسرته؟

تملَّكه خوفٌ شديدٌ فأسكته عن الكلام، وسقطت المشاعل من يديه، فحملها أماديس، وقال لا تخف، عليك اللعنة، مِمَّ تخاف وأنت فى رعايتى؟ سر للأمام.

صعدوا المدرج حتى أتوا الفناء المذكور، ورأوا أنَّ الليل قد مضى منه جزءٌ كبيرٌ وبدا ضوء القمر واضحا جليا، وحين رأت السَّيدة السَّماء والهواء بدت عليها أمارات الفرح والعجب، كمن لم يرهما منذ وقتٍ بعيدٍ، وقالت :

– آه أيُّها الفارس الطَّيب، ليرعاك الله ويكافئك بما تستحق على إخراجى من هنا !

أخذها أماديس من يدها، ووصل إلى حيث ترك جندالين، فلم يجده هناك، وخشى أنْ يكون قد فقده، ثم قال :

– إذا ما كان قد قتل أفضل حامل سلاح فى الدُّنيا، فسأنتقم له أشدَّ أنواع الانتقام ما دمت حيًا.

وفي هذه الأثناء سمع أصواتًا تستغيث، فتوجَّه إلى حيث مصدر الصَّوت، فوجد القزم الذي فارقه معلّقًا من رجليه في عارضةٍ خشبيةٍ، وعلى مقربةٍ منه أوقدت نار في أشياء ذات رائحةٍ كريهةٍ، ورأى جندالين على الجانب الآخر، وقد قيَّدوه لتوه، وحين أراد فكَّ قيوده قال :

– سيدي، أغث القزم أوَّلا، فهو في غم وحزن شديدين.

هكذا فعل أماديس، فأخذه بين ذراعيه، ثم قطع الحبل بالسَّيف، ووضع القزم على الأرض، ثم ذهب ليفك قيود جندالين قائلا له :

– حقا يا صديقي، لم يقدرك حق قدرك –كما فعلت أنا– ذلك الذي وضعك هنا.

ثم توجَّه صوب باب القلعة، فوجدها مغلقةً بباب معلَّقٍ، وحين رأى أنه ليس بمقدوره الخرو، ذهب إلى جانب من ذلك الفناء حيث توجد مصطبة، وجلس هناك مع السَّيدة، وكان معه جندالين والقزم والآخرون من القائمين على أمر السَّجن. أراه جندالين بيتًا قد أدخلوا فيه جواده، فذهب إلى هناك، وكسر الباب، فوجد مسرجًا وملجمًا، فأحضره معه، كان يرغب في العودة إلى السُّجناء، غير أنَّه لم يرد أنْ تصاب المرأة بأذىً من قِبَل أركالاوس، الذي كان موجوداً بالقلعة، ورأى أنْ ينتظر إلى الصَّباح، ثم سأل السَّيدة عن الملك الذي أحبها، والذي كان سببا في معاناتها.

– سيدي –قالت السَّيدة– كان أركالاوس هذا عدوا لذلك الملك الذي أحبني، ولما علم بذلك، ولم يتمكَّن من الانتقام منه، رأى أنْ ينتقم منه في شخصي أنا، ظنا منه أنَّه بهذا العمل يكون قد ألحق به أشد أنواع الأذى، وحتى لا يحملني أمام جمعٍ كبيرٍ من النَّاس لحق بي في مكانٍ مظلمٍ حتى لا يراني أحدٌ، وقد كان هذا من كيده وسحره، ثم زجَّ بي هناك حيث وجدتني. قائلاً بأنَّ معاناتي في مثل هذه الظُّلمة، وعدم رؤية ذلك الذي أحبني لي، وجهله بمكاني وحالي، سيكون بمثابة انتقامٍ يرتاح له قلبه.

– أخبرني –قال أماديس– إنْ شئت، من يكون هذا الملك؟

– إنــه أربــان صاحــب نورجاليس –قالت السَّيدة– لا أدري إذا ما كنت تعلم عنه شيئًا.

- ياله -قال أماديس- إنَّه الفارس الذي أحبه أكثر من أيِّ فارسٍ آخر في هذا الوجود، الآن أشفق عليك كما حدث من قبل، فقد عانيت في سبيل أفضل رجلٍ في الدُّنيا، وفي سبيل الرجل ذلك تسعد إرادتك بفرحة وشرف مضاعفين.

ظلا يتحدَّثان في هذا الأمر وأمورٍ أخرى حتى أشرق نور الصَّباح، وحينئذٍ رأى أماديس فارسًا تحدَّث إليه من خلال النَّوافذ، فقال له :

- أأنت الذي قتلت سجَّاني ورجالي ؟

- كيف -قال أماديس- أأنت ذلك الذي يقتل الرِّجال، ويأسر النِّساء والفتيات ظلمًا ؟ حقا، أراك أكثر فرسان الدُّنيا غدرًا، لأنك تجمع قدرًا من القساوة يفوق الخير والطِّيبة بكثير.

- مازلت لا تعرف شيئًا عن قساوتي -قال الفارس- لكنَّني سأحيطك علمًا بها قبل كل شيءٍ، وسأعمل على ألا تحاول تغيير أو ذم شيء فعلته سواء أكان خطأً أم صوابًا.

ابتعد عن النَّافذة، وما تأخَّر به الوقت حتى رآه أماديس قد خرج إلى الفناء مدجَّجًا بالسِّلاح على متن جواد عظيم، وقد كان أحد كبار الفرسان في الوجود، حاله لم يصل إليها العملاق. نظر إليه أماديس معتقدًا أنَّ به قوةً كبيرةً بحق، وهنا قال له أركالاوس :

- لماذا تنظرني ؟

- أنظرك -قال أماديس- لأنَّه -كما تبدو- بمقدورك أنْ تكون أبرز النَّاس لو أنَّ ذلك لم يدنسه ما اقترفت من الشُّرور والغدر الذي يعد لازمة لك.

- لقد أتى بي القدر - قال الفارس أركالاوس - في وقتٍ طيِّبٍ، إذا ما كان لأحد مثلك أنْ يذمَّني ويؤنبني.

ثم جرى نحوه، ورمحه إلى أسفل، وكذلك أماديس، سدَّد إليه أركالاوس ضربةً أصابت درعه وتكسَّر منها رمحه، التحم الجوادان والفارسان بكلِّ شدَّةٍ، فسقط كل

منهما على جانب، لكنَّهما هبا على قدميهما. كفارسين يتمتَّعان بالحيوية والقوة ؛ تضاربا بسيفيهما في معركة قاسيةٍ وشديدةٍ ؛ كان شيئًا لا يصدقه إلا من يراه، واستمرت المعركة طويلاً؛ لما يتمتَّعان به من قوةٍ وشجاعةٍ، غير أنَّ أركالاوس ألقى بنفسه بعيداً، ثم قال.

- أيُّها الفارس، إنَّك ستلقى حتفك، ولا أدرى من أنت ؛ قل لي من أنت حتى أعرفك، فأنا أفكِّر في قتلك أكثر من أنْ أكسب النِّزال.

- موتى -قال أماديس- أمر تقرره إرادة الله، الذى أخشاه ؛ وموتك تقرره إرادة الشَّيطان الغاضب لبقائك حيا، ويودُّ أنْ لو يفنى هذا الجسد الذى ألحق بالنَّفس كلَّ هذه الشُّرور، وحيث ترغب في التَّعرف على، أخبرك بأنَّنى أدعى أماديس دى جاولا، وأعمل فارسًا لرعاية الملكة بريسينا، والآن لنعد إلى المعركة، فلن أدعك تستريح أكثر من هذا.

تناول أركالاوس درعه وسيفه، وسدَّد كل منهما إلى الآخر ضرباتٍ موجعةً نجمت عنها جروحٌ مؤلمةٌ، حتى تناثرت أجزاء درعيهما وصفحات أسلحتها، وما إن أتت السَّاعة التَّاسعة صباحًا، حتى رأينا أركالاوس قد فقد كثيراً من قوته، وذهب يسدِّد ضرباته إلى خوذة أماديس، وما استطاع أنْ يحمل السَّيف في يده، وسقط على الأرض، ولما أراد أنْ يستعيده دفعه أماديس بقوة، فجعله يسند بيديه على الأرض، ولما أنْ نهض عاجله بضربة بالسَّيف أصابت خوذته، وثبطت عزيمته، وحين رأى أركالاوس نفسه على وشك الموت شرع في الهرب نحو قصر تراءى له عند المخرج، وتبعه أماديس، فدخلا إلى القصر، غير أنَّ أركالاوس قد احتمى فى إحدى الغرف، وعلى بابها كانت هناك سيدةٌ ترقب كيف يدور النِّزال بينهما، ومنذ أنْ أصبح أركالاوس بالحجرة، أمسك بالسَّيف، وقال لأماديس :

- والآن ادخل ونازلنى.

- سأنازلك فى هذا القصر، فهو أكبر - قال أماديس.

- لا رغبة لي - قال أركالاوس .

- كيف؟! -قال أماديس- أبهذا تتوقَّع الرَّحمة ؟

وتدرَّع ثم هجم عليه، وحين رفع السَّيف ليضربه خارت قواه، وما عاد يشعر بشيء، ثم سقط على الأرض كمن فارق الحياة. هنا قال أركالاوس :

- لا أريدك تموت بطريقة سوى هذه.

ثم قال للسيدة التي كانت ترقبهما ؟

- أترين صديقتي، إنَّني سأنتقم من هذا الفارس حقَّ الانتقام ؟

- يبدو لي -قالت السَّيدة- أنك ستنتقم منه كما تهوى.

وهنا جرَّد أماديس - الذي كان قد فقد الإحساس- من أسلحته ثم تقلَّد أركالاوس هذه الأسلحة، وقال للسَّيدة :

- لا يحرك هذا الفارس من هنا أحدٌ مهما كنت تحبينه، وهكذا سنتركه حتى تخرج روحه إلى بارئها.

خرج على هذه الهيئة إلى الفناء وظنَّ الجميع أنَّه قد قتله، خيم الحزن على المرأة التي خرجت لتوها من السِّجن، وكان حزن جندالين أكبر من أنْ يوصف، قال أركالاوس :

- أيَّتُها السَّيدة، لتبحثي عن رجلٍ آخر يخرجك من هنا ، لأنَّ الفارس الذي رأيتِ قد فارق الحياة.

وحين سمع جندالين هذه الكلمات، خر صعقًا. أمسك أركالاوس بالسَّيدة، ثم قال:

- تعالي معي، وسوف ترين كيف تزهق روح ذلك اليائس الذي أتى لمنازلتي.

حملها إلى حيث يوجد أماديس، ثم قال :

- ماذا ترين أيَّتُها السَّيدة ؟

بدأت تبكي بكاء مرا، ثم قالت :

- آه أيُّها الفارس الهمام، إنَّ موتك هذا سيسبِّب آلامًا كثيرةً لأناسٍ كثيرين.

قال أركالاوس للسَّيدة الأخرى، التي كانت زوجته :

- صديقتي، ما إن يفارق هذا الفارس الحياة، أعيدي هذه السَّيدة إلى السِّجن حيث أخرجها هو، وأنا سأذهب إلى بيت الملك ليسوارتي، وسأروي هناك كيف نازلت هذا الفارس، واتفقنا سويا على خوض هذا النِّزال شريطة أنْ يطيح المنتصر برأس المهزوم، وليذهب ليحيط القصر بهذا في خلال خمسة عشر يومًا، وبهذه الطريقة فلن يكون لأحد الحق في أن يطالبني بدمه، أمَّا أنا فسوف أنال الشَّرف والرِّفعة في مجال النِّزال حيث أصبحت أنا الفارس الذي تمكَّن من ملاقاة مثل هذا الرَّجل الذي لا مثيل له في الوجود.

وما إن عاد إلى الفناء مرة أخرى حتى أمر بإيداع جندالين والقزم غياهب السِّجن المظلم. تمنَّى جندالين أنْ يقتله الرَّجل، ونادى عليه :

- أيُّها الخائن، يا من قتلت أكثر فرسان هذا الوجود وفاء.

غير أنَّ أركالاوس قد أمر رجاله بسحبه من رجليه، قائلاً :

- إذا ما قتلتك، فلن يؤلمك هذا، هناك داخل السِّجن ستعاني أمرًا أشدَّ من الموت.

امتطى ظهر جواد أماديس، وحمل معه ثلاثة من حاملي السِّلاح، وتنكَّب طريقه صوب الملك ليسوارتي.

الفصلُ التَّاسع عشر

كيف سحر أركالاوس الإنكانتانور أماديس لأنه أراد أنْ يخرج السَّيدة جريندالايا وأخرين من سحرهم وسجنهم، وكيف نجا من السِّحر الذى صنعه له أركالاوس.

تألَّمت السَّيدة جريندالين كثيراً لحال أماديس، فقد كانت مأساة تلك الكلمات التى قالتها لزوجة أركالاوس وللسَّيدات الأخريات اللاتى كنَّ معها :

– آه سيدتى، أما ترين جمال الفارس وفى أيِّ سنٍ غضةٍ يكون هذا الذى يعتبر من أفضل فرسان الدُّنيا ؟ اللعنة على هؤلاء الذين يعلِّمون السِّحر، لما يلحقونه من كبير الأذى والشَّر بالنَّاس الطيبين.

كانت زوجة أركالاوس، الذى جُبل على القساوة والشَّر، مجبولةٌ هى الأخرى على الفضيلة والرَّحمة، وأحزانها كثيرة ومن كل قلبها على ذلك الذى فعله زوجها، ودائماً كانت تدعو الله فى صلواتها أنْ يبدِّل حاله. فأخذت تواسى السَّيدة قدر استطاعتها، وبينما كانت تفعل هذا، دخلت فتاتان من باب القصر وأحضرتا معهما العديد من المشاعل الموقدة، فوضعتاها فى أركان الغرفة التي يوجد بها أماديس، ولم تتمكَّن السَّيدات اللاتى كنَّ هناك من الحديث معهما أو التَّحرك من مكانهن، أخرجت إحدى الفتاتين كتاباً من علبة كانت تحملها تحت إبطها، وبدأت تقرأ فيه، وأجابها صوتٌ لعدة مرَّات، ظلَّت تقرأ فى الكتاب، وفى النِّهاية ردَّت عليها أصواتٌ عديدةٌ معًا فى داخل الغرفة، يبلغ عددهم المائة تقريبًا، وهنا رأت الحاضرات كيف خرج كتاب من باطن أرضية الغرفة يدور كما لو

كانت الرِّياح تحمله، ثم استقرَّ عند قدمي الفتاة، أخذته، ثم قطعته إلى أربعة أجزاء، وأحرقتها في أركان الغرفة التي كانت بها المشاعل متقدة، ثم عادت إلى حيث يوجد أماديس، وأمسكت بيده اليمنى، وقالت :

- سيدى، استيقظ، فقط ظللت في هذا الغم طويلاً.

نهض أماديس، ثم قال :

- أيَّتُها القديسة مريم ! ما هذا الذى أصابنى وكاد يميتنى ؟

- حقا، سيدى -قالت الفتاة- لم يكن لرجلٍ مثلك أنْ يموت هكذا، فقبل أنْ يحدث هذا أراد الله أنْ يكون موت أناسٍ آخرين يستحقون ذلك على يديك أنت.

ثم عادت الفتاتان من حيث وفدتا دونما أدنى كلمة، سأل أماديس عمًّا جرى لأركالاوس، فحكت له جريندالايا كيف أصبح مسحورا، وكل ما قاله أركالاوس، وكيف أنَّه تدثَّر ملابسه الحربية وامتطى جواده، ثم توجَّه إلى بلاط الملك ليسوارتى ليشاوره في أمر موته. قال أماديس :

- لتحافظي على هذه السَّيدة محافظتك على نفسك حتى أعود.

هبط عبر السُّلَّم، ووصل إلى الفناء، وحين رآه رجال أركالاوس مدجَّجًا بالسِّلاح هربوا وانتشروا في كلِّ جانبٍ، ذهب إلى السِّجن، فدخل إلى القصر حيث قتل الرِّجال، ومن هناك وصل إلى السِّجن الذى يوجد به المسجونون، وكان المكان ضيقًا جدا وبه أناس كثيرون، كانت مساحته مائة ذراعٍ طولاً في ذراعٍ ونصف عرضاً، كانت مظلمة لا تسمح بدخول الهواء أو الضَّياء، وكان عددهم هائلاً لدرجة أنَّ المكان لم يكن يتسع لهم. دخل أماديس من الباب، ونادى على جندالين، لكنَّه كان كمن فارق الحياة، وحين سمع صوته ارتجف وما درى أنَّه هو، فقد ظنَّ أنَّه أصبح في عداد الموتى، وأدرك أنَّه كان مسحوراً، اغتم أماديس بدرجة أكبر، ثم قال :

- جندالين، أين أنت ؟ آه يا إلهي، لا تدرى كيف ستؤلمنى إذا لم تجبنى !

ثم نادى فى الآخرين :

– أخبرونى، بالله عليكم، عما إذا كان حيا ذلك الرَّجل الذى أدخلوه هنا.

– سيدى، إنَّنا هنا قاعدون وأحياءٌ، رغم أنَّنا كثيرًا ما تمنينا الموت.

بدى سعيداً لسماعه، ثم حمل المشاعل التى كانت قريبةً من مصباح القصر، أشعلها، وعاد إلى السِّجن فرأى مكان جندالين والقزم، ثم قال :

– جندالين، اخرج إلى هنا، وخلفك كل من بهذا المكان، حتى لا يبقى أحدٌ، ردٌ الجميع قائلين :

– آه أيُّها الفارس الطَّيِّب ! جزاك الله خيرًا أن أنقذتنا.

وحينئذ حرر جندالين –الذى أتى آخر القوم– من السَّلسلة التى كبَّلته، ومن بعده القزم ثم الآخرون الذين أسروا فى هذا المكان، والذين بلغ عددهم مائة وخمسة عشر، فضلاً عن ثلاثين فارساً، سار الجميع خلف أماديس إلى خارج الكهف، قائلين :

– آه أيُّها الفارس الطوباوى، هكذا خرج المنقذ عيسى من النِّيران حين أخرج أنصاره، ليجزيك الله أجر ما صنعت لنا.

هكذا خرجوا جميعًا إلى الفناء، وحين رأوا الشَّمس والسَّماء خرُّوا راكعين رافعين أيديهم، شاكرين الله كثيراً أنْ منح ذلك الفارس القدرة على إخراجهم من ذلك المكان القاسى والمنفَّر. نظر إليهم أماديس نظرةً ملؤها الأسى والحسرة لما أصابهم من سوء المعاملة، فقد بدت عليهم أمارات الموت لا الحياة، ورأى من بينهم واحداً كبيراً جدا وحسن الهيئة، رغم أن الفقر قد شانه، أقدم هذا على أماديس ثم قال :

– سيدى الفارس، ما اسم الفارس الذى خلصنا من هذا السِّجن المظلم القاسى ؟

– سيدى –قال أماديس– سأخبرك بذلك طواعيةً، اعلم أنَّنى أدعى أماديس دى جاولا، ابن الملك بيريون، وأنتمى إلى بيت الملك ليسوارتى، وأعمل فارسًا فى

خدمة زوجته، الملكة بريسينا، خرجت بحثا عن أحد الفرسان فأحضرني قزم إلى هنا من أجل هدية وعدته بها.

- إنّني -قال الفارس- أنتمي إلى بيته، ويعرفني الملك جيداً وحاشيته كذلك، كنت مشرَّفًا عنده أكثر من الحال التي تراني عليها.

- من بيته! أنت ؟ - قال أماديس.

- نعم، أنا منه -قال الفارس- ومن هناك خرجت حين وقعت في هذا الحظ النكد والمكان المقفر الذي أخرجتني منه.

- وما اسمك ؟ - قال أماديس.

- براندو إيباس - قال الفارس.

وحين سمع أماديس ما قاله الفارس، سعد به كثيراً وعانقه، ثم قال :

- أحمد الله أنْ وهبني القدرة على أنْ أخرجك من هذه المحنة القاسية، فقد سمعت الملك ليسوارتي يتحدَّث عنك مراراً وتكراراً، وكذلك جميع من بالقصر، وطوال فترة وجودي هناك، كنت أمتدح فضائلك وفروسيتك، ولكم أسفت كثيراً لجهلي بالكثير عن حياتك.

- هكذا مَثُلَ جميع السُّجناء أمام أماديس، ثم قالوا له :

- سيدنا، نحن الآن هنا بفضلك وكرمك، بماذا تأمرنا، وسوف نُصغي لأمرك طواعيةً، فأنت أهلٌ لذلك ؟

- أصدقائي -قال أماديس- ليذهب كل منكم إلى ما فيه سعادته ومصلحته.

- سيدنا -قال الجميع- رغم أنَّك لا تعرفنا، ولا تدري من أيِّ البلاد نحن، فنحن نعرفك وفي خدمتك، ونحن في عونك ما دعت الضَّرورة إلى ذلك، ولن ننتظر ما تأمرنا به، فبدون هذا الأمر سنكون معك حيث تكون.

بعد هذا اللقاء ذهب كل منهم في طريقه كما أمكن له، فقد كان أمرا ضروريا. حمل أماديس معه براندو إيبياس واثنين من حملة السِّلاح الذين كانوا بالسِّجن، وذهب إلى حيث توجد زوجه أركالاوس برفقة نساءٍ أخرياتٍ، وجد جريندالايا معها، فقال :

- من أجلك وأجل السَّيدات اللاتي في حضرتك سأعدل عن إحراق القلعة، الأمر الذي يدفعني إليه ما جبل عليه زوجك من الشَّر، غير أنَّه لابد من الإقلاع عن هذا الأمر نظرا للاحترام والتَّوقير الذي يكنُّه الفرسان للنِّساء والفتيات.

قالت له السَّيدة باكيةً :

- يشهد الله -سيدي الفارس- على ألمي وحزني اللذين أصابا نفسي لكل ما يصنعه أركالاوس زوجي وسيدي، غير أنَّه ليس بوسعي بوصفي زوجته إلا أنْ أطيعه وأدعو الله له، وبمقدورك سيدي أن تفعل بي ما تشاء.

- ما أفعله الآن - قال أماديس - هو ما انتهيت إلى قوله، غير أنَّني أرجوك أنْ تأمري بإعطائنا لباساً جيداً لهذه السَّيدة، ولهذا الفارس بعض الأسلحة -فقد نزعت عنه تلك التي كانت يرتديها- وجواداً، وإذا كان في ذلك مضايقة لك فلا تأمري بشيء منه، سوى ما سأحمله من أسلحة أركالاوس بدلاً من أسلحتي التي سلبني إياها، وجواداً بدلاً من جوادي، وأقول لك إنَّ السَّيف الذي أخذه منِّي أحب إليَّ من كل هذا.

- سيدي -قالت السَّيدة- عدل ما تطلبه، وإذا لم يكن كذلك، فلعلمي بقدرك، سأنفذه لك طواعيةً.

وهنا أمرت بإحضار الأسلحة نفسها التي كانت لبراندو إيبياس، وأعطته جواداً، وأما السَّيدة فأدخلتها غرفتها، وألبستها ثياباً جميلة جدا من تلك التي تملكها، ثم أحضرتها إلى أماديس، وتوسَّلت إليه أنْ يتناول الطَّعام قبل رحيله، وقبل أماديس عرضها، فقدمت إليه أطيب ما لديها من طعام، ما تناولت جريندالايا طعاماً قط، حيث ضجَّت بالشكوى رغبة في مغادرة القلعة، الأمر الذي أضحك أماديس وبراندو إيبياس، وزاد ضحكهما لحال القزم، الذي بدا فزعاً، فلم يستطع أنْ يأكل أو يتكلَّم، وذهب عنه لونه. قال له أماديس :

– أيُّها القزم، أترغب فى أنْ ننتظر أركالاوس، وأعطيك الهدية التى أعفيتنى منها ؟

– سيدى –قال القزم– هذا الأمر يكلفنى كثيرًا جدا، فلن أطلب منك أو من غيرك عطيةً طوال حياتى، ولنذهب عن هذا المكان قبل أنْ يخذلنا الشَّيطان ثانية، فليس بمقدورى تحمل الألم الذى لحق بساقى التى علقونى منها، وقد امتلأ أنفى بحجارة الكبريت، التى كانت أسفل منِّى، فما كان منِّى إلا أنْ واصلت العطس وأشياء أخرى أسوأ.

تعالت ضحكات أماديس وبراندو إيباس والسَّيدات والفتيات بسبب ما قاله القزم، وحين رُفعت طاولة الطعام ودَّع أماديس زوجه أركالاوس، فاستودعته الله، وقالت :

– ليوفق الله بينكم، وبين زوجى وسيدى.

– حقا سيدتى –قال أماديس– رغم أنَّنى لا أتمنَّى ذلك منه، فأرجوه من أجلك، لأنَّك تستحقين مثله.

ظلَّت هذه الكلمة التى قالها أماديس باقيةً حتى استفادت منها السَّيدة فى شأن زوجها، وذلك كما سنقصُّ عليكم فى الكتاب الرَّابع من هذه الحكاية.

امتطى الرِّجال جيادهم، والسَّيدة جوادها، وخرجوا من القلعة، وساروا جميعًا فى طريقهم طوال اليوم حتى أقبل الليل، فنزلوا بمنزل أحد النبلاء كان يقطن على مسافة خمسة فراسخ من القلعة، حيث أكرم وفادتهم، وفى اليوم التَّالى، وبعد أداء الصَّلوات، استأذنوا صاحب البيت، وأخذوا طريقهم، ثم قال أماديس لبراندو إيباس :

– سيدى الطَّيِّب، أنا أسير بحثًا عن فارس كما قلت لك، وأنت تسير متعبًا، من الأفضل أنْ ننفصل عن بعضنا البعض.

– سيدى –قال الآخر– يناسبنى أنْ أذهب إلى بلاط الملك ليسوارتى، وإذا ما أمرتنى أنْ أبقى معك فلك ذلك.

– أشكرك على هذا كثيرًا –قال أماديس– لكن يناسبنى أكثر أنْ أكون وحدى، وأنْ أترك هذه السَّيدة فى المكان الذى تهوى الذَّهاب إليه.

– سيدى –قالت السيِّدة– سأذهبُ مع هذا السَّيد إلى حيث يذهب، فهناك سأرى ذلك الذى أدخلنى السِّجن، والذى سيسعد لرؤيتى.

– على الله توكلت –قال أماديس– اذهبا فى رعاية الله.

هكذا تفرقوا كما سمعتم، وقال أماديس للقزم :

– صديقى، ماذا أنت فاعلٌ ؟

– سأفعل ما تأمرنى به – قال القزم.

– ما آمرك به – قال أماديس – هو أنْ تفعل ما يحلو لك .

– سيدى – قال القزم – بما أنَّك تركت لى حرية الاختيار، فأنا أريد أنْ أكون أحد أتباعك حتى أكون فى خدمتك، فأنا أشعر بأنَّك أفضل من بمقدورى العيش إلى جواره.

– إذا كان هذا يعجبك –قال أماديس– فإنه يعجبنى أيضًا، وأنا أقبلك واحدًا من أتباعى.

قبَّل القزم يده، وسار أماديس فى طريقة على هدى من العناية الإلهية، وما طال الوقت حتى وجد فتاةً تبكى بكاء مرا، فقال لها :

– سيدتى الفتاة، لماذا تبكين ؟

– أبكى – قالت الفتاة – لأنَّ ذلك الفارس قد خطف منِّى علبة كانت معى، ولن يفيد منها، على الرَّغم من هروب أفضل فارسٍ فى الدُّنيا من داخلها من موتٍ محقَّقٍ منذ ثلاثة أيَّام، كما أبكى أيضًا على رفيقةٍ أخرى لى خطفها فارسٌ آخر عنوةً لينتهك شرفها.

لم تعرف هذه الفتاة أماديس نظرًا للخوذة التى كان يضعها على رأسه، والذى ما إن سمع كلامها حتى تجاوزها، ولحق بالفارس، ثم قال له :

- أيُّها الفارس، ليس من التَّأدب أنْ تجعل هذه الفتاة تسير خلفك باكيةً، أنصحك بالتَّوقف عن هذا الخطأ والمبالغة، وأنْ تعيد إليها علبتها.

بدأ الفارس في إطلاق ضحكاته، فسأله أماديس :

- لماذا تضحك ؟

- أضحك منك -قال الفارس- حيث ما أراك إلا مخبولاً تقدم النَّصيحة لمن لم يطلبها منك، ولن يفعل شيئًا مما تقول.

- من الممكن - قال أماديس - ألا يعود عليك نفع منه، أعطها علبتها، فلا فائدة لك فيها.

- يبدو لي - قال الفارس - أنَّك تهدِّدني.

- إنَّ ما يهدِّدك هو كبرياؤك - قال أماديس - الذي يدفعك لاستخدام القوة مع من لا يجب استخدامها معه .

- علَّق الفارس العلبة في شجرةٍ، ثم قال :

- إذا ما كانت شجاعتك توازي كلامك، فتعال لتأخذ العلبة، ولتعطيتها لمن يملكها.

وأدار وجه الجواد نحوه، فسار إليه أماديس، الذي كان يتميَّز غيظًا، فهجم عليه الآخر بكلِّ ما به من قوةٍ ليضربه، فأصاب درعه، لكن الضَّربة لم تخترقه -إذ كان صلبًا- وكسر الرمح، وقابله أماديس بضربة قاسيةٍ للغاية، أطاحت به أرضًا وفوقه الجواد، وأصبح منكسراً، فما استطاع أنْ ينهض.

أخذ أماديس العلبة، فأعطاها للفتاة، وقال :

- انتظري هنا بينما أذهب لإغاثة الفتاة الأخرى.

وحينئذ توجَّه سريعًا قدر استطاعته إلى حيث يوجد الفارس، وبعد فترةٍ وجيزةٍ عثر عليه بين أشجارٍ ربط جواده بإحداها، ووجد الفتاة والفارس معها يحاول اغتصابها عنوةً، بينما علت صيحاتها، وقد جذب شعرها إلى شجرة، بينما هي تقول مغمومةً :

- آه أيُّها الخائن عدوى، قريباً ستموت شرَّ ميتةٍ لهذا الذى تصنعه بى، وتلطيخك لشرفى، وما أسأت إليك قط !.

والحال هكذا وصل أماديس يصيح بأعلى صوته على الفارس أنْ اترك الفتاة، وحين رآه الفارس همَّ فأخذ سلاحه، وامتطى جواده، ثم قال :

- أتيت فى وقتٍ غير مناسبٍ لتحول بيني وبين ما أردت.

- أخزى الله مثل هذه الرَّغبة - قال أماديس - التى تنزع الحياء عن الفارس.

- سيخسر العالم شيئًا تافهًا - قال أماديس - حين تقلع عن حملها، لأنك تستخدمها بكل دناءةٍ وحقارةٍ، مغتصبًا النِّساء، اللاتى يجب أنْ يعشن فى كنف ورعاية الفرسان.

هاجم كل منهما الآخر من فوق الجوادين، فتضاربا بشدة يتعجَّب منها من يراها، كسر الفارس رمحه، غير أنَّ أماديس قد سدَّد إليه ضربةً أصابت أعلى مؤخرة سرجه، وأطاح بالخوذة على الأرض، فخرَّ على الأرض بجسده، وقد دق عنقه أسفل منه فبدى ميتًا أكثر منه حيا، وحين رآه أماديس مثخنًا بالجراح، أتى على مقربة منه يمتطى جواده، وقال :

- هكذا تفقد همتك وشرفك.

ثم قال للفتاة :

- صديقتى، لا خوف من هذا بعد اليوم.

- هكذا يبدو لى، سيدى -قالت هى- لكنَّنى مهتمة بفتاةٍ رفيقةٍ لى، أخذوا منها علبتها، وأتمنَّى ألا يلحقها ضررٌ ما.

- لا تشغلى بالك بها -قال أماديس- فقد سلمتها إليها، وسترينها فهى فى صحبة حامل سلاحى.

وحينئذٍ نزع خوذته عنه، فعرفته الفتاة وعرفها، فهي التي حملته حين أتى صاحب جاولا إلى أورجاندا لاديسكونوثيدا حين أخرج صديقها بقوة السِّلاح من قلعة بالدويد، ترجَّل أماديس، ثم احتضنها، كما احتضن الفتاة الأخرى التي وصلت إلى هناك، وقالتا له :

- سيدنا، لو أننا نعلم أنَّ لدينا مدافعًا مثلك، لما ساورنا الخوف من الاغتصاب إلا قليلاً، وبمقدورك أنْ تتأكَّد من أنَّ مساعدتنا لك جاءت لأنك تستحقها، فقد ساعدتنا من قبل.

- سيدتيَّ -قال أماديس- لقد كنت في خطرٍ كبيرٍ، وأرجوكما إخباري كيف عرفتموه.

قالت الفتاة التي عاونته :

- سيدي، لقد أمرتني خالتي أورجاندا منذ عشرة أيَّام بأنْ أعمل على الوصول إلى هناك في ذاك الوقت حتى أطلق سراحك.

- شكرك الله على هذا - قال أماديس - وأنا سأكون في خدمتكما في كل ما تأمراني وترغبانه، فقد أحسنتما صنعًا، ولكما منِّي مزيدٌ من الخدمة والرِّعاية.

- سيدنا -قالت الفتاتان- عد إلى طريقك الذي تركته من أجلنا، ونحن سنأخذ طريقنا.

- اذهبا في رعاية الله -قال أماديس- اذكراني عند سيدتكما كثيرًا، وقولا لها إنَّها تعلم أنِّي الفارس الذي يخدمها.

سارت الفتاتان في طريقهما، وعاد أماديس إلى طريقه، وما بقي سوى أنْ نقصَّ هنا ما جرى على يد أركالاوس.

الفصلُ العشرون

كيف حمل أركالاوس الأخبار إلى قصر الملك ليسوارتي بأنْ أماديس قد قضى نحبه، والبكاء المر الذي صدر عن كل من بالقصر، وخاصة أوريانا.

سار أركالاوس مسيرًا طويلاً بعد أنْ فارق أماديس -حيث تركه مسحورًا- راكبًا فرسه ومدجَّجًا بالسِّلاح، ووصل بعد عشرة أيَّام قصر الملك ليسوارتي في صباح يومٍ وقت طلوع الشمس، وفي هذا الوقت كان الملك ليسوارتي يمتطي جواده في صحبة رجاله، وكان يتجوَّل بين قصره والغابة، ورأى كيف كان أركالاوس قادمًا نحوه، وحين عرفوا الجواد والأسلحة أيضًا ظنوا أنَّ القادم أماديس، وذهب الملك إليه فَرِحًا، ولكنهم حين اقتربوا منه جدا وجدوه شخصًا آخر غير الذي اعتقدوه، فقد كان وجهه ويداه خاليين من السِّلاح، وتعجَّبوا لهذا. مثل أركالاوس أمام الملك، ثم قال :

- سيدى، لقد أتيت إليك رغبةً فى أنْ أقصَّ عليك حكاية نزال جمع بيني وبين أحد الفرسان فقتلته، وحقًا، فأنا قادمٌ والخجل يملؤني لأنَّنى كنت أودُّ أنْ أُمتدح من الآخرين قبل أن يكون ذلك من جانبي، ولكنه لم يكن بمقدوري فعل شيءٍ آخر، فقد تمَّ الاتفاق بيني وبينه على أنْ يقوم المنتصر بقطع رقبة المهزوم وأنْ يمثل أمامكم في هذا اليوم تحديداً، ولكم أحزنني أنَّه أخبرني بأنَّه كان من فرسان هذه المملكة، يخدم الملكة خصيصًا. وقد أخبرته بأنَّه إذا ما قتلني، فسيكون قد قتل أركالاوس، فهكذا أدعى، وقد أخبرني بأنَّه يُدعى أماديس دى جاولا، وهكذا فقد لقى حتفه بهذه الطريقة، وحصدت أنا الشَّرف والسُّمعة نتيجة المعركة.

- آه أيَّتُها العذراء ! - قال الملك - مات أفضل وأقوى فـارس في الـوجود، آه يا إلهي ! لماذا جعلت أول أمر هذا طيبًا ؟

أخذ يبكي بكاء مرا، بالإضافة إلى كل من كان موجوداً بجواره. عاد أركالاوس من حيث أتى والغيظ يتملَّكه، وتلقى سيلاً من الشَّتائم من قبل الذين رأوه، راجين ومتوسلين إلى الله أن يميته شرَّ ميتةٍ في أقرب وقت. وأقدموا هم أنفسهم على إزهاق روحه، مبرِّرين أن ذلك كلَّه لم يكن له من داعٍ يذكر. ذهب الملك إلى قصره مكروبًا وحزينًا متعجِّبًا. وتطايرت الأخبار في كل جانب حتى بلغت منزل الملكة، وحين سمعت الفتيات نبأ وفاة أماديس، أجهشن بالبكاء، فقد كان محبوبًا ومرغوبًا منهن جميعًا. وأما أوريانا، التي كانت بحجرتها، فقد أرسلت الفتاة الدَّانماركية كي تعرف أسباب كلِّ هذا البكاء الحاصل. خرجت الفتاة، وحين علمت الأمر أقدمت وقد صكَّت وجهها وبكت بكاء مرا ونظرت إلى أوريانا، ثم قالت لها.

- آه، أيَّتُها العذراء مريم، هل مات أماديس؟!

قالت الفتاة :

- آه سيدتي، لقد مات !

توقَّف قلب أوريانا حزنًا وسقطت على الأرض جثةً هامدةً. وحين رأتها الفتاة على هذه الحال كفَّت عن البكاء، ثم ذهبت إلى مابيليا، التي كانت تتألَّم ألما شديدا ناكشةً شعرها، وقالت لها :

- سيدتي مابيليا، أغيثي سيدتي، فهي تحتضر.

التفتت مابيليا فرأت أوريانا قابعةً في مكان جلوسها كما لو كانت قد فارقت الحياة، ورغم أنَّ ألمها كان شديداً، لا مثيل له، فإنها أرادت أنْ تصلح ما حدث قدر استطاعتها، فأمرت الفتاة أنْ تغلق باب الغرفة؛ كي لا يراها أحدٌ على هذه الهيئة، احتضنت أوريانا بين ذراعيها، ثم سكبت على وجهها ماءً بارداً، حتى عادت إلى وعيها، وما إن استطاعت الكلام حتى قالت باكيةً :

- آه، يا زهرة ومرآة كلِّ فروسية، يا لغرابة موتك عندى، وما عانيت وحدى فراقك، بل يشاركنى فى تلك المعاناة النَّاس جميعا، حيث فقدوا زعيمهم وقائدهم الأعظم، فى النِّزال والفضائل، التي جعلت منه مثلاً يحتذى، ثم خرَّت مغشيا عليها حتى ظنَّ الجميع أنَّها فارقت الحياة، بدا شعرها الجميل غير ممشَّط ومسترسلاً على الأرض، ويداها على قلبها الذى هاجمه الموت الرَّهيب، فأصبحت تعاني حزنًا قاسيًا فاق بكثير تلك المتع التى أحسَّتها فى حياة الحبِّ والفرح، وذلك كما يحدث فى مثل هذه الأحوال بصفةٍ دائمة. وهنا أدركت مابيليا أنَّها تموت حقا، وقالت :

- آه، يا الهى ! لا أتمنَّى أن تهبنى حياةً أطول، فقد فارق الحياة الدُّنيا اثنان كنت أحبهما.

وهنا قالت لها الفتاة :

- بالله عليك سيدتى، لا ذهبت عنك فطنتك فى مثل هذا الوقت، وافعلى ما فيه خلاصها.

- تحاملت مابيليا على نفسها، فنهضت من مكانها، وأمسكت بأوريانا، ثم وضعاها فى فراشها.

تنفَّست أوريانا، وحركت ذراعيها يمنةً ويسرةً كما لو كانت تنزع منها روحها. حين رأتها مابيليا على هذه الحال، تناولت الماء وعادت، فنضحت على وجهها وصدرها، وفتحت عينيها، وأرادت أنْ تنبهها لشىءٍ آخر، فقالت لها :

- آه سيدتى، يا لها من قلة عقلٍ هذه، أتستسلمين للموت لمجرَّد أخبار تافهة مثل تلك التى أتى بها ذلك الفارس، دون التَّأكد من حقيقتها، وهو الذى من الممكن أنْ يكون قد حصل على أسلحة صديقك وجواده إمَّا بطلبها منه وإمَّا بسرقتها، وليس بهذه الطَّريقة التى أخبرنا إيَّاها، فعسى الله ألا يكون قد أنزل به ذلك ليخرجه من هذه الدُّنيا بهذه السُّرعة، وما تفعلين من شىءٍ الآن، إذا ما عرف شىء عن همك وحزنك الشَّديدين، سوى أنَّك ستفقدين نفسك إلى الأبد.

تحاملت أوريانا على نفسها بقدرٍ أكبر، ووجُهت عينيها إلى النَّافذة حيث كانت تتكلَّم إلى أماديس حين وصل إلى هناك لأوَّل مرة، ثم قالت بصوتٍ متدهجٍ كمن خارت قواها :

– آه أيتُّها النَّافذة. يا لحزني لتلك المحادثة الجميلة التي جرت بين أحضانك، ولكم أدرى أنَّك لا تتحمَّلين طويلاً أنْ يعود اثنان للحديث في ظلالك، وإنه كان حديثًا حقيقيا وشريفا ! ثم أضافت قائلةً : آه، يا صديقي يا زهرة الفرسان جميعا، كم من النَّاس خسروا مساعدتك ودفاعك عنهم بموتك هذا، وكم من الحزن والهم سيلحق بهم، غير أنَّ همي أدهى وأمرُّ، كمن كانت لك أكثر مما كانت لنفسها؛ كنت لا أجد سعادتي أو متعتي إلا فيك أنت، وبفقدك أصبحت على النَّقيض تمامًا، أعيش أحزانًا فظيعةً لا تُحتمل، وستظلُّ روحي تعاني حتى تلقى حتفها، حين يداهمها الموت، الذي أتمناه كثيرا، لكونه سببًا في تلاقي روحينا من أجل راحةٍ تفوق هذه الحياة النَّكدة، سيكون فرصةً عظيمةً.

بدا الغضب على مابيليا، فقالت لها.

– كيف سيدتي تعتقدين –إذا ما كان لي أنْ أصدِّق هذه الأنباء– أنَّني قد خلوت من القدرة على مواساة أيِّ أحدٍ ؟ فلا أراه صغيرًا أو تافهًا ذلك الحب الذي أكنُّه لأماديس، وليكن الله في عوني، فما من فائدةٌ لي، –لو كان ذلك بحق مما يصدق– أحققها من وراء موته حتى لا أواسيك أو أواسي كلَّ من يحبه في هذا العالم، وهكذا فما تفعلينه أمر بلا أدنى من فائدةٍ، ويمكن أنْ يعود بكثير ضررٍ، فبهذا يمكن في أسرع وقت اكتشاف ما خفي من أمرنا.

وحين سمعت أوريانا هذا الكلام قالت :

– هذا الأمر لا يعنيني إلا قليلاً، فإنْ عاجلاً أو آجلاً سيظهر أمرنا للنَّاس جميعا، رغم محاولتي لإخفائه، فمن لا يرغب في الحياة لا يخشى أيَّ خطر على الإطلاق، مهما أتاه.

دام بهما هذا الوضع طوال اليوم، حيث أخذت الفتاة الدانماركية في إخبار الجميع بأنَّ أوريانا لا تجرؤ على مغادرة مابيليا، حتى لا تموت، فقد ألم بها حزنٌ شديدٌ. أقبل عليهما الليل، فأمضياه في ضيق وهم شديدين: حيث خرَّت أوريانا مغشياً عليها عدَّة مرَّاتٍ، حتَّى ظنَّ الجميع أنَّها لن تبلغ الفجر على قيد الحياة، حيث كان شغلها وهمها قد ملأ قلبها عن آخره. وفي اليوم التالي، حين حان موعد إفطار الملك، دخل براندو إيباس من باب القصر، يمسك بجريندالايا من يدها، كمن يهواها، الأمر الذي أمتع كلَّ من يعرفونه، لأنَّه قد مضى وقتٌ طويلٌ دون أنْ يعرفوا عنه أيَّة أخبار، أديا التَّحية للملك.

وهنا قال الملك بعد تقدير :

– مرحباً بك يا براندو إيباس، كيف لك كل هذا التَّأخير، فلكم تشوقنا إليك ؟!

بدأ يجيب الملك عمَّا سأل عنه، فقال :

– سيدى، لقد زُجَّ بى فى ذلك السِّجن، فلم أستطع الخروج منه بأيَّة وسيلةٍ، إلا على يد الفارس الهمام أماديس دى جاولا، الذى أخرجنى بأدبه وكرمه، وهذه السَّيدة معى، وكثيرين آخرين، حيث أبلى بلاءً حسنًا فى القتال لا يدانيه فيه أحدٌ، وقد كان الخائن أركالاوس على وشك أنْ يقتله بما لجأ إليه من خداعٍ كبيرٍ، إلا أنَّ أماديس قد تمَّ إسعافه على يد فتاتين أغرمتا به كثيرا.

وحين سمع الملك هذا الكلام نهض من المائدة على عجلٍ، وقال :

– صديقى بحق إيمانك بربك وولائك لى أخبرنى عما إذا كان أماديس حيا.

– بهذا الذى تستحلفنى به، سيدى إنَّنى أقول الحقيقة، فقد تركته حيا وسليما منذ ما يقرب من عشرة أيَّام، لكن لماذا تسأل عن هذا الأمر ؟

– لأنَّ أركالاوس قد أتى إلينا هنا بالأمس، وأخبرنا بأنه قد قتله – قال الملك.

ثم حكى له كيف قصَّ عليهم أركالاوس ما وقع.

– آه أيتُّها العذراء ! –قال براندو إيباس– ياله من خائنٍ شرِّيرٍ ! هذا لأنَّ النَّتيجة كانت أسوأ مما كان ينتظر.

وهنا بدأ براندو إيباس يروى للملك ما جرى لهم مع أركالاوس –كما سمعتموه من قبل– فما أخفي شيئًا، وحين سمع الملك ومن فى بيته هذه الرواية غمرهم السُّرور فما ترك مكانًا لمزيد، وأمر باصطحاب جريندالايا لتكون فى حضرة الملكة، وأنْ تحكى لها أخبار فارسها. وتمَّ التَّرحيب بها من قبل الملكة ومن برفقتها بكلِّ الحبِّ والسَّعادة للأخبار الطَّيِّبة التى أتت بها إليهن. وحين سمعت الفتاة الدَّانماركية هذه الأخبار، خرجت مسرعةً قدر استطاعتها لترويها لسيدتها، فأعادتها الأنباء السَّارة من الموت إلى الحياة، ثم أمرتها بالذَّهاب إلى الملكة كي ترسل الضَّيفة، لأنَّ مابيليا فى حاجةٍ إلى أنْ تتحدَّث إليها، وهو ما فعلته، فأتت جريندالايا إلى غرفة أوريانا فقصت عليهن كلَّ الأخبار الطَّيِّبة التى أتت تحملها، رحب الجميع بها، وأردن ألا تأكل جريندالايا فى مكانٍ آخر سوى على مائدتهن، كي يعرفن بصورة أوسع تلك الأخبار التى أزالت حزن قلوبهنَّ، وأرسلت مكانه البهجة والفرحة، وحين بدأت جريندالايا فى رواية الأحداث، ومن أين دخل أماديس السِّجن، وكيف قتل السَّجَّانين جميعًا، وأخرجها من حيث كانت والحزن يخيِّم عليها، والمعركة التى خاضها ضدَّ أركالاوس، وبقية ما جرى، أصبحت تهزُّ مشاعر الجميع نحو أماديس. هكذا كان الجميع يتناول طعامه بعد أنْ تبدَّل حزنهنَّ فرحًا وسعادةً. ودَّعتهن جريندالايا، ثم عادت إلى حيث كانت الملكة، فوجدت هناك الملك أريان صاحب نورجاليس، الذى أغرم بها، وخرج يبحث عنها، وهو يعلم أنَّها أتت إلى هنا. غمرتهما سعادةٌ ومتعةٌ لا يمكن وصفها لكم، وقد أتفق الجميع على أنْ تظلَّ جريندالايا فى حضرة الملكة، فهى لن تجد مكانًا أشرف من هذا البيت. وأخبر نورجاليس الملكة بأنَّ هذه السيدة هى ابنة الملكة أدرويد Adroid دى سيرولويس، وأنَّ الشُّرور التى مرت بها كانت بسببه هو، فقد طلبت منه أنْ يحملها معه، حيث أرادت أنْ تكون ملكًا له. وحين سمعت الملكة ذلك، سرها أنْ تجعلها فى صحبتها، ومن أجل ما أتت به من أخبارٍ سارةٍ عن أماديس، ولكونها تنتمى إلى أسرةٍ عريقةٍ، وأخذتها من يدها، كما لو كانت ابنتها، فأجلستها أمامها طالبةً عفوها

لعدم تشريفها بالقدر الكافى، وهذا راجعٌ إلى أنَّها لم تكن تعلم قدرها. كما علمت الملكة بأنَّ لجريندالايا أختًا آيةً فى الجمال، تدعى ألاديبا، نمت وترعرعت فى بيت دوق بريستويا، فأمرت الملكة بأنْ يحضروها إليها فيما بعد، حتى تعيش فى بيتها، فلكم تودُّ رؤيتها. كما أنَّ ألاديبا هذه صديقة السَّيد جالاؤر، تلك الصَّديقة التى كانت سببًا فى حنق القزم على جالاؤر كما سمعتم من قبل.

هكذا -كما سمعتم- أصبح الملك ليسوارتى وكل من بقصره فى فرحةٍ غامرةٍ وأملٍ كبيرٍ فى رؤية أماديس، بعد أنْ أزعجتهم تلك الأخبار المشئومة التى سمعوها من قبل عن أماديس، والتى تتوقف الحكاية عن متابعتها، كى تسرد أخبار السَّيد جالاؤر، الذى لم نذكره، أو نقل عنه شيئًا منذ أمدٍ بعيدٍ.

الفصلُ الحادي والعشرون

كيف وصل جالاوز إلى المعبد مكلومًا، ومكث به خمسة عشر يومًا، تعافى بعدها، وما جرى له بعد ذلك.

مكث جالاوز خمسة عشر يومًا بالمعبد الذي حملته إليه الفتاة التي أخرجها من السِّجن، وقد تقرَّح جسده، وفي نهايتها، وبعد أنْ أصبح في حالة تمكنُّه من حمل السِّلاح رحل عن المكان، وتنكب طريقًا ترشده فيه العناية الرَّبَّانية، فما كانت له وجهةٌ محدَّدةٌ على الاطلاق، وفي منتصف النَّهار وجد نفسه في وادٍ به نافورةٌ، ووجد بالقرب منها فارسًا مدججًا بالسِّلاح، لكنَّه لم يكن يصطحب معه جوادًا أو أيَّة دابةٍ أخرى، الأمر الذي تعجَّب له، فقال للفارس:

– سيدي الفارس، كيف أتيت إلى هنا سائرًا على قدميك ؟

– ردَّ عليه فارس النَّافورة قائلاً :

– سيدي، كنتُ سائرًا في هذه الغابة أقصد قلعتي، فوجدت أناسًا قتلوا جوادي، وأصبح لزامًا عليَّ أن آتي إلى هنا سيرًا على الأقدام والتَّعب يجهدني، وعليّ أنْ أعود إلى القلعة، فما يدرون عنِّي شيئًا.

– لن تعود – قال جالاوز – إلا على متن جواد حامل سلاحي هذا.

– لك جزيل الشُّكر –قال الفارس– لكن قبل أنْ ننصرف لابد لك من أنْ تعرف فضل هذه النَّافورة التي لا يقف أمام قوة مائها أيُّ سمٍّ في هذا العالم مهما كانت قوته، وفي مراتٍ كثيرة تفد إلى هنا دوابُ عديدةٌ قد تسمَّمت، فتعود إليها

عافيتها، هذا فضلاً عن كل سكان هذه المنطقة الذين يفدون إلى هذه النَّافورة ليتعافوا من أمراضهم.

– حقا –قال جالاوز– إنَّها المعجزة، وأنا أريد أنْ أشرب من هذا الماء.

– ومن عساه أنْ يفعل غير هذا ؟ –قال فارس النَّافورة– فإن كنت في مكانٍ آخر فسوف تأتى بحثًا عن هذه المياه.

وهنا ترجَّل جالاوز، وقال لحامل سلاحه :

– ترجَّل حامل السِّلاح.

وأسند سلاحه إلى إحدى الأشجار؛ فقال فارس النَّافورة :

– اذهبا كي تشربا، وأنا سأحرس الجواد.

ذهبا إلى النَّافورة ليشربا، وفى هذه الأثناء وضع الفارس خوذته، وحمل الدِّرع والرُّمح والأسلحة التى تركها جالاوز، وامتطى ظهر الجواد، ثم قال :

– أيُّها الفارس، إنى ذاهبٌ، وابق أنت حتى تخدع شخصاً آخر.

وهنا رفع جالاوز –الذى كان يشرب– وجهه، ورأى كيف انصرف الفارس، وقال :

– حقًا أيُّها الفارس، إنَّك لم تخدعنى فحسب، لكنَّك غدرت بى، وهذا ما سأعلِّمك إيَّاه حين ألقاك.

– لنرجئ هذا – قال الفارس – إلى حين تعثر على جوادٍ وأسلحةٍ أخرى يمكنك أنْ تنازلنى بها.

وانتهر الجواد، وسار فى طريقه.

بقى جالاوز يتملَّكه غيظٌ شديدٌ، وبعد أنْ فكَّر مدَّةً، امتطى جوادًا، وسار فى نفس الطَّريق التى سار فيها الفارس، ثم وصل إلى حيث يتفرَّع الطَّريق فى ناحيتين، فمكث هناك بعض الوقت، فما كان يدرى أىَّ الاتجاهين يسلك، ثم رأى فتاةً قادمةً من أحد الاتجاهين تمتطى جواداً مسرعًا، انتظرها حتى وصلت إلى مكانه، ثم سألها :

– أيَّتُها الفتاة، هل رأيت صدفة فارسًا يمتطي جوادًا، ويحمل درعًا أبيض وزهرةً حمراء؟

– أو قد خرجت في طلبه؟ – قالت الفتاة.

أجابها جالاؤر قائلاً :

– نعم، فما يحمله من جواد وأسلحة هي ملكٌ لي، وأرغب في استعادتها إنْ استطعت، فقد سلبني إيَّاها بطريقةٍ دنيئةٍ.

– كيف سلبك إيَّاها ؟ – قالت الفتاة.

حكى لها كيف تمَّ ذلك.

– إذنْ، ماذا أنت فاعلٌ له وما معك سلاح ؟ –قالت الفتاة– فحسب ما أرى، لم يسلبك أسلحتك كي يعيدها إليك ثانيةً.

– لا أرغب – قال جالاؤر – إلا في أنْ ألتقي به.

– إذا ما منحتني هبةً – قالت هي – سأجعلك تلاقيه.

وهنا وعدها جالاؤر بذلك، لقد كان يتشوَّق لرؤية الفارس والحديث إليه.

– والآن اتبعني – قالت الفتاة.

وعادت من حيث أتت، وسلكت طريقها يتبعها جالاؤر، غير أنَّ الفتاة سبقته بعض الشَّيء، لأنَّ جواده ما كان يسير بسرعةٍ، لأنه كان يحمل على ظهره كلا من جالاؤر وحامل سلاحه، فسار ما يقرب من ثلاثة فراسخٍ لم يكن يراها فيها، وما إن تجاوز غابة أشجارٍ كثيفةٍ حتَّى رأى الفتاة قادمةً نحوه، فمضى إليها، لكن الفتاة عادت إليه بخدعةٍ، فقد كان الفارس صديقها، فأخبرها كيف تهدي جالاؤر، حتى يتمكَّن من الاستيلاء على ما لديه من بقية سلاح. دخل الفارس إلى خيمةٍ مدجَّجًا بالسِّلاح كما كان، وقال للفتاة أنْ تأتي به إلى هناك، حيث يصبح بمقدوره ودونما

خطر أنْ يقتله، أو يسخر منه. أخذت الفتاة جالاوِر إلى الخيمة -كما سمعتم- وحين وصلا، قالت الفتاة:

- هنا يقبع الفارس الذى أتيت فى طلبه.

تـرجّل جـالاوِر، وذهـب إلى الخـيمة، وهنا قال الفارس، الذى كان واقفاً بباب الخيمة :

- ما حللت أهلا، ولا نزلت سهلاً، إذن عليك أن تسلِّم أسلحتك وإلا قتلتك.

- حقا -قال جالاوِر- فما أستبعد شيئًا عن فارسٍ خائنٍ مثلك.

رفـع الفـارس سـيفـه ليضرب به جالاوِر، لكنَّه اتقى هذه الضربة، نظراً لما تميَّز به من السُّرعة والقوة، ولما خابت ضربة الفارس التى ذهبت سدى، سدَّد إليه جـالاوِر ضـربةً أصابت خوذته وجذبه، منها جذبةً شديدةً فنزعها عن رأسه، وطرحه على الأرض ممـدداً. وهنا صـاح الفـارس بأعلى صوته طالبا النَّجدة من صديقته، التى -حين سمعت نداءه- أقبلت على جناح السُّرعة إلى الخيمة، ثم صاحت بأعلى صوتها :

- قف مكانك أيُّها الفارس، أهذا هو ما وعدتنى به.

ولكن جالاوِر ضربه ضربة غيظٍ تملَّكه بحيث لم يعد يجدى معها الطبيب نفعًا. وحين رأته الفتاة يصارع الموت، قالت :

- ياحسرتى، لقد تأخرت كثيراً، حاولت أنْ أخدع آخر فخدعت نفسى!

ثم قالت لجالاوِر :

- آه أيُّها الفارس، ستموت شرَّ ميتةٍ، فقد قتلت أفضل شيء أحببته فى هذا الوجود ! سوف أقتـلك عـوضًا عنه، فما طلبته منك من وعدٍ، سـأجعلك تدفعه بحيث لا تملك للموت دفعًا، مهما أوتيت من قوةٍ، وإذا لم أحصل على هذا منك، فسأشنع عليك، وأسبُّك فى كل مكان.

أجابها جالاوْر قائلاً :

- لو كنت أدرى أنَّك ستحزنين كلَّ هذا الحزن ما قتلته، رغم أنَّه كان يستحق الموت، وكان عليك أنْ تسعفيه من قبل.

- لقد أخطأتُ - قالت هي- وسأصلح هذا الخطأ، وسأجعلك تقدم حياتك عوضًا عن حياته.

امتطى جالاوْر جواده، وحمل وصيفه السِّلاح، ثم رحلا عن المكان، وبعد أن ابتعد مسافة فرسخٍ التفت يمنةً فرأى الفتاة قادمةً خلفه، ولما بلغته قال لها :

- سيدتي الفتاة، إلى أين تريدين الذَّهاب ؟

- أريد الذَّهاب معك -قالت هي- حتى أصل إلى المكان الذى تسلمنى فيه ما وعدتني، وأقتلك شرَّ قتلةٍ.

- من الأفضل قال جالاوْر - أنْ تطلبي منِّى شيئًا آخر غير هذا الذى تطلبين، وليكن لك ما تشائين.

- شيئًا آخر؟! هذا لن يكون -قالت الفتاة- فلن أرضى بغير روحك عوضًا عن روحه، أو تظلَّ خائنًا ورجلاً مزيَّفًا.

هكذا سار جالاوْر في طريقه والفتاة معه، وما كانت تفعل شيئًا آخر سوى سبِّه وشتمه. وبعد ثلاثة أيَّام دخلوا غابة تدعى أنجابوتا.

والآن يكف المؤلف عن الحديث حول هذا الموضوع -ليعود فيستأنف الكلام فيه فى حينه ووقته- ويعود مرَّةً أخرى إلى أماديس، والذى ما إن انفصل عن فتيات أورجاندا كما روينا لكم- حتى سار إلى منتصف النَّهار، وبخروجه من غابة كان يسير بين أشجارها وجد نفسه وسط منطقةٍ سهليةٍ، رأى فيها قلعةً جميلةً، ثم رأى عربةً تسير فى السَّهل، أكبر وأجمل عربة رآها فى حياته، يجرها اثنا عشر جوادًا، ومغطاة من أعلى بقماشٍ من الحرير الثمين أحمرِ اللون، يوارى ما بداخله حتى لا يكاد يراه أحدٌ،

جاءت العربة يحرسها ثمانية فرسان مدجَّجون بأغلى وأفضل أنواع السِّلاح من كلِّ ناحيةٍ، وما إن وصل أماديس إليها، حتى خرج إليه فارسٌ، فقال له :

– ابتعد عن هنا –سيدى الفارس– ولا تتجرأ على الوصول إلى هناك.

– ما أتيت إليكم أبتغى شرًا – قال أماديس.

أيًا كان الأمر – قال الفارس – لا تحاول الاقتراب، فما أنت محقٌ لترى ما بداخل العربة، وإذا ما أصررت على ذلك، فسوف يكلفك حياتك، إذ عليك أن تدخل فى عراكٍ معنا، فمعنا من بمقدوره منازلتك وحده، وإنْ كنَّا جميعًا يدٌ واحدةٌ.

– لا أدرى عن طيبتك، غير أنَّنى –إن استطعت– مصممٌ على رؤية ما بداخل العربة.

شهر سلاحه، وأقبل عليه فارسان كانا فى المقدِّمة، كما هاجمهما هو الآخر. ضربه أحدهما في درعه فكسر رمحه، وأمَّا الآخر فخابت ضربته. أسقط أماديس ذلك الذى هاجمه، دونما هوادةٍ، وبالعودة مرَّة أخرى إلى ذلك الذى تخطَّاه، هاجمه هجومًا مريرًا، حتى أسقطه والجواد على الأرض، ولما أراد اللحاق بالعربة، هاجمه فارسان آخران من فوق جوادين مسرعين، وأقبل هو الآخر على ملاقاتهما، ضرب أحدهما ضربةً شديدةً، لم تردها عنه أسلحته التى تدرَّع بها، وضرب الآخر ضربةً مؤلمةً أصابت خوذته، وجعلته يعانق رقبة جواده، حيث خرَّ مغشيًا عليه. وحين رأى الفرسان الأربعة أنَّ رفاقهم قد هُزموا من قبل فارس واحدٍ، أصابهم رعبٌ شديدٌ لهذا العجب الذى يرون، وتحرَّكوا دفعةً واحدةً لمواجهة أماديس وضربه، ولكن قبل قدومهم إليه كان قد أوقع الآخر على الأرض، فضربه الأربعة، فجاءت ضربة اثنين منهما لتصيب درعه، وأمَّا ضربة الاثنين الآخرين، فقد كان الفشل من نصيبها، وهنا أقدم أماديس على الذى كان يتقدَّمهم ليضربه بالسَّيف، وأقدم عليه الآخر بكل عزمٍ وقوَّةٍ، فتلاقيا بدرعيهما وخوذتيهما فى حماسٍ شديدٍ، فسقط الفارس من فوق جواده فاقد الوعى لم يدر عن نفسه شيئًا، وهجم عليه الثَّلاثة الآخرون فأشبعوه ضربًا، وقام أماديس بنزع

السَّيف من يد الذى كان يحمل الرُّمح وضربه ضربةً قويةً، فانتزعه منه، ثم سددَّ ضربةً إلى أحدهم فأصابت حلقه، حتى خرج نصل السَّيف وقبضته من العنق، فأرداه على الأرض قتيلاً. وبعد ذلك توجَّه مسرعًا صوب الاثنين الآخرين، وسددَّ ضربةً مؤلمةً إلى أحدهما أصابت خوذته، فأطاحت بها عن رأسه، وهنا رأى أماديس وجهه فوجده رجلاً عجوزًا فتألمَّ لحاله، ثم قال :

– حقا – سيدى الفارس – من الواجب أنْ تدع هذا الذى أنت فيه، فإذا لم تكن إلى الآن قد حققَّت مجداً، فمن الآن فصاعداً لن يساعدك السِّن على ذلك.

قال له الفارس :

– صديقي، الأمر على عكس ما ترى، فمن المناسب أنْ يكسب الشَّباب مجداً وشرفًا، وعلى الشِّيوخ الحفاظ عليهما قدر الاستطاعة.

ولما استمع أماديس إلى دوافع الشَّيخ، قال :

– إنَّنى أفضل قولك أيُّها الفارس، على ما قلته أنا.

وبينما يتناظران رفع أماديس عينيه؛ فرأى الفارس الآخر يهرب بسرعة –ما أمكن ذلك جواده– صوب القلعة، ورأى الآخرين الذين تمكَّنوا من النُّهوض واللحاق بجيادهم، ثم ذهب إلى العربة، ورفع السِّتار الحريرى، ومدَّ عنقه داخله، فرأى أثرًا جنائزيا من المرمر، وعلى غطائه صورة لملك على رأسه تاج، مشقوق من الرَّأس حتى العنق، ورأى سيدةً جالسةً في فراشها، وطفلةً بجوارها، وقد بدت له أجمل بنت رآها في حياته، ثم قال للسَّيدة :

– سيدتي، لماذا قد شق وجه هذه الصورة ؟

نظرت إليه السيدة فرأته شخصاً غريبًا عن الفرسان المصاحبين لها، فقالت له :

– ما هذا، أيُّها الفارس ؟ من ذا الذى أمرك بالنَّظر إلى هذا ؟

– أنا؟! –قال أماديس– لقد رغبت في أنْ أرى ما تحملونه هنا بالدَّاخل.

- وماذا عن فرساننا؟ وماذا فعلوا هناك ؟ قالت هي.

- لقد ألحقوا بي ضرراً أكثر من النَّفع - قال هو.

هنا رفعت السَّيدة القماش فوجدت بعض الفرسان قد فارق الحياة، وبعضهم الآخر يسير خلف الجياد؛ ففزعت لهذا الأمر، ثم قالت :

- آه، أيُّها الفارس، ملعون الوقت الذى ولدت فيه، إن كنت قد فعلت هذه الأفعال الشَّيطانية!

- سيدتي -قال هو- لقد هاجمني فرسانك، وإذا ما رأيت فأجيبيني عمَّا سألتك عنه.

- ليكن الله في عوني -قالت السَّيدة- لن تعرفه منِّي، فقد أهنتني ودنَّست شرفي.

وحين رآها أماديس وقد تملَّكها كل هذا الغضب رحل عنها وسلك طريقه الذى كان يتبعه من قبل. أدخل فرسان العربة موتاهم داخلها، أمَّا هم فقد امتطوا جيادهم والخزى يملؤهم متوجِّهين صوب القلعة. سأل القزم أماديس عما رآه في العربة؛ فأخبره أماديس بما رآه، لكنَّه لم يتمكَّن من معرفة شيءٍ من السَّيدة.

- لو أنَّها كانت فارساً مسلحًا -قال القزم- لأخبرتك به فى التو.

صمت أماديس، وسار فى المقدِّمة آخذا طريقه، وما إن قطع مسافة فرسخٍ حتي رأى الفارس العجوز الذى صرعه من قبل قد أتى مسرعًا خلفه، وصاح بأعلى صوته يريده أنْ ينتظره. وقف أماديس فى مكانه، ووصل الفارس مجرَّدا من السِّلاح، ثم قال :

- سيدى الفارس، آتي إليك بأمرٍ من السَّيدة التي رأيتها بالعربة، فهي تريد أنْ ترجع عن عدم اللياقة التى تحدَّث بها معك، وترجوك أنْ تبيت فى القلعة هذه الليلة.

- سيدى الفاضل - قال أماديس - لقد رأيتُها والحزن يتملَّكها لما جرى بيني وبينكم، ولسوف يكون مثولى أمامها مدعاة لهمها وحزنها أكثر من متعتها وفرحها.

– صدِّقني –سيدى الفارس– سيكون في عودتك إليها مدعاةً للسُّرور والفرحة.

ولما أن رآه أماديس في سنٍ لا تسمح له بالكذب، ورأى الطريقة التي ظلَّ يرجوه بها العودة، عاد معه متحدِّثًا معه وسائلاً إيَّاه ما إذا كان يعرف سبب شقِّ رأس الصورة التي بصحبتها، لكنه لم يرد أنْ يعلمه إياه. حين وصلا إلى القلعة، أعرب الفارس عن رغبته في أنْ يتقدَّم هو حتى تعلم السَّيدة بقدومه. سار أماديس ببطءٍ حتى وصل إلى الباب، فوجد فوقه برجا به نافذةٌ أطلَّت منها السَّيدة وطفلتها، فقالت له السَّيدة :

– ادخل سيدى الفارس، فأشكر لك كثيرًا حضورك إليَّ.

– سيدتي –قال أماديس– كم أنا سعيدٌ أنْ أدخل عليك السَّعادة قبل الضِّيق والغيظ!

ثم دخل إلى القلعة، وما إنْ تقدَّم حتى سمع جلبةً لأناسٍ كثيرين في أحد القصور، ثم خرج منه فرسان مدَّججون بالسِّلاح، وآخرون من المشاة.

فقالوا له :

– توقَّف، أيُّها الفارس، فأنت مأسور، وإلا فستلقى حتفك.

– حقًا –قال أماديس– لن أقع أسيرًا لأناسٍ خائنين عن طيب خاطرٍ منِّي.

ربط خوذته، ولم يتمكَّن من ارتداء الدِّرع بسبب الهجوم السَّريع عليه، وبدأوا يكيلون له الضَّربات من كلِّ جانبٍ، لكنَّه بعد أنْ انتهر جواده، أخذ يدافع عن نفسه دفاعًا مريرًا: فأوقع تحت قدميه أولئك الذين طالهم بحدِّ السَّيف القاطع، ولما وجد نفسه في ورطةٍ لكثرة مهاجميه، فرَّ هاربًا صوب كوخٍ أو خصٍ كان بالحظيرة الواسعة، وهناك أظهر روعةً في الدِّفاع عن نفسه، ورأى كيف أوقعوا القزم وجندالين في الأسر، فواتته شجاعةٌ أكبر من ذى قبل للدِّفاع عن نفسه، لكنه حين رأى النَّاس يكثرون من حوله ويسدِّدون إليه الضَّربات من كل جانب حتى أوقعته على الأرض عدَّة مرات، لم يتمكن عندها من الإفلات من الموت بأيَّة طريقةٍ، فإنهم لن يحملوه إلى السِّجن لأنَّه قتل ستَّة

أفرادٍ من الفرسان الذين هاجموه، وجرح غيرهم الكثير. لكنَّ عناية الله قد أتت تنقذه في هذه اللحظة، إذ إنَّ الطفلة الجميلة التي كانت تشاهد المعركة، ورأته يقوم بأشياء غاية في الغرابة قد بدأت تحنو عليه، ونادت على إحدى الفتيات، وقالت لها :

- صديقتي، لقد أودعَتْ فيَّ شجاعة ذلك الفارس الكبير شفقة ورحمة عليه، ولكم أودُّ الموت لكلِّ هؤلاء الرِّجال من خاصتنا إلا هو، ولتأت معي.

- سيدتي - قالت الفتاة - ماذا تودِّين أنْ تفعلي ؟

- أطلقي سراح أسودي -قالت الطِّفلة- وليأكلوا أولئك الذين يضيقون الخناق على أفضل فارسٍ في الوجود، وأنا آمرك كواحدةٍ من أتباعي أنْ تفكي قيودهم، فلن يكون بمقدور أحدٍ غيرك أنْ يقوم بهذا، ولا أودُّ أنْ يعرف أحدٌ بهذا الأمر، وأنا سوف أخرجك من هذا المأزق.

- عادت الطِّفلة إلى حيث توجد السَّيدة. أمَّا الفتاة فقد ذهبت لتفك الأسود من معاقلها، كان هناك أسدان في غاية الشَّراسة، مقيدان بالسَّلاسل خرجا إلى الحظيرة الواسعة، وصاحت الفتاة للموجودين بأنْ يحترسوا منهما، قائلةً بأنَّ الأسدين هما اللذان قد أقدما على كسر قيودهما، وقبل أنْ يتمكَّن الحاضرون من الفرار، لحق الأسدان ببعضهم مخالبهما، فقطعا من أجسادهم ما طالته.

وحين رأى أماديس النَّاس تفرُّ عبر السُّور والأبراج، وأصبح حرًا من مضايقتهم له، وبينما أخذ الأسدان يغرسان مخالبهما في كل من وُجِدَ أمامهما، فرَّ سريعًا قدر استطاعته إلى باب القلعة، وحين أصبح خارجها أغلق الباب خلفه، حيث أصبح الأسدان هناك بالدَّاخل، ثم جلس على حجرٍ متعبًا جدًا، كمن خاض معركةً كبيرةً حقًا، كان سيفه عاريًا في يده، وقد كُسِرَ منه ثلثه. كان الأسدان يتحوَّلان من مكان لآخر داخل الفناء وقد أتيا الباب يريدان الخروج، لم يجرؤ أحدٌ من أصحاب القلعة على النُّزول، ولا حتى الفتاة التي كانت ترعاهما، فقد تملَّكهما الغيظ والغضب، وما عادا يسمعان لأحد، وهكذا لم يعد يعرف من بداخل القلعة ماذا يفعلون، وأعلنوا أنَّ السَّيدة ترجو الفارس أنْ يفتح الباب، معتقدةً أنَّه سوف يفعل هذا من أجلها قبل أيِّ إنسانٍ

آخر لكونها امرأة، لكنَّها حين تذكَّرت عدم اللياقة التى تصرَّفت بها معه من قبل، لم تجرؤ على أنْ تطلب منه معروفًا، غير أنَّها ما وجدت غير هذا من وسيلةٍ فأطلَّت من النَّافذة، وقالت :

- سيدى الفارس، بما أنَّنى قد أخطأت فى حقك خطأً شنيعًا دون دراية منِّى، فليتغلب تأدبك وفضلك على أخطائنا، وإذا ما تفضلت، فافتح الباب للأسدين، لأنَّه فى ذهابهما إلى الخارج نصبح نحن بلا خوفٍ ودون ما خطر، وأخبرك بأنَّ نيتى ورغبتى ما كانت سوى أنْ أدعك أسيرًا فى سجون هائلة.

أجاب أماديس بكلماتٍ وديعةٍ :

- هذا -سيدتى- ما كان له أنْ يحدث بهذه الطَّريقة التى بدرت منك، فأنا لك عن طيب خاطر، كما أنَّنى كذلك لكلِّ السَّيدات والفتيات اللاتى لا غنى لهن عن خدمتى.

- إذنْ سيدى -قالت هى- ألن تفتح الباب ؟

- لا، بإذن الله -قال أماديس- لن يكون لك منِّى هذا التَّأدب.

- ابتعدت السَّيدة عن النَّافذة باكيةً، فقالت له الطِّفلة الجميلة :

- سيدى الفارس، يوجد هنا بعض النَّاس الذين لا ذنب لهم فى الشَّر الذى لحق بك.

تأثر أماديس كثيرًا لكلامها، وقال :

- صديقتى الجميلة، أتريدين أنت أنْ أفتح الباب ؟

- سأكون شاكرةً لك هذا الصَّنيع - قالت هى.

- ذهب أماديس ليفتح الباب، وقالت الطِّفلة :

- سيدى الفارس، انتظر قليلاً، وسأقول للسَّيدة أن تعقد بينك وبين هؤلاء الموجودين هنا هدنةً.

زاد تقدير أماديس للفتاة، ورآها من ذوات الرَّصانة والرَّأي، حيث إنَّ السَّيدة قد أكَّدت وقالت إنها سوف تلقى بجندالين والقزم في غياهب السِّجن. وقد أمر الفارس العجوز -الذي سمعتموه- أماديس بأنْ يحمل معه درعًا ودبوسًا حربيا؛ كي يتمكَّن من قتل الأسدين حين خروجهما من الباب.

- هذا هو ما أريد - قال أماديس - لا أمر آخر، وليعاقبني الرَّبُّ إذا ما ألحقت بمن مدَّ يد العون لي أيَّ ضررٍ أو أذى.

- حقا سيدي -قال الفارس- فحسنا ما تنسب الوفاء للرِّجال، وسوف تجده عند البوَّاب المتوحشة.

وحينئذ ألقوا بالدِّرع والدبوس، وأدخل أماديس ما تبقَّى من سيفه في غمده، وتدرَّع بدرعه، وحمل الدَّبوس في يده، وتوجَّه صوب الباب ليفتحه. حين أحس الأسدان أن الباب يفتح، أقبلا عليه وخرجا في ثورةٍ عارمةٍ إلى الحقل، وأخذ أماديس جانبًا ثم دخل إلى القلعة، وبعد ذلك نزلت السَّيدة ومن بصحبتها من أعلى، وأتوا إليه وأقبل هو الآخر عليهم، فاستقبله الجميع بكل ترحاب، وأحضروا له جندالين والقزم. هنا قال أماديس للسَّيدة :

- سيدتي، لقد فقدت جوادي هنا، لو أمرت أنْ يقدموا إلى آخر عوضًا عنه وإلا فسوف أمضي مترجلاً.

- سيدي -قالت السَّيدة- انزع عنك سلاحك، ولتمض هذه الليلة معنا، فالوقت متأخِّرٌ، ولا تقلق من ناحية الجواد، فسوف يكون لك، فليس من المعقول أن يذهب فارس مثلك على قدميه.

استحسن أماديس الفكرة، وخلع ملابسه الحربية في حجرةٍ بالقصر، وقدَّموا إليه عباءةً يتدثر بها وحملوه إلى النَّوافذ، حيث كانت السَّيدة والطِّفلة في انتظاره، وحين شاهدتاه على هذه الهيئة تعجبتا لجماله الفتَّان، ولقيامه بأشياء عجيبة وهو مازال في هذه السِّن المبكرة الغضَّة. ونظر أماديس إلى الطِّفلة، التي رآها هي الأخرى في غاية الجمال، ثم قال للسَّيدة.

- أخبريني -سيدتي- لو سمحت، لماذا شققت رأس الشكل الذى كنت تحميلنه فى العربة ؟

- أيُّها الفارس -قالت هى- لو وعدتني بفعل ما يجب تجاه هذا الأمر، أُعلمك إيَّاه، وإلا فلن أفعل ذلك.

- سيدتى - قال أماديس - ليس من الرَّصانة أنْ يلتزم إنسانٌ بفعل مالا يدرى عنه شيئًا، وحين أعلمه، وأجده أمرًا يجب على الفارس الالتزام بفعله، فلن أتخلَّى عن ذلك أبدًا.

قالت له: السَّيدة إنَّ ما تقوله عين الصَّواب، ثم أمرت بأنْ تنصرف الفتيات والسَّيدات وكلٌّ من بالمكان، وقرَّبت الفتاة منها، ثم قالت :

- سيدى الفارس، ذلك الشَّكل الحجرى الذى رأيت صنع تخليداً لذكرى والد هذه الفتاة الجميلة، الذى يقبع داخل الأثر الذى كان موجوداً بالعربة، فقد كان ملكًا متوَّجًا، وحين كان على كرسيه الملكى فى إحدى الحفلات، وصل إلى هناك أحد إخوته، أعرب عن طمعه فى العرش الذى يرى فيه حقًا، لانتمائه إلى الأسرة المالكة، فأخرج عندها سيفًا كان قد خبَّأه تحت عباءته، وضربه فوق التَّاج فشجَّ رأسه على الصورة التى رأيتها هناك مرسومةً، ولأنَّه كان قد خطط لمثل هذه الخيانة فقد أحضر معه العديد من الفرسان، حتى إذا ما فارق الملك الحياة، دون أنْ يترك ابنًا أو ابنةً سوى هذه الطِّفلة الجميلة، أمسك بزمام المملكة فى يده، وحينئذٍ عين هذا الفارس العجوز -الذى أتى بك إلى هنا- حارسًا على الطِّفلة، فهرب بها، وأحضرها إلىَّ فى هذه القلعة، لأنها ابنة أخى، وبعد ذلك حصلت على جثمان أبيها، وفى كل يوم أضعه فى العربة وأخرج به إلى الحقول، وحلفت ألا أريه لأحد إلا إلى من يريد رؤيته بقوة السِّلاح، ورغم رؤيته له فلن أقول له لأسباب التى آلت به إلى هذا الوضع، حتى يعد بالانتقام لمثل هذه الخيانة، وإذا ما كنت أنت أيُّها الفارس الطَّيِّب -بما يمليه عليك الحق والفضيلة- تريد أنْ تستعمل فى هذه القضية العادلة تلك

الشَّجاعة والقوة التي وهبك الله إيَّاها، فستكون أنت حتى أتبع وسيلة أعثر بها على فارسين آخرين وهما يد واحدة في نزال ذلك الخائن وابنيه بشأن هذه القضية، فهم جميعًا في ذلك سواء، لا ينفكون، وسيكونون في المعركة يداً واحدة، إذا ما دعوا إليها.

– سيدتي –قال أماديس– أنت على حقٍ في البحث عن الانتقام من تلك الخيانة الكبرى التي لم أسمع بمثلها قط، وحقًا إنَّ من قام بمثل هذا الجرم لا يجب أنْ يبقى على قيد الحياة دون التَّنكيل به، وإذا ما تمكنت من إقناعهم بالحضور إلى النِّزال فرداً لفرد، فأنا –بعون الله– أهلٌ لذلك.

– هذا ما لن يقبلوه – قالت السَّيدة.

– إذن ماذا يروق لك –قال أماديس– أنْ أفعل ؟

– ابق هنا – قالت السَّيدة – من اليوم ولمدة عام –إذا ما كنت حيًا وحرًا– وفي خلال هذه المدة سوف أبحث عن الفارسين حتى أجدهما وستكون أنت ثالثهما.
– سأفعل ما تطلبين – قال أماديس– عن طيب خاطرٍ، ولا تتعبي نفسك في البحث عنهما، فأنا سأهتم بإحضارهما في ذلك الموعد، وسيكونان عند حسن الظَّن.

قال أماديس هذا ظنا أنَّه سيعثر في هذا الأمر على أخيه جالاؤر وأجراخيس، وبهما يمكن أنْ تواتيه الجرأة على خوض مثل هذا النِّزال، الذي يعد حدثًا عظيمًا.

شكرته السَّيدة والفتاة على هذا جزيل الشُّكر، وطالبتاه بأنْ يبحث عن فارسين جيدين، لأنَّ الأمر يستدعي ذلك، وأنْ يأخذ في الحسبان أنَّ ذلك الملك الشرير وابنيه يتمتَّعون بالشَّجاعة والقوة التي لا مثيل لها في الدُّنيا. قال لها أماديس:

– إذا ما عثرت على الفارس الذي أتمنَّى، فلن أجهد نفسي في البحث عن ثالثٍ، مهما كانت قوة هؤلاء.

– سيدي –قالت السَّيدة– أين ستكون وأين أطلبك ؟

- سـيدتى -قـال أمـاديس- أنـا من بيت الملك ليسوارتى وفارس الملكة بريسينا زوجته.

- والآن - قالت السَّيدة - لنذهب لتناول الطَّعام، فسيكون الطَّعام شهيا بمناسبة هذا الحدث.

دخلوا إلى قصرٍ مشيدٍ حيث لقى فيه كلَّ ترحاب، ولما حان وقت النوم حملوا أماديس إلى غرفةٍ لينام فيها، ولم يكن معه سوى الفتاة التى أطلقت سراح الأسدين، فقالت له :

- سيدى الفارس، هنا توجد من قدمت إليك يد العون، رغم أنك لا تعرفها.

- وما هى هذه المعونة ؟ قال أماديس.

لقد قمت -سيدى- بانتشالك من الموت الذي كان على مقربةٍ منك بفضل الأسدين، اللذين أمرتنى سيدتى الطِّفلة الجميلة بأنْ أفك قيودهما، فأزحت عنك السُّوء الذى أضمروه لك.

تعجَّب أماديس من فطنة طفلةٍ فى مثل هذه السِّن الغضَّة، وقال :

- حقا أيَّتُها الفتاة، فلو عاشت هذه الطِّفلة، ستحظى بميزتين عظيمتين غير متوافرتين لمثلها: فستكون جميلةً فى غاية الجمال وحكيمة جدا.

قال أماديس :

- حقا، فهذا ما أراه، وبلغيها عميق شكرى، ولتجعلنى فارسها.

- سيدى -قالت الفتاة- كم يروق لى ما قلته، ولسوف تفرح كثيرًا بهذا بمجرَّد أن أبوح لها به.

ولما خرجت من الغرفة، أصبح أماديس قابعًا فى فراشه، وجندالين والقزم، اللذان كانا قابعين فى سريرٍ آخر فى مؤخرة فراش سيدهما قد سمعا جيداً الحوار الذى بينهما، ورأى القزم -الذى ما كان يدرى بما بين أماديس وأوريانا- أنَّ أماديس قد

وقع في غرام تلك الطِّفلة الجميلة، ولكونه أصبح مدينًا لها بشيءٍ، سيكون فارسها بلا شك، ولكنّه ما تجرأ على مثل هذا الكلام أمام أماديس، لأنَّه علم جيدًا أنَّه سيضع نفسه آنذاك على حافة الموت -كما سنقص عليكم لاحقًا- ولما أنْ أدبر الليل وأسفر الصُّبح، استيقظ أماديس، وحضر الصَّلاة مع السَّيدة، وسألها عن أسماء هؤلاء الذين سينازلونه؛ فقالت له :

- أما الأب فيدعى أبيسينوس، وأما ابناه، فأحدهما يدعى داراثيون، والآخر دراميس، وثلاثتهم من أمهر الفرسان في استخدام الأسلحة.

- والأرض التي يملكونها -قال أماديس- ما اسمها ؟

- سوبراديسا -قالت السَّيدة- المتاخمة لسيرولويس، ومن الجانب الآخر يحدُّها البحر.

وحينئذ حمل سلاحه، وامتطى ظهر جواد أعطته له السَّيدة، وحين أراد وداع الجميع، حضرت الطِّفلة الجميلة تحمل سيفًا غاليًا في يدها، سيف والدها، ثم قالت :

- سيدي الفارس، خذ هذا السَّيف من أجل حبِّي، واجعله معك طالما لم يتكسَّر، وليكن مدعاة لعون الله لك.

شكرها أماديس مبتسمًا، ثمَّ قال :

- صديقتي، عُدِّيني فارسك الذي يفعل كلَّ ما من شأنه أنْ يكون في صالحك وشرفك.

- سُرَّت الطفلة بهذا كثيرًا، وعبَّرت عنه بصورةٍ واضحةٍ على أساريرها.

كان القزم يرقب كلَّ شيءٍ، فقال :

- حقا، سيدتي، لم تكسبي شيئًا قليلاً حين أصبح هذا الفارس فارسك.

الفصلُ الثَّاني والعشرون

كيف رحل أماديس عن القلعة التي كان فيها مع السَّيدة، وما حدث له في الطَّريق.

ودَّع أماديس السَّيدة والطِّفلة، وسار في طريقه. سار طويلاً دون أنْ يواجه أيَّة مغامرة، حتى وصل إلى الغابة التي تدعى أنجانوثا. كان القزم يسير في المقدِّمة، وفي الطَّريق التي سلكوها أتى فارسٌ وفتاةٌ، وحين اقتربا منه أمسك الفارس بسيفه وأطلق لجواده العنان نحو القزم كي يطيح برأسه. وهنا -وبفعل الخوف الشَّديد- وقع القزم من فوق الجواد، قائلاً :

- أسعفني -سيدي- سوف يقتلاني !

- رآه أماديس، فجرى مسرعًا، وقال :

- ما هذا سيدي الفارس ؟ لماذا تريد قتل قزمي ؟ ليس من الأدب أنْ تمد يدك إلى هذا الرَّجل الضَّعيف، فضلاً عن أنَّه من أتباعي، ولم تطلب منِّي ذلك وفق القانون، فلا تمسُّه بيديك، فأنا سأدافع عنه.

- أن تدافع عنه - قال الفارس - أمر يخفيني ويذلني، غير أنَّني مازلت مصمِّمًا على الإطاحة برأسه.

- إليك سيفي قبل أنْ تفعل هذا - قال أماديس.

تناول كلٌ سلاحه، وتدرَّعا بدرعيهما، وتوجَّه كل منهما إلى الآخر بجواده بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ، وتلاقيا بدرعيهما بكلِّ قوةٍ، فمزقاهما، ومزقا الزرد أيضا، والتحم الجوادان

والفارسان بجسديهما وخوذتيهما، فوقعا كل على جانب وقوعًا مدمرًا، نهضا على أقدامهما بعد ذلك، وبدأ معركة السَّيوف، فجاءت قاسيةً وقويةً فزع منها كل من رآها وحضرها وسار الأمر بين الاثنين سجالاً بهذه الطَّريقة، فما عرف حتى الآن أيُّهما قد أصبح في ضيقٍ من أمره. هكذا ظلَّا يتصارعان ويضرب أحدهما الآخر ضرباتٍ كبيرةً وقاسيةً وقتًا طويلاً من النَّهار، حتى تحطَّم درعاهما وتمزَّق إربًا من كلِّ جانبٍ، وهذا فضلاً عن السُّروج والدُّروع الواقية للرَّقبة، حتى لم يبق فيهما شيءٌ يمكن استخدامه في عمليات الدِّفاع، وهنا أصبح الطَّريق ممهدًا أمام السَّيوف لتصل مرارًا وتكرارًا إلى الأجسام، حيث أصابت الضَّربات خوذتيهما، فما أبقت منهما جانبًا سليمًا، وحين حلَّ التَّعب على الفارسين خرجا من حلبة النِّزال، وقال الفارس لأماديس :

– أيُّها الفارس، دعك من العاطفة التي تشعر بها تجاه هذا القزم، ودعني أفعل به ما أشاء، وبعد ذلك سنرى إصلاح بيننا.

– لا تتحدَّث في هذا – قال أماديس – فعلي حماية القزم بكل الوسائل.

– إذن -قال الفارس- إمَّا أنْ أموت وإمَّا رأس هذا القزم التي طلبتها الفتاة منِّي.

وأمسك بدرعه وسيفه، ثم عاود ضربه في غيظٍ شديدٍ، لأنَّ هذا الفارس أراد بلا داعٍ وبغطرسةٍ منه قتل القزم الذي لم يكن يستحق ذلك، ولكنَّه إذا ما كان شجاعًا، فما وجد الآخر ضعيفًا، لكنه رآه يتمتَّع بشجاعةٍ وقوةٍ، وتضاربا بكلِّ قوةٍ، وحاول كل منهما أنْ يرى الآخر مدى قوته وشجاعته، وهكذا فما كان كل منهما ينتظر لنفسه سوى الموت، إلا أنَّ ذلك الفارس قد أصبح محل إهانةٍ ومعاملةٍ سيئةٍ، حيث خارت قواه، فلم يعد ينازل أماديس بقوته المعهودة. وما إنْ أصبح في هذا المأزق الذي علمتم حتى وصل صدفةً فارسٌ مدجَّج بالسِّلاح إلى مكان وجود الفتاة، وحين شاهد المعركة بدأ يصلِّي قائلاً إنه لم يرْ مثلها منذ أنْ ولد، فهي معركةٌ قويةٌ وحامية الوطيس بين فارسين، ثم سأل الفتاة عما إذا كانت تعرف هذين الفارسين.

- نعم -قالت هي- فأنا التي جمعت بينهما في النِّزال، وما بمقدوري الرَّحيل إلا مسرورةً؛ حيث متعتي الكبيرة تكمن في موت أحدهما، ومتعتي الأكبر موتهما معًا.

- أيَّتُها الفتاة - قال الفارس - ليست هذه برغبةٍ أو متعةٍ طيبةٍ، ولكن توسل إلى الله في هذين الفارسين الطَّيبين، ولكن أخبريني سبب كراهيتك لهما لهذه الدَّرجة.

- هذا ما سأقوله لك -قالت الفتاة- ذلك الذي عليه الدِّرع السَّليم هو أكثر من كان يكره أركالاوس -عمِّي- في هذا الوجود، ورغب في قتله؛ إنَّه يدعى أماديس، وهذا الآخر الذي ينازله يدعى جالاؤر الذي قتل ذلك الرَّجل الذي أحببته أكثر من أيِّ شيءٍ في الدُّنيا، وقد منحني وعداً وعطية، وقد ذهبت في ركابه طلباً لها حيث أتاه الموت، وبما أنَّني قد عرفت أنَّ الفارس الآخر أفضل فارس في الوجود فقد طلبت منه رأس ذلك القزم، وهكذا فإنَّ جالاؤر الشُّجاع -من أجل أنْ يقدِّمها لي- والآخر -دفاعًا عنها- تلاقيا حتى أصبحا على حافة الموت، الأمر الذي يسعدني ويشرِّفني كثيراً.

سمع الفارس هذا الكلام منها، ثم قال:

- لعنة الله عليكِ يامرأة، بما دبرت مثل هذه الخيانة حتى تدفعي إلى الموت أفضل فارسين في الوجود.

أخرج سيفه من غمده، وسدَّد إليها ضربة أصابت عنقها، فأطاحت برأسها تحت أقدام الجواد، وقال:

- خذي هذه الهدية مقابل عمك أركالاوس الذي أودعني ذلك السِّجن القاسي، وأخرجني منه ذلك الفارس الصَّالح.

ثم انطلق إلى ما أمكن للجواد أنْ يحمله، وصاح بأعلى صوته قائلاً:

- توقَّف سيدي أماديس: فهذا هو أخوك جالاؤر الذي خرجت تبحث عنه.

حين سمعه أماديس ألقى بالسَّيف والدِّرع فوق أرض النِّزال، وتوجَّه نحوه قائلاً :

- آه يا أخى، يا للحظ السَّعيد الذى جعلنا نتعارف !

قال جالاوُر :

- آه، يالبؤسى، وسوء حظى، ماذا فعلت ضد أخى وسيدى ؟

ركع أمامه، وطلب منه باكيًا العفو والصَّفح.

رفعه أماديس من الأرض، وعانقه، ثم قال :

- أخى جاء هذا الخطر الذى قاسيته فى مكانه تماما، فقد كان شاهداً على تجربتى لقوتك ومهارتك فى استخدام السِّلاح.

وحينئذ نزع كل منهما خوذته طلبًا للرَّاحة، التى كانا فى حاجة إليها، وقص عليهما الفارس ما قالته له الفتاة وكيف قام بقتلها.

- جزاك الله خيرًا - قال جالاوُر - فالآن أصبحت متحللا من وعودى لها.

- حقًّا سيدى -قال القزم- فلكم يسرُّنى أنا أنك تحلَّلت من الوعد، أكثر من تلك الطَّريقة التى بدأت بها، لكننى تعجبت أكثر من سبب كراهيتها لى؛ فما رأيتها قط.

حكى جالاوُر ما جرى منها ومن صديقها -كما سمعتم- وقال لهم الفارس :

- سيداى لقد جرحتما جراحًا مريرةً، وأرجوكما أنْ تمتطيا جواديكما، ولنذهب إلى قلعتى القريبة من هنا حيث تضمِّدان جراحكما.

- جزاك الله خيراً - قال أماديس - على ما قدمت لنا.

- اسمع سيدى، إنَّنى لمحظوظ حقا أنْ أكون فى خدمتك، فأنت من أخرجتنى من ذلك السِّجن القاسى الفظِّ الذى لم يكن ينجو منه أحدٌ قط.

- أين كان ذلك ؟ - قال أماديس.

– سيدى –قال الفارس– فى قلعة أركالاوس الإنكانتادور، وأنا واحدٌ من ذلك الجمع الكبير الذى خرج من ذلك السِّجن على يديك.

– وما اسمك ؟ – قال أماديس.

– اسمي – قال الفارس – بالآيس، وقلعتى تدعى كارسانتى، ولهذا ينادونى باسم بالآيس دى كارسانتى، وأرجوك كثيرًا سيدى أنْ تذهب معى.

قال جالاوْر :

– لنذهب مع هذا الفارس الذى يحُبك حبا جما.

– لنذهب يا أخى –قال أماديس– إذا ما كان ذلك يسعدك.

وهنا ركب كلٌّ جواده فى أحسن هيئةٍ، ووصلوا جميعًا إلى القلعة، فوجدوا فرسانًا وسيداتٍ وفتياتٍ كثيراتٍ فى استقبالهن، فقدموا لهم أحسن أنواع الضِّيافة، وقال لهم بالآيس :

– أصدقائى انظروا فقد أحضرت إليكم زهرتى فروسية الدُّنيا كلها : أولهم أماديس الذى أخرجنى من ذلك السِّجن القاسي، والآخر أخوه جالاوْر، وقد وجدتهما فى مكان، لو لم يكن الله قد أرسلنى إليهما فيه لقتل أحدهما الآخر، أو قتلا جميعًا، قدموا لهما كل خدمة وتشريف قدر استطاعتكم.

حملوهما إلى غرفةٍ، ونزعوا عنهما ثيابهما، وتركوهما فى فراشٍ وثيرٍ، وقامت كريمات شقيقة زوجة بالآيس بتضميد جراحهما، فقد كانت لهنَّ خبرة فى هذا المجال، غير أنَّ خالتهن قد تقدمتهما، ووقفت أمام أماديس، وشكرته فى تواضع تام لما فعله من أجل زوجها، وإخراجه من سجن أركالاوس، وما إن أصبحا هناك –كما سمعتم– حتى بدأ أماديس يحكى لجالاوْر كيف خرج من بيت ليسوارتى كى يبحث عنه، وقد أخذ العهد على نفسه أنْ يحضره إلى هناك، وتوسَّل إليه أن يذهب معه، فذاك البيت هو أشرف بيوت الدُّنيا، وساكنوه من الفضلاء كذلك.

– أخي وسيدي – قال جالاؤر – سأتبع، وأنفذ كلَّ ما فيه سعادتك، رغم أنَّني قد رأيت أنَّني لن أعرف في هذا المكان حتى تدلَّك أفعالي على ذلك كما حدث معك تماما، أو أنْ أموت في طلبي هذا.

– حقا أخي –قال أماديس– ولذا فلا تتراجع، فشهرتك هناك كشهرتي، إذا ما كانت لي شهرةٌ في طريقها إلى الزَّوال.

– آه، سيدي –قال جالاؤر– بالله عليك لا تقل مثل هذا الأمر الذي لا معنى له، فلا بالعمل وحده، ولا حتى بالفكر يمكن لي أن أبلغ أو أصل إلى قوتك الفائقة !

– لندع هذا الأمر الآن –قال أماديس– فما عندي وعندك لا يجب –وفقًا للمهارة والطيبة التي يتمتع بها والدنا– أنْ يتمثل فيه فارقٌ يذكر.

وأمر بعد ذلك القزم بأنْ يذهب إلى بيت الملك ليسوارتي، وأنْ يقول للملكة على لسانه –بعد أنْ يقبِّل يديها نيابةً عنه– كيف أنَّه عثر على جالاؤر، وبمجرَّد أنْ يتعافيا من جراحهما سيعودان مرَّةً أخرى إلى هناك. همَّ القزم بتنفيذ أوامر سيده، فتنكب طريق بينديليسورا حيث يوجد الملك في ذاك الوقت، وكلُّ فرسانه في صحبته.

الفصلُ الثَّالث والعشرون

حين خرج الملك ليسوارتي ذات يومٍ في رحلة صيدٍ، عثر في إحدى الغابات على أجراخيس، والسيِّد جالبانيس بلا أرض، وأوليباس. عاد الجميع إلى بينديليسورا، حيث استقبل الوافدون الجدد بترحابٍ كبيرٍ وخاصة أجراخيس، الذي كانت محبوبته (أوليندا) موجودةً بالبلاط، أخذ الفرسان الثَّلاثة يتحدثون إلى الملكة وأوليندا ومابيليا أخت أجراخيس وبعد قليل يصل أنجريوتي دي إستراباوس وأخوه؛ فيقصّان لقاءهما بأماديس. وفي النِّهاية، أحاط القزم الملك وبقية الفرسان والسَّيدات علمًا بالمعركة التي دارت بين أماديس وجالاؤر، وآخر الأحداث التي مرَّ بها البطل. أمر الملك بإعداد حفلةٍ كبيرةٍ عند قدوم الأخوين إلى بينديليسورا، وتوسَّل إلى الفرسان جميعا أنْ يظلُّوا معه حتى يأتي ذلك الحين.

الفصلان : الرَّابع والعشرون والخامس والعشرون

بدأ أماديس وجالاوز وبالآيس سيرهما متوجِّهين إلى بلاط الملك ليسوارتي. وعند مفترق الطُّرق وجدوا فارسًا ميتًا تحت شجرة. توقف الأبطال الثَّلاثة عند مفترق الطَّريق، وبعد قليل مر بهم فارسٌ آخر يضرب فتاةً، فتتبعهما أماديس كي يعدّل المعوج. وحين أقبل الليل اعتدى فارس على جالاوز وبالآيس، فارس قد خرج مهزومًا أمام أماديس من نزالٍ وقع بينهما. تتبع بالآيس المعتدى، بينما استسلم جالاوز للنُّعاس الذى غلبه، وحين استيقظ وجد الفارس المقتول قد اختفى من جواره؛ فقرر أنْ يبحث عنه حتى يجده فوجد فتاةً أشارت عليه بأنْ ينتقم لوفاة ذلك الفارس في مقابل أنْ تقوده إلى القلعة التي يوجد فيها الجثمان. أتى عجوز، وأخذ يقص على جالاوز حكاية الموت الغادر الذى لحق بالفارس، وذهب البطل في صحبة فتاتين ترشدانه إلى مكان قلعة بالينجوس -المسئول عن الخيانة- فهزمه. وانتقم هكذا لموت انتيون، فارس مفترق الطُّرق، وهنا وقعت ابنة هذا الفارس براندويتا -التي أنقذها جالاوز- أسيرةً لجمال البطل.

الفصلُ السَّادسُ والعشرون

لحق أماديس بالفارس الذى أهان الفتاة، وقتله، ثم رحل فى التَّوِّ تصحبه الفتاة، غير أنَّ فارسًا آخر قد سلبه إيَّاها من جديد. والنَّدم يتملكه وصل أماديس إلى قلعة جروبيبيسا، وجريساندا. -أعلن أماديس، بعد أنْ هزم العديد من الفرسان- أمام سيدة القلعة عن تراجعه عن الوعد الذى قطعه لأنجريوتى بأنْ يجعل جروبينسيا طوع إرادته، حيث إنَّ الفتاة قد أكدَّت له أنَّ مثل هذا الأمر يأتى على غير مرادها.

الفصلُ السَّابع والعشرون

وقع عراك بين أماديس وجاسينان خرج منه أماديس منتصراً. توسلت جروينسيا إلى البطل ألا يقتل عمها، فأجابها أماديس إلى ما طلبت شريطة أنْ تذهب إلى بلاط الملك ليسوارتي، وهناك سيمنحها عطيةً، كما أمر بأنْ يحضروا إليه الفتاة المخطوفة، التي ما إن رأت الحبَّ الحقيقي الذي يكنُّه لها جانسينان، فضلَّت البقاء إلى جواره. عاد أماديس إلى مفترق الطُّرق حيث انفصل عن جالاور وبالآيس.

الفصلُ الثَّامن والعشرون

بينما يلاحق الفارس المعتدى، قام بالأيس دى كارسانتى بإنقاذ فتاةٍ من بين براثن خمسة لصوصٍ أرادوا اغتصابها. اصطحب الفتاة معه، وبينما هو سائرٌ وجد الفارس الذى خرج يطلبه؛ فهزمه فى معركةٍ دارت بينهما، وعاد إلى مفترق الطُّرق حيث يوجد جالاوز وأماديس. وبعد أنْ تركوا الفتاة فى قلعة أبيها، توجَّه الأبطال الثلاثة إلى بنديليسورا.

الفصلُ التَّاسع والعشرون

كيف عزم الملك ليسوارتي على إعداد بلاط ملكه وما حدث له فيه

كانت الأخبار التي أتى بها القزم إلى الملك ليسوارتي عن أماديس وجالاور مدعاةً لفرحه الشَّديد، وقد عقد العزم على إعداد بلاطه في صورةٍ لائقةٍ ومشرِّفةٍ لم تشهد لها بريطانيا العظمى مثيلاً، وذلك انتظاراً لقدوم جالاور وأماديس وذات يومٍ مثل أمام الملك شخصٌ يُدعى أوليباس يشكو دوق بريستويا، لأنَّه قتل Su Cormano غدراً، وحينئذٍ حدَّد الملك -بعد أنْ استقر الرَّأى عنده من ذوى الرَّأى والمشورة- مدَّة شهرٍ للدوق؛ ليأتي للردِّ على تلك الشَّكاية، وإذا ما أراد فليرسل اثنين من الفرسان كانا يقفان إلى جانب أوليباس، ولما لهما من أصلٍ عريقٍ وحسن سيرةٍ بإمكانهما قول الحقِّ والصَّواب. وبعد ذلك أخطر الملك كبار رجاله بأنْ يأتوا عنده في يوم القديسة مريم من شهر سبتمبر في رحاب بلاطه، وكذلك فقد أخطرت الملكة أيضًا كلَّ السَّيدات والفتيات من علية القوم.

فى الوقت الذى أصبح الجميع يتحدَّثون داخل القصر في سعادةٍ بالغةٍ، عن الأمور التي يجب إعدادها أثناء ذلك الاحتفال، دونما علمٍ أو تفكيرٍ منهم في أنَّه فى مثل هذه الأوقات تأتي الأقدار المتبدلة؛ كي تصيبهم بمكائدها بمثل هذه القسوة، إذ دخلت إلى القصر فتاةٌ غريبةٌ في أبهى زينةٍ، وفتىً آخر أتى فى صحبتها، وما إن نزلت من فوق جوادها حتى سألت عن الملك، الذى ردَّ قائلاً:

- أيَّتُها الفتاة. أنا الملك.

– سيدى –قالت الفتاة– لك هيئة الملك، لكنَّنى لا أدرى إذا ما كنت تحوى بين جوانحك قلب الملوك.

– أيَّتُها الفتاة –قال الملك– هذا ما سوف ترينه الآن، وحين اختبارك لى فى ثانى الأمرين، ستعرفين.

– سيدى –قالت الفتاة– لك أنْ تجيبنى إلى طلبى، ولتتذكَّر هذا الوعد الذى تعدنى به أمام هؤلاء الرِّجال العظماء، فأنا أودُّ اختبار كرم قلبك، وقوته حين تدعونى الضَّرورة لذلك، وقد نما إلى سمعى أنَّك تودُّ إعداد حفلٍ كبيرٍ فى لندن يوم القدِّيسة مريم من شهر سبتمبر، وسوف يحضره عظماء القوم، وأودُّ أنْ أرى إذا ما كنت بحق سيد مثل هذه المملكة العظيمة، والفروسية الشَّهيرة.

– أيَّتُها الفتاة –قال الملك– إنَّ فعلى أدل على قدرتى وعظمتى من القول، وعليه، فمتعى وسعادتى تكون بقدر ما يأتى إلى قصرى من عظماء الرِّجال.

– سيدى، قالت الفتاة إذا ما وافق القول العمل كما تقول، فإنَّ هذا لمن دواعى سرورى، وأستودعك الله.

– اذهبى فى رعاية الله أيَّتُها الفتاة – قال الملك.

هكذا حيَّاها كلُّ الفرسان.

أخذت الفتاة طريقها، وبقى الملك يتحدَّث مع فرسانه، ولكنَّنى أقول لكم إنَّ الجميع قد أسف للوعد الذى قطعه الملك على نفسه، وذلك خوفًا منهم أنْ تعرض الفتاة شخصه لخطرٍ كبيرٍ، وقد كان الملك أهلاً للوفاء بالوعد، فمهما كان ثقيلاً. فلابد أنْ يفى به حتى لا يتعرَّض للخذلان، فقد كان محبوبًا من الجميع، الذين تمنَّوا أنْ يعرِّضوا أنفسهم للإهانة والحرج قبل أنْ يروه فى مثل هذا الموقف، ولم يكن بالنِّسبة لهم أمرٌ هينٌ أنْ يقدِّم عظيم من النُّبلاء وعداً –دون تشاورٍ– لسيدةٍ غريبةٍ، ويصبح ملزمًا بالوفاء به دون أنْ يتأكَّد من طلبها منه.

وبعد أن دار الحديث بين الحاضرين في مواضيع شتَّى، وأرادت الملكة الانصراف، دخل ثلاثة فرسان من باب القصر، اثنان منهم مدجَّجان بالسِّلاح، والثَّالث لا سلاح معه، وكان قوى البنيان، وحسن الهندام، اشتعل رأسه شيبًا، غير أنَّه يمتلئ حيوية ويفيض جمالاً رغم سنِّه. كان يحمل أمامه صندوقًا صغيراً، وسأل عن الملك، فأروه إيَّاه، وحينئذ نزل من فوق جواده، وأدى التَّحية للملك والصُّندوق في يده، وقال له :

– حفظك الله، سيدى، وحفظ أمير الدُّنيا الذى قطع على نفسه أفضل عهدٍ، إذا مازال يحفظه.

قال الملك :

– وأىُّ عهد هذا؟ ولماذا تقول لى هذا الكلام ؟!

– لقد أخبرونى – قال الفارس – بأنَّكم تريدون إقامة حفلٍ على أعلى مستوى ممكن، وبما أنَّ قلَّةً من الأمراء الذين يقيمون مثل هذا الاحتفال، فلابد أنْ يكون حفلك أعظم وأولى بالمدح من حفلهم.

– حقًا. أيُّها الفارس – قال الملك –، سأفى بهذا العهد مهما طالت بى الحياة.

– ليمنحك الله العمر حتَّى تفى به –قال الفارس – وحين استمعت إلى أخبار تحضيرك لحفلٍ فى لندن يحضره عظماء القوم، فقد أحضرت معى إلى هنا ما يتناسب مع رجلٍ مثلك، وحفلٍ كهذا.

وحينئذٍ همَّ بفتح الصُّندوق، ثم أخرج منه تاجًا ذهبيًا جيد الصُّنعة، مزينًا بأحجارٍ ولآلئ أدهش كلَّ من رآه من الحاضرين، وبدا في صورة تاجٍ لا يحقُّ لأحدٍ آخر غير هذا الملك أنْ يضعه على رأسه، نظر الملك طويلاً إلى التَّاج وتملَّكته رغبةٌ فى امتلاكه، وقال له الفارس :

– صدِّقنى –سيدى– فإنَّ هذا التَّاج لا يعرف قدره أحدٌ من الصُّناع المهرة، الذين يجيدون شغل المسبوكات الذَّهبية والتَّرصيع بالحجارة.

- كان الله فى عونى - قال الملك - فلى رغبةٌ فى امتلاكه.

- وحتَّى يكون التَّاج -قال الفارس- فى شغله وجماله مثار دهشةٍ، أتى مزوَّداً بشيءٍ عظيم القدر يمكن أنْ يضمن للملك الذى يضعه على رأسه البقاء والتَّشريف طويلاً، وهكذا حدث مع ذلك الذى صُنع هذا التَّاج من أجله حتى وفاته. ومنذ ذلك الحين، وحتى الآن لم يضعه ملكٌ آخر على رأسه، وإذا ما كنت ترغب فى امتلاك هذا التَّاج، فسأقدِّمه لك نظير أمرٍ فيه الحفاظ على حياتى، التى باتت مهدَّدةً بالانتهاء.

هنا قالت الملكة :

- حقًّا، سيدى، إنَّه لمن المناسب لقدرك أنْ تحوز هذه الجوهرة، وفى مقابلها هب الفارس كلَّ ما يطلب.

- وأنت سيدتى، لتشترى منِّى هذه العباءة الجميلة التى أحضرتها معى فى هذا الصُّندوق.

- نعم، سأشتريها - قالت الملكة - طواعيةً.

وحينئذٍ أخرج من الصُّندوق عباءةً، أعظم وأفضل ما يمكن أنْ تقع عين عليه، فضلاً عن الأحجار واللالئ التى باتت تزيِّنها، رُسِمتْ عليها كلُّ أنواع الطُّيور والحيوانات الموجودة على وجه البسيطة، بشكل جعل الجميع ينظرون إليها نظرةً جادَّةً تنمُّ عن دهشتهم.

قالت الملكة :

- بعون الله أقول -يا صديقى- إنَّه يبدو لى أنَّ هذه العباءة لم تخرج إلا من يد ذلك الصَّانع الأعظم ربِّ العالمين، الذى هو على كل شئ قدير.

- حقاً سيدتى - قال الفارس - لكن لك أنْ تُصدِّقى أنَّ العباءة هذه قد صُنِعتْ بيد ومشورة إنسانٍ، غير أنَّه من العسير جداً العثور على رجلٍ مثله يقوم بمثل هذا العمل.

ثم قال :

- وأكثر من ذلك، أقول لك إنَّ مثل هذه العباءة تأتي مناسبةً لامرأة متزوِّجة أكثر من أخرى عزباء، فهي تتحلَّى بميزة عظيمة، وما من امرأة تتدثَّر بها ذات يــوم حتى لا يكون بينها وبين زوجها كدرٌ أو كربٌ.

- لو أنَّ ذلك حقًّا -قالت الملكة- لما قُدِّرت هذه العباءة بثمنٍ.

- ليــس لـك أنْ تتـأكَّـدى من صـحـة هذا الأمر طالما أنَّك لم تتدثَّرى بالعبـاءة - قال الفارس.

وهنـا، أبــدت الملكة -التى تحبُّ الملك حبا جمــا- رغبةً فى امتلاك العباءة، حتى لا يعرف الكرب إلى حياتهما سبيلاً. ثم قالت :

- أيُّها الفارس، سأعطيك كلَّ ما تريد فى مقابل هذه العباءة.

وقال الملك :

- اطلب مقابل العباءة والتَّاج ما يحلو لك.

- سيدى -قال الفارس- لابد لى أنْ أمثل أمام من أصبحت أسيراً عنده، وليس لدى وقتٌ للبقاء، أو حتَّى لمعرفة ثمن هذه الهدايا، غير أنَّنى سأكون معك فى احتفالات هذين، وعليه فالتَّاج لك والعباءة للملكة، شريطة أنْ تعطينى ما أطلبه منك، أو تعيدهما إلىَّ، وبعد التَّجربة، فأنا على يقينٍ من أنَّك ستدفع لى ثمنًا جيداً مقابلهما.

قال الملك :

- أيُّها الفارس، الآن سترى أنَّك ستحصل على ما تطلب، أو نردُّ عليك العباءة والتَّاج.

قال الفارس :

- سيداتى وسادتى، أو قد سمعتم هذا الذى وعدنى به الملك والملكة، إما أنْ يعيدا إلىَّ عباءتى وتاجى، وإمَّا أن يقدما لى ما أطلب وأتمنَّى ؟

- سمعناه جميعاً - قال الحاضرون.

وهنا ودَّع الفارس الجميع. وقال :

- أترككم في رعاية الله، وأمضي أنا إلى ذلك السِّجن الذى أراه أقسى ما رآه إنسان فى هذا الوجود.

وهنا أقدم أحد الفارسين المسلحين على الإطاحة بخوذته فور وصوله، فبدت عليه أمارات الفتوَّة والجمال، لكن الآخر لم ينزع عنه خوذته، وأطرق برأسه إلى الأرض، فبدا قوى البنية عريض المنكبين، ليس بين الحاضرين بقصر الملك من يضاهيه، وهكذا ذهبوا ثلاثتهم، وبقى التَّاج والعباءة في حوزة الملك.

الفصلُ الثّلاثون

كيف وصل أماديس وجالاؤر وبالأيس إلى قصر ليسوارتى، وما حدث لهم بعد ذلك.

ما إنْ رحل أماديس وجالاؤر عن قلعة الفتاة، وبصحبتهما بالأيس، حتى قطعوا شوطًا طويلاً فى طريقهم، حيث وصلوا دونما صعوبةٍ تذكر إلى قصر ليسوارتى، فاستقبلوا أحسن استقبال من قبل الملك والملكة وكلِّ الموجودين بالقصر، وبصورة لم يسبق لها مثيل لفرسانٍ قدموا إلى هذا المكان : فقد جاء جالاؤر الذى يأتى إلى هنا لأوَّل مرَّةٍ، بعد أن عرف الجميع بشجاعته وبسالته، عن طريق السَّماع، وجاء أماديس وقد تواترت الأخبار السيئة عن موته، إذ كان محبوبًا من الجميع، الذين ظنُّوا استحالة رؤيته حيًا مرّةً أخرى، ولهذا فقد تجمَّع عددٌ كبيرٌ من النَّاس لرؤيته، حتى أنهم ما كانوا يستطيعون فى الطرقات سيرًا، وما قدروا على الدخول إلى ساحة القصر، وأخذ الملك الثلاثة إلى حيث نزعوا عنهم ثيابهم، وحين رآهم النَّاس ولا سلاح على أجسادهم، وقد أظهروا من الجمال والرَّشاقة والشَّباب، لعنوا أركالاوس الذى أراد قتل هذين الأخوين، إذْ ما كان لأحدهما أنْ يعيش بدون الآخر. أرسل الملك يقول للملكة عبر أحد الفتيان أن تحسن استقبال هذين الفارسين، أماديس وجالاؤر، اللذين ذهبا لرؤيتها.. وحينئذ حملهما معه أجراخيس، وقد احتضنهما كلا بذارع، وبدت عليه أمارات السَّعادة بهما، سعادة لا مثيل لها، وذهب معهما إلى غرفة الملكة، ومعه جالبانيس والملك أبران، وحين تجاوزا الباب، رأى أماديس سيدته أوريانا، فارتجف قلبه من الفرحة، ومثل ذلك أصابها أيضًا، حتى بدا ما أصابهما واضحًا

للنَّاظرين وضوح الشَّمس، ولما أن كانت قد سمعت عنه الكثير من الأخبار، فقد ظنَّت أنَّه قد فارق الحياة، وحين رأته سليماً وفرحا، وتذكَّرت الهمَّ والألم اللذين قاستهما من أجله، أجهشت بالبكاء رغمًا عنها، وما إن وجدت الملكة تسير أمامها، حتى كفَّت عن البكاء، وجفَّفت دموعها، حتى لا يراها أحدٌ، لأنَّ الجميع كان مشغولاً برؤية أماديس والفارس الذى أتى معه، أدى أماديس التَّحية للملكة، وأمسك بيد جالاؤر، وقال :

– سيدتى، ها أنت ترين أمامك الفارس الذى أرسلتنى فى طلبه.

– هذا من دواعي سروري وفرحي – قالت الملكة.

رفعته من مكانه، واحتضنته، ثم احتضنت بعده أماديس

قال لها الملك :

– سيدتى، أريد أنْ أقسمهما بيني وبينك.

– ماذا ؟ – قالت الملكة.

– أعطني جالاؤر –قال الملك– ومعروفٌ أنَّ أماديس هو فارسك.

– لك ما شئت سيدى –قالت الملكة– فما طلبت قليلاً، حيث لم تشهد بريطانيا العظمى تقديم مثل هذا العطية، لكن هذا حق، فأنت أفضل ملك تولَّى زمام أمورها.

ثم توجَّهت بالكلام إلى جالاؤر :

– صديقي، الملك يطلبك منِّي، فانظر ماذا ترى ؟

– سيدتي –قال جالاؤر– أرى أنَّه من الواجب أنْ يحصل الملك على أىِّ شيء يطلبه، طالما أنَّ ذلك ممكنٌ، وأنا الآن ملك يمينك لتجعليني في هذه المهمة وفى غيرها، وبرغبة من أخي وسيدى أماديس، الذى لن أفعل شيئًا آخر غير الذى يأمرني به.

– إنه لمن دواعي سروري –قالت الملكة– أنْ تأتمر بأمر أخيك، فبعد ذلك سيكون لي فيك نصيبٌ، أشبه بما لي عند أخيك الذي هو لي.

قال له أماديس :

– أخي وسيدي، لتأتمر بأمر الملكة، كما أرجوه منك، وهو ما يسعدني في هذه اللحظة.

حينئذ توجَّه جالاؤر بالكلام إلى الملكة :

– سيدتي، بما إنَّني أصبحت حرًا من قيود إرادة الغير، التي كان لها سلطان عليَ، فإنني أضع نفسي الآن رهن أمرك، ولك أن تفعلي بي ما يحلو لك.

أخذته من يده، وتوجَّهت إلى الملك قائلةً :

– سيدي، الآن أقدِّم لك جالاؤر الذي طلبته منِّي، وأطلب منك أنْ تحبَّه وفق ما جبل عليه من خير وطيبة، فهو أهلٌ لذلك.

– بحق الله –قال الملك– إنني أرى أنَّه ليس بمقدور أحدٍ أنْ يحبه كلَّ هذا الحبِّ، أو أحداً غيره، فحبه يوازي طيبته وخيريته.

حين سمع أماديس هذا الكلام، نظر إلى سيدته وتنهَّد، غير مبالٍ بما قاله الملك، فوجد أنَّ الحبَّ الذي يكنُّه لسيدته يفوق بكثير ما به من طيبةٍ وخيرٍ، وما يتحلَّى به كل أولئك الذين يتخذون ملابس الفروسية.

وهكذا –كما سمعتم– أصبح جالاؤر من رعايا الملك منذ تلك اللحظة، وما تخلَّى عن ذلك قط مهما كان من أمور أتت بعد ذلك بين أماديس والملك، وذلك كما سنقصُّه عليكم لاحقًا. جلس الملك إلى جوار الملكة، ثم أمرا بأن يمثل جالاؤر أمامهما، حتى يتحدَّث إليه الملك. بقي أماديس مع أجراخيس su cormano، أمَّا أوريانا ومابيليا وأوليندا فقد أصبحن في مكانٍ بعيدٍ عن الأخريات، حيث كن أكثرهن شرفًا وقيمةً. قالت مابيليا لأجراخيس :

- أخي وسيدي، أحضر إلينا ذلك الفارس الذي أحببناه كثيراً.

ذهب أجراخيس وأماديس صوبهن، وبما أنَّ مابيليا تعلم جيداً ما الذي يصلح قلبيهما فقد دسَّت نفسها بينهما، وجعلت أماديس يقف إلى جوار أوريانا، وأجراخيس إلى جوار أوليندا، ثمَّ قالت:

- الآن أجدني وسط أربعة أفرادٍ أحبهم أكثر من أيِّ شيءٍ في الوجود.

وحين وجد أماديس نفسه أمام سيدته، وجد قلبه ينادي، يُمنةً ويُسرةً، هل إلى خروج من سبيل! وقف أماديس شاخصًا بصره تجاه أفضل شيءٍ أحبَّه في الدُّنيا، ثم وصل إليها في تواضعٍ جمٍّ، مدَّت يديها من تحت أطراف العباءة، فأمسكت بيديه، وضغطت عليهما في إشارة منها لارتماء أحدهما بين أحضان الآخر، ثم قالت له :

- صديقي، يا له من هم وألم عانيتهما بسبب ما أتى به ذلك الخائن من أخبار عن نبأ وفاتك؛ صدِّقني فما كانت هناك امرأةٌ قط تعاني مثل ما عانيت من مخاطر. وقد كنت محقةً في ذلك -صديقي وسيدي- لأنه ما من شخص قط أصابه مثل ما أصابني من خسارةٍ في فقداني لك. وبما أنَّني أصبحت أكثر مثيلاتي نصيباً من الحبِّ، فقد شاء القدر أنْ يجعل ذلك النَّصيب من جانب أفضل رجلٍ في الوجود.

وحين استمع أماديس إلى ذلك المديح الموجَّه إليه من قبل سيدته، أطرق بناظريه إلى الأرض، فما واتته الشَّجاعة لكي ينظر إليها، ورآها غاية في الجمال، وهنا أصبح في حالة نفسية أماتت الكلام في فمه، فما استطاع الرَّدَّ. أدركت أوريانا الحالة التي انتابته، بعد أنْ نظرت اليه، فقالت :

- آه، سيدي وصديقي! كيف لي ألا أحبك أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، وكل من يعرفك يحبك ويقدرك ؟! وبما أنَّني أكون من تحبُّها وتقدِّرها أكثر، فأنت عندي في منزلةٍ وقدرٍ يفوقان ما لك عند غيري من النَّاس.

وهنا، وبعد أن هدأ أماديس قال لها :

- سيدتي، ما ذلك الموت المؤلم الذي كنت أكابده كلَّ يوم من أجلك؟! إنَّ ذلك الموت الذي تحدَّثت عنه قبل ذلك، لو أتاني لكان فيه راحتي ومواساتي الكبرى، وإنْ لم يحدث ذلك لتعلَّق قلبي الحزين رغبة في خدمتك، والذي أصبح -أمام تلك الدُّموع المريرة والغزيرة التي انهمرت منه بقوةٍ- يبدي تماسكه، فقد كان فيها هلاكه ودماره، لا لأنه لم يعد يعلم كينونة إشباع رغباته البشرية بقدرٍ كبيرٍ، تلك التي يتركَّز فيها تفكيرك فحسب، وبما أنَّ عظمة حاجته تتطلَّب فضلا أكبر مما يستحقه كي يظلَّ قائمًا معا، في حين يتأخر هذا الفضل، فسوف يلقى النِّهاية القاسية فوراً.

وحين فرغ أماديس من الكلام انهمرت الدُّموع من عينيه تنساب على خدَّيه، دون أنْ يملك لها دفعًا، فقد كان مهمومًا في هذه اللحظة، إذ لم ينفعه الحب الحقيقي الذي ألقى به في بحر الهموم، بذلك الأمل الذي عادةً ما يزودُ به ضحاياه في مثل هذا المأزق، فليس بمستغرب أنْ تذهب عنه روحه في حضرة سيدته.

- آه، يا صديقي! أستحلفك بالله ألا تحدثني - قالت أوريانا - عن موتك، فقلبي يكاد يتوقَّف، كمن لا تتمنَّى أنْ تعيش ساعةً واحدةً بعده، وإذا ما عرفت طعم الحياة، فقد عرفته لأنَّك تحيا فيها. هذا الذي تقول أصدِّقه أنا نفسي بلا أدنى شك، لأنني أحيا فيك، وإذا ما بدا حزنك أكثر من حزني، فليس ذلك لشيء آخر سوى وجود الحبِّ على ما يتمنَّاه قلبانا، أصبح الحبُّ والألم عندك واضح جلي مما هما عندي، ومهما كان الأمر، فإنَّني أعدك بأنَّه لو هداني حظي أو فطنتي إلى وسيلة راحةٍ لك، فستعمل شجاعتي المتواضعة على الإتيان بها، وإذا ما أصابنا مكروهُ منها، فذلك بكره من والدي ووالدتي والآخرين، لا بما لدينا من فائض الحبِّ، حتَّى أصبحنا نحن الآن حائرين، نعاني من مثل تلك الرَّغبات القاسية الشَّديدة، التي تتزايد يومًا بعد آخر.

وحين استمع أماديس لهذه الكلمات تنَّهد من كلِّ قلبه، وأراد الكلام، ولكنه لم يستطع، وبعد أنْ رأته في هذه الحال أخذته من يده، وقرَّبته منها، ثم قالت له :

- صديقي وسيدى، لا تحزن، لأنَّنى سأجعل وعدى لك حقيقةً، وعليه، فلا عليك أنْ تترك هذه الاحتفالات التي سيقيمها والدى، فهو والملكة يتوسلان إليك حضورها، فهما يدركان مدى الشَّرف والرِّفعة اللذين يتوجان هذه الاحتفالات من جرَّاء حضورك.

فى هذا الوعد الذى تعرفون، نادت الملكة على أماديس، ثم أجلسته إلى جوار جالاؤر، وهنا قالت السَّيدات والفتيات -بعد النَّظر إليهما- تباركت يا الله ! لقد خلقتهما فى أحسن تقويم، إنَّهما يفوقان أقرانهما من الفرسان جمالاً وخيريةً، كان الشَّبه بينهما قويًا جدًا، حتى لا يكاد النَّاظر إليهما يفرِّق بينهما إلا بشقٍّ الأنفس، غير أنَّ جالاؤر كان أشد بياضًا من أماديس، وهذا الأخير كان له شعرٌ مجعَّدٌ وأشقر، ووجهه قانٍ بعض الشيء، ومفتول العضلات. هكذا ظلا يتحدَّثان إلى الملكة حينًا من الزَّمان، حتى لوَّحت أوريانا ومابيليا للملكة أنْ ترسل إليها السَّيد جالاؤر، فأخذته من يده، وقالت :

- هاتان الفتاتان تريدانك، وأنت لا تعرفهما، ولتعلم أنْ إحداهما ابنتى، والأخرى ابنة Prima Cormana.

ذهب جالاؤر إليهما، وحين رأى جمال أوريانا الفائق أصابته الدَّهشة، وهداه تفكيره إلى أنه لا يمكن أن توجد على وجه البسيطة فتاةٌ أخرى تفوقها جمالاً، أخذ يفكر متشكِّكًا فى أنَّه تبعًا لطيبة أماديس التى لا تقارن، ورغبته فى العيش فى هذا المنزل أكثر من غيره، لم يكن ذلك إلا لأنه وجد أكثر من غيره الفرصة قائمةً لحبٍّ أشهر وأغلى فتاة في الوجود. تلقَّى تحية الفتاتين، اللتين استقبلتاه بكلِّ ترحابٍ قائلتين له :

- يا سيد جالاؤر، مرحبًا بك.

- أيَّتُها الفتاتان، ما كنت سآتى إلى هنا على مدى خمس سنوات، لولا ذلك الذى أحضر إلى هنا أولئك الذين يتدجَّجون بالسِّلاح، كرهًا أو طواعيةً، فكلا الأمرين يتحقق فى شخصيته أكثر من أىِّ شخصٍ آخر فى العالم.

رفعت أوريانا عينيها، ونظرت إلى أماديس فتنهدَّت، أمَّا جالاؤر، الذى كان ينظر إليها فقد أدرك أنَّ شكه أصبح حقيقةً أكثر مما كان يتوقَّع، ولا يرجع هذا إلى أنَّه شعر بشرٍ آخر، بل لإدراكه أنَّ من حقٍّ أخيه أنْ يحظى بحبِّ أوريانا أكثر من أىٍّ فتىً آخر. وبينما يدور الحديث معهما حول العديد من الموضوعات، وصل الملك، وبقى معهم يضحك ويتكلَّم وقد غمرته سعادةٌ فائقةٌ، حيث أراد الجميع إسعاده والسَّعادة به، حملهم معه، وخرج إلى القصر الكبير، حيث تجمَّع هناك العديد من علية القوم والفرسان، وما إن وجدوا الموائد قد أُعِدَّت، حتى جلسوا يتناولون الطَّعام. وأمر الملك بأن يجلس أماديس وجالاؤر وجالبانيس وأجراخيس على مائدة واحدة، دون أن يشاركهم فيها أىُّ فارسٍ آخر. وهكذا أصبح هؤلاء الفرسان الأربعة مجتمعين على مائدةٍ واحدة، بعد شتاتٍ طويلٍ، عانوا فيه مخاطر وآلام جمَّة فى مختلف المواجهات، فقد قضوا معًا زمنًا طويلاً لما يجمع بينهما من قرابةٍ، وحبٍ ورغم أنَّ جالبانيس لم تكن تجمعه صلة القرابة إلا بأجراخيس، فقد دأب أماديس وجالاؤر على إطلاق لقب العم عليه، فنودى به من قلبهما، كما ناداهما هو الآخر بيا ابنى أخى، الأمر الذى كان مدعاةً لتقديره وتشريفه بقدرٍ كبيرٍ، كما سنرويه لكم لاحقًا.

الفصلُ الحادى والثَّلاثون

كيف ذهب الملك ليسوارتى ليقيم احتفالاته فى لندن

شاءت إرادة الله أنْ ينتقل الملك ليسوارتى من حالٍ إلى حالٍ، فبعد وفاة أخيه الملك فالانجريس Falangris، انتقل الملك ليسوارتى من أمى لاحق له ليصبح ملكًا لبريطانيا العظمى كما شاءت إرادته أيضا -فبيده مقاليد الأمور وتسييرها- أن يتوافد عليه الفرسان والأميرات من أبناء الملوك وغيرهم من أراضٍ غريبةٍ، من ذوى الأصول العريقة، ليصبحوا فى خدمته عن طيب خاطرٍ منهم، فما أصبح أحدٌ يشعر بالسَّعادة والرضى إلا إذا عد نفسه من خاصة الملك، لأنَّ مثل هذه الأمور تصيب الإنسان بالكبرياء والخيلاء لما به من ضعفٍ، وهى أمور تدفع المرء لنكران فضل ذلك الإله المنعم، الذى تفضَّل عليه بنعمه، والله هو الذى دفعه أنْ يرتمى فى أحضان القدر الذى -بعد أنْ وضع له مجموعةً من العراقيل ذهبت بنور ذلك المجد الذى وجد فيه نفسه- رقَّق قلبه، وأصبح رقيقًا فى كلِّ تصرفاته، لأنَّه سار دومًا على نهج الوهاب المنعم دونما التفات إلى الشَّهوات الضَّارة التى تغرى بها مثل هذه النِّعم، وقد استقرَّ على هذه الحال الطَّاهرة العظيمة، ولو أنَّه لجأ إلى عكس ذلك، لحاق به الدَّمار والخطر من كلِّ مكانٍ. أراد الملك أن تكون عظمة مملكته ووضعه الملكى ظاهرين للعالم أجمع، فاتفق مع أماديس وجالاؤر وأجراخيس وجميع الفرسان من ذوى المكانة والرِّفعة أنْ يظلُّوا فى بلاطه، وأمر بأن يحضر كبار رجال ممالكه فى لندن فى غضون خمسة أيَّام ليقيم احتفالات لا يصبح فى مقدور أى إمبراطور أو ملك أنْ يقيم مثلها فى بيته، غير أنَّه فى الوقت الذى ظنَّ فيه أنَّ العالم قد أصبح طوع إرادته، نزلت عليه مصائب الدَّهر، فقد تعرضت ممالكه وأفراده للانقسام، كما سنقصُّ عليكم الآن.

رحل الملك ليسوارتي عن بنيدبليسورا ومعه جميع الفرسان، والملكة برفقة جميع سيداتها وفتياتها متوجهين إلى مكان الاحتفالات؛ حيث سيجتمع شمل الجميع في مدينة لندن، بدأ الناس في عددٍ كبيرٍ، بحيث يصعب إحصاؤهم عداً. كان من بينهم فرسان يتمتَّعون بالفتوة، ومدجَّجين بالسِّلاح، وفي أبهى زينةٍ، فضلا عن الكثيرات من أبناء الملوك، وفتيات من علية القوم، اللاتي وجدن الحبَّ من الجميع، ومن أجلهن أقيمت الاحتفالات والألعاب أثناء الرَّحيل. أمر الملك بأنْ يحملوا معهم خيمته ولوازمها، حتى لا يضطروا إلى النُّزول إلى أية بلدةٍ تذكر، بل ينزلون بالغوط القريبة من الأنهار والينابيع التي تعجُّ بها تلك الأراضي. هكذا اتُّخذت جميع الوسائل المتاحة لتهيئة مناخ من أفضل ما توفر لهم؛ حتى تكون إقامتهم سعيدة ومرحة، حيث إنَّ ذلك الهم والحزن الذي فاق فرحتهم ومتعتهم قد ملأ عليهم نفوسهم. وهكذا بلغوا مدينة لندن العظيمة، فوجدوا أناسًا كثيرين، فخيِّل إليهم أنَّ الدُّنيا بأسرها قد تجمَّعت أمامهم. بدأ الملك والملكة ومن بصحبتهما النُّزول عن جيادهم بين جنبات القصور، وهناك في أحدها أمر بإنزال أماديس وجالاور وأجراخيس وجالبانيس، فضلاً عن مجموعة أخرى من كبار القوم والفرسان، وأمَّا النَّاس الآخرون فقد نزلوا في أماكن أخرى على درجةٍ عاليةٍ من الإعداد، ولهم عليها خدم الملك. وهكذا استراح الجميع في تلك الليلة، وعلى مدى يومين آخرين شهدوا الألعاب والرَّقصات، وتزاحم النَّاس لرؤيتهما في أيِّ مكان يسيران فيه، بحيث شغلت جميع الشَّوارع، مما دفعهما إلى عدم الخروج من محل إقامتهما في مناسبات عديدة.

حضر هذه الاحتفالات رجلٌ عظيمٌ -في وضعه وسيادته أكثر من شيمه وفضائله- يدعى بارسينان Barsinán صاحب سانسونيا، لا لأنَّه كان من أتباع الملك ليسوارتي، ولا لأنه صديقه أو من معارفه، ولكن نظرا لما ستسمعونه الآن.

اعلموا أنَّه حين كان بارسينان في وطنه وصل إليه أركالاوس الإنكانتادور، وقال له :

- بارسينان -سيدي- إذا ما أردت فسوف أصدر أوامري بأنْ تصبح ملكًا دون أنْ تبذل في سبيل ذلك مجهوداً يذكر.

- حقا -قال بارسينان- سأتقبل عن طيب خاطر أيَّ عملٍ يمكن أنْ يأتينى من جرَّاء ذلك، طالما أنَّنى سأصبح ملكًا.

- إجابتك تدل على رصانتك - قال أركالاوس - وسوف أجعل منك ملكًا إذا ما صدَّقتنى، ووعدتنى بأنْ تجعلنى كبير نوابك، وألا تنزع منَّى ذلك المنصب أبدًا ما دمت حيا.

- سأفعل ما قلته بكلِّ سرورٍ -قال بارسينان- فأخبرنى ما هى الوسيلة التى ستحقق بها ما قلته لى.

- سأقصُّه عليك - قال أركالاوس - : اذهب أنت إلى أوَّل حفلة سيقيمها الملك ليسوارتي، واحمل مجموعة كبيرة من الفرسان، وأنا سأقوم بأسر الملك بصورة لا يمكن لأحد من رجاله أنْ يهبَّ لنجدته، وفى ذلك اليوم ستكون ابنته أوريانا بين يدى، وسأقدمها زوجةً لك، وفى غضون خمسة أيام سأرسل برأس الملك ليسوارتى إلى بلاطه. وساعتها عليك أنْ تحوز تاج الملك، فبعد وفاته ووقوع ابنته بين يديك -وهى الوريثة الشَّرعية- لن يكون هناك من أحدٍ بمقدوره منازعتك هذا الأمر.

- حقا -قال بارسينان- إذا ما فعلت ذلك، فسأجعلك أكثر الأثرياء وأصحاب النُّفوذ الذين يحيطون بى.

- من ناحيتي فسأنفِّذ ما أقول - قال أركالاوس.

لهذا السَّبب الذى سمعتموه حضر الحفل المقام بالقصر ذلك السَّيد العظيم بارسينان، صاحب سان سونيا، الـذى خرج الملك فى صحبة العديد من رجاله ليكون فى استقباله، ظنا منهم بأنَّه قد أتى إلى القصر بنيةٍ حسنةٍ، وأمـر بأنْ يحاط رجاله ومن معه كذلك، وأنْ يقدَّم إليهم كلُّ ما هو ضرورى فى مثل هذه الأحوال، غير أنَّه لما رأى منه كل هـذه الفروسية المحيطة به، وهو يعلم جيداً مدى ولائها وحبها له، ندم كثيراً على الشُّروع فى مثل هذه المهمة، ظنا منه أنُّه ما من قدرة لأعداء ليسوارتى على

لنيل منه والإضـرار بـه. لكنَّه -وهو مـازال يفكر في هذا الأمـر- رأى أنْ ينتظر حـتى النَّهـاية، فـغالبًـا مـا تصبح الأمـور الصَّعبة التَّـحـقيق في أوَّل الأمـر ممكنة في آخـره، وتحدَّث مع الملك قائلاً:

– أيُّها الملك، سمعت أنَّك تقيم هذه الاحتفالات الكبيرة، فأتيت إليك هنا لأتشرَّف بحضورها، فأنا لا سيادة لي على أرض من أرضك، وإنَّما هي أرض الله، التي أعطاها لأسلافي من قبلي، وهي لي الآن خالصةً تمامًا.

– صديقي -قال الملك- أشكر لك هذا الصَّنيع كثيراً، وستكون مكافأتك عندي على قدر منزلتك، فأنا سعيدٌ كلَّ السَّعادة لرؤية رجلٍ عظيمٍ مثلك، وبما أنَّني أحظى بعددٍ هائلٍ من علية القوم، فيسعدني أنْ أحظى برأيك قبل رأيهم، ظنًّا منِّي أنَّك ما رحلت عن ملكك لزيارتي إلا لهذا الأمر، فأسد نصيحتك إليَّ وليكن في رأيك ما يفيدني ويشرِّفني.

– يجب أنْ تكون متأكِّدا من ذلك -قال بارسينان- فسوف أسدي لك النُّصح قدر استطاعي، ووفق الهدف والرَّغبة اللذين دفعاني للمجيء إلى هنا.

في هذا كان يقول الحقيقة، غير أنَّ الملك ليسوارتي -الذي حمل كلامه على معنى آخر- شكره على ذلك كثيراً.

وحينئذ أمر بإعداد خيميتين له وللملكة خارج القصر، في حقلٍ واسعٍ، وترك منازله لبارسينان لينام فيها، وتحدَّث معه حول العديد من الأمور التي فكَّر في القيام بها أثناء تلك الاحتفالات، وخاصةً فيما يتعلَّق بفنِّ الفروسية، بدأ يمدح له جهاز فرسانه، فحدَّثه عن بطولاتهم ومآثرهم، وفي مقدمتهم يأتي أماديس وجالاؤر -شقيقه- ومالهما من مآثر ومفاخر، إنَّهما أفضل فارسين في هذا الوجود في هذا الوقت بالذَّات، وبعد أنْ تركه داخل القصور ذهب إلى الخيام، حيث كانت توجد الملكة، ثم وجَّه أوامره لعظماء رجاله بأنْ يذهبوا إليه جميعًا في اليوم التَّالي، وسوف يخبرهم بالسَّبب الذي جمعهم من أجله، حصل بارسينان ورفاقه على كلِّ ما يلزمهم وزيادة من مؤنٍ ومتاعٍ، غير أنَّه لم يستطيع النَّوم تلك الليلة مرتاحًا، فقد كان يفكِّر في الجنون الذي عزم على

تنفيذه، فرأى أنَّ رجلاً في مثل عظمة الملك وسلطانه، لا يمكن لحيلة أركالاوس ودهائه أو حتى كل سلطان العالم أنْ ينال منه ويؤذيه.

في اليوم التَّالي ارتدى الملك ملابسه الملكية، التي أتت مناسبة لذلك اليوم، وأمر رجاله بأنْ يحضروا له التَّاج الذي تركه عنده ذلك الفارس، ويخبروا الملكة بأنْ ترتدي العباءة. قامت الملكة بفتح الصُّندوق بالمفتاح الذي كان بحوزتها دائمًا، فما وجدت شيئًا من ذلك، فأصيبت بدهشةٍ كبيرةٍ، وبدأت تصلي لهول الموقف، وأرسلت إلى الملك تخبره بذلك، وحين نما ذلك إلى علمه أحزنه كثيراً، إلا أنَّه لم تظهر عليه أمارات الحزن، وما ترك فرصة ليلحظه أحد، ثم ذهب إلى الملكة، فأخذها بعيداً، وقال لها :

– سيدتي، كيف أسأت حفظ شيءٍ هو أنسب ما يكون لنا في هذا الوقت ؟

– سيدي –قالت الملكة– لا أدري ماذا أقول، غير أنَّ الصُّندوق كان مغلقًا ووجدته كذلك، وكان مفتاحه معي، وما عهدت إلى أحدٍ به، لكنَّني أصرح لك بأنَّه في هذه الليلة أتتني فتاة، وأمرتني بأنْ أريها الصُّندوق، وأنا –والنُّعاس يغالبني– أعطيتها الصُّندوق، فأمرتني بأن أعطيها المفتاح، فأعطيتها إيَّاه، ففتحت الصُّندوق، وأخرجت منه العباءة والتَّاج، وبعد إغلاق الصُّندوق أعادت المفتاح إلى مكانه السَّابق، ارتدت العباءة، ووضعت التَّاج على رأسها، فبدت في أبهى حلَّةٍ، ونظرتُ إليها مستمتعة، فقالت لي : "هذه العباءة وذاك التَّاج اللذان تملكانهما سوف يحكمان بعد خمسة أيام في أرض ذلك القادر الذي يدافع عنها الآن، ويخرج بغية فتح أراض جديدة ليست له، وقد سألتها : " من عساه يكون ؟ " فقالت لي : " ستعرفينه في حينه منِّي "، ثم اختفت من أمامي تحمل معها العباءة والتَّاج. لكنَّني أصارحك القول بأنَّني لا أدري ما إذا كان ذلك قد وقع لي في اليقظة أم المنام.

تعجَّب الملك من ذلك كثيراً، وقال :

– الآن دعك من هذا، ولا تتحدَّثي فيه مع أحدٍ.

وما إن خرجا من الخيمة، حتى دخلا إلى الأخرى وبرفقتهما عددٌ هائل من الفرسان والوصيفات والفتيات، الأمر الذى أدهش كل من يرقبه، جلس الملك على كرسي وثير، والملكة فى كرسى آخر يقل عن الآخر ارتفاعًا، وقد وضعا على أريكة طرزت بقماشٍ ذهبي. وقف الفرسان إلى جوار الملك، والوصيفات والفتيات إلى جوار الملكة. وبالقرب من الملك وقف أربعة فرسان من أفضل من يقدِّرهم ويثق بهم ! أمَّا أحدهم فهو أماديس، وأما الثَّانى فهو جالاور، ثم أجراخيس وجلبانيس بلا ممالك (أى فرسان جوَّالين)، وخلفه وقف أربان (ملك نورجاليس) بكامل سلاحه، وسيفه في يده، ومعه مائتا فارس مدجَّجين بالسِّلاح.

خيَّم الصَّمت على الجميع، فما تكلَّم أحدٌ، وهنا قامت سيدةٌ جميلةٌ تلبس ثيابًا فاخرةً وعليها زينتها، وقام معها ما يقرب من اثنتا عشرة سيدة وفتاة يرتدين نفس ثيابها، ويتحلَّين بنفس زينتها، فقد كانت هذه عادة دأبت عليها السَّيدات ذوات المكانة الرفيعة وعظماء القوم وأثرياؤهم، الذين كانوا يحملون أهليهم إلى حفلات مماثلة وهم يرتدون نفس أزيائهم. هكذا ذهبت السَّيدة الجميلة ورفقتها إلى حيث يجلس الملك والملكة، ثم قالت :

- سيدى الملك، سيدتى الملكة، لتستمعا إلىَّ وسوف أعرض عليكما قضية أرفعها ضد ذلك الفارس الجالس هناك.

مدت يدها تجاه أماديس، وبدأت تسرد أسبابها قائلةً : كنت لزمنٍ طويلٍ رهنًا لرغبة أنجريوتى دى إستراباوس الجالس هناك -وحكت كلَّ ما جرى لها معه- ولأجل هذا السَّبب أصبح يحتفظ بوادى الصنوبر، والحال هكذا أقبل فارس يدعى أماديس فأجبره على ترك الوادى بقوة السِّلاح، وقال لى بعضهم، إنَّه حينما أصبحا صديقين وعد أنجريوتى بأنَّه سيعمل بكل ما أوتى من قوة على استعادتى مرَّةً أخرى، وأنا قد حصنت قلعتى بكلِّ حراسةٍ ممكنةٍ، وبهذه الطَّريقة أصبح من الصَّعب على أىِّ رجل غريب الدُّخول إليها.

روت على الحاضرين الحكاية كلَّها -كما هي العادة- وفضلاً عن ذلك قالت :

– سيدى، كل هذه الحراسة –التى حدثتكم عنها– تخطاها هذا الفارس الجالس عند قدميك. (كانت تقول هذا الكلام تقصد به أماديس، دون أنْ تعلم من هو).

– ومنذ أنْ دخل هذا الفارس إلى قلعتى، وعدنى –عن طيب خاطرٍ منه– بأنه سيحلل أماديس من هذا الوعد الذى قطعه على نفسه لأنجريوتى، بكل ما أوتى من قوةٍ، سواء بقوة السلاح أم بأية وسيلةٍ أخرى، وبعد هذا الوعد تقابل هذا الفارس داخل القلعة مع عم لى جالس هنا.

ثم روت الأسباب التى أدَّت إلى هذا النِّزال، وما حدث فيه من أحداث، هنا بدأ عددٌ كبيرٌ ينظر إلى جاسينان، بعد أنْ كان لا يلقى له أحد منهم بالا، وذلك حين أخذت السيِّدة تروى كيف كانت جرأته فى مواجهة أماديس، وحين بلغت السيِّدة الحدث القمة فى ذلك النِّزال روت كيف حلت الهزيمة بعمها، وكان على وشك أنْ يفقد حياته، وكيف بدأت ترجو الفتى الفارس ألا يقتله نظير هدية تقدمها له.

– وهنا، سيداتى وسادتى –قالت هى– تركه من أجل توسلاتى إليه، ولأجل هذه الدعوى أتيت إلى هنا كى أفى بوعدى فى احتفالكم هذا، وأطلب أمامكم أنْ يفى هو بما وعدنى به، وأنا سأفى بما وعدته به إذا ما أراد أنْ ينهى موضوعى.

هنا نهض أماديس، وقال :

– سيدى، حقا ما قالته السَّيدة عن وعدينا، فهكذا كانا، وأنا أعدها أمامكم بأنَّنى سأحلل أماديس من الوعد الذى أعطاه لأنجريوتى، ولتعطنى هى الهدية كما وعدتنى.

سعدت السَّيدة بما سمعت، وقالت :

– الآن أطلب ما تريد.

قال لها أماديس :

– ما أريده هو أنْ تتزوجى من أنجريوتى، وأن تُحبِّيه كما يحبك.

- آه أيتها العذراء ! -قالت هي- ما هذا الذي تقوله لي ؟

- سيدتي الفاضلة -قال أماديس- أقول لك أنْ تتزوجي من ذلك الرَّجل الذي يرغب في الزَّواج من سيدةٍ مشهورةٍ ومن أسرةٍ عريقةٍ مثلك.

- آه، أيُّها الفارس ! -قالت- كيف لك أنْ تعدَ بمثل هذا ؟

- أنا لم أعدك بشيءٍ لا أفي به -قال هو- وإذا ما كنت قد وعدت بأنْ أُحلل أماديس مما قطعه على نفسه لأنجريوتي، فهأنا أفعل ذلك، فأنا أماديس، وأقدِّم له العطية التي منحته إياها، وهكذا فقد وفيت بما قلته لك وله.

- تعجَّبت السَّيدة كثيراً، ثم توجَّهت بالكلام إلى الملك :

- سيدي، هل حقًا أن هذا الفارس هو أماديس ؟

- دون شك هو أماديس -قال الملك.

- آه، مسكينة أنا -قالت هي - كيف خُدعت؟! الآن أدرك أنَّه ليس بمقدور أحدٍ مهما أوتي من ذكاءٍ وحيلةٍ أنْ يهرب من إرادة الله، فقد بذلت كل جهدي حتى أبتعد عن أنجريوتي، ليس لأنَّني أكرهه، أو حتى ليعلم أنَّ شجاعته لم تعد تستحق أنْ يجمع القدر بيني وبينه، ولكن لأنني كنت أتطلَّع -بينما أحيا حياةً كريمةً- إلى ألا يجعلني تابعة أسيرةً له، وفي الوقت الذي أسعى جاهدةً للبعد عنه أجدني الآن إلى جانبه كما ترون.

قال الملك :

- لا حول ولا قوة إلا بالله - صديقتي- كان من الواجب أنْ تفرحي بهذه المناسبة التي جمعت بينكما، فأنت ذات جمال ومن أسرة عريقة، وهو فارس رشيقٌ يتمتَّع بالفتوة والشَّباب، وإذا ما كنت على درجةٍ من الثَّراء لثروتك فهو كذلك بخيريته وفضائله، هكذا فهو يحظى بمكانةٍ ساميةٍ في عالم الفروسية، ولهذا فأرى أنَّه من المناسب جدا زواجك منه، وهكذا فأرى أنَّ كل الحاضرين هنا يرون رأيي نفسه.

قالت السيِّدة :

- وأنت -سيدتى الملكة- يا من وهبك الله عقلاً وطيبةً لم يهبهما لأخرى من نساء العالمين، بماذا تنصحيني ؟

- أنصحك -قالت الملكة- بأنَّه طالما أنَّ أنجريوتى من الذين يمتدحهم النَّاس ويقدِّرونهم من بين الصَّالحين، فمن حقه أنْ يكون سيداً على أرضٍ كبيرةٍ، وأنْ يكون هدفًا لحبِّ سيدة يحبُّها.

قال لها أماديس :

- سيدتى الفاضلة، لا تظنين أنى فعلت ذلك عرضًا أو ميلاً منِّى لأنجريوتى، فلو حدث ذلك هكذا لظنَّ بى الجنون والفحش أكثر من الفضيلة، وإنما فعلته لعلمى بشأنه الكبير فى مجال الفروسية -الأمر الذى كلَّفنى كثيراً- وللرَّغبة والحبِّ الكبيرين اللذين يكنُّهما لك، فقد أعددت العدة ومعى كثيرون غيرى من أولئك الذين لديهم دراية جيدة بالبحث في كيفية وجود حلٍ لذلك الألم العاطفى الذى يعانيه هو، والدِّراية البسيطة من جانبك بكنهه وحقيقة أمره.

- حقًا سيدى -قالت هى- إنَّك لعلى خلق عظيم، ولن أدعك حتى أقول لك الحقيقة أمام هذا الجمع الكبير من النَّاس الطَّيبين، وبما أنَّك قد مدحته -وكذلك الملك والملكة- فإنَّه من الجنون ألا أولع وأفتخر به، ولو لم يكن يدين لى بتلك الدَّعوى فلا أستطيع الانفصال عنه، وهأنت ترانى هنا؛ فافعل بى ما تريد.

أخذها أماديس من يدها، ونادى على أنجريوتى قائلاً له أمام خمسة عشر فارساً من أصله قد أتوا معه:

- صديقى، لقد وعدتك أنْ تحصل على صديقتك قدر استطاعتى، ولتقل لى هل هذه هى؟

- نعم -قال أنجريوتى- هى سيدتى، وأنا لها.

- هأنا أقدِّمها لك -قال أماديس - كي تتزوَّجا، وتحبُّها، وتكرمها أكثر من أيِّ شيءٍ آخر في الوجود.

- حقا سيدي -قال أنجريوتي- أصدِّق ما تقول حقا.

أمر الملك أسقف ساليرنا بأنْ يأخذهما إلى الكنيسة كي يباركهما فيها، وهكذا ذهب أنجريوتي والسَّيدة وكلٌّ من كان معه من أقربائه وأقرانه مع الأسقف إلى حيث توجد الكنيسة؛ حيث تمَّ عقد الزَّواج في جو مهيبٍ، وبمقدورنا القول بأنَّ النَّاس -لا بل الله تعالى- يشهدون بأن أنجريوتي قد أعرب عن طيب أصله وعراقته في معاملته لزوجته بعد أنْ أصبحت ملكًا له وتحت إرادته، وما فعل شيئًا خالف إرادتها قط مهما كان ذلك الأمر محبَّبًا إليه، فقد كان من قبل يعاملها معاملةً سيئة حتى أتاه أماديس فقاتله حتى أشرف على الموت، والذى أراد أن يكون مصير هذه المقاومة المبذولة من جانب عقلٍ يقف فى مواجهة الرَّغبة الجامحة، دونما استحقاقٍ يذكر والتي أحبَّها وأغرم بها كثيرًا، حتى تلاشت تلك المقاومة.

الفصلُ الثاني والثّلاثون

كيف أراد الملك ليسوارتي، والجمع حاضرٌ التّشاور معهم فيما يجب عليه عمله.

حين أصبح الملك مع عظماء رجاله ظلَّ يتحدَّث إليهم، ثم قال :

- أصدقائي، كما ترون فإنَّ الله قد جعلني أغني وأقوى مالكٍ للأرض من دون الناس، ومن دون غيري من الجيران، فهذا مدعاةٌ -بغية الحفاظ على عهده- لأنَّ أصنع أشياء تفوق وتستحق المدح أكثر ممَّا يفعلونه، وأريد منكم أنْ تُصرِّحوا لي بكلِّ ما يصدر عن قريحتكم وعقولكم، حتى أكون أنا وأنتم محطَّ تكريمٍ وتشريفٍ كبيرين، وأخبركم بأنني سأفعل ما تشيرون به علي.

وهنا، قال بارسينان -سيد سانسوينيا- الذي كان حاضراً للمجلس :

- سادتي الأفاضل، هأنتم قد سمعتم ما كلَّفكم به الملك، وأرى أنَّه من الأفضل أنَّ يأخذ كل منكم جانبًا دون أنْ يكون الملك حاضرًا بينكم، فتتأملون ما أمركم به -إذا سمح الملك- وهكذا سيصدر عنكم الرَّأي الجميل بلا حرجٍ أو تكلفٍ حسب ما تمليه عليكم عقولكم، ثم تعرضون آراءكم على الملك فيختار منها ما يتناسب مع رغبته.

أعلن الملك أنَّ ما يقوله بارسينان هو عين الصَّواب، ورجاه أنْ يبقى هو معهم، وانتقل هو إلى خيمةٍ أخرى بينما بقي الحاضرون في الخيمة التي كانوا فيها، وحينئذٍ قال سيرولويس الفلامينكو، الذي كان يشغل منصب دوق كلارا حينذاك :

– سادتي، إن هذا الأمر الذي طلب فيه الملك منَّا النَّصيحة يبدي ويظهر مدى أهمية الوفاء به حتى نحفظ له مكانته السَّامية وشرفه وفي مثل هذا الظرف لا يمكن للرِّجال في هذا العالم أن يكونوا من أصحاب النفوذ إلا بوجود عظماء الرِّجال حولهم أو بحيازتهم للكنوز الثَّمينة، ولكن بما أنَّ البحث عن الكنوز يكلِّف وقتًا ورجالاً، فهذا هو أنسب وقتٍ يُبذل فيه كل هذا، ويبدو أنَّ الأمر كلَّه يتعلَّق بالحاشية العريضة باعتبارها الأهم والأساس، ليس فقط في حماية الملك والدِّفاع عنه، ولكن للتَّباهي والتَّفاخر أمام الأجانب وأهل مملكته، ولهذا فأرى أيُّها السَّادة الأفاضل أنَّه إذا لم نوافق على هذا الاقتراح، فسوف يأخذ الملك بغيره -وهو مالا أريده- ويخرج بحثًا عن رجالٍ شرفاءٍ في مكان آخر، فيعطيهم مما عنده بكلِّ سخاءٍ وكرمٍ، يحبُّهم ويزيدهم من شرفه، وهكذا سيتحرَّك كلُّ رجال المناطق الأخرى صوبه ليكونوا في خدمته، ينتظرون قطف الثِّمار من وراء ما سيقدمونه من أعمال، وإذا ما تداركتم وراجعتم ذاكراتكم فسوف تجدون أنَّه لم يكن لأحدٍ حتى اليوم من قوةٍ ونفوذٍ إلا هؤلاء الفرسان الذين تجمَّعوا حوله وظلُّوا في معيته، والذين بعد أنْ استثمروا كنوزهم في هذا العمل حصلوا على أثمن وأغلى منها.

لم يكن هناك أحدٌ من أعضاء المجلس يبدي معارضة لتلك النَّصيحة التي أتى بها الكونت، فوافقوا عليها. وحين رأى بارسينان صاحب سان سوينيا أنَّ الكلَّ قد وافق على هذا الاقتراح، أسقط في يده، لأنَّ مثل هذه الموافقة تصعب عليه المهمة التي أتى من أجلها، ثم قال:

– حقا، فما رأيت في حياتي قط أناسًا فضلاء أمثالكم يوافقون هكذا بشكلٍ جنوني على مثل هذا الاقتراح، وسأخبركم بالأسباب فلو أنَّ سيدكم أقدم على فعل ما اقترحه كونت كلارا، فقبل مرور خمس سنوات ستعجُّ أرضكم بالعديد من الفرسان الغرباء، الذين لن يعطيهم الملك فقط كلَّ ما كان سيعطيكموه، ولكن رغبته في إسعادهم -كما هي العادة في التَّعامل مع

الأشياء الجديدة- ستطوى صفحاتكم وتلقى بكم إلى عالم النِّسيان، ولن يفكِّر فيكم إلا لمامًا، ولهذا فعليكم أن تتدبروا أمركم جيداً، وتحكموا عقولكم فيما ستنصحونه به، فلن يعود على من هذا الأمر سوى أنْ أزهو به وأسعد، وبما أنَّني هنا معكم فلكم نصحي الذى فيه فائدة لكم.

دبَّ الشِّقاق بين الحاضرين، فأصبحوا بين مؤيدٍ ومعارضٍ للفكرة، حتى تمَّ الاتفاق على أنْ يحضر إليهم الملك الذى يمكن له بحصافته ورصانته أنْ يختار ما هو أفضل. وحين أتى الملك استمع لما كان بينهم، والخلاف الذى شقَّ صفوفهم، ولما أنْ تبيَّن له الحق فى هذا الأمر، قال :

- لا يكون الملوك عظماء -فقط- بالكثير الذى يملكونه، ولكن بالكثير الذى يبقون عليه، فبشخصهم وحده ماذا هم فاعلون ؟ لا شئ، وشخصهم وحده هل يكفيهم ؟ وحتى يتسنى لهم قيادة ملكهم -بمقدوركم تكهن الأمر- هل بمقدور الثَّروات الكبيرة أنْ تحميهم وتدافع عنهم ؟ بالتَّأكيد لا، إذا لم يتم صرفها في مواضعها السَّليمة، وبعد ذلك لنا أنْ نحكم بأنَّ القوة والحكمة عند الرِّجال هما الكنز الحقيقي، أتودُّون معرفة هذه الحقيقة، انظروا ماذا فعل بهما الإسكندر الأكبر، أو ذلك القوى القادر يوليوس قيصر، وذلك الرِّجل العظيم هانيبال، وغيرهم ممن يمكن عدهم، الذين كانوا كرماء فى أخلاقهم ورغباتهم، أغنياء مترفِّعين بأموالهم وثرواتهم التى وزعوها بين أرجاء العالم بأيديهم وأيدى فرسانهم وفق احتياجات واستحقاقات كلِّ فردٍ، وإذا ما بقي منه شيءٌ قلّ أو كثر فقد حصل لهم منه جانبٌ كبيرٌ، حيث حصدوا خدمة النَّاس جميعًا وحمايتهم لهم. ولهذا فما أرى -فقط- أهمية البحث عن فرسان صالحين، ولكنكم أنتم الذين ستحضرونهم إليَّ بعد تدقيقٍ منكم وعنايةٍ، فإذا ما حصل لى الشَّرف ورهبنى الأعداء، ففى هذا شرف لكم أيضا وقوة، وأنا -لما أتمتَّع به من فضلٍ- فلن أسمح لنفسى أبدًا بنسيان فرسانى القدماء لأجل من استقدمته من فرسانٍ جددٍ، وعليه، فعلى عاتقكم يقع اختيارهم من بين من

تعـرفونهم حق المعرفة، ويأتون إلى قصرى، حتى يفضلون البقاء فيه على الرَّحيل عنه.

هكذا تمَّ للملك ما أراد، وحين سجلَّ أسماءهم أمر بإحضارهم إلى خيمته حين يفرغون من تناول الطَّعام، وهنا رجاهم بأن يحفظوا معيته، وألا يرحلوا عن قصره دون إذن منه، ووعدهم بحبِّه لهم وتشريفهم وإعطائهم من فضله، وفى مقابل حفاظهم على ملكه وعرشه سوف يؤمِّن لهم كلَّ ما يخصُّهم. تعهَّد الجميع الالتزام بما قال الملك فيما عدا أماديس، الذى اعتذر عن الدُّخول فى هذا العهد لكونه فارس الملكة. وما إن انتهى الأمر على ما هو عليه حتى أمرت الملكة بأنْ يستمع الجميع إليها إذا ما أرادوا، فهى تودُّ الحديث إليهم. وحينئذٍ أقبل الجميع، والتزموا الصَّمت بغية سماع ما ستقوله لهم. قالت الملكة للملك :

– سيدى، بما أنَّك قد رفعت شأن فرسانك وزدتهم شرفًا ، فمن الملائم هنا أنْ أفعل الشىء نفسه مع وصيفاتى وفتياتى، وإليهن جميعًا أينما حلَلن ونزلَن، ولهذا أطلب منك ومن هؤلاء الرِّجال الطَّيِّبين أنْ تعطونى موثقًا، ففى مثل هذه الاحتفالات جرت العادة على إعطاء ومنح الأشياء الحسنة.

نظر الملك إلى الفرسان، ثم قال :

– أصدقائى، ماذا نحن فاعلون فى هذا الذى تطلبه الملكة ؟

– لنهبها – قال الفرسان – كل ما تطلبه.

– من عساه أنْ يفعل شيئًا آخر –قال جالاور– سوى أنْ يكون فى خدمة السَّيدة الجليلة ؟

– بما أنَّ هذا ممَّا يسركم –قال الملك– فلنهبها ما تطلب. مهما كان ذلك صعبًا.

– ليكن هذا – قال الجميع.

وما إنْ سمعت الملكة ذلك حتَّى قالت :

- إنَّ ما أطلبه منكم هو أنْ تعطوني موثقًا دائمًا أنْ تنصرن وتُدافعنَّ عن الوصيفات والفتيات حال تعرضهن لأيَّة مظلمة أو معرّة. وإذا ما وعدتم رجلاً بشيء وامرأة بشيء آخر، فليكن الوفاء أولاً للسيدات والفتيات، لأنَّهنَّ الضَّعيفات والأكثر عوزًا واحتياجًا لإصلاح حالهن، وحين تصرون على فعل ما أطلبه منكم تصبح الفتيات والسَّيدات آمنات ومحصَّنات أينما سرن في الطُّرقات، ولن يتجرأ المتطاولون والعتاة على إلحاق أيِّ ضررٍ بهنَّ، طالما أنَّهم يعلمون حقيقة دفاعكم عنهن ووقوفكم إلى جانبهن.

وما إن سمع الملك هذه الكلمات حتى بدت على وجهه أمارات السَّعادة، وكذلك كلُّ الحاضرين معه، وأمر الملك بتنفيذ ما طلبته الملكة، وهكذا ظلَّ معمولاً بهذا النِّظام على أرض بريطانيا العظمى لسنواتٍ طويلة، فما استطاع أحدٌ خرقه قط على مدى الأجيال التي تتابعت عليها. ولكن كيف تم خرق هذا النِّظام؟ فلن نحكي لكم عنه شيئًا الآن، فما حان وقته بعد.

الفصلُ الثَّالث والثَّلاثون

كيف قَدمت فتاة إلى قصر الملك ليسوارتى وهو فى نشوة الفرح، فخرَّت أمامه راكعةً، ترتدى ثوب الحداد وتطلب منه معروفًا أجابها إليه.

بينما جلس الملك ليسوارتى وحوله رجال بلاطه وقد غمرهم جو من الفرحة والسَّعادة كما سمعتم، أراد القدر أنْ يعكِّر صفو هذا الاحتفال، إذ دخلت فتاةٌ من باب القصر غايةٌ في الجمال وعليها ثياب الحداد، فركعت أمام الملك، وقالت له :

– سيدى، أصبح الجميع في سعادةٍ إلا أنا وحدى، أصابنى الحزنُ والهمُّ، ولن يُذهب عنِّى هذا الحزن إلا أنت.

– صديقتى –قال الملك– ما هذا الحزن .

– لأجل والدى وعمِّى، اللذين أصبحا سجينين عند سيدةٍ لن تسمح أبدا بخروجها إلا بعد أنْ يأتياها برجلين فارسين قويين مقابل فارسها الذى قتلاه.

– لأنَّه – قالت هى – كان يفخر دائما بأنَّه قادر على منازلتهما معًا –لِما كان يتمتَّع به من خيلاء وغطرسةٍ– وأهانهما كثيراً، حتى أصبحا محصورين من الخجل، فاضطرا للدُّخول فى نزالٍ ضده، فانتصروا عليه، وبعدها مات الفارس. كان ذلك أمام قلعة جالديندا، وبما أنَّها سيدة القلعة فقد أمرت بالقبض على والدى وعمى وإيداعهما السِّجن، وأقسمت ألا تفرج عنهما لأنَّهما قتلا الفارس الذى كانت تعوِّل عليه فى حلبة نزالٍ قادمةٍ، فقال لها والدى :

- سيدتي، لا تأسريني في هذا السِّجن بسبب هذا الموضوع، ولا أخي كذلك، فأنا سأخوض تلك المعركة نيابةً عنك.

- حقًا! -قالت هي- من أنت حتَّى تجعلني على يقينٍ من أمري وحكمي؟! وأقول لك بأنَّك لن تخرج من هنا ولا أخوك حتى تأتياني بفارسين على درجةٍ عاليةٍ من المهارة والدربة في استخدام السِّلاح كالآخر الذي قتلتماه، فبهما يمكن تعويضي عن الضَّرر الذي لحق بي من وفاة فارسي.

- أتعرفين حضرتك -قال الملك- في أيِّ مكان تودُّ السيِّدة عقد هذا النِّزال ؟

- سيدي -قالت الفتاة- أمَّا هذا فلا أدري عنه شيئًا سوى أنَّني أرى والدي وعمّي قد سُجنا ظلما، وليس على أصدقائهما إلا أن يدفعا عنهما ذلك الظُّلم.

ثم بدأت تبكي بكاءً مُرا. وهنا أصاب الملك ألمٌ شديدٌ -فهو شفوقٌ ورحيمٌ- من جراء بكائها، وقال لها :

- الآن قولي لي إذا ما كان بعيداً ذلك المكان الذي يسجنان فيه.

- إنَّه على مسيرة خمسة أيام - قالت الفتاة.

- إذنْ تخيَّري اثنين من بين هؤلاء الفرسان تتوسَّمين فيهما القوة والشَّجاعة، وسوف يذهبان معك.

- سيدي -قالت الفتاة- أنا غريبةٌ عن هذه الدِّيار، ولا علم لي بأحدٍ من هؤلاء، وإذا ما أذنت لي سأذهب إلى سيدتي الملكة، لأرى بماذا تنصحني.

- باسم الله ! - قال الملك.

ذهبت الفتاة إلى الملكة، وقصت عليها حكايتها -كما روتها للملك- ثم قالت لها في النِّهاية إنه قد أذن لها باثنين من الفرسان ليذهبا معها، وتطلب منها أنْ تتكرَّم -حيث لا تعرف هي حقيقة الفرسان، وبما تعهده فيها من وفاء للملك وللرَّبِّ- باختيار اثنين من أفضل من بإمكانهم إزاحة الهم عنها.

– آه أيتها الفتاة ! –قالت الملكة– تطلبين منِّي مالا أملك له دفعا، غير أنَّ فراقهما يشقُّ علي ويحزنني.

وحينئذ أرسلت في طلب أماديس وجالاوز، فحضرا إليها، ثم قالت أمام الفتاة :

– هذا هو فتاي، وهذا الآخر فتى الملك، وأقول لك إنَّهما أفضل فارسين أعرفهما في هذه البلاد وفي غيرها.

سألت الفتاة عن اسميهما، فقالت الملكة :

– هذا يدعى أماديس والآخر يسمى جالاوز.

– كيف سيدي؟! – قالت الفتاة – هل أنت أماديس أفضل فارس لا مثيل له بين أقرانه؟ بالله لعل ما جئت لطلبه، وما أسعى إليه يجد حلا بمجرَّد أن تصل إلى هناك أنت وأخوك. وقالت للملكة :

– سيدتي، أستحلفك بالله، وأطلب منك أنْ تتوسَّلي إليه أنْ يذهب معي.

توسلت إليه الملكة، وأوصته بها كثيرًا. نظر أماديس إلى سيدته أوريانا، ليرى ما إذا كانت تسمح بهذا الذَّهاب، وهي –بما وجدت في نفسها شفقة على هذه الفتاة– جعلت القفازين يسقطان من يدها إشارة منها بالسَّماح له، فهكذا كانت الإشارة المتفق عليها بينهما، وحين رأى أماديس ذلك قال للملكة إنَّ هذا أمرٌ يسره وخاصة أنَّ فيه تلبية لطلبها. وهنا توسَّلت الملكة إليهما أنْ يعودا إليها سريعًا قدرما يمكنهما ذلك. فما أنْ يؤديا مهمتهما حتى يعودا دونما تأخر.

وصل أماديس إلى مابيليا، التي كانت تتحدَّث مع أوريانا، كمن أراد أنْ يودعها، وقالت له أوريانا :

– صديقي، لا حول ولا قوة إلا بالله. إنَّه ليحزنني ذهابك هذا، فقلبي يشعر بكثيرٍ من الضِّيق، وليجعل الله في ذهابك هذا خيراً.

– سيدتي –قال أماديس– ليمدك الله الذي وهبك هذا الجمال بكل سعادة، فأينما أكون فأنا عبدك وخادمك.

– سيدى وصديقى –قالت هى– بما أنَّه ليس هناك من خيارٍ آخر فلتذهب فى رعاية الله، وليحفظك الرَّبُّ ويزيدك شرفًا يفوق شرف كل فرسان الدُّنيا.

وحينئذ رحلا من هناك وقد تدجَّجا بالسِّلاح، وودعا الملك وجميع أصدقائهما، وأخذا طريقهما بصحبة الفتاة. سارا فى طريقهما على هدى من الفتاة حتى انقضى نصف النَّهار، حيث دخلا إلى غابةٍ تدعى مالا بنتورادا. ويأتى هذا الاسم المشئوم راجعًا إلى أنَّه ما دخلها فارسٌ متجول قط إلا ووجد حظا عاثرًا أو مغامرةً مثيرةً. وهذان الفارسان لن يكونا استثناءً، فسوف يصيبهم شيءٌ من الحزن. وحين انتهيا من تناول طعام كان قد أحضره حاملا الأسلحة، سارا فى طريقهما حتى أقبل الليل، وسطع ضوء القمر. أصاب الفتاة همٌّ كبيرٌ، وما فعلت شيئًا سوى متابعة المسير.

قال لها أماديس :

– أيتها الفتاة ألا تريدين أنْ نرتاح بعضًا من الوقت ؟

– أريد ذلك –قالت هى– ولكن ليس هنا لندع الأمر إلى أنْ نصل إلى مكان يوجد به أناسٌ بخيامهم ستسرهم طلعتك كثيرًا، ولنتابع المسير، وسوف أرتب لك أنا كيف تكون راحتك.

وهنا ذهبت الفتاة بينما توقَّفا بعض الشيء، ولكنَّهما ما سارا كثيرًا حتى وجدا خيمتين بالقرب من الطَّريق، ووجدا الفتاة وأخريات معها. كانت الفتاة فى انتظارهما حيث قالت :

سيدٌ، ستنزلان بهاتين الخيمتين وتستريحان بهما، فقد أتعبتكما مسيرة هذا اليوم.

فعلا ما سمعا، ووجدا هناك خدما حملوا عنهما أسلحتهما وجواديهما، فأخرجوهما بعيداً. قال لهم أماديس :

لماذا تأخذون أسلحتنا ؟

– لأنه سيلزم عليك، سيدى –قالت الفتاة– النَّوم في الخيمة التي يضعونها فيها.

وما مرَّ وقت طويل وهما على هذا الحال بدون سلاح، جالسان على فرش مبسوطة في انتظار العشاء، فما مرَّ وقتٌ طويلٌ حتى هاجمهما ما يقرب من خمسة عشر رجلاً بين فارسٍ وراجلٍ مدجَّجين بالسِّلاح. دخلوا من باب الخيمة قائلين :

– استسلما وإلا ستقتلان.

حين سمع أماديس ذلك نهض قائلاً :

– حي على الجهاد يا أخي ! لقد خُدِعنا وأُحطنا بأكبر غدرٍ وخيانةٍ في الدُّنيا.

وهنا انضم أحدهما للآخر بغية الدِّفاع عن نفسيهما، ولكن بأيِّ سلاحٍ؟! لقد وضع المهاجمون رماحهم فوق صدريهما وظهريهما ووجهيهما. واشتد غيظ أماديس حتى كاد الدم يقطر من أنفه وعينيه، ثم قال للمهاجمين :

آه، أيُّها الخونة ! هأنتم ترون جيداً كيف يكون أمرنا، فلو أننا نحمل أسلحتنا معنا لانتهى النِّزال على صورةٍ أخرى.

– ليس الأمر في صالحكما –قال أحد المهاجمين– استسلما.

قال جالاور :

– لو استسلمنا فهذا راجع للخيانة التي تعرضنا لها، وسوف نخضع أمرنا للنِّزال بيني وبين اثنين من أفضلكم، أو حتى ثلاثة، شريطة أنْ تعطوني أسلحتي.

– لا مجال هنا للتَّجربة –قال الفارس– وإذا ماتكلمت أكثر من هذا فسوف تلقى أذىً وضرراً.

– ماذا تريدون ؟ –قال أماديس– لنلقى حتفنا هنا قبل أنْ نستسلم.

عاد الفارس إلى باب الخيمة، ثم قال :

– سيدتي، لا يريدان الاستسلام، هل نقتلهما ؟

– انتظروا قليلاً، وإذا لم ينزلا على رغبتي فاقطعوا عنقيهما.

دخلت السَّيدة إلى الخيمة بدت جميلة للغاية وقد امتلأت غيظًا، ثم قالت لفارس الملك ليسوارتي :

– استسلما لي، وإلا فسوف تقتلان.

سكت أماديس ونطق جالاوز قائلاً له :

– أخي، الآن أصبحنا على يقين من الأمور، فالسَّيدة ترغب في ذلك.

ثم توجَّه إلى السَّيدة قائلاً :

– أصدري سيدتي –أمراً بإحضار أسلحتنا وجوادينا، وإذا لم يتمكَّن رجالكم من أسرنا فحينئذ سنستسلم لكم كي تأسرونا فإذا ما أُسرنا الآن فلا معنى لذلك أخذًا في الاعتبار الحالة التي نحن عليها.

– لن أصدِّقكما –قالت السَّيدة– هذه المرَّة، لكنني أنصحكما بالاستسلام لي.

أجاباها لطلبها، فما كان بوسعهم عمل شيءٍ آخر. وبهذه الطَّريقة استسلم الفارسان للسَّيدة دون أنْ تعلم حقيقتهما، فما أرادت الفتاة إخبارها بهذه الحقيقة، لأنَّها كانت تعلم علم اليقين أنَّ في ذلك ضياعٌ لحياتهما، وهو ما سيحصل عليه القوم باعتراف الفتاة لا بأيَّة مغامرة أخرى، حيث ستكون هي السبب المباشر لقتلهما. وكانت الفتاة على استعداد لأنْ تضحِّي بحياتها على أنْ تُقدِم على مثل هذه الخيانة، ولكنَّها لم تستطع عمل شيءٍ إلا أنْ تحفظ هذا السِّرّ. قالت السَّيدة لهما:

– فارساي. الآن وقد أصبحتما أسيرين لي أودُّ أنْ أعقد صفقةً معكما. وإذا ما وفيتما بها فسوف أطلق سراحكما. أمَّا إذا لم أحصل على هذا منكما فسوف أودعكما سجنا ثقيلاً يكون عليكما أشد من الموت نفسه.

– سيدتي –قال أماديس– يجب أنْ تكون الصَّفقة مما يمكن الوفاء به دونما حرج.

- وإذا ما وعدتماني بأنْ تذهبا إلى الملك ليسوارتي فتخبرانه بأنَّكما لن تكونا من رعاياه بعد ذلك، وأنَّكما فعلتما ذلك بأمر من ماداسيما سيدة جانتاسي، وأنَّها قد كلفتكما بهذا الأمر لأنَّ الملك ليسوارتي يؤوى في بيته الفارس الذي قتل داردان الفارس الصَّالح، فسوف أفرج عنكما.

قال لها جالاؤر :

- سيدتي، إذا ما كنت تأمريننا بهذا بغية أنْ يصبح الملك مكروبًا ومهمومًا فلن يحدث هذا، فما نحن إلا فارسان لا نملك حتى الآن سوى أسلحتنا وجوادينا. وبما أنَّ بيته يعجُّ بفرسان آخرين من ذوي الشَّجاعة والإقدام الذين يعملون على خدمته فإنه لن يلقي بالاً كبيراً لأمرنا إن نحن بقينا عنده أو رحلنا عنه، وهذا فيه ما فيه من إهانةٍ لنا، ولهذا فإننا لن نقدر فإنه على عمله بشكلٍ من الأشكال.

- كيف ! -قالت هي- أتفضِّلان السجن على فراقكم لهذا الملك الذي يعد أكثر ملوك الأرض تزييفاً ؟!

- سيدتي -قال جالاؤر- ما تقولينه لا يتناسب مع وضعك، فالملك رجلٌ طيِّبٌ ووفيٌّ، وليس هناك من فارس في العالم لا يقرُّ بأنَّ الملك لا صلة له بهذا التَّزييف من قريبٍ أو بعيدٍ.

- حقا -قالت السَّيدة- إنَّك مخطئٌ في حبِّك هذا له.

وأمرت بتكبيل أيديهما بالسَّلاسل.

- هذا ما سأفعله عن طيب خاطر -قال أحد الفرسان- وإذا ما أمرتني، فسوف أطيح بعنقيهما.

ربط أماديس من أحد ذراعيه، لكنه جذب الفارس نحوه. وضربه بقبضة يده في رأسه ضربة ارتجف لها الفارس، ثم عاجله أماديس بضربة في صدره، فانقلب تحت قدميه فاقد الوعي. هنا حدث هرج ومرج داخل الخيمة أن أتى الفرسان جميعهم يريدون ضرب أماديس وقتله، إلا أنه قد خرج فارس عجوز كان هناك، فحمل سيفه وبدأ يهدد أولئك الذين أرادوا ضربه، فدفعهم إلى خارج الخيمة، لكنهم كانوا قد أصابوا أماديس في

ظهره بالرُّمح، غير أنَّ الضَّربة لم تكن شديدة. وتوجَّه ذلك الفارس العجوز صوب
السَّيدة قائلا :

– إنَّك قد صنعت أكبر فعلةٍ شنعاء في الوجود حيث أتيت بفارسين من وجها
القوم إلى هنا وأمرت بقتلهما.

– كيف لا تقتلون –قالت هي– أكثر فارس في الوجود جنونًا، وذلك الذي فعا
هذا الجنون الآن ؟

قال جالاؤر :

– سيدتي، لن نسمح لأحد أن يقيدنا سواك، فأنت سيدة غاية في الجمال، ونحر
سجينان عندك، وعلينا لك السَّمع والطَّاعة.

– إذنْ والحال هكذا –قالت هي– سأقوم أنا بهذا الأمر.

تناولت أيديهما وقيَّدتها بحبلٍ بإحكامٍ شديدٍ، ثم أمرت بنزع الخيام من أماكنه
ووضعت الفارسين على جوادين وقد أصبحا مقرنين في الأصفاد، ورجلان يمسكا
بزمام الجوادين، ثم أخذوا طريقهم. أما جندالين وحامل السِّلاح التابع لجالاؤر فق
ذهبا معهم سيرًا على الأقدام مقيَّدين بالحبال. وهكذا تابع الجميع السَّير طوال اللي
بين جنبات الغابة. وأقول لكم إنَّ أماديس قد تمنَّى حينئذٍ الموت، لا بسبب البلية التي
أحاطت به –فهو يدرك أكثر من غيره كيف يواجه مثل هذه الأزمات– ولكن بسبب
المهمة التي كلفتهما بها السَّيدة المذكورة، والتي إذا لم ينجزها، فسوف تحبسه ف
مكان لا يمكنه من خلاله رؤية سيدته أوريانا، وإذا ما أنجزها فإنه سيكون بعيداً عنه
أيضًا، إذ لن يكون في استطاعته البقاء للعيش في بيت أبيها. والحال هكذا ظلَّ أماديس
مندهشًا، فما كان يدور في خلده شيء آخر في الوجود. أمَّا الفارس العجوز فقد أبد
اهتمامًا كبيرًا بأماديس، وتألَّم كثيرًا لما أصابه من جروح؛ لأنَّ الفتاة التي أحضرتهم
إلى هناك قد أخبرته بأنَّ هذا هو أشجع وأقوى فارس في الوجود في استخدا
الأسلحة. وكانت هذه الفتاة ابنة لهذا الفارس العجوز. و قد توسَّلت إليه واستحلفت

بالله أنْ يحاول دفع الموت عنهما، لأنَّها ستشعر بذنبٍ كبيرٍ وستكون فى عيونهما امرأة خائنة. وأخبرته بأنَّ هذا الفارس هو أماديس دى جاولا والآخر جالاؤر أخوه الذى قتل العملاق. هنا علم الفارس الغاية التى أحضروهما من أجلها إلى هناك، وتألم كثيراً لرؤيتهم يعذبونهما بمثل هذه الطَّريقة وهما من هما فى النزال، ورغب كثيراً فى إنقاذهما من الموت إذا توفر له ذلك، فهو يراه قادما يطلبهما لا محالة فى القريب العاجل. وصل إلى أماديس، ثم قال له:

– أتتألَّم لجروحك، وكيف حالك الآن ؟

وحين سمع أماديس الفارس يكلِّمه بهذه الصُّورة رفع وجهه فرآه الفارس العجوز الذى فكَّ أسره فى الخيمة من بين الفرسان الذين كانوا يريدون قتله، ثم قال له:

– سيدى وصديقى، إنَّنى لا أتألم لما أصابنى من قروح، لكنَّنى أتألَّم لفتاة أتت بنا إلى مثل هذا الكرب والضِّيق بينما أتينا نحن لمساعدتها، وهاهى تفعل بنا مثل هذه الخيانة.

– آه، سيدى! –قال الفارس– إنك حقًا قد خدعت، ولحسن الحظ فأنا أعرف من أمرك أكثر ممَّا فى حسبانك، وإذا ما أعاننى الله وحفظنى من كلِّ سوءٍ فسوف أعالج ما نزل بك إنْ استطعت! وأريد أنْ أسدى لك نصيحةً نافعةً، فإذا ما أخذت بها لن ينالك منها شرٌ. إنَّهم إذا عرفوا حقيقة أمرك ونسبك فلن يحل بك غير الموت، ولن تجد منه مهرباً أبداً، وعليه فلتفعل الآن ما أنصحك به : إنَّك رجلٌ أنيقٌ، ولك ملامحٌ جميلةٌ، وعليك أنْ تتقرَّب من السَّيدة بمجرَّد أنْ أخبرها بأنَّك أفضل فارس فى الوجود، وتطلب الزَّواج منها، أو أنْ تعدك بحبِّها وقتًا آخر، فهى امرأة تضع قلبها حيث أحبَّت، وأرى أنَّه لما تتمتَّع به أنت من جمالٍ وطيبةٍ تفوق الحد المعهود، فسوف يكون لك من الأمرين نصيبٌ، وإذا ما رغبت هى فى شىءٍ فسوف تسرع فى تنفيذه، حيث ترسل –من حيث تذهب اليوم للرَّاحة والنَّوم– لتعرف شيئًا عن أسمائكم. وأريد أن

أقول لك إنَّ الفتاة التي رأيتها، والتي أحضرتكما إلى هنا لم ترد أنْ تصرح للسيدة بشيءٍ من ذلك، حيث نفت علمها به. وبهذه الطَّريقة وبما سأقدمه لكما من معونة يمكن إطلاق سراحكما.

أماديس الذي كان يخشي سيدته أوريانا أشد من الموت قال للفارس :

– صديقي، بمقدور الله أنْ ينفِّذ فيَّ إرادته، لكن ما تطلبه منِّي لن يحدث أبداً، حتى لو كانت هي ترجوه منِّي وتطلق سراحي من أجله.

– حقًا –قال الفارس– إنَّ هذا ليدهشني، فأنت –وقد أصبحت على وشك الموت– لا تبغي الخلاص بنفسك بأيِّ ثمنٍ أوطريقةٍ.

– مثل هذا الخلاص –قال أماديس– لن يتحقَّق لي إنْ شاء الله ولكن تحدث مع هذا الفارس الآخر، فمن الواجب أنْ تمدحه أكثر منِّي أنا.

ذهب الفارس العجوز حينذاك متوجِّها إلى جالاور، حيث تحدَّث إليه بنفس الطَّريقة التي استخدمها مع أخيه. وقد سعد جالاور كثيراً حين سمع ذلك، وقال :

– سيدى الفارس، إذا ما كنت تودُّ منِّي أنْ أقترن بتلك السَّيدة فهذا ما يشرفنا ويجعلنا طوع أمرك.

– الآن دعني أذهب للحديث معها –قال الفارس– فأنا أودُّ عمل شيءٍ ما.

وهنا سار في طريقه، وما إن وصل إلى السَّيدة حتى قال :

– أنت قد أسرت هنا رجلين دون أنْ تعرفي من هما.

– لماذا تقول لي هذا الأمر ؟ – قالت هي.

– لأنَّك تأسرين هنا أفضل فارس في المعارك والنِّزال عرفته حتى اليوم، وهو –مع ذلك– ذو بهاء.

– أهو أماديس –قالت السَّيدة– ذلك الذي كثيراً ما رغبت في قتله؟!

- لا سيدتي -قال الفارس- فأنا لا أقول ذلك إلا من أجل هذا الذي يبدو أمامنا، والذي فضلاً عن طيبته هو أفضل وأجمل فارس يتمتَّع بالفتوة رأيته في حياتي. لقد تجاوزت الحد معه ولا أظنك ستتمادين في ذلك، فهو أمرٌ مشينٌ. إنه الآن يعاني الحبس، ولا يستحقه من جانبك، بل فعلت ذلك نظير كرهك لرجلٍ آخر. لتعلي من قدره وتريه وجهًا صبوحًا، وبهذه الطريقة دون غيرها يمكنك استمالته إلى ما تبغين تحقيقه.

- إذنْ فليحضر إليّ - قالت هي - وسوف أرى أي نوع من الرِّجال هو.

- سترين - قال الفارس - فارسًا من أجمل الفرسان الذين رأتهم عيناك.

في هذا الوقت اجتمع أماديس بجالاؤر، وقال له :

- جالاؤر أخي، أراك غاضبًا وتواجه خطر الموت، وأريدك أنْ تصغي هذه المرَّة لنصيحتي.

- سأفعل - قال هو -، وليزدك الله حياءً أشدَّ من الخوف.

أعدَّت السَّيدة جوادا وتهيأت لانتظار الفارس، فرأته أجمل مما كان عليه في الليل، وبدا لها أجمل فرسان الدُّنيا فقالت :

- أيُّها الفارس، كيف حالك ؟

- سيدتي -قال هو- إنَّ حالي لا يشبه حالك لو أنَّك كنت في حوزتي كما أنا الآن في حوزتك، لأنَّني كنت سأقوم لك بكلِّ سبل الرَّاحة والمتعة. وأنا لا أدري لماذا تصنعين بي ذلك على هذا النَّحو عكس ما كنت سأفعله معك، وأنت لست أهلاً لذلك؟! فعليك أنْ تكوني لفارسك، وفارسك يكون في خدمتك وطوع رغبتك وعاطفتك وأنت سيدة له، وليس له أن يُزجَّ به في السجن، وهو ما لا يقدر معه على نفعك بشيء.

هنا أصبحت السَّيدة -التي أطالت النَّظر إليه- وقد انجذبت إليه أكثر من أيِّ فارس تعاملت معه من قبل، ثمَّ قالت له :

- أيُّها الفارس، إذا ما أقدمت على قبول صداقتك وإطلاق سراحك من هذا السِّجن هل ستتخلَّى عن صحبة الملك ليسوارتى وتخبره بأنك تركته من أجلى ؟

- نعم -قال جالاوَر- سوف أفى بما تطلبين منى تجاهه، وهكذا سيفعل صاحبى هذا، الذى لا يقدر على فعل شيءٍ سوى ما آمره به.

- كم أفرح لذلك! والآن عدنى بما تقول أمام هؤلاء الفرسان، وأنا سأعدك بأنْ أقدم بعد ذلك على النُّزول على رغبتكما، وإطلاق سراحك وصديقك معك.

- هذا مايسرُّنى ويفرحنى كثيراً - قال جالاوَر.

- والآن أودُّ - قالت السَّيدة - أنْ يتم التَّعهد بذلك أمام سيدةٍ سنذهب إلى حيث هى لنستريح، وفى أثناء ذلك عليكما أنْ تؤكدا لى أنكما لن تتركانى، وسوف يفك أسركما وتذهبان بلا قيود.

نادى جالاوَر على أماديس وأمره بأنْ يعده بعدم التَّخلى عن السَّيدة، فتعهَّد بذلك. وهنا أمرت بفك قيودهما، وقال جالاوَر:

- والآن أصدرى أمراً بفك قيود حاملى السِّلاح التابعين لنا، فهما لا ينفصلان عنَّا. وهكذا فكَّت قيودهما، وأعطوهما جوادا بلا سرجٍ يركبانه.

هكذا ساروا طوال ذلك اليوم، وكان جالاوَر يتحدَّث إلى ماداسيما، وحين غربت الشمس وصلوا إلى قلعة أبيس، حيث رحَّبت بهم السَّيدة أيما ترحيبٍ، فقد ساد بين السَّيدتين حبٌ كبير. قالت ماداسيما :

- جالاوَر، هل لك فى أنْ تتعهَّد بالمهمة التى اتفقنا عليها ؟

- نعم سأتعهَّد لك بها طواعيةً -قال هو- وأنت عليك أنْ تتعهَّدى بما وعدتنى به.

- أباسم الله؟! - قالت السَّيدة.

وحينئذ طلبت من صاحبة القلعة أنْ تحضر إليها وبرفقتها ابناها الفارسان اللذان يعيشان معها، ثم قالت لهم :

- أريدكم أن تكونوا شهداء على هذا التَّعهد الذى أبرمه بينى وبين هذين الفارسين.

ثم تحدَّثت عن السَّيد جالاوْر قائلة:

- هذا الفارس سجينٌ عندى وأريد أنْ أجعل منه صديقًا لى، وكذلك الأمر بالنِّسبة للفارس الآخر رفيقه. وقد تمَّ الاتفاق على مايلى: إنَّ عليهما التَّخلِّى عن الملك ليسوارتى وإخباره بأنَّهما فعلا ذلك من أجلى، وأنا سأطلق سراحهما حتى يتمتَّعا بالحرية، ولتذهبى برفقة ولديك معهما إلى الملك ليسوارتى حتى تروا كيف سيكون وفاؤهم بالعهد. وإذا لم يحدث ذلك فعليكم أنْ تنشروا وتذيعوا ما حدث، حتى يعلمه الجميع. وسأمنحكم مدَّة عشرة أيَّام لهذا الغرض.

- صديقتى العزيزة - قالت صاحبة القلعة - إنَّه ليسعدنى أنْ أقوم بهذه المهمة التى تكلفيننى بها إذا ما سمح لى الفارسان بذلك.

- نسمح لك به -قال جالاوْر- وأنْ تفى هذه السَّيدة بما التزمت به.

- نعم - قالت هى - هذا ما سيتمُّ بعد ذلك.

هكذا تمَّ الاتفاق بينهم كما سمعتم. وفى تلك الليلة أقدم جالاوْر على مضاجعة ماداسيما، التى كان لها من الجمال والخصوبة نصيبٌ، وتنتسب إلى عائلة نبيلة. غير أنَّها لم تكن ممن يقمن لأنفسهن قدرًا واجبًا وقد استسلمت إليه أكثر من أىِّ فارسٍ آخر رأته من قبل. وفى الصَّباح أمرت باعطائهم جيادهم وأسلحتهم، وأمرت بإطلاق سراحهم، ثم أخذت طريق جانتاسى المسمَّى باسم القلعة التى تملكها بينما ساروا هم فى طريق لندن -حيث يوجد الملك ليسوارتى- فرحين لنجاتهم من تلك الخيانة، ولرغبتهم فى إعفاء أنفسهم مما تعهَّدوا به للحفاظ على شرفهم.

الفصل الرَّابع والثَّلاثون

مظاهر هلاك الملك ليسوارتي وما حدث له من جرَّاء وعوده،

التي كان من المشروع التَّخلي عنها.

كان الملك ليسوارتي وزوجته السَّيدة بريسينا موجودين بالخيام إلى جوار العديد من الفرسان والسَّيدات والفتيات -وذلك في اليوم الرَّابع على رحيل أماديس وجالاؤر- حين دخل عليهما من الباب الفارس الذي كان قد ترك لهما العباءة والتَّاج -كما تعلمون- فأدَّى التَّحية، ثمَّ قال للملك :

- سيدي، كيف لا تضع التَّاج الجميل الذي تركته لك؟! وأنت سيدتي الملكة، لماذا لا تضعين العباءة؟!

سكت الملك، فما أراد أنْ يرد عليه بشيءٍ يذكر، فقال الفارس :

- يسرني كثيراً أنكما لم ترتدياهما وتتفاخرا بهما، فبهذا أنقذتما حياتي. وإمَّا أنْ تعطياني الهدية التي كنتما ستقدمانها لي، والحال هكذا، أعطيانيها، فليس لي أنْ أتأخر بحال من الأحوال. وحين سمع الملك ذلك، تألمَّ كثيراً، ثمَّ قال :

- أيُّها الفارس، ليس في استطاعتي أنْ أعيد إليك العباءة أوالتَّاج فقد فقدتهما معًا، وأنا حزينٌ لأجلك -فقد كنت في حاجة إليهما- أكثر من حزني على نفسي، رغم عظم قدرها عندي.

- يالتعاستي! سألقي حتفي -قال الفارس.

وبدأ يعرب عن كبير ألمه وحزنه قائلاً :

- يا لشقائي وحظي العثر سألقى حتفي بصورةٍ لم تحدث لفارسٍ قبلي قط !

سالت دموعه على خده فبلَّلت لحيته البيضاء كبياض الصُّوف.

أشفق عليه الملك، ثم قال :

- أيُّها الفارس، لا تخش على حياتك، فسوف أضع كلَّ ما أملك في سبيل إنقاذك، وهكذا يكون وعدي لك وسأحافظ عليه حتى النِّهاية.

هنا انكب الفارس على قدمي الملك يريد تقبيلهما، إلاَّ أنَّ الملك رفعه بيديه، ثم قال له :

- الآن اطلب ما يحلو لك.

- سيدي -قال الفارس- حقا فقد وعدتماني بأنْ تعطياني العباءة والتَّاج، أو ما أطلبه مقابلهما. ويعلم الله -يا سيدي- أنَّني ما كنت سأطلب ما أبغيه الآن، ولو أنَّ هناك شيئًا آخر في العالم يمكن أنْ يحلَّ قضيتي لما أضجرتك معي، غير أنَّه ليس بمقدوري عمل شيءٍ آخر. وإنَّني لأعرف مدى صعوبة أنْ تعطيني -حضرتك- ما أطلب، غير أنه أشدُّ خطورة وصعوبة ألاَّ يفي رجلٌ مثلك بما يطلب منه. سيؤلمك إعطائي إياه كما يؤلمني قبوله.

- الآن اطلب -قال الملك- فمهما كان الأمر غاليًا فلن أخيِّبَ رجاءك.

أشكرك سيدي جزيل الشُّكر - قال الفارس- إنَّني في حاجة إلى أنْ تحيطني برعايتك وحمايتك من أولئك الذين يوجدون بقصرك؛ حتى لا يبغوا عليَّ فيمنعوني عطيتي، إذ بغير هذا لن يكون هناك حفظ لما أعطيتني، كما لن أكون راضيًا مسروراً إذا ما أخذت عطيتي من جانب، وسلبت منِّي من جانب آخر.

- لن تضيع - قال الملك - عطيتنا لك التي تطلبها، هكذا أعدك. وأمر بنشره بين الجميع.

هنا قال الفارس :

- سيدى ليس لى أنْ أنقذ نفسى من الموت إلا بتاجى وعباءتى أو بابنتك أوريانا. والآن لك أنْ تعطينى من هذا ما تشاء، وأنا أرغب أكثر فيما أعطيته لك.

- آه أيُّها الفارس ! -قال الملك- كثير هذا الذى تطلبه منى.

وخيم الحزن على الجميع بصورةٍ لا مثيل لها، لكنَّ الملك -الذى هو أوفى النَّاس جميعًا- قال :

- لا تثريب عليكم، فمن الأنسب أنْ نفقد ابنتى على ألاَّ أفى بكلمتى، لأنَّ أول الأمرين يضرُّ بالبعض أمَّا ثانيهما فيضرُّ بالكل؛ حيث ينتج عنه مخاطر جمّة، والنَّاس حين لا يثقون فى صدق كلام ملوكهم يضيع الحب الحقيقى من بينهم وإذا لم يكن هذا الحب فلا وجود لشىء يفيد بعد ذلك.

ثم أمر بإحضار ابنته إليه.

وحين سمعت الملكة والوصيفات والفتيات بهذا النَّبأ أقمن أحزانًا لا مثيل لها فى الوجود. غير أنَّ الملك أمرهن بأنْ يلزمن حجراتهن، وأمر أتباعه جميعًا بأنْ يكفُّوا عن البكاء حتى لا يضيع تقديره وحبه لهم، قائلاً :

- الآن ستكون ابنتى فى رعاية الله الذى لن ينزل بها سوى كلِّ خيرٍ، ولكنَّنى لا أستطيع عدم الوفاء بكلمتى حسب ما أرى وأعتقد.

فى هذا الظرف أتت أوريانا الجميلة إلى والدها الملك تعلوها الدَّهشة، وخرَّت راكعةً على قدميه، ثم قالت :

- والدى وسيدى، ما هذا الذى تودُّ أنْ تفعله؟!

- أفعل ذلك -قال الملك- حتى لا أنقض كلمتى.

ثم توجَّه إلى الفارس قائلاً :

- هاهو الطلب الذى طلبت، أتريد أنْ يصحبها أحد ؟

- سيدى -قال الفارس- ما أحضرت معى غير الفارسين وحاملى سلاح، اللذين أتيتك بهما فى بينديليسورا، وما بمقدورى حمل غير ابنتك معى، ولكنّنى أخبرك بأنَّه لا خوف عليها على الإطلاق حتى أضعها فى يد ذلك الذى على أنْ أسلِّمها له.

- لتذهب معها إحدى الفتيات -قال الملك- إذا ما أردت، ففى ذلك تشريف وتكريمٌ لها، وحتى لا تكون وحدها بينكم.

قبل الفارس ذلك. وحين سمعت أوريانا بهذا خرَّت على الأرض مغشيا عليها، ولكن لم ينفعها ذلك، فقد تناولها الفارس بين ذراعيه بينما كان يبكى، ليفصح للجميع بأنَّه فعل ذلك رغمًا عنه، وسلَّمها لحامل السِّلاح الذى كان ممتطيًا جواده الضَّخم والسَّريع، فوضعها على السَّرج وجلس هو على أرداف الجواد، ثم قال للفارس :

- اعتن بها جيداً ولا تتركها تسقط، فهى فى حالة إغماءٍ، والله وحده يعلم أنَّه ما من فارس فى هذا القصر أشد حزنًا عليها منِّى.

ثم أمر الملك بإحضار الفتاة الدَّانماركية، وأركبها جواداً، ثم قال :

- اذهبى مع سيدتك ولا تتركيها أبداً فى شرٍّ أو خيرٍ تتعرضان له طيلة ما يسمحون لك بلزومها والبقاء معها.

- يا لشقوتى - قالت هى - لم يقع ببالى قط مثل هذا السَّفر.

تحرَّك الجميع أمام الملك، وأمسك الفارس العظيم المفتول العضلات -الذى لم يشأ أنْ ينزع عنه خوذته فى بينديليسورا- بزمام الجواد الذى تركبه أوريانا. ولتعلموا أنَّ هذا الفارس هو أركالاوس الإنكنتادور.

وبخروجهم من ساحة القصر تنهدَّت أوريانا بعمقٍ كمن تمزَّق قلبها، وقالت وهى فى حالة غثيانٍ :

– آه، صديقى العزيز، لقد مُنحت هذه العطية فى وقت عصيب، ولهذا فسوف يلقى كل منَّا حتفه، أنا وأنت.

قالت هذا الكلام قاصدةً أماديس، الذى سمحت له بالخروج مع تلك الفتاة، وظنَّ الآخرون أنَّها تقول هذا الكلام تقصد نفسها وأباها. دخل من كانوا يحملونها بعد ذلك إلى إحدى الغابات، وأسرعوا الخطى حتى انتهوا من ذلك الطريق ودخلوا إلى وادٍ عميقٍ.

امتطى الملك جوادًا وحمل عصا غليظة فى يده، حتى لا يعترض طريقهم أحدٌ، فقد أعطاهم الأمان. أمَّا مابيليا –التى كانت واقفةً بالنَّافذة والحزن يعتصرها– فقد رأت أرديان (قزم أماديس) يمرُّ بجوار السُّور ممتطيًا جوادًا عظيمًا خفيف الحركة، فنادته مناداة المكروبة الحزينة، وقالت :

– أرديان صديقى، إذا ما كنت تحبُّ سيدك فلا تسترح ليلاً أو نهارًا حتى تجده، ولتحك له تلك البلية التى وقعت هنا. وإذا لم تفعل ذلك ستكون قد خنته.

– يا للعذراء –قال القزم– سأنقل إليه الخبر بأسرع ما يمكن.

ثم ضرب الجواد بالسَّوط، وأخذ الطَّريق الذى رأى سيده قد سار فيه على جناح السُّرعة. •

الآن سنقص عليكم ما حدث آنذاك للملك فى الوقت الذى بقى فيه عند مدخل الغابة –كما تعلمون– وهو يعمل على إرجاع كل الفرسان الذين خرجوا هناك، وبرفقته عشرون فارسًا، وهنا رأى الفتاة التى وعدها بهديةٍ قادمةً إليه حتى يفى لها بما وعدها، فهو أهل لذلك. قدمت الفتاة على جواد سريع تحمل سيفًا حسن الزِّينة ورمحًا صُنِعَ من حديدٍ جيد وجميل وحربة مزخرفة. ولما بلغت الفتاة الملك قالت له :

– سيدى، يرعاك الله، ويهبك السَّعادة والقوة حتى تعطينى ما وعدتنى به فى بنديليسورا أمام فرسانك.

– أيَّتها الفتاة –قال الملك– أنا فى حاجة إلى فرحة تخرجنى مما أنا فيه، ولكن مهما كان الأمر فلتذكرينى بما قطعته لك من عهد، وسوف أفى به.

- سيدى -قالت هى- بهذا الأمل أتيت إليك كمن تأتى إلى أوفى ملك فى العالم، والآن أريدك أنْ تنتقم لي من فارس يوجد بهذه الغابة، حيث قتل والدى قتل غدر لم يعهد العالم له مثيلاً، ثم اغتصبني، وتمادى فى غيِّه بهذا الشَّكل حتي لم يعد من الممكن القضاء عليه إلا إذا أتاه الموت علي يد أشرف رجالات لندن بعد أنْ يضربه ضربةً بهذا الرمح وأخرى بهذا السَّيف. وقد أعطى هذا السَّيف لصديقة له كي تحفظه متخيِّلاً أنَّها تحبه كثيراً، لكن الأمر لم يكن كذلك، إذ كانت تكرهه من كلِّ قلبها، فأعطتنى السَّيف والرُّمح شريطة أنْ أنتقم منه، وأنا أعلم أنَّه إذا لم يكن موت هذا الفارس بيدك أنت، فأنت أشرف من فى هذه الدِّيار- فلن يكون بيد أحدٍ غيرك، وإذا ما واتتك الجرأة على الانتقام، فلابد من ذهابك وحدك، لأننى وعدته بأن آتى إليه اليوم بفارسٍ ينازله، ولهذا السَّبب قدم إلى هناك، وهو على يقينٍ من أنَّه يستحيل على امتلاك سيفه ورمحه. وهكذا يكون النِّزال بيننا، فإذا ما كسبه هو فستسقط عنه حجتى وشكايتى، وإذا ما هُزم، فلأفعل به ما أشاء.

- باسم الله - قال الملك - أودُّ الذَّهاب معك.

ثم أمر بإحضار أسلحته، فتدرع بها سريعًا، وامتطى جواده، الذى كان يقدره كثيرًا، ثم أشارت عليه الفتاة بأنْ يتنطق بالسَّيف الذى أحضرته. ترك سيفه الذى هو أعظم سيف فى الوجود وحمل الآخر، وحمل درعًا حول رقبته. وأمَّا الفتاة فقد أعطته خوذتها ورمحها المزركش، وسار معها مدَّةً طويلةً فى الطَّريق، غير أنَّ الفتاة أشارت إليه بترك الطَّريق وقادته إلى طريقٍ آخرَ. وبالقرب من مجموعة من الأشجار بالمكان الذى دخل منه أولئك الذين حملوا أوريانا رأى الملك فارسًا مدججًا بالسِّلاح فوق جوادٍ أسودٍ، وحول عنقه سيف أخضر والخوذة كذلك. قالت الفتاة :

- سيدى خذ خوذتك؛ فذاك هو الفارس الذى حدثتك عنه وتراه الآن.

وضع الملك الخوذة فوق رأسه واستلم رمحه، ثم قال :

- أيُّها الفارس المتعجرف السيئ الطَّلعة، قف حيث أنت ودافع عن نفسك.

استلم كل منهما رمحه، وسارا يواجه أحدهما الآخر بأسرع ما أمكن للجوادين، وسدَّد كل منهما إلى الآخر ضربةً في درعه، حتى تحطَّم الدرعان على أثرها، ولكن جاءت الضربة التى أصابت الملك بسيطةً فما كاد يشعر بها في يده، وكان حريصاً على ألا تخيب ضرباته. استلم سيفه، وكذلك الفارس الآخر، وتضاربا فجاءت الضَّربات أعلي الخوذتين. اخترق سيف الفارس منتصف خوذة الملك، فانشقت كما التُّفاحة، وتناثر الحديد على الأرض، وحينئذ علم أنَّه قد تعرض للخيانة. وهنا شرع الفارس في تسديد العديد من الضَّربات إلي جسده والجواد كذلك. وحين رأى الملك أنَّ جواده أشرف على الموت التحم بجسد الفارس، وهذا الأخير كذلك، وشدَّ كلٌّ منهما الآخر حتى سقطا على الأرض، وأصبح الفارس أسفل جسد الملك، وتناول الملك السَّيف الذى طار من يد الفارس وأخذ يسدد إليه العديد من الضَّربات كلَّما أمكنه ذلك. وهنا راحت الفتاة -التى رأت ما يجرى- تصيح بأعلى صوتها قائلة:

- آه، يا أركالاوس، أغثنا، فقد تأخرت كثيراً وتركت مساعدك يلقى حتفه هنا!

وحين أقدم الملك على قتل الفارس سمع جلبةً كبيرةً، فالتفت فوجد عشرة فرسانٍ أتوا نحوه مسرعين، وفي مقدمتهم فارس يصيح بأعلى صوته قائلاً :

- أيُّها الملك ليسوارتي، ستموت الآن، ولن يكون أمامك يوم آخر تمارس فيه الحكم أو تضع التَّاج على رأسك.

وحين سمع الملك هذا الكلام أصابه فزعٌ كبيرٌ، وخاف على نفسه من الهلاك، ثم قال بكلِّ عزمٍ وقوةٍ لديه :

- من الممكن أنْ أموت هنا، فأنتم تفوقونني عدداً، ولكنَّنى سألحق بكم الموت جميعًا لما جُبلتم عليه من غدرٍ وتزييفٍ.

وما إن وصل ذلك الفارس بأسرع ما أمكن لجواده حتى سدَّد إلى الملك ضربة قوية برمحه في درعه، فما استطاع الملك لها دفعًا ونزل بيديه على الأرض، ثم نهض

بعد ذلك كمن يريد أنْ يحمى نفسه حتى الموت، الذى أصبح أقرب إليه من أى شىء، فسدَّد إليه ضربةً قاسيةً بسيفه أصابت ساق جواده، فقطعتها عن آخرها، وسقط الفارس تحت جواده، فهجم الجميع عليه، وأخذ يدافع عن نفسه بكلِّ شجاعة، دفاعًا لم يكن منه بد، حتى أصبح عرضة لضربات قاسية نظير ارتطامه بمقدمات الجياد، وهنا التحم معه الفارسان المترجلان جسداً لجسد ونزعا سيفه من يده، وبعد ذلك نزعا الدِّرع من حول عنقه والخوذة من فوق رأسه، وغلوه حول عنقه فى سلسلة سميكة مزودة بحبلين، وأجبروه على أنْ يمتطى أحد الجياد. قاده الفارسان من الحبلين، وسارا معه. ولما وصلوا إلى واد به أشجار وجدوا أركالاوس وبحوزته أوريانا والفتاة الدانماركية. وهنا قال الفارس الذى يسير أمام الملك :

- سيدى، هانت ترى أمامك الملك ليسوارتى.

- حقا؟! -قال هو- وصول حميد هذا، ولسوف أعمل على ألا يخافه أحد بعد ذلك، أو يخاف أحدًا من أهل بيته.

- آه أيُّها الخائن ! - قال الملك - حسنًا، أعلم أنَّك أهل للقيام بأىِّ نوعٍ من أنواع الخيانة، وسأخبرك به ، على الرغم من كونى جريحا، ولديك الرغبة الآن فى منازلتى فأنا مستعد.

- حقا -قال أركالاوس- فإذا ما كان لى أنْ أهزم فارسًا مثلك فلا شىء يهمنى بعد ذلك.

هكذا تحرَّك الجميع عبر طريق انقسم إلى اتجاهين، ونادى أركالاوس على أحد الفتيان، وقال له :

- اذهب على جناح السُّرعة إلى لندن وقل لبارسينان يعد نفسه ليكون ملكًا، فقد حقَّقت ما وعدته به فقد انتهى كل شىء.

انصرف الفتى مسرعًا، وقال أركالاوس لصحبته :

– اذهبوا إلى داجاتيل بعشرة فرسان من هؤلاء، واحملوا معكم الملك ليسوارتي، ثم أدخلوه سجني. وأنا سأحمل أوريانا مع هؤلاء الأربعة، وعليّ أن أريها أين توجد كتبي وحاجياتي في مونتي ألدين.

كانت تلك أمنع قلعة في الوجود. وهنا انفصل الفرسان العشرة ومعهم الملك، والخمسة الآخرون مع أوريانا، ومعهم أركالاوس في إشارة منه إلى أنه وحده يساوي خمسة فرسان.

ماذا عسانا أنْ نقول هنا أيُها الأباطرة والملوك العظماء يامن تشغلون مناصب عليا؟ هذا الملك الذي يدعى ليسوارتي فكَّر ذات يومٍ أنْ يكون سيد العالم، وفي هذا اليوم نفسه فقد الابنة الوريثة لمالكه، وهو أصبح في الأسر، مطعونًا في شرفه، مكبَّلاً بالسَّلاسل، في حوزة ساحرٍ شريرٍ قاسٍ، دون أنْ يملك لذلك كله دفعًا. اسمعوا وتدبَّروا، فمن تصرفات القدر أنَّ الله واهب النِّعم والدَّرجات العلا، وهو الذي يذل ويخفض القلوب والإرادة أيضا، وليس بمستغربٍ أنْ يحال شكره وخدمته إلى عالم النسيان، بل ذلك الشَّيء الذي به تؤدي هذه الأشياء وفق زعمكم، ألا وهي الغطرسة الكبيرة، الطَّمع الهائل، وهنا ستكون من حكمة الرَّبِّ أنْ ينزع منكم كلَّ ما لا يتوافق مع إرادته بمثل هذه الإهانة. وعلى وجه الخصوص، عليكم أنْ تعتبروا أسراره وأحكامه القاطعة، فرغم أنَّ هذا الملك ليسوارتي يتمتَّع بقدرٍ كبيرٍ من العدل، والحرية والظُّرف، فقد أراد أيضًا أنْ يجعله في موقفٍ مناقضٍ لما كان فيه، وماذا عساه أنْ يفعل بهؤلاء الذين تأتي أفعالهم كلُّها على عكس مراده ؟ أتعلمون ماذا ؟ دائمًا يجعل الله في قضاءه رحمة !. شاءت إرادته أنْ يجعل الثَّواب الحسن مصير أولئك الذين يعملون الصَّالحات، وأما أولئك الذين يعملون السيئات ولا يضعون حدا لسيئاتهم وشرورهم. الله سبحانه وتعالى بعد أن سمح بوقوع هذا الملك في مثل هذا المأزق، ليدلِّل على أنه حتى يرفع أقوامًا ويخفضهم ويبرهن على ذلك بقوته، التي تكفي وزيادة لمثل هذا العمل، وقد جعل في هذا القضاء رحمةٍ كما سترون.

الفصلُ الخامس والثَّلاثون

كيف علم أماديس وجالاؤر بالخيانة التى حدثت، وتشاوروا فيما بينهما من أجل إطلاق سراح الملك وأوريانا إذا تسنَّى لهما ذلك.

بينما أماديس وجالاؤر يسيران فى طريق لندن، الذى تعرضا فيه لمخاطر لا تقل عن تلك التي تعرضا لها في سجن سيدة قلعة جانتاسى، وبينما هما على مسافة ميلين من المدينة طلع عليهما أرديان القزم سائراً بأقصى سرعة ممكنةٍ للجواد، عرفه أماديس، وقال :

- ذلك هو قزمى، ولن تصدقونى إذا ما أخبرتكم بأنه أتى إلينا بخبر محزن، لأنه يطلبنا.

وصل القزم إليهم ثُم قصَّ عليهم الأخبار جميعاً، وكيف تمَّ خطف أوريانا.

- آه يا للعذراء ! -قال أماديس- وأىُّ طريقٍ سلكه مختطفوها ؟

- سلكوا أقرب طريق إلى البلدة التى بها القصر -قال القزم.

حثَّ أماديس جواده على السَّير بأقصى سرعة ممكنة والغيظُ يتملَّكه، وما تمكن حتى من الكلام مع أخيه الذى خرج فى إثره. هكذا مرَّ الأخوان بالقرب من مدينة لندن، بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ، فما كانا يلقيان بالاً لشىء، غير أنَّ أماديس كان يسأل من يقع بصره عليه عن الطريق الذى سلكه الخاطفون لأوريانا، فكانوا يشيرون له عليه. وما كاد يمر جندالين أسفل النَّوافذ التى كانت تقف فيها الملكة ونساءٌ أخرياتٌ

كثيراتٌ، حتى نادت عليه الملكة وأعطته سيف الملك، الذي كان واحدًا من أفضل السَّيوف التي تنطقها الفرسان على الإطلاق، ثم قالت له :

- أعط هذا السَّيف لسيدك، وليكن الله في عونه بهذا السَّيف، وقل له ولجالاوْر إنَّ الملك قد خرج اليوم صباحًا مع فتاةٍ، وما عاد حتى الآن وما نعرف إلى أين ذهبت به.

أخذ جندالين السَّيف وانصرف بأسرع ما يمكن، وأماديس الذي كان لا يلقي بالا بالمكان الذي يسير فيه، من الحزن والهمِّ الكبيرين، أخطأ الطَّريق عبر أحد الجداول، ولما أراد العبور قفزًا إلى الجانب الآخر لم يتمكن الجواد من ذلك، فقد كان متعبا جدا فسقط في الوحل. نزل عنه أماديس، وسحبه من زمامه. وهنا لحق به جندالين وأعطاه سيف الملك وحدَّثه، وتبعه جالاوْر، وبعد أنْ امتطى جواده وسار به ورأى آثار أقدام لمجموعة من الفرسان وقف وانتظر أخاه. تركا الطَّريق وتابعا الآثار، وبعد مدةٍ وجيزةٍ عثرا على مجموعة من الحَطابين، الذين رأوا ما جرى للملك وأوريانا دون أنْ يعرفوا حقيقتهما، أو يتجرَّأوا على الاقتراب منهما. اختبأوا بين الأشجار الكثيفة، وقال واحد منهم :

- أيُّها الفارسان، أقادمان من لندن أنتما ؟

- ولماذا تسأل ؟ - قال جالاوْر.

- لأنَّه إذا ما كان النَّاس هناك قد فقدوا فارسًا وفتاةً - قال الحطَّاب - فقد رأينا هنا مغامرة.

وهنا قصُّوا عليهما ما جرى للملك وأوريانا أمام أعينهم، فعرفوا من ذلك أنَّ الملك قد أُسر غدرًا، وقال لهم أماديس :

- أتعلمون عنهم شيئا؟ ومن ذا الذي أسر الملك ؟

قال الحطَّاب:

- لكِنَّني سمعت الفتاة التي أتت بهما إلى هنا تنادي على أركالاوس بأعلى صوتها.

– آه ياإلهي ! –قال أماديس– ألحقني بهذا الخائن.

دلهما الحطَّابون على الطَّريق الذي سار فيه الفرسان العشرة الذين حملوا الملك معهم، والآخر الذي سار فيه الخمسة الذين حملوا أوريانا، وقال الحَّطاب :

– من بين الفرسان الخمسة رأيت أفضل فارسٍ في حياتي.

– آه –قال أماديس– ذلك هو الخائن أركالاوس.

ثم قال لجالاؤر :

– أخي وسيدي، اذهب أنت في إثر الملك، وليهدني الله ويهديك!

خرج بجواده على جناح السُّرعة قاصداً ذلك الطريق، وكذلك فقد سلك جالاؤر الطريق الذي حملوا فيه الملك.

ما إن انفصل أماديس عن أخيه حتى جدَّ في السَّير، ولما حان وقت غروب الشَّمس حل التَّعب بالجواد فما استطاع أنْ ينتقل خطوةً واحدةً، وسار وهو في غيظٍ شديدٍ فوجد عن يمينه –بالقرب من أحد الُطرق– فارساً ميتًا، وبجواره حامل سلاح يمسك بزمام جوادٍ عظيمٍ. اقترب منه أماديس، ثم قال له :

– صديقي، من الذي قتل هذا الفارس ؟

– قتله – قال حامل السِّلاح – خائن مرَّ من هنا يحمل معه أجمل فتيات الدُّنيا غصبًا، وما قتله لسببٍ يذكر سوى أنَّه سأله عن هوية تلك الفتاة، وأنا لم أجد أحدًا يمكن له أنْ يمد لي يد العون حتى نحمله من هذا المكان.

– سوف أترك معك حامل سلاحي هذا ليساعدك، وأعطني أنت هذا الجواد، وأعدك أن أعطيك في مقابله جوادين خيراً منه. أعطاه الرجل الجواد، وامتطى أماديس الجواد الذي كان غاية في الجمال، ثم قال لجندالين :

– ساعد حامل السلاح، وحين تبلغوا بالفارس أيَّ مكانٍ آهلٍ بالسُّكان عد عبر هذا الطَّريق والحق بي.

وما إن رحل عن المكان حتى سلك طريقه على جناح السُّرعة، فوجد نفسه عند طلوع النَّهار فى أحد الأودية، ونظر حوله فرأى صومعةً للعبادة، فذهب إلى هناك ليعرف ما إذا كان يوجد بها أحَد، وجد رجلاً ناسكًا فسأله عمَّا إذا كان مَّر به خمسة فرسان يحملون معهم فتاتين.

- سيدى -قال الرَّجل الصالح- لم يمر أحد، وإلا لكنت قد رأيتهم، ولكن هل ترى القلعة الموجودة هناك ؟

- لا -قال أماديس- ولماذا تقول هذا ؟

- لأنَّه -قال الرَّجل- قد اخبرنى ابن أخي بأنَّ أركالاوس السَّاحر يقطن تلك القلعة، وقد أحضر إليها بعض الفتيات عنوةً.

- يالله - قال أماديس- هذا هو الخائن الذى أبحث عنه.

- حقًا - قال النَّاسك - لقد ارتكب شرورًا كثيرة فى هذه الدِّيار، ونرجو الله أنْ يزيحه من هذه الدُّنيا، أو يغيره إلى حال أحسن، ولكن أليس لك حاجة أخرى ؟

- لا - قال أماديس - إلا حاجتى إلى الله.

- سيدى - قال النَّاسك - ألم تقل إنَّهم خمسة فضلاً عن أركالاوس، فهو أفضل فارس فى الوجود ولا يرهب أحداً.

- ليكن ما يشاء - قال أماديس - إنَّه لخائنٌ ومتعجرفٌ، وهكذا تكون حاشيته والمحيطون به؛ ولهذا فلست أرهبهم.

وحينئذٍ سأله عن هوية الفتاة فأخبره أماديس، وهنا قال العابد :

- آه ليكن الرَّب فى عونك ! فليس لسيدةٍ جميلةٍ مثلها أنْ تكون فى حوزة رجلٍ شريرٍ كهذا.

- ألديك شيءٌ من الشعير -قال أماديس- من أجل هذا الجواد ؟

– نعم – قال العابد – سأقدِّمه لك عن طيب خاطرٍ.

وبينما كان الجواد يتناول وجبته سأله أماديس هل هذه القلعة خاصة بأركالاوس؟ فقال الرَّجل الصَّالح :

– إنها قلعة رجل يدعى جرومن Grumen، ابن عم داردان ذلك الذى مات في بيت الملك ليسوارتي، ولهذا فقد جمع هناك كل من يكره الملك ليسوارتي.

– الآن أتركك فى رعاية الله – قال أماديس – وأرجو منك أنْ تدعو لى فى صلواتك، وأنْ تريني الطريق المؤدية إلى القلعة.

أشار له الرَّجل الصَّالح إلى الطريق، فسار أماديس طويلاً حتى وصل القلعة، فرأى السُّور عاليًا، والأبراج كثيفة. وصل إليه، لكنَّه لم يسمع صوت أحدٍ بالدَّاخل فاطمأنَّ لذلك، لأنَّ ذلك يعني أنَّ أركالاوس لم يخرج بعد. دار أماديس حول القلعة فما وجد لها غير بابٍ واحدٍ، وحينئذٍ انصرف إلى مكان صخرى ليختبئ فيه، ونزل من على جواده وأمسك بزمامه، وبقي ساكنًا مصوبًا عينيه دائما تجاه الباب، كمن خاصم النَّوم عينيه. فى تلك الأثناء انشقَّ الفجر، فركب جواده وانصرف إلى وادٍ بعيدٍ، فقد كان يتشكَّك فى رؤية أحد له، ثم صعد على ربوةٍ أعلى بكثير، ونظر إلى الأرض من كل جانب، ثم عاد إلى القلعة. وما تأخَّر به الوقت حتى رأى أركالاوس خارجًا ومعه رفاقه الأربعة مدجَّجين بالسِّلاح، وبينهم الجميلة أوريانا، فقال:

– آه يا إلهى ! أنا فى رعايتك الآن وعلى الدوام، فاجعلني من المحفوظين بك.

وفى تلك الأثناء بلغ أركالاوس شوطًا فى المسير فمرَّ بالقرب من أماديس،

وقد أخذت أوريانا تقول :

– صديقى وسيدى، لن أراك أبدًا فها هى منيَّتي أقبلت.

اغرورقت عينا أماديس بالدُّموع، وما إنْ هبط من الرَّبوة بأسرع ما أمكنه حتى دخل معهم فى ميدانٍ فسيحٍ، وقال :

– آه يا أركالاوس الخائن، ليس يناسبك أنْ تحمل مثل هذه السيِّدة الطيِّبة؟! هنا ارتجفت أوريانا بعد أنْ عرفت صوت صديقها، غير أنَّ أركالاوس ومن معه قد انقضوا على أماديس، وانقض هو عليهم سدد ضربةً مؤلمةً إلى أركالاوس، الذي أتى في مقدمة الرَّكب حتى أسقطه على الأرض من فوق مؤخرة الجواد، كما سدد إليه الآخرون ضرباتهم التي طاش بعضها، وفرغ أماديس لهم. ولَمَّا استدار بجواده بسرعة فائقة سدَّد ضربةً إلى جرومن، سيد القلعة الذي كان بينهم، فكان أنْ خرج الحديد ونصل الرمح من جانبه الآخر، وخرَّ على الأرض جثةً هامدةً، وكسر الرمح. وبعد ذلك أمسك بسيف الملك وانطلق نحو الآخرين، ودخل بينهم في شجاعة لا نظير لها وغيظ ملأ عليه وجدانه، فسدَّد إليهم ضرباتٍ موجعةً. وهكذا بدأ يشعر بمزيد من القوة والشَّجاعة فتحرَّك بكلِّ سهولةٍ وخفةٍ حتى أصبح على يقين من أنه إذا امتلأت السَّاحة بالفرسان فلن يستطيعوا الاستمرار أمامه أو الدِّفاع عن أنفسهم أمام ذلك السَّيف الهائل الذي يحمله. وما إن أصبح يفعل هذه العجائب التي سمعتم حتى توجَّهت الفتاة الدَّانماركية إلى أوريانا، فقالت لها :

– سيدتي، سوف تُنقذين، فها هنا يوجد الفارس الطَّيِّبُ، انظري إلى العجائب التي يصنعها.

قالت أوريانا حينذاك :

– آه يا صديقي ! ليكن الله في عونك وليحفظك، فليس هناك سواه في هذا الوجود يعيننا ويحفظنا.

هنا قال حامل السِّلاح الذي كانت تركب الجواد الذي معه :

– حقًّا، لن أنتظر حتى أتلقى في رأسي ضرباتٍ لا يمكن للخوذات والدُّروع أنْ تدفعها أو تتحمَّلها.

وما إن أنزلها على الأرض حتى فرَّ هاربًا على جناح السُّرعة.

وأمَّا أماديس الذى أعمل فيهم سيفه كما أراد، فقد سدَّد ضربة إلى أحدهم أصابت ذراعه فأسقطته على الأرض، ثم نهض وفرّ هاربًا صائحًا بأعلى صوته من أثر الموت. ثم توجَّه أماديس إلى آخر فأطاح بالخوذة من فوق رأسه، وغرس الرُمح في عنقه. وحين رأى الفارس الآخر هذا الدَّمار الذى لحق برفاقه أسلم رجليه إلى الرِّيح بقدر ما أمكنه ذلك. وأمَّا أماديس، الذى سار في أثره، فقد سمع سيدته تصيح بأعلى صوتها، استدار فرأى أركالاوس على متن جواده، وقد حمل معه السَّيدة أوريانا وانصرف مسرعًا قدر استطاعته. سار أماديس خلفه دونما توقف فلحقه في ذلك الميدان الفسيح. رفع سيفه كى يضربه، لكنَّه تحاشى أن يضربه ضربةً قاسيةً، إذ إنَّ السَّيف كان من الممكن أنْ يقتل أركالاوس وأوريانا، فعدل عن ذلك بضربةٍ خفيفةٍ فوق كتفيه، إلا أنَّها أسقطت جزءًا من درعه وقطعة من جلد الكتف. وهنا ترك أركالاوس أوريانا تسقط على الأرض حتى يتمكن من الهرب سريعـًا، فقد كان يخشى الموت، وقال له أماديس :

– آه يا أركالاوس ! عُد وسوف ترى ما إذا كان الموت من نصيبى كما قُلت.

غير أنَّه لم يشأ أنْ يستجيب له، ومن قبل نزع الدِّرع عن عنقه، ولحق به أماديس فسدَّد إليه ضربة مميتة أصابت نطاقه وقطعت الدِّرع، كما أصابت ضلوعه، وبلغ طرف السَّيف خاصرة الجواد، فقطع منه ما أمكنه ذلك. والحال هكذا فرّ الجواد مسرعًا بعد أن امتلأ خوفًا ورعبًا، حتى قطع في ساعة واحدة مسافةً طويلةً للغاية. ولكن أماديس – رغم كرهه لأركالاوس ورغبته في الإجهاز عليه– لم يذهب بعيداً حتى لا تضيع منه سيدته، فعاد إلى حيث توجد، وما إن نزل عن جواده حتى أدّى التَّحية لسيدته، وقبّل يديها، قائلاً :

– الآن ليفعل الله بى ما يشاء، فما غبت عن ناظرى قط سيدتى.

أصابتها دهشةٌ ألجمت لسانها، فما عرفت كيف تردُّ عليه، وعانقته. فقد تملَّكها خوفٌ شديدٌ من أولئك الفرسان الموتى الذين أحاطوا بها. ذهبت الفتاة الدَّانماركية لتأخذ جواد أماديس فرأت سيف أركالاوس ملقى على الأرض، فحملته وأتت به أماديس، وقالت :

- انظر سيدى، يا له من سيفٍ جميل!

نظر إلى السَّيف فوجده ذلك الذى وضعوه معه حين ألقي به في البحر، وقد سلبه منه أركالاوس حين سحره. وبينما يوجد أماديس على هذا الحال -كما تعلمون- جالسًا إلى جوار سيدته التي خارت قواها فلم تعد تقوى على القيام، وصل جندالين الذى أمضى الليل سائرًا، وقد تركوا الفارس المقتول فى أحد دور العبادة فأفرحهم وصوله، وقد كان هو أشدَّ فرحًا منهم لَمَّا رأى العراك قد انتهى. هنا أمر أماديس بأنْ توضع الفتاة الدَّانماركية على متن جواد من أولئك الذين يهيمون في الميدان، وقام هو بوضع أوريانا على متن جواد الفتاة. وتحرَّك الجميع من هناك تغمرهم فرحةٌ لا تضارعها فرحة أخرى. كان أماديس يسير ممسكًا بزمام جواد سيدته، ومازالت تحدِّثه عن الخوف الذى يعتريها من رؤيتها للفرسان الموتى، الأمر الذى يفقدها وعيها، ولكنَّه قال لها :

- لقد كان أكثرَ رهبةٍ وقسوةٍ ذلك الموت التي عانيته من أجلك، وليذهب عنك الحزن، ولتتذكَّرى ما وعدتك به، فإذا ما تحملت الأمر حتى الآن فليس ذلك لشيء آخر إلاَّ لاعتقادى بأنَّه ليس فى يدك أو مقدورك إعطائى أكثر مما أعطيتنى إياه. لكن من الآن فصاعدًا وبعد أنْ أصبحت حرَّةً -سيدتى، ما عاد ذلك يرضينى، فليس هناك من شيء يجعلنى أتحمل الحياة، التى ستنتهى بذلك الأمل المضجر الذى لم يمت به أحد قط.

قالت له أوريانا :

- بإخلاص وحسن نيةٍ -يا صديقى- فلن تتعرض -إنْ استطعت إلى ذلك سبيلاً- بسببى لأخطار من هذا النَّوع أبدًا. سأفعل ما تشاء، وافعل أنت، رغم أنَّ ذلك يبدو خطأ وخطيئةً، كمن لا يراقب ربه.

هكذا ساروا ثلاثة أميال حتى دخلوا إلى غابة كثيفة الأشجار توجد على مقربة ميل من المساكن. غشى النَّوم أوريانا، كأنها لم تنم طوال ليلة أمس، فقالت :

– صديقى، إنَّ النَّوم يغالبنى بصورةٍ لا أملك لها دفعًا.

– سيدتى –قال هو– لنذهب إلى ذلك الوادى ولتنامى ما تشائين.

انحرفوا عن الطَّريق ودخلوا إلى الوادى، حيث وجدوا جدولاً صغيرًا من الماء وحشائش خضراء يانعة. هناك أنزل أماديس سيدته، ثم قال :

– سيدتى، القيلولة تحمل معها الحر، الشديد وسوف تنامين هنا حتى يحل البرد، وفى أثناء ذلك سأرسل جندالين إلى تلك المساكن كى يحضر لنا ما ندفع به الحر عنا.

– هيهات – قالت أوريانا – من ذا الذى سيعطيكموه ؟

قال أماديس :

– ليعطوه إيَّاه مقابل هذا الجواد، وليعد إلينا ماشيًا.

– لن يكون ذلك – قالت أوريانا – فليحمل خاتمى هذا، فإنَّه ينفعنا الآن أكثر من أىِّ شىء آخر.

أخرجت خاتمها من إصبعها، وأعطته لجندالين. وحين انصرف قالت بصوت متهدِّج لأماديس :

– سيدى، إنَّ من يجد الفرصة الطيبة ثم يضيعها سوف يتأخر فى استعادتها.
وما إن قالت ذلك حتى انصرفت، وهنا فهم أماديس جيداً لماذا قالت له ذلك.

نامت أوريانا فى عباءة الفتاة، بينما وضع أماديس أسلحته عن جسده، حيث كان فى حاجةٍ إلى ذلك، وحين وضع سلاحه عنه ذهبت الفتاة فدخلت بين أشجارٍ كثيفةٍ لتنام. وعاد أماديس إلى سيدته، وحين رآها تشرق جمالاً وقد غدت فى حوزته، وأسلمت نفسها له انـزعج من المتعة والخجل فما تجَّرأ على حتى مجرَّد النَّظر إليها. هكذا يمكن القول إنه فوق ذلك الحشيش الأخضر وتلك العباءة – وبما كانت تملكه أوريانا من جمال ورقة أكثر من جرأة وشجاعة أماديس – أصبحت أجمل الفتيات

فى الدُّنيا امرأة. وقد اعتقدا أنَّ اللهيب الذى شبَّ فى جسديهما سينطفئ، ولكنه قد بلغ حد الذُّروة، وأصبح أقوى وأكثر سخونة من ذى قبل، وذلك كما يحدث فى حالة الحب الحقيقى الصحيح عادة. هكذا ظلاً يرتشفان من نبع ذلك الحبِّ الذى أصاب قلبيها بسهامه حتى انزعج أماديس لقدوم جندالين فنهض قائمًا. نادوا على الفتاة، وأمروا بإعداد طعام يأكلونه، فقد كانوا فى حاجة إلى ذلك، وعلى الرَّغم من عدم وجود الخدم والآنية الفضية أمامهم، فإنهم لم يتخلوا عن إظهار السَّعادة والمتعة بتناول الطَّعام على هذه الحشائش. وهكذا – كما سمعتم – أصبح أماديس وأوريانا فى تلك الغابة يعيشان حياة المتعة التى لا يريدان التَّخلِّى عنها لو أنَّهما تمكنا من الاستمرار فيها دون مضايقة أو شديد حياءٍ وخجلٍ.

سنتركهم الآن يستريحون ويمرحون، وسنسرد ما حدث للسَّيد جالاؤر عندما ذهب يحاول نجدة الملك.

الفصلُ السَّادس والثَّلاثون

بعد مواجهة العديد من المصائب واجه جالاوز - بمساعدة من لاداسين الاسجريميدور وجيلان الكويدادور - أولئك الفرسان الذين كانوا يحملون الملك ليسوارتى. ألقى ابن عم أركالاوس - قائد المجموعة التى اختطفت الملك - مسئولية ما حدث على بارسينان الرّاغب فى الجلوس على عرش بريطانيا. أمّاً الملك وأصدقاؤه فقد سلكوا طريق لندن.

الفصلُ السَّابعُ والثَّلاثون

في تلك الأثناء وفي الوقت نفسه الذي وصلت فيه أنباءٌ إلى قصر الملك تفيد وقوعه في الأسر، كان بارسينان قد أخذ يعدُّ العدَّة لتسلم مقاليد الحكم في لندن. وقام أربان، ملك نورجاليس وابن أخت الملكة، بالدِّفاع عن الملكة أمام محاولات ذلك الخائن.

الفصلُ الثَّامن والثَّلاثون

ما إن علم أماديس بخيانة بارسينان حتى ترك أوريانا في يد السَّيد جروميدان ورحل قاصداً لندن، حيث لقى الخائن هزيمةً كبرى بعد معركةٍ ضاريةٍ. والحال هكذا التقى الملك وهو فى طريق عودته إلى بلاطه بالعديد من الفرسان الذين خرجوا بحثا عنه، ومن بينهم أجراخيس وجالبانيس وكذلك أوريانا في صحبة السَّيد جروميدان. وما إن وصل الملك إلى لندن حتى تمكن من قهر القوات المتمرِّدة، ثم أمر بإحراق ابن عم أركالاوس.

ولما تخلَّص الملك من الصُّعوبات والكوارث التى تعرَّض لها عاد إلى قصره كسابق عهده، حيث أقيمت الاحتفالات الكبيرة داخل القصر ليلا، وبين جنبات السَّاحة أثناء النَّهار. وذات يوم مثلت أمام الملك السَّيدة وولداها، الذين تعهد أماديس وجالاؤر أمامهم بطاعة ماداسيما فى طلبها منهما بالرَّحيل عن ليسوارتى - كما سمعتم من قبل - وحين شاهداها أقبلا عليها يقدِّمان لها واجب الضِّيافة، ثم قالت لهما :

- صديقاى، أتيت إلى هنا من أجل الموضوع الذى تعرفانه، ولتخبرانى ماذا أنتما فاعلان به؟

- سنفى بكل ما تمَّ الاتفاق عليه مع ماداسيما.

- أباسم الله ! - قالت السَّيدة.

- إذنْ فاليوم هو موعدنا، لنذهب إلى حيث يوجد الملك - قالا.

- لنذهب - قالت.

وحينئذٍ ذهبوا جميعا إلى حيث يوجد الملك، فأدَّت خالص التحية له، واستقبلها الملك بوجه طلق. قالت السَّيدة :

– سيدي، أتيت إلى هنا لأرى ما إذا كان هذان الفارسان سيفيان بوعد قطعاه على نفسيهما لسيدةٍ.

– سأل الملك عن ماهية ذلك الوعد.

– وعد – قالت – أرى فيه صعوبة عليكم سيدى وعلى كلِّ أولئك الذين يحيطون بك هنا، نظرًا لأنهم يحبونك حبا جما.

وحينئذٍ قصَّت السَّيدة الحدث بجميع أطرافه مثلما وقع تماما مع السَّيدة ماداسيما، سيدة جانتاسي. وحين سمع الملك ذلك قال :

– آه يا جالاؤر، لقد قتلتني !

– هذا أفضل لنا – قال جالاؤر – مما هناك من موت، ولو عرفنا مَن هناك لما تركونا أحياء. ولا تأس سيدى على ذلك كثيرا، فسوف نعالج هذا الأمر بأسرع مما تتصوَّر.

وبعد ذلك توجَّه إلى أخيه أماديس بالكلام.

– لقد وعدتنى بأنْ تكون معى فى مثل هذا الوفاء بالوعد.

– نعم – قال أماديس.

وهنا روى جالاؤر للملك والفرسان الذين كانوا أمامه كيف تمَّ أسرهما نظير خيانةٍ كبرى، وقد تعجَّب الملك من سماع تلك الخيانة، غير أنَّ جالاؤر صرَّح بأنَّ السَّيدة ستكون أكثر المخدوعين والمستهزأ بهم فى هذه القضية، كما سترون، وأمام السَّيدة توجَّه إلى الملك بالكلام حتى سمعه جميع الحاضرين، فقال :

أستودعك الله وحاشيتك كذلك، فقد قطعت على نفسى عهدًا وعليَّ الوفاء به، وسأتركك الآن ومن معك من أجل الذَّهاب إلى ماداسيما – سيدة قلعة جانتاسى –

التى يسرُّها إلحاق مثل هذا الضَّرر بك، وغيره الكثير مما تقدر عليه، لما تكنُّه لك من الكراهية.

وأعاد أماديس على أسماع الملك الكلام نفسه. ثم توجَّه جالاؤر إلى السَّيدة وابنيها قائلاً :

- أترون أنَّنا قد وفَّينا بوعدنا ؟

- نعم، على أكمل وجهٍ - قالت - فقد وفيتم بكلِّ ما تمَّ الاتفاق عليه.

- على بركة الله !- قال جالاؤر - ولكم أنْ تنصرفوا حين تريدون، وأخبروا السَّيدة ماداسيما بأنَّها لم توقع اتفاقًا حكيمًا كما كانت تحرص على ذلك، والآن سترون ذلك.

وحينئذٍ توجَّه إلى الملك، وقال :

- سيدى، لقد وفَّينا لماداسيما ما تعهدّنا به لها، وطالما أنَّها لم تتفق معنا على المدَّة التى يجب أنْ نمضيها بعيدا عنك، فيحق لنا أنْ نعود إليك وقتما نشاء، ولنفعل ما اتفقنا عليه من قبل. وحين سمع الملك ومن معه هذا الكلام غمرتهم السَّعادة، إذ تأكَّدوا من حكمة الفارسين ورصانتهما.

قال الملك للسَّيدة التى أتت إلى قصره بشأن هذا الأمر :

- حقًا سيدتى، بسبب المكر والخداع الذى تعرَّض له هذان الفارسان لا أجدهما مجبرين على فعل شىء أكبر، ولا حتَّى على تنفيذ ما التزما به؛ فإنه من العدل أنْ يحيق المكر السَّيئ بأهله، وحيث إنهم أرادوا خداعهما فليخدعوا هم. وأخبرى ماداسيما أنها إذا ما كانت تكنُّ لى هذه الكراهية ففى مقدورها أنْ تفعل بى شرا وحزنًا أكبر مما تريده لى الآن، لكن الله الذى أحاطهما برعايته فى أوقات وأماكن أخرى أنقذهما من المخاطر التى تعرَّضوا لها، ولم يشأ أنْ تكون معاناتهما على يد مثل هذه السَّيدة.

- سيدي - قالت السَّيدة - قل - إن شئت - من هما هذان الفارسان اللذان يحبُّهما النَّاس ويقدِّرونهما.

قال الملك :

- أماديس، والسَّيد جالاؤر أخوه.

- كيف ! - قالت السَّيدة - أهذا هو أماديس الذى كان في حوزتها ؟

- نعم، هو بعينه - قال الملك.

- الشُّكر لله - قالت السَّيدة - على خلاصهما من يدها، لأنَّه إذا ما لقى هذان الفارسان حتفهما هناك لكان ذلك بلية كبرى. وأنا أعرف السَّيدة ماداسيما حقَّ المعرفة، فحينما تعلم أنَّ من كان بحوزتها هو أماديس وأخوه، وقد تمكَّنا من الهرب من قبضتها، فسوف تتجرَّع بيدها الكأس نفسها التى كانت ستقدِّمها لهما، ألا وهو الموت.

- حقا - قال الملك - إذا ما حدث ذلك فهو العدل بعينه.

ودَّعت السَّيدة الجميع، واستأنفت مسيرها .

الفصلُ التَّاسعُ والثَّلاثون

واصل الملك ليسوارتي ما بدأه من احتفالات. وبعد مرور اثنى عشر يـومًا قدِم دوق بريستـويا وابنا أخيه لإتمام النِّزال الذى تمَّ الاتفاق عليه مع أوليباس، الذى يساعده جالبانيس (بلا أرض) وأجراخيس. كسب هؤلاء النِّزال وانسحب أولئك منه. واستمرت الاحتفالات ما يقرب من نصف عامٍ بعد ذلك.

الفصلُ الأربعون

كيف تمَّت المعركة التى تعهَّد أماديس بخوضها أمام أبيسينوس وابنيه فى قلعة جروبينيسا فى حضرة الطُّفلة الجميلة بريولانخا، انتقامًا لموت والدها الملك.

وفقًا لما علمتم من قبل فقد وجد أماديس فى قلعة جروبينيسا، حيث وعد بريولانخا، الطفلة الجميلة، بأنْ ينتقم لها لموت والدها الملك، وأنْ يعود إليها فى خلال عامٍ، ويحضر معه فارسين آخرين ليدخل فى نزالٍ مع أبيسينوس وابنيه، وكذلك فقد أعطته الطفلة سيفًا رأت فى تقديمه له ضرورة؛ حيث كان سيفه قد كُسِرَ فى دفاعه أمام الفرسان، الذين أرادوا بكل وسائل الغدر والخيانة قتله داخل تلك القلعة، وحيث أُنقذ من الموت - بعد إرادة الله - بما فعلته الطفلة حين أطلقت الأسدين من عقالهما، وذلك حتى لا يلقى الفارس الطيِّب مثل هذه الميتة الشَّنعاء. وكذلك علمتم كيف أنَّ السَّيف ذاته قد كسر فى يد أماديس فى قلعة صديقه أنجريوتى صاحب إسترابارس، حين نازل فارسًا يدعى جاسينان. وقد أمر بأن تحفظ القطع الثَّلاث التى صار إليها السَّيف، وذلك على يد جندالين حامل سلاحه. والآن سنقصُّ عليكم كيف تمَّت المعركة، والخطر الكبير الذى أحاط به بسبب ذلك السَّيف المكسور، لا بخطأٍ منه هو، ولكن نتيجة خطأ قزمه أرديان، الذى ظنَّ بجهله أنَّ سيده أماديس وقع فى غرام تلك الطِّفلة بريولانخا بعد أنْ رآه يعرض نفسه عليها كفارسها، وأراد أنْ يخوض هذا النِّزال نيابةً عنها.

والآن عليكما أنْ تعلموا أنَّه حين أصبح أماديس في بلاط الملك ليسوارتي، وبدأ يرى مراراً وتكراراً أوريانا الجميلة (سيدته) التي كانت بداية رغباته المميتة ونهايتها، تذكَّر هذه المعركة التي وجب عليه أنْ يخوضها وكيف أنْ موعدها قد اقترب. هكذا أصبح من المناسب له - حتى لا ينقض وعده الذي قطعة على نفسه - أنْ يهم بطلب الإذن من سيدته، وهو أمر كان من الصعوبة بمكان أن يطلبه، ففي بعده عنها يصبح كالقلب ينزع من الجسد. فأحاطها علمًا بما جرى في تلك القلعة والوعد الذي قطعه على نفسه، حيث اتفق مع الطِّفلة بريولانخا أنْ ينتقم لها لموت والدها، وأنْ يعيدها إلى مملكتها التي انتزعت منها بفعل خيانة عظمي، لكنها، والدُّموع تنهمر من عينيها والحزن يملأ قلبها - كمن تنبأت وقوع البلية بسبَبها، عليها وعلى أماديس، وآخذة في اعتبارها مدى الخطأ الذي سيرتكبه إذا ما عملت على منعه من الوفاء بوعده - أذنت له. وأقدم أماديس كذلك على طلب الإذن من الملكة، حتى يظهر أنَّه قد خرج وفاء بما أمرت به، وفي صباح اليوم التَّالي - بعد أنْ حمل معه أخاه جالاوز مساعده وأجراخيس Cormano، وتدرَّع الجميع بسلاحه وأصبح على متن جواده - أخذوا طريقهم وبعد أنْ قطعوا مسافةً تقرب من نصف الميل سأل أماديس جندالين عما إذا كان قد أحضر معه القطع الثَّلاث للسَّيف الذي أعطته إيَّاه تلك الطفلة الجميلة، فأجاب بالنَّفي، فأمره أنْ يعود لإحضارها. قال القزم إنه سيذهب لإحضارها، فما يحمل معه شيئًا يمكن أنْ يمنعه من حملها.

جاء وقت - ودونما خطيئة من أماديس وسيدته أوريانا - أصبح فيه العاشقان على حافة الموت، وما فعل ذلك إلا القزم بجهله، بعد أنْ أبدى لهما الحظ العاثر الذي لا يرحم أحداً المرارة بعد حلاوة الحب الكبير الدَّفين والمحاصر داخلهما، كما ستسمعون الآن، فحين وصل القزم إلى مخدع أماديس وحمل القطع الثلاث للسيف المكسور وخبأها في ملابسه، وسار بالقرب من قصور الملكة، سمع صوتًا يناديه من خلال النَّوافذ، فرفع رأسه ورأى أوريانا ومابيليا يسألانه عن سبب عدم خروجه مع سيده.

- نعم لقد خرجت معه - قال - لكن كان علَي أنْ أعود بغية إحضار هذا الشَّيء الذي أحمله معي.

- وما هذا ؟ قالت أوريانا.

أراها إيَّاه، فقالت :

- لأجل ماذا يريد سيدك السَّيف المكسور ؟

- لأجل ماذا ؟ - قال القزم - لأنه يقدِّره بقدر من أعطته إيَّاه، وهذا يفوق تقديره للسَّيفين الصحيحين المقدَّمين إليه.

- ومن تكون هذه ؟ - قالت أوريانا.

- هي نفسها - قال القزم - التي سيخوض المعركة نيابةً عنها، ورغم أنك ابنة أفضل ملوك الدنيا ولك من الجمال نصيبٌ كبيرٌ، تتمنين أنْ تفوزى بمثل ما فازت به، والذي يفوق ما لأبيك من أطيان.

- وما هو ذلك الربح - قالت أوريانا - الذي أصبح له هذا القدر ؟ هل ربحت مصادقة سيدك ؟

- نعم - قال القزم - لقد شغلت قلبه، وأصبح هو سيدها الذي يخدمها.

- وحثَّ جواده على السَّير بأسرع ما أمكنه ليلحق بسيده، الذي كان حاله بعيداً كلَّ البعد عن ذلك الذي أذاعه.

وما إن سمعت أوريانا هذا الكلام، وتذكَّرت أنَّ أماديس قد طلب إذنها بكل تلك العناية والحرص، وصدَّقت حقا ما قاله لها القزم، حتى تغيَّر لونها كمن أصبحت على وشك الموت، وتميَّز قلبها من الغيظ، وبدأت تتلفظ بكلمات ضد ذلك الشَّخص الذي لم يكن يفكِّر في شيءٍ سوى خدمتها، وأخذت تفرك يديها، وأغلقت قلبها نحوه، فأصبحت لا تلوى على شيءٍ وما ذرفت دمعةً من عينيها، لكنَّها احتجزتها داخلها بكلِّ قسوةٍ، وأبدت صرامة لفترةٍ طويلةٍ، جعلتها تقارن مع ميديا القوية وما فعلته بزوجها

حـين علمت بأنَّه قـد تـخلَّى عنهـا وتزوج من امـرأة أخـرى. وهنا حـاولت مـابيليـا أنْ تواسيها وتسدى إليها النَّصيحة الوافدة من العقل والحـقِّ، وكذلك الفتاة الدَّانمركية. غير أنَّ ذلك كلَّه لم يجد معها نفعًا، وما سمعت في هذا كله سوى نداء العقل النِّسائى العاطفى الذى يأمر باتباع طريقٍ جرت العادة على السَّير فيها، وهنا وقعت فى خطيئة كبيرة، لم يكن ليصلحها غير تدخل العناية الإلهية. وسار القزم فى طريقه حتى لحق بأماديس ومن معه، الذين كانوا يسيرون على مهلٍ حتى يعود إليهم.

وهنا أسرعوا في سيرهم أكثر من ذى قبل، لكنَّ أماديس لم يسأل القزم عن شىء مما حدث، وكذلك لم يحك له القزم شيئًا، سوى أن أراه قطع السَّيف.

تابع الجميع السَّير – كما سمعتم – وبعد وقتٍ قليلٍ عثروا فى الطريق على فتاةٍ، وبعد أنْ ألقت عليهم التَّحية قالت لهم :

– أيَّها الفرسان، إلى أيِّن أنتم ذاهبون ؟

– عبر هذا الطريق – أجابوها.

– إذنْ أنصحكم – قالت الفتاة – بأنْ تتركوه.

– لماذا ؟ قال أماديس.

– لأنَّه منذ خمسة عشر يومًا – قالت الفتاة – لـم يـمـر من هناك فارس جوَّال إلا ولقى حتفه أو أصابته القروح.

– ومن ذا الذى يلحق بهم هذه الأذية ؟ – قال أماديس.

– فارس – قالت الفتاة – هو من أفضل الفرسان الذين رأت عيناى.

– أيتها الفتاة – قال أجراخيس – هل يمكن لك أنْ ترينا هذا الفارس ؟

– سيظهر هو لكم بنفسه – قالت الفتاة – بمجرد أن تنزلوا إلى الغابة.

هنا تابعوا سيرهم. وأخذت الفـتـاة التى سـارت خلـفهم تنظر إلى هذا الجانب مرَّة وذاك مرَّةً أخرى. ولما لم يظهر لهم أحد ظنُّوا أنَّ الفتاة لم تقل لهم صدقًا، لكنهم حين

اقتربوا من مخرج الغابة رأوا فارسًا عظيمًا مدجَّجًا بالسِّلاح يمتطي جوادًا شديد الحمرة، وعلى مقربة منه حامل سلاح يحمل أربعة رماح. بينما كان الفارس يحمل واحدًا في يده. ولما أن رآهم، نادى على حامل السِّلاح فأمره بشيء، لكنَّهم لم يعرفوا حقيقته، ووضع حامل السِّلاح الرِّماح عند شجرة ثم توجَّه إليهم، وقال لهم :

- سادتي، يحيطكم ذلك الفارس علمًا بأنَّه قد قام بحراسة هذه الغابة من الفرسان المتَّجِّولين على مدى خمسة عشر يومًا، لم يهزم خلالها مرَّة واحدةً، وحتَّى يفي بما وعد به عدلاً بقي بعد المدة المقررة يومًا ونصف. والآن حين همَّ بالانصراف رآكم قادمين، فأرسل إليكم يقول لكم إذا ما أردتم نزاله فهو على أتمِّ استعداد شريطة ألا يتم استخدام السِّيوف، لأنَّه قد فعل شرورًا كثيرةً بها حين لجأ إليها، وهذا ما لم يكن يريده، ولا ينوي فعله من الآن فصاعدًا طالما يقدر على تجنبه.

قال : أجراخيس :

- قل له يدافع عن نفسه، فأنا سأتولى نزاله دومًا.

حين رآه الفارس قادمًا نحوه توجَّه إليه مسرعًا. وبأسرع ما أمكن للجوادين تواجها فضرب كل منهما الآخر برمحه في درعه، فانكسر، وطار أجراخيس على الأرض، وحين رأى جالاؤر ذلك تناول سلاحه حتى ينتقم له، والفارس حين رآه يحمل سلاحه أخذ رمحًا آخر وتوجَّه نحوه، فسدَّد كل منهما ضربة قوية إلى الآخر، فكسر الرمحان، والتحم الجوادان والفارسان بدرعيهما، فكانت ضربةً قاسيةً وقويةً أطاحت بجواد جالاؤر - الذي بدى أضعف وأتعب من جواد فارس الغابة - وبجالاؤر على الأرض، ولما استقر على الأرض شرد الجواد عبر السَّاحة. وبدأماديس - الذي كان يرقبه - يصلي، وبعدها أخذ سلاحه، وقال :

- الآن يمكن للفارس أنْ يمتدح نفسه ضد أفضل اثنين في الوجود.

ثم توَّجه إليه، وحين بلغ السِّيد جالاؤر وجده قد هبَّ واقفا على قدميه والسِّيف في يده، ينادي على الفارس أنْ أقبل على النِّزال وأنت على متن جوادك بينما أنا سأقابلك راجلاً، فسخر الفارس منه، فقال له أماديس :

- أخى، لا تغتم، فقد صرَّح أمامنا بأنه لا يود القتال بالسَّيف.

بعد ذلك قال للفارس أنْ يتأهب للدِّفاع عنه نفسه. وهنا توجَّه كل منهما إلى الآخر فتطايرت الرِّماح إربًا إربًا فى الهواء، وتلاحمت الدروع والخوذات حتى بدى ذلك أمرًا عجيبًا مهيبًا، وأطاحت الضَّربة بأماديس وجواده على الأرض، فانكسر ظهر الجواد وكذلك فقد سقط فارس الغابة إلا أنَّه أمسك بزمام الجواد وامتطى متنه مرة أخرى بكلٍّ خفَّةٍ ورشاقةٍ. قال له أماديس :

- أيُّها الفارس، عليك بالدُّخول إلى حلبة النِّزال ثانيةً، فما انتهت المواجهة، إذ وقعنا نحن الاثنين.

- لا رغبة لى الآن فى الاستمرار - قال الفارس.

- هذا الذى تفعله غير معقول - قال أماديس.

- اعقله أنت - قال الفارس - حين تشاء، أمَّا أنا - وفق ما أرسلت إليكم على لسان حامل السِّلاح - فلست ملزمًا بأكثر من هذا.

وحينئذٍ توجَّه إلى الغابة على متن جواده، فأسرع المسير بقدر ما أمكن لجواده ذلك. وهنا أحسَّ أماديس ومن معه - حين رأوه قد انصرف عنهم بهذه الطَّريقة بينما هم على الأرض - بأنَّهم قد أهينوا وسُخر منهم، وما استطاعوا معرفة حقيقة ذلك الفارس الذى انصرف وتركهم وسط هذا الزَّهو والمجد.

امتطى أماديس جواد جندالين، وقال للآخرين :

- امتطوا جيادكم والحقوا بى، فسوف يكون حزنى شديدًا إذا لم أعرف حقيقة ذلك الفارس.

- حقا - قالت الفتاة - إنَّ تفكيرك فى العثور عليه لاندفاعك نحوه يعد أمرًا من الأمور الأشدَّ جنونًا فى هذا الوجود، فإذا ما خرج كل من بمنزل الملك ليسوارتى بحثًا عنه فلن يستطيعوا العثور عليه على مدى هذا العام إذا لم يكن هناك من يرشدهم فى هذا الأمر.

- وحين سمعوا هذا الكلام، أسفوا له كثيراً. وهنا بدأ جالاوز الذى امتلأ غيظاً أكثر من الآخرين يتحدَّث إلى الفتاة قائلاً :

- سيدتى وصديقتى، أتعرفين بطريق المصادفة من يكون هذا الفارس، وأين يمكن العثور عليه ؟

- إذا ما كنت أعرف عنه شيئًا - قالت الفتاة - فلن أقوله لكم، فانا لا أريد أن أغضب مثل هذا الرَّجل الطيب.

- آه أيَّتها الفتاة - قال جالاوز - بحقِّ الله الذى تعبدينه، وبحق أغلى شىء تحبينه فى هذا الوجود، قولى لنا ما تعرفينه عنه.

- لا يناسبنى أسلوب التَّآمر - قالت الفتاة - ولن أكشف شيئًا من حقيقة هذا الرَّجل الطيب بلا مقابل.

- الآن مُرِى - قال أماديس - بما يحلو لك، ونحن قادرون على الوفاء به وتقديمه لك بمجرد أنْ تتلفظى به.

- سأقوله لكم - قالت الفتاة - شريطة أنْ تخبرونى من أنتم، وأنْ تعطونى هديتين حين أطلب منكم ذلك.

وعدوها ذلك، فقد كانوا حريصين على معرفة أخبار الفارس.

- باسم الله - قالت الفتاة - الأن عليكم أنْ تخبرونى بأسمائكم.

أخبروها بها.

حين سمعت الفتاة بأنَّ هذا هو أماديس فرحت كثيراً، وقالت له :

- الحمد لله، فقد خرجت فى طلبك.

- ولماذا ؟ - قال أماديس.

- ستعرف ذلك - قالت الفتاة - فى حينه، وقل لى الآن إذا ما كنت تتذكَّر المعركة التى وعدت بها ابنة ملك سوبراديسا حين أنقذتك بالأسدين وخلَّصتك من الموت.

- نعم أتذكرها - قال أماديس - وهانا ذاهبٌ إليها.

- إذن كيف تتشفى لك - قالت الفتاة - متابعة هذا الفارس، مع أنَّه أمرٌ غير هين أنْ تعثر عليه - كما تحرص - وقد قرب موعد النِّزال ؟

- أخي وسيدى - قال السَّيد جالاؤر - إنَّها تقول الحق. اذهب أنت وأجراخيس إلى الموعد الذى حدد لك، وأنا سأذهب بحثًا عن ذلك الفارس مع هذه الفتاة، فلن يهنأ لى بالٌ حتى أعثر عليه، وإذا ما تسنَّى لى ذلك فسوف ألحق بكم فى موعد النِّزال.

- باسم الله - قال أماديس - بما أنَّ هذا رأيك فليكن.

وقالوا للفتاة :

- الآن أخبرينا عن اسم ذلك الفارس حتى يمكن لجالاؤر أنْ يجده.

- أمَّا عن اسمه -قالت الفتاة- فلا أقدر على إذاعته أمامكم، لأنَّنى لا أعرفه، غم أنَّنى أراقبه على مدى شهرٍ، ورأيته يصنع بالأسلحة أمرًا عجيبًا لا يمكن من لم يره أنْ يصدقه إلا بصعوبةٍ بالغةٍ، أمَّا من ناحيتى فسوف أقوم بإرشاد لمن يصحبنى إلى المكان الذى يوجد به.

- هذا من دواعى سرورى - قال السَّيد جالاؤر.

- إذنْ فلتتبعونى - قالت.

أسلموا أمرهم لله وتوكلوا عليه.

أمَّا أماديس وأجراخيس فقد سلكا طريقهما المتفق عليه آنفًا، وأمَّا جالاؤر فقد ذهب بصحبة هذه الفتاة. سار أماديس وأجراخيس بعد وداعهما لجالاؤر مسافةً طويلةً حتى بلغا قلعة تورين Torin التى كانت تقطن بها الطِّفلة الجميلة وجروبينيسا، وقبل أنْ يصلا إلى القلعة مارسا نوعًا من الفروسية بالطريق.

حين علمت السَّيدة بمقدم أماديس غمرتها السَّعادة، وخرجت للقائه فى صحبة العديد من السَّيدات والفتيات تحمل فى يدها الطِّفلة الجميلة، وحين التقى الجمعان

حيا كل منهما الآخر بتحيةٍ طيِّبةٍ. لكِّنني أقول لكم إنَّ الطفلة قد ظهرت آنذاك في غاية الجمال حتَّى بدت كأنَّها نجمةٌ مضيئةٌ، وأعجبا بها أيَّما إعجاب، وغدت بالمقارنة مع جمالها آنفا حين رآها أماديس لأوَّل مرَّةٍ أكثر جمالاً وروعة، فوقال لأجراخيس :

– ما رأيك في هذه الفتاة ؟

– أرى أنَّه كان في علم الله أنْ يخلقها جميلة، وهكذا نفذت إرادته على أكمل وجهٍ.

قالت الفتاة :

– سيدى أماديس، إنَّ بريولانخا تشكر حضورك كثيراً، وما سيعقبه بعون الله كذلك، ولتنزع سلاحك عنك وتخلد إلى الرَّاحة.

وحينئذ دعوهما إلى غرفة تركا فيها أسلحتهما، وتدثَّرا بعباءتين، ثم عادا إلى الصَّالة التى تمَّ فيها اللقاء، وبينما يتحدثان إلى جروبينيسا كانت بريولانخا تنظر إلى أماديس، فبدى لها أجمل فارسٍ رأته عيناها، وقد كان هكذا بحق فى ذلك الوقت، فما كان قد تجاوز العشرين وكان وجهه منعما بالقروح من أثر السِّلاح. غير أنَّها كانت دليلاً على شجاعته، وأمارةً على شهرته وشرفه الواضحين النظيفين، وقد زادت فى حسنه ورشاقته كثيراً. وحينذاك جاءت الطفلة إلى أماديس ذات أثرٍ بالغ، فقد بات أماديس هدفًا لحبِّ الطفلة التي كانت تنظر إليه بكلِّ شغفٍ، فما استطاعت مع طول الوقت أنْ تصرف قلبها عن التَّعلق به والتَّفكير فيه، وما إنْ تملك الحبُّ منها حتى لم تقدر له دفعًا وما عادت نفسها قادرة على معاناته وتحمله. ولَّما استعادت مملكتها – كما سنقص هذا فيما بعد – طلبته. ولما علم أماديس أذاع على الجميع أنَّ ما أصابه من هم وألم والدُّموع الغزيرة التي ذرفها من أجل سيدته أوريانا لم تكن قد أصابته إلا لوفائه لها. وعلى الرَّغم من أنَّ ولي العهد السَّيد ألفونصو دى بورتوجال حين أحسَّ شفقة بهذه الطفلة الجميلة أحدث تحويلاً للأمر الذى جرى، وبذل فى هذا الإطار كل ما يملك، فإنه لم يملك لأمر ذلك الحبِّ دفعًا.

يُحكى هذا الحب بصورة أخرى يجب أن نصدقها كلَّ التَّصديق، فبعد أنْ استعادت بريولانخا مملكتها، وأقامت الاحتفالات جنبًا إلى جنب مع أماديس

وأجراخيس، اللذين أصابتهم القروح، ما زالت على عهدها بحبٍّ أماديس، وما رأت أيَّ مجال لنجاح مثل هذا الحبِّ وإرضاء رغباتها، فبدأت الكلام سرا مع الفتاة التى أتت فى صحبة أماديس وأجراخيس ووعداها كل بهدية من قبل على أنْ تصحب جالاوْر فترشده إلى مكان وجود فارس الغابة الذى سار فى طريق تعرفه. وما إن كشفت لها عن أمرها وقضيتها حتى طلبت منها الطفلة باكية علاجًا لهذا الحب الذى ملأ وجدانها، فرأت بعد أنْ تألَّمت لما أصاب سيدتها هذه أن تطلب من أماديس - وفاءً بما وعدها به - أن يدخل إلى أحد الأبراج ولا يبارحه حتى تلد بريولانخا طفلاً أو طفلة، وقد امتثل أماديس للأمر حتى يفى بوعده، فدخل إلى البرج كما أمرت الفتاة، وحيث لا يريد أنْ يجمعه مكان ببريولانخا، وما عاد يأكل أو ينام، حتَّى أصبحت حياته فى خطرٍ كبيرٍ، ولما عُرف هذا الخبر فى قصر ليسوارتى والمأزق الذى أصبح يمرُّ به أماديس أرسلت إليه سيدته أوريانا، حتى لا يلقى بنفسه إلى التَّهلكة، تأمره بتنفيذ ما أمرته به الفتاة، وأنْ يقوم أماديس على أثر هذا الإذن - على اعتبار أنَّه لن يستطيع الخروج من هناك بطريقةٍ أخرى وكذلك فلن يمكنه الوفاء بوعده - باتخاذ هذه الملكة الجميلة صديقةً له، وأنْ ينجب منها ولداً أو ابنا مرَّة واحدة. ولكن لم يحدث هذا الأمر أو ذاك، حيث إنَّ بريولانخ بعد أنْ رأت أماديس يشرف حقا على الموت داخل البرج أمرت الفتاة بأن تحله من وعده، شريطة ألا يتحرَّك من هناك حتى يعود جالاوْر، حتى تتمكَّن من رؤية ذلك الفارس الجميل الشَّهير الذى لم تره، حيث كان الجو مظلمًا. هذا الأمر يحمل فى طياته أكثر من سببٍ لتصديقه، لأنَّ تلك الملكة الجميلة قد تزوَّجت بالسِّيد جالاوْر، كما يروى ذلك الكتاب الرَّابع، وقد بقيت إلى جانبه فى تلك القلعة، وأما أماديس وأجراخيس - كما سمعتم - فقد انتظرا حتى يتم إعداد ما يلزمهما للخروج إلى المعركة.

الفصلُ الحادي والأربعون

كيف خرج جالاوز في صحبة الفتاة بحثًا عن الفارس الذى هزمهما حتى التقى به ونازله، وبينما احتدم النّزالُ عرفه بأنّه أخوه فلوريستان.

سار جالاوز أربعة أيَّام على هدى من الفتاة التى خرجت تدله على طريق فارس الغابة. تملَّكه غيظٌ شديدٌ في تلك الفترة، فما واجه فارسًا في مثل هذه الشراسة، فقد مات على يديه أناسٌ كثيرون، دونما ذنبٍ. وفي نهاية هذه المدة وصل إلى بيت فارسٍ يسكن أعالى أحد الأودية داخل قلعةٍ جميلةٍ، قالت له الفتاة إنَّه لا يوجد مكان آخر للمبيت فيه سوى ذلك الذى يرونه أمامهما.

– لنذهب إنْ شئت – قال جالاوز.

وحينئذ ذهبا إلى القلعة، فوجدا على بابها سيدات وفتيات ورجالاً، ممَّا يدلُّ على أنَّه بيت رجلٍ صالحٍ، ويوجد بينهم فارسٌ في سن السِّتين يرتدى معطفًا من الجلد القرمزى، فأحسن وفادتهما، وطلب من السيِّد جالاوز أنْ ينزل عن جواده، فسوف يلقى هناك المتعة والتشريف على الرَّحب والسَّعة.

– سيدى – قال جالاوز– يا له من كرم ضيافة ذلك الذى نلقاه منكم! فلو وجدنا مكانًا آخر للرَّاحة، فلن نترك مكانكم هذا.

وما إنْ حمل عنهما رجال القلعة الجوادين حتى دخل الجميع إلى القلعة، حيث قدَّموا العشاء إلى جالاوز وفتاته داخل قصرٍ مشيدٍ، وما إن رفع العشاء حتى تقدم

إليهم فارس القلعة، وسأل السَّيد جالاوْر إذا ما كان سينام مع الفتاة، فأجاب بالنَّفى، وهنا أمر فتاتين بأنْ يأخذاها معهما، وبقى جالاوْر وحده لينام ويستريح فى فراش وثير كان هناك. وهنا قال له صاحب القلعة :

لتسترح هنا اليوم كما تريد، فالله أعلم كم هى متعتى لوجودك معنا، وأنا أفعل ذلك مع كل الفرسان المتجولين، أننى كنت فارسًا، ولى ولدان أصيبا بجروحٍ بالغةٍ فى هذه الفترة، فحياتهما قاصرةٌ على البحث عن المغامرات التى حقَّقا فى كثير منها شهرةً واسعةً فى مجال استخدام السِّلاح، ولكن مرّ من هنا فارسٌ ليلة أمس ألحق بهما الهزيمة فى نزالين منفصلين، حيث لحق بهما عارٌ كبير بعدهما، فامتطيا جواديهما ولحقا به عند مجرى نهرٍ حيث كان يهم بركوب سفينةٍ، فطلبا منه - بعد معرفة جيدة بطريقة قتاله - أنْ ينازلهما بالسَّيف، غير أنَّ الفارس الذى كان على عجلٍ من أمره لم يرد أن ينازلهما، فألحَّا عليه، فقالا له إنَّهما لن يتركاه يستقل المركب، وهنا قالت لهما سيدةٌ كانت داخل المركب :

- إنَّ ما تفعلانه - أيُّها الفارسان - بنا لشيءٌ من الوقاحة، فليس لكما أنْ تحتجزا فارسنا بمثل هذه الطريقة المتعجرفة.

قالا لها إنَّهما لن يتركاه حتى ينازلهما بالسَّيف.

- إذن ليكن الأمر كذلك -قالت السَّيدة- والآن سينازل أفضلكما، وإذا ما هزمه فلا داعى لنزال الآخر.

قالا لها :

إنَّه إذا ما تمكَّن من هزيمة الأوَّل فعليه أنْ ينازل الثَّانى.

وهنا قال الفارس وهو يتميزٌ من الغيظ.

- تعالا معًا، فلن أرحل عنكما لأجل شيءٍ آخر.

أمسك بسيفه وانطلق نحوهما، وانطلق نحوه أحد ابنىَّ، لكنَّه لم يستطع الصَّبر على قتاله، فقد كان الفارس مختلفًا عن كل الفرسان الذين رآهم، وحين رآه أخوه وخطر الموت محدقٌ به هبَّ لنجدته، فسدَّد ضربة قوية إلى الفارس قدر استطاعته،

لكنَّ ذلك لم يجد نفعًا، فقد تغلَّب عليهما الفارس في أقلَّ من ساعة فأطاح بهما على الأرض من فوق جواديهما، ودخل المركب وسار في طريقه، وأنا ذهبت بحثًا عن ابني هذين، فوجدتهما قد تقرحا كثيراً، وحتى تصدقني فيما أخبرتك به، أريد أنْ أريك تلك الضَّربات القوية التي لم تسدِّدها يد فارسٍ آخر من قبل.

وحينئذ أمر بإحضار الأسلحة التي استخدمها ولداه في النزال، فوجدها جالاوْر مخضَّبةً بالدَّماء ومكسورةً لما أصابها من ضرباتٍ قاسيةٍ بالسَّيف، فتعجَّب لذلك كثيراً، وسأل الرَّجل الطيِّب عن نوع السِّلاح الذي كان يحمله الفارس، فأجابه فارس القلعة :

– كان يحمل درعًا مائلاً إلى الحمرة، وبه رسمٌ لأسدين لهما لونٌ بنيٌّ، وعلى خوذته أسدٌ آخر مماثل، وكان يمتطي جواداً بين الأبيض والرمادي.

عرف جالاوْر من هذا أنَّ ذلك الفارس هو الفارس الذي خرج في طلبه، فقال لصاحب القلعة:

– أتعرف شيئًا عن حقيقة هذا الفارس ؟

– لا – قال صاحب القلعة.

الآن اذهب لتنام – قال جالاوْر – فأنا خرجت بحثًا عن هذا الفارس، وإذا ما عثرت عليه فسوف أنتقم منه لنفسي ولابنيك أو أموت دونه.

– صديقي وسيدي – قال صاحب القلعة – أرجوك ألاَّ تدخل معه مغامرة أخرى، ولتدع هذه المغامرة الخطرة، فإذا ما كان ولداي قد تعرضا لمثل هذه الإهانة، فلأنَّه فارسٌ متغطرسٌ، وهذا ما جعله يهزمهما.

ثم انصرف إلى مخدعه.

نام جالاوْر حتى الصَّباح، ثم طلب أنْ يحضروا له أسلحته، وخرج بصحبة فتاته وتنكَّب طريقه، ومرَّ بالمركب الذي سمعتم عنه، ولمَّا أنْ أصبحا على مسافة خمسة أميالٍ من المكان شاهدا قلعةً جميلةً. فقالت له الفتاة :

– انتظرني هنا، وسوف أعود حالاً.

ذهبت إلى القلعة، وما تأخَّرت حتى رآها عائدةً، وبصحبتها فتاةٌ أخرى وعشرة فرسان. وكانت الفتاة غايةً في الجمال، فتوجَّهت بالكلام إلى جالاوْر قائلةً :

- أيها الفارس، لقد أخبرتني هذه الفتاة التي تسير معك بأنَّك تبحث عن فارسٍ ذي شعرٍ أشقر مائلٍ إلى الحمرة وأسدين بنيين لتعرف حقيقته. وأنا أقول لك إنه إذا لم تلجأْ إلى قوة السِّلاح فلن تتمكَّن أنت ولا أيُّ شخصٍ آخر من معرفة ذلك لمدة ثلاث سنواتٍ قادمةٍ، وستكون عاقبة ذلك عسيرة بالنِّسبة لك، لأنَّه يجب أنْ تعلم أنَّه لا يوجد في الجزائر بأكملها فارسٌ يضاهيه.

- أيَّتُها الفتاة - قال جالاوْر - أنا لن أكفَّ عن البحث عنه، مهما تخفَّى، وإذا ماعثرت عليه فسيكون من دواعي سروري أنْ ينازلني على أنْ أعرف عنه شيئًا بطريقةٍ غير ذلك.

- إذن والحال هكذا - قالت الفتاة - عليَّ أنْ أريك أين هو قبل حلول اليوم الثَّالث من الآن، وذلك لأنَّني أحبُّ هذه الفتاة صديقتي التي تصحبك، والتي توسلت إلي كثيرًا أنْ أفعل لها هذا المعروف.

- أشكرك كثيرًا على هذا - قال جالاوْر.

ساروا في طريقهم، وبعد مسيرة يومٍ وصلوا إلى رافدة نهر أحاطت به جزيرةً، وهكذا كان عليهم السَّير في المياه ما يقرب من ثلاثة أميال دون أنْ تمسَّ أرجلهم أرضًا قبل أنْ يصلوا إلى هناك. وما إنْ استقلوا قاربًا عثروا عليه بالميناء - بعد أنْ حلفوا لمن أعطاه لهم بأنَّه ليس هناك أكثر من فارسٍ واحدٍ - حتَّى أخذوا في التَّجديف. سأل جالاوْر الفتاة عن سبب استحلافهم.

- هذا هو ما تأمر به - قالت الفتاة - سيدة الجزيرة التي تذهب إليها، إذ يجب ألاَّ أنْ يمر سوى فارسٍ واحدٍ حتى يعود ذلك الذي ذهب أو يلقى حتفه.

- من ذا الذي يقتله أو يهزمه ؟ - قال جالاوْر.

- ذلك الفارس الذى تبحث عنه - قالت الفتاة - فهذه السَّيدة التى أحدثك عنها تعيش معه عيشةً هانئةً منذ نصف عام، فهى تحبُّه كثيراً، والسبب فى ذلك أنَّه حين أقيم نزالٌ فى هذه الدِّيار بينها وبين سيدة أخرى فى غاية الجمال جاء هذا الفارس الذى حضر من ديارٍ غريبةٍ، ودخل النِّزال نيابةً عنها، فهزم كلَّ منْ قابله، وأصبحت مدينةً له بالكثير، فما هدأ لها بالٌ حتى أصبح صديقًا لها وأمتلكته بين يديها، فلا تدعه يخرج إلى أىِّ مكان. وحين أراد ذات مرَّةٍ الخروج بحثًا عن مغامرات أمرت السَّيدة بأنْ يعبر إليه عددٌ من الفرسان لينازلوه، فيسلبهم أسلحتهم وجيادهم ويقدمها لسيدته وصديقته. ومن مات منهم يدفنونه، ومن يهزم يلقون به خارجًا. وأخبرك بأن السَّيدة صديقته جميلةٌ للغاية، وتدعى جوريساندا، والجزيرة تعرف باسم جرابيساندا.

قال لها جالاؤر :

- أتعرفين السَّبب الذى من أجله ذهب هذا الفارس إلى الغابة التى رأيته فيها، وظلَّ بها خمسة عشر يومًا يحرسها من كل الفرسان الجوالين الذين دخلوها ؟

- نعم - قالت الفتاة - فهو قد وعد فتاةً بهدية قبل أنْ يأتى إلى هنا، فأمرته أنْ يحرس تلك الغابة خمسة عشر يومًا كما تقول. وصديقته - التى أغمَّها وأحزنها ذلك - أعطته مدَّة شهر ذهابًا وإيابا لكى يحرس الغابة.

وبينما يتحدثان وصل الركب إلى الجزيرة بعد أنْ جنَّ الليل، غير أنَّ ضوء القمر كان ساطعًا، خرجوا من القارب، وأقبلوا على مكان بالقرب من الشَّاطئ فنصبوا خيامهم وأقاموا ليلتهم، وتناولوا عشاءهم وناموا حتى الصَّباح. أراد جالاؤر أنْ ينام مع الفتاة فى تلك الليلة - فقد كانت فى غاية الجمال - غير أنَّها رفضت ذلك، مع أنَّها رأته أجمل فارس رأته عيناها فى هذا الوجود، وكانت تودُّ كثيراً الحديث معه. ولما أسفر الصُّبح امتطى جالاؤر جواده وحمل سلاحه واستعدَّ لدخول المعركة، والفتيات والرِّجال الآخرون كذلك، وساروا فى طريقهم. ولم يكف جالاؤر عن الكلام مع الفتاة، وسألها ما إذا كانت تعرف اسم الفارس .

– لا – قالت الفتاة – بكلِّ تأكيد فإنه لا يعرف اسمه أحد في هذه الديار بأكملها سوى صديقته.

كان جالاوْر حريصاً على معرفة اسمه قبل لقائه، لأنَّه ذو شهرةٍ واسعةٍ في مجال القتال، وقد أراد أنْ يخفي اسمه عن الجميع. وبعد أنْ ساروا مدَّةً وجيزةً وصلوا إلى سهلٍ وجدوا به قلعةً جميلةً في أعالي ربوةٍ، وحولها مرجٌ عظيمٌ وجميلٌ على امتداد محيطٍ يبلغ مسافة ميلٍ من كلِّ جانبٍ. قالت الفتاة للسَّيد جالاوْر :

– في هذه القلعة يوجد الفارس الذي تطلبونه.

بدت عليه علامات الفرح لعثوره على ما خرج يبحث عنه، وتابعوا سيرهم، فوجدوا عمودا حجريا به شاهدٌ أحكم صنعه، وفوقه قرنٌ. قالت الفتاة في سرورٍ :

– انفخ في هذا القرن كي يسمعوا، وبعد سماع الصوت سيحضر الفارس.

فعل جالاوْر ما قالته له، فرأوا رجالاً قد خرجوا من القلعة ونصبوا خيمةً جميلةً وسط المرج، وخرج ما يقرب من عشر سيداتٍ وفتياتٍ، وبينهن واحدة خرجت في أبهى حلةٍ وأجمل زينةٍ فاقت الجميع، ثم دخلن الخيمة. ظنَّ جالاوْر، الذي كان يرقب ما يدور، أنَّ الفارس قد تأخر، فقال للفتاة :

– لماذا لم يخرج الفارس ؟

– لن يأتي – قالت الفتاة – حتى تأمره هذه السَّيدة.

– أرجوك – قال جالاوْر – أن تذهبي إليها وتطلبي منها أنْ تأمره بالخروج، لأنني على موعد للقيام بمهام كثيرةٍ في أماكن أخرى ولا أستطيع البقاء طويلاً.

فعلت الفتاة ما طلبه منها، وحين سمعت السَّيدة هذا الطَّلب قالت :

– ماذا؟! أيستهين هذا الرَّجل بفارسنا وبهذا الاستخفاف يحرص على الرَّحيل حتى يفي بوعده في أماكن أخرى ؟ الآن سيخرج بأسرع مما كان يتوقَّع وسيلحق به ضرراً أكثر مما كان يتخيَّله.

وحينئذ قالت لأحد الفتيان :

– اذهب واطلب من الفارس الأجنبي أنْ يأتي.

ذهب إليه الفتي وقال له ذلك. خرج الفارس من القلعة مدجّجا بالسِّلاح ومترجِّلاً بينما يمسك رجاله بجواده ويحملون الدِّرع والرُّمح والخوذة، ثم توجّه إلى حيث توجد السَّيدة، فقالت له :

– انظر، هناك فارسٌ مجنونٌ يتعجل الرحيل في خفةٍ، والآن آمرك بأنْ تعرفه جنونه هذا.

ثم عانقته وقبلته.

أدّى ذلك إلى شحنه ضدّ جالاوز. امتطى جواده وحمل سلاحه وأخذ طريقًا منحدرًا سار فيه على مهلٍ، فبدى جميلاً ورشيقًا يثير العجب. وضع جالاوز الخوذة على رأسه ولبس درعه وحمل رمحه، وما إن رآه حتى حثّه على الدِّفاع عن نفسه، ثم أطلقا العنان لجواديهما فالتقيا، فسدّد كل منهما إلى الآخر ضربةً في درعه، فأتلفا وأزيلت الزينة عنهما، هكذا أصيب كل منهما بجروحٍ مؤلمةٍ، وكسر رمحاهما، وتلاقيا. أمسك جالاوز بسيفه وعاد إليه، غير أنَّ الفارس لم يخرج سيفه من غمده، وقال له :

– أيُّها الفارس، أستحلفك بالله وبأغلى شيءٍ تحبُّه أنْ تنازلني مرَّةً أخرى.

– بما أنَّك استحلفتني – قال هو – فسوف أنازلك، غير أنَّه ليحزنني أنَّني لم أحضر جوادًا حسنًا كالذي معك، فلو كان كذلك لما تخليت عن القتال حتى يسقط أحدنا أو نتراشق قدر ما يمكننا بالرِّماح.

لم يرد الفارس غير أنَّه طلب من حامل السِّلاح أنْ يعطيه رمحين، أمسك بأحدهما وأعطى الآخر لجالاوز، ثم تواجها مرَّةً أخرى. جاءت ضرباتهما قوية فأصابت درعيهما، وجثا جواد جالاوز على الأرض وكان على وشك الوقوع، وفقد الفارس الأجنبي الدعامات التي تسنده وتعلَّق بعنق الجواد. وهنا جرح جالاوز الجواد

جرحًا مؤلمًا في العنق وأمسك بسيفه، فاعتدل الفارس الأجنبي على سرج الجواد وقد أصابه جرح شديد، ثم أمسك بسيفه وقال:

- أيُّها الفارس، أنت تودُّ النِّزال بالسيوف، وقد كنت أتحاشاها من أجلك لا من أجلي، وإلا فسوف ترى.

- افعل ما بوسعك -قال جالاوز- فأنا سأفعل أيضا ما بوسعي حتى الموت أو الانتقام لكل أولئك الذين آذيتهم بالغاية.

وحينئذ نظر إليه الفارس فعرف أنَّه هو الفارس الذي دعاه للنِّزال مترجِّلاً، فقال له والغضب يملؤه :

- انتقم إنْ استطعت، رغم أنَّني أرى أنَّك ستحمل عارًا إلى عارك السَّابق.

التقيا هذه المرَّة لقاءً مريرًا أصاب كل الذين يشاهدونه بدهشةٍ كبيرةٍ، حتى توقَّع كلُّ رجال القلعة ونسائها - نظرًا لاحتدام القتال بينهما - أنَّ الفارسين سيوقعان اتفاقًا بينهما، لكنهما انتقلا إلى النِّزال بالسَّيف، وحين شاهد الحاضرون ذلك الذي رأوه أكثر صرامة وقوة أدركوا أنَّ ذلك لن ينتهي إلا بالموت، وأخذ كل فارس يسدِّد الضَّربات للآخر، فأتت ضربات موجعة ومميتة، فتقابلت الرءوس مع الصُّدور رغمًا عنها، وأصيبت الخوذات فتناثرت منها قطع الأقواس الفولاذية مع أجزاء من نطاقي الفارسين، كما طالت السُّيوف الرءوس، إذ تقطَّعت الدُّروع إربًا إربًا، فتناثرت منها حتى ملأت أرض السَّاحة، هذا فضلاً عن شبكات الدُّروع. استمر الحال هكذا فترةً طويلةً، حتى بدأ كل منهما يتعجَّب كيف لا يتمكن من القضاء على الآخر. في هذا الوقت بدأت علامات التَّعب والإرهاق والإغماء تظهر على جواد جالاوز، والذي وقف مكانه لا يملك قدرةً على الحركة من مكان إلى آخر، الأمر الذي أصاب جالاوز بغيظٍ شديدٍ، لأنَّه بسبب جواده أخذ يسير كالأعمى الذي سيهوي على الأرض. وحينئذٍ خاف على نفسه من الموت أكثر من أيِّ نزالٍ آخر خاضه من قبل، غير ذلك الذي خاضه أمام أخيه أماديس، والذي ما ظنَّ أنَّه سيخرج منه حيًا أبدًا، ومن بعده يأتي تقديره لهذا الفارس الذي لم ير له مثيلاً بين من رآهم آنفًا، ولكن ليس لهذه الدَّرجة

الكبيرة التي يستحيل معها التَّغلب عليه لو أنَّ جواده لم يتعثَّر. وحين رأى نفسه في هذا المأزق قال :

– أيُّها الفارس، إما أنْ نتقاتل مترجِّلين، وإمَّا أنْ تمدني بجوادٍ أقاتل من فوقه، وإذا لم يكن هذا أو ذاك فسوف أقتل جوادك، وسيكون أمر هذه الفعلة الشنعاء راجعًا إليك أنت.

– افعل ما في وسعك –قال الفارس– فلن تمتد معركتنا طويلاً، فإنَّ في امتدادها خزيًا وعارًا.

– إذنْ فلتدافع الآن عن الجواد – قال جالاوِر.

انطلق الفارس نحوه ليضربه – وهو حريص على ألا يفقد جواده بضربةٍ من خصمه – فالتحما التحاما شديدًا، وأمَّا جالاوِر – الذي سدَّد إليه ضربة في درعه ورآه قريبًا جداً من فقبض عليه بذراعيه بكل ما أوتي من قوةٍ، وأصاب الجواد في مؤخرته، وجذب الفارس بقوةٍ فانتزعه من فوق السَّرج. سقطا على الأرض متعانقين، غير أنَّهما باتا قابضين تمامًا كلٌ على سيفه، وظلاَّ يتدافعان زمنًا طويلاً على أرض النِّزال حتى تمكَّن أحدهما من الإفلات من يد الآخر، ونهضا واقفين، وخاضا معركتهما الأشرس والأقسى. إنهما قد بدأها لتوهما، وإذا بدت الجولة الأولى قوية للحاضرين، فإنَّ الثَّانية أصبحت أنكر وأشد، فما منعهما شيءٌ من الالتحام طوال الوقت، وما تمكنا من الرُّكون إلى الرَّاحة قط، غير أنَّ جالاوِر – الذي رغم الهزال الذي أصاب جواد الفارس الغريب لم يتمكَّن من ضربه – يلتحم به الآن كلَّما أراد، فقد سدَّد إليه ضرباتٍ موجعةً وقويةً أفقدته سلاحه الذي يحمله، ولكن ليس لدرجة أنه أصبح غير قادر على الدفاع عن نفسه بصورة قوية. وحين رأى جالاوِر أنه قد أصبح يتحسن كثيراً، وغريمه بات يغط في إرهاقٍ واضحٍ، انسحب إلى خارج الحلبة، وقال :

– أيُّها الفارس الطَّيِّب، توقَّف قليلاً.

كان هذا الطلب مواتيًا للفارس الآخر، فظلَّ في مكانه، ثم قال له جالاوِر :

- هانت قد رأيت أنَّني الأفضل في مجال النزال هذا، وإذا ما شئت أنْ تخبرني باسمك فإن ذلك أمرٌ يسرُّني. ولماذا تتخفَّى بهذا الشَّكل مع أنك رجل حر في رأيي؟! وأنني لن أتركك دون أنْ تفصح لي عن اسمك بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

وما إن سمع الفارس هذا الكلام حتَّى قال :

- إنه لا يسرُّني أنْ تنتهي المعركة على هذا النَّحو، لأنَّه ما من مرَّةٍ انتهى النِّزال معي بهذا الوضع، وما وجدت مقاومةً شديدةً في معركة دخلتها قبل اليوم، وما وجدتني في مواجهة قوة تفوَّقت عليَّ في معركةٍ سابقةٍ قط، لكن في مقدور الله ألا يعرف أحدٌ اسمي إلا إذا كلَّفني ذلك شرفي، وخاصة حين يأتي الأمر من فارس واحد فقط.

- لا تعاند - قال جالاوز - فإنني أقسم لك بالله الذي أعبد أنني لن أدعك حتى أعرف من أنت ولماذا تتخفَّى هكذا.

- ما كان الله في عوني - قال الفارس - لو عرفته على لساني، فأنا أفضِّل الموت في المعركة على أنْ أصرِّح به، حتى لو كان ذلك بقوة السلاح. اللهم إلا إذا كان التَّصريح به لاثنين فقط لا أعرفهما، فلهما - طواعيةً أو كرْهًا - معرفته، ولا يمكن لأحدٍ إنكاره عليهما حين يرغبان في معرفته.

- ومن هما هذان اللذان تقدِّرهما كل هذا التقدير ؟ - قال جالاوز.

- لا هذا ولا ذاك يمكنك معرفته منِّي، فيبدو أنَّ ذلك يسعدك.

- ايا للعذراء ! - قال جالاوز - إما أنْ أعرف ما سألتك عنه، أو أنْ يموت أحدنا أو كلانا معًا.

- وأنا ما أريد شيئًا آخر - قال الفارس.

وهنا التقيا مرَّةً أخرى والغيظ يتملَّكهما، بحيث تناسيًا جراحهما السَّابقة، والقوى الخائرة عادت لتنتعش من جديدٍ ولكن لا القوة ولا الشَّجاعة اللتين أبداهما

الفـــارس الغريب كانتا ذا نفع بالنِّسبة له، فقد أصابه جالاوز إصابات بالغةً، إذ تطايرت أجزاء من سلاحه تحمل قطعا من لحم الفارس، فتناثر الدَّم منه بغزارة، فتخضبت به أرض الساحة. وحين رأت سيدة الجزيرة أنَّ صديقها أصبح على وشك الموت - وهو أحبُّ شيءٍ إليها في الوجود - لم يستطع قلبها أن يتحمل ذلك، وانطلقت إلى هناك حيث يوجد مترجلة كالمجنونة، وخلفها السَّيدات والفتيات الأخريات. وحين اقتربت من السَّيد جالاوز قالت :

- ابق مكانك أيَّها الفارس، ياليت القارب الذى أتى بك إلى هنا تمزَّق إربًا إربًا، فقد أحزنتنى كثيراً!

- سيدتى - قال جالاوز - إذا ما كان يثقل عليك ويحزنك أنْ أنتقم لنفسى ولآخر هو أكبر مكانةً منِّى لما لحقنا من شر من جانبه، فلا ذنب لى قط.

- لا تصنع بهذا الفارس سوءًا - قالت السَّيدة - ففى ذلك هلاكك على يد من لن يرحمك.

- لا يهمنى ما يحدث لى - قال جالاوز - فأنا لن أتركه بحالٍ من الأحوال حتى أعرف منه إجابةً على سؤالى.

- وما سؤالك له ؟ - قالت.

- أنْ يقول لى ما اسمه - قال جالاوز - ولماذا يتخفَّى بهذه الصَّورة، ومن هما هذان الفارسان اللذان يقدِّرهما أعظم تقديرٍ دون غيرهما فى هذا الوجود.

- آه، قالت السَّيدة - ملعون ذلك الذى علمَّك القتال، وأنت فى تعلمك له بهذا الشَّكل! وأنا أودُّ أنْ أخبرك بما تسأل عنه، وأقول لك إنَّ فارسنا هذا يدعى فلوريستان، وهو يتخفَّى بهذا الشَّكل بسبب فارسين هما أخوان له بهذه الديار، ماهران بارعان فى استخدام السِّلاح، فرغم ما علمتم عنه من شدَّة البأس فى النِّزال، فإنه لا يرغب فى التَّعرف عليهما حتى يبلغ فى هذا المجال شوطًا وباعًا طويلين، وبهذا لن يكون هناك ما يمنع من ضمِّ مآثره إلى مآثرهما،

وهو على حقٍ في هذا، تبعًا لما يتمتَّع به من شجاعةٍ فائقةٍ. وهذان الفارسان موجودان بمنزل الملك ليسوارتي، أحدهما يدعى أماديس والآخر جالاؤر، وثلاثتهم أبناء للملك بيريون دي جاولا.

- لا حول ولا قوة إلا بالله ! - قال جالاؤر - ماذا فعلت أنا ؟

وهنا ردَّ سيفه إلى غمده، وقال :

- أخي العزيز، خذ هذا السَّيف وشرف كسب المعركة.

- كيف ! - قال الفارس الغريب - هل أنا أخوك ؟

- نعم، بكلِّ تأكيدٍ - قال جالاؤر - فأنا أخوك جالاؤر.

- وهنا أخذ فلوريستان يؤدِّي له التَّحية، ثم قال :

- سيدي، معذرةً إذا ما كنت قد أخطأت بقتالي لك دون معرفةٍ، فما كان ذلك لشيء آخر سوى لرغبتي في أنْ أنال شرف أخوتك دونما خجلٍ - كما أنا الآن - ولكي أشبه في شيء شجاعتك الكبرى ومالك من شهرةٍ في القتال.

أخذه جالاؤر من يده ثم أوقفه، وعانقه لمدةٍ، وظلَّ يبكي من الفرحة لتعرفه عليه، ولشفقته عليه حين رآه يعاني من كلِّ تلك الجروح، زاعمًا أنَّ حياته أصبحت في خطرٍ كبيرٍ. وحين رأت السَّيدة ذلك، فرحتْ كثيرًا، وقالت لجالاؤر :

- سيدي، إذا ما كنت قد ضايقتني كثيرًا في بداية الأمر، فلتهنأ الآن بالرِّضا والسَّعادة.

حملتهما معها إلى القلعة، حيث خصَّصت لهما فراشين وثيرين في حجرةٍ جميلةٍ لكي يستريحا، ولما أن كانت صاحبة خبرة في مجال علاج الجروح اهتمت بمداواتهما، بعد أنْ رأت أنَّ حياة أحدهما مرتبطةٌ بحياة الآخر، نظرًا لذلك الحبِّ الكبير الذي أبدياه. كما أنَّ حياتها معرَّضةٌ للخطر إذا ما حاق خطرٌ بصديقها المحبوب فلوريستان. وهكذا - وكما سمعتم - أصبح الشَّقيقان في رعاية تلك السَّيدة الجميلة والثَّرية المدعوة كوريساندا، التي تمنَّت حياتهما كحياتها هي.

الفصل الثَّانى والأربعون

حكاية فلوريستان : كيف كان ابنًا للملك بيريون، وكيف تعرَّف على هذه الفتاة الجميلة ابنة كونت سيلانديا.

أودُّ أنْ أعرفكم بهذا الفارس الشُّجاع والقوى السَّيد فلوريستان، وفى أىِّ الدِّيار نشأ، وإلى من ينتسب. تعلمون أنَّه عندما كان الملك بيريون شابا فتيا يبحث عن المغامرات بكلِّ قلبه القوى الشُّجاع فى أماكن غريبةٍ عديدةٍ، عاش فى ألمانيا مدَّة عامين، حيث فعل العجائب فى أمور النِّزال، التى أصبحت تروى بين الألمان بوصفها عجيبة من العجائب. ولما عاد إلى دياره تحيطه الشُّهرةُ والمجدُ حدث أنَّه أمضى ليلةً فى بيت كونت سيلانديا، الذى سعد به كثيراً. وبما أنَّ الملك بيريون كان يستمتع بمتابعة التَّدريب على السِّلاح، وقد حقَّق من وراء ذلك مجداً وشهرةً عظيمين، وكذلك نال نظير خبرته قوةً وشجاعةً، وجهداً وهما وكرْبًا كان على الفرسان الصَّالحين معاناتها، حتى تمتلئ نفوسهم بحبٍّ ما يجب عليهم عمله. فقد كان كونت سيلانيا يقدِّر بيريون هذا كثيراً، كما لو كان قد تربَّع على عرش الشُّهرة والمجد فى مجال القتال، وقد أعدَّ له من التَّشريف والخدمة ما أمكنه ذلك. وبعد أنْ تحدَّثا فى أمور عرضت لهما استدعى الملك بيريون ليستريح فى إحدى الحجرات على فراشٍ وثيرٍ، ونظراً لأنَّه قد أجهد من السَّفر كثيراً بات يغطُّ فى سباتٍ عميقٍ. ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى وجد نفسه فى أحضان فتاة آيةٍ فى الجمال، وفمها معلقٌ بفمه. وكما يذكر هو فقد رغب فى التَّحرر منها حين استيقظ، غير أنَّها استوقفته، ثم قالت :

– ما هذا يا سيدى! ألا تلقى الرَّاحة معى فى هذا الفراش أكثر من كونك وحدك ؟

– نظر إليها الملكُ من خلال الشُّعلة التى كانت بالحجرة، فوجدها أجمل فتاةٍ رأتها عيناه، فقال لها :

– أخبرينى من أنت.

– لأكن من أكون – قالت – فأنا أحبُّك حبا جما، وأريد أنْ أهبك حبِّى.

– هذا لن يكون قبل أنْ تخبرينى بما طلبت منك.

– آه ! – قالت هى – كم يثقل علىَّ مثل هذا السُّؤال، حتى لا تتخيَّلنى أسوأ مما أبدو، لكن يعلم الله أنَّنى لا أنوى عمل شىءٍ آخر.

– من المناسب – قال بيريون – أن أعرف ما طلبت، وإلا فلن أفعل شيئًا.

– سأعترف أمامك – قالت – لتعلم أنَّنى ابنة هذا الكونت.

قال لها الملك :

– ليس لامرأةٍ فى مثل مكانتك أنْ تفعل مثل هذا الجنون. والآن أقول لك إنَّنى لن أفعل شيئًا يكون فيه شقاء أبيك وكربه.

– قالت هى :

– آه، لعنة الله على من يمتدحونك فى طيبتك، فأنت أسوأ رجل فى الوجود وأبغضه! أىُّ كرمٍ وطيبة عندك حين تطرد إنسانةً جميلةً وذات مكانةٍ سامية ؟

– عليك أنْ تفعلى – قال الملك – ما فيه شرفى وشرفك، لا ما فيه إهانةٌ لى ولك.

– كلاَّ! – قالت – أفى استجابتك لرجائى همٌّ وكربٌ لوالدى؟

هنا نهضت وذهبت لتُمسك بسيف الملك الذى كان بجوار درعه – وهذا هو السَّيف نفسه الذى وضعوه بعد ذلك مع أماديس فى الصُّندوق الذى ألقوا به فى البحر، كما روينا لكم فى بداية هذا الكتاب – ثم أخرجته من غمده ووضعت نصله فى مقابل قلبها، وقالت :

- الآن أدرك أنَّه سيصيب والدي كرب أكثر بفعلتي هذه من أيِّ شيءٍ آخر.

- وحين رأى الملك ذلك تعجَّب وانتفض من فراشة نحوها قائلا :

- تمهَّلي، فسوف أفعل ما تشائين.

أخذ السَّيف من يدها، ثم عانقها عناقا حارا وقضى حاجته معها تلك الليلة، فحملت منه دون أنْ يراها الملك بعد. فما إن أقبل الصُّبح حتى رحل عن الكونت، وواصل طريقه، أما هي فقد اكتشفت حملها سريعًا، ولكن حين حان وقت الولادة، ما تمكنت من التَّعجيل بمعرفته، غير أنَّها لم تعدم وسيلة للخروج هي وفتاتها لرؤية عمة لها كانت تسكن علي مقربة منهم، حيث كانت تذهب إليها للرَّاحة عندها وما إن عبرت مسافة الغابة حتى جاءها المخاض شديداً، فنزلت للتو من فوق جوادها. وهناك وضعت طفلاً. وحين رأتها الفتاة في هذه الشِّدَّة قربت الطفل من ثديها، وقالت لها :

- سيدتي، بذلك القلب الذي أقدمت به على الخطيئة اجعلي منه سنداً لك في هذا الموقف حتَّى أعود إليك.

وبعد ذلك امتطت جوادها وأسرعت قدر إمكانها حتى وصلت قلعة عمَّتها، وقصَّت عليها الأمر كما وقع. وحين استمعت لما قالت اعتراها الحزن الشَّديد، لكن ذلك لم يمنعها من أنْ تهب لنجدتها. وامتطت جوادها وأمرت بأنْ يحضروا لها مظلاَّت كانت قد تعودت حملها معها في ذهابها إلى رؤية الكونت، لتقيها حرَّ الشمس، ولَّا أنْ وصلت إلى حيث ابنة أخيها نزلت عن جوادها، وبكت معها ثم وضعتها في السَّرير المظلَّل الذي كانت تحمله ومعها ابنها، وعادت بها ليلا دون أنْ يراها أحدٌ غير أولئك الذين كانوا في صحبتها، والذين كان عليهم الحفاظ على هذا السِّرِّ حتى لا يتعرَّضوا للعقاب الأليم.

وفي النِّهاية أمكن مداواة أمرها، وعادت الفتاة إلى والدها الكونت دون أنْ يعرف شيئًا من هذا. وترعرع الطِّفلُ حتى بلغ الثَّامنة عشرة، فبدت عليه أمارات الفتوة والشَّجاعة أكثر من أيِّ فتىً آخر في المقاطعة. وعندما رأته السَّيدة على هذا الحال

أعطته جواداً وأسلحةً، ثم حملته معها إلى الكونت جده حتى يباركه فارسًا، وهكذا فعل دون أنْ يعلم أنَّه حفيده، ثم عادت به إلى القلعة مرَّةً أخرى، لكنَّها أعلمته في الطَّريق بأنَّه ابن للملك بيريون دى جاولا وحفيدٌ لذلك الرَّجل الذى باركه فارسًا، وأنَّ عليه أنْ يذهب ليتعرَّف على والده، الذى هو أفضل فارسٍ في الوجود.

– حقًا، سيدتي، فقد سمعت هذا الكلام يتردَّد مرارًا وتكرارًا، غير أنَّني لم أهتم بأنَّ هذا هو والدي. وبحق الله وحقك يا من ربيتني أقسم أنَّني لن أتعرَّف عليه أو على أيِّ إنسانٍ آخر – إنْ استطعت – حتى يقول النَّاس إنَّني جديرٌ بأنْ أكون ابنًا لهذا الرَّجل الصَّالح.

ودَّعها، ثم حمل سلاحه واثنين من حامليه معه، وسار في طريق القسطنطينية حيث شاعت الأخبار بأنَّ هناك حربًا شعواء قادمة فى الإمبراطورية. بقى هناك أربعة أعوام أبلى خلالها بلاءً حسنًا في القتال، حتى أصبح أفضل فارس مرَّ بتلك الديار فى عيون النَّاس جميعًا. وعندما رأى نفسه قد حقَّق كلَّ هذه الشُّهرة والمجد وجد أنَّه من الضَّروري العودة إلى والده في جاولا حتى يتعرَّف عليه. لكنَّه حين أصبح على مقربةٍ من تلك الدِّيار سمع بالشُّهرة الواسعة لأماديس الذى كان يفعل العجائب حينذاك – هذا إلى جانب جالاؤر – مما أدَّى به إلى تغيير هدفه ووجهته حين رأى أنَّ وضعه لا يساوى شيئًا بالمقارنة مع وضع جالاؤر وأماديس، ولهذا السبب رأى أنَّه من الضَّروري أنْ يبدأ من جديد طريق اكتساب الشَّرف هناك فى بريطانيا العظمى، التى يوجد على أرضها عددٌ من الفرسان العظام الذين لا مثيل لهم فى ديار أخرى. وقد أخفى حقيقته عن النَّاس حتى تصبح أعماله هى المتحدثة باسمه والمظهرة لحقيقته. وهكذا مرَّ به زمنٌ طويلٌ ينازل فيه الآخرين، فكسب كلَّ معركةٍ خاضها حتى نازله أخوه جالاؤر – كما سمعتم – وتعرَّفا ببعضهما أحدهما على الآخر مثلما رويناه.

ظلَّ أماديس خمسة أيامٍ في قلعة جروبينيسا، ومعه أجراخيس. وحين تمَّ إعداد الأشياء اللازمة للطريق رحلا عن هذا المكان، وما حملت جروبينيسا وبريولانخا معهما سوى فتاتين وخمسة فرسانٍ ليكونوا فى خدمتهم، وثلاثة جياد أحكمت زينتها

ومقاودها بصورةٍ كبيرةٍ. ولم تكن بريولانخا ترتدى سوى ملابس سوداء، فهكذا كان عليها أنْ ترتدى ملابسها حتَّى تنتقم لوالدها. وما إن تقدَّموا مسافة ميلٍ حتَّى طلبت بريولانخا من أماديس أنْ يقطع لها على نفسه عهداً وجروبينيسا وعداً آخر على جالاور، وحصلنا على ما أرادتا من الفارسين دون أنْ يهتما بحقيقة هذين الوعدين، فأمرتهما بألاَّ يغادرا الطَّريق لأىِّ شيءٍ يرونه إلا بإذنهما، حتى لا ينشغلا بقتالٍ آخر غير الذى يذهبان إليه.

– لم يكن ذلك أمراً ثقيلاً عليهما، لكنَّهما تعرَّضا لإهاناتٍ كبيرة، لأنَّهما قد مرَّا بأماكن كثيرة دعت الضَّرورة فيها إلى أنْ يمدَّا يد العون للآخرين، وهو أمر كان يحقُّ عليهم الوفاء به، لكنَّهما ما فعلاه. وهكذا حقت عليهما الذِّلة والإهانة. وسارا فى طريقهما – كما ترون – وبعد اثنى عشر يومًا دخل الجميع ديار سوبراديسا. وكان ذلك فى ليلةٍ ظلماء، وحينئذ تنحَّوا عن الطَّريق الكبير وانتقلوا إلى طريق ضيقٍ فساروا فيه مسافة ثلاثة أميالٍ، حتى انقضى وقتٌ طويلٌ من الليل، وبلغوا قلعةً صغيرةً. كانت السيدة خادمة لوالد جروبينيسا، تدعى كابالومبا، كانت عجوزًا ورصينةً. طرقوا الباب فخرج إليهم أناسٌ حازوا إعجاب السَّيدة ومن معها، ففتحوا لهم وأحسنوا وفادتهم وقدَّموا لهم العشاء والفرش الوثيرة ليستريحوا بها. وفى صباح اليوم التَّالى سألت كابالومبا جروبينيسا عن ذلك الطَّريق، وأخبرتها كيف أنَّ أماديس قد تعهد بالانتقام لوالد بريولانخا، وأنها ترى أن ذلك هو أفضل فرسان كانوا برفقتها فهزمهم، هذا إلى جانب ما شاهدته منه فى مواجهته مع رجالها داخل القلعة حين تمَّ إنقاذه بفضل أسدين كانا هناك. وتعجَّبت السَّيدة لكل هذه العظمة من جانب ذلك الفارس، ثم قالت:

– لو أنَّه هكذا، فحقيقٌ برفيقه أنْ يكون ذا بالٍ أيضًا، وبهذا يمكنها أنْ يفوزا بهذا اللقاء الذى سيخوضانه بحقٍ. لكنَّنى أخشى أن يقوم ذلك الخائن بعمل خديعةٍ يقتلهما بها.

- لهذا أتيت إليك - قالت جروبينيسا - كي تنصحيني.

- الآن - قالت كابالومبا - اتركي لي هذا الأمر.

- وحينئذ تناولت حبرًا وقرطاسًا وصاغت رسالةً، وختمتها بخاتم بريولانخا، وتكلَّمت حينًا مع فتاة على انفراد. وما إن أعطتها الرِّسالة حتَّى أمرتها بما يجب عليها فعله.

- خرجت الفتاة من القلعة تمتطي صهوة جوادها، وسارت طويلاً حتَّى بلغت تلك المدينة المعروفة باسم سوبراديسا، التي أصبحت اسمًا يطلق على المملكة بأسرها. وهنا كان أبيسيئوس وولداه داراثيون ودراميس، هذان اللذان على موعد بلقاء أماديس، فأبيسيئوس هذا هو الذي قتل والد بريولانخا مع أنَّه كان أخاه الأكبر، وذلك طمعًا في حيازة عرشه الذي كان يملكه كما فعل، حيث ظلَّ يحكم بالحديد والنَّار تلك المدينة، غصبًا عن أهلها لا عن طيب خاطرٍ منهم.

- وما إنْ وصلت الفتاة حتى دخلت إلى قصور الملك، ودخلت عبر الباب هكذا تمتطي صهوة جوادها تختال في زينتها البديعة. وأتاها الفرسان لينزلوها لكنها أخبرتهم بأنَّها لن تنزل حتى يراها الملك ويأمرها بالنُّزول عن جوادها، وفق إرادته. وحينئذ أمسكوا بزمام الجواد واصطحبوها إلى صالةٍ كان الملك موجودًا بها مع ابنيه وفرسانٍ آخرين، فأمرها بالنُّزول عن جوادها إذا ما كانت تود أنْ تقول شيئًا. قالت الفتاة :

- سأفعل ذلك شريطة أنْ أحصل منك على الأمان حتَّى لا أتعرَّض لسوءٍ مهما قلت من شيءٍ ضدك أو ضدَّ أحدٍ بهذا المكان.

وعدها بأنْ يعطيها الأمان، وعليها أنْ تتكلَّم دونما تحفظٍ فيما أتت من أجله.

نزلت عن جوادها، ثم قالت :

- سيدي، أتيت إليكم بهذا التَّكليف الذي لابد له أنْ يعلن أمام كبار رجالات المملكة، لتأذن لهم في الحضور وسوف تعرف الأمر فيما بعد.

- أفهم ما تريدين - قال الملك - ولك ما شئت، فأنا قد أرسلت في طلبهم منذ ستَّةِ أيَّام لأمورٍ كان عليهم القيام بها.

- هذا ممَّا يسرُّنى كثيراً - قالت الفتاة - إذنْ فأمر بحضورهم جميعًا إلى هنا.

أرسل الملك فى طلبهم، وحين أقبلوا جميعًا، قالت الفتاة :

- أيُّها الملك، إنَّ بريولانخا التى سلبتها ميراث مملكتها ترسل إليك برسالة، فأمر بقراءتها أمام هؤلاء النَّاس وأعطنى إجابةً حول ما تنوى فعله.

وحين سمع الملك ذكر ابنة أخيه في حضرته أصابه خجلٌ شديدٌ، وتذكر البلية التى أنزلها بها، إلاَّ أنَّه أصدر الأمر بقراءة الرِّسالة. وما جاء فيها شيءٌ سوى ضرورة السَّماع لفتاتها تلك وتصديقها في كلِّ ما تقول. وهنا أحس كبار رجالات المملكة الموجودين هناك، حين رأوا هذه الرِّسالة القادمة من مولاتهم، بشفقةٍ كبيرةٍ فى قلوبهم على حالها الآن بعد أنْ حُرمتْ حقَّها ظلْمًا وعدوانًا، وفيما بينهم دعوا الله أنْ يجعل لها من هذا الكرب مخرجًا، وألا يجعل هذه الخيانة تستمر زمنًا طويلاً. قال الملك للفتاة :

- قولى ما أمروك به فأنت صادقة عندنا.

قالت :

- مولاى الملك، حقا إنَّك قتلت والد بريولانخا، وانتزعت منها ملكها، وقلت أنت وولداك إنكم ستدافعون بقوة السِّلاح عن كلِّ ما فعلتموه بحق. وهاهى بريولانخا ترسل إليكم قائلةً إذا ما كنتم تزالون على هذا الرَّأى فإنَّها ستحضر إلى هنا فارسين يخوضان نيابةً عنها هذه المعركة، وسوف يجعلانك تدرك مدى الخيانة والصَّلافة الكبرى التى أقدمت على فعلها.

وحين استمع داراثيون ابنه الأكبر إلى هذا الكلام اشتاط غضبًا - لقد كان هذا ديدنه دائمًا - ونهض، ثم قال دون أنْ يقع الكلام من أبيه موقعًا حسنًا :

- أيَّتُها الفتاة إذا ما كانت بريولانخا تملك هذين الفارسين ويرغبان فى القتال من أجلِّ هذا السَّبب، فأنا سأخوض النِّزال نيابةً عنِّي وعن والدى وأخي، وإذا لم أفعل ما أقول فأتعهَّد هنا أمام الحاضرين أنْ أقدِّم رأسي لبريولانخا ولتأمر بقطعها نظير رأس أبيها.

- حقا - قالت الفتاة - يا داراثيون، أنت تبدو فى عن هيئة فارس يتمتَّع بقوةٍ كبيرةٍ، لكنَّني لا أدرى إذا ما كنت تفعل ذلك فى حالة غضبٍ وغيظٍ، فأنا أراك تتَّسم بالغضب دائمًا، ولكنْ إذا ما اتفقت مع والدك على ما سوف أقوله الآن، فسوف أؤمن بأنَّك ستفعله عن طيبةٍ وشجاعةٍ أنت أهلٌ لهما.

- أيَّتُها الفتاة - قال داراثيون - ماذا ستقولين ؟

قالت :

- اجعل والدك يؤمِّن الفارسين ضدَّ أولئك الذين يحضرون هنا وغيرهم ممن يوجدون بهذه الدِّيار، وهكذا فإذا ما نزل بك سوءٌ فليس لهم أنْ يلوموا أحدًا إلاَّ أنت، وإذا ما تمَّ هذا التَّأمين فسيحضر الفارسان إلى هنا في غضون ثلاثة أيَّامٍ.

تقدم داراثيون ليتوسَّل إلى والده قائلاً :

- مولاى، هأنت ترى ما تقوله الفتاة وتطلبه وما قد وعدتها به، وبما أنَّ شرفى هو شرفك فامنحها هذا الأمان، والذى عن طريقه لا يتعرَّض الفارسان لإهانةٍ أبدا عن طريق ما يتعرَّضان له أثناء النِّزال في حالة فوزهم، ونحن وأنت بلا إهانة، فقد أصبح من المعروف أنَّه إذا ما لحقت إهانة بمقامك الطَّاهر من جرَّاء ما يجرى، فهذا عارٌ لا يمحوه ولا يطهِّره إلا قتالنا نحن الثَّلاثة من أجله. ورغم أنَّ مثل هذا الأمر لا يدخل فيما تعهدَّت به، فإن علينا أنْ نقبل مثل هذا التَّحدى، لأنَّ هذين الفارسين - حسب ما أسمع - هما من بين الفرسان المجانين فى بيت الملك ليسوارتي ولما جُبلا عليه من قلة العقل والصَّلف، فإنَّهما يقدِّران نفسيهما حقَّ التَّقدير وينظران لغيرها نظرة تحقيرٍ وإذلالٍ.

وهنا أقدم الملك الذى أحب ابنه أكثر من نفسه - على الرَّغم من أن قتله لأخيه قد وضعه فى دائرة الاتهام والخطيئة، وأنه كان يتشكَّك كثيراً فى نتيجة هذا النِّزال - على منح الأمان لهذين الفارسين كما طلبت الفتاة تماماً، منتظراً الوقت المعلوم من ربٍّ العباد، الذى سيلقى فيه جزاء خيانته، كما ستعلمونه فيما بعد. ولما أنْ رأت الفتاة أنَّ مهمتها قد آتت ثمارها المرجوة قالت للملك وابنيه :

- استعدوا، فغداً سيفد إلى هنا الفارسان اللذان ستلاقونهما.

امتطت جوادها، وتابعت سيرها حتى بلغت القلعة وروت للسِّيدات والفرسان كيف أنَّها قد أنجزت مهمتها كاملةً، غير أنَّه حين ذكرت بأنَّ داراثيون يعتبرهما مجنونين لانتمائهما إلى بيت الملك ليسوارتى تحرَّك أماديس وهو يتميز من الغيظ، ثمَّ قال :

- فى ذلك البيت ما زال هناك من لا يعبأ بقطع رأسه وتخليصه من صلفه هذا. غير أنَّه رأى الغيظ وقد تملَّكه ودفعه إلى مثل هذا الكلام. وأمَّا بريولانخا - التى لم تزح عنه عينيها قط - فقد أسفت لما قال، وتوجَّهت إليه قائلة :

- مولاى، ليس لك أن تقول أو تفعل الكثير ضدَّ أولئك الخونة فهم لا يستحقون كلَّ هذا، فهأنت تعلم موت والدى، والمدة التى حُرمتُ فيها بلا حقٍ من ملكى على يد هؤلاء، ولتكن بى رحيماً، فقد عهدت إلى ربِّى ثم إليك بحالى وقضيتى.

أماديس الذى أصبح قلبه تابعًا لكل فضيلة ولين تألَّم كثيراً لحال هذه الفتاة الجميلة، ثم قال لها :

- مولاتى الجميلة، بحق ملك فى هذه الرَّبِّ، سأُحوِّل غداً - قبل حلول الليل - حزنك الكبير هذا إلى فرحةٍ عارمةٍ.

وهنا أقدمت بريولانخا على الانحناء أمامه حتى كادت تقبل قدميه، غير أنَّه قد نهض من مكانه واقفًا لما أصابه من حياءٍ وخجلٍ، وأقبل عليها أجراخيس فرفع بيديه جسدها من على الأرض.

اتفق الجميع على أنَّه عند الرَّحيل من هذا المكان فى فجر اليوم التَّالى، سيذهبون

للصَّلاة في إحدى دور العبادة المسمَّاة بالصومعة ذات النَّافورات الثَّلاث، التي كانت على مسافة نصف فرسخٍ من سوبراديسا، وهكذا أمضوا هذه الليلة يعبثون ويتمتَّعون. وأما بريولانخا - التي أطالت الحديث مع أماديس - فقد وجدت نفسها مدفوعة في مرَّات عديدةٍ لطلب الزَّواج منه. ساورها خوفٌ من أنْ تكون تلك الأفكار العميقة والدُّموع التي ترى في وجهه أحيانًا، لا لضعفٍ في قلبه القوي ولكن لقهره وعذابه وحزنه على أخرى هي هدف كل تلك العاطفة التي أثارتها فيه. هكذا عندما تغلَّب العقل على العاطفة كفَّت عما كانت تفكِّر فيه، وتركته ورحلت عنه كي تتمكَّن من الخلود إلى الرَّاحة التي تمكنها من الاستيقاظ في الموعد المحدد.

ولمَّا أسفر الصُّبح أخذ أماديس وأجراخيس معهما كلا من جروبينيسا وبريولانخا ومن بصحبتهما، وبعد ساعةٍ من النَّهار أصبح الجميع داخل دار العبادة المعروفة بصومعة النَّافورات الثَّلاث، حيث أدُّوا صلواتهم واستمعوا إلى خطبة من الناسك الصالح القائم على أمرها. وقد تضرَّع أولئك الفرسان إلى ربِّهم بالدُّعاء حتى يكون في عونهم وبجانبهم، فهو يعلم ما هم عليه من حق وعدل في تلك المعركة. وبعد ذلك أخذوا أسلحتهم وعتادهم الذي غطى أجسادهم فيما عدا الوجه والكفين، وامتطوا جيادهم، وامتطت النِّساء جيادهنَّ، وواصلوا سيرهم حتَّى بلغوا مدينة سوبراديسا، فوجدوا خارجها الملك أبيسيؤس وابنيه، وبصحبتهم أناسٌ كثيرون في انتظارهم، حيث كانوا على علمٍ بقدومهم. أقبل الجميع على الجانب الذي كانت توجد فيه بريولانخا، والتي كان أماديس يمسك لها بزمام جوادها، فأعربوا لها عن حبِّهم القلبي، وأنَّها هي المالكة الطبيعية والحقيقية عليهم. ولما رأى أماديس تسارع النَّاس عليها نزع عنها قناعها حتى يرى الجميع جمال وجهها، وحين رأوها على هذا النَّحو، والدُّموع تنهمر من عينيها وقد التفتت بوجهها نحوهم، باركها الجميع بكلِّ الحبِّ والمودَّة القلبية، ودعوا الله ألا يطيل فترة حرمانها من ملكها أكثر من ذلك.

وأما أبيسيؤس، الذي رأى ابنة أخيه أمامه، فقد تحكَّم في جشعه وشرِّه، حيث تملَّكه الخجل والحياء حين تذكَّر الخيانة التي فعلها بوالدها، غير أنه قد تحجَّر قلبه بعد

كلَّ هذا الوقت، فظنَّ أنْ القدر لا يعارض كلَّ هذه الأُبَّهة التى أصبح فيها، وداخله الإحساس نفسه الذى أحسه النَّاس حين رأوا بريولانخا، وقال :

– أيُّها البؤساء الشَّريرون، أرى على وجوهكم سعادةً غامرةً لخروج هذه الفتاة إليكم، وهذا نقصان فى العقل منكم، فلو أنكم تُؤازرونني أنا، أنا الفارس، أكثر من مؤازرتكم لها – وهى المرأة الضَّعيفة – ففى هذا سعادتكم وشرفكم فى راحتكم والدِّفاع عنكم. وإذا لم يحدث منكم ذلك فسترون أىَّ قوةٍ وفضلٍ لها، ففى زمنٍ طويلٍ لم تتمكَّن من الحصول على أكثر من هؤلاء الفرسان الذين غُرِّر بهم، وأتوا إلى هنا ليموتوا أو يهانوا، وهو ما أشفق عليهم من أجله.

وما إنْ سمع أماديس هذا الكلام حتى استشاط غضبًا، وأوشك الدَّم أن يقطر من عينيه غيظًا، وقال لأبيسيؤس من مكانٍ مرتفعٍ، حتَّى يسمعه الجميع.

– أبيسيؤس، أرى أنَّك تضايقت كثيرًا لمجىء بريولانخا، وذلك بسبب الخيانة العظمى التى ارتكبتها حين قتلت والدها، الذى كان أخاك الأكبر والحاكم الشَّرعى، وإذا ما كان حقا وعدلاً لكان عليك أنْ تتخلَّى عن شرورك وأفعالك السَّيئة معها وتترك لها عرش والدها، وسوف أعطيك فرصةً بعدم نزالك، حتى تفيق إلى نفسك وتعود إلى ربك طالبًا منه العفو، فتكفِّر عن سيئاتك وتتوب. وبما أنَّك خسرت شرفك فى هذه الحياة الدُّنيا، فإنه يمكنك أنْ تصلح الأمر بإنقاذ نفسك فى الحياة الآخرة.

وهنا تقدم داراثيون إلى الأمام والغضب يملؤه، قبل أنْ يردَّ والده، ثمَّ قال :

– أيُّها الفارس المجنون الذى تنتمى إلى بيت الملك ليسوارتى، ما فكَّرت قط فى أنْ أكابد من أحد هذا الكلام الذى قلته أمامى، لكنَّنى أفعل ذلك لأنَّه إذا ما تجرَّأت على إنفاذ ما اتفقنا عليه بيننا، فإنَّنى سأنتقم لهذا الغضب بأسرع ما يمكن. وإذا ما دعاك قلبك للهرب، فلن تذهب إلى مكانٍ أبدًا إلاَّ وتلحقك فيه أذيتى حتَّى يندم ويحزن عليك كلُّ من يراك.

قال له أجراخيس :

– طالما أنك تريد تحمُّل نتيجة خيانة والدك، فاحمل سلاحك وتعال إلى المعركة حسبما اتفقنا. وإذا ما كنت محظوظًا، فليرفع عنك الموت الذى تحملونه فوق رءوسكم، وإلا فلك الأخرى، أنت ومن معك، جزاءً بما قدَّمت أيديكم من سوءٍ.

– قل ما شئت – قال داراثيون – فقريبًا سيرسل لسانك هذا إلى بيت الملك ليسوارتى، حتى إذا ما رأى هذه المأساة من هم أمثالك اعتدلوا فى أقوالهم وأعمالهم الجنونية.

وبعد ذلك أرسل فى طلب أسلحته، ووالده وأخوه كذلك، فتدرَّعوا بها. وامتطوا جيادهم وتوجَّهوا إلى ساحةٍ معدَّةٍ لأعمال القتال منذ القدم. وأماديس وأجراخيس – بعد أنْ وضعا خوذتيهما على رأسيهما ودرعيهما كذلك، وحملا رمحيهما – توجها إليهما فى السَّاحة نفسها. وهنا توجَّه دراميس الأخ الأوسط والفارس الشُّجاع، الذى ما كان يسعه إلا نزال اثنين من الفرسان فى الميدان إلى أبيه قائلاً :

– مولاى، حيث توجد أنت وأخى فى مكان، فإن هذا يعفينى أنا من الكلام، لكنى لا أستطيع عمل هذا الآن بكل تلك القوة الكبيرة التى نلتها من ربى ثمَّ منك. دعنى وهذا الفارس الذى قال لك كلامًا بذيئًا. وإذا لم أقتله بأوَّل ضربة رمحٍ فلن أحمل السِّلاح بعد اليوم، وإذا ما حالفه الحظ ولم أصبه بضربة رمحى فسأفعل ما وعدت بضربةٍ من سيفى.

سمع كثيرون ما قاله هذا الفارس، وأعاروه انتباهًا. وما عدُّوا جنونه هذا أمرًا فظيعًا، وكذلك فما تشكَّكوا فى إمكانية تحقيقه، نظرًا لما حقَّقه أمامهم من انتصارات كبيرة فى القتال. والحال هكذا نظر إليهم داراثيون فما وجد غير فارسين اثنين، فصاح بأعلى صوته قائلاً :

– ما هذا ؟ أعرف أنكم ستكونون ثلاثةً لا اثنين فقط، وأرى أنَّ الثَّالث قد خانه قلبه، فأرسلا فى طلبه سريعًا، حتى لا نقف هكذا.

– لا تأس على الثَّالث – قال أماديس– فهنا من يخلفه ويملأ مكانه جيداً، ومن فرط ثقتى فى الله أقول لك إنَّه لن يمرَّ وقتٌ طويلٌ إلا وستطلبون خروج الرَّجل الثَّانى، لعدم الحاجة إليه.

ثم قال :

– الآن دافعوا عن أنفسكم.

وهنا أطلقوا العنان للجياد حتى تتلاحم بأكبر قوة ممكنة، وقد تدثَّر الجميع جيداً داخل الدُّروع. توجَّه دراميس نحو أماديس، فتضاربا بكلِّ قوة، أصابت الضَّربات الدُّروع، فبلغت الرِّماح الضُّلوع، وكسر رمح دراميس، غير أنَّ أماديس قد ضربه ضربةً مؤلمةً، هى التى دون أن تصيب الدرع فى أى مكان منه كسرت قلبه داخل جسده وأطاحت به على الأرض جثةً هامدةً، وظنَّ الجميع أنَّ برجًا قد سقط نظراً لشدة سقوطه على الأرض.

– باسم الله ! – قال أرديان القزم – لقد نجا سيدى ومولاى، ويبدو أنَّ أفعاله أصدق أنباءً من تهديدات الآخر.

جرى أجراخيس نحو الاثنين والتحم بداراثيون، وكسر رمحيهما، وجاءت ضربة أجراخيس موجعةً ومؤلمةً لداراثيون، إلا أنَّ أحداً منهم لم يسقط. أخطأ أبيسيؤس ضربته، وحين أدار الجواد رأى ابنه دراميس قد وافته منيته، فما كان يهمس بحركة قط، فتألمَّ لذلك كثيراً، ولكنَّه لم يصدق أنَّه قد فارق الحياة نهائيًا وهنا انطلق سريعًا نحو أماديس والغيظ يملؤه، كمن يحاول الانتقام لابنه، وأمسك بالرمح جيداً ثم سدد إليه ضربةً قويةً، فمزَّق درعه، وأدخل حديد الرُّمح فى ذراعه، وكُسِرَ الرُّمحُ فظنَّ الجميع أنَّه ذا نفع فى النِّزال بعد ذلك.

وهنا تألمت بريولانخا لهذا كثيراً ولكن أحداً لم يلتفت إليها، لقد خانها قلبها وذهب النُّور من عينيها، فسقطت من فوق جوادها. غير أن ذلك الذى لم ينزعج لكل تلك الضَّربات أحكم قبضته على سيفه الفاضل الذى انتزعه من أركالاوس منذ مدةٍ

وجيزةٍ وهوى به على رأس أبيسيؤس فأصاب خوذته، فتناثرت على كتفيه، وغارت فيه، فدخلت برأسه حتى العظام، وهنا أصبح أبيسيؤس يملأه الهلع من أثر الضربة، فما تمكَّن من البقاء على سرج الجواد، وهوى إلى الأرض مغشيا عليه. وهنا أصيب الكثيرون بالدَّهشة بعد أنْ رأوا أماديس بهذه القوة، وكيف تمكَّن من أنْ يقضي على اثنين من أقوى الفرسان بضربتين فقط، فقد كانوا يعتقدون أنَّه لا يوجد أفضل منهما في الوجود، ثم انطلق نحو داراثيون الذى نازل أجراخيس نزالاً مريراً، فظهرا قويين أكثر من غيرهما، وقد أحسن في استخدام السِّلاح، ثم قال له:

- داراثيون، أرى أنَّك تتمنَّى الآن خروج الفارس الثاني من أرض النِّزال أكثر من تمنيك لرؤية الثَّالث ينزل إلى الحلبة.

لم يرد عليه دارثيون، والتحف بدرعه جيداً أما أماديس الذي توجه إليه ليضربه، فقد اعترضه أجراخيس قائلاً :

- أخي وسيدي، لقد فعلت كثيراً، دعني وهذا الفارس الذى هدَّدني بصلفٍ كبيرٍ بأنَّه سينتزع منِّي لساني.

غير أنَّ أماديس، الذى أتى ذلك الفارس والغيظ يملؤه، لم يفهم جيداً ما قاله له أجراخيس، فتركه وسدَّد ضربةً قويةً أصابت درع داراثيون، فهوت بكل ما طالته على الأرض، ثم هوى درارسيون بسيفه على مقدمة سرج الجواد فأصاب عنقه. وحين تحرَّك داراسيون زادت الضَّربة سوءاً، حتى كاد أنْ يدخل السَّيف في باطن الجواد. وحين شعر الجواد بجراحه هرب بأماديس دون أنْ يقدر على التَّحكم فيه، غير أنَّه جذب زمامه بشدَّةٍ، حيث كان ما يزال يمسك به في يده. وحين رأى أماديس أنَّه لا وسيلة لعلاج هذا الوضع وأنَّ الجواد سيخرجه من ساحة النزال ضربه ضربةً قويةً بين أذنيه، فشقَّ رأسه نصفين، فخرَّ على الأرض وقد فارق الحياة، فاغتم أماديس لذلك كثيراً، إلاَّ أنَّه نهض مسرعاً بهمة وعزمٍ شديدين، وسيفه في يده، ثم توجَّه إلى أبيسيؤس الذى كان قد نهض وذهب ليمدَّ يد العون لابنه. وفي ذلك الحين سدَّد أجراخيس ضربةً قويةً بسيفه إلى داراثيون، أصابت خوذته فما استطاع أنْ يخرج سيفه منها، فظلَّ

معلقًا بها، وسدَّد إليه الآخر ضربات بسيفه. غير أنَّ أجراخيس، حين وجد نفسه بلا سيفٍ لم يبد نوعا من الضَّعف، وتفادى الضَّربة الموجَّهة إليه من سيف داراثيون بخفةٍ وسرعةٍ، فما استطاع الآخر أنْ يصيبه بضررٍ، وأخذه بين ذراعيه، وألقى داراثيون بسيفه وجذبه بقوةٍ بين ذراعية، وأخذ كلٌ منهما يجذب الأخر حتى سقطا على الأرض، وظلاً متشابكين مدَّةً، حتى أتى أبيسيؤس وسدَّد ضربة قوية إلى أجراخيس، وكان على وشك أنْ يجهز عليه، ولكن أماديس، حين رأه وقد أقدم على هذا العمل، أسرع نحوه قدر استطاعته. وأما أبيسيؤس – الذى كان على وشك أنْ يدخل السيف فى جسد أجراخيس حيث كان قد بلغه – فنظرًا للخوف الذى تملَّكه تركه وغَّطى نفسه بدرعه، وهنا سدَّد إليه أجراخيس ضربةً قويةً أطاحت درعه وألصقته بخوذته، وهكذا أنهكه حتّى أصبح على وشك السُّقوط.

وحين رأى أجراخيس أماديس بالقرب منه تماسك حتى نهض من الأرض، وكذلك داراثيون حتى انفصل كل منهما عن الآخر، وما إن نهضا حتى رأى أجراخيس سيف الآخر ملقىً على الأرض، فأخذه، وأما داراثيون فقد أخذ ذلك السَّيف الذى كان عالقًا بخوذته، جذبه بشدةٍ نحوه فأخرجه، وذهب بالقرب من والده. ولكن أجراخيس نزف دماءً كثيرةً تقاطرت من حلقة حتى خضَّبت أسلحته كلها، وحين رآه أماديس على هذه الهيئة تألَّمَ لحاله كثيراً، وظنَّ أنَّ هذا الجرح سيكون فيه هلاك داراثيون، فقال له :

– صديقى، استرح، واترك لى أمر هذين الخائنين.

– سيدى، كلا – قال أجراخيس – لن يقف جرحى عائقًا أمام مساعدتك كما ترى الآن.

– إذنْ، فلنمض إليهما – قال أماديس.

وهنا أقبلا عليهما فسدَّدا إليهما ضربات موجعةً قويةً، لكن أماديس قد نظر فرأى أنَّ أجراخيس قد أصبح فى خطرٍ داهمٍ من جرَّاء جراحه، وهنا زاد غيظه، فزاد

الغيظ من قوته، فأعمل سيفه فيهما حتى أجهز على ما بهما من قوةٍ، فتناثرت أسلحتهما وقد تمزقت إرباً إرباً كما تمزَّق جسداهما. وحين وجدا نفسيهما غير قادرين على مواجهة ضرباته القوية فرا من أمامه هاربين هنا وهناك، يرتعدان خوفاً من الموت. ظل أبيسيؤس وداراثيون يعانيان من هذه الآلام حتى بلغت السَّاعة التَّاسعة صباحاً، ولما أن أبيسيؤس رأى الموت سيدركه لا محالة تناول سيفه بيديه وانطلق وكلُّه غيظٌ نحو أماديس، وسدد إليه ضربةً قويةً أصابت خوذته، فبدى وكأنه لم تصبه قروحٌ من قبل نظراً للضَّربة القوية التي سدَّدها، أقرحه وأسقط جزءاً من خوذته، وهوى بسيفه على كتفه الأيسر، فهشم جزءاً من درعه، وتناثر اللحم الذي كان يستره من جسده، تألم أماديس لهذه الضَّربة ألمًا كبيراً وما تأخَّر في تكبيده ثمن ما فعل، فسدَّد إليه ضربة مميتةً بكل ما أوتي من قوةٍ فأصابت ذراعه الشِّرير الذي قتل به أخاه الملك فمزَّقه من أعلاه وأطاح به على الأرض. وحين رآه أماديس بهذا الشَّكل قال له :

- أبيسيؤس، أرأيت حينئذ كيف أنَّ الخيانة جعلتك تنعم في سعادة وسمو، والآن وأنت على وشك الموت ستلقى بك في الجحيم.

سقط أبيسيؤس على الأرض وأشرف على الموت، ونظر أماديس إلى الآخر فرأى أنَّ أجراخيس أسقطه على الأرض وحزَّ رأسه. حينئذٍ ذهب جميع أهالي تلك المملكة سعداء مسرورين جدا إلى بريولانخا سيدتهم يُقبلون يديها.

عبرة وعظة

ليكن فيما حدث عبرة لكم أيُّها الطَّامعون، يا من وهبكم الله تعالى مقاليد الحكم، ونسيتم أنْ تشكروه على ما أسداه إليكم من مكانة ساميةٍ وموقرة، يا من أردتم - على عكس أوامر الله ووصاياه، بعدم خوفكم منه كما يجب، وإبدائكم عدم الرِّضا بتلك المناصب والعطايا التي وهبكم إيَّاها، وانتقلت إليكم من بعد أسلافكم - اغتصاب حقوق الآخرين وسلبها بالقتل والحروب والنَّهب، غير مهتمين بتوجيه أفكاركم وجهودكم،

بل وغيظكم وطمعكم تجاه غير المؤمنين، حيث يصبح كلُّ شيءٍ في مواجهتهم مشروعًا وخيراً، حتى لا تتمتعوا بذلك المجد الذى يتمتَّع به الملكان الكاثوليكيان فى هذه الدُّنيا، وفي الدَّار الآخرة سيكون من نصيبها كذلك، لأنَّهما جعلا كلَّ مجهوداتهما فى سبيل خدمة الرَّب. والآن عليكم أنْ تتذكروا أنَّ الثَّروات الهائلة والمكانة السَّامية لا تسد جشع الطَّامعين وشهوة النَّهمين. بل تثير فيهم العطش الدَّائم والفقر العاجل. وأنتم أيها الواعظون، الذين أخذتكم حظوظكم ومكانتكم، وأصبحتم مخوَّلين لنصحهم وإرشادهم، كما تدير الدَّفة المركب الكبير وتحكم زمامه، انصحوهم بإخلاصٍ، وأعربوا لهم عن حبكم، ففي ذلك خدمة منكم للرَّب، وخدمةٌ للعامة. وإذا لم تنالوا جزاء ما صنعتم و تطلعتم إليه فى هذه الدنيا، فسوف تنالونه في الحياة الآخرة الأبدية. وإذا ما فعلتم غير ذلك حتى تشبعوا غرائزكم ومطامعكم فسوف يحيق بكم عكس ذلك تمامًا، وتصبح أنفسكم تعانى الآلام والكروب، فكلُّ ما تحصلون عليه يعود إلى ما تفعلونه أنتم، لأنَّ النُّبلاء، نظرًا لحداثة سنِّهم أو لعداوة فيهم، بمقدورهم فعل شرورٍ عديدةٍ تضطرب عقولهم ويفقدون أحاسيسهم ووعيهم من أجلها، فيرون هذا العمل خيراً، هكذا يجعلون الخطيئة من جانبهم غدرا، ويفعلونه خاصة بإذنكم ونصحكم. ولكنكم يا من أصبحتم أحراراً، وترون الخطأ رأى العين، وتخشون النَّاس. والله أحق أنْ تخشوه، بامكانكم أنْ توقفوهم وتنتشلوهم من خطاياهم، ولكنكم تنتظرون بصبركم عليهم حتى يستغل هذا الخطأ، ويصبح هؤلاء ضحيةً لأخطائهم، متناسين الرُّوحانيات، تتعانقون لأمر من أمور الدنيا، متناسين كيف أنَّ عدداً كبيراً من أولئك النَّاصحين لعلية القوم قد لقوا النَّهاية المحتومة نفسها ألا وهي الموت؛ لأنَّهم لم يسدوا إليهم النَّصيحة الحسنة، لأنه إذا ما كانت الخطايا مرضية للرغبات الخربة، فحين تنقشع هذه الغمامة المظلمة وتتضح المعارف الحقة، ستصبح بغيضة هي ومن أسداها.

والآن ليكن لكم فيما فعل الملك عبرة، ذلك الرُّجل الذى ملأ الجشع قلبه فدفعه للقيام بالخيانة الكبرى، فقتل أخاه، مليكه وسيده الذى كان يجلس على كرسي العرش الملكي، فمزَّق رأسه وتاجه نصفين، حتى أصبح هو المالك - بالقوة الغاشمة، وبمجد عال في رأيه - لتلك المملكة. ظنًا منه أنَّه سيجعل القدر المتغير وفق إشارته ورهن أمره،

إذنْ، ما هي الثَّمــرة التي جناها ؟ بكل تأكيد لم يحصل على ثمرة سوى أنَّ رب العالمين – بعد ما رأى من عصيان الملك لوصاياه – الرَّب الذى يعفو عن الخطايا تكرما – بعد الاعتراف بها والنَّدم على فعلها والتَّوبة منها – والمنتقم الجبّار قد أتاح الفرصة لمجيء ذلك المخلص أماديس دى جاولا، فقتل أبيسيؤس ووالديه، وانتقم بهذا لتلك الخيانة العظمى التى اقترفها ذلك الملك النَّبيل. وإذا ما مرَّ هؤلاء بظروفٍ عصيبةٍ فى النزال حين رأوا أسلحتهم مهشَّمة، وأجسادهم تقطر دمًا ولحمًا، ممَّا أدَّى إلى موتهم الشَّنيع فى النَّهاية، فلا تظنُّوا أنهَّم بهذا قد وفوا وطهروا خطاياهم، لكنَّ نفوسهم وأرواحهم التى بعدت عن ربِّهم الذى خلقهم، وشاركتهم خطاياهم وأخطاءهم، ستلقى فى نارٍ حاميةٍ، ذات لهبٍ يرمى بشرر كالقصر هم فيها خالدون.

لندع هذا الذى أسلفناه من أمور كسبها البعض عنوة وغصبًا بعد طول عناءٍ ثم تركوها وهم يعانون أشدَّ العناء، فقيل لهم هذا جزاء ما قدمتم لأنفسكم. فتحملوا غُرم فعلتكم. وكذلك نفعل فلا نعلق أنفسنا بها، بل نعلقها بأشياءٍ أخرى نجنى من ورائها مجداً.

تعود الحكاية أدراجها الأولى. فما إن كسب أماديس وأجراخيس هذه المعركة، التى قتل فيها أبيسيؤس وابناه الشجاعان – كما سمعتم – حتى ألقى بهم خارج ساحة النزال، ولم يشأ أماديس أنْ ينزع ثياب النزال عنه – رغم ما به من قروح – ليرى ما إذا كان هناك من عائقٍ يمنع بريولانخا من استعادة ملكها. وبعد ذلك وصل إلى هناك رجلٌ من علية القوم يتمتَّع بنفوذٍ كبيرٍ فى المملكة، يدعى جومان، مع ما يقرب من مائة شخصٍ من أهله وحسبه، الذين كانوا برفقته آنذاك، وقد أكد لأماديس أنَّه رغمًا عن هذه الملكة التى لم تملك لنفسها شيئًا، أصبحت لفترة طويلةٍ تحت حكم وقهر ذلك الذى خان سيده فقتله، وبعد أن تغير الحـال بأمر الله على هذا النَّحو، فلا عليه أنْ يخشى أو أنْ يفكرَ فى شيءٍ سوى أنَّ الجميع كانوا ولا يزالون على ولائهم وتبعيتهم لسيدتهم بريولانخا.

بعد ذلك انصرف أماديس وجميع الرفاق إلى القصور الملكية، حتى لم تكد تمر ثمانية أيام حتى توافد كلُّ أهل المملكة في بهجةٍ وسرورٍ ليقدموا فروض الطّاعة للملكة بريولانخا. وهناك ارتمى أماديس على فراش، دون أنْ تفارقه تلك الملكة الجميلة، التي أحبّته أكثر من نفسها، اللهم إلا في حالة نومها. وأجراخيس، الذي تقرّح في المعركة بقروحٍ خطيرةٍ، ظلَّ تحت عناية رجلٍ خبيرٍ في مجال تضميد الجروح حتى يمنع الآخرين من التحدث إليه، فقد كانت إصابته في حلقه، ولهذا أصبح هذا المنع ضروريا.

إنَّ كلَّ ما يقال في هذا الكتاب الأول عن حب أماديس وهذه الملكة الجميلة قد تزايد، كما قيل لكم. ولكون هذا الأمر فارغًا وعرضيًا، فلن نتمادى في الحديث عنه، حيث لا وقت له الآن يناسبه. وبما أنَّه أمر لا حقيقة له فإنه سوف يفسد ويعوق ما ستروونه على مسامعكم هذه القصة العظيمة القدر.

الفصل الثَّالث والأربعون

كيف عثر جالاؤر وفلوريستان، وهما في طريقهما إلى مملكة سوبراديسا، على ثلاث فتيات عند نبْع لوس أولموس .

ظلَّ جالاؤر وفلوريستان في قلعة كوريساندا - كما سمعتم - حتى تم علاجهما من جراحهما، وعندئذٍ تذكَّرا الرَّحيل بغية البحث عن أماديس، ظنا أنَّه سيكون موجوداً في مملكة سوبراديسا، آملين في ألا تكون المعركة المقرَّر إتمامها هناك قد بدأت حتى يصلا إلى مكانها، ويحضرا جانبًا من خطرها ومجدها بإذن الله. وحين ودَّع فلوريستان صديقته، تملَّكها الغضب وتألَّمت لرحيله كثيراً واغرورقت عيناها بالدُّموع، فتألَّما لحالها كثيراً، ولكن فلوريستان أخذ يواسيها، واعداً إيَّاها بالعودة لرؤيتها مرَّةً أخرى حين يتاح لهما ذلك . ودَّعاها، وحملا أسلحتهما وامتطيا جواديهما واصطحبا حاملي أسلحتهما، وانطلقا ليستقلا المركب، كي يوصلهم إلى اليابسة والطَّريق إلى سوبراديسا، وهنا قال فلوريستان لجالاؤر :

- سيدى، أريدك أنْ تعدنى بشيء .

- أيعز على طلبك هذا يا أخي وسيدى ؟ - قال جالاؤر .

- لا - قال فلوريستان .

- إذنْ فلتأمرنى بذلك الذى سوف أفي لك به دونما خجل، والذى سوف أفعله من أجلك عن طيب خاطر مني .

- أطلب منك - قال فلوريستان - ألاّ تدخل في نزاعٍ مع أحدٍ في هذا الطّريق حتى تراني غير قادر على شيءٍ آخر .

- بالتّأكيد - قال جالاور - هذا أمرٌ يثقل عليَّ كثيراً .

- لا يثقل عليك - قال فلوريستان - فإذا ما تحصلت على شيء من وراء ذلك، فشرفي وشرفك سواءٌ .

وعلى مدى أربعة الأيام التي قضوها في طريقهم لم يواجهوا أيَّة مغامرة جديرةٍ بالحديث عنها، وفي اليوم التّالي وصلا إلى برجٍ في وقتٍ أصبح من الضّروري الإيواء إلى مكان يرتاحون فيه. وعند باب الفناء وجدا فارسًا أحسن وفادتهما، فبدى لهما قضاء الليلة هناك. وبعد أنْ نزعوا عنهما أسلحتهما وأخذوا جواديهما ليقدموا إليهما الطّعام ويجعلونهما في مكانٍ يعتنون بهما فيه، قدموا إليهما عباءتين، ودار بينهم حوارٌ طويلٌ، واستمتعوا بوقتهم حتى أخذوهما إلى داخل البرج وقدّموا لهما العشاء .

كان ذلك الفارس الذي استضافهما عظيمًا ورشيقًا ومحافظًا للغاية، لكنَّهما قد بدى لهما الحزن في عينيه أحيانًا وحيث غلب عليه الهمُّ، وبعد تأملٍ تباحث الأخوان علة هذا الأمر، فقال جالاور :

- سيدي، يبدو لنا أنك لست سعيداً كما يجب، وإذا ما كان حزنك هذا لشيءٍ يمكننا مساعدتك فيه، فأفصح لنا عنه ونحن طوع إرادتك .

- شكرًا جزيلاً - قال الفارس - فأنا واثقٌ من أنَّكما ستفعلان ما تقولانه لأنكما فارسان طيبان، غير أني قد أصابني سهم الحب فأحزنني، ولن أقول لكما الآن أكثر من هذا، فأنا أخجل لذلك .

واستمر الحديث بينهم حتى أتى موعد النَّوم، وما إن ذهب المضيف إلى حجرته حتى بقيا هما في حجرةٍ غاية في الجمال، بها فراشان، ناما عليهما تلك الليلة واستراحا، وفي صباح اليوم التّالي أعطوهما أسلحتهما وجواديهما ثم سارا في طريقهما، وخرج المضيف ممتطيا جواده دونما سلاح ليصحبهما ويرى ماذا سيحدث

لهمـا في الطَّريق. هكذا اصطحبهما، لكن في طريق غير آمن عبر طريق يعرفه، ليرى ما إذا كان لهما باعٌ طويلٌ في استخدام السلاح كما يبدو عليهما أم لا، وطال بهم المسير حتى بلغوا نافورة كانت بتلك الديار، أطلق عليها اسم نافورة شجرات الدّردار الثّلاث، حيث وجدت بها ثلاث شجرات من هذا النَّوع سامقات وخيرات . وما أن وصلوا إلى هناك، حتى رأوا ثلاث فتياتٍ بالقرب من النّافورة، فتياتٍ جميلاتٍ يبدين عليهن من زينتهن أجملها، وكان هناك قزمٌ يجلس فوق هذه الأشجار . تقدم فلوريستان إلى الفتيات وحيّاهن بتحيةٍ كريمةٍ تتوافق مع أدبه وتربيته . فقالت له إحداهن :

– حياك الله ومتّعك بالصبح – سيدى الفارس – إذا ما كنت تملك قوةً تشبه جمالك، فقد أحسن الله صنعك .

– أيَّتهُا الفتاة – قال فلوريستان – إذا ما بدت في عينيك أمارات جمالي، فقوتي أفضل منها إذا ما لزم الأمر .

– حسنًا ما تقول – قالت الفتاة – والآن لنرى ما إذا كانت قوتك ستكفي لحملي من هذا المكان .

– حقًا – قال فلوريستان – قليل من الصَّلاح يكفي لهذا الأمر، وبما أنّك تريدين هذا فسوف أحملك معي .

وهنا أمر حاملي سلاحه أنْ يضعوها على جوادٍ كان مربوطًا إلى فرع شجرةٍ هناك. وحين رأى القزم الذي كان فوق الشّجرة ما يجرى صاح بأعلى صوته :

– اخرجوا أيُّها الفرسان، اخرجوا، إنَّهم يحملون صديقتكم .

وعلى أثر هذا الصياح خرج فارسٌ من الوادي مدجج بالسلاح يمتطي جوادًا عظيمًا، وقال لفلوريستان:

– ما هذا، أيُّها الفارس! من الذي أمرك أنْ تمدَّ يدك على فتاتي ؟

– لا أدرى أنَّها فتاتك، وهى التى أمرتنى أنْ أحملها معى طواعية .

قال له الفارس :

– لا أدرى – قال فلوريستان – كيف ستسير الأمور، ولكن إذا لم تفعل شيئًا سوى هذه الكلمات التى تتلفَّظ بها فسوف أحملها معى .

– قبل أنْ تفعل هذا – قال الفارس – عليك أنْ تعرف حقيقة فرسان هذا الوادى وكيف يدافعون عما يحبُّون .

– إذنْ فادرأْ العذاب عن نفسك إنْ شئت .

وهنا أطلقا العنان لجواديهما فتلاقيا وتضاربا بكل ما أوتيا من قوةٍ برمحيهما فأصاب كل منهما درع الآخر، وكُسِرَت رمح الفارس، وسدد إليه فلوريستان ضربةً قوية أصابت خوذته، فأطاح بأربطتها وأزاحها عن رأسه، وما تمكَّن من البقاء على سرج الجواد فوقع على سيفه فكسره نصفين، تخطَّاه فلوريستان وأمسك برمحه، ثم رجع مرَّةً أخرى إلى الفارس، فرآه كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة، فوضع رمحه فى وجهه ثم قال له :

– الموت لك الآن .

– آه، سيدى، الرَّحمة ! – قال الفارس – فهأنت ترانى أحتضر .

– لا فائدة فى هذا – قال فلوريستان – إذا لم تهب لى الفتاة .

– وهبتها لك – قال الفارس – وعليها اللعنة واليوم الذى رأيتها فيه، فقد اضطرتنى لارتكاب حماقات كثيرة، حتى خسرت جسدى .

تركه فلوريستان ثم توجَّه إلى الفتاة، فقال لها :

– أصبحت الآن لى .

– حسنًا أنْ جعلتنى ملكًا لك – قالت الفتاة – وبمقدورك أنْ تصنع بى ما يحلو لك .

- إذنْ فلنذهب الآن - قال فلوريستان .

ولكن توجَّهت إليه فتاةٍ أخرى من بين من عند النَّافورة، فقالت له :

- سيدي الفارس، يا لها من صحبة جميلة، فنحن نسير معًا دون أن نفترق طيلة عامٍ كاملٍ، ونأسف كثيرًا لهذا الفراق .

قال فلوريستان :

- إذا ما رغبتما في صحبتي أيضًا فسوف أحملكما معي، وهكذا يجتمع شملكن، إذ لا يمكن معالجة الأمر بشيءٍ غير هذا، فأنا لا أسمح لنفسي بأن أترك مثل هذه الفتاة الجميلة هنا .

- نعم هي جميلةٌ - قالت الفتاة - ولكنَّني لست بكل هذا القبح الذي يعفي أيَّ فارس من أنْ يقوم من أجلي بأمورٍ عظيمةٍ، وأنا أراك الفارس الذي سيتجرأ على القيام بذلك الأمر .

- كيف ! - قال فلوريستان - أترين أنَّني أتركك خوفًا ؟ إنَّني لم أفعل ذلك إلاَّ لأنَّني ما أردت أن أحملك غصبًا، والآن سترين .

وهنا أمر بحملها على جواد آخر، وعاد القزم لصياحه السَّابق . وما مرَّ وقتٌ طويلٌ حتَّى خرج من الوادي فارسٌ آخر مدجَّج بالسَّلاح، يمتطي جواداً عظيمًا، بدا عليه رشيقًا، وخلفه حامل سلاحه يحمل في يديه رمحين، ثم توجَّه بالحديث إلى فلوريستان قائلا:

- سيدي الفارس، لقد كسبت فتاة، ولن يناسبك حمل الأخرى، ولقد حان الوقت لتخسرها ورأسك معها، فليس من المناسب لفارسٍ في حالتك التي أنت عليها أنْ يملك في حوزته امرأةً ذات مكانةٍ كبيرةٍ كهذه .

- كم تمدح نفسك أيها الفارس - قال فلوريستان - فهذان فارسان يعرفان أصلي ونسبي وهما أيضا مني، وأبغي مساعدتكما لي لا لك وحدك .

– طالما تمتدح نفسك ونسبك كثيرًا – قال الفارس – فهذا أمر لا يعنيني ولا أقدره، فقدرك أنت وهما عندي سواء، أنتم لا تساوون شيئًا. وهأنت كسبت فتاة من ذلك الفارس الذي لم يقدر على حمايتها، فإذا ما هزمتك ستكون الفتاة لي، وإذا ما هُزمتُ فخذ معها هذه الأخرى التي أدافع عنها .

– سعيد أنا لهذا التَّوزيع – قال فلوريستان .

– إذنْ فلتدفع عن نفسك الأذى إن استطعت.

وسدَّد الفارس ضربةً مؤلمةً إلي فلوريستان فمزَّقت درعه واستقرت فيه، حيث كان أشبه بالشَّبكة الحديدية، وكُسِر الرُّمح أجهد اللقاء فلوريستان فما أصاب في ضربته. وهنا تناول الفارس رمحًا آخر كان في يد حامل سلاحه، والسَّيد فلوريستان، الذي أصبح في وضع مُخزٍ استشاط غضبًا لأنَّه قد أخطأ رميته أمام أخيه، وانطلق نحوه وسدَّد إليه ضربةً مؤلمةً أصابت درعه، فمزَّقته وذراعه أيضًا، ثم دفعه بقوة فأزاحه عن سرج الجواد، وأصبح جالسًا على مؤخرته، وجذبه فأطاع به على الأرض فسقط سقطةً قويةً لم يستطع أنْ يحرك على أثرها يداً ولا قدماً . وحين رآه فلوريستان على هذه الهيئة، قال للفتاة :

– أصبحتِ ملكًا لي، فصديقك هذا لن يتمكن من حمايتك أو حتىً حماية نفسه .

– هكذا يبدو لي – قالت الفتاة .

هنا نظر فلوريستان إلى الفتاة الأخرى التي كانت بجوار النَّافورة، فوجدها حزينةً للغاية، فقال لها :

– أيَّتها الفتاة، إنْ شئت فلن أتركك وحيدةً هنا .

نظرت الفتاة إلى الضَّيف، وقالت له :

– أنصحك بأنْ تنصرف عن هذا المكان، فهذان الفارسان لن يكون بمقدورهما الدفاع عنك ضدَّ ما سيحدث لك الآن. وإذا ما لحق بك شيءٌ فلن يكون سوى الموت .

– على الرَّغم من ذلك – قال الضيف – فأنا أودُّ رؤية هذا الذي تقصدين؛ فجوادى هذا يجيد العدو جيداً، وبرجى قريبٌ جدا، ولهذا فما من خطرٍ قط .

– آه – قالت الفتاة – ادفعوا إذنْ عن أنفسكم، فما أنتم إلا ثلاثة، وأنت لا سلاح معك، وحقا لكم أنْ تعرفوا أنَّكم لا شيء فى مواجهته .

وحين سمع فلوريستان هذا رغب فى حمل هذه الفتاة، حتى يرى ذلك الذى يتحدثون عنه بكل هذا الوصف . ووضعها فوق جوادٍ آخر كما فعل بالأخريين، وهنا قال القزم الذى مازال فوق الأشجار :

– أيهُّا الفارس، تجرأت على هذا فى وقتٍ عصيبٍ، والآن سيأتى إليك من ينتقم لنفسه وللفارسين الآخرين .

وحينئذٍ صاح بأعلى صوته قائلاً :

– النَّجدة سيدى، فقد تأخَّرت كثيراً .

وهنا أطلَّ فارسٌ من حيث خرج الفارسان الآخران بنفس الوادى يحمل معه أسلحةً مفرقةً وموزعة بلونٍ ذهبيٍ، ويمتطى جواداً أشهب اللون ضخمًا ومرعبًا، يشبه العملاق . كما بدى الفارس ضخمًا وكثير العضلات، مما يدل على قوته وشجاعته. وقد أتى مدجَّجًا بكل سلاحٍ فما ينقصه من شيءٍ، وخلفه أتى حاملا سلاحٍ، يحملان دروعًا، ويحمل كلٌّ منهما فأسا فى يده، فأسين كبيرين ومطرَّقتين جيداً، استخدمهما الفارس كثيراً فى النِّزال، ثم توجَّه إلى فلوريستان قائلاً :

– تمهل، أيُّها الفارس، ولا تهرب، فلن ينفعك الهرب، فلا يناسبك سوى الموت، فلتمت إذنْ ميتة الشُّجعان لا ميتة الجبناء، فليس بمقدورك أنْ تهرب جبنًا .

حين رأى فلوريستان نفسه مهدداً بالموت ومتهمًا بالجبن تملَّكه الغيظ بدرجةٍ كبيرةٍ، ثم قال :

– انظر أيُّها البائس القبيح، الذى لا شكل له ولا عقل . بعون الله، قدرك عندى كقدر دابةٍ خائرة القوى ولا قلب لها .

- هه - قال الفارس - سأنتقم منك شَّر انتقامٍ، ولتحضر أنت والأربعة دفعةً واحدةً، حيث تفخر بنسبك ونسبهم، حتى أقطع رقابهم معك .

- أنا أكفيك وحدى - قال فلوريستان - فبعملى - بإذن الله - سأعفيهم من النزال .

هكذا انطلق كلٌّ منهما نحو الآخر ورمحه إلى أسفل وقد التحفا بدرعيهما جيداً، وتملَّك الغيظ من قلب كل منهما تجاه الآخر. أتت الضربات قوية فأصابت الدُّروع، فكسرتها إرباً، وكذلك الشباك الحديدية الواقية، وقد فقدهما معًا الفارس العظيم، وكان على وشك الوقوع من فوق الجواد إلا أنَّه تعلَّق جيداً بعنقه. وأما فلوريستان الذى تخطَّاه فقد توجه إلى أحد حاملى السلاح وأمسك بالفأس التى كان يحملها فى يده، وجذبها بشدَّةٍ، فأسقطه وهوت الدَّابة فوقه على الأرض، ثم عاد إلى الفارس الذى عاد سيرته الأولى فوق جواده وقد حمل معه الفأس الثَّانية، التى أعطاه إيَّاه ذلك الذى كان يحملها بأسرع ما أمكن له، رفع كلُّ فارسٍ فأسه وضرب الآخر على خوذته التى صنعت من فولاذ رقيق، فغاصتا فيهما مسافة ثلاثة أصابعٍ، وقد بدا أثر الضَّربة شديداً على الفارس فوقع خده على صدره. غاب الفارس العظيم عن الوعى - بعد أن سدَّد ضربةً إلى فلوريستان فما خرجت بعدها الفأس من خوذته - وما وجد فى نفسه قوةً يرفع بها رأسه من فوق عنق الجواد، عاد فلوريستان ليضربه من جديدٍ، وحين وجده مطأطئ الرَّأس هكذا سدَّد إليه ضربة بين الرأس والعنق، فأسقط رأسه بسهولة تحت أقدام الجواد . وبعد ذلك توجَّه إلى الفتيات، فقالت له أولاهما :

- حقا - أيُّها الفارس الطيب - قبل ساعة من الآن ما كنت أتصوَّر أنكم عشرة الرجال كنتم ستكسبوننا كما كسبتنا أنت وحدك الآن، ومن العدل أنْ نكون ملك يمينكم .

وهنا جاءه مضيفه - الفارس الفتى الجميل كما سمعتم آنفا - وقال :

- مولاى، أنا أُحبُّ هذه الفتاة حبًا كبيراً، وهى كذلك تحبُّنى، ولقد اغتصبها منى ذلك الفارس الذى قتلته منذ عامٍ مضى، والآن بمقدورى أنْ أمتلكها بفضلك أنت، وأشكرك على هذا الأمر الذى أرجو ألا تأسى عليه .

- بكـل تأكـيـدٍ يامـضـيـفي - قـال فلوريسـتـان - إذا كـان الأمـر كـمـا تقـول فـسـتـجـدني في عـونك، ولكنَّني لا أستطيع أنْ أمنحك إياها أو أيَّ شـخص آخر غصبًا عنها .

- آه، مولاي ! - قـالت الفتاة - إنَّه ليسـعدني أنْ أكون له، وأرجوك أنْ تمنحني إيَّاه، فأنا أحبه كثيراً .

- باسم الله - قال فلوريستان - سأترك لك الحرية الآن ولتفعلي ما شئت .

انصرفت الفتاة مع المضيف، فرحةً مسرورةً . طلب جالاور أنْ يمتطي ذلك الجواد الأشـهب، إذ يراه أفضل جواد رأته عيناه، وقدَّم جواده بدلاً منه للمضيف، وبعد ذلك أخذوا طريقهم، والفتيات معهم، وأقول لكم إنَّهن كنَّ آنسات في عمر الطفولة وفي غاية الجمال، وأخذ فلوريستان لنفسه الفتاة الأولى وقال للثَّانية :

- صديقتي، اصنعي لهذا الفارس ما فيه سعادته، فأنا آمرك بذلك .

- كيف ! - قالت الفتاة - أتريد أنْ تجعلني زوجـةً لهذا الذي لا يسـاوي شيـئًا وراءك في ذلك الضيق ولم يصـدر لمعونتك ؟ إنَّني أرى، حـقـا، أنَّ تلك الأسلحة التي أتى يحملها تخفي شـخصًا آخر غيره، وذلك حسب ما بدا منه في هذا الموقف .

- أيَّتهُا الفتاة - قال فلوريستـان - أحلف بالله الذي أؤمن به أنَّني أجعلك زوجة لهذا الفارس الذي هو أفضل فرسان الدُّنيا الذين أعرفهم حتى الآن باستثناء سيدي أماديس .

نظـرت الفـتـاة إلى جالاور، فرأته غاية في الجمال وشابا يافعا، فتعجَّبت من كل ما يقال عنه وما سمعته الآن، ومنحته حبها، وأصبحت الأخرى من نصيب فلوريستان بعد أنْ وهبته حبها أيضًا . وفي تلك الليلة ذهب الجميع للرَّاحة في بيت أخت مضيفهم السَّابق، وقد قدَّمت إليهم أفضل وسائل الرَّاحة والخدمة بعد أنْ علمت بما جرى لهم في الطَّريق. استـراحـوا ليلتهـم هناك . وفي صـبـاح اليـوم التَّالي أخـذوا طريقـهم، وقـال الفارسان لصديقتيهما :

– علينا أنْ نمرَّ بأراضٍ غريبةٍ، وسيكون في سيركما معنا مشقَّة كبيرة، فقولا لنا الآن في أي الأمكنة تشعران بالرَّاحة أكثر ونحن سنحملكما إليه .

– بما أنَّ هذا الأمر فيه رضاكما – قالت الفتاتان– فعلى مسيرة أربعة أيَّام من هنا، في هذا الطريق الذي تسلكونه، توجد قلعةٌ لسيدة هي عمتنا، وهناك سنستقر عندها .

هكذا تابعوا جميعًا سيرهم . سأل جالاؤر فتاته :

– كيف كنت لذلك الفارس ؟

– سأرويه لك – قالت الفتاة – لتعلم أنَّ ذلك الفارس الذي لقي حتفه في المعركة كان يحب الفتاة التي حملها مضيفكم، غير أنَّها لم تكن تحبه من كلِّ قلبها، وأحبَّت الفارس الذي وهبتها إيَّاه أكثر من أي شئ آخر في الوجود . والفارس الذي كان أفضل فرسان الديار أخذها عنوةً دون أنْ يمنعه من ذلك أحدٌ، وما رغبت هي قط في أنْ تنزل له عن رغبةٍ منها فتحبه، ولما كان يحبها كثيرًا كتم غيظه في نفسه، ثم قال لها :

– صديقتي، حتى أكون حقيقًا بحبك ومحبوبًا كأفضل فرسان الدُّنيا، سأفعل من أجل حبك هذا الذي ستسمعين : تعلمين أنَّ الفارس الذي يشتهر بأنَّه أفضل فرسان الدُّنيا ويدعى أماديس دي جاولا قد قتل مولى لي في بلاط الملك ليسوارتي، وكان يدعى داردان المتعجرف، وأنا لا أزال أبحث عن ذلك الفارس حتى أقطع رقبته، وهكذا سأشوه سمعته التي حصل عليها بما سأفعله به. وحتى أصل إلى هدفي، سأترك معك فتاتين من أجمل فتيات هذه الديَّار حتى يحرسانك، وسأجعل لهما صديقين من أفضل فرسان بني جلدتي، وسوف نخرجكن كل يوم إلى نافورة أشجار الدَّردار الثلاث ... المكان الذي يمرُّ منه العديد من الفرسان الجوَّالين. وإذا ما أرادوا حملكن فسوف ترين معارك عصيبة وما سأقدمه في ساحاتها، وهكذا سأكون جديرًا بحبك كما أحبك أنا حبا جما .

- وبعد هذا الاتفاق من جانبه أخذنا ثم قدمنا لهذين الفارسين اللذين هزما، وهانحن معهما عند هذه النَّافورة منذ عام، خاضا خلاله معارك جمة، حتى جاء فلوريستان فأنهى المعارك إلى الأبد .

- حقا صديقتي - قال جالاؤر - لقد كان تفكير ذلك الفارس عظيمًا لو أنه كان يقدر على تنفيذ ما قاله . غير أنَّني أرى أنَّه كان سيمرُّ بلحظات من أحرج لحظات حياته لو أنَّه التقى بأماديس هذا الذي ينوي البحث عنه .

- هكذا يبدو لي أيضًا - قالت الفتاة - تبعًا لذلك الفضل الذي يفوقك هو فيه .

- ماذا كان يدعي ذلك الفارس ؟ -قال جالاؤر .

- ألوماس - قالت الفتاة - ولتعلم أنَّه لولا عجرفته التي أفسدته لكان له شأنٌ عظيمٌ في مجال الفروسية .

سارا يتحدَّثان في مثل هذه الأمور مدَّةً طويلةً، حتى بلغا قلعة عمتها، فأحسنت وفادة الجميع، وعلمت صاحبة القلعة بحقيقة موت ألوماس وهزيمة رفاقه على يد فلوريستان، بعد أنْ أخذ هؤلاء المتعجرفين ابنتي أخيها عنوةً فأهانوهما . تركوا الفتاتين هناك، وتابعوا سيرهم في اليوم التَّالي. ساروا مدَّةً طويلةً حتى وصلوا في نهاية اليوم الرَّابع إلى مدينة تابعة لمملكة سوبراديسا. وهناك علم الجميع كيف قتل أماديس وأجراخيس الملك أبيسينوس وابنيه وأصبحت بريولانخا ملكةً دونما عقبة تذكر، الأمر الذي سَّرهم وأفرحهم، وحمدوا الله كثيراً. وما إن رحلوا عن هذه المدينة حتى وصلوا إلى مدينة سوبراديسا فتوجَّهوا مباشرة إلى القصور، دون أن يتعرف عليهم أحد . وما إن نزلوا عن جيادهم حتى ذهبوا إلى حيث يوجد أماديس وأجراخيس، وقد شفيا من جراحهما، وكان برفقتهما الملكة الجديدة الجميلة .

وحين رآهما أماديس الذي عرف الفتاة التي خرجت لإرشاد جالاؤر، ورأى فلوريستان عظيمًا وغايةً في الجمال - وقد أحيط علمًا بكرمه وطيبته - جرى نحوه والدُّموع تذرف من عينيه فرحًا . جثا فلوريستان أمامه على ركبتيه ليقبل يديه، غير أنَّ

أماديس قد رفعه وعانقه ثم قبله، ثم طلب منه الحديث بالتَّفصيل عن كلِّ ما جرى له من أحداث، ثم تحدث بعد ذلك مع جالاور، وهما مع أجراخيس، الذى أحبَّاه كثيرًا .

وحين رأت الملكة الجميلة بريولانخا فى بيتها هؤلاء الفرسان الأربعة – بعد أنْ طال بها الأمد بعيداً عن سدة العرش معزولةً بمفردها بين جدران قلعتها، حيث أشفق عليها الجميع، والآن قد استعادت شرفها، وأصبحت على عرشها بعد أنْ وهبها إيَّاه القدر الذى أدار عجلته لصالحها مرَّةً أخرى، ذلك الملك الذى لم تكن فقط تستعد لاسترجاعه والدِّفاع عنه، بل لكي تغزو الآخرين أيضًا – أدت التَّحية لهذين الفارسين الأخوين بعد أنْ استقبلتهما بكلِّ ترحابٍ وتقديرٍ، وحمدت الله كثيرًا، الذى أنعم عليها بهذا الشُّكل العظيم وتلك الرَّحمة الكبرى، ثم قالت للفرسان :

– صدِّقونى سادتى، ما هذه التَّحولات والتُّقلبات العجيبة إلا من خطوب القدر التى هى بيد الله سبحانه وتعالى، والتى نراها نحن جبالاً ثقالاً، غير أنَّها فى مقدوره وتصريفه هينة جداً . والآن علينا أنْ نتأمَّل تلك المناصب العليا، وتلك الثَّروات التى تأتى إلينا محمَّلة بالأحزان والآلام والمتاعب حين نسعى لكسبها، ولا تفارقنا طالما نسعى للحفاظ عليها، أسيكون من الأفضل – باعتبارها تافهة وبليَّة كبرى تصيب الأجساد والأرواح معًا – أنْ ندعها ونعلن كراهيتنا لها طالما أنها غير مضمونةٍ وزائلة فانية ؟ بكلِّ تأكيد أجيب على ذلك بالنفى، وأؤكِّد قبل كل شىءٍ أنَّه إذا ما كسبناها وجمعناها بحقها وبنية حسنة وضميرٍ حى، وأطعنا الله فيها باعتباره الوهاب المعطى، فأبقينا منها لأنفسنا نصيبًا كبيرًا، لا من أجل سعادة الشَّهوة، وإنَّما القلب، بمقدورنا أنْ نصل فى هذه الدنُّيا إلى إطار نستريح فيه ونستمتع ونشعر بالسَّعادة، وفى الحياة الآخرة الأبدية سوف نحظى بمتعةٍ أخرى أبدية ونجنى ثمرة ما قدَّمنا فى دنيانا .

انتهى الكتاب الأوَّل من قصة أماديس دى جاولا .

بداية الكتاب الثّانى

من قصة أماديس دى جاولا

بما أنّ البطولات العظيمة التى حقّقها أماديس دى جاولا حدثت فى الكتاب الرّابع بالجزيرة اليابسة فمن المناسب بالتّالى أنْ نشير إلى كنه هذه الجزيرة وماهية والسّحر والفتنة والجمال والثّروات التى كانت تتمتّع بها، وحيث إنّ هذا هو بداية الكتاب المذكور فسوف يُسردُ ذلك فى مكانه المناسب.

كان هناك ملكٌ في بلاد اليونان متزوِّجٌ من أخت إمبراطور القسطنطينية، فأنجب منها ولدين على درجةٍ عاليةٍ من الجمال، خاصةً الابن الأكبر، المدعو أبوليدون، والذى كان قوى البنية وجسوراً بحيث لم يكن له مثيلٌ قط في زمانه، لأنَّه حين بدأ تحصيل علوم معظم الفنون مع ما له من قريحةٍ ذكيةٍ - التي قليلا جدا ما تجتمع مع القوة والجسارة - جمع منها الكثير فأصبح كالقمر وسط النُّجوم، إذا طلع حجب نوره نور الباقين، وخاصةً في علوم المعارف الغيبية، التي بواسطتها يمكن تسخير كلِّ ما هو مستحيل . قام الملك والد هذين الوريثين للعرش - الثرى ماليا الفقير حياتيا نظراً لدنو أجله - حين رأى نفسه على حافة الموت، بإصدار أمرٍ بأن يصبح ابنه الأكبر أبوليدون خليفته على العرش. أمَّا الابن الثَّاني فله الكنوز والكتب التي كانت كثيرة وغالية القيمة، غير أنه لم يسعد لمثل هذا القرار فأتى والده يبكي، ويقول له إنَّه بهذا يصبح كمن حُرِمَ من الإرث كليةً .

وجد الأب نفسه في حالةٍ لا يمكن معها الرُّجوع فيما أبرمه وقضى به، فاغتمَّ قلبه وحزن. غير أنَّ ابنه الشَّهير أبوليدون، الذى كان قلبه جديراً بالأعمال الفاضلة والتَّحديَّات العظيمة، حين رأى الحزن قد خيَّم على قلب والده وصغر نفس أخيه، أشار بأنْ يأخذ هو - حتى تستريح نفسه - الكنوز والكتب، وسوف يترك لأخيه العرش، الأمر الذى ارتاحت له نفس أبيه ذرفت عيناه دموعًا غزيرًة شفقةً ورأفةً، فبارك ابنه وهنا أخذ أبوليدون الكنوز الكبيرة والكتب، وبدأ في تجهيز مجموعةٍ من السُّفن وإعدادها، فضلاً عن الفرسان الأشدَّاء المنتخبين والمؤن والأسلحة، وأدخلوها فيها، فأبحرت دون وجهة محدَّدةٍ غير ما يأتي به القدر، ذلك القدر الذى ما إن وجد الابن قد خضع لصروفه وخطوبه حتى، أراد أنْ يعوضه خيراً عن طاعته لوالده العجوز، تلك الطاعة التي

قدَّمها له بكلِّ عزةٍ وعظمة، فأرسل ريحًا طيِّبةً حملت سفينته بلا توقف إلى إمبراطورية روما، والتي كان يحكمها آنذاك الإمبراطور سيودان Siudán الذي أحسن وفادته. وهناك ظلَّت تلك الأشياء الجميلة التي صنعها في مجال القتال بساحاتٍ أخرى خارج هذه الدِّيار مجتمعة لمدة طويلة ، تلك الأشياء التي أصبح من أجلها محل احترامٍ وتقديرٍ كبيرين. وكذلك تلك التي قام بها في الفترة الرَّاهنة، التي جعلته هدفًا للحبِّ الكبير الذي أولته إيَّاه إحدى أخوات الإمبراطور، واسمها جريمانيسا، التي منحها الله قدرًا وجمالاً عظيمين بين كلِّ نساء الدُّنيا آنذاك، وهو الأمر الذي أدَّى إلى تبادل الحب بينهما بنفس الدرجة فأحبها أبوليدون كما أحبته. ودونما انتظار لنتيجة هذا الحبِّ بشكلٍ من الأشكال، وبإذن منهما فحسب خرجت جريمانسيا من بلاط أخيها الإمبراطور، وركبت سفينة صديقها أبوليدون، وأبحرا حتى بلغ الجزيرة اليابسة، التي كانت تحت إمرة عملاقٍ جبارٍ. ودون أنْ يعلم أبوليدون شيئًا عن مالك هذه الديار أمر بإخراج خيمةٍ وفرش وثيرةٍ حتى تستريح سيدته، حيث لقيت في سفرها هذا نصبًا.

وفي التَّو خرج إليهم العملاق مدجَّجًا بالسلاح، فأصابهم جميعًا بالذعر والهلع، وكما هي العادة في هذه الجزيرة، كان على أبوليدون أنْ ينازل ذلك العملاق، حتى يتمكَّن من انقاذ سيدته ونفسه ومن معه، فنازله وتغلب عليه بما لديه من شجاعةٍ وطيبةٍ. وبموت العملاق أصبح أبوليدون حرا من صاحب هذه الجزيرة. وبعد أنْ تأكَّد من عظمته وقوته لم يعد يخشى إمبراطور روما، الذي كان يبغضه لما فعله بأخته، ولا أيَّ أحد في العالم. كان العملاق مكروهًا في تلك الجزيرة من جانب أهلها جميعًا لشره وغطرسته. وحين أصبح أبوليدون معروفًا بين أرجائها أحبَّه الجميع .

وما إن امتلك الجزيرة اليابسة – كما سمعتم – حتى ظلَّ بها إلى جوار صديقته جريمانيسا ستَّة عشر عامًا في متعةٍ، فسعدت بهذا روحاهما وبتلك الرَّغبات الإنسانية التي أبداها أحدهما تجاه الآخر. وخلال تلك الفترة تمكَّنا من تشييد بناياتٍ ضخمةٍ وغاية في الثَّراء بما حقَّقا من ثروةٍ هائلةٍ ومعارف جمة، يصعب على أيِّ إمبراطور أو ملك – مهما كان ثريا – أنْ ينجزها.

في نهاية هذه المدة تُوفي إمبراطور اليونان دون أنْ يترك وريثًا وبما أنَّ أهل اليونان يعرفون أبوليدون جيداً وماله من طباعٍ جيدة، وأنه ينتمي إلى أصولٍ نبيلةٍ وأسرة إمبراطوريةٍ من ناحية والدته، فقد اتفقوا جميعًا على اختياره، فأرسلوا إليه رسلهم يطلبونه حيث يوجد بتلك الجزيرة، وأخبروه بأنَّهم يريدونه إمبراطوراً عليهم . ولما رآهم أبوليدون يعرضون عليه إمبراطورية كبيرةً كهذه، كما لو أنَّه كان على موعد في هذه الجزيرة بأنْ يحقَّق كلَّ ما كان يصبو إليه من متعٍ، ولما كان على يقين من أنَّ المناصب الكبرى تأتي لصاحبها بمتاعب وتكاليف أكثر من المتع والأفراح، وإذا ما حصل المرء من ورائها أفراحًا جاءت مخلوطة بنوعٍ من الأسى والمرارة، كما هي حالة الإنسان غير المخلَّد في دنياه، الذي لا يدري رغبته سوى بين السُّرور والضِّيق دائمًا، فقد توصَّل إلى اتفاقٍ مع صديقته يقضي - بعد أن يتركا ما هم فيه هنا - بأن يقبلا العرض الذي قُدِّم لهما . ولكن صديقته التي وجدت من جانبها حنينا وألفة مع تلك الجزيرة التي تعد في نظرها شيئًا عظيمًا، حيث كانت تعج عظائم الحاجات، أحسَّت بأنَّها أصبحت أسيرةً له، فهو أفضل فرسان الدُّنيا الذين رأتهم عيناها، ولنفسها هي أيضًا، التي حازت جمالاً فاق كلَّ جمال منْ في الوجود آنذاك، هذا فضلاً عن حبِّ أحدهما للآخر حبا كاملاً غير منقوصٍ، وتوسَّلت إلى أبوليدون أنْ يترك هناك - قبل أنْ يرحل عن الجزيرة - شخصًا يدير أمورها شريطة أنْ يتمتَّع بالمهارة في استخدام المعدات الحربية، وأنْ يكون وفيًا في حبه وممن أنعم الله عليهم بنعمة الجمال، باختصار أنْ يكون شخصًا يجمع بينهما وبينه شبهٌ كبيرٌ .

- قال لها أبوليدون :

- مولاتي، طالما أنَّ هذا الأمر يسعدك سأبذل قصارى جهدي في ألا يدير هذه الجزيرة رجل أو امرأة إلا من اجتمعت له كلُّ هذه الخصال البارزة التي ذكرتها الآن .

وحينئـذ شيَّد قوسًا عند مدخل أحد البساتين، الذي امتلأ بكلِّ أشجار الدُّنيا، كما شيَّد بداخلـه أربـع صالات باهظة التَّكاليف غريبة الصَّنعة، وضرب عليه سوراً لا يمكـن لأحد الدُّخول إليه إلا عبر القوس، الذي أقام أعلاه تمثالاً لرجلٍ من النُّحاس يضع بوقًا في فمه، كما لو كان يعزفه. وفي واحدة من تلك الصَّالات أقام تمثالين له

ولصديقته كما لو كانا حيين، لهما نفس وجهيهما تمامًا، وكذلك القامة. وعلى مقربةٍ منهما وضع حجرًا من المرمر المجذَّع النَّاصع، وأمر بأنْ يوضع أيضًا نموذج من الحديد ارتفاعه خمسة أذرع، في ساحةٍ كبيرةٍ، على مسافة نصف رمية بالرُّمح من القوس، ثُمَّ قال :

- من الآن فصاعدًا لن يمرَّ رجلٌ أو امرأةٌ إلا فشل، إلا أولئك الذين جعلوا الحبَّ أولا نصب أعينهم، لأنَّ ذلك التمثال الذى ترونه ينفخ فى البوق بإيقاع مزعجٍ للغاية، سيغطيهم بالدُّخان واللهب حتى يصبحوا كالموتى ثم يلقى بهم خارج هذا المكان . ولكن إذا ما أتى إلى هذا المكان فارسٌ أو سيدةٌ أو فتاةٌ، فعليهم أنْ يكونوا جديرين بوضع حدٍ لهذه المغامرة بما يتمتَّعون به من إخلاص ووفاء - كما قلتُ - وحينئذ سيدخلون دونما عائقٍ يذكر، وهنا يبدأ التِّمثال فى عزف لحن يطرب له كلُّ من يسمعه، وحينئذ سيرون تمثالينا واسمينا المكتوبين على حجر المرمر، دون أنْ يعرفوا من كتبهما .

وهنا أخذ صديقته من يدها، وأدخلها أسفل القوس، فبدأ التِّمثال يعزف لحنًا عذبًا. وأراها التِّمثالين واسميهما المكتوبين على حجر المرمر المجذَّع، وما إنْ خرجا حتى رغبت جريمانيسا فى إعادة التِّجربة بآخرين. أمرت بدخول سيداتٍ وفتيات لها، فبدأ التِّمثال فى عزف صوتٍ غير رخيمٍ، تبعه دخانٌ ولهيب نيرانٍ، وغدت الدَّاخلات غائبات عن الوعى وأطيح بهن خارج المكان، والفرسان كذلك. وهنا بدأت جريمانيسا - بعد أنْ تأكَّدت من عدم خطورة الموضوع - تضحك ساخرةً منهم، شاكرةً صديقها أبوليدون شكرًا جزيلاً على كلِّ ما قدَّم من أجل إرضائها وإسعادها، ثم قالت :

- مولاى، وبعد ذلك ماذا سيكون مصير تلك الغرفة التى وجدنا فيها كلَّ هذه السَّعادة والمتعة ؟

- الآن - قال أبوليدون- هيَّا بنا إلى هناك وسترين ماذا أنا فاعلٌ .

وحينئذٍ ذهبا إلى حيث توجد الصَّالة، فأمر أبوليدون بإحضار نموذجين، أحدهما من الحجارة والآخر من النُّحاس. وضع النموذج الحجرى على مسافة خمسة

خطوات مـن باب الغرفة، والنُّحاسي على مسافة أبعد من ذلك بخمس خطوات، ثم قال لصديقته :

- اعلمي الآن أنَّه ليس بمقدور رجلٍ أو امرأة الدُّخول إلى هذه الغرفة بأيَّة وسيلةٍ أو في أيِّ وقت، حتى يأتي ذلك الفارس الذي يفوقني في مجال النِّزال، وامرأةٌ تفوقك جمالاً، وإذا ما وفد إلى هنا مثل هذا الفارس وتلك المرأة فانتصرا علينا كل في مجال تفوقه، فسوف يدخلان بلا عائقٍ أو مانعٍ .

ثم كتب حروفًا على التِّمثال النُّحاسي تقول :

- "من هنا سيمرُّ أولئك الفرسان الذين لهم قدرٌ كبيرٌ في مجال النِّزال، وكلّ واحدٍ حسب شجاعته وقوته يصبح أهلاً للتَّقدم" .

ثم كتب حروفًا أخرى على النموذج الحجرى تقول :

- "من هنا سيمرُّ فقط ذلك الفارس الذي سيتفوق على أبوليدون في النِّزال" .

وفوق باب الغرفة كتب حروفًا تقول :

"ذلك الذي سيتفوق على في الخير والصَّلاح سيدخل الغرفة السِّحرية وسيكون سيد هذه الجزيرة" .

- وهكذا ستصل السَّيدات والفتيات ولن تدخل واحدة منهنَّ إلا إذا فاقت حسنك .

ويما له مـن معـارف واسعةٍ تمكَّن من عمل سحر عجيب، حتى لا يتمكَّن أحدٌ، على مسافة اثني عشر قدمًا حول الغرفة من بلوغها أو الدُّخول إليها، سوى عن طريق هذين النموذجين اللذين سمعتم عنهما. ثم أمر بتعيين حاكمٍ على هذه الجزيرة يقوم على أمرها ويجمع خراجها ويحفظه حتى يأتي ذلك الفارس الذي يغامر بالدُّخول إلى هذه الغرفة، ويصبح فارس الجزيرة. ثم أمر بأنَّه في حالة وفاة أحد عند قوس المحبيـن، يتم إلقاؤه إلى الخارج دونـما تشريفٍ يذكر، وأمَّا أولئك الذين يجتازونه فلهم كـلُّ العـون والرِّعـاية. وأضـاف أن على الفـرسان الـذين يجتـازون الغرفة

ولا يتمكنون من الدُّخول إلى التِّمثال النُّحاسى أنْ يتركوا أسلحتهم هناك. وأمَّا أولئك الذين يتخطون جزءًا من التِّمثال، فلا يؤخذ منهم سوى الدُّروع. وإذا ما تمكَّن هؤلاء من تجاوز هذا النموذج دون أنْ يستطيعوا الدُّخول فلتؤخذ منهم المهاميز. أمَّا السَّيدات والفتيات فلا يؤخذ منهنَّ شيءٌ، وما عليهن سوى ذكر أسمائهن ووضعها على باب القلعة، مع الإشارة إلى أيِّ مكان وصلت إليه كلُّ واحدةٍ، ثم قال:

– وحين يصبح لهذه الجزيرة سيد سيزول ذلك السِّحر عن الفرسان، وبذلك يصبح بمقدورهم تجاوز النُّموذجين والدُّخول إلى الغرفة بكلِّ حريةٍ. إلا أنَّ ذلك لن يكون بالِّنسبة النساء حتى تأتي واحدةٌ تضع حدا للمغامرة بمالها من جمالٍ صارخٍ، وتبقى إلى جانب الفارس الذى يدين له عرش هذه الجزيرة داخل الغرفة السِّحرية .

وبعد أنْ تَّم كلُّ هذا وأصبحت الجزيرة بهذا التَّنظيم – كما علمتم – استقبل أبوليدون وجريمانيسا السُّفن وعبرا إلى اليونان، حيث أصبحا إمبراطورين، وأنجبا أبناءً خلفوهما بعد رحيلهما عن العرش .

والآن لندع الحديث عن هذا الموضوع، إذ نودُّ أنْ نحكى لكم ما فعله أماديس وأخوه وأجراخيس بعد رحيلهم عن بيت الملكة الجميلة بريولانخا .

الفصلُ الرَّابع والأربعون

كيف رحل أماديس وأخواه وأجراخيس إلى حيث يوجد الملك ليسوارتي، وكيف غامروا بالذهاب إلى الجزيرة اليابسة المسحورة لخوض المغامرة وما حدث لهم هناك .

كان أماديس وأخواه وأجراخيس موجودين مع بريولانخا، الملكة الجديدة لمملكة سوبراديسا، فأكرمت مثواهم ولقوا العناية الكاملة من جانب أهل المملكة جميعًا. وفي تلك الأثناء ظلَّ أماديس مشغولاً بالتَّفكير في سيدته أوريانا وما جُبِلتْ عليه من جمال، فاغتم قلبه وحزن حزنًا شديداً، وأصبح يذرف الدُّموع من عينيه في نومه ويقظته، ومهما حاول إخفاءها بدت واضحــةً وظـاهـرةً لكـل من حـوله. ولَّما لم يعرفوا لهذا الحزن سببًا أخذوا يذهبون في تفسيره مذاهب شتى، إذ لَمّا كــان الخـطب جللاً تمكن برصانته وفطنته من حفظ سرِّه، كمن يكون قادرًا على مزيد معاناة. طلب الإذن من الملكة الجميلة ومن في معيته، وأخذ طريقه صوب الملك ليسوارتي وسط آلام تلك الملكة التي كانت تحبُّه أكثر من نفسها .

ظلَّ سائرًا على رغبة منه بضعة أيَّام. وأراد القدر أنْ يفسد عليه طريقه بنوع من التَّأخير لم يكن في حسبانه قط، كما ستسمعون الآن. وجد في الطريق مكانًا للعبادة، فدخل إليه ليؤدي الصَّلاة. وهناك رأوا فتاة جميلة وفتاتين أخريين وأربعة من حاملي السِّلاح يحسُّونها. خرجت من دار العبادة وانتظرتهم على قارعة الطَّريق، وحين وصلوا إليها سألتهم إلى أين وجهتهم . قال لها أماديس :

- أيَّتهُا الفتاة، نحن ذاهبون إلى منزل الملك ليسوارتى، وإذا ما أبديتِ رغبة فى الذهاب إلى هناك فسنصحبكِ .

- أشكرك على هذا شكرًا جزيلاً - قالت الفتاة - فأنا ذاهبةٌ إلى مكان آخر، ولأنَّنى رأيتك سائرًا مدجَّجًا بالسِّلاح - كما يفعل الفرسان الذين يخرجون بحثًا عن المغامرات - رأيت أن أسدى لكم خدمة لو أنَّ أحدًا منكم كان متوجِّهًا إلى الجزيرة اليابسة، كي يرى عجائب الجزيرة فى الوقت الرَّاهن .

- آه، أيَّتُها العذراء ! - قال أماديس- أقسم بالله أننى سمعت مرارًا وتكرارًا عن عجائب هذه الجزيرة، فعاهدتنى على أنْ أذهب إليها، غير أنَّ الفرصة لم تواتنى بعد.

- أيها الفارس الصالح، لا تأس لكلِّ هذا التَّأخير - قالت الفتاة- فهناك آخرون كثيرون ممَّن رغبوا فى الوصول إليها وحين تَّم لهم لم يخرجوا منها فرحين كما دخلوها أوَّل مَّرةٍ .

- حقا ما تقولين - قال أماديس - فقد سمعته من قبل، لكن قولى لى، هل سنسير طويلاً فى طريقنا إذا ما عرّجنا عليها ؟

- ستسيرون مدة يومين - قالت الفتاة - وفى الجانب المواجه من هذا البحر العظيم توجد هذه الجزيرة المعروفة بالجزيرة اليابسة .

قال أماديس :

- أين يوجد القوس المسحور المعروف بقوس المحبين الأوفياء، الذى لا يمكن لرجل أو امرأةٍ قط عبوره إذا خان تلك أو ذلك الذى هو أول حبه ؟

- هذا هو بكلِّ تأكيد - قالت الفتاة - فهذا الذى تقول وأمورٌ أخرى عجيبةٌ تنتشر بتلك الجزيرة .

وهنا قال أجراخيس لرفاقه :

- أنا لا أدرى ماذا أنتم فاعلون، لكنَّنى راغب فى الذَّهاب مع هذه الفتاة لأرى ما بهذه الجزيرة .

قالت الفتاة له :

- إذا ما كنت محبا وفيا ودخلت من أسفل القوس المسحور فسوف ترى هناك تمثالي أبوليدون وجريمانسا واسمك مكتوبًا على حجرٍ هناك، حيث ستجد اسمين آخرين مكتوبين ليس إلاَّ، رغم أنَّ ذلك السِّحر معقود منذ ما يقرب من مائة عامٍ .

- امض على بركة الله - قال أجراخيس- فسوف أجرِّب ما إذا كنت الثَّالث .

وأماديس الذى لم يكن أقل أملاً وانتظارًا لمثل هذه المغامرة - وفق ما وقر في قلبه - قال لأخويه :

- نحن لسنا محبين، لكن علينا أنْ نكون بجوار صديقنا، فهو مغرمٌ ومتيم القلب .

- على بركة الله ! - قالا- وليكن في قضائه رحمة وخيرا .

وحينئذٍ تحرَّك الأربعة معًا بصحبة الفتاة، فأخذوا طريقهم صوب الجزيرة اليابسة . وهنا قال فلوريستان لأماديس :

- مولاى، أتعرف شيئًا عن هذه الجزيرة، فأنا -، على الرَّغم من تجوالى بأرض الله الواسعة - لم أسمع باسمها من قبل ؟

- أخبرنى عنها - قال أماديس - فارسٌ أحببته كثيرًا، هو أربان، ملك نورجاليس الذى خاض مغامراتٍ عديدةً، حيث أمضى بهذه الجزيرة أربعة أيَّام، وأبدى اهتمامًا كبيرًا بمشاهدة هذه المغامرات والعجائب التى تحظى بها . وما تمكَّن من الفوز بواحدة منها مرَّةً واحدة، فرحل عن الجزيرة ولخجل يملؤه، وهذه الفتاة بمقدورها أنْ تحكى لكم هذا كله، فهى من سكان الجزيرة، وحسبما تقول فهى ابنة الحاكم الذى يتولَّى إدارتها .

قال فلوريستان للفتاة :

- صديقتي، بحقِّ الله الذي تؤمنين به، أخبريني عن كلِّ ما تعرفينه عن هذه الجزيرة، فالطريق طويلة وتسمح لنا بسماع ذلك .

- سأرويه عليكم بمحض إرادتي، كما تعلمته من أولئك الذين حفظوه في ذاكرتهم .

هنا بدأت تحكي له كل ما سمعتموه من روايتنا في هذه الحكاية دونما نقصان، الأمر الذي لم يأسر مسامعهم لمثل هذه العجيبة فحسب، وإنَّما شوَّقهم أيضًا لتجربتها، مثلهم في ذلك مثل أولئك الذين لا تهدأ قلوبهم الجسورة حتى تجرِّب المغامرات التي فشل فيها غيرهم، ويودُّون خوضها دون الخوف من أيَّة مخاطر .

- أيُّها السَّادة الطيِّبون - قالت الفتاة - ذاك الذي ترون هو والدي، وأريد أنْ أذهب إليه حتى يؤدِّي لكم واجب الضِّيافة .

رحلت عنهم، وحين أخبرت الفارس بطلب الرِّفاق الأربعة أتى إليهم راجلاً ومعه رفاقه حتى يكونوا في استقبالهم، وحين حَياهم توسَّل إليهم أنْ ينزلوا بخيمته ليستريحوا، وفي اليوم التَّالي يمكنهم الصعود إلى القلعة وتجربة تلك العجائب . رحَّبوا بعرضه هذا، ولما أنْ نزعوا أسلحتهم عنهم وتناولوا عشاءهم في جو كريم، باتوا ليلتهم. وفي صباح اليوم التَّالي خرجوا ومعهم حاكم الجزيرة بكاملها، حيث لم يكن بها سوى مدخل واحد على مسافة رمية قوسٍ من الأرض الصلبة، وأمَّا بقية الجزيرة فقد أحاط بها البحر، رغم أنَّه تبقى من الجزيرة مساحة سبعة فراسخٍ طولاً وخمسة عرضًا، ولهذا فقد سميت بالجزيرة، وبهذا القدر القليل من المساحة الأرضية سميت الجزيرة اليابسة .

وصلوا إلى هناك، ودخلوا عبر الباب فرأوا قصرًا عظيمًا مفتوح الأبواب، وهناك دروعٌ كثيرةٌ به وضعت على أشكال ثلاثة، مائة منها فوق مجموعة من المصاطب، وفوقها أتت مجموعة مكوَّنة من عشرة دروعٍ، وعلى مصطبةٍ أخرى فوق العشرة

هناك اثنان، وكان أحدهما أعلى من الآخر بما يزيد على النِّصف . سأل أماديس عن سبب وضعها على هذه الصُّورة، فأجابوه بأنَّه هكذا كانت طيبة كل صاحب درع من الدُّروع حين أراد الدُّخول إلى الغرفة المحروسة، أمَّا أولئك الذين لم يصلوا إلى التِّمثال النُّحاسي فكانت دروعهم على الأرض، وكان العشرة الذين بلغوا التِّمثال أطول، ومن بين هذين الاثنين عبر الأقصر التِّمثال النُّحاسي، غير أنَّه لم يستطع الوصول إلى الآخر، وأما الأطول فقد بلغ التِّمثال الحجري دون أنْ يزيد على ذلك . حينئذٍ بلغ أماديس الدُّروع ليرى ما إذا كان يعرف واحداً منها، حيث كان كلُّ درعٍ يحمل لافتة فوقه تدلُّ عليه، فتأمَّل العشرة، فجذب انتباهه أطولها، حيث وجد نصله أسود اللون وبه رسم أسدٍ ذي أظفار بيضاء وأسنان وفمٍ ذي لون أصفر مائل للحمرة، فعرف أنَّه درع أركالاوس ثم تأمَّل آخرين هما أطول ما تبقَّى، فوجد أحدهما ذا نصلٍ نيلي مرسومٌ عليه صورة عملاق، وعلى مقربةٍ منه فارس كان يحزُّ رأسه، فعرف أنَّه درع الملك أبييس ملك أيرلندا، الذي أتى إلى هناك قبل أنْ ينازل أماديس بعامين ثم تأمَّل الثَّاني، فوجده أزرق النَّصل وبه ثلاث زهورٍ ذهبيَّةٍ، فما استطاع التَّعرف عليه، غير أنَّه قرأ الحروف المكتوبة والتي كانت تقول : "هذا هو درع السِّيد كوادراجانتي، شقيق الملك الأيرلندي أبييس" والذي جرَّب هذه المغامرة قبل اثنى عشر يومًا، وبلغ التِّمثال الحجري الذي لم يصل إليه فارسٌ قط. وقد قدم من مملكته قاصداً بريطانيا العظمى حتَّي ينازل أماديس بغية الانتقام لموت الملك أبييس، شقيقه". ومنذ أنْ تأمَّل أماديس الدُّروع رأى صعوبة تجاوز هذه التَّجربة، وذلك للمكانة الكبرى لأولئك الفرسان الذين لم يتمكَّنوا من تجاوزها. خرجوا من القصر وتوجهوا صوب قوس المحبين الأوفياء، وما إن بلغوا المكان الذي يحمي المدخل حتَّي بلغ أجراخيس التِّمثال الحجري، ثم ترجل وتوكَّل على الله وقال :

– أيَّها الحبُّ، إذا ما كنت لك وفيا فتذكَّرني .

وعبر الممر حتى أصبح تحت القوس، وهنا بدأ التِّمثال القائم أعلاه يعزف نغمًا رخيمًا طرب له أجراخيس وكلُّ الحاضرين، ثم وصل إلى القصر الموجود به تمثالا

أبوليدون وجريمانسا، فنظر إليهما ومن معه فخُيل له أنَّهما حيان، ونظر إلى اليشب فوجد اسمين منقوشين فوقه فضلاً عن اسمه، وعن أوَّل الاسمين قرأ :

"قام بهذه المغامرة مادابيل، ابن دوق بورجونيا"

أمَّا الثَّاني فيقول : "هذا هو اسم السَّيد بروميو دي بونامار، ابن بيّاداس، ماركيز تروكى" .

أما ما كتب عنه فهو : "هذا هو أجراخيس، ابن لانجينس، ملك اسكتلندا " .

كان مادابيل هذا يحبُّ جيندا فلامنيكا سيدة فلاندرس، وأما دون بروميو فقد قام بهذه المغامرة قبل ما يقرب من ثمانية أيَّام، وكانت محبوبته تدعى ميليثيا، ابنة الملك بيريون دى جاولا، وأخت أماديس. وحين دخل أجراخيس تحت قوس المحبين الأوفياء قال أماديس لأخويه:

– أتخوضان هذه المغامرة ؟

– لا – قالا– إذ لا سلطان لهذه العاطفة علينا حتى يصبح من حقنا القيام بها .

– أنتما الإثنان – قال أماديس – ابقيا معًا، وأنا – إن استطعت – سأقوم بها نيابة عن أجراخيس .

وهنا أعطى جواده وأسلحته إلى حامل سلاحه جندالين وتقدَّم بأسرع ما أمكنه ذلك دونما خوفٍ، كمن يشعر أنَّه لم يخطئ تجاه سيدته، لا فى أفعاله فقط وإنَّما فى أفكاره أيضًا. وحين أصبح أسفل العقد بدأ التِّمثال في عزف صوتٍ يختلف كثيراً فى عذوبته عن ذلك الذى عزفه مع الآخرين، وعبر فتحة البوق أخذ يلقى زهوراً فى غاية الجمال ذات رائحة عطرةٍ، فتساقطت على الأرض بغزارةٍ، بصورةٍ لم يسبق لها مثيلٌ مع فارسٍ آخر مرَّ بهذا المكان. ثم مضى إلى حيث يوجد تمثالى أبوليدون وجريمانيسا، فنظر إليهما بشوقٍ بالغٍ، فوجدهما غاية فى الجمال، وغضين كما لو كانا حييَّن. وأجراخيس الذى تفهَّم شيئًا عن حبِّه، ذهب إليه من حيث كان يتجوَّل فى البستان يتأمَّل الأشياء الغريبة التى تناثرت بين جنباته، فعانقه، ثم قال له :

– سيدى، ليس من الحق أنْ نخفى – من الآن فصاعداً – حبّنا .

ولكن أماديس لم يجبه، وأخذه من يده ثم أخذا يتأمّلان ذلك المكان الممتع واللذيذ . أما جالاؤر وفلوريستان، اللذان كانا فى انتظارهما بالخارج – وبعد أنْ تأخرا – فقد انصرفا لرؤية الغرفة المحروسة، وتوسلا إلى إيسانخو الحاكم أن يريها لهما . قال لهما إنّ ذلك من دواعى سروره، وحملهما معه فأراهما الغرفة من الخارج والنموذجين اللذين سمعتم عنهما .

وهنا قال فلوريستان :

– أخي وسيدى، ماذا تريد أنْ تفعل ؟

– لا شيء – قال جالاؤر– فما انتابتنى قط رغبةٌ فى ارتكاب أعمال السِّحر .

– إذنْ لتستــرح أنــت – قال فلوريستان – فأنا أرغب فى أنْ أرى ماذا يمكننى أنْ أفعل .

وحينئذ، وبعد أنْ توكّل على الله، وضع درعه أمامه وأمسك بالسّيف فى يده، وأخذ يتقدَّم. وما إن دخل المكان المحروس حتى وجد الضَّربات تُسدَّد إليه من كل مكان بالرماح والسيوف، فجاءت ضربات قوية وغزيرة، حتى ما كان فى مقدور أيِّ إنسانٍ غيره تحملها، بما كان له من قوة ورباطة جأشٍ، الأمر الذى لم يثنه عن المضى قدمًا إلى الأمام، ضاربًا بسيفه في كل مكان وأخذ يتخيل أنّه كان يضرب رجالاً مسلّحين لم يفت فيهم السَّيف. هكذا تجاوز التِّمثال النحاسي، ووصل حتى الآخر الحجرى، فسقط على الأرض وما استطاع أن يتقدَّم خطوةً، وقد خارت قواه تمامًا، فما عاد يشعر إذا ما كان حيا أو ميتًا، وقذف به بعد ذلك من المكان، كما حدث تماماً مع الآخرين، وحين رآه جالاؤر في هذه الحال أسف عليه كثيراً، وقال :

– رغم أنَّنى قد صرفت نظرى عن مثل هذه التَّجربة، فلن أدع حظى من هذه المخاطر، ثم نادى على حاملى السِّلاح والقزم حتى لا يبعدوا عنه وأنْ يلقوا بالماء البارد على وجهه. حمل سلاحه، وتوكَّل على الله، ثم توجَّه إلى باب

الغرفة. وبعدها انهالت عليه الضَّربات من كل فج، فجاءت قوية وقاسية. وبعد مرارة شديدةٍ وصل إلى التِّمثال الحجرى فعانقه وتوقف قليلاً. وحين تقدَّم للأمام خطوة انهالت عله ضرباتٌ أخرى غزيرةً، فما استطاع لها دفعًا، فسقط على الأرض، كما حدث مع فلوريستان، وفقد وعيه فما عاد يدرى إذا ما كان حيا أم ميتًا، وكانت خاتمته كمن سبقه من الفرسان فألقى به خارج المكان. أمَّا أماديس وأجراخيس اللذان قد قطعا شوطًا طويلاً داخل البستان، فقد عادا مرَّةً أخرى إلى التِّمثالين فشاهدا هناك - على الحجارة الملونة - اسمه مكتوبًا، يقول :

"هذا هو أماديس دى جاولا، المحب المخلص، ابن الملك بيريون دى جاولا"

وظلَّ هكذا يقرأ الحروف فى سعادةٍ غامرةٍ حتى وصل إلى القوس، فسمع صيحاتٍ عاليةً صادرة عن أرديان القزم، تقول :

- سيدى أماديس، أغثنا، فقد مات أخواك !

وحين سمع ذلك أسرع بالخروج من هناك، وخلفه أجراخيس، وسأل القزم ماذا يعنى هذا الذى قاله، فقال :

- سيدى، حاول أخواك خوض تجربة الغرفة المحروسة فما استطاعا، وأصبحا هنا على وشك الموت .

ركبوا جيادهم وذهبوا إلى حيث هما فوجدهما فى حالة يرثى لها كما سمعتم، وإنْ كانا لم يفقدا الوعى بعد . وهنا بدأ أجراخيس - بما له من شجاعةٍ وإقدامٍ - يترجَّل سريعًا، وقد حمل سيفه وتوجَّه بأسرع ما أمكنه صوب الغرفة المحروسة، ضاربًا به فى كل مكان . غير أنَّ قوته لم تكن كافيةً لتحمل الضَّربات التى سُدِّدت إليه فسقط بين التِّمثال النُّحاسى والآخر الحجرى، وقذف به إلى خارج المكان مغشيا عليه كغيره . وهنا بدأ أماديس يلعن اللحظة التى أتوا فيها إلى هذا المكان، وقال لجالاؤر الذى قد عاد لذاكرته توا :

- أخى، ليس بإمكانى أنْ أعفى جسدى من أن ألقى به فى نفس يم المخاطر التى تعرضتم لها .

أراد جالاوز صده عن ذلك، إلا أنَّه قد حمل سلاحه ومضى قدمًا في طريقه، راجيًا العون من ربِّه. وحين بلغ المكان المحروس توقَّف قليلاً، ثم قال :

– آه سيدتي أوريانا، أنا أستمد قوتي وحماسي منك، اذكريني سيدتي في هذا الوقت بالذات الذي أنا بحاجة فيه إلى هذا التذكر الحلو .

ثم تقدم بعد ذلك وأحس بالضربات تأتيه من كل مكان وبكل قسوة، حتى بلغ التمثال الحجري، فتجاوزه، فرأى كل فرسان العالم قد تجمعت لنزاله وضربه، وسمع صدى أصواتٍ كثيرةٍ – كما لو كان العالم أجمع قد أصبح على وشك الهلاك – تقول :

– إذا ما أرجعتم هذا الفارس فلن يكون في مقدور فارس آخر في هذا الوجود الدُّخول إلى هنا .

لكنه لم يرجع عن عزمه، فمضى قدمًا إلى الأمام، يسقط على يديه مرَّةً وعلى ركبتيه أخرى، وشاع سيفه من يده بعد أن سدَّد به ضرباتٍ موجعةً وكثيرةً، وتعلَّق السَّيف فما استطاع له ردا. وهكذا بلغ باب الحجرة، فرأى يدًا تجذبه إلى داخل الحجرة، ثم سمع صوتًا يقول :

– مرحبًا بالفارس الذي تجاوز في طيبته ذلك الذي صنع هذا السحر في حينه، وما كان له من نظيرٍ آنذاك، وسوف تصبح سيد هذا المكان .

بدت له تلك اليد كبيرة وغليظة، كما لو كانت يد رجلٍ عجوزٍ، كانت تحمل في ذراعها كما من القماش الأخضر. ولما أصبح داخل الحجرة، تركته اليد حرا، فما رآها بعد ذلك. وارتاح بعدها واستعاد قوته بكاملها، نزع الدِّرع عن رقبته والخوذة عن رأسه، ثمَّ أدخل السيف في غمده وشكر سيدته أوريانا على ذلك الشَّرف الذي كسبه بسببها .

في تلك الأثناء بدأ كلُّ أبناء القلعة، الذين سمعوا الأصوات تردِّد أنْ أماديس قد حاز سيادة المكان ورأوه داخل الحجرة، في رفع أصواتهم قائلين :

– سيدنا، نحن نحمد الله أنْ قد بلغت ما كنت تتمنَّاه .

وهنا بدت أمارات السَّعادة على الأخوين اللذين عجزا عن إتمام ما أنجزه أخوهما، وذلك بعد أنْ عادا إلى وعيهما تمامًا، وقد فرحا له كثيراً نظراً لما يكنّاه له من حب، وأمراه بعد ذلك بالذّهاب إلى الغرفة. وكذلك حضر الحاكم وأتباعه معه، ووصل الجميع إلى حيث يوجد أماديس، فقبلوا يديه على اعتبار أنه قد أصبح سيدهم . وحين رأوا ما بداخل الغرفة من أشياء غريبةٍ وعجيبةٍ - فضلاً عن الثّروات - اندهشوا لرؤيتها، غير أنَّ ذلك كلَّه لم يكن شيئًا بالمقارنة مع مكان أُعد في في أحسن هيئة. إنَّه المكان الذي كان يستريح فيه أبوليدون وصديقته، وقد أُعد المكان بصورةٍ لم يكن لأحد أن يبلغها، وما كان لأحدٍ أن يعرف كيف تمَّ إعداده. لقد جاء إعداده محكمًا بحيث يصبح بمقدور من بداخله أنْ يراقب ما يجري خارجه على أتمِّ وجهٍ. وهكذا أمضى الجميع وقتًا طويلاً في سعادةٍ تامة؛ الفرسان لأنَّهم وجدوا واحداً من بين طبقتهم قد فاق في طيبته كلَّ فرسان العالم الحاضرين والقادمين على مدى مائة عامٍ، وكذلك أهل الجزيرة، لأنَّهم قد فازوا بذلك السَّيد الذي انتظروه طويلاً حتى ينالهم الشَّرف ويصبح بمقدورهم حكم أراض جمة من موقع القلعة . وهنا تحدث إيسانخو حاكم القلعة إلى أماديس قائلاً :

- سيدي، يحسن بك أنْ تتناول طعامك وتستريح، وغداً سيأتي إلى هنا كلُّ أهل الصَّلاح والرِّفعة على ظهر هذه البقعة من الأرض ليحتفلوا بك، ويعلنوك سيداً عليهم. خرجوا على وعد بتنفيذ ما تَّم، ودخلوا إلى جنبات قصرٍ بديعٍ، فأكلوا مما كان هناك، وتمتَّعوا بيومهم هذا. وفي اليوم التَّالي حضر الجميع وأعدوا الزِّينات والأفراح والألعاب، وهنا تَّم إعلان أماديس سيداً على الجميع وسط مراسم جرت عليها العادة في تلك الآونة وتلك الدِّيار .

هكذا - كما حكت الرواية - أصبح أماديس سيدًا على الجزيرة اليابسة بعد مدة مائة عامٍ تركها فيها أبوليدون تحت تأثير ذلك السِّحر، وهي المدَّةُ التي شهد خلالها شهود عيانٍ أنَّه لم يأت فارسٌ تجاوزه في طيبته وكرمه . وإذا ما كان قد نال مجداً وشهرةً من وراء ذلك، فقد اعترف له بذلك أولئك الذين كان لهم باعٌ طويلٌ في

مجالات النِّزال، المنتصرون منهم والمهزومون، حيث شعر الأُولون في أنفسهم ما كان يشعر به أماديس، والآخرون الذين كانوا ينتظرون النَّصر - الذى تحوَّل إلى هزيمةٍ - أخذوا يتباكون على خيبتهم. ومن بين هذين الطرفين المتناقضين من عساه أنْ يكون الأفضل فى نظرنا ؟ بكلِّ تأكيد إنَّ الطرف الأول - وفقًا للضَّعف البشرى الذى لا حَد له - يمكن أنْ يأتى فى عجرفةٍ وتغطرسٍ بالعديد من الخطايا العظيمة، وأمَّا الثَّانى، فيأتى بخيبة أمل كبيرة . فما هو الشَّيءُ الأمثل الذى بين الحدَّين ؟ إنَّه ذلك العقل الحكيم الذى يأتى هبةً من الرَّب الحق إلى بنى البشر دون الأحياء الأخرى، والذى يدرك أنَّ النَّعيم والضِّيق لا يدومان أبدًا، فيبذل قصارى جهده فى أنْ يجعل للقلب سلطانًا عليهما، فهذا بمقدوره أنْ يملك الوسيلة السَّعيدة . وبعد، فهل يأخذ أماديس بهذه الوسيلة فيما يعدُّه له الآن القدر المتغير، فيظهر النَّبات المخدَّر المسموم الذى فى وسط كل تلك الأفراح، ومع كلِّ تلك الرِّفعة والعظمة كان يخيفهما ؟ أرى أنَّه لن يغفل ذلك، بل قبل ذلك، وبما أنَّه قد تحقَّقت له ودونما حسابٍ يذكر، أشياءُ كثيرةٌ، ودونما عائقٍ أو دخولٍ فى نزال كان على موعد مع القدر أنْ يخوضه، ودونما مقارنةٍ، فسوف يخضع قلبه ورصانته للقدر، دون أنْ يجدى نفعًا ما معه من سلاح أو تذكُّر سيدته له، أو شدة بأسه وقوة قلبه، وإنما ستنفعه تلك الرَّحمة الكبيرة من ذلك الرَّبِّ، التى أنزلت إلى هذه الدُّنيا لتكون سلوى وإصلاحًا لخطايا المخطئين والمكروبين، كما سنقصُّ عليكم لاحقًا كلَّ ما هو حزينٍ ومفرحٍ .

كما أسلفنا الحديث عن ذلك فى الجزء الأول من هذه الرِّواية، وكيف أنَّ أوريانا قد أصبحت تحت تأثير الحزن والغضب بفعل تلك الكلمات التى أذاعها القزم عن قطع السَّيف، وقد أصابها نوعٌ من الاضطراب لم تجد معه النَّصائح الحقَّة التى أسدتها كل من مابيليا والفتاة الدَّانماركية إلى أوريانا، وفسوف نروى لكم الآن ما فعلته هى بهذا الصَّدد منذ ذلك اليوم بعد أنْ أفسحت المجال أمام عاطفتها لتنمو وتزداد تغيُّر حالها الذى كانت عليه آنفًا، فبعد أنْ درجت على البقاء فى صحبه هاتين الفتاتين انزوت عنهما فى مكانٍ بعيدٍ، لتمضى بمفردها أطول وقتٍ ممكنٍ، تفكِّر كيف تؤلم

- ردًا على ما أصابها من آلامٍ وغيظٍ - ذلك الذى يستحق الألم، وكان سببًا فى كل ما تعانيه. ولما تذكَّرت أنَّها بعيدةٌ عن الجميع رأت أنْ بمقدورها أنْ تكتب كلَّ ما بداخلها من أحاسيس بهذا الصدد. وفى وحدتها هذه مدت يدها إلى صندوقها فأخرجت قلمًا وورقة، وأخذت تخطُّ رسالة قالت فيها :

رسالة ترسل بها السَّيدة أوريانا

إلى حبيبها أماديس

سمحت شكواى المُرة المصحوبة بمزيد من التَّعقل ليدى أنْ تصرح بما لم يستطع قلبي الحزين حبسه ضدَّك أيُّها الفارس الخائن والمزيَّف المدعو أماديس دى جاولا، فها قد عرف الجميع عدم الوفاء والتَّردُّد الواردين فى حقِّى. أنا - يا من أحببت - أتعس وأفقر كلِّ بنات الدُّنيا حظا من جهتك أنت، حين حولت رغبتك عنِّى - يا من أحببتك أكثر من كل شيءٍ - ووضعتها فى أخرى، لا تستحق - نظراً لسنها - هذا الحبُّ، كما لا يجدى ذلك نفعاً فى معرفة تعقلها ورصانتها . وبما أنَّ قلبي المقهور لا يمكن له أنْ ينتقم لنفسه بشيءٍ آخر، فلا حيلة لى إلا أنْ أمنعك كلَّ شيء بسبب حبِّه ورغبتى فيه . آه! كم أسأت فى إخضاع قلبى وإعماله، وقد عاد كلُّ هذا على - بعد تنهداتٍ وعواطفٍ - بالسُّخرية والمرارة ! والحب الذى وهبتك إيَّاه قد تحوَّل - بسبب فعلتك - إلى غيظٍ وحنقٍ كبيرين . ولتذهب بهذا الإيمان الواهن فيك والخداع المحكم لتخدع به أخرى غيرى من البائسات كما خدعتنى، فأنا قد قهرتنى كلماتك الخادعة، التى لن أقبل عنها أىَّ اعتذارٍ أبدا . وقبل ذلك ودون أنْ أراك، سأبوح بدموعى على حظى التَّعس، وبها سأنهى حياتى، حتى ينتهى كلُّ ذلك الذى غرست من حزن .

ولما فرغت من كتابة الرسالة، أغلقتها بخاتم خاص معروف لأماديس، ثم كتبت على الظرف : "أنا الفتاة المجروحة بفعل طرف السَّيف فى قلبى، وأنت من جرحتنى" .

وتكلَّمت سرا إلى فتىً يقال له دورين، شقيق الفتاة الدَّانماركية، فأمرته بألا يستريح حتى يصل إلى مملكة سوبراديسا، حيث سيجد هناك أماديس، وأن يقدم إليه هذه الرسالة، وأن يرقب قسمات وجهه حين قراءتها، وعليه ألاَّ يستلم منه ردا عليها مهما حاول هو أن يعطيه إياه .

الفصلُ الخامسُ والأربعون

شرع الفتي دورين في تنفيذ ما أمرته به أوريانا فوصل إلى الجزيرة اليابسة، حيث سلم أماديس رسالة سيدته . ولما أحسَّ البطل فقدان حبٍّ أوريانا أصابه اليأسُ، فتخلَّى عن كل شيءٍ، ليندب حظه العاثر .

الفصل السَّادسُ والأربعون

تتبع جندالين ودورين أثر أماديس فوجداه ينعى حظه التَّعس . وبالأسلحة التى سلمها إيَّاه حاملو السلاح - والتى كان قد تركها فى أيديهم عند خروجه من الجزيرة اليابسة - هزم أماديس فارسًا كان يفخر بما حظى به من حب سعيد مع الملكة ساردراميرا ومع أوريانا . عاد دورين إلى القصر، أما البطل وجندالين فقد تابعا سيرهما فى الطريق .

الفصلُ السَّابع والأربعون

كــان الفـارس الجـريح يدعى باتين Patín، وهو الأخ الوريث لإمبراطور رومـا، الذى أتى ليتحدى فرسان بريطانيا العظمى، ووقع فى حبٍّ أوريانا . وحتى يبرهن على حبه لها خرج طالبًا جزيرة فيرمى لنفسه. غير أن دورين، الذى واجهه بعد المعركة التى نازل فيها أماديس، أخبره بأنَّ هناك فارسًا آخر قد اجتاز الاختبار .

الفصلُ الثَّامنُ والأربعون

كيف خرج جالاؤر وفلوريستان وأجراخيس بحثًا عن أماديس، وكيف أنَّ أماديس، بعد أنْ غيَّر أسلحته وبدل اسمه، انزوى بجوار شيخٍ طيِّبٍ في أحد دور العبادة معلنًا حياة العزلة .

كما علمتم فقد خرج أماديس والحزن يملؤه من الجزيرة اليابسة وقد تخفَّى تمامًا، بحيث لم يتعرَّف عليه كلٌّ من جالاؤر وفلوريستان وأجراخيس عند خروجه، وكيف أنَّه قد أخذ العهد على إيسانخو بأنَّه لن يقول شيئًا من ذلك إلا بعد يومٍ من انتهائهم من حضور الصلاة بدار العبادة هكذا فعل إيسانخو، فبعد الانتهاء من الصَّلوات بدأ الجميع يسأل عن أماديس، فقال لهم :

– احملوا أسلحتكم وسوف أخبركم عن أمره .

وبعد أن تجهزوا بأسلحتهم بدأ إيسانخو يبكي بكاءً مريرًا :

– آه سادتي، ياللحزن وياللألم اللذين نزلا علينا، فسيدنا لن يدوم بيننا طويلاً !

وحينئذ قص عليهم كيف رحل أماديس عن القلعة، والحزن والألم اللذين اعتصراه آنذاك، وكل ما أمره بأن يقوله لهم، وما أمره بأنْ يفعله هو بهذه الدِّيار، وكيف أنَّه يرجوهم بألاَّ يخرجوا في إثره، فلن يكون بمقدورهم التَّخفيف عنه بحالٍ من الأحوال، وألاَّ يتلقَّوا عزاءً في وفاته أبدًا وألاَّ يحزنوا .

– آه يا للعذراء مريم ! –قالوا جميعًا – سيموت أفضل فارس في الوجود، من الأفضل، بعد تغاضينا عن أوامره هذه أن نخرج للبحث عنه، وإذا لم نستطع أنْ نخفف عنه بحياتنا، فلنلق حتفنا معه جنبًا إلى جنبٍ .

وهنا قال إيسانخو لجندالين كيف أنَّه قد توسَّل إليه بأنْ يجعل من جندالين فارسًا، وأنْ يحضر معه أرديان القزم . وقد أخبرهم إيسانخو بهذا وهو يتألم كثيرًا، وهم كذلك. أخذ جالاؤر القزم بين ذراعيه، وقد بدا عليه الألم لفقدان أماديس، وظلَّ يضرب رأسه في حائطٍ قريبٍ، ثم قال له :

– أرديان، لتأت معي كما أمر سيدك، فما يحدث لي سيحدث لك أيضًا .

قال له القزم :

– سيدى سألزمك، لكن ليس على أنَّك سيدٌ، حتَّى أعلم أخبارًا أكيدةً عن أماديس .

وحينئذٍ امتطيا جواديهما، وعندما أشار عليهما إيسانخو بالطريق التى سلكها أماديس، دخل فيها الثَّلاثة معًا وساروا نهارهم كلَّه دون أنْ يجدوا أحدًا يسألونه. وصلوا إلى حيث يوجد " باتين " مقروحًا وقد مات جواده، وحاملو سلاحه الذين أتوه وأخذوا يقطعون الأخشاب وفروع الأشجار كي يحملوه عليها، إذ كان مغشيًا عليه لما نزفه من دماء، وما تمكَّن من أنْ يقول لهم شيئًا، وأشار إليهم أنْ يتركوه ويسألوا حاملى السلاح عن الفارس الذى أصابه بهذه الجروح. قالوا لهم إنهم لا يدرون عن هذا شيئًا سوى أنَّه أخبرهم حين وصلوا إليه، بأن هناك فارسًا قدم إليه من الجزيرة اليابسة فنازله ثم هزمه سريعًا ودونما عناء، وبضربة سيفٍ واحدةٍ أحدث به هذا القرح وقتل جواده، وسرعان ما ركب جواده وانصرف، ومنذ أن رحل عنه قال إنَّه قد علم عن طريق أحد الفتيان أنَّ ذلك الفارس هو الذى أصبحت له السيادة على الجزيرة اليابسة . قال جالاؤر لهم :

– أيُّها النَّاس الطيِّبون، أتعرفون المكان الذى توجَّه إليه ذلك الفارس ؟

– لا – قالوا – ولكن قبل أنْ نصل إلى هنا رأينا فارسًا مدجَّجًا بالسِّلاح ينصرف عبر هذه الغابة يمتطي جوادا قويا، وهو يبكي ويندب حظه، وكان هناك حامل سلاح يسيرُ خلفه. كان نصل سيفه من الذَّهب وبه صورةٌ لأسدين أشهبين، وعلى هذه الهيئة انصرف الفارس باكيًا .

قالوا :

– ما هو الاتجاه الذى سلكه؟

وحينئذٍ توجَّه الرَّكب سريعًا صوب ذلك الاتجاه. وعندما خرجوا من الغابة وجدو ساحةً واسعةً يتفرَّع منها طرقٌ عديدة في كلِّ الاتجاهات، وبكل منها آثار. وهكذا لم يتمكَّنوا من الاهتداء للطريق التى سلكها. وهنا رأوا أنْ يتفرَّقوا، وحتى يعرفوا ماذا فعل كلٌّ منهم فى مهمة البحث التى أوكلت إليه، والأرض التى قطعها من أجل ذلك عليهم أنْ يتجمَّعوا سويًا في عيد القديس خوان بمنزل الملك ليسوارتي. وإذا ما عاندهم الحُظ في العثور على أماديس حتى ذلك التَّاريخ، فليتشاوروا فيما بينهم لأخذ قرارٍ آخر. وبعد ذلك تعانقوا ثم تفرقوا كل فى طريقٍ، وقد عقدوا العزم على أنْ يبذلوا قصارى جهدهم حتى ينهوا هذه المهمة بنجاح قدر استطاعتهم. غير أنَّ ذلك كله قد ضاع هباءً، فبما أنه كان لزامًا عليهم اجتياز أراض عديدةٍ حدثت لهم فيها أشياءُ غريبةٌ وخطيرةٌ، بما لهم من جرأةٍ وشجاعةٍ وصبرٍ وجلدٍ، فإنهم لم يتمكَّنوا من الحصول على أيَّة أخبارٍ عنه. ولكن نحكى شيئًا عن ذلك الذى حدث لهم، لأنهم فشلوا فى مهمتهم فما أنجزوها، وذلك كله راجع إلى أنَّ أماديس قد رحل عن المكان الذى أقرح فيه الفارس باتين Patin، وتابع سيرة عبر الغابة. وحين خرج منها وجد ساحةً عريضةً يتفرع منها طرقٌ عديدة، فأراد أنْ يخفى معالمه حتى لا يهتدوا إليه باقتفاء أثره، فتخلَّى عن تلك السَّاحة ونزل بوادٍ وجبلٍ، وترك الحرية للجواد يسير كيفما شاء. وما إن انتصف النَّهار حتى وصل الجواد إلى مجموعةٍ من الأشجار كانت على ضفاف مكان به ماءٌ ينساب من أعلى الجبل. ونظرًا للتَّعب الذى أصابه من جرَّاء السَّير ليلاً والحرُّ الذى خيَّم على المكان توقف هناك، وهنا رأى أماديس أنْ يعتنى بالجواد، فنظر حوله فما وجد عمارًا على

الإطلاق، فارتـاح لذلك. وهنا ترجل ثم شـرب من الماء، أتى إليـه جندالين الذى كـان يـسير خلفه، وأخذ الجوادين فتركهما فى مكان يأكلان فيه من حشائش الأرض، ثم عـاد إلى سـيده، فوجده فى غاية الإعياء. لقد بدا له ميًتا أكثر منه حيا، غير أنَّه لم يجرؤ على أنْ يخرجه من تفكيره وجلس أمامه . استرد أماديس وعيه فى ذات الوقت الذى بدأت تغيب فيه الشَّمس، وما إن بدأ ينهض من مكانه حتى ضَرب برجله جسد جندالين، وقال :

- أتنام أم ماذا تفعل ؟

- لا أنام - قال جندالين - لكنَّنى أفكِّر فى أمرين يهمانك أنت، وإذا ما كانت لك رغبة فى أنْ تسمعنى فسأقولهما لك، وإلاَّ فسأكف عن ذلك .

قال له أماديس :

- أسـرج الجوادين فعلىَّ أنْ أذهب، فلا أرغب فى أنْ يعثر علىَّ الذين خرجوا بحثًا عنِّى.

- سيدى - قال جندالين - أنت فى مكان معزولٍ، وجوادك المترهِّل والمرهق، إذا لم تُتح له الفرصة للرَّاحة فلن يقوى على حملك .

قال أماديس باكيًا :

- افعل ما فيه الخير، فأنا لن أجد الرَّاحة ساكنًا أو سائرًا .

ذهب جندالين للاهتمام بالجوادين، ثمَّ عاد إلى سيده وتوسل إليه أنْ يتناول شيئًا من الطَّعام الذى أحضره معه، غير أنَّه لم يقبل شيئًا، ثم قال له :

- سيدى، أتودُّ أنْ أخبرك بالأمرين اللذين كنت أفكِّر فيهما ؟

- قل ما تشاء - قال له - فأنا لن أقدِّم شيئًا فى مقابل ما يقال أو يفعل فى هذا الوجود، وما عادت لى رغبةٌ فى أنْ أعيش فى هذا العالم إلا بقدر ما أتمكَّن من الجلوس على كرسى الاعتراف .

هنا قال جندالين :

- مازلت أرجوك، سيدى، أنْ تسمعنى .

وبدأ يقول :

مازلت أفكِّر فى تلك الرِّسالة التى بعثت بها إليك أوريانا، وفى تلك الكلمات التى قالها ذلك الفارس الذى نازلته. وبما أنَّ ثبات المرأة على حالٍ أمْر هش جدا إذ تغيِّر حبُّها لشخصٍ بحبها لآخر، فإنه يمكن أنْ تكون أوريانا قد صرفت عنك فكرها، وأرادت قبل أنْ تعرف أنت ذلك، أن تبدى لك نوعًا من الاستياء وعدم الرِّضا لخطيئتك. والأمر الثَّانى أنَّنى أراها امرأةً صالحةً ووفيةً، لا يمكن لها أنْ تتحولَ على هذا النَّحو دون أنْ تكون قد بلغتها عنك وشاية مغرضة ليس لها ظلٌ من الحقيقة، لكنَّها صدقتها وأيقنت بها، فأحسَّت بقلبها الذى ثبت على حبك أنَّ بمقدور قلبك أنْ يفعل بها ذلك. وبما أنَّك تعلم أنَّك ما أخطأت فى حقِّها قط، وأنَّه إذا ما قيل لها شئٌ فهو محض كذب وافتراء، فلابد من إظهار الحقيقة، وأنَّك لم تخطئ، الأمر الذى سيدفعها للاعتذار والنَّدم لما فعلت، وبتواضعٍ جم ستطلب منك العفو عنها وأنْ تعود معها سيرتك الأولى من الحبِّ والدَّلال الذى يهواه قلبك. أوليس من الأفضل الآن وأنت تأمل فى هذا الدَّواء النَّاجع أن تأكل وتعزى نفسك، الأمر الذى يحفظ عليك حياتك؟ فإنَّك إن متَّ مع قليلٍ من الأمل والإقدام ستفقدها وستفقد مع ذلك شرف هذه الحياة الدُّنيا وشرف الآخرة .

- أستحلفك بالله أنْ تصمت ! - قال أماديس - فمثل هذا الجنون والكذب الذى قلت يكفى ليغضب العالم أجمع، وأنت تقوله لى حتى Conortarme، وإذا مامت فهذا حقّ، ليس لأنَّنى أستحق هذا، وإنَّما هذا على أنَّه من أجل Conortarme لقطعتُ رأسك، ولتعلم أنَّك أغضبتنى كثيراً، ومن الآن فصاعداً لا تتجرأ على قول مثل هذه الأشياء لى .

وتركه ثم انصرف بمفرده يتنزَّه قليلاً على الشَّاطئ، وقد أحس أنَّه لا يدرك ما حوله. وهنا هرع جندالين إلى النوم كمن لم يذق طعمه منذ يومين وليلة. ولمَّا عاد

أمـاديس، وقـد ذهب عنه الفكر، ورأى كـيف أخـذ جندالين يغطُّ فى نومٍ عـمـيقٍ ذهب فأسرج جواده، ثم أخفى سرج جواد جندالين ومقوده بين مجموعةٍ من الأشجار الكثيفة، حتي لا يتمكَّن من ملاحقته. وحمل سلاحه وسار فى أوعر طرق الجبل والغيظ يملؤه لكلِّ ما قاله جندالين له آنفًا .

ظلَّ سائرًا طوال الليل واليوم التَّالى حتى دخل مرجًا كبيرًا كان عند مقدمة جبلٍ هناك، به شجرتان هائلتان فوق نافورةٍ، فذهب إلى هناك كي يروى عطش جواده، فقد سار ذلك اليوم بأكمله دون أنْ يعثر على ماء. ولمَّا ورد ماء النَّافورة، وجد عليه رجلاً من رجالات الدِّين اشتعل شعر رأسه ولحيته شيبًا، كان يسقى حمارًا ويرتدى ثيابًا فقيرةً من صوف الماعز. حيَّاه أماديس وسأله ما إذا كان يؤدِّى صلواته كأحد رجالات الدين فأخبره الرَّجل الصَّالح بأنَّه قد التحق بهذه الرَّهبانية منذ أربعين عامًا .

- الحمد لله - قال أماديس - الآن أتوسَّل إليك أن تبيت هذه الليلة هنا بحق الله، وأن تسمع لتوبتي، فهذا أمرٌ ضروريٌّ بالنِّسبة لي .

- باسم الله - قال الرَّجل الصَّالح .

وهنا ترجَّل أماديس ووضع سلاحه على الأرض، ثم أنزل السرج عن جواده وتركه يرعى فى خشاش الأرض، وقام هو بنزع سلاحه وانحنى أمام الرَّجل الصَّالح، وبدأ يقِّبل قدميه . أخذه الرَّجلُ الصَّالح من يده، ثم رفعه وأجلسه بالقرب منه، فرآه أجمل فارسٍ رأته عيناه فى هذا الوجود، لكنَّه وجده شاحبًا ووجهه وصدره مبللين بالدُّموع التي كان ما يزال يذرفها، فتأسَّى لحاله، وقال له :

- أيُّها الفارس، يبدو أنَّك مكروبٌ بدرجةٍ كبيرةٍ، وإذا ما كان ذلك لخطيئةٍ ارتكتبها وتأتي دموعك هذه بسببها، فأنت قد أتيت إلى هنا فى أطيب وقتٍ. وإذا كان ما قد حدث لك من جرَّاء أمورٍ عارضة، فبحكم سنِّك وجمالك فمن العقل ألاَّ تبتعد عنها كثيرًا، ولتذكر ربك واطلب منه العفو والصَّفح وأنْ يجعلك فى زمرة عباده الصَّالحين. ثم رفع يده وباركه، وقال له :

- الآن قل كل ما تتذكَّره من خطاياك .

هنا بدأ أماديس يروى قصته، فحكاها كلَّها كاملةً، ولم ينقص منها شيئًا .

هنا قال له الرَّجل الصَّالح :

- تبعًا لفكرك ورجاحة عقلك والأصل النَّبيل الذى تنحدر منه، ليس لك أنْ تقتل نفسك أو تلقى بها إلى الهاوية لأىِّ شيءٍ حدث لك فى هذه الدنيا، ناهيك عن أمور النِّساء، التى يكسبها ويخسرها المرء بكلِّ سهولةٍ ويسرٍ، وأنصحك ألاَّ تفكر أبدًا فى مثل هذا الأمر، وأنْ تقلع عن هذا الجنون الذى ما فعلته حبا لله، والذى لا تعجبه مثل هذه الأشياء، وما كان لهذا أنْ يحدث بحقِّ هذا العالم الدُّنيوى، فما يحقُّ لإنسانٍ أنْ يحبَّ آخر لا يبادله الشُّعور نفسه .

- أيُّها الرَّجل الصَّالح - قال أماديس - هـأنت ترانى مقروحًا إلى حد، ولهذا فلن أعيش إلا قليلاً، وأرجوك بحقِّ الرَّبِّ الذى تؤمن به أنْ تتركنى ألازمك هنا على مدى هذه الفترة القصيرة المتبقية لى، وسأكون لك من النَّاصحين، فأنا لست بحاجةٍ إلى الأسلحة أو الجواد، وسأتركها هنا وأذهب معك مترجِّلاً، من أجل أنْ أكفر عن خطيئتى كما أمرتنى، وإذا لم تفعل هذا معى فأنت مخطئٌ فى حقِّ الرَّبِّ، لأنَّنى سأهيم فى هذا الجبل دون أنْ أجد من يخفِّفُ عنِّى أثقالى .

وحين رآه الرَّجلُ الصَّالحُ متجمِّلاً ومفتوح القلب لعمل الخير قال له :

- بكلِّ تأكيد، سيدى، ليس من المناسب لرجل مثلك أنْ ييأس بمثل هذا الشَّكل، كما لو أنَّ الدُّنيا قد أفلتت من تحت يده، ناهيك عن كون الأمر يتعلَّق بامرأةٍ، لا يتجاوز حبها أبدًا ما تراه عيناها، والكلمات التى تسمعها حين تقال لها، وحين ينتهى كلُّ هذا تنسى كلَّ شيءٍ، وخاصةً فى ذلك الحبِّ المزيف الذى يتعارض مع العبودية للإله الواحد، فتلك الخطيئة التى ينشأ عنها ذلك الحب، فتجعل منه فى البداية أمرًا عذبًا وحلوًا، يجعل الله منه أمرًا مغايرًا فتكون

النَّتيجة قاسيةٌ ومريرةٌ كما يحدث لك الآن، لكنك بما تحظى به من طيبة ومكانة وملك تفوق غيرك من النَّاس. وأنت بما لك من وفاءٍ ودفاعٍ عن الآخرين بما في ذلك الذين لا يستحقون ذلك، وقيامك على الحقِّ والقانون سوف يكون خسارة كبيرة وسوء حظ وأذى كبيرًا للدُّنيا بأسرها إذا ما وقعت فريسة للهم واليأس. وأنا لا أدرى من عساها أنْ تكون تلك المرأة التى جعلتك فى حال كهذه، وفى رأيى أنَّه مهما تجمَّعت لامرأةٍ واحدةٍ فى هذه الدُّنيا كل خصال الجمال والطيبة التى تلزم النِّساء جميعًا، فما كان لواحدٍ مثلك أنْ يلقى مثل هذا المصير فيهلك .

– أيُّها الرَّجلُ الصَّالحُ – قال أماديس – أنا لا أبغى منك نصيحة فى هذا الجانب، فلا حاجة لى بها، لكننى أطلبها لروحى وأرجوك أنْ تحملنى معك، وإلا تفعل ما أطلبه منك فسألقى حتفى فى هذا الجبل، إذ لا سبيل أمامى غير ذلك .

وهنا بدأ الرَّجلُ الصَّالحُ فى البكاء أسفًا على الفارس، فتهاوت دموعه تنسابُ على لحيته الطويلة البيضاء، ثم قال له :

– ابنى وسيدى، أنا أعيش فى مكانٍ قاسٍ وغير مؤهل للحياة فيه، وهو عبارة عن كنيسةٍ صغيرةٍ على مسافة سبعة فراسخ فى عرض البحر، على صخرةٍ عاليةٍ، وهى صخرةٌ ضيقةٌ جدا بحيث لا تستطيع أيَّةُ سفينة الوصول إليها إلا فى أيَّام الصَّيف، وهناك أعيش منذ ثلاثين سنةٍ، ومن يرد الحياة هناك فعليه أنْ يقلع عن رذائل الحياة الدُّنيا ومتعها. وأنا أعيش على الصَّدقات التى يهبنى إيَّاها أهل الأرض .

– كلُّ هذا – قال أماديس – أرحِّب به يعجبنى ، وأودُّ أنْ أعيش معك هذه الحياة طوال ما تبقَّى لى من عمرٍ قصيرٍ. أتوسَّل إليك بحقِّ الله أنْ تمنحنى هذا الرَّجاء .

وافق الرَّجل الصَّالح على طلبه رغمًا عنه، وقال له أماديس :

- الآن لك أنْ تأمرني، أيُّها الأب، بما ينبغي على أنْ أفعل، ولن أعصى لك أمراً .

وهنا باركه الرَّجل الصَّالح ثم قال له عشيةً، بعد أنْ أخرج خبزاً وأمره بأنْ يأكل، غير أنَّه لم يفعل ما أمره به رغم مرور ثلاثة أيام دون أنْ يتناول طعاماً قط، ثم قال :

- عليك أنْ تكون طوع أمري، وأنا آمرك أنْ تأكل، وإلاَّ فسوف تكون روحك في خطرٍ عظيمٍ إذا ما أنت متَّ على هذه الحال .

وهنا تناول الطَّعام، ولكن بقدرٍ يسير، إذ لم يكن بمقدوره أنْ يدفع عن نفسه ذلك الضِّيق الذي الم به وحين أتى موعد النَّوم نام الرَّجل الصَّالح فوق عباءته وأماديس بجواره، إذ ما فعل شيئاً طوال الليل، لما أصابه من هم وحزن، سوى التَّحلِّي بالصَّبر وإطلاق الزَّفرات الكبيرة، ولما أنْ أتعبه وغلبه النعاس نام، وفي منامه هذا رأى أنه كان محبوساً داخل غرفةٍ مظلمةٍ لا فتحة فيها، ولما لم يجد منها مخرجاً بدأ قلبه يئن بالشكوى، وبدا له أنَّ مابيليا والفتاة الدَّانماركية أقبلا عليه وأمامهما شعاعٌ من الشَّمس يشقُّ الظَّلام ويضيء الغرفة، ثم أخذاه من يديه وقالا له : " اخرج إلى هذا القصر سيدي " وبدا له أنْ ذلك الأمر أعجبه كثيراً، وما إن خرج حتى رأى سيدته أوريانا بالقرب من ألسنة نيران، فأخذ يصيح بأعلى صوته قائلاً : " أيَّتها العذراء، أحمها !" وسار وسط النيران فما شعر بشيء، وحملها بين ذراعيه وذهب بها إلى بستان، وهو أشد خضرةً وجمالاً من أيِّ بستان رآه . وعلى أثر الصيحات العالية التي أطلقها أماديس استيقظ الرَّجُل الصَّالح وأمسك بيده قائلاً له :

- ماذا هناك؟

- قال أماديس :

- سيدي، رأيت حلماً فظيعاً، وكنت على وشك الموت .

- لقد بدا ذلك واضحاً فيما أطلقته من صيحاتٍ - قال الرَّجلُ الصَّالحُ - هيا بنا نرحل قليلاً .

ثم امتطى حماره وبدأ المسير . وكان أماديس يسير معه مترجِّلاً، غير أنَّ الرَّجل الصَّالح أمره بأنْ يمتطي جواده، وسارا معاً كما تسمعون. وهنا توسَّل إليه أماديس أنْ

يعده بأمر لا مجال فيه للمغامرة بشىء، قطع له الرَّجلُ الصَّالح على نفسه عهداً بذلك، فطلب منه أماديس ألاَّ يقول اسمه لأحدٍ طوال المدَّة التى سيقضيها معه، وألاَّ يحكى لأحدٍ أبداً، وألاَّ يناديه باسمه، ولكن باسم آخر يمكنه أنْ يختاره بنفسه، وحين يموت عليه أن يحيط أخويه علماً بذلك حتى يأتيا لحمله إلى بلده .

- حياتك وموتك أمرٌ فى علم الله - قال الرَّجلُ الصالح - ولا تتكلَّم فى هذا الأمر بعد، فالله سيجعل لك بعد العسر يسراً إذا ما أظهرت حبك له وجعلت نفسك فى خدمته كما يجب، ولكن قل لى، ما الاسم الذى ترغب أنْ أناديك به ؟

- الاسم الذى يعجبك أنت - قال أماديس .

ظلَّ الرَّجلُ الصَّالحُ ينظر إليه لما جبل عليه من جمالٍ ورشاقة قد فضلاً عما كان فيه من هم وكرب، ثم قال له :

- أرغب فى أن أسميك باسمٍ يتمشَّى مع شخصك، والكرب الذى أنت فيه؛ فأنت شاب جميل، وحياتك قد أصبحت مغلَّفةً بالمرارة التى لا حدَّ لها وضرب عليها بظلامٍ لا نهائىٍ، وعليه فأرغب فى أنْ أسميك بيلتنيبروس (Beltenebrós).

أعجب هذا الاسم أماديس، وشكر الرَّجلَ الصَّالح أنْ أعطاه إيَّاه، وظلَّ يدعى بهذا الاسم على مدى الفترة التى قضاها معه، كما نال مدحًا كثيراً من ورائه لا يقلُّ فى شىءٍ عن ذلك الذى ناله من اسمه أماديس. وفق ما قام به من أعمال جليلة. كما سنقصُّ عليكم فيما بعد .

وبينما يدور الحديث بينهما عن هذه الأمور وغيرها بلغا البحر وقد أرخى الليل سدوله. ووجدا هناك قارباً يمكنهما أنْ ينقلا فيه الرَّجل الصَّالح إلى كنيسته الصَّغيرة، وهنا أعطى بيلتينيبروس جواده للبحَّارة، وتلقى منهم ملابس خاصةً بالمزارعين من الصُّوف الغليظ. دخلا القارب توجَّها إلى الصَّخرة وسأل بيلتينيروس الرَّجل الصَّالح عن اسم المكان الذى يعيش فيه واسمه هو أيضاً .

- المسكن - قال الرَّجلُ الصَّالحُ - يتدعى الصَّخرة الفقيرة، لأنَّه لا يمكن لأحد أنْ يعيش فيها إلاَّ في شظفٍ من العيش، وأنا أدعى أندالود Andalod، وكنت كاهنًا مشهورا جدا أمضيت شبابى فى أشياء تافهة، ولكنَّ الله بفضله وعنايته جعلنى أفكِّر فى أنْ من يريدون خدمته لديهم من السَّيئات ما يفوق غيرهم، وذلك نظرًا لما بنا من ضعف يجعلنا نميل إلى الشَّرِّ أكثر من ميلنا إلى الخير، ولهذا فقد رأيت أنْ أعتزل فى هذا المكان بمفردى، وهأنا قد أمضيتُ فيه ثلاثين سنةً دون أن أبرحه إلا الآن لأحضر دفن أختٍ لى .

وقد أولع بيلتينبروس كثيرًا بالوحدة والتَّقشف اللذين يسودان هذا المكان، وحين أخذ يفكِّرُ فى أنه سيلقى حتفه هناك استراحت نفسه . هكذا تابعوا سيرهم فوق موج البحر داخل القارب حتى بلغوا الصَّخرة، حيث قال الرَّجلُ النَّاسك للبحارة :

- عودوا .

عاد البحَّارة بمركبهم إلى اليَّابسة، وأمَّا بيلتينبروس، فبعد تأمَّل لحياة التَّقشف والعبادة التى يحبها ذلك الرَّجل الصَّالح، أخــذ يفكِّر، وسط أنينٍ ودمــوعٍ منهــمرةٍ، لا عن تقوى وإنما بسبب اليأس فى أنْ يقضى معه بقية حياته، التى ستكون بسيطة جدا وفق رؤيته الخاصة .

هكذا انزوى أماديس - كما سمعتم - تحت اسم بيلتينبروس فى تلك الصَّخرة الفقيرة، التى تبعد عن اليَّابسة مسافة سبعة فراسخٍ، متخليًا عن كلِّ مظاهر الدُّنيا والنزف، وتلك الأسلحة التى كرس لها كلَّ اهتمامه، فأمضى أيامه باكيًا وسط آلامٍ متواصلةٍ، غير متذكر ذلك الشُّجاع جالبانو، ولاذلك القوى الشجاع أبييس ملك أيرلندا، ولا المتغطرس داردان، ولا متذكرًا أيضًا ذلك الشَّهير أبوليدون، الذى لم يصل إلى طيبته فارسٌ قط فى زمانه ولا بعد مرور مائة سنة أخرى، حيث هزم الجميع بقوته وقضى عليهم، فضلا عن آخرين كثيرين روتهم لكم الحكاية، وإذا ما تساءل عن سبب هذا العبث والدَّمار ماذا عساه أنْ يقول ؟ لن يقول شيئًا آخر سوى الغضب والحقد القادمين من امرأةٍ ضعيفةٍ، التى أدارت فى فلكها ذلك القوى هرقل، وذلك الشُّجاع

شمشون، والعالم بيرجيليو، دون أنْ ننسى الملك سليمان، أولئك الذين تعذبوا وقهروا بفعل تلك العاطفة، وآخرون يمكن أنْ نتكلَّم عنهم. أبهذا يمكن العفو عن خطيئته ؟ بكلِّ تأكيد لا، لأنَّ أخطاء الآخرين تبقى فى الذَّاكرة دائمًا، لا للسَّير على نهجها، وإنما من أجل الفرار منها وإنزال العقوبة على فعلها، إذن أمن الصَّواب أنْ يكون هذا الفارس محطَّ رحمةٍ وشفقةٍ وهو على هذه الصُّورة الانهزامية والقهرية، لكى يخرج منها عبر انتصارات تبلغ ضعف ما حقَّقه من قبل ؟ فى رأيى أنا لا، إذا لم تتحوَّل تلكم الأعمال التى أصابته بكثير ضررٍ إلى أخرى مفيدة لا تحمل - بعد الله - إلا كل خير له . هكذا وفى الوقت الذى لحقه ضرارًا كثيرًا فاق ذلك الذى لحق كل من واجههم عند هزيمته، لم يستطع أنْ يتغلَّب على نفسه أو أنْ يقهرها، وسنحكى كيف حدث هذا. وحين ضاع الأملُ من بين يديه ووصل إلى شفير الموت، أحاطه الله العلى القدير بعنايته .

ولكن حتىَّ يستقيم أمر الحكاية، علينا أنْ نروى لكم الآن ما وقع من أحداثٍ خلال هذه المدَّة الزَّمنية، فهاهو جندالين الذى ظلَّ نائمًا بالجبل حين رحل عنه أماديس سيده، يستيقظ بعد مدَّةٍ طويلةٍ. وقد نظر حوله يمينًا وشمالاً فما وجد غير جواده . نهض من مكانه سريعًا وأخذ يصيح بأعلى صوته باكيًا، وباحثًا بين الأشجار كثيفة الأوراق وارفة الظلال، غير أنَّه لم يعثر على أماديس ولا على جواده، وهنا تأكَّد من أنَّه قد تركه وغادر المكان عاد ليمتطى جواده ويخرج فى إثره، غير أنَّه ما وجد سرج جواده أو لجامه، وهنا بدأ يندب حظَّه ويسب نفسه واليوم الذى وُلِدَ فيه، وبينما يبحث يمنةً ويسرةً وجدهما بين مجموعة كثيفةٍ من الأشجار. أسرج جواده ثم امتطاه فمضى خمسة أيَّام ينام خلالها فى القفار، وحين وصل إلى مكان بالحضرِ ظلَّ يسأل عن سيده، غير أنَّ ذلك كلَّه قد ذهب هباءً. وفى نهاية اليوم السَّادس قاده حظُّه إلى عين الماء التى ترك عندها أماديس أسلحته، ووجد على مقربة منها خيمةً منصوبةً بها فتاتان، فترجَّل جندالين ثم سألهما ما إذا كانا قد شاهدا فارسًا كان يحمل معه سيفًا ذهبيًا ومرسومًا عليه أسدين أشهبين، فقالتا له :

– ما رأينا ذلك الفارس، غير أنَّ هذا الدِّرع وبقية سلاح الفرسان وجدناها على مقربةٍ من هذه العين دون أن يكون فى حراستها أحدٌ .

حين سمع جندالين هذا الكلام قال ناتفًا شعره :

– آه أيَّتُها العذراء ! إمَّا أنَّه قد مات، وإمَّا أنَّه قد ضلَّ الطَّريق، سيدى، وأفضل فارس في الوجود .

وأخذ يبدي تألمه الشَّديد لما حدث مما أضجر الفتاتين وأغمَّهما، وبدأ يقول :

– سيدى، ماذا اقترفت من سوءٍ، حتَّى أصبح من المغضوب عليهم من بين من يعيشون في هذه الدُّنيا، وما كان لي أنْ أعيش هذه الحياة، فها أنا قد فقدتك الآن بالذَّات ! أنت، سيدى، أفنيت عمرك في حماية الآخرين جميعًا، والآن لا يحميك أحدٌ، فالعالم ومن به جميعًا قد افتقدوك الآن، وأنا – يامن أنا – أتعس وأسوأ حظا من كلٍّ من في الوجود، ولتقصيرى فى القيام بالحفاظ عليك، افتقدتك في وقتٍ أتاك فيه موتٌ مؤلمٌ .

ثم هوى على وجهه أرضًا كمن فارق الحياة . صاحت الفتاتان قائلتين :

– يا للعذراء، لقد مات حامل السِّلاح هذا !

ذهبتا إليه ليعيداه إلى ذاكرته، لكنَّهما لم يتمكَّنا، فقد أخذ يغشى عليه مرةً بعد أخرى، لكنَّهما واصلا محاولتهما معه، فظلاً يسكبان الماء على وجهه، حتى استعاد وعيه، فقالتا له:

– أيُّها الرَّجلُ الطَّيِّب، لا تأس على شيءٍ لم تبلغ اليقين فيه، فما تفعله هذا ليس في صالح سيدك، والأنسب أنْ تبحث عنه حتى تعلم أحي هو أم ميت، فالنَّاس الطَّيِّبون عند الحزن، عليهم أنْ يتحلَّو بالصَّبر والجلد وألا يتركوا أنفسهم لليأس الذى يميتهم .

بدأ جندالين يتجلَّد لهذه النصيحة من جانب الفتاتين، وقرَّر أنْ يبحث عنه فى كلِّ مكان حتى يتوفَّاه الموت في سبيل ذلك، وقال للفتاتين :

- سيدتيّ، أين رأيتما الأسلحة ؟

- هذا ما سنخبرك به طواعيةً - قالتا - اعلم أنَّنا كنَّا في صحبة السَّيد جيلان الفارس الذي أخرجنا، ومعنا ما يزيد على عشرين فتاة وفارسًا، من سجن جاندينوس الخائن، وقد بذل جيلان مجهودات خارقةٍ في النزال حتى أخرجنا، بعد أنْ ضرب بعادات قلعته عرض الحائط. وفي نهاية الأمر أخرجنا جميعًا من السِّجن، وجعله في النِّهاية يقسم بألاَّ يقر تلك القواعد والعادات مرةً أخرى. وهنا ذهب الفرسان والفتيات إلى حيث أرادوا، وأمَّا نحن فقد أتينا إلى هذا المكان مع جيلان وقد مرَّ علينا أربعون يوما منذ أن أتينا إلى هذا النَّبع، وحين رأى جيلان الدِّرع الذي تسال عنه حزن حزنًا شديداً، ولما ترجل قال إنَّه ما كان ليصبح هكذا درع أفضل فارس في الوجود، ثم رفعه من على الأرض باكيًا من كل قلبه وعقله، وعلقه في ذلك الفرع من تلك الشَّجرة وأمرنا بأنْ نحرسه بينما يخرج هو بحثًا عن صاحبه، ونحن قد أتينا بهاتين الخيمتين. وقد وتجول السَّيد جيلان ثلاثة أيَّامٍ بهذه الدِّيار فما وجد شيئًا، وقد وصل الليلة متأخِّرًا إلى هنا، وفي صباح اليوم التَّالي أعطى الزِّينة لحملة السِّلاح وتنطق سيفه وأخذ درعه، ثمَّ قال :

- بالله، أيُّها الدِّرع، ياله من تغييرٍ سيئ هذا أنْ تترك سيدك حتَّى تخرج في صحبتي!

ثم قال إنَّه ذاهبٌ إلى قصر الملك ليسوارتي حتَّى يعطي تلك الأسلحة للملكة بريسينا، ويعهد إليها بحفظها، ونحن سنذهب إلى هناك، وكذا كل من كانوا بالسجن، حتى نطلب من الملكة أنْ تشكر السَّيد جيلان على ما فعله معنا، والفرسان سيطلبون الشَّيء نفسه من الملك أيضاً .

- أتركُكما في رعاية الله - قال جندالين - فأنا، بعد أنْ أخذت نصيحتكما سأخرج بحثًا عن ذلك الرَّجل الذي تعلقت به حياتي وموتي، ذلك الرَّجل الذي أصبح أتعس وأسوأ حظا من بين كل رجال المعمورة .

الفصلُ التَّاسعُ والأربعون

وصل دورين إلى القصر الملكى، وبدأ يحكى لأوريانا انتصارات أماديس عند قوس المحبين الأوفياء والغرفة المحروسة. ورغم ما أبدته من سعادةٍ فى بداية الأمر، فقد حزنت حزنا شديدا ومريرا حين علمت بما جرى بعد ذلك . تمكنت مابيليا والفتاة الدَّانماركية من إقناع أوريانا بكتابة رسالةٍ لأماديس تطلب فيها أنْ يعفو عنها، وأنْ يخرج للبحث عنها فى قلعة ميرافلوريس، حيث الخطأ الذى ارتكب . خرجت الفتاة الدَّانماركية بصحبة أخيها المدعو إينيل بحثًا عن أماديس حتى يسلِّماه الرِّسالة .

الفصلُ الخمسون

توجَّه السَّيد جيلان الكويدادور إلى بلاط الملك ليسوارتي حاملاً أسلحة ودرع أماديس التي عثر عليها عند نبع فوينتي دي لابيجا . في طريقه إلى هناك نازل فارسين ابنين لأحد إخوة أركالاوس فهزمهما . وبعد ذلك هزم جندالود ابن الخائن بارسينان، وأمر ابن عمه بأنْ يطلق سراح الذين سجنهم جندالود، وأنْ يحمل فرسانه ليمثلوا أمام ليسوارتي . وأخيرا وصل السَّيد جيلان إلى البلاط وأذاع كلَّ ما لديه من أخبارٍ عن أماديس . حزن الجميع لما حدث، وخاصةً أوريانا، والتي اعتزلت في حجرتها تندب حظها . وصل لانداسين مع جندالود وجنوده، وهنا أمر الملك بإحراق ابن بارسينان .

الفصلُ الحادى والخمسون

فى هذا الفصل نروى كيف أنّه حين كان بيلتينبروس بالصّخرة الفقيرة وصلت إلى هناك فى إحدى السُّفن فتاةٌ تدعى كورسياندا تبحث عن محبوبها فلوريستان، فضلاً عن كلّ ما حدث هناك وما جرى فى بلاط الملك ليسوارتى .

حين وصل بيلتينبروس إلى الصّخرة الفقيرة - كما روينا لكم - أجلسه النّاسك على مقربةٍ منه فوق مصطبةٍ كائنةٍ بباب دار العبادة، ثم قال :

- بنيَّ، أرجوك أنْ تخبرنى ما الذى جعلك تصرخ كل هذا الصُّراخ حينما كنت نائمًا تحلم وقت أنْ كنَّا فى لافونيتي دى لابيجا (نافورة المرج)

- سأقصُّه عليك، أيها الرَّجلُ الطيِّبُ، عن طيب خاطرٍ منِّى، وأرجو بحقِّ الله أنْ تقول لى رأيك فيه، سواء رضيت به أم لم أرض.

وهنا قصَّ عليه رؤياه - كما سمعتم - غير أنَّه لم يصرح له باسم الفتيات . وحين سمع الرَّجلُ الصَّالحُ ما قصَّه عليه ظلَّ يفكِّر حينًا ونظر إليه مبتسمًا ومبتهج الأسارير، ثم قال :

- بيلتينبروس، أيُّها الابنُ الصَّالح، لقد أسعدتنى كثيرًا وأمتعتنى بما قلته لى، وعليك أنْ تكون كذلك، فلك الحق كله أنْ تسعد وتستمتع، وأريدك أنْ تعلم كيف أفهم عنك ما قلت، اعلم أنَّ تلك الغرفة المظلمة التى رأيتها وما عرفت إلى الخروج منها سبيلاً تعنى هذا الكرب التى أنت فيه الآن، وأنَّ كلَّ الفتيات

اللائى كنَّ يفتحن الباب، من هيَّ لكما، يتكلَّمن مع تلك التى أنت متيمٌ بحبِّها وسيسرن فى هذا الطَّريق، وسيخلصك من هنا ومن هذا الكرب الذى أنت فيه، وأمَّا شعاع الشَّمس الذى كان يتهادى أمامهن فهو عبارة عن رسالةٍ سيرسلن بها إليك تحمل بشارات الفرح والسَّعادة التى ستخرجك من هنا، وأمَّا تلك النِّيران التى رأيتها تحيط بمحبوبتك فهى عبارة عن الحزن العميق الذى تعانيه فى حبِّك، كما الحال معك تمامًا . ومن بين تلك النِّيران، التى تعنى الحبَّ، ستخرجها أنت بنفسك، ولســوف يذهب عنها ذلك الحزن حتى تراك، وأمَّا ذلك البستان الجميل الذى حملتها إليه، فهذا يعنى الفرحة الغامرة التى ستحسُّ بها عند رؤيتك. ورغم أنَّنى أعلم أنَّ وضعى الدِّينى لا يسمح لى بالكلام فى مثل هذه الأمور، فإنَّنى أرى أنَّ خدمة الرَّبِّ تتحقَّق أكثر بأنْ أقول لك الحقيقة. التى تكون فيها سلواك، فسكوتى يعنى أن تتعرض حياتك لخطر الموت بعد كلِّ هذا اليأس .

وهنا خرَّ بيلتينبروس راكعًا أمام الــرَّجل الصَّالح وقبَّل يديه، شاكرا ربَّه الذى وهبه فى مثل هذه الظُّروف الحزينة الكئيبة رجلاً كهذا يعرف كيف يسدى إليه النَّصيحة، ودعا ربَّه والدُّموع تنهمر من عينيه، أن يجعل من كلمات هذا الرَّجل الصَّالح حقيقةً، فهو عبده . وحينئذٍ توسَّل إلى الرُّجل الصَّالح أنْ يعبر له الرُّؤيا التى رآها قبل أنْ يأتى إليه دورين برسالة سيدته، حين كان فى الجزيرة اليابسة . قال الرَّجلُ الصَّالحُ :

هذا أمرٌ هين الشَّرح، فقد مررت بهذا كله، أقول لك: إنَّ تلك الرَّبوة العالية المغطَّاة بالأشجار التى رأيت نفسك فيها، وأولئك البشر الذين رأيتهم يقيمون الأفراح من حولك، أنما هى عبارة عن الجزيرة اليابسة التى حزتها، حيث جعلت النَّاس فيها يسعدون ويمرحون. وأمَّا الرَّجلُ الذى أتاك يحمل الدَّواء المرَّ فهو رسولُ سيدتك الذى قدَّم إليك الرِّسالة، حيث ذقت أنت أكثر من أىِّ شخصٍ آخر مرارة ما اشتملت عليه، وهذا أنت تعرفه. وأمَّا الحزن الذى خيَّم على وجوه أولئك النَّفر الذين رأيتهم فى منامك

فهم أهلُ الجزيرة أنفسهم، المغمومون والمكربون لما أنت فيه. وأمَّا الملابس التى رأيتك تخلعها عنك فهى الأسلحة التى تركتها. وأما ذلك المكان الحجرى الذى تواريت فيه وسط لجَّةٍ من المياه، فهو هذه الصَّخرة التى أنت على ظهرها الآن. وأمَّا الناسك الذى رأيته يتحدَّث إليك بكلماتٍ لا تفهمها فهو أنا، فقد قلت لك كلمات الله، التى لم تكن تعلمها من قبل ولا تفكِّر فيها .

– حقا – قال بيلتينبروس – إنَّ ما قلته لى عن هذه الرُّؤيا هو عين الحقيقة فهذا هو ما حدث لى تماماً .

ورغم ذلك فما كان مؤكَّدًا أنْ يزول عنه ذلك الكرب الذى أحاط به من جرَّاء يأسه من حبٍّ محبوبته أوريانا، وظلَّ يطرق برأسه كثيرا إلى الأرض، متذكِّرا تلك الأوقات السَّعيدة والممتعة التى قضاها إلى جوارها، والتى قد انقلبت إلى النَّقيض تماما فى الوقت الراهن، مما جعله فى وضعٍ عصيبٍ من الصَّعب أنْ يتحمَّله، ولولا نصائح ذلك الرَّجل الصَّالح، لتعرَّضت حياته لخطرٍ عظيمٍ، فقد بذل جهداً خارقًا، من أجل أنْ يبعده عن ذلك الجو الكئيب والأفكار السَّيئة، حيث عهد به إلى اثنين من أبناء أخيه، كانا معه فى الصَّخرة، كى يذهبوا فى رحلة صيدٍ إلى الضَّفة القريبة، ويعودون بعدها بالأسماك الوفيرة .

هكــذا – كما تسمعون – أصبح أماديس يكفرُ عن فعلته والألم يعتصره والأفكار تلاحقه من كــلِّ صوبٍ وفى كلِّ وقتٍ، معتقداً بأنَّه إذا لم تنزل رحمة الله به، ويصلح ما بيــنه وبيــن محبوبته، فسيكون الموت إليه أقرب من الحياة، وأخذ يذهب كل ليلة ليستريح تحــت مجمــوعةٍ كثيفــةٍ من الأشــجــار التى كانت بأحد البساتين القريبة من دار العبادة، لكى يعبر عن آلامه ويبكى دون أنْ يشعر به الناسك أو نجلا شقيقه . وحين بدأ يتذكَّر الأشياء التى فعلها من أجل خدمتها، وما نال منها دون سبب أو أحقية لهذا غير سوء العاقبة، نظم هذه الأغنية والغيظ يتملَّكه، فكان مطلعها :

إذ مـــــا منعت النَّصـــــر

حيث كان من الانصاف تحقيقه حقى حيازته

فـــهناك حـــيث يمـــوت المجـــد

فـــالمجـــد هو أنْ تموت الحـــيـــاة .

ويمـــــوتـــــى هـــــذا

ســتـــمـــوت كلُّ مـــتـــاعـــبى،

أمـــلـــى، وعـــنـــادى،

الحبُّ خـــدعـــة،

لكن ســيظلُّ فى ذاكـــراتى

حـــزنٌ لا يـفـــارقـنى

فلكى يقـــتلوا مـــجـــدى

قـــتلوا مـــجـــدى وحـــيـــاتى .

وبعد أن تلفَّظ بهذه الأغنية التي سمعتم، وحين كان ذات ليلة أسفل تلك الأشجار كما هى العادة، يبدى آلامه، ويبكي بكاءً شديداً، وبعد أنْ مضى من الليل معظمه حدث له أنْ سمع عزف أدواتٍ على مقربةٍ منه تخرج ألحانًا شديدة العذوبة، وقد أبدى إعجابًا كبيرًا لسماعها، وتعجب لذلك، فقد كان يعتقد أنَّه ليس بهذا المكان من يصحبه سوى النَّاسك وابنى أخيه، فنهض من مكانه، وخرج متخفيا ليرى ماذا يجرى هناك، فرأى فتاتين على مقربةٍ من عين ماء تحملان الأدوات الموسيقية فى أيديهما فاستمع لعزفهما، بكلِّ سرورٍ وبهجةٍ، وبعد مدةٍ من استماعه لهما توجَّه إليها بالكلام قائلاً :

وقد دهشتا من جمال ذلك الرَّجل، وقالتا له :

- أيُّها الصَّديق، أخبرنا أيَّ مكانٍ هذا الذى نزلنا به؟ ومن أنت يا من تكلَّمنا ؟!

- سيدتى - قال - هذا المكان يُدعى صخرة النَّاسك، وقد جئت إليه حتى أكفِّر عن ذنوبى الكبيرة وخطاياى العظيمة .

وهنا قالتا له :

- أيُّها الصديق، أهناك منزلٌ يمكننا العثور عليه كى تستريح فيه سيدة تتوجَّع أنت معنا، امرأة ذات مكانةٍ رفيعةٍ وفى غاية الثَّراء، تهيم فى الطُّرقات وقد أضرَّ بها وأوجعها الغرام، حتى تستريح يومين أو ثلاثة ؟

وحين سمع بيلتنبروس هذا قال :

- هنا يوجد بيتٌ صغيرٌ أنام فيه، وإذا ما أعطاكن العابد إياه، فسأنام أنا فى الخلاء، كما أفعل فى ليالٍ عديدةٍ، لكى أسعدكن .

شكرته الفتاتان كثيرًا على ما قاله، وشكرتا له هذا الفضل أيما شكر . وبينما هم يتكلَّمون فى هذا الأمر أقبل الفجر، رأى بيلتينبروس أسفل مجموعة أخرى من الأشجار، على سرير وثير وثرى، السَّيدة التى تحدَّثتا إليه عنها وأربعة فرسان مدجَّجين بالسِّلاح كانوا فى انتظارها وحراستها بجوار شاطئ البحر وقد ناموا، وهناك خمسة رجالٍ يجلسون على مقربة منهم لا يحملون سلاحا . ورأى سفينة فى عرض البحر وعليها المؤن اللازمة وقد رست فى مكانٍ آمن. بدت له السَّيدة فى غاية الشباب والجمال، فتلذذ بالنَّظر إليها، وهنا ذهب إلى النَّاسك الذى كان يرتدى ثيابه كى يؤدى صلواته، وقال له :

- أيُّها الأب، حضر إلينا أناسٌ غرباء، يحسن بك أن تهتم بأمرهم عقب الصَّلاة .

- سأفعل ما تقول - قال الرَّجلُ الصَّالحُ .

وحينئذ وبعد أنْ انتهيا من الصَّلاة ذهبا إليهم، فأراه بيلتينبروس السَّفينة، وشاهدا كيف أنَّ الفرسان والرِّجال الذين كانوا معهم قد تعهدوا السَّيدة التى كانت

تتألَّم كثيراً وحملوها إلى حيث هم، ومعها فتياتها، وسألوا النَّاسك عمَّا إذا كان لديه بيتٌ يضعونها فيه، فقال :

– هناك بيتان، أسكن أنا في أحدهما وأودُّ ألاَّ تدخل إليه امرأةٌ أبدا، وفي البيت الآخر يعيش هذا الرَّجل الطَّيِّبُ المسكين، الذي أتى إلى هنا ليكفِّر عن سيئاته، وليس بمقدوري أنْ أنزعه منه غصباً عنه .

هنا قال بيلتينبروس :

– أيُّها الأب، يحسن بك أنْ تعطيه لهم، وأنا سأنام تحت هذه الأشجار، كما دأبت على ذلك ليالٍ طوال .

وعلى أساس هذا الاتفاق دخلوا جميعًا إلى الكنيسة لأداء الصَّلاة وأمَّا بيلتينبروس، الذي أخذ ينظر إلى الفتيات والفرسان فقد تذكَّر حاله وحال سيدته والحياة الفائتة، فبدأ يبكي هكذا من كلِّ قلبه، فاعتقدوا أنَّه إنسانٌ يحيا حياةً طيبة، وبعد تعجبهم لسنِّه هذا وجماله تساءلوا كيف أتى بنفسه إلى هذا المكان ليتوب عن ذنب مهما كان الذَّنب عظيماً، في حين يعلم الجميع أنَّ رحمة الله وعفوه يلازمان الإنسان في كلِّ مكان حين يُظهر التَّوبة الخالصة النَّصوح. وبعد أنْ انتهت الصَّلوات، حملوا السَّيدة إلى الغرفة ووضعوها على فراشٍ في غاية الثَّراء أعدُّوه لها، وبدأت تبكي وتفرك يدها تعبيراً عن الحزن والغيظ اللذين تملَّكاها .

ولما أن رآها بيلتينبروس في هذه الحال سأل الفتاتين – اللتين قد أخذتا أدواتهما الموسيقية ليعزفا عليها حتى يخرجاها من الحزن الذي بلغها – عن سبب كلِّ هذا الحزن الذي تظهره السَّيدة قالتا له :

– أيُّها الصَّديق، هذه السَّيدة في غاية الثَّراء، وتنتمي إلى أصلٍ عريقٍ، وتتمتَّع بجمالٍ خارق، رغم أنَّ الحزن قد أزال عنها ما تتمتَّع به، وهذا الذي أصابها لم نقله لأحدٍ، ولكننا سنقصَّه عليك أنت، وعليك أنْ تحفظ هذا السِّرَّ . اعلم أنَّها تتعذب من جراء حب أصابها، وخرجت بحثًا عن ذلك الذي أحبته في بيت الملك

ليسوارتي، ولعل الله يهيئ لها فرصة العثور عليه هناك حتى يخفف عنها هذا العناء الذي هي فيه .

وحين سمع هذا الكلام عن بيت الملك ليسوارتي وأنَّ السَّيدة على وشك الموت حبا كما هو الحال بالنِّسبة له تماماً، اغرورقت عيناه بالدُّموع، وقال لهما:

- أرجوكما أنْ تخبراني باسم ذلك الرَّجل الذي تحبه .

- هذا الفارس - قالتا- الذي نحدثك عنه ليس من هذه الدِّيار، وهو واحد من أفضل فرسان الدُّنيا، باستثناء اثنين فقط، اللذين من ذوي المكانة المرموقة في عالم الفروسية .

- الآن أرجوكما - قال - بحقِّ الله الذي به تؤمنان، أن تخبراني باسم هذا الفارس والاثنين الآخرين اللذين تتحدَّثان عنهما .

- سنخبرك بما تريد شريطة أنْ تخبرنا باسمك، وما إذا كنت فارساً كما تدل على ذلك قسمات وجهك .

- سأفعل ذلك - قال - بعد أنْ تخبراني بما سألتكما عنه .

- باسم الله - قالتا- اعلم الآن أنَّ الفارس الذي تحبه السَّيدة يدعى فلوريستان، شقيق الفارس الطَّيِّب أماديس دي جاولا والسُّيد جالاؤر، وابن الملك بيريون دي جاولا وكونتيسة سيلانديا .

- الحمد لله ! الآن علمت أنَّ ما تقولانه عنه هو عين الحقيقة، ولن تمتدحاه بأكثر ممَّا هو فيه .

- كيف ! - قالتا- أتعرفه ؟

- رأيته منذ وقت غير بعيدٍ - قال - في منزل بريولانخا، وشاهدت المعركة التي خاضها أماديس ووصيفه أجراخيس ضدَّ أبيسيؤس وابنيه، وحضرت النِّهاية التي وصلوا إليها حتى أتى فلوريستان، ويبدو أنَّه رجلٌ بكلِّ معاني الكلمة،

وسمعت كثيراً عن مهارة السَّيد جالاوْر فى النِّزال، شقيقه الذى كان يرافقه فى النِّزال كما روى لى .

– بسبب هذه المعركة التى خاضاها سويا – قالت الفتاتان– رحل عن هناك فلوريستان فقد تعرَّف كل منهما على أخيه هناك .

– كيف – قال – أهذه هى السَّيدة صاحبة الجزيرة التى شهدت معركتهما ؟

– نعم هى – قالتا .

– أعتقد – قال هو – أنَّها تدعى كوريساندا .

– هذا هو – قالتا .

– الآن لا عليها أنْ تغتمَّ كثيراً – قال هو– فأنا أعرف أنَّه إنسانٌ بكلِّ معنى الكلمة وجيد الطباع، فسوف يفعل كلَّ ما تأمره به .

– إذنْ فلتقل لنا الآن – قالتا – من أنت .

– صديقتاى – قال – أنا فارسٌ، وقد كان من الأفضل لى أنْ أفرَّ فى هذه اللحظات من أمور الدُّنيا التَّافهة، وهذا ما أفعله. وأنا أدعى بيلتينبروس.

– الحمد لله ! – قالتا – نتركك الآن فى رحاب ربِّك، ونذهب نحن لنسرى عن سيدتنا بهذه الآلات .

هذا ما فعلتاه، وما إنْ دخلتا إلى حيث كانت تستريح وعزفتا لها لمدة مقطوعةً موسيقيةً مدة، حتى أخبرتاها بكل ما سمعتاه من بيلتينبروس عن فلوريستان .

– آه ! – قالت – ائتونى به الآن، فلابد أنه إنسان طيب وذو أصل عريق، بما أنه قد رأى السَّيد فلوريستان .

– آه ائتونى به الآن، فلابد أن يكون إنسانًا طيِّبًا وذا أصلٍ عريقٍ، بمَّا أنَّه قد رأى السَّيد فلوريستان ويعرفه .

ذهبت إحدى الفتاتين وأحضرته معها، فقالت له السَّيدة :

- هاتان الفتاتان أخبرتاني الآن أنَّك رأيت السَّيد فلوريستان وأنَّك تحبه، أتوسَّل إليك بالله الذى تدين به أنْ تقول لي كلَّ ما تعرفه عن فلوريستان .

بدأ يحكي لها كلُّ ما قصَّه على الفتاتين، وأنَّه يدرى بأنَّه وأخاه ووصيفه أجراخيس قد ذهبوا إلى الجزيرة اليابسة، وأنه ما رآه بعد ذلك قط .

- الآن قل لي - قالت كوريساندا - إنْ شئت، إذا ما كنت تلتقي معه في نسبٍ ما، إذ يبدو لي أنَّك تحبُّه .

- سيدتي - قال - أنا أحبُّه كثيرًا لشجاعته ولأنَّ والده هو الذى باركني فارسًا، وهذا ما جعلني التزم بالتزام أدبي نحوه ونحو أبنائه كذلك. وأنا حزين جدا لسماع أخبار عن أماديس قبل أنْ آتي إلى هنا .

- وما هي هذه الأخبار ؟ - قالت .

- وأنا في طريقي إلى هذا المكان رأيت فتاةً - قال - في غابة على مقربة من الطريق الذي كنت أسلكها وكانت تدندن بأغنيةٍ لذيذةٍ للغايةٍ لها وقعٌ حسنٌ على الآذان .

من ذا الذي كتبها .

فقلت لها : - من الذي كتبها؟

- كتبها - قالت - فارس أتمنَّى من الله أنْ يهبه فرحةً تفوق تلك التي كان يشعر بها حين ألَّفها؛ إذ من خلال كلماتها يبدو أنه لاقى بلية كبرى من جرَّاء حبِّه فهو يبوح فيها بما لديه من شكوى .

وقضيت مع الفتاة يومين، حتى تعلَّمت الأغنية، وقالت لي إنَّ أماديس قد بدا لها باكيًا وحزينًا .

- أرجوك - قالت السَّيدة- أن تُعلِّم هذه الأغنية لفتياتي، حتى تقوم هاتان الفتاتان بعزفها وغنائها على هذه الآلات .

- هذا ممَّا يسرُّني - قال - فسوف أفعل ما تطلبين من أجل حبك. ومن أجل ذلك الذى تحبينه كثيرًا، ورغم أنَّني لست في ظروفٍ تؤهلني للغناء أو عمل أيِّ شيءٍ مفرحٍ أو ممتعٍ .

وهنا ذهب مع الفتاتين إلى دار العبادة وعلَّمهما الأغنية، فقد كان ذا صوت أجش وغريب وزادها حزنه الكبير عذوبة واستيعابًا، تعلمتها الفتاتان بصورةٍ جيدةٍ وقامتا بتأديتها أمام سيدتهما، فاستمتعت لسماعها .

ظلَّت كوريساندا هناك أربعة أيَّام، وفي اليوم الخامس ودَّعت كلا من النَّاسك وبيلتينبروس، وسألته ما إذا كان سيبقى هناك لمدةٍ طويلةٍ .

- سيدتي - قال - سأبقى حتَّى الموت .

وهنا استقلوا سفينة وتوجَّهوا إلى لندن، حيث يوجد الملك ليسوارتي، وحيث كان ينتظر هناك، أكثر من أيِّ مكانٍ آخر، سماع أخبار عن السَّيد فلوريستان . رحَّب بها الملك والملكة وكلُّ الحاضرين بعد أنْ نما إلى علمهم أنها من أسرةٍ عريقةٍ، واستضافوها داخل القصر. سألتها الملكة عن سبب مجيئها، وأنَّها على استعدادٍ لمساعدتها عند الملك إذا ما كانت قد أتت إليه تطلب منه حاجةً .

- سيدتي - قالت كوريساندا - أشكر لك هذا الكرم، لكنني جئت أطلب السَّيد فلوريستان، وبما أنَّ الأخبار من كل جانب تأتي إلى قصره هذا، فقد أردت أنْ أبقى هنا بضعة أيَّامٍ حتَّى أعرف عنه شيئًا .

قالت لها الملكة :

- سيدتي الصَّديقة، هذا من حقك أنْ تفعليه وفق مشيئتك. ولكن حتى الآن لا يعرف عنه شيءٌ سوى أنَّه قد خرج بحثًا عن أماديس شقيقه، والذي لا يعرف حتى الآن سبب خروجه وضياعه بهذا الشَّكل. ثم حكت لها كيف أنَّ السَّيد جيلان قد أحضر إليهم الأسلحة الخاصة به وأنه ما بمقدوره أنْ يعرف عنه شيئًا . وما إن سمعت كوريساندا هذا الكلام، حتى انخرطت في البكاء وقالت :

- آه ربَّاه، ماذا عساه أنْ يحدث لصديقي وسيدي السَّيد فلوريستان، الذي حسبما أخبرني يحبُّ أخاه حبًا جما، وإذا لم يعثر عليه فلن يعود هو الآخر، ولن أراه بعد ذلك أبدًا !

أخذت الملكة تواسيها وقبّلتها لما أخبرتها به من أنباءٍ، وأمّا أوريانا – التى كانت تقف بجوار والدتها تستمع إلى دوافع السّيدة فى حبّها للسّيد فلوريستان شقيق أماديس – فقد انتابتها رغبةٌ فى تشريفها واصطحابها، فحملتها إلى مكان إقامتها، حيث عرفت منها حكايتها عن آخرها . وبينما كانت تتحدّث معها فى أشياءٍ كثيرة، بدأت كوريساندا تحكى لهما – لأوريانا ومابيليا – كيف أمضت أيامًا فى الصّخرة الفقيرة، ورأت فارسًا يكفّر عن سيئاته، وأنّه قد علم فتياتها أغنية كتبها أماديس فى أيّام الحزن الكبير الذى غلّف حياته، وأكيد أنه هو حسب كلمات الأغنية. قالت لها مابيليا :

– صديقتى الطّيّبة وسيدتى، أرجوك أنْ تأمرى فتاتيك بأنْ يغنياها، فكم سأستمتع بالاستماع إليها، الآن ذلك الفارس هو الذى كتبها وهو ينتسب لسيدى فلوريستان بروابط وأواصر متينة .

هنا أقبلت الفتاتان وأخذتا تغنّيان الأغنية بأدواتهما فى لحنٍ أغن، وقد خيّمت السّعادة على المكان لسماعها، حيث أنها قد صيغت بكلّ ملاحةٍ وظرفٍ، ومن يفهم معناها يتألم كثيراً. أخذت أوريانا تدقق فى معنى الكلمات، فرأت، أنّه بسبب ما ارتكب فى حقه من خطأ كان لزامًا عليه أن يتألم ويئن بالشّكوى، وأصابت الشّكوى قلبها فما عادت تقوى على البقاء فى مكانها، فذهبت إلى غرفتها وسط دموع الخزى التى اغرورقت بها عيناها، فقالت مابيليا لكوريساندا :

– صديقتى، هأنت ترين مدى الألم الذى يعتصر أوريانا، وسأكون فى خدمتك ورعايتك مرّةً أخرى فيما تحتاجين إلى فيه، أودُّ الآن الذّهاب إليها حتى أواسيها، وأرجوك أنْ تخبرينى من يكونُ هذا الرّجل الذى يسكن الصّخرة الفقيرة، والذى علّم فتاتيك الأغنية، وإذا ما كان يعرف أيّة أخبار عن أماديس .

قصّت عليها كيف تعرّفت عليه وكل ما قاله لها، وأنّها ما رأت قط رجلاً يعتصر ألمًا ويبدو هزيلاً مثله – رغم ما عليه من جمال ورشاقةٍ – فى تلك الحالة البائسة التى هو عليها، وما رأت قط رجلاً بكلّ هذه الفتوة وكل هذا الذّكاء . ظنّت مابيليا فيما بعد أنّه بالإمكان أن يكون أماديس، إذ باختفائه فى مثل هذا المكان البعيد والبسيط أمكنه أنْ

يهرب من أعين كلِّ من يبحث عنه، ثم ذهبت إلى أوريانا، التي كانت بغرفتها غارقةً في التَّفكير وتبكي بكاء مرا فاقبلت عليها باسمةً مبتهجةً، ثم قالت لها :

– سيدتي، اعلمي أنَّه، وفقًا لما أمكنني استنتاجه من كلمات من كوريساندا، فإنَّ ذلك الفارس المتألِّم الذي يُدعى بيلتينبروس والمقيم بالصَّخرة الفقيرة، من الممكن أنْ يكون أماديس، حيث رحل إلى هناك بعيداً عن كلِّ من يبحث عنه، وأراد أن يفي لك بما أمرته به بألاَّ يظهر أمامك أو أمام أحدٍ غيرك. وعليه فلتفرحي، وليكن لك في هذا عزاءٌ. فقلبي يخبرني أنَّه هو بلا شكٍ .

رفعت أوريانا كفَّيها، وقالت :

– آه، يا ربَّ العالمين ! اجعل هذا الأمر حقيقةً، وأنت صديقتي الحبيبة، ما هي نصيحتك لي؟ فأنا في هذه الحالة لا عقل لي ولا أقوى على التَّفكير، وبالله ! فأنا أشعر بألم كمن هي بائسة وتعيسة الحظ التي فقدت بجنونها وغضبها الثَّائر كلَّ متعها وطيباتها .

تألَّت مابيليا لحالها كثيراً حتى اغرورقت عيناها بالدَّمع، وأشاحت بوجهها عنها حتى لا تراها تبكي، وقالت لها :

– سيدتي، نصيحتي لك أنْ تنتظري حتَّى تعود فتاتك، وإذا لم تكن قد عثرت عليه فاتركي الأمر لي، فلديَّ الطَّريقة التي سنعرف بها أين هو، فما زلت أقلب الأمور جميعًا في رأسي، والتي ترجح أنْ يكون هذا المدعو بيلتينبروس هو أماديس .

الفصل الثّانى والخمسون

كيف خرجت الفتاة الدّانماركية بحثًا عن أماديس، وبالصُّدفة بعد طول عناءٍ، وصلت إلى الصّخرة الفقيرة حيث كان يوجد أماديس، الذى يدعى بيلتينبروس وكيف تقابل مرّةً أخرى مع أوريانا

ظلّت الفتاة الدّانماركية إلى جوار ملكة اسكتلندا عشرة أيام، وما أقبلت على الرّحيل طواعية لا لأنّ البحر لم يعد يعجبها، ولكن لأنّها لم تستطع الحصول على أخبار عن أماديس فى تلك الدّيار، حيث أتت إلى هنا وكلّها أملٌ فى الحصول على شىءٍ يدلُّ عليه، وقد ظنّت بأن موت سيدتها سيكون مرهونًا بما ستبلغها به من أخبار. ودعت الملكة، وحملت معها الهدايا التى حملتها إيّاها لكل من الملكة بريسينا وأوريانا ابنتها، وعادت إلى البحر لكى ترجع إلى حيث أتت حاملةً أنباء لا تسرُّ، وهى لا تدرى ماذا تفعل، غير أنّ الله ربّ العالمين الذى لا يعلم حقيقته أولئك الذين يفقدون الأمل والوسيلة، ويريد أنْ يبرهن لهم عن قدرته، حتى يبين لهم جميعًا أنّه ما من أحدٍ منهم، مهما أوتى من حكمةٍ وعلمٍ، يستغنى عن عون الله وتوفيقه، فغيرٌ وجهة سفرها، وسط خوفٍ ومحنةٍ أصابتها وأصابت كلّ من بالسّفينة، حتى ساق إليهم تلك النّهاية السّعيدة والمبهجة التى كانت تبحث عنها. وقد حدث هذا حين غضب البحر، وهبّت عاصفةٌ لم يعرفوا لها مثيلاً، وهكذا كانت السّفينة تسير فى البحر دون دفة أو توازن، واضطرب أمر البحارة تماماً، فما عادوا يأمنون على حياتهم. وفى النّهاية بلغوا ذات صباح، حين طلع الفجر، الصّخرة الفقيرة، التى كان بها بيلتينبروس، والتى تعرّف عليها فيما بعد البحارة ومن بالسّفينة، إذ يعرف بعضهم ذلك الرّجل العابد الذى

يُدعى أندالود، حيث قضى حياته داخل دار العبادة هناك . وقد حكوا ذلك للفتاة الدَّانماركية، والتي بعد أنْ نجت من ذلك الخطر، وعادت من الموت إلى الحياة أمرت بأن يأخذوها هناك حيث الصَّخرة، حتى تتمكَّن من حضور بعض الصلَّوات التي عن طريقها تؤدي الشُّكر للعذراء مريم وللرَّبِّ الذي نجاها من اليم .

وفي تلك الأثناء كان بيلتينبروس عند نبع الماء تحت الأشجار كما تعلمون، حيث أمضى ليلته هناك، وقد تدهورت صحته تماماً، فما كان يحلم بالبقاء على قيد الحياة أكثر من خمسة عشر يوماً. ونظر لبكائه المتواصل وهزاله الكبير، بدا وجهه عظماً بلا لحم وأسود اللون، هذا فضلاً عمَّا فعل به الوجد والألم، حتى لم يعد في مقدور أحد التَّعرف عليه، ظلَّ ينظر مدَّةً إلى السَّفينة . وشاهد الفتاة وحاملي السِّلاح يصعدون إلى الصَّخرة، وبما أنَّ فكره لم يكن مشغولاً بشيءٍ آخر، سوى بطلب الموت، فإنَّ كلَّ الأشياء التي كان قد تابعها بكل متعةٍ، هي رؤيته لأناسٍ غرباء، حتى يتعرَّف عليهم وتكون في ذلك سلواه ممَّا هو فيه، غير أنه بات يبغضها هي وغيرها من الأشياء، ثم انصرف متوجِّهًا إلى كنيسة النَّاسك، فوجده هناك، وقال له :

– هناك أناسٌ أتوا إلى الصَّخرة عن طريق البحر، وهم الآن في طريقهم إليك .

وخرَّ راكعًا أمام مذبح الكنيسة يصلِّي، راجيًا ربَّه أنْ يرحم روحه، فسوف يلقاه عن قريبٍ. ارتدى الناسك ملابسه ليؤدي صلواته، ودخلت الفتاة وبرفقتها دورين وإينيل عبر الباب، وبعد أنْ انتهت من صلاتها نزعوا عن وجوههم الأقنعة التي كانت عليها .

وهنا، وبعد مدَّةٍ وجيزةٍ نهض من مكانه، وأدار وجهه نحوهم، ونظر إليهم فعرف الفتاة ودورين. اضطرب اضطرابًا كبيراً، فما استطاع أنْ يقف على قدميه، وسقط على الأرض كمن فارق الحياة . وحين شاهد العابد هذا المنظر ظنَّ أنَّه في النزع الأخير من حياته، فقال :

– آه، أيُّها الرَّبُّ القدير ! لم لم تتجلَّ برحمتك على هذا العبد الذي كان بمقدوره أنْ يصبح في خدمتك ؟

وهنا انهمرت دموعه تنساب فوق لحيته الشَّهباء، وقال :

- أيَّتُها الفتاة الطَّيِّبة، مُرى هؤلاء الرِّجال أنْ يأتوا معي لنحمل هذا الرَّجل إلى غرفته، ففي رأيي أنَّ هذا هو المعروف الأخير الذى يمكن أنْ نقدِّمه له .

وهنا حمله إينيل ودورين برفقة النَّاسك إلى البيت الذى كان يقطنه، ووضعوه فى سرير بائسٍ، وما عرفه أحدٌ منهم على الإطلاق . وحين سمعت الفتاة مراسم الصلوات وأرادات أنْ تتناول طعامها على اليابسة، حيث لازمها الضِّيق والقلق طوال المدة التى قضتها فى مياه البحر، سألت الرَّجل الصَّالح عن ماهية ذلك الرَّجل الذى بدا عليه الألم والحزن . قال لها النَّاسك .

- إنَّه فارسٌ أتى هنا يعلن توبته .

- لابد أنَّه غرق فى عالم الخطيئة - قالت - لكونه يحضر إلى مثل هذا المكان القفر ليتوب .

- هذا هو ما تقولينه - قال النَّاسك - هذا فضلا عن أنَّه أتى ليتوب عن أشياء دنيوية فانيةٍ لا حبًا فى الله وخدمة للرَّب .

- أود أنْ أراه - قالت الفتاة - فأنت تقول إنَّه فارسٌ، وسأترك له من بين الأشياء التى أحضرها معى بالسَّفينة شيئًا تكون فيه سلواه .

- افعلى ما شئت - قال الرَّجل الصَّالح - لكنَّنى أرى أنَّ الموت الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى منه سيحول بينك وبين ما تريدين .

دخلت الفتاة وحيدةً إلى الغرفة التى كان بها بيلتينبروس، الذى ظلَّ غارقًا فى التَّفكير لا يدرى ماذا يفعل، فإذا ما عرَّف بنفسه أمام هذا الفتاة فسيكون بذلك قد تجاوز ما أمرته به سيدته، وإذا ما تخلَّى عن ذلك فإذا ما ذهبت هذه الفتاة، التى هى سلواه الوحيدة والمنقذة لحياته، فى هذا المكان، فلن يبقى له أملٌ على الإطلاق . وفى النِّهاية رأى أنَّه من الأفضل له أنْ يظلَّ مجهولاً أمامها على أنْ ينقض عهده مع سيدته بشكلٍ من الأشكال . وما إن بلغت الفتاة سريره حتَّى قالت :

– أيُّهـا الرَّجلُ الَّطيِّبُ، لقـد علمت من الرَّجل الصَّـالح بـأنَّك فـارسٌ، ولأنَّنا نحن الفـتيـات نرى أنفسنا دائمًا في التزام أدبى تجـاه كلِّ فارس، نظرًا لما يلاقيـه الفرسـان من مخـاطر في الدِّفاع عنَّا، فقد رأيت أنْ أراك وأترك لك هنا مئونة السَّفينة، وستجد فيها كلَّ ما يلزم للحفاظ على صحتك .

لم يرد عليها بكلمةٍ تذكر، لقد بقى قبل دخولها عليه في همسٍ وأنينٍ، حتَّى ظنَّت الفتاة أنَّ روحه تنسلخ من جسده، فأشفقت عليه. ولمَّا لم يدخل إلى الغرفة سوى قليل من الضوء، فقد تحت كوةً كانت مغلقةً، وعادت إلى السَّرير لترى ما إذا كان قد فارق الحيـاة، وبدأت تنظر إليـه، وهو ينظر إليـهـا، ومـازال يغصُّ بالبكاء، وظلَّ الحـال هكذا برهةً، ولم تستطع الفتـاة أن تتعرف عليه، لأن فكرها كان مشغولاً دائمًا بالعثور على ذلك الرَّجل الذى تبـحث عنه، ولكن رأت في وجـهـه أثر الضـربة التي صـوَّبـهـا إليـه أركالاوس بنصل الرُّمح حين نزع من بين أنيابه محبوبته أوريانا التى اختطفها – كما روينا ذلك لكم في الكتـاب الأوَّل – فتذكرت شيئًا لا يـحتمل أىَّ شكٍ، إنَّ هذا الرَّجل هو أماديس، وقالت :

– آه، أيَّتهـا العذراء ! مـا هذا الـذى أرى ؟ سـيدى، إنَّك أنت ذلك الذى خـرجت بحثًا عنه ! وخرت على وجهها فوق السَّرير، وجثت على ركبتيها وقبَّلت يديه عدَّة مرَّات، ثمَّ قالت :

– يا سيدى، لابد لك من أنْ تعفو وتغفر لتلك التى أخطأت بحقك، فإذا ما كانت قد وضـعتك في هذا المأزق بما نزل بهـا من شك شـيئ، فـإنَّهـا الآن تعـانى حـياةً قاسيةً أشدَّ عليها من الموت ذاته !

وهنا احتضنها بيلتينبروس بين ذراعيه، وضمَّها إليه دون أنْ ينبس بكلمةٍ واحدةٍ . أعطته الرِّسالة، وقالت له :

– هذه الرِّسـالة ترسل إليك بهـا سـيدتك، وتخبـرك عن طريقى أنَّه إذا مـا كنت أمـاديس الذى تعرفه عـادةً، والذى تحبُّه كثيرًا، فلتنس الماضى، ولتذهب إليها حيث هى فى قلعة ميرافلوريس، ففى ذلك متعةٌ تزيل الآلام والمتاعب التى نجمت عن ذلك الحب الكبير الذى تكنُّه لك .

تناول الرِّسالة، وبعد أنْ قبَّلها مرَّات عديدة وضعها فوق قلبه، وقال :

– آه، أيُّها القلب المعذَّب، يا من تمكنت طوال تلك الفترة ومع كل تلك الكروب، ومع كل تلك الدُّموع، من المقاومة والبقاء حتى وصلت إلى هذا المأزق الذى تعانى فيه الموت، تقبل هذا الدَّواء، فما من شيء آخر غيره يمكنه أنْ يكون لك علاجًا، أزح عنك هذه الظُّلمة الدَّامسة التى عشت فيها حتَّى هذه اللحظة، تجاسر حتى تستطيع خدمة سيدتك التى انتشلتك من الموت !

وهنا فتح الرِّسالة ليقرأها، فوجدها تقول :

رسالة أوريانا لأماديس

إذا ما تحولت الأخطاء النَّاجمة عن العداوة إلى خنوعٍ وتواضعٍ فهى جديرةٌ بالعفو، وماذا إذنْ سيكون من أمر تلك الأخطاء التى ارتكبت بسبب الحبِّ الكبير ؟ ولا أنفى لهذا السبب، صديقى الحق، أنَّنى لا أستحق أنْ ألقى كلَّ هذا العناء، لأنَّنى أعلم علم اليقين أنَّ الأفراح لا تأتى خالصة دائمًا وإنما تأتينا مليئة بأنواع كثيرة من الهموم. وكان من الحق أنْ أعترف أنا برصانتك وعقلك، وشرفك ونزاهتك، وهى أمورٌ لم يلطخها شيءٌ على الإطلاق حتَّى الآن، وخاصة فى الانقياد الكبير لقلبى الحزين، الذى لم يكن هكذا إلاَّ بسبب تلك التى تعلَّق بها قلبك، وإذا ما حدث أنْ اشتعل لهيب ذلك الحبِّ، وشعر به قلبى، لكان ذلك سببًا فى هذا التَّحول الذى أصابنى. لكنَّنى أخطأت كهؤلاء اللاتى يحببن، ولا يتسع فكرهن لشيءٍ من الخير، بسبب الشُّكوك، بل لرغبة نالت بحق، من جراء أقوال أشخاص أبرياءٍ أو نمَّامين، لا يحوزون شيئًا من الحقِّ والفضيلة، ويريدون أنْ يحيلوا مثل تلك الفرحة الغامرة إلى عالم مظلمٍ يسوده الألم والحسرة. وهكذا يا صديقى الوفى، أرجو أنْ ترحب بهذه الفتاة التى أبعث بها إليك، وأنا أشعر بخطئى وأعترف به بكلِّ ذلةٍ وتواضع، فأنا أرسلها إليك وأعلم أنَّها – ليس لأنها تستحق ذلك فقط، لكن من أجل شفاء حالك – جديرة بالشَّفقة عليها .

وما إن انتـهى بيلتـينبروس من قراءة الرِّسالة حتىَّ زادت فرحته. وهكذا كما حدث له مـع الحـزن السَّابق، خرَّ مغشيا عليه، وتساقطت الدُّموع من عينيه تسيل على خدَّية دون أنْ يشعر بها. عالجه الجميع حتىَّ استردَّ وعيه، وكان على الجميع أنْ يعرف أنَّ الفتاة، فى خدمتها للرَّب، ستخرجه من ذلك المكان، لأنَّه لا سبيل لعلاجه واستعادة صحته فيه. والآن عليهم الذَّهاب إلى السَّفينة من أجل العودة إلى اليابسة، وهو ما تمَّ تنفيذه، ولكن بيلتينبروس، بعد أنْ ودَّع النَّاسك، وأحاطه علمًا بأنَّ الفتاة، برغبة منها فى خدمة الرَّب، قد أتت إلى هذا المكان كى تحمله وتعالجه، وتوسَّلت إليه أنْ يذهب معها كى يقوم على أمر الدير الذى ستقيمه على حافة الجزيرة اليابسة، وقد وعدها بذلك وانتقل إلى السفينة فى عرض البحر، دون أنْ يتمكَّن أحد سوى الفتاة من التَّعرف على شخصه .

وما إنْ وصلوا إلى اليابسة وودَّع البحارة الفتاة، حيث بقيت وحدها فى صحبته، أخذت الطَّريق المؤدية إلى حيث سيدتها . وجدت مكانًا على ضفة مياه البحر جميلاً وارف الأشجار، فاستراحت به حتى يتعافى بيلتينبروس قليلاً، وبعد توسلات منها قبل البقاء بالمكان للرَّاحة . حيث إذا لم يكن اشتياقه الـزَّائد إلى سيـدته يعـذِّبه ويؤلمه، فسوف يجد أفضل حياة لصحته هنا عن أىِّ مكان آخر فى هذا الوجود، لأنه تحت هذه الأشجار، التى تتوافر على جوانبها الينابيع، سيتناول طعامه فى الغذاء والعشاء، وسوف ينامان فى المكان المخصص لهما فى هذه الليلة . وهناك دار الحديث بينهما عن الأمور الماضية . هناك حكت له الفتاة عن كثرة البكاء والآلام التى انتابت سيدتها حين آتى إليها دورين بالخبر، وكيف أنَّها ومابيليا لم تكونا تعلمان بالرِّسالة التى أرسلتها إليك ولا بفحواها . وكذلك فقد حكى لها بيلتينبروس الظُّروف التى مرَّ بها والحياة التى عاشها على ظهر الصَّخرة الفقيرة، والأفكار العديدة والمتنوِّعة التى كانت تجول بخاطره كلَّ يومٍ وليلةٍ، وكيف مرَّت به كوريساندا صديقة فلوريستان شقيقه، والكرب الكبير الذى كانت تعانيه من حبِّه، فقد كان سببُ ذلك كله، وقد رأى كيف أنَّ تلك السَّيدة كانت على وشك الموت من أجل صديقها، وكذلك حاله هو التى جعلته على شفير الموت أيضا . وكيف أنَّه علم فتياتها الأغنية التى كتبها و أشياء أخرى يطول

ذكرها، التي تلقَّى منها – بعد أنْ أصبح حرا من الموت القاسي الذى كان فى انتظاره – مجداً عظيمًا، لدرجه أنه بعد عشرة أيام من وجوده هناك تحسن كثيرًا، حتى أن قلبه قد أخذ يحدثه بالعودة مرَّةً أخرى لحمل السِّلاح . فهناك تعرف على دورين، وجعل من إينيل حامل سلاحه، ابن أحد إخوة جنداليس مولاه، دون أنْ يدرى من هو ولا من سيخدم، غير أنَّه كان فرحًا به لما له من منطقٍ رائعٍ، ورحلوا عن هذا المكان. وبعد مرور أربعة أيام وصلوا إلى دير للطوباويين على مقربة من مكان أهل بالسُّكان، واتفق الجميع على رحيل الفتاة ودورين، بينما سيبقى هو هناك إلى جوار إينيل، ليفى بما أمرت به سيدته. وهكذا تم تنفيذ الاتفاق، وقد تركت الفتاة لبيلتينبروس أموالاً وفيرةً تكفى للأسلحة والجواد ولوازم الملبس، كما تركت جزءًا من الهدايا التى كانت تحملها معها ونسيتها عن عمد، حتى يعود إليه، بحجة هذه الهدايا، دورين بالإجابة، وهنا سار بيلتينبروس فى طريق ميرافلوريس، حيث كان يعتقد أنَّه سيلتقى بسيدته أوريانا، وذلك حسبما سمع الفتاة تتحدَّث قبل رحيلها عنه .

الفصل الثالث والخمسون

بعد مدة طويلة من البحث الفاشل عن أماديس عاد جالاؤر وفلوريستان وأجراخيس إلى بلاط الملك ليسوارتي، حيث فرح الجميع بعودتهم إلاّ أوريانا، التى لم يكن يخرجها من حزنها شيء. وبعد قليل رحلت البطلة مع مابيليا إلى قلعة ميرافلوريس . وحينئذ أبدى جالاؤر وفلوريستان وأجراخيس الرّغبة فى الخروج للبحث عن أماديس مرّةً أخرى، إلا أنّ الملك ليسوارتي قد استوقفهم، فهو فى حاجة إليهم فى المعركة التى ستدور بينه وبين الملك ثيلدادان ملك أيرلندا، وذلك بسبب الخراج الذى تدفعه هذه المملكة إلى بريطانيا العظمى. وقد تمّ الاتفاق على أنّه إذا هُزم الملك ثيلدادان ستضاعف الجباية ويصبح الملك واحداً من الرّعية، وإذا ما حقّق النّصر فسوف يعفى منها .

الفصلُ الرَّابع والخمسون

وقف الملك ليسوارتى على إحدى الموائد، ودخل فارسٌ غريبٌ وأعلن تحديه للملك ولكلِّ رجال بلاطه، وما فعله فلوريستان معه، كيف زال الحزن عن أوريانا وتَّم العثور على أماديس .

كان الملك ليسوارتى جالسًا على إحدى الموائد، وما إن انتهى، وأتى جالاؤر وفلوريستان وأجراخيس يودعونه، ليحملوا كوريساندا، حتى دخل عبر باب القصر فارسٌ غريبٌ مدجَّجٌ بكلِّ أنواع السِّلاح إلاَّ الرَّأس واليدين، وبرفقته حاملا سلاح، وأحضر معه رسالةً مختومةً بخمسة أختامٍ، وبعد أنْ أدوا التَّحية قدم الرِّسالة للملك وقال له :

– اقرأ هذه الرِّسالة وبعدها سأقول لكم ما أتيت من أجله .

– قرأها الملك، فوجدها رسالةً صادقةً فى موضوعها، وقال له :

– الآن لك أنْ تقول ما تشاء .

– أيُّها الملك – قال الفارس – إنَّنى أتحداك وكلَّ أتباعك وأصدقائك من طرف فامونجوماذان Famongomadán عملاق بحيرة فيربينتى، وكارتاداكى Cartadaque، عملاق الجبل المحروس، ومن مادانفابول Madanfabol صهره، عملاق تورى بيرميخا، ومن السَّيد كوادراجانتى شقيق الملك أبييس ملك أيرلندا وأركالاوس السَّاحر، وهم يقولون لك إنكَّ ستلقى الموت على أيديهم، أنت وكلَّ أتباعك، ويخبرونك بأنَّهم، مع كلِّ أصدقائهم الكبار، سيكونون ضدك فى مساعدة الملك ثيلدادان فى المعركة المؤجَّلة

بينكما، ولكن إذا ما قدمت ابنتك الجميلة أوريانا إلى ماداسيما ابنة فامونجومادان الجميلة، لتكون فتاتها وخادمتها، فإنَّهما سيكفُّون عن تحديهم لك وعن عداوتك، وقبل ذلك سيتزوَّجون أوريانا من شقيقه، باساجانتى فى الوقت الذى يراه مناسبًا، وسيكون هذا الرَّجل قائمًا على أرضه وأرضك. والآن أيُّها الملك، انظر ماذا فى صالحك؛ إمَّا السَّلام كما يريدون، وإما الحرب القاسية التى تأتيك برجالٍ لا قبل لك بهم .

أجابه الملك ضاحكًا، كمن أخذ تحديه بكلِّ سخريةٍ واستهزاءٍ، وقال له :

- أيها الفارسُ، المعركة الخطيرةُ أفضل من السَّلام المذِّل، وسأكون قد خذلت ربِّى العلى القدير الذى جعلنى فى هذه المكانة السَّامية إذا أنا تخاذلت وتقاعست وأعطيت الدَّنية فى الدِّفاع عنها، والآن بإمكانك أنْ تتصرف، وقل لهم إنَّنى على استعداد لأنْ أظلَّ فى عراك معهم مدى حياتى حتىَّ ألقى حتفى، وأن ذلك أفضل وأشرف لى من أنْ أقبل السَّلام الذى يطرحونه علىَّ، ولتخبرنى أين يمكن لى أنْ أجدهم حتَّى أرسل إليهم بأحد فرسانى كى يحيطهم علمًا بردى عليهم معك .

- فى بحيرة فيربنيتى - قال الفارس - سيجدهم من يخرج فى طلبهم، وهى فى جزيرة تدعى مونجاثا، وهى المكان الذى سيشهد المعركة بينكما .

- أنا لا أدرى - قال الملك - وفق قانون العماليق، إذا ما كان بمقدور فارسى الذَّهاب والعودة سالمًا .

- هذا يجب أنْ تكون متأكدًا منه - قال الفارس - فحيث يوجد السيد كوادراجانتى جنتيتى لا يمكن أن يحدث شىءٌ ليس معقولاً، وأنا سأصطحبه على مسئوليتى .

- باسم الله - قال الملك - الآن قل لى ما اسمك .

- سيدى - قال الفارس - اسمي لاندين، وعمي كوادراجانتي، وأتينا إلى هذه الدِّيار كي ننتقم لموت الملك أبييس ملك أيرلندا، ونأسف كثيرًا لعدم عثورنا على قاتله، ولا ندرى ما إذا كان حيا أو ميتا .

- من الممكن أنْ يكون ما ترى - قال الملك - والآن أدعو الله أنْ تراه حيا وبصحةٍ جيدةٍ، وبعد ذلك سيكون كلٌّ شيءٍ على ما يرام .

- أنا أفهم - قال الفارس - لماذا تقول هذا، لأنَّك ترى أنُّه أفضل فارسٍ رأته عيناك، غير كائنًا من كنت أنا، فلابد لى أنْ أحضر المعركة التى ستدور بينك وبين الملك ثيلادادان، وهناك سترى رأى العين ما أقوم به من أعمال رائعةٍ ومؤذيةٍ لك قدر استطاعتى .

- إنَّه ليحزننى - قال الملك - أنك لم تكن بين صفوف جنودى وفرسانى، غير أنَّنى أعتقد أنَّه حين يحين وقت النِّزال لن تعدم الفارس الذى يواجهك .

وحين سمع ذلك فلوريستان غضب غضبًا شديدًا، لأنَّ الفارس قد أعلن أنَّه يبحث عن أخيه أماديس، وقال له :

- أيُّها الفارسُ، أنا لست من أهل هذه الدِّيار ولا من أتباع الملك، وهكذا فأنا وأنت لا ناقة لنا ولا جمل فى كل هذا الذى قلته، وأنا فى هذا الصَّدد لن أقول شيئًا لأنَّه فى بيته يوجد آخرون ممَّن يقولون ويفعلون ما هو أفضل مما أقول وأفعل، ولكن بما أنك تقول إنَّك تبحث عن أماديس وما وجدته، وهو مالا ضرر فيه عليك حسب رأيى، وإذا ما رغبت أنْ تنازلنى أنا فلوريستان شقيقه شريطة أنَّه فى حالة هزيمتك، عليك التَّخلِّى عن البحث عنه، وإذا ما مت أنا، فقد شفيت غليلك وغيظك بعض الشَّيء وأنا أقول لك لما أشاهده من حزنك على الملك أبييس، وسوف يحمل أخى أماديس حزنًا أشدَّ منه لموتى .

- سيدى فلوريستان - قال لاندين - أرى أنَّ لك ميلاً للنِّزال، لكنَّنى أخشى ألا أقدر على ذلك فعلى أنْ أعود بالرَّد فى اليوم المحدَّد، وكذلك لأنَّ هؤلاء

السَّادة قد حذروني من الانشغال بأيِّ شيءٍ آخر غير المهمة الموكلة إلي، ولكن إذا ما خرجت من هناك حيا، فسوف أنازلك في اليوم الموعود .

– أيُّها الفارس لاندين – قال فلوريستان – أنت تقول هذا لكونك فارسًا طيبًا وشريفًا، لأنَّ الذين يأتون بمثل هذه الرَّسائل عليهم أنْ ينحُّوا رغبتهم جانبًا حتى ينزلوا على رغبة هؤلاء الذين أرسلوهم، لأنَّه بغير هذا، رغم أنك تحاول تلبية متطلبات شرفك الشَّخصي، سيتعرَّض شرفهم للضَّرر والأذى بسبب تأخيرك، حين يصبح الأمر كلُّه على عاتقك، ولهذا فإنَّه يطيب لي أنْ يكون الأمر كما رأيت أنت .

وبعد أنْ مدَّ القفازين علامة الموافقة على النِّزال بينهما قدَّمهما للملك، وإلى لاندين نطاق الدِّرع، وهكذا اتفقا على أنْ يكون النِّزال بينهما بعد مرور ثلاثين يومًا على المعركة بين الملكين. وهنا أمر الملك فارسًا من أتباعه يدعى فيليسبنيل بالخروج في صحبة لاندين حتى يدافع عنه ضد أولئك الذين من الممكن أنْ يتحدَّوه .

وما أن رحل هذان الفارسان – كما سمعتم – حتى تابع الملك حديثه مع جالاؤر وفلوريستان وأجراخيس وآخرين كثيرين ممن وجدوا في القصر، وقال لهم :

– أريدكم أن تطلعوا على أمر فيه متعةٌ لكم .

وحينئذٍ أمر باستدعاء ليونوريتا Leonoreta ابنته، ومعها كلُّ وصيفاتها من الفتيات الصِّغيرات حتى يرقصن كما هي العادة، الأمر الذي لم يكلف به أحد منذ أن انقطعت أخبار أماديس فما عاد يأتي إليه بها أحدٌ، وقال لها الملك :

– بنيتي، أطلب منك أن تغني الأغنية التي قالها أماديس من أجل حبِّك بينما كان فارسك .

بدأت الطِّفلةُ، وبرفقتها فتياتُها، في الغناء، حيث أتت كلمات الأغنية تقول :

ليونوريتا، يا زهرتي الرقيقة
لونك الأبيض يفوق كلَّ الأزهار
يا زهرتي الرقيقة، لعلَّ حبك
لا يلقي بي في عالم الأحزان
الحظُّ فارقني وبجنون
وقعت في حبك، ومن الجنون
أنْ يدوم بي هذا الحبُّ،
دون أنْ أقوى على الوداع،
آه، أيُّها الجمال الفريد،
يا سبب حزني وسعادتي !
يا زهرتي الرقيقة، يا ليت
حبك لا يلقي بي في عالم الأحزان .
لا رغبة لي من بين كل اللاتي أرقبهن
في أنْ أكون في خدمة أخرى غيرك،
وأرى رغبتي هذه نوعًا من الهذيان،
حيث لا أقوى على الرحيل،
فلا قدرة لي على الهرب،
من أكون في خدمتك،
يا ليت حبك، يا زهرتي الرقيقة

لا يلقى بى فى عـــــالم الأحـــــزان .

رغـم أنَّ شـكـواى تـبـــــــــــدو

مـــوجَّـــهـــةً إليك، ســـيـــدتى،

فـــأخـــرى هى القـــاتلة،

هــى المـنـتـــــصـــــرة

هـى الـتـى أنـهـت حـــيـــاتـى،

هــى مـن تمـلـك الـسُّـلـطـان والـقـــدرة

عـلـى أنْ تـشـنَّ الحـــرب ضـــدِّى،

إنَّـهـا تـســتـطيع أنْ تجـــعـلـنـى،

دون أنْ أســتـــحق منـهـــا هـذا،

مـــيـــتًـا يحـــيـــا تحت الثَّـــرى.

أود أنْ أحيطكم علمًا بالسبَّب الذى دفع أماديس لتأليف مثل هذه الأغنية الغرامية ليتغزَّل فى هذه الصَّغيرة الأميرة ليونوريتا . بينما كان أماديس يتحدَّث ذات يومٍ إلى الملكة بريسينا، وأوريانا ومابيليا وأوليندا طلبن من ليونوريتا بأنْ تخبر أماديس بأنْ يكون فارسها ويقوم على خدمتها جيداً، وألا يهتم بأية واحدةٍ أخرى، ذهبت إليه وأخبرته بما أمروها به. وهنا ضحك أماديس والملكة بعد سماعهما هذا الكلام منها، وأخذها أماديس بين ذراعيه، ثم قال لها :

– بما أنَّك تريدينى أنْ أكون فارسك، أعطنى جوهرة تجعلنى أسير خدمتك وحدك .

نزعت مشبكًا ذهبيًا من رأسها بأحجار كريمة ثمَّ قدَّمته إليه . وهنا انفجر الجميع فى الضَّحك لما رأوا الفتاة الصَّغيرة قد أخذت بجديةٍ أمراً قالوه لها على سبيل

المزاح والضحك، وظل أماديس فارسها، وأخذ يغنى لها الأغنية التي سمعتموها . وحين غنَّتها هي ووصيفاتها الصغيرات، اللاتي كنَّ يعلِّقن الزُّهور في رءوسهن ويرتدين ثيابًا أنيقة وثريةً على الطَّريقة نفسها التي أرادتها ليونوريتا في زيِّها، فقد كانت في غاية الجمال، لكنها لم تكن على نفس قدر جمال أوريانا، فهذه لم يكن لها مثيلٌ في الوجود، وأصبحت ذات يومٍ - كما سنروى فيما بعد - إمبراطورةً لروما، وكانت فتياتها قد بلغن اثنتى عشرة فتاة كلهن من أبناء الذُّوقة والكونتات وكبار القوم، وكنَّ يردِّدن جيدًا تلك الأغنية الغرامية، التي استمتع بها الملك ومن حوله أيما استمتاعٍ، وبعد مدةٍ من الغناء، أدَّين التَّحية للملك ثم انصرفن إلى حيث توجد الملكة .

وهنا قال جالاؤر وفلوريستان وأجراخيس للملك إنَّهم يرغبون في الذَّهاب مع كوريساندا، فليأذن لهم، وعند ذلك أخذهم إلى مكانٍ بالقصر وقال لهم :

- أصدقائي، لا يوجد بالعالم ثلاثة فرسانٍ آخرين يمكنني أنْ أعتمد عليهم مثلكم، وهاهو قد اقترب موعد معركتي، إذن لقد ضربنا له موعدًا في الأسبوع الأول من أغسطس، وهأنتم قد سمعتم عن أولئك النَّفر الذين ينوون منازلتي وشأنهم في ذلك وسوف يأتون بأناسٍ شجعانٍ وأقوياءٍ في مجال النِّزال، فضلاً عن أولئك الذين ينتمون إلى أعراق العماليق، ولهذا فأرجوكم ألا تشغلوا أنفسكم بأيَّة معارك أخرى حتى يحين ذلك الموعد؛ فذلك من شأنه أنْ يمنعكم مشاركتي في هذه المعركة، فأنا على موعدٍ بلقاء أعداء أشدَّاء، وفي عدم حضوركم سيكون بثي وحزني، فأنا أثق في الله أنَّه، بما لديكم من قوةٍ وجرأةٍ في النِّزال، سنعمل على تحطيم قوة الآخرين من الأعداء، حتَّى نحقِّق عليهم النَّصر في نهاية الأمر ونسحقهم ونلحق بهم الذِّلة والمسكنة .

- سيدي - قالوا - لمثل هذا اللقاء الذي ذاع صيته في كلِّ الأرجاء، لا حاجة لنا لهذا الطَّلب والرَّجاء، فإذا ما عدمنا الرَّغبة والنية الطيبة في خدمتكم، فلن نعدم الرَّغبة الأكيدة والحسنة في حضور في هذا النِّزال الكبير، حيث يمكن لقلوبنا ونوايانا الطيِّبة أنْ تعثر في أيِّ مكانٍ من الأرض أو أماكن غريبة في العالم على ذلك الذي خرج الجميع بحثًا عنه، فهذا يعني وجودنا في الأمور والمهام ذات الخطورة القصوى، لأنَّه

بتحقيق النَّصر يمكن لهم الحصول على المجد الذي ترغبونه، ولكن هزيمتهم هي بمثابة نيل النِّهاية التي ولدوا من أجلها، وهكذا فسوف نعود لاحقًا، وفي تلك الأثناء عليكم أيُّها الملك أنْ تبثوا روح القتال والحماس في نفوس رجالكم وفرسانكم فالرِّجال الشُّجعان الذين يؤدون الخدمة بكلِّ حبٍ ورغبةٍ يمكن أنْ يعتريهم الخمول والضَّعف من جديد .

وهنا تركوا الملك وامتطوا جيادهم وحملوا أسلحتهم، وأخذوا معهم كوريساندا، همّوا بالخروج من لندن وسلكوا طريقهم . وأمَّا جندالين، الذي كان هناك ورأى كلَّ شيءٍ فقد رحل بعد ذلك إلى ميرافلوريس وحكى كلَّ شيءٍ لأوريانا ومابيليا، فقالت أوريانا :

– الآن أصبحت كوريساندا في سعادةٍ غامرةٍ، فمعها حملت السَّيد فلوريستان، الذي أحبته حبا جما، وليدم لها ذلك الحب من قبل الرب، فهي سيدةٌ طيبةٌ .

وبدأت تتنَّهد، وبدأت عيناها تترقرق بالدُّموع، وقالت :

– آه، يا إلهي ! لماذا لا تريدني أنْ أرى أماديس ولو ليومٍ واحدٍ ؟ آه يا ربي ! لتكن مشيئتك أن أراه، أو أنْ تلحقني بك، ولا تدعني أعيش وسط هذا الحزن والألم .

حزن جندالين كثيرًا لحالها، وبدت على وجهه علامات الغضب، ثم قال :

– سيدتي، ستجعلينني لا أظهر أمامك بعد ذلك، فنحن في انتظار بشاراتٍ طيِّبةٍ من قبل المولى سبحانه، وأنت تودِّين أنْ نيأس من رحمته ونقنط .

وهنا مسحت أوريانا دموعها، وقالت له :

– آه يا جندالين، بالله لا تأس ! فإذا ما كان بمقدوري عمل شيءٍ فسوف أفعله طواعية، فأنا – وإن أبديت فرحًا على أسارير وجهي – لن يكف قلبي عن البكاء، ولولا هذا الأمل الذي تحدَّثني عنه الآن، صدقني، لن أستطيع النُّهوض من مكاني هذا أبدًا، غير أنَّني قلت لنفسي الآن ماذا عساه أنْ يكون حال والدي الملك حين لا يصبح في مقدروه العثور على أماديس كي يقف بجواره في تلك المعركة ؟!

– سيدتى – قال – لا يمكن لسيدى أنْ يظلَّ مختفيًا ومنزويًا حتى لا يسمع بمثل هذه المعركة التى ذاع صيتها بين النَّاس ولا يحضر إليها، ومن ذا الذى يتشكَّك فى أنَّه حين يعرف المصير الذى ينتظرك، حين يهزم والدك، لن يأتى كى يجعل قوته رهنًا لخدمتك ؟ فعلى الرَّغم من المنع الذى طوقت به عنقك والذى يمنعه من المثول أمامك، فإنه سيظهر هناك حتى يرى أنَّه بمقدوره أنْ يقدِّم خدمته لك ويحصل على العفو عن الخطأ الذى لم يرتكبه ولا يفكِّر أبداً فى ارتكابه.

– هكذا أتمنَّى من الله – قالت أوريانا – أنْ يكون الأمر كما تظنُّ أنت وبينما يتحدَّثان فى هذا الأمر دخلت فتاةٌ تجرى، وقالت :

– سيدتى، لقد أتت إلى هنا الفتاة الدَّانماركية وأحضرت معها العديد من الهدايا لك .

وهنا ارتجف قلبها وتوقَّف، فما استطاعت الكلام، وغدت منزعجةً؛ حيث كانت تنتظر من قدومها إليها الحياة أو الموت حسب الرِّسالة التى ستأتى بها، ومابيليا، بعد أن رأتها على هذه الحال، قالت للطِّفلة :

– اذهبى وقولى للفتاة أنْ تأتى إلى هنا بمفردها، لأننى أريد أنْ أراها وحدها .

وقد فعلت هذا حتى لا يطلع أحدٌ على الحزن الكبير أو الفرحة الغامرة لأوريانا وفق ما تأتيها به من أخبارٍ، خرجت الطفلة وقصَّت عليها ما أمراها به، غير أنَّ مابيليا وجندالين قد أصيبا بالإغماء لعدم معرفتهما بنوع الأخبار الواردة التى أتت بها الفتاة . دخلت الفتاة فرحةً ومبتهجة الأسارير والهيئة، وأدَّت التَّحية لأوريانا، وأعطتها رسالةً أتت بها، وقالت لها :

– سيدتى، ترين فى هذه الرِّسالة أخباراً تسرُّك، واعلمى، سيدتى، أننى قد جمعت كل ذلك لأنك أرسلتنى هكذا كما رغبت، اقرئى هذه الرِّسالة وسترين ما إذا كان قد كتبها أماديس بيده .

أخذت الرِّسالة، لكن بدأت يدها تهتزُّ من غمرة الفرحة، فوقعت الرِّسالة منها، وبدأ قلبـها يــرتجف، فـتحت الرِّسالة فـوجدت الخـاتم الذى أرسلتـه هي مع جندالين إلى أماديس حين كان ينازل داردان في بينديليسورا، فعرفته جيداً وقبَّلته مراراً وتكراراً، وقالت :

– مباركة هي السَّاعة التي صنعت فيـها، فقد انتقلت من يدٍ إلى يدٍ بكلِّ سرورٍ ومتعةٍ .

أدخلته في أصبعـها وحين رأت الكلمات المتواضعة التى سطرت فى الرِّسالة، والشُّكر الكبير لها إذا كانت ما تزال تذكره، وكيف أنَّها أعادته من الموت إلى الحياة، شرح صدرها ورفعت يديها قائلة :

– آه، يا ربَّ العالمين، يا مصلحَ كلِّ شيءٍ، لك الحمد والمنَّة أنْ أنزلت بى غيثك فى هذا الوقت وانتشلتنى من الموت الذى أحاط بى واقترب !

وأجلست الفتاة أمامها، وقالت لها :

– صديقتي، الآن قُصِّي على كيف عثرت عليه، والأيَّام التى قضيتها معه وأين تركته الآن .

قصت عليها كيف بحثت عنه، وحين عادت إلى هنا ولمَّا لم تحصل على أيَّة أخبار، والحزن يعتصر قلبها، هبَّت ريحٌ عاصفٌ فحملت السفينة إلى مكان يدعى الصَّخرة الفقيرة فنزلت بها، فوجدته هناك، وحكت لها كلَّ ما جرى له في تلك الدِّيار والفرحة الغامرة التي حلَّت به حين سلمته الرِّسالة، كما أخبرتها بالمكان الذى تركته عنده، وكيف أنَّه ينتظر أمرها له . غير أنَّها حين بلغت فى حديثها حالة الإعياء والموت التي مر بها أماديس والحالة المترديَّة التى وصل إليها لدرجة أنَّها ما كادت تعرفه لولا الجرح الذى كان بوجهه، وكيف أنه غير اسمه، وكيف أنَّ دورين ظلَّ ثلاثة أيامٍ دون أنْ يتمكن من التَّعرف عليه، أحسَّت أوريانا حزنًا وألما شديدين عليه . وحين انتهت الفتاة من حكايتها قالت أوريانا :

- بالله عليك، صديقتى، سأكون فى حاجة بعد الآن لمشورتك، ولتخبرينى كيف يمكننا أنْ نرسل فى طلبه .

- سأقول لك فيما بعد - قالت الفتاة - فقد تركت هناك عمدًا جوهرتين كانتا معى، حتى يكون ذريعةً لدورين كى يذهب إليه مرةً أخرى بما تأمرين .

- حسنًا فعلت - قالت أوريانا- والآن أعطنى الهدايا التى أحضرتها أمام هؤلاء الذين يوجدون هنا، وقولى إنَّك قد نسيت هدايا مابيليا، هكذا كما قلت آنفًا .

وحينئذ أخبروا الفتاة بأنَّ كوريساندا قد حدثتهم عنه، وأنَّه كان يسمَّى بيلتينبروس، لكنَّها لم تتعرَّف عليه وما علمت هويته وشخصيته .

- حقا، لقد كان يدعى بهذا الاسم - قالت الفتاة - وقال إنَّه لن يتخلَّى عن هذا الاسم حتى يلقاك وتأمرينه بأنْ ينزعه عنه .

كما قالوا لها كيف أنَّهم قد امتلكوا مفاتيح أبواب البستان، ونادوا على دورين وأعلموه بالمكان الذى سيأتون بيلتينبروس إليه حين يفد إليهم وأمروه بعد ذلك أنْ يذهب لإحضاره، لكنَّهم ما أرادوا أنْ يشتغلوا كثيرًا بهذا الأمر، لأنَّه على الرَّغم من حزنه الشَّديد للخبر الذى سيحمله له بلا خط يذكر، والذى جاءه الموت بسببِّه، معتقدًا أنه بالرسالة الأمر تغيَّر وأُصلح كلُّ شىءٍ، وبكلِّ سرورٍ توسلَّت إليها أنْ تأمره به، وقَّبلت يد أوريانا حتى ترسله، وهنا أصبح الجميع يعلم بالاتفاق الذى تم التَّوصل إليه وبأنَّ مابيليا قد توسلَّت إليها أنْ تبعث به ليحضر الهدايا، وأنْ يبدى عدم الرِّضا لهذا الأمر ظاهريا، كما لو أنَّ الأمر يثقل عليه، حتى لا يتشكَّك أحدٌ فى ذهابه على الإطلاق . وهكذا تمّ التَّنفيذ، وحين أعلموه بالأمر أبدى امتعاضًا، وقال بغيظٍ شديدٍ لمابيليا :

- أخبرك، سيدتى، أنَّنى سأذهب فقط لأنَّ هذه الهدايا تخصُّك فحسب، فلو كانت للملكة أو لأوريانا ما ذهبت أبدًا، فلكم عانيت من السَّير فى مثل هذا الطَّريق .

شكرته مابيليا على فعلته هذه، وقالت له أوريانا :

- صديقي دورين، مهما أخلصت في خدمتك فلا تحاول أنْ تفسد الخدمة التي تؤدِّيها بهذا الأسلوب الذي لن يشكره لك أحدٌ .

- هكذا سأفعل معك - قال دورين - حين تأمرني بخدمة أؤدِّيها لك، فأنا أعتقد أنَّ شكرك سيكون على قدر خدمتي لك، فهي قليلة .

ضحكن كلُّهُنَّ لتلك الحالة التي بدى عليها دورين من الغيظ وكيف جاء ردُّه، وقال لمابيليا :

- سيدتي، بما أنَّك ترغبين في أنْ أقوم بهذه المهمة فسوف أخرج لها غداً.

- وبعد أنْ ودعهن انصرف مع جندالين لينام، وقد رجاه كثيراً أنْ يعتني بوصيفه إينيل كثيراً، وأنْ يرجوه على لسانه أنْ يعود لرؤيته إذا استطاع ذلك، لأنه بحاجةٍ إلى أنْ يتحدَّث معه في أمورٍ كثيرةٍ، ورجاه أنْ يستغل خروجه مع ذلك الفارس، كي يبحث عن أماديس أو أنْ يأتي بأيَّة أخبارٍ عنه. ولقد أرسل إليه بهذا الكلام لأنَّ أماديس يسير الآن متخفيا، ولأنَّه إذا ما أراد الرَّحيل عنه يمكنه التَّعلل بالبحث عنه: وبينما يتحدَّثان في هذا الأمر بلغا لندن، وفي صباح اليوم التَّالي امتطى دورين جواده وسار في طريقه إلى حيث ترك بيلتينبروس .

الفصلُ الخامسُ والخمسون

لكنَّه أراد قبل هذا أنْ يتزوَّد بكلِّ أخبار البلاط حتى يرويها له .

كيف أنْ بيلتينبروس أمر بإعداد المؤن والسِّلاح ليذهب لرؤية سيدته أوريانا، والمغامرات التي حدثت له في الطَّريق، حيث هزم السَّيد كوادراجنتي والعملاقين فامونجومادان وباساجانتي

بالعودة مرَّةً أخرى إلى بيلتينبروس، الذي كان ينتظر في بيوت السَّيدات الطَّيِّبات وصول أمر سيدته، تخبرنا القصة بأنَّه، بعد أنْ غمرته الفرحة لاستعادته قوته وصحته، أمر إينيل أن يصنع له في تلك الدِّيار القريبة منه أسلحة لها نصول خضراء وبها رسوم لأسود كلما أمكن ذلك . فضلا عن عباءاتٍ خفيفة، وأنْ يشتري له جوادًا وسيفًا وأفضل زرد يمكنه العثور عليه. صعد إينيل إلى الضَّاحية المذكورة وفعل ما أمره به. وفي غضون عشرين يومًا أصبح كلُّ شيءٍ جاهزًا كما يجب . في تلك الأثناء وصل دورين بالأمر المكلَّف به، والذي سعد به بيلتينبروس كثيراً . وسأله أمام إينيل كيف حال الفتاة الدَّانماركية الطَّيِّبة، أخته، وفيما جاء إلى هنا؟ فأخبر بأنَّ الفتاة الدَّانماركية قد أرسلته إليه، وأنَّه أتى من أجل جوهرتين أنسيتهما هنا، والموجودتين فوق غطاء السَّرير الذي كانت تنام عليه، وأخبر إينيل بأنَّ جندالين يرسل إليه السَّلام، وبكل ما أمره بإبلاغه إليه، سأله بيلتينبروس عن حقيقة جندالين هذا .

– إنَّه حامل سلاح mi cormano – قال دورين – حيث ظلَّ لوقتٍ طويلٍ في حراسة فارسٍ كان يدعى أماديس دي جاولا .

وهنا أخذ دورين معه وذهب فى نزهة إلى أحد الميادين سائلاً إيَّاه عن أخبار أخته، وحين تجولا، أخبره دورين برسالة سيدته بأنَّها تنتظره فى ميرافلورس، وقد أعدَّت كلَّ شىء لاستقباله هناك معها، وليذهب متخفيًا، وقصَّ عليه كيف أن أخويه وجندالين وأجراخيس كانا فى القصر، وأنَّهما سيخوضان معركةً تجدَّدت بين الملك ليسوارتي والملك ثيلدادان ملك إيرلندا، هذا فضلاً عن التَّحدى الصَّادر من فامونجومادان والعماليق الآخرين والفرسان، وكيف أنَّهم طلبوا منه أنْ يجعل أوريانا فى خدمة ماداسيما، وأنَّهم سيزوجونها من باساجانتى بن فامونجومادان . وحين سمع بيلتينبروس هذا الكلام ارتجف جسده من الغضب الذى ملأ عليه وجدانه، وغلى قلبه من الغيظ، وأقسم، حتى يرى سيدته، أنَّه لن يخوض أى نزالٍ حتى يبحث عن فامونجومادان وينازله، فيُقتل هو أو يقتل الرَّجل لما قاله فى حقِّ أوريانا . وبعد أنْ قصَّ عليه دورين ما سمعتم أخذ الهدايا، وودَّعه ثم عاد إلى سيدته فرحًا مسرورًا لإنهائه المهمة التى أوكلت إليه ورغب فى أدائها على أكمل وجه .

وهنا ظلَّ بيلتينبروس يتوجه إلى ربِّه بالشُّكر أنْ أسعفه وردَّه مرة أخرى إلى كنف رضى سيدته بعد ضياعٍ أدَّى إلى أنْ تصل حياته إلى الحد الذى رأيتموه من قبل. حلول الفجر بساعة، مدجَّجًا بكلِّ تلك الأسلحة الخضراء الجديدة، وممتطيًا جواده الجميل الشَّاب، ومعه إينيل، الذى كان يحمل معه الدِّرع والخوذة والرُّمح، تنكَّب الطَّريق كي يذهب لرؤية سيدته التى أحبَّها كثيراً، وبينما كان سائراً بالحقل فى وضوح النَّهار حثَّ الجواد على السَّير بسرعةٍ ووجَّهه هنا وهناك، مما أثار إعجاب إينيل الذى كان يرقبه، وقال:

– سيدى، لا أدرى شيئًا عن غيظ قلبك، لكنَّنى ما رأيت قط فارسًا فى هذه الصُّورة الحسنة الجميلة مثلك .

– إنَّ قلوب الرِّجال – قال بيلتينبروس – تصنع الخير الحق، لا المظهر الطَّيِّب، ولكن إذا وهب الله عبداً هذين الأمرين، فهذه منه عظيمةٌ منه، وبما أنَّك حكمت الآن على الظَّاهر، فاحكم على القلب وفق ما ترى فهو أحق .

وهكذا ظلَّ يتكلَّم معه بهذا المنطق الفلسفي ويضحك كمن يحاول أنْ يطرد عن نفسه ظلمة الألم التي كانت تلفه، فقد عاد إلى حياة المرح الذى لا يمكنه أنْ يحيا بدونه .
ظلَّ سائرًا على هذا الحال حتى أقبل الليل، فبات ليلته فى بيت فارسٍ عجوزٍ، حيث استقبل أحسن استقبال. وفي اليوم التَّالى رحل من هناك واضعًا خوذته على رأسه حتى لا يتعرَّف عليه أحدٌ. سار سبعة أيَّام دون أيَّة مغامرةٍ تذكر، وفي اليوم الثَّامن حدث له حادثٌ، فبينما كان سائرًا بطرف الجبل، إذ رأى فى طريقٍ صغيرٍ فارسًا عملاقًا ومفتول العضلات على متن جواد عظيم، والذى بدا في مظهره واحدًا من العماليق، ومعه اثنان من حاملي السِّلاح، وحين اقترب منه توجَّه الفارس العظيم بالكلام إلى بيلتينبروس بصوت مرتفع قائلاً :

– أنت، أيُّها الفارس، يا من تسير هناك، توقَّف ولا تتقدَّم خطوةً للأمام حتَّى أعرف منك ما أريده .

توقَّف بيلتينبروس فى أحد السُّهول التى كان يمرُّ بها، ونظر إلى درع الفارس فرأى فيه ثلاث زهور ذهبية مرسومة على سطح أزرق، فعرف أنَّه السَّيد كوادراجانتي، لأنَّه رأى درعًا مماثلاً فى الجزيرة اليابسة يعلو كلَّ الدُّروع الموجودة هناك باعتبار أنَّه قد حاز مجدًا أعلى من الجميع في الاختبار الذى عرف باختبار الغرفة المحروسة، فحزن كثيرًا، لأنه رأى عدم إمكانية أنْ يعتذر عن النِّزال، آخذا فى حسبانه نزال فامونجومادان، حيث كان يتمنَّى بسبب تلك المعركة أنْ يعتذر عن كلِّ ما يعنُّ له من معارك أخرى، وأيضًا حتى يذهب إلى سيدته فى الموعد المحدَّد حسبما أمرته به، وتشكَّك فى أنْ تعمل طيبة هذا الرَّجل على إعاقة ما ينوى عمله، فبقى ثابتًا فى مكانه، ونادى على إينيل فقال له :

– تعال إلى، وأعطنى السِّلا، إذا ما دعت الضَّرورة إلى ذلك .

– يرعاك الله – قال إينيل – فهذا يبدو لى شيطانا أكثر منه فارسًا .

– ليس شيطانًا – قال بيلتينبروس – لكنَّه فارسٌ عظيمٌ وطيِّبٌ، وسمعت عنه مرَّاتٍ أُخر .

وعند ذلك أقدم السيِّد كوادراجانتي، وقال له :

- أيُّها الفارس، من المناسب أنْ تخبرني ما إذا كنت تابعًا للملك ليسوارتي .

- لماذا تسأل عن ذلك ؟ - قال بيلتينبروس .

- لأنني قد تحديته - قال كوادراجانتي - هو ومن معه وأصدقاءه، ولن أعثر على أحد منهم إلا قتلته .

وهنا امتلأ بيلتينبروس غيظًا، وقال له :

- أأنت من أولئك الذين تحدوه ؟

- نعم أنا منهم - قال الفارس - وأنا من سيلحق به كل الأذى وبكلٍّ من حوله قدر ما أستطيع .

- وما اسمك ؟ قال بيلتينبروس .

- إنَّني أُدعى كوادراجانتي - قال الفارس .

- بكلِّ تأكيد، فأنت كوادراجانتي، وبما أنَّك رجلٌ ينتمي إلى أصلٍ عريقٍ، ولك باعٌ طويلٌ في مجال النِّزال، فقد أصبت بالجنون حين أعلنت تحديك لأفضل ملكٍ في الوجود، لأنَّه على الفرسان أنْ يضعوا أنفسهم في الأماكن التي تليق بهم، وحين يجاوزون حدودهم، فإنَّ ذلك يُفَسرُ بأنَّه جنونٌ لا قوة وسلطان، وأنا لست من أتباع الملك الذي تقول، ولا من أهل بلاده ولكن بسبب أنَّه ملكٌ يستحق كلَّ خيرٍ فقلبي في خدمته دائمًا، وهكذا فيحق لي أنْ أقبل تحديك أنا شخصيا، وإذا ما أردت المعركة فعليك أنْ تنازلني ؟ وإذا لم ترد الحرب فسر في طريقك .

قال له السيِّد كوادراجانتي :

- حسنًا أرى، أيُّها الفارس، إنَّه لقلة الأخبار التي تردك عنِّي أخذت تحدِّثني بكل هذه الجرأة وهذا الجنون، وأرجوك من كل قلبي أنْ تخبرني ما اسمك .

– اسمي بيلتينبروس – قال – وهكذا عبر هذا الاسم الذي يتردَّد قليلاً لن تعرفني الآن أكثر من ذي قبل ؟ ولكن مهما كنت أنتمي إلى وطنٍ غريبٍ وناءٍ، فقد سمعت أنَّك قد خرجت تبحث عن أماديس دي جاولا، وتبعًا لما أعرفه عنه فليس من صالحك أنْ تعثر عليه .

– كيف ؟! – قال كوادراجانتي – أتحبُّ ذلك الذي أكرهه كره العمى وتقدره أكثر منِّي؟ اعلم أنَّك قد حان موتك، ولتحمل سلاحك إذا ما كنت قادرًا على الدِّفاع عن نفسك به .

– رغم أنَّني أتشكَّك في حملها – قال بيلتينبروس – ضدَّ آخرين، لا ضدَّك أنت، يا من أظهرت لي تهديدك وعجرفتك .

وهنا حمل كل منهما أسلحته والغيظ يتملَّكه، وتقابلا بجواديهما في مواجهةٍ عنيفةٍ، كان جواد بيلتينبروس على وشك الوقوع بسببها، غير أنَّ السَّيد كوادراجانتي قد زُحزِح عن سرجه، وقد أحسَّ كلٌّ منهما بأثر الضَّربة العنيفة في هذه المواجهة، فجرح بيلتينبروس في أعلى صدره برمح الآخر، وأما كوادرجانتي فقد جرح في جنبه، إلا أنَّ الجرح لم يكن عميقًا. نهض بعد ذلك نهضة الشُّجاع السَّريع، وأمسك بسيفه وتوجَّه إلى بيلتينبروس، الذي كان يضع الخوذة على رأسه، فما رآه، فجرح جواده بطرف سيفه وتوجَّه إلى بيلتينبروس بعد ذلك الذي كان يضع الخوذة على رأسه، فغرس نصفه في مؤخرة الجواد، الذي تأثَّر تأثرًا عميقًا بالجرح فطرح على أرض النِّزال، ونزل عنه بيلتينبروس بعد ذلك وعدل درعه، واستل سيفه، وتوجَّه ضدَّ كوادراجانتي في غضبٍ وغيظٍ شديدين، حتى يقتل جواده، وقال له :

– أيُّها الفارس، لا يدل ما فعلت على قوة خارقة، لكن عليك أنْ توفر ذلك المجهود لكي تفوز في المعركة .

وهنا التقيا بقوةٍ ووحشيةٍ، بصورة أصابت بالذُّعر من شاهدها، حيث إنَّ قعقعة السُّيوف التي سمعت آنذاك كانت تدلُّ على أنَّ هناك ما يزيد على عشرة فرسان يتبارزون

فى ساحة الميدان، وفى مرَّات أُخَر تجاذبا بالأيدى ليسقط كل منهما على الأرض . كانت مجموعة من حاملى السِّلاح ترقبهما، ورأت أنَّ من المرعب رؤية مثل هذه الوحشية فى هذين الفارسين، فما بد لهم أنَّ واحداً منهما سينجو بحياته من هذا النِّزال، وهكذا استمر النِّزال بينهما من التَّاسعة صباحًا حتى وقت متأخر، وما استراحا أو تفوَّها بكلمة، ولكن فى هذه الأثناء بد التَّعب على كوادراجانتى، فضلاً عن الإعياء والضَّرر الذى لحق به من جرَّاء ضربة سدَّدها إليه بيلتينبروس فأصابت خوذته، فسقط مغشيا عليه فوق أرض النِّزال فاقداً الوعى، كما لو كان قد فارق الحياة .

نزع بيلتينبروس خوذته من على رأسه ليرى ما إذا كان قد مات، ووضع طرف السَّيف فى وجهه، وقال له :

- كوادراجانتى، لتذكر الآن روحك، فستلقى حتفك .

وهنا، بعد أنْ عاد إلى وعيه، قال :

- أهه يا بيلتينبروس، أرجوك، بالله، أنْ تدعنى أعيش من أجل روحى .

فقال له :

- إذا أردت الحياة فاعترف بهزيمتك، وافعل ما آمرك به .

- لك ما تريد - قال - حتى أنقذ حياتى، لكن لا يجب على أنْ أعترف بهزيمتى، فليس بمهزوم ذلك الذى يدافع عن نفسه دون أنْ يبدى جبنًا، فيبذل كل ما فى وسعه حتى تخور قوته ونفسه ويسقط أمام قدمى عدوه، ولكن المهزوم هو من يتقاعس عن عمل ما بوسعه لجبنٍ وخوفٍ ألم به .

- حقا - قال بيلتينبروس - هذا الذى تقول هو عين الحقيقة، وأنا سعيد جدا بكل ما تعلمته منك. اعطنى يدك وعدنى بأنَّك ستفعل ما آمرك به .

مد يده إليه قدر استطاعته .

وهنا نادى على حاملى السِّلاح كى يشهدوه، وقال له :

- إنَّني آمرك، بسبب الدَّعوى التي تقيمها، بأنْ تذهب إلى قصر الملك ليسوارتي وألاَّ تبارحه أبداً حتى يصل هناك أماديس الذي خرجت بحثًا عنه، وحين يأتي إلى هناك تمثل أمامه معترفًا بقوته وتخبره بأنَّك عفوت عنه فيما يتعلق بموت أخيك الملك أبييس ملك أيرلندا، حيث أنه، وحسب علمي، قد جرى نزال بينهما بإرادتهما الحرة، وكذلك فإنَّ هذا الموت لا يمكن لأحد أنْ يقتصَّ له ولا حتى بين عامة النَّاس، فما بالك بوضعك أنت الذي تنتمي إلى أرقى العائلات! وذلك وفقا لما مررت به من عظائم الأمور في مثل هذه النِّزاعات وما كان لك فيها من باعٍ طويلٍ، ولهذا فآمرك ألا تعلن تحديك للملك ولمن معه، أو أنْ تحمل السِّلاح في مواجهة من هم في خدمته. وافق كوادراجانتي على كل ما طُلِبَ منه عنوةً، وقد فعله أيضًا حتى يتقي خطر الموت الذي ينتظره بعد أنْ أصبح منه قاب قوسين أو أدنى، ثم أمر حاملي سلاحه أن يصنعوا له نقالة يحملونه عليها إلى حيث أمر بيلتينبروس حتى يمكنه تنفيذ ما وعده به . رأى بيلتينبروس إينيل حامل سلاحه، الذي كان قد استحوذ على جواد كوادراجانتي وقد أصابته فرحة غامرة لما منَّ الله به على سيده من حسن الحظ . امتطى بيلتينبروس الجواد وأعطى الأسلحة لإينيل، ثم عاد إلى طريقه، وما طال به السَّير حتى وجد فتاةً تصطاد بأحد الطُّيور الجارحة وبرفقتها ثلاث فتياتٍ قد شاهدن المعركة وسمعن كل ما دار بينهما من كلمات، ولما رأوه جريحًا ومنهكًا وأصبح من الضروري أن يأخذ قسطًا من الراحة توسلت إليه بكل أنواع التوسل أن يذهب معها إلى قلعتها حيث يمكن أن تقدم له كل خدمة مطلوبة . رحب بالعرض، لأنه كان منهكا من ذلك الذي حدث له، ولكن عندما وصلوا إلى هناك، وفحصوا كل جسده كي يروا إذا ما كان هناك من جرحٍ، لم يعثروا إلا على ذلك الذي أصابه في صدره، والذي كان ينزف دمًا غزيراً، وبعد مرور ثلاثة أيَّامٍ رحل عن هذا المكان، وسار طوال ذلك اليوم دون مغامرةٍ تذكر. وقد أمضى تلك الليلة في بيت رجل طيِّبٍ كان يسكن بالقرب من الطَّريق، ثم سار يومًا آخر حتى بلغ وقت الظهيرة، ومر من فوق ربوةٍ عاليةٍ، فرأى مدينة لندن،

ونظر يُمنةً فرأى قلعة ميرافلورس، التى كانت موجودة بها سيدته أوريانا، وحين رآها أحسَّ فرحًا شديدًا فى نفسه، وظلَّ وقتًا طويلاً يفكِّر كيف يُبعد إينيل عنه، ثم قال له :

– أتعرف هذه الدِّيار التى نحن فيها ؟

– نعم أعرفها – قال إينيل – ففى ذلك الوادى توجد مدينة لندن، حيث يوجد الملك ليسوارتى .

– أوقد بلغنا لندن الآن ؟ – قال بليتينبروس – وأنا الآن لا أود أنْ أتقابل مع الملك ولا مع أحدٍ غيره حتى تدل أفعالى على جدارتى لهذه المقابلة، فكما ترى، فأنا مازلت فتىً شابًا، وما فعلت شيئًا أستحق من أجله الكثير، وبما أنَّنا أصبحنا الآن على مقربةٍ من لندن فاذهب لترى ذلك المدعو جندالين الذى حدَّثك عنه دورين، وستعرف ماذا يقولون عنِّى فى داخل القصر، ومتى ستكون المعركة ضد الملك ثيلدادان .

– كيف لى أنْ أتركك وحيدًا ؟ – قال إينيل .

– لا عليك من هذا – قال بيلتينبروس – ففى بعض المرَّات تعودت على أنْ أسير وحدى دون رفيقٍ، ولكن قبل أنْ ننفصل علينا أنْ نتفق على مكان نتقابل فيه .

وسار إلى الأمام فى الطَّريق ذاته، وما تأخر بهما المسير حتى رأيا على مقربةٍ من ضفةٍ خيمتين مقامتين، وفى وسطهما خيمة ثالثة غاية فى الثَّراء، وأمامها تقف مجموعة من الفرسان والفتيات يلعبون . ونظر فرأى على باب إحدى الخيام خمسة دروعٍ، وعلى باب الأخرى خمسة دروع أخرى، ولما لم تكن لديه نيةٌ لنزالهم سار بعيدًا عنهم .

ولكن فرسان تلك الخيام نادوا عليه أنْ يَهِبَّ لنزالهم .

– لا رغبة لى فى النِّزال الآن – قال بيلتينبروس – فأنتم كثيرون وتلهون وتلعبون الآن ويبدو أنَّكم مرتاحون، أمَّا أنا فكما تروننى وحيدٌ ومتعبٌ .

– ولكن يبدو لي – قال أحدهم – أنَّك لا تريد النِّزال خوفًا من أن تفقد جوادك .

– ولماذا سأخسره ؟ – قال بيلتينبروس .

– لأنه سيكون ملكًا لمن سينتصر عليك – قال الفارس – وهو الأمر الأكيد، إذ نرى أنَّه ليس بمقدورك أن تكسب منا شيئًا .

– إذنْ والحال هكذا – قال بيليتبنروس – فأنا أود أن أرحل على متنه على أنْ أخوض به مثل هذا النِّزال .

ثم بدأ سيره بعيدًا عنهم كما كان ينوى من قبل . وهنا قال له الفرسان :

– يبدو لنا أيُّها الفارس أنَّ هذه الأسلحة التي تحملها تلقى فيك دفاعا كلاميا عنها أكثر من القوة والمجهود الذى تبذله من أجلها، وهكذا في إمكانك أنْ تحتفظ بها حتى يضعوها على قبرك، حتى لو طال بك العمر مائه عامٍ .

– قولوا في ما يحلوا لكم – قال بيلتينبروس – فمهما قلتم لن يكون لكم أنْ تخرجوني عن حلمي وطيبتى إذا كان لى شيءٌ منهما .

– والآن، إن أراد الله – قال أحد الفرسان – أنْ تنازلني أنا فلن يكون بمقدورك أنْ تذهب على متن هذا الجواد بحثًا عن مكانٍ للرَّاحة وقد تحلَّيت بالجبن، أو إنَّنى لن أمتطي غيره هذا العام .

قال بيلتينبروس :

– أيُّها الرَّجل الطَّيِّب، هذا ما أشكُّ فيه، ولهذا فلن أتخلَّى عن مسيرتي .

وهنا قال الجميع :

– يا أيتها العذراء، ياله من فارس جبان .

وهنا لم يعرهم انتباهًا لما قالوه وتابع سيره، وحين وصل إلى معبر على متن البحر وأراد أنْ يتخطَّاه سمع من يقول له :

- انتظر أيُّها الفارس .

فنظر ليرى من عساه أنْ يكون، فوجدها فتاةً فى أبهى زينتها على متن جواد جميل، وحين اقتربت منه قالت له :

- سيدى الفارس، فى هذه الخيمة توجد ليونوريتا، ابنة الملك ليسوارتى، وترجوك ومن معها من الفتيات أن تنازل هؤلاء الفرسان، ولتفعل هذا من أجل حبِّها، وبقدر ما يلزمك رجاؤهن .

- كيف - قال بيلتينبروس - أتلك التى هناك هى ابنة الملك ؟

- نعم سيدى - قالت .

- إنَّه ليؤلمنى - قال - أنْ تكون بينى وبين فرسانها عداوة مع رغبتى فى أنْ أكون فى خدمتها، ولكن طالما أنَّها قد أمرت بذلك، فسوف أنزل على رغبتها حتى لا يطالبنى فرسانها مرَّةً أخرى بنزالهم .

عادت الفتاة بالإجابة وحمل بيلتينبروس أسلحته، وبعودته إلى الخيام وجد ساحةً سهليةً وجميلةً فانتظر هناك، وما هى إلا برهةً حتى أتى إليه ذلك الفارس الذى قال له إنه لن يتركه يرحل على متن جواده إذا ما نازله، فقد ركز عليه تماماً حين كلمة، وفرح أنْ يكون هو أوَّلُ منازليه، ولما اقترب كثيراً منه تواجها بجواديهما بكلِّ قوةٍ بقدر ما أمكنهما، وكسر الفارس رمحه، وسدَّد إليه بيلتينبروس ضربةً قوية فأطاح به من فوق السرج يترنَّح على أرض المعركة، ونادى على إينيل فأعطاه الجواد. وظلَّ الفارس متألما لما أصابه فما استطاع أنْ يعود سيرته الأولى، وأخذ يتقلَّب على ساحة النِّزال ويئن لما أصابه من الألم، كما كسرت ثلاثة من ضلوعه ووركه أيضًا . هنا قال بيلتينبروس :

- سيدى الفارس، إذا ماكنت كلمتك حقيقة، فلن تقع، من الآن فصاعداً، وقعةً أخرى من على متن جواد وهذا ما قطعته على نفسك فى حالة ما إذا كسبتنى .

وفى تلك الأثـناء رأى فـارسًـا آخـر قـادمًـا إلى النِّزال ونادى عليـه أنْ دافـع عن نفسك. هجم عليه بيلتـينبروس وأطـاح به كمـا أطـاح بالأوَّل، ثم فـعل الشيء نفسـه بالثَّالث ثمَّ الرَّابع، وعند نـزاله للثَّانـى كسـرت رمـحـه، وبقى الفـارس مقـروحًـا متـألمًا، حيث اخترق الرِّمح درعه وذراعه، وكذلك فقد انتزع من كل فـارس جواده وربطها فى فروع الأشجار، ومنذ أنْ نازل هؤلاء الأربعة وهزمـهـم جاءته رغبةٌ فى الرَّحيل، وهنا نظر فرأى فارسًا آخر قادمًا نحوه يريد نزاله، وبرفقته حامل سلاحٍ يحمل أربعة رماحٍ، ثم قال له :

– سـيدى الفـارس، ترسل إليك ليونوريتـا بهـذه الرِّمـاح، وتقول لك أن افـعل من أجلها بالفرسان الآخرين ما يجب عليك عمله، بما أنَّك قد هزمت رفاقهم .

قال بيلتينبروس :

– من أجل حبِّ ليونوريتا، ابنة الملك الصَّالح، سأفعل ما تأمرني به، لكنَّنى وكما أقول لك لن أفعل شيئًا لهؤلاء الفرسان، فقد ألحقت بهم إهانة كبيرة نظرًا لجرأتهم على إجبار الفرسان الذين يسيرون فى طريقهم أنْ ينازلون هم .

وهنا حمل الرُّمح وتوجه صوب الفارس فصرعه كما صرع الآخرين، وفعل الشيء نفسه مع اثنين آخرين، فيما عدا ذلك الذى أتى أخيرًا، فقد نازله بيلتينبروس مرَّتين وخسر فى نزاله رمحين، فما أمكنه أنْ يحركه من سرج جواده، وفى المرَّة الثَّالثة صرعه كما صرع الآخرين، وإذا ما سأل أحدٌ عن اسم هذا الفارس، فأقول إنَّه نيكوران، فارس بونيتى ميدروسا، الذى كان يعد آنذاك واحدًا من أفضل فرسان بريطانيا العظمى .

وحين انتهت هذه السِّلسلة من المواجهات التى خاضها بيلتينبروس، وسمعتم عنها، أرسل كلَّ الجياد التى كسبها من هؤلاء الفرسان إلى ليونوريتا، وأمر بأنْ يخبروها بأنْ ترسل إلى الفرسان الذين يمرُّون بالطريق جمعًا من فرسانها المتأدبين، أو أنْ يتعلَّموا النِّزال بصورةٍ أفضل، فلربما عاد هذا الفارس مرة أخرى فيجعلهم يسيرون مترجلين بعد ذلك . وهنا بات الفرسان والخجل يلؤهم لما حل بهم، فما

استطاعوا الرَّدَّ على هذه الرِّسالة، وتعجَّبوا كلَّ العجب بهزيميهم جميعا هكذا على يد فارسٍ واحدٍ، وما تمكَّنوا من معرفة هويته، فما شاهدوا من قبل قط فارساً يحمل كلَّ هذه العلامات موسومة على أسلحته . وهنا قال نيكورون:

- لو أنَّ أماديس حي وسليم لقلت حقا إنَّه هو هذا الفارس، فما علمت قط بفارس نازلنا وتركنا على مثل هذه الهيئة .

- حقا - قال جاليثيو - ليس هو، وإلا لعرفه بعض منَّا، وكذلك فما كان سيود أنْ ينازلنا، وكان عليه أنْ يتعرَّف علينا ونحن أصدقاؤه .

وهنا قال خيونتيس نجل شقيق الملك :

- لو شاء الله أنْ يكون ذلك الفارس أماديس لهان علينا أمر خجلنا هذا، ولكن أيا كان هذا الفارس، فليباركه الله حيث كان، فقد هزمنا لما هو عليه من الحقِّ والطيبة ولطيبتنا نحن أرسل إلينا جيادنا .

- يا لحظي التعس - قال لاساندر - ويا للألم الذى أنا فيه بعد أنْ كسرت ضلوعي ووركي، ولكن الخطأ خطأي أنا، فأنا أوَّلُ داع لهذا الشَّر الذى أصابني أكثر من أيِّ شخصٍ آخر.

وهنا كان هذا هو أول المنازلين .

وهنا رحل عنهم بليتينبروس تحيطه فرحةٌ غامرةٌ لما حققه ضدَّهم، وسار في طريقه يتكلَّم مع إينيل، وظلَّ ينظر إلى موضع الرِّمح الذى أصابه، فوجده طيبًا. وفي تلك الأثناء بات الجو حارًا فضلاً عن المجهود الذى بذله في النِّزال فأخذ يشعر بعطشٍ شديدٍ، وبعد أنْ ابتعد عن المكان ما يقرب من ربع فرسخٍ رأى دارًا للعبادة تغطيها الأشجار، فتوجه إليها حتى يؤدى صلواته ويروى ظمأه، فرأى على بابها ثلاثة جياد مسرَّجةٍ لثلاث فتيات، وجوادين آخرين لحاملي السِّلاح، ترجل ودخل إلى دار العبادة، لكنَّه لم ير أحدًا، فصلَّى وأسلم وجهه لله من كل قلبه، وحين هم بالخروج من دار العبادة رأى ثلاث فتيات جالسات على مقربة من نبع ماء أحاطت به الأشجار، وبرفقتهن حاملا السِّلاح. وأتى النَّبع ليشرب، فما تعرَّف على واحدة منهن، وقلن له :

– أيُّها الفارس، أأنت من بيت الملك ليسوارتى ؟

– أيَّتُها الفتيات الحسناوات – قال بيلتينبروس – أريد أنْ أكون فارسًا فيما تحتجن إلى فأصطحبكنَّ، ولكن إلى أين أنتن ذاهبات ؟

– إلى ميرافلورس – قالت الفتيات – لنزور دير الراهبات هناك، ولنزور أوريانا، ابنة الملك ليسوراتى، ولسوف نمضى بعض الوقت هنا حتى ينقشع الحر .

– باسم الله – قال هو – سأصحبكن حتى وقت رحيلكن .

ثم سألهما عن اسم هذا النبع .

– لا ندرى – قلن له – ولا نعرف أيضًا اسم أىَّ نبعٍ آخر يوجد فى هذه الغابة، إلا النَّبع الذى يوجد فى ذلك الوادى على مقربةٍ من تلك الأشجار، والذى يدعى نبع CANOS LA FUENTE DE LOS TRES (نبع المواسير الثَّلاث)

أرينه الوادى الذى كان هناك، ولكن يبدو أنَّه يعرفه، فقد مر من هناك مراتٍ كثيرةٍ فى رحلات صيده، وكان يريد مثل هذا النبع حتى يكون مكانًا محدَّدًا يتقابل فيه مع إينيل، الذى أراد أنْ ينفصل عنه فى الوقت الذى أراد فيه الذِّهاب لرؤية سيدته أوريانا .

وبينما يدور الحديث بينهم – كما سمعتم – رأوا عربةً قادمةً فى الطريق نفسه الذى كان يسير فيه بيلتينبروس، يجرها اثنا عشر جواداً، وهناك قزمان يسيران أمامها يقودانها كمرشدين، ورأوا داخلها عديداً من الفرسان المدَّججين بالسِّلاح وقد سُلكوا فى سلاسل، ودروعهم معلقة فى أعواد حديدية، وبينهم يجلس عدد من الفتيات والصِّغيران الجميلات يصحن بأعلى أصواتهن، وأمام العربة عملاق كان يحمل فى يده نبلة حديدها ما يقرب من الباع، وخلف العربة كان يسير عملاقٌ آخر ذو هيئةٍ مرعبة جدا وقد بدا أضخم من العملاق الأوَّل. انزعجت الفتيات لمثل هذا المنظر وتوارين خلف الأشجار من شدَّة الخوف والرُّعب اللذين ألَّما بهن، وهنا التفت العملاق الذى كان يسير فى المقدمة إلى القزمين، وقال لهما :

- سأعقابكما عقاباً أليما إذا لم تهدرا دم هذه البنات الصغيرات، لأنني في حاجة إلي مثل هذا الدم لأتقرب به إلى إلهي الذي أعبده .

وحين سمع بليتينبروس هذا علم أنَّ ذلك العملاق هو فامونجومادان، الذي تعوَّد على هذا الأمر وما يرغب في التَّنازل عنه، حيث تعوَّد على ذبح العديد من الفتيات أمام صنمٍ في بحيرة إيربينتي، والذي يتبع نصائحه وأوامره في كلِّ شأنٍ من شئونه، وبمثل هذه الأضحية يجد ربه راضياً، كمن أصبح العدو الشرير، الذي يرضى نفساً بمثل هذا الشرِّ الزَّائد، وبما أنَّه كان قد عزم على نزاله من قبل بسبب ما قاله في حقِّ سيدته أوريانا، فإنه لم - يكن يريد أنْ يقابله في تلك السَّاعة حتى يلتقي بسيدته أوريانا تلك الليلة، كما تم الاتفاق علي ذلك، فضلاً عن أنَّه قد خرج متعباً من ذلك النِّزال الذي قابل فيه عشرة فرسانٍ . لكنه حين علم حقيقة أولئك الفرسان الذين كانوا داخل العربة، ومعهم ليونوريتا وفتياتها، تألَّم كثيراً لرؤيتهم، فسيكون ذلك الغمُّ كبيراً الذي سيلمُّ بسيدته، وسيكون ذلك الغم أكبر حين تعلم مصير أختها هذا. ويبدو أنَّه حين انتهى من نزاله ورحل عن أولئك الفرسان، وأصبح الجميع في حالة مزريةٍ، وصل إليهم بعد قليل هذان العملاقان، الأب وابنه، فحملوهم معهم في هذه العربة - كما سمعتم - الفرسان ومعهم الفتيات والبنات الصغار، وذلك حتى يجمعوا في حوزتهم أكبر عدد ممكن من الأسرى. امتطى بليتينبروس جواده، وأمر إينيل بأنْ يعطيه سلاحه، لكنه قال له :

- لماذا تريد أسلحتك؟

- قال بليتينبروس - فقبل أنْ يمرُّوا أودُّ أنْ أجرب رحمة ربي، وإذا ما كان يرضيه أنْ أطيح بتلك القوة التي يزهو بها هؤلاء من أعدائه .

- آه سيدي - قال إينيل - لماذا تريد أنْ تفسد عليك رغبتك ؟ فلو أنَّنا نجد هنا الفرسان العشرين الممتازين الذين يملكهم الملك ليسوراتي لما تجرأ هؤلاء على اقتراف ما اقترفوه .

- لا تقلق - قال إينيل - فإذا ما سمحتُ لمثل هذا الأمر أنْ يحدث أمامي، دون أنْ أفعل ما في وسعي، فلستُ أهلا لأن أمثل أمام أناس طيِّبين، وسترى ماذا سأفعل .

قـدم إليـه إينيـل الأسلحـة وهو يبكى بكاءً شـديداً، وتوجّـه بليـتينبـروس نحـو العمـلاق، وقـبل أنْ يـصـل إليـه نظر فـرأى المكان الذى توجـد فـيـه سـيدته أوريانا، ميرافلورس، فقال :

– آه، سيدتي أوريانا، ما بدأت قط عملاً كبيراً يعتمد على مجهودٍ خارقٍ منِّي في أيِّ مكان وُجدتُ فيه إلا من أجلك وبمجهودك أنت، والآن سيدتي أسعفيني، فأنا في حاجةٍ إليك .

بهذا الاستدعاء أحسَّ قوةً كبيرةً تحلُّ به، فطردت عنه كلَّ خوفٍ أو فزعٍ، ونادى على القزمين لكي يتوقَّفا. وحين سمع العملاق هذا استدار نحوه والغضب يملؤه حتى شوهد الدُّخان يتصاعد من فتحة خوذته، ثم هزَّ النَّبلة في يده حتى طواها، وقال :

– أيُّها البائس، من ذا الذى أعطاك كلَّ هذه الجرأة حتى تتجرأ على المثول أمامى ؟

– ذلك الربّ – قال بليتينبروس – الذى تهينه، لقد أعطاني قوةً أملك بها اليوم كسر شموخك وغطرستك .

– إذنْ تعال إلي، اقترب – قال العملاق – سترى إذا ما كانت قدرة ربك ستهبك قوة تدافع بها عن نفسك أمامى .

وضع بليتينبروس رمحه باحكامٍ تحت إبطه، وانطلق بجواده قاصداً العملاق، فضربه ضربةً مؤلمةً تحت نطاقه، ولشدَّتها هشَّمت الصفائح الحديدية الحامية له، فدخل الرُّمح إلى بطنه فنفذ إلى الناحية الأخرى، وحمى وطيس المعركة، فوجَّه ضربة لقربوس السرج فأطاح بأربطته، الأمر الذى أدَّى إلى زعزعة السرج فهوى إلى الأرض ومعه العملاق تحت أرجل الجواد، وما زال العملاق جريحًا وبه جزء من رمح بليتينبروس يسكن جسده، ولكن قبل سقوط العملاق صوَّب إليه ضربة نبلةٍ فأصابت مؤخرة جواده وخرجت من بين رجليه، فترجَّل بليتينبروس سريعًا وأمسك بسيفه، غير أنَّ العملاق قد أصيب بجراحٍ مميتةٍ، وأصبح أسفل الجواد يجرُّه فيؤلمه، ولكن نظرًا لما تمتَّع به من قوةٍ هائلةٍ، تمكَّن من أنْ ينسل منه، وأخرج قطعة الرمح من جسده وألقى

بها في وجه بليتينبروس، فسدد إليه ضربةً مؤلمةً أصابت خوذته، كادت أنْ تطيح به أرضًا، ومن شدَّة الضَّربة أخرجت ما تبقى من أمعائه، وسقط على الأرض صائحًا، يقول لابنه :

- أسعفني يا باساجانتي، فأنا على وشك الموت .

وعلى أثر هذه الصَّيحة أتى باساجانتي على جواده بأسرع ما أمكنه، وأحضر معه فأسًا فولاذيةً ثقيلةً جدا، وتوجه نحو بليتينبروس يريد ضربه بها، ظنا منه أنَّه سيقسمه شطرين، غير أنَّه لشجاعته التي تحلَّى بها تفادى هذه الضَّربة، وحين عبر العملاق بجواره أراد أنْ يلحق الأذى بالجواد فما استطاع، وما أصابه إلا بطرف سيفه فقطَّع حزام سرجه ونصف ساقه . وما شعر العملاق بما أصابه نظرًا لما كان عليه من الغيظ، رغم أنَّ ركابه قد تزعزع، فعاد إليه مرَّةً أخرى . نزع بليتينبروس الدِّرع من عنقه وجعله على مقبض التُّرس، فسدَّد إليه العملاق ضربة بالفأس، فطرحه أرضًا، وضربه بليتينبروس بالسَّيف فأصاب ذراعه وكسرَ زرده، وانقضَّ على جسده بسيفه حتى بلغ أسفل درعه فقد كانت صفائحه من فولاذ رقيق فكُسر، إلا مقبضه، فما تبقى منه شيءً، لكنه لم يتأثر بذلك فما أغمي عليه وما تحوَّل عن شجاعته قط . ولما رأى العملاق يحاول إخراج الفأس من الدِّرع ولم يتمكَّن من ذلك توجَّه صوبه قدر استطاعته وأمسك بها، وكان من حسن حظه أنْ جذبه منها من الوجهة التي كان رباط السرج قد انقطع، ولَّما جذبه مرَّة أخرى انقلب العملاق، وذهب جواده مسرعًا، فهوى على الأرض وأصبحت الفأس في حوزة بليتينبروس، نهض العملاق في حماسٍ شديدٍ، وأخرج سيفه الكبير الذي كان قد أحضره معه، وأراد أنْ يهجم به على بليتينبروس، فخانته قواه بعد أنْ قطعت أوتار ركبته وغضاريفها في النِّزال، ثم جثا بركبتيه على الأرض، فسدَّد إليه بليتينبروس ضربةً قوية بالفأس أصابت خوذته، فتقطعت أربطتها وطارت من فوق رأسه، ولما رآه باساجانتي مستقرًا عنده وعلى مقربة منه ظنَّ أنَّه سيقطع رقبته، فسدَّد إليه ضربةً في أعلى الخوذة، فأطاح ما عليها من شكل التاج ونزع بعض شعر رأسه دون أن يبلغ لحمه، خرج بليتينبروس خارج الحلبة، وسقطت

خوذته فوق كتفيه، واستقر سيف باساجانتي بين الحجارة الكائنة بالمكان، وكسر نصفين، وظنَّ المراقبون للنِّزال أنَّ بليتينبروس قد فقد نصف رأسه، فتألموا كثيرًا، وفي تلك الأثناء جثت ليونوريتا على ركبتيها ومعها فتياتها راجين الله تعالى أنْ يخرجهنَّ من هذا المأزق الخطر الذي وقعن فيه، مشطّن شعورهن، وصحن بأعلى أصواتهن راجين العذراء، غير أنَّ بليتينبروس قد نزع خوذته عن رأسه، وتحسسها ليرى ما إذا كانت إصابته بالغة، فما وجد شيئًا، فتوجه حاملاً الفأس صوب العملاق، ورغم قوة هذا الأخير، فإنه حين رآه قادمًا إليه على هذا النَّحو خارت قواه، فما استطاع أنْ يتقي الضَّربة، فسدد إليه ضربةً فوق رأسه، فأطاح بإحدى أذنيه وفكيه على الأرض . وهنا سدد إليه العملاق ضربةً مؤلمةً فقطعت جزءًا بسيطًا من ساقه، وسقط على الجانب الآخر من ساحة النِّزال يتقلَّب عليها من شدَّة الألم الذى أصابه. فى تلك الأثناء نزع فامونجومادان الخوذة عن رأسه ووضع يديه على جرحه حتى يتوقَّف الدِّماء. وحين رأى ابنه يحتضر بدأ يسبُّ الرب معلنًا أنَّه غير نادم على موته بقدر ما يندم على عدم هدمه لكنائسه وأديرته التى يُتَعبدُ فيها لأنَّه قدَّر موته وموت ابنه على يد فارسٍ واحدٍ، وهو ما لم يكونا يتوقعانه قط .

وهنا جثا بليتينبروس على ركبتيه فى الأرض، شاكرًا ربه على هذا الفضل الذى وهبه إيَّاه، ثم قال لفامونجومادان :

– أيُّها الكافر بربِّك، ستدفع الآن ثمن غطرستك .

أمره بأنْ يرفع يديه عن جرحه، ثم قال له :

– ادع الصنم الذى تعبده بما أدَّيت إليه من دماء لا حصر لها أنْ ينقذك من هذه الضَّربة التى ستنهى حياتك .

ما فعل العملاق شيئًا سوى سبِّه للإله المعبود ولعباده الصَّالحين، وهنا أخرج بليتينبروس النَّبلة وسدَّها فى فمه، وبضربةٍ واحدةٍ أجهز عليه. ثم أخذ خوذة العملاق

باساجانتي فوضعها على رأسه حتى لا يعرفه أحد، وامتطى جواد فامونجومادان، الذي قدَّمه إليه إينيل، وتوجَّه إلى الطَّريق وبدأ مسيرته . وهنا شكرته الفتيات والفرسان كثيرًا على المعونة التي قدَّمها إليهم، غير أنَّه فكَّ عنهم قيودهم، ورجاهم أنْ يمتطوا جيادهم التي كانت مربوطةً إلى جذوع الأشجار هناك، وأنْ يحملوا معهم هذين العملاقين، وأن تمتطي ليونوريتا ووصيفاتها جياد حاملي السِّلاح، الذين أسروا أيضًا، وعليهم أن يحملوهم معهم، فيسلموا الجميع إلى الملك ليسوارتي من جانب غريب يدعى بليتينبروس، أراد أنْ يسدي إليه الخدمة، وأنْ يرووا له السَّبب الذي دفعه لقتالهم وقتلهم، وتوسَّل إليهم أنْ يعطوا الملك هذا الجواد الذي كان يمتطيه باساجانتي من طرفه هو، فقد كان جوادًا قويًا وجميلاً، وليمتطيه أثناء المعركة التي سيخوضها ضدَّ الملك ثيلدادان .

وعده الفرسان بأنَّهم سينفذون ما أمرهم به بكلِّ سرورٍ، ووضعوا العملاقين في العربة، وبما أنَّهما كانا في بسطهٍ وسعةٍ في الجسم فقد أصبح جزءٌ كبير منهما خارج العربة . وصنعت ليونوريتا والفتيات من الزهور الموجودة بالغابة أشكالاً جميلة زيَّن بها شعورهن، وانصرفن، وقد غمرتهن الفرحة وعلت أصواتهن بالغناء، متوجِّهات إلى لندن. وغمرت الفرحة الجميع حين رأوهم يدخلون إلى المدينة على هذه الهيئة ولرؤيتهم صورة العملاقين التي ما رأوا مثلها قط .

ولمَّا علم الملك بالإهانة التي تعرضت لها ابنته، وكيف أنَّ الفارس بليتينبروس قد فكَّ أسرها وخلَّصها من تلك الإهانة والخطر الذي أحدق بها، وكذلك لمَّا مثل أمامه السَّيد كوادراجانتي، فقدَّم نفسه على أنَّه هُزِمَ أمام بليتينبروس، تعجَّب الملك من شأن هذا الفارس الذي بدأ مؤخرًا في إلحاق الهزيمة بكلِّ من نازله على أرضه . وظلَّ يمتدحه مدَّةً طويلة، سائلاً الجميع إذا كان أحدٌ منهم يعرفه، ولكن أحدًا منهم لم يعرف عنه شيئًا . كما أوضحت من قبل كوريساندا وقالت إنَّها قد التقت بفارسٍ عظيمٍ يدعى بليتينبروس في الصَّخرة الفقيرة .

– الآن، علينا أنْ نحمد الله – قال الملك – أنْ جعل بيننا فارسًا كهذا، وأنا لن أدعه مهما طلب منِّي من أمر، وكان بمقدوري أنْ أصنعه له .

الفصلُ السَّادس والخمسون

كيف أنَّ بليتينبروس، بعد أنْ انتهت تلك المغامرات، ذهب إلى نبع لوس ترس كانيوس، ومن هناك قرَّر الذَّهاب إلى ميرافلورس، التى توجد بها سيدته أوريانا، وكيف أنَّ فارسًا غريبًا أحضر إلى قصر الملك ثلاث جواهر خاصة باختبار المحبين المخلصين، وكيف ذهب هو وسيدته أوريانا متخفيين بغية كسب اختبار المحبين هذا .

وحين انتهى بليتينبروس من هذه المواجهات ودَّع بكلِّ حماس وسرور الفتيات والفرسان، ثم عاد إلى الفتاتين اللتين كانتا بالقرب من النَّبع حين التقى بهما، واختفيا بين الأشجار عندما كان ينازل العملاقين، ولما خرجتا من بين الأشجار أتيتا إليه. أمر بيلتنيبروس إينيل أنْ يذهب إلى لندن لمقابلة جندالين الذى أرسل من قبل في طلبه، وأنْ يطلب منه صناعة أسلحة أخرى مثل تلك التى أحضرها له فى المعارك السَّابقة، وأنْ يشترى له سيفًا جيداً، وأن يأتى إليه ثانيةً بعد ثمانية أيَّام ليلتقى به عند ذلك النَّبع المسمى فونيتي دى لوس كانيوس، فسيكون في انتظاره هناك . ودَّع الفتيات كما ودع إينيل ودخل بين ظلمات الغابة، وذهب إينيل للقيام بما كلَّفه به، وأمَّا الفتيات فقد ذهبن إلى ميرافلورس، حيث قصصن على أوريانا ومابيليا كل ما رأينه، وأخبرنهما كيف أنَّ فارسًا يدعى بيلتنيبروس قد قام بالمهمة عن آخرها فخلَّصهن مما كنَّ يعانين منه، فحفهما جوٌ من المتعة والسَّعادة لا مثيل له، عارفتين أن بيلتنيبروس كان أقرب إليهم جميعًا، وحاز ذلك الشَّرف أكثر من أيِّ إنسانٍ آخر .

ولما واصل بيلتنيبروس سيره داخل الغابة – كما سمعتم – توجَّه صوب ميرافلورس، فوجد فى طريقه أشجارًا يجرى من تحتها نهر، ولما كان الوقت مبكرًا نزل عن جواده، وتركه يرعى حشيش الأرض، ونزع الخوذة عن رأسه وغسل وجهه وكفيه وشرب من الماء، ثم جلس يفكِّر فى أمور الدُّنيا التى لا تستقر على حال، فتذكَّر حالة اليأس التى مرَّ بها، وكيف أنَّه بتصرف إرادى منه أراد أنْ يلقى بنفسه من قبل إلى التَّهلكة، دون أنْ ينتظر أيَّة انفراجة لهمه الكبير وألمه الذى لم ينقطع، وكيف أنَّ الله، بفضل منه ورحمة لا عن استحقاق من البطل، أزاح عنه كلَّ ذلك العبء الثَّقيل، ليس بإعادته إلى سيرته الأولى، ولكن زاده مجدًا وشهرةً لم يعرف لهما مثيلاً من قبل، وخاصةً أنَّه أتاح له الفرصة ليكون أقرب من سيدته المحبوبة أوريانا حتى ينعم بها ويسعد، وهى التى خيَّم على قلبه حزنٌ وهمٌ شديدان لبعدها عنه، وهو الأمر الذى جعله يتذكَّر أنَّه على النَّاس فى هذه الدُّنيا أنْ يقللوا من ثروتهم فى ملاحقتهم للأمور يلهثون يعملون كثيرًا من أجل الحصول عليها، يعشقونها ويركزون فيها جُل اهتمامهم، وما يدرون أنها سرعان ما تُكتسب وسرعان ما تضيع، متناسين خدمة ذلك الرب القادر على كلِّ شىء الذى يهبهم إياها وبمقدوره أنْ يديمها عليهم . وحين تصبح هذه الأمور أمرًا أكيد فى فكرهم سوف يخدمونها من مجال اهتمامهم وهم مستاءون، وفى بعض الأحيان، دون أنْ تنزع منها الأنفس، وإنَّما خلاصها بكل تأكيد . وفى مرات عديدة حين نفقدها، دون أنْ يكون هناك أمل فى استعادتها يعيدها المولى عز وجل سيرتها الأولى، ليفهمنا بذلك أنَّه ليس للإنسان أنْ يثق بهذه أو تلك، وإنَّما علينا أن نفعل ما يجب علينا القيام به، وأن ندع بعد ذلك الأمر فى يد الله الذى له الحكم والأمر حقا، إذ بدون قدرته لا يمكن عمل شىء على الإطلاق .

آه يا من تحاولون بكلِّ مهارة وحذق اكتساب الثَّروات، كم عليكم أنْ تتطلعوا بهمة إلى أنه بكسب الثروات، وضياع الأنفس، فلكم تكون قليلة هى تلك المعونة التى تقدمها تلك الثَّروات لحمايتكم من العقاب الدَّائم، فإنَّ عدالة الله الباقى قرينة لأولئك لا تنفك عنهم !

بمثل هذه الأشـيـاء عـادت إليـه ذاكـرته وتبـدَّل حـاله، فـبلـغ ذروته . هكذا ظل بيلتنيبروس يفكِّر بالقرب من النَّهر، متأمِّلاً في داخله ذلك المجد والهيبة اللذين بلغهما على مدى يومٍ واحدٍ تعرَّض فيه لأحداثٍ ومغامراتٍ ضخمةٍ . مدركًا بأنَّه في أقلِّ من مثل هذه الفترة الزَّمنية يمكن للقدر أنْ يُحوِّل فرحته الغامرة هذه إلى أحزان، كما حـدث مـع أناسٍ كثيرين في هذا العالم بعد أن حققوا نجاحات عظيمة من وراء سلسلةٍ طويلةٍ من المغـامـرات . وحـين أقـبل الليل امـتطى جـواده، وتوجَّه إلى قلعة ميرافلورس، إلى ذلك الجانب من البستان الذي وجد فيه جندالين ودورين، فأخذا منه جواده . وأمَّا أوريانا ومابيليا والفتاة الدَّانماركية فقد كُن فوق السُّور، وبمساعدتهن ومساعدة حاملي السِّلاح، مددن إليه أيديهن، تمكن من الصعود إلى حيث هم وأخذ سيدته بين أحضانه .

ولكن من عساه يستطيع عد تلك الأحضان الغرامية، والقبلات العذبة، والدموع التي انسابت من الجانبين فاختلطت ؟ في الحقيقة، لن يستطيع ذلك إلا كل من مر بمثل هذه العاطفة بذلك الجو المهيب نفسه. فذلك القلب الذي كاد يحترق من لهيب الحبِّ يمكنه أنْ يلفظ كلَّ ما هو باردٍ بداخله، طالما مازال يتمتَّع بشبابه . وبالوصول إلى هذا الحـدِّ من وصـف الموقـف، سـنترك الحـديـث عنه بإسهاب أكثر من هذا . حين ظلا متعانقين هكذا وما يتذكَّران شيئًا دونما هـم فيه الآن أتـت مابيليا، كمن أيقظتهما من حلمٍ عميقٍ، فأخذتهما معها إلى القلعة . وهناك ظل بيلتنيبروس بحجرة أوريانا حيث – وفقًا لما سمعتموه آنفًا – قضى وقتًا أطيب مما لو كان في الجنَّة . ظلَّ إلى جوار سيدته ثمانية أيَّام، إذا ما استثنينا منها فترات الليل ، قضاها إلى جوارها في فناء أحاطت به الأشجار الجميلة التي روينا لكم شيئًا عنها، بعيدين عن كل ما يعكر صفوهما – في هذا الجوِّ الجميل – من متعلقات الدُّنيا . إليهما أتى جندالين مرَّات عديدة، فأحاطهما علمًا بكلِّ ما كان يدور في القصر، وكان يقطن معه إينيل ليصنعا الأسلحة التي أمر بها بيلتنيبروس.

بدأت الشُّكوك تتسرَّب إلى فكر الملك ليسوارتي بشأن المعركة التي سيخوضها ضدَّ الملك ثيلدادان، نظرًا لما يعلم عن شجاعته وصلابة العماليق ورجالهم الذين

ينتسبون إليهم ويشاركونهم المعركة، بدأ يشغل نفسه بالإعداد لهذه المعركة وكيف يخرج منها منتصرًا لشرفه، فوجد إلى جواره بلندن كلا من فلوريستان وأجراخيس وجلبانيس وهم لا وطن لهم، الذين وصلوا توا، ومجموعة أخرى من الفرسان الذين يمكن إعدادهم لمثل هذا النِّزال . بدأ الجميع يتكلم عن الأعمال العظيمة التى فعلها بليتينيبروس، وأكدوا أنَّها فاقت فى معظمها الأعمال التى ينجزها أماديس، ولقد كان لمثل هذا الكلام وقعة الثقيل على فلوريستان وجالاؤر، ولو لم يكن هناك التزام من جانبها على إثر الكلمة التى أعطياها للملك بألاَّ ينازلا أحدًا حتى تنقضى هذه المعركة، لذهبا بحثا عنه ونازلاه، وأعملا فى هذه المعركة كلَّ أنواع الغضب والكراهية فإما حياته أو حياتهما، وقرَّرا أنَّهما إذا ما خرجا على قيد الحياة من هذه المعركة، فلن يفعلا شيئا سوى البحث عنه، لكن كان مثل هذا الكلام يدور بينهما ودون أنْ يعلم به أحدٌ من الحاضرين. كان الملك ذات يومٍ بقصره يتحدَّث مع فرسانه، فدخل من الباب حامل سلاحٍ عجوز ومعه اثنان آخران عليهم جبةٌ خاصة، وبدا أشعث أغبر، كبير الأذنين أبيض الشَّعر . توجَّه صوب الملك، أدَّى إليه التَّحية، ثم كلَّمه بلغة أهل اليونان، فقد كان يونانى الأصل، وقال له :

- سيدى، لقد بلغت شهرة فرسانك وسيداتك وفتياتك بهذا القصر آفاقا عالمية، وهذا هو ما شجَّعنى على المجىء إلى هنا لأرى ما إذا كنت سأجد بينهم أو بينهن ما أبحث عنه منذ ستين عاما فى كل أنحاء الدُّنيا، دون أنْ أجنى ثمارًا تذكر من وراء كلِّ هذا العناء . وإذا ما رغبت سيدى الملك فى أنْ أقدِّم دليلاً أمامك هنا ليس فيه أذى أو ضرر عليك، فأنا على استعدادٍ لتقديمه .

ولمَّا وجد الفرسان فى أنفسهم شوقًا لمعرفة ما يتحدَّث عنه أخذوا يتوسلون إلى الملك كى يسمح له بذلك، وكان الملك بدوره تواَّقًا لمعرفة ذلك أيضًا، أعطاه الإذن . وهنا تناول العجوز صندوقًا من اليشْب فى يديه بلغ طوله ثلاثة أذرع وعرضه شبرٌ واحدٌ، كانت ألواحه ملصقة بصفائح من ذهبٍ، فتحها فأخرج منها سيفًا غريبًا جدا، وكان غمده عبارة عن لوحين بلون أخضر كلون الزُّمرد، وكان من عظمٍ رقيق للغاية يشف عن حديد السَّيف الموجود بالدَّاخل، لكنَّها لم تبلغ فى صفائها الأخرى، فقد

بدا نصفها شفافًا ونظيفًا فما أمكن له أنْ يكون أفضل من هذا، وكان النِّصف الآخر وهَّاجًا وأشهب اللون كما لو كان نارًا . كانت زينة السَّيف والحزام المصاحب له من عظام الغمد نفسها، صنعت من قطعٍ متفرقةٍ جمعت فيما بينها بمثبتات ذهبية، فبدت بصورة في غاية الجودة، وعلى هيئة نطاق آخر يمكن الانتطاق به . علَّقه حامل السِّلاح بعنقه، وأخرج من الصُّندوق زينة للشَّعر صنعت من مجموعة جميلة من الزُّهور، جاء نصفها في غاية الجمال رائع الألوانه ألوان غضة وحية كما لو كانت قد قطفت لتوها من أشجارها، وأمَّا النِّصف الآخر فهو عبارة عن زهورٍ جافةٍ بدت تذوب في يد من يلمسها لأوَّل مرةٍ .

هنا سأل الملك عن سبب اختلاف طبيعة هذه الزُّهور وهي تخرج من فرع واحد، جزء منها غض طري، والآخر جاف هش، والسيف يبدو هكذا غريبًا كما ترى .

- سيدى الملك - قال حامل السِّلاح - إنَّ هذا السَّيف لا يمكن لأحد أنْ يخرجه من غمده إلا ذلك الفارس الذى أحبَّ سيدته أكثر من أىِّ شيءٍ في الوجود، وحين يصبح السَّيف في يده سيتحول هذا الجزء المتوهج منه إلى ماءٍ بارد مثل الجزء الآخر، هكذا نرى أنَّ الحديد من نوع خاصٍ، وهذه الزِّينة الوردية التي ترون، إذا ما وضعت فوق رأس سيدةٍ تحب زوجها أو صديقها بالدرجة نفسها التي يحب بها ذلك الفارس سيدته، فإنَّ الجزء الجاف منها يتحول إلى زهورٍ غضةٍ مزهرةٍ مثل البقية الباقية، دون أنْ يلحظ أىُّ فارق بينهما، ولتعلم أنَّني لا يمكن أنْ أكون فارسا إلا على يد ذلك الذى يتمكَّن من إخراج السَّيف من غمده، ولا أن أحمل سيفا إلا على يد تلك السَّيدة التى تكسب هذه الزِّينة الوردية . ولهذا سيدى الملك، أتيت الى قصرك بعد ستين عاما قضيتها بحثًا عن هذا الأمر، وفي رأيى أنَّني ما رأيت على مدى تلك السِّنين بلاطًا لإمبراطور أو ملكٍ بلغ في الشَّرف والشُّهرة ما بلغه بلاطك، وسوف أجد فيه ما لم أعثر عليه من قبل في تلك القصور التى زرتها .

- الآن قل لي - قال الملك - كيف لهذه النَّار الموقدة ألا تحرق نصف هذا الغمد ؟

- هذا ما سأقوله لك - قال العجوز - عن طيب خاطرٍ منِّي، لتعلم أيُّها الملك أنَّه بين ترتاريا والهند يوجد بحرٌ ساخنٌ، يغلي كالماء فوق النَّار، ذو لون أخضر، وفي هذا البحر تعيش ثعابين أكبر من التَّماسيح، ولها أجنحة تطير بها، في جسدها سم يجعل النَّاس تفرُّ منها خوفا، ولكن حين يعثرون عليها ميتة في بعض الأحيان يثمنونها كثيرا، إذ يستفيدون بها في عمل الأدوية inelecinas وهذه الأسماك بها عظم يمتد من رأسها حتى ذيلها، وهو عظْم سميكٌ يقوم عليه بناء الجسم كله، عظم أخضر اللون كما ترونه هنا في هذا الغمد وهذه الزِّينة، وبما أنَّ هذا النَّوع من الأسماك ينمو في هذا البحر المسحور لا يمكن لأيِّ نارٍ أخرى أنْ تحرق هذا العظم . الآن أحدثك عن الزِّينة الزَّهرية، فهي زهور أخذت من أشجار موجودة بأرض تارتاريا بجزيرة في عمق البحر تبعد مسافة خمسة عشر ميلاً عن اليابسة، ولا يزيد عدد الأشجار هناك عن شجرتين، ولا يعرف ما إذا كان يوجد مثل هــذه الأشجار في مكان آخر، وفــي البحر تحدث دوامةٌ كبيرةٌ وخطيرةٌ، لدرجة أنَّ النَّاس يخشون خوض البحر لقطع مثل هذه الزُّهور، ولكن هناك من يغامر بحياته فيذهب لإحضارها وبيعها كما يحلو له، فهي أزهار إذا ما بيعت لا يمكن لخضرتها أنْ تجفَّ أبداً. وبمُا أنَّني قد حدثتك الآن عن سرِّ هذين الشَّيئين، أودُّ أنْ تعرف الدَّافع وراء مجيئي ومن أنا . اعلم أنَّني ابن أخ لذلك الرَّجل الذي يعدُّ أفضل أهل زمانه، والذي كان يعرف باسم أبوليدون، وظلَّ لفترةٍ طويلةٍ يعيش على هذه الأرض التي تملكونها، في الجزيرة اليابسة، حيث ترك وراءه أشياء عديدةً ساحرةً ومثيرةً للعجب، كما يبدو للنَّاس جمعيًا، وأما والدي فهو الملك جانور الذي ترك لي الملك، ومن ذلك الملك جانور وابنة الملك كانونيا ولدت أنا، ولما بلغت سن الفتوة - وكانت والدتي تحبني حبا جما - طلبت منيِّ أنْ أتعهد أمامها، بعد أنْ أتيت الى هذا العالم نتيجة الحب الكبير الذي جمع بين والدي ووالدتي، بألاَّ أصبح فارسا إلا بمباركة فارسٍ هو أكثر أهل الأرض وفاء في حبه، وألا أحمل السَّيف إلا من يد تلك السَّيدة أو الفتاة التي تحمل في قلبها مثل هذا

الحب . وعدتها بذلك معتقدا أنَّنى لن أتأخَّر فى إنجازه إلا بقدر ما أجدنى فى حضرة عمى أبوليدون وصديقته، جريمانيسا، إلاَّ أنَّ الأمر وقع عكس ذلك تماما. فحين وصلت إليه وجدت أنَّ جريمانيسا قد توفيت، وما إنْ عرف أبوليدون سبب مجيئي حتي عده وصمة عارٍ، لأنَّه قد جرت عادة تلك الدِّيار ألاَّ يحكم أحدٌ دون أنْ يصبح فارسًا، وبهذا لم يكن لي أنْ أتولَّي الحكم الذى هو حق لي . وهكذا، وحين وجد أنَّ الأمر لن يعالج في الوقت الرَّاهن أمرني أنْ أعود إليه بعد عامٍ، فعدت إليه فأعطاني هذا السَّيف وهذه الزِّينة، وقال لي إنَّ البلاهة التي أحاطت بوعدي هذا سيتم إصلاحها بعد البحث عن الفارس والمرأة اللذين بقيامهما بهاتين المغامرتين، يمكناني من إنجاز وعدي . وهكذا، سيدي الملك، قد شرحت السَّبب الذى جئت من أجله، ولتأمر بأنْ يمثل أمامك كلُّ النُّبلاء والفرسان بالمملكة، ولتجرب معهم السَّيف، وكذلك فلتجرِّب الملكة هذه الزِّينة الزهرية مع فتياتها وسيداتها، وإذا ما كان هناك من يقوم بهذه المهمة فستكون الجواهر من حقه والفائدة والرَّاحة لي، وسوف يكون لك الشَّرف أكثر من أيِّ نبيل آخر إن وجد في بلاطك مثل هؤلاء .

وحين انتهي حامل السِّلاح العجوز من تقديم دوافعه أقدم كلُّ الفرسان الذين كانوا في حضرة الملك عليه يرجونه أنْ يهم بعمل الاختبار، وقد فعل، وقال لحامل السِّلاح إنَّه يبقي علي عيد سانتياجو (شانت ياقب) آكثر من خمسة أيام، وفي ذلك اليوم سيمثل أمامه فرسان كثيرون أرسل في طلبهم، فلينتظر حتي يأتي ذلك اليوم . إذ حين يوجد عددٌ كبيرٌ من الفرسان يكون في ذلك فرصة أكبر لتحقيق ما يريد . فوافقه علي طلبه .

وأمَّا جندالين، الذى كان ما يزال بالقصر وسمع كلَّ ما قاله حامل السِّلاح وردَّ الملك عليه، فقد امتطي جواده وتوجَّه إلى ميرافلورس بحجة رغبته في رؤية مابيليا. دخل إلى فناء الأشجار الجميلة، فوجد بيلتينبروس وأوريانا يلعبان الشَّطرنج، فقال لهما :

– سيدى وسيدتى، أتيتكما من البلاط بأنباءٍ غريبةٍ وردت إليه اليوم .

وهنا بدأ يحكي لهما أمر السَّيف والزِّينة الوردية، والسَّبب الذى أتى بحامل السِّلاح إلى هناك، وكيف أنَّ الملك قد وعده بإجراء الاختبار الذى أراده، كما قصصناه عليكم من قبل . ولما سمع بيلتينبروس هذا أطرق برأسه وجال بخاطره فى عالم الأفكار بحيث لم يعد يرى آخر شيئًا من هذا العالم كله سوى أوريانا ومابيليا وجندالين . ظلَّ على هذه الحال مدةً، خرجت خلالها مابيليا بصحبة جندالين . ولمَّا عاد إلى وعيه سألته أوريانا عن سبب كلِّ هذا التَّفكير العميق، فقال لها :

– سيدتى، لو أنَّنى أعملت فكرى فى ربِّى ثمَّ فيك لكان فى ذلك سعادتى على مرِّ الأيَّام .

– صديقي العزيز – قالت أوريانا – من جعلك قيِّمًا على النَّفس سيجعل الوفاء بأىِّ شيءٍ آخر أمرًا سهلاً .

أخذها من يدها وقبَّلها عدَّة مرَّاتٍ، ثم قال :

– سيدتى، ما كنت أفكِّر فيه هو أنَّه لو أنَّنى وأنت كسبنا هذه المجوهرات سيصبح قلبانا فى سعادةٍ أبديةٍ، وبهذا سنبعد عنهما الشُّكوك التى عانينا منها كلَّ هذه المدَّة .

– كيف يمكن أنْ يحدث هذا – قالت أوريانا – دون أنْ يلحقنى عارٌ وخطرٌ كبيران، ومثل ذلك للفتيات اللاتى يعرفن حبَّنا ؟

– سيتم ذلك على أفضل وجه – قال بيلتينبروس –، ولسوف أحملك متخفِّيةً تمامًا وسأحصل على ضمان تامٍ من والدك الملك حتى لا يكشف عن هويتنا، كما لو كنا نمثل أمام أناس لا يعلمون عنا شيئًا .

– إذا كان الأمر كذلك، فليكن لك ما تريد، وليكن فى ذلك خيرٌ بإذن الله، فأنا لا أشكُّ فى أنْ أحوز تلك الزِّينة، إذا ما كان كسبها يتوقَّف على الحبِّ .

قال لها بيلتينبروس :

– سأعمل على أنْ أضمن من جهة والدك ألا أؤمر بشيءٍ ضد إرادتي، وسأذهب مدجَّجًا بكلِّ سلاحٍ، وأنت سيدتي، ستحملين ثوبًا من الخرز والفضَّة والذَّهب وقناعًا يغطي وجهك، بحيث تتمكَّنين من رؤية الجميع دون أنْ يراك أحدٌ، وبهذه الطَّريقة نذهب ونأتي دون أنْ يعرفنا أحد .

– صديقي العزيز – قالت أوريانا – يبدو لي طيبًا ما تقول، ولندع مابيليا، فبدون نصيحتها لا أتمكَّن من خوض مثل هذا الأمر الجلل .

وهنا دعياها ومعها الفتاة الدَّانماركية وجندالين . وأخبراهم بما اتفقا عليه، ورغم أنَّهم رأوا أنَّ الخطر عظيمٌ في مثل هذا الأمر، فإنهم حين عرفوا أنَّ هذه رغبتهما لم يعارضوها، بل قالت لهما مابيليا :

– لقد أرسلت إلى والدتي الملكة من بين الهدايا الأخرى التي أرسلتها لي مع الفتاة الدَّانماركية، معطفًا جميلاً جدا وجيد الصُّنعة لم يلبسه أحدٌ قط، وما رأى مثله أحد في هذه الدِّيار، وسيكون هذا هو المعطف الذي سترتدينه سيدتي. ثم حملوا أوريانا إلى غرفة، وألبسوها كما لو كانت ستذهب به الآن وSUS LÚAS في يدها والقناع على وجهها، أحضروها أمام بليتينيبروس، ومهما نظر إليها ونظروا هم معه من كل جانب لم يجدوا شيئًا يدلُّ عليها مما تحمله، وبالتَّالي سيكون من العسير ذلك على أيِّ إنسانٍ آخر، وقال بيلتينبروس:

– ما اعتقدت أبدا، سيدتي، أنَّ السعَّادة تكمن في النَّظر إليك دون أنْ أعرفك .

ثم أمر جندالين بعد ذلك بأنْ يذهب إلى البلدة ليشتري أجمل جوادٍ يمكنه العثور عليه هناك، وليحضره يوم الاختبار هناك عند حائط البستان بعد منتصف الليل، كما أمر دورين أيضًا أن يكون في انتظاره، عندما يجنُّ الليل بجواده في ذلك المكان الذي دخلوا منه إلى البستان، لأنه يود أن يذهب في طلب أمان الملك وأن يأخذ من إينيل الأسلحة التي أحضرها له .

وأخيراً حين أتت السَّاعة المحــدَّدة خرج هو إلى البستان، وامتطى جواده، وانصرف وحيداً بين جنبات الغابة، التي كان يعرفها حقَّ المعرفة، كمن كان يذهب إليها مراراً وتكراراً في رحلات صيدٍ، وما إن طلع الفجر وجد نفسه عند النَّبع، وما تأخَّر به الوقت حتى رأى إينيل قادماً يحمل الأسلحة جيــدة الصَّنعــة جميلة المنظر، فسر لذلك كثيراً، فسأله عن أخبار القصر . فأخبره أنَّ الملك ومن حوله مازالوا يتحدَّثون عن أعماله العظيمة الطَّيِّبة، وأراد أنْ يحكي لــه أمر السَّيف والزِّينة، إلا أن بيلتينبروس قال له :

- هذا الأمر أعلمه منذ ثلاثة أيَّام من قبل إحدى الفتيات، بدعوى أنَّها ذاهبة إلى هناك لتخوض الاختبار متخفِّيةً، ويبدو لي أنَّها ستخوض هذا الاختبار على هذا النَّحو، وسأذهب معها متخفياً أيضاً، وسأجرب السَّيف، وأحيطك علماً بأنَّني أودُّ ألاَّ يعرفني الملك ولا أيُّ شخصٍ آخر هناك حتى أكون أهلاً للفوز بمجهودي الشَّخصي، وعليه فلتذهب إلى الملك وترى إذا ما كان يؤمنني أنا وفتاة أحضرها معي، بحيث لا يسألنا أو يفعل معنا أحدٌ شيئاً لا نرغب فيه، سأحضر أنا والفتاة هذا الاختبار الخاص بهذه المغامرة، ولتشع بين الملكة وفتياتها وسيداتها بأنَّ الفتاة قد حملتني معها إلى ذلك الاختبار رغماً عنِّي، وأنَّني لا أملك أنْ أفعل شيئاً آخر، فقد وعدتها بذلك. وفي اليوم الذي سيكون فيه الاختبار تعال إلى هذا المكان عند طلوع الفجر، حتى تعلم الفتاة إذا ما أتيت بالضَّمان المطلوب أم لا، وفي غضون ذلك سأذهب لأحضرها، فهي تعيش بعيداً عن هنا .

قال له إينيل إنَّه سيفعل ما أمره به، وقدَّم إليه الأسلحة ثم انصرف ليفي بما وعد به سيده . ذهب بيليتينبروس إلى النَّهر الذي سمعتم عنه، وظلَّ هناك حتى الليل، وبعد ذلك رحل إلى ميرافلورس . وحين وصل إلى هناك وجد دورين، فأخذ منه الجواد، وذهب هو إلى مدخل البستان، حيث رأى هناك سيدته أوريانا والأخريات معها، فأحسن وفادته وأعطاهن أسلحته ثم انصرف . قالت له مابيليا :

- ما هذا سيدى ؟ أتيت فى أبهى حلَّةٍ عن وقت رحيلك من هنا .

- لن تفهموا هذا الأمر - قالت أوريانا - اعلمن أنَّه قد خرج يبحث عن أسلحة تمكِّنه من الخروج من هذا السِّجن .

- هذا عين الحقيقة - قالت مابيليا - لابد لكن من النَّصيحة، فسوف تنازلنه .

هكذا انصرف الجميع إلى القلعة في جو يسوده المرح، حيث قدموا له الطَّعام فما كان قد ذاق طعاماً قط طوال اليوم حتى لا يكشفه أحد .

الفصل السَّابع والخمسون

كيف أنَّ بيلتينبروس وأوريانا قد أرسلا الفتاة الدَّانماركية إلى بلاط الملك كي تأتي إليهما بالإجابة على الأمان الذى أرسلا فى طلبه، وكيف ذهبا إلى الاختبار، وكيف أنَّهما فاقا كل من تقدَّم له

فى اليوم التَّالى أمرا الفتاة الدَّانماركية بالذَّهاب إلى لندن كى تعرف الإجابة التى أعطاها الملك لإينيل، وتخبر الملكة والفتيات بالقصر أنَّ أوريانا قد أحسَّت بتعبٍ بعض الشَّىء، وما استراحت منه بعد . ذهبت الفتاة فى طلب ما أُمِرَت به وما عادت إلا بعد فترةٍ طويلةٍ، وجاء تأخيرها بسبب أنَّ الملك قد خرج فى استقبال الملكة بريولانخا، التى أتت إلى هناك، وأحضرت معها مائة فارسٍ للبحث عن أماديس كما قسمها أخواه وأحضرت معها عشرين فتاةً يرتدين عباءاتٍ سوداء كالتى ترتديها، ولن تتركهم حتى تعرف أخباراً عنه، وترغب فى البقاء هناك إلى جوار الملكة حتى يعود فرسانها، أو تعرف أخباراً عن أماديس . وهنا قالت لها أوريانا :

– أرأيتها جميلة كما يقولون ؟

– كان الله في عوني سيدتي – قالت الفتاة – فبعدك، سيدتي، أراها أجمل وأرشق فتاة في هذا الوجود . ولقد استاءت كثيراً حين علمت بالوجع الذى ألم بك . وحملتنى رسالة إليك بأنَّها راغبةٌ في رؤيتك حين تتعافين .

– سأشرف بمقابلتها – قالت أوريانا – فهي أعظم شخص فى هذا الوجود أتمنَّى مقابلته ورؤيته .

- أكرميها - قال بليتينيبروس - فهى تستحق الإكرام سيدتى، مهما كان تفكيرك عنها

- صديقي العزيز - قالت أوريانا - دعنا من هذا، فأنا على يقينٍ من أنَّ ما فكَّرت به لم يكن حقيقةً أبداً .

- الآن أفهم - قال هو - أنَّ ما يحيط بنا فى الحاضر تجاه هذا الاختبار سيجعلك أكثر حريةٍ من الالتزام، وسيجعلنى خاضعاً ملتزماً فحسب .

- إذا كان ما مضى - قالت أوريانا - قد وقع نتيجة حب جارف من ناحيتى تجاهك فسوف تكون تلك الزِّينة الوردية، حسب ثقتى في ربِّى، بمثابة شاهدٍ على ذلك .

وقد أخبرتهما الفتاة بأنَّ الملك قد منح إينيل الضَّمان الذى طلبه منه .

فى مثل هذا الأمر وغيره من الأمور الكثيرة أمضيا ذلك اليوم والأيام التى تلته حتى جاء موعد الاختبار الذى لابد من اجتيازه . وفي تلك الليلة قاما من نومهما فى منتصف الليل وألبسوا أوريانا المعطف الذى سمعتم به ووضعوا القناع على وجهها، وأما بيلتينبروس فقد حمل أسلحته الجديدة الماضية التى أحضرها له إينيل، وسارا بجوار حائط البستان، فامتطت الجواد الذى كان قد أحضره جندالين، وأما بيلتينبروس فقد امتطى جواده، وسارا وحدهما عبر الغابة سالكين طريق نبع لوس ترس كانيوس، وقد تملَّك الخوف كلا من مابيليا والفتاة الدَّانماركية من أنْ يتعرَّف عليها أحدٌ، ولكن سرعان ما تبدل ذلك الوميض من الفرحة وسط كل ذلك الظَّلام الحالك، ولما رأت أوريانا نفسها وحيدةً مع صديقها وسط الغابة ليلاً داخلها خوف شديد، فارتجف جسدها وما استطاعت أنْ تنطق بكلمة، وأخذت تتشكَّك فى عدم إمكانية اجتياز هذا الاختبار وأنَّ صديقها، رغم أنه على يقين من حبِّه، من الممكن أنْ تعتريه بعض الشُّكوك، ويتمنَّى ألاَّ يُزج به فى هذا السَّبيل . ولما رأى بليتينبروس القلق يخيِّمُ عليها قال لها :

- سيدتي، لو علمت أنك ستتشكّكين في الذّهاب إلى ذلك المكان لفضلت الموت على أنْ أضعك في مثل هذا المأزق، ويبدو أنَّه من الأفضل أن نتراجع .

وهنا أدار جواده وجواد أوريانا وجهتيهما السَّابقة، ولكن عندما رأت أوريانا أنَّها قد تسببَت في تعكير صفو ذلك الجو الذى عاشا فيه تغَّير قلبها، وقالت له :

- صديقي العزيز، لا تنظر إلى ذلك الخوف الذي ينتابني لكوني امرأة حين رأيت نفسي في مكانٍ غريبٍ عليَّ مثل هذا، وإنَّما عليك أنْ تنظر إلى ما يجب عليك أنْ تفعله بوصفك فارساً طيباً .

- سيدتي العزيزة - قال هو - بما أنَّ حصافتك غلبت جنوني اعذريني، فما كان لي أنْ أتجرأَ على أنْ أفعل شيئًا سوى ما تأمرينني به وفق إرادتك .

وحينئذٍ أرجعا الجوادين سيرتهما الأولى ووصلا إلى نبع لوس ترس كانيوس قبل ساعةٍ من طلوع الفجر، وما إن أشرق نور الصَّباح حتى أقبل إينيل، الذى سعدا به، فقال بيلتينبروس:

- سيدتي، هذا هو حامل السَّلاح الذى أخبرتك بأنَّني قد أرسلته إلى الملك من طرفي، فلننظر بماذا يرجع .

أخبرهم إينيل بأنَّ كل ما طلبه بيلتينبروس من الملك قد أجيب إليه، وبعد أداء الصَّلوات سيبدأ الاختبار . قدَّم إليه بيلتينبروس الدّرع والرُّمح، ودون أنْ ينزع الخوذة عن رأسه، ساروا في طريقهم إلى لندن، وطال بهم المسير، حتى دخلوا عبر باب المدينة . نظر الجميع إليهم قائلين :

- هذا هو ذلك الفارس الطَّيِّب بيلتينبروس الذى أرسل هنا السَّيد كوادراجانتي إلى العماليق، وبالتَّأكيد إنَّه شرفٌ للفروسية، وهذه الفتاة التى تأتي في صحبته لابد لها أنْ تكون من الصالحات الطَّيِّبات .

وهنا بدت أمارات النضارة على أوريانا حين رأت نفسها، بعد سماع كل تلك الكلمات، زوجة ذلك الذى أسر الجميع بأفعاله الكبيرة والعظيمة . وهكذا وصلوا إلى

قصر الملك، حيث كان الملك موجوداً هو وفرسانه والملكة وفتياتها وسيداتها في الصَّالة انتظاراً لذلك الاختيار، ولما علموا بمقدمهم خرج الملك إلى باب الصَّالة ليكون فى استقبالهم، وحين وصلوا إليه انحنوا أمامه وقبَّلوا يديه، ولم يرد الملك أنْ يعطيهم يديه، ثم قال :

– صديقي العزيز، انظر فكلُّ ما تصبوا إليه سأنفِّذه لك فوراً عن طيب خاطرٍ، كمن في وقت قصير جدا قدم لي خدمة أفضل مما قدمه فارس لملك في هذا الوجود .

شكره بيلتينبروس على هذا بكلِّ تواضعٍ وما رغب في الكلام، وذهب مع فتاته إلى حيث توجد الملكة . وهنا بدأت عظام أوريانا ترتجف من الخوف الذى تملَّكها بعد أنْ رأت نفسها أمام والدها ووالدتها، تخشى أنْ يعرفها أحد، ولكنَّ صديقها لم يتركها من يده قط، وأديا لها التَّحية، فرفعتها الملكة من على الأرض بيديها، وقالت :

– أيَّتُها الفتاة، أنا لا أدرى من أنت، فما رأيتك قط ولكن لأجل تلك الخدمات الكبيرة التى فعلها من أجلنا هذا الفارس الذى أتى بك معه، وبما تساوينه عندي، فسوف نشرِّفكما ونقدِّم لكما من العناية ما يليق بكما .

شكر لها بيلتينبروس ما قالته، غير أنَّ أوريا لم ترد بكلمةٍ تذكر، وأطرقت برأسها تعبيراً عن التَّواضع . أصبح الملك إلى جوار فرسانه على جانب من جوانب الصَّالة، والملكة قد احتلت الجانب المقابل وبجوارها فتياتها وسيداتها . وقال بيلتينبروس للملك إنَّه يرغب في أنْ يجلس بجوار فتاته فى جانبٍ آخر حتى يتمكنا من إجراء الاستعدادات اللازمة للاختبار . وافق الملك على طلبه .

وهنا ذهب الملك وتناول سيفا كان هناك فوق المائدة، وأخرج مقدار يد واحدة منه لا غير، وهنا قال له ماكندون حامل السِّلاح الذى أتى بهذا السَّيف:

– أيُّها الملك، إذا لم يكن في قصرك محب آخر غيرك، فلن أذهب من هنا بما أرغب .

وعاد فأدخل السَّيف، فقد كان من المناسب أنْ يفعل ذلك في كلِّ مرةٍ . وبعد ذلك جرَّبه جالاوِر، وما أخرج أكثر من ثلاثة أصابع وبعد أنْ خاض التَّجربة كل من فلوريستان، وجلبانيس، وجروميدان، وبراندو إيبياس، ولاداسين، وما أخرج واحد منهم أكثر مما أخرجه فلوريستان، الذي أخرج كفا، ثم بعد ذلك خاض التَّجربة السَّيد جيان الكويدادور، فأخرج النِّصف . وهنا قال له ماكندون :

– لو أنَّك أحببت ضعف ما أنت عليه، لربحت السَّيف، وربحت أنا ما أخذت أبحث عنه منذ زمنٍ طويلٍ .

وبعده خاض التَّجربة ما يزيد على مائة فارس من أصحاب الهمة، وما تمكن واحد منهم من إخراج السَّيف، وظلَّ الحال هكذا وما تمكن أحدٌ قط من إخراجه . وهنا قال ماكندون عن كل من خاضوا التَّجربة إنَّهم قد ألبسوا حبهم بالهرطقة . وهنا تقدَّم أجراخيس لتجربته، وقبل أنْ يلمسه نظر إلى حيث توجد سيدته أوليندا، واعتقد أنَّ السَّيف، تبعًا لحبه العفيف والصادق الذي يكنه لها، سيكون من نصيبه، وقد أخرج قدرًا كبيرًا من السَّيف ولم يتبق سوى قدر يد واحدة، وحاول أنْ ينزعه بشدَّةٍ حتى بلغت النَّار الموقدة بالسَّيف ثيابه فأحرقت جزءًا منها، وقد فرح فرحًا شديدًا لكونه قد أخرج أكبر جزءٍ منه، وتركه ثم عاد إلى حيث كان، ولكن قبل أن يعود قال له ماكندون :

– سيدي الفارس، كنت على وشك أنْ تحقِّق لنفسك السَّعادة ولي أنا الرضا .

وبعد ذلك خاض التَّجربة كلٌ من بالومير ودراجونيس، اللذين وصلا إلى القصر قبل ذلك بيوم، وأخرجا من السَّيف قدرًا كبيرًا مثل السَّيد جالاوِر، وقال لهما ماكندون :

أيُّها الفارسان، إذا ما فصلتما من السَّيف المقدار الذي أخرجتماه، فلن يتبقى لكما منه قدرًا كافيًا تدافعان به عن نفسيكما .

– حقا ما تقول – قال دراجونيس – ولكن إذا ما حصلت أنت في نهاية هذا الاختبار على أنْ تكون فارسًا، فسيكون ذلك مدعاةً للسُّخرية .

ضحك الجميع لما قاله دراجونيس، ولم يتبق أىُّ شخصٍ فى القصر لم يخض هذه التَّجربة، وهنا نهض بيلتينبروس وأخذ سيدته من يدها وذهب إلى حيث يوجد السَّيف، وقال له ماكندون :

– سيدى الفارس الغريب، هذا السَّيف يبدو أفضل من هذا الذى أتيت به، ولكن رغم ذلك فلا تدع هذا الأخير، لأنَّ هذا الذى أمامك لن يحوزه أحد إلا بقوة الحب القلبى لا بقوة السِّلاح .

وهنا أمسك بيلتينبروس بالسَّيف وأخرجه من غمده عن آخره، وأصبح الجزء المتقد ناصعًا تمامًا كالنِّصف الآخر، بحيث يراه النَّاظر شكلاً واحدًا . وحين رأى ماكندون هذا ركع أمامه، وقال :

– آه، أيُّها الفارس الطَّيِّبُ ! باركك الله كما باركت هذا القصر، وعلى محبوبتك أنْ تقدِّرك وتحبَّك كثيرًا، إذا لم تكن هى أقل وأدنى نساء العالم، أطلب منك تشريفى بالفروسية، فلو لم أنل هذا الشَّرف على يديك فلن يكون بمقدورى أنْ أناله على يد آخر كائنًا من كان، وبذلك ستجعلنى سيدًا ومليكًا على أناسٍ كثيرين طيِّبين .

– أيها الصَّديق الطَّيِّبُ – قال بيلتينبروس – لنكمل الآن اختبار الزينة الوردية وسوف أفى لك بكلِّ ما تطلب وما يحتمه الواجب .

وهنا بارك السَّيف وترك سيفه الآخر لمن أحب أنْ يأخذه، وعلَّقه فى عنقه، وأخذ زوجته من يدها وعاد إلى حيث كان يجلس، وهنا تلقى المدح والثَّناء من كل الموجودين هناك؛ لما أبداه من مهارةٍ فى استخدام السِّلاح وإخلاصٍ فى الحب، الأمر الذى أغضب كلاً من فلوريستان وجالاور، فأصابتهما معرَّةٌ من جرَّاء هذا الاختبار، ورأيا أنَّه لا يمكن السَّماح لأحد بالتَّقدم عليهما غير أماديس، شقيقهما، وفكَّرا فى أن أوَّل شىءٍ سيفعلانه بعد المعركة التى ستدور بين الملك ليسوارتى والملك ثيلدادان، إذا ما بقيا بعدها على قيد الحياة، هو منازلة هذا الفارس حتى يتوفاهما الموت أو أن يجعلا الآخرين يدركون الفارق الكبير بينه وبين شقيقهما أماديس .

وما إن خاض بيلتينبروس اختبار السَّيف - كما سمعتم - حتى أمر الملك الملكة وكل من كن هناك بالقصر أن يخضن اختبار الزِّينة الوردية دونما خوف. وإذا ما كسبتها سيدةٌ فستكون أفضل واحدة تنال كلَّ الحبِّ والتَّقدير من زوجها، وإذا ما كسبتها فتاة فمن الشَّرف والمجد لها أن تكون أكثرهن وفاءً. وهنا ذهبت الملكة ووضعت الزِّينة فوق رأسها، غير أنَّ الورود لم تغير من هيئتها التي كانت عليها، وقال لها ماكندون :

- سيدتي الملكة، إذا ما كان زوجك الملك لم يكسب قدرًا كبير في تجربة السَّيف، فأنت تدفعين هنا ثمن ذلك .

رجعت إلى حيث كانت والخجل يلفُّها دون أنْ تنبس بكلمة، ثم ذهبت بعدها تلك الجميلة بريولانخا، ملكة سوبراديسا، لكنَّها لم تكسب شيئًا يفوق ما كسبته الملكة فقال لها ماكندون:

- سيدتي الفتاة الجميلة، إنَّ محبوبك يحبُّك أكثر مما تحبينه، تبعًا لما ظهر منك هنا .

وبعد ذلك مرَّت بالتَّجربة أربع أميرات أبناء ملوك : إلبيرا وشقيقتها إستريتا، التي تتمتَّع بالنَّضارة والجمال، وألديبا وأوليندا، التي بدأت الزُّهور الجافة تخضر فوق رأسها بعض الشَّيء. وهنا أدرك الجميع أن هذه هي الرابحة، إلا أنَّه كان بينها وبين ذلك أمدٌ بعيدٌ. فما تغيرت الزُّهور عن ذلك، وحين نزعتها عادت جافةً مرَّةً أخرى كما كانت من قبل، وبعد أوليندا أقدم على الاختبار ما يزيد على مائة بين سيدة وفتاةٍ، ولكن لم تتمكَّن واحدة منهن من الوصول إلى ما وصلت إليه أوليندا، وهنا بدأ ماكندون يقول لهن أشياء مفعمةً بالسُّخرية والإمتاع.

كانت أوريانا تحسُّ، لأنَّها كانت تشاهد كل ما يحدث، خوفًا شديدًا من أنْ تفوز بريولانخا في هذا الاختبار . وحين رأتها قد أخفقت، فرحت فرحًا كبيرًا، حتى لا يظن صديقها أنَّ الحبَّ الذي كانت تكنُّه له كان سببًا في ذلك. وبما أن بريولانخا كانت على درجة عالية من الجمال، وفقد رأت أوريانا أنَّها لن تفقد محبوبها إلا على يد هذه الفتاة،

وما إن رأت أوريانا أنَّه لم يعد هناك من فتاة لم تخض التَّجربة بعد، أشارت إلى بيلتينبروس أنْ يحملها إلى هناك، وما إن وصلت المكان حتى وضعوا الزِّينة الوردية على رأسها، فتحوَّلت الزُّهور الجافة إلى أخرى خضراء يانعة وفي غاية الجمال، لدرجة أنَّه لم يعد لأحد قدرة على التَّمييز بين الجزءين . وهنا قال ماكندون :

– آه أيَّتُها الفتاةُ الطَّيِّبةُ ! أنت تلك التي كنت أبحث عنها قبل أنْ تولدي بأربعين سنة .

وهنا طلب من بيلتينبروس أنْ يباركه فارسًا، وأنْ يتوسَّل إلى تلك الفتاة حتى تقدِّم إليه السَّيف بيدها .

– كن فارسًا من الآن – قال بيلتينبروس – فليس لي أنْ أؤخر طلبك .

ارتدى ماكندون ملابس بيضاء كان قد أحضرها معه، واتخذ أسلحةً بيضاء بوصفه فارسًا مبتدئًا، وباركه بيلتينبروس فارسًا كما هي العادة، وقدَّمت إليه أوريانا السَّيف الفاخر الذي كان قد أحضره . عندما شاهده الحاضرون على هذه الهيئة انخرطت السَّيدات والفتيات في الضَّحك، وقالت ألديبا كلامًا سمعه الجميع :

– آه، يا رب، ياله من فتًى شاذٍ، يالها من وجاهة شاذةٍ يظهر بها المستجدون ! إنَّه لمن فرط سرورنا أنْ يظلَّ مبتدئًا طوال حياته .

– كيف تعرفين هذا ؟ قالت إستريبيتا .

– عرفته من خلال ملابسه – قالت – التي يرتديها، والتي لا يمكن لها أنْ تدوم زمنا أقل منه هو .

– ليقدر الله ذلك – قلن – وليحفظه في مثل هذا الجمال الذي هو عليه الآن .

– سيداتي الفاضلات – قال ماكندون – لن أجعل سعادتي في مقابل وجاهتكن، فأنا أبدو أفضل وجاهةً وفتوةً منكن في الرَّصانة والحياء .

– سعد الملك بردِّه هذا، فما كان يعجبه كلامهن معه .

وبعـد ذلـك، أخـذ بيليتنـبروس زوجتـه وودّع الملكة، التي قالت لابنتها وهي لا تعرفها :

- أيَّتُها الفتاةُ الطَّيِّبةُ، بما أنك رغبت في ألاَّ نتعرَّف عليك، فأرجو منك أنْ ترسلي إليَّ بأخبارك حيث كنت، فضلا عن عطاياك، والتي سنقبلها بصدر رحب .

- سيدتي - قال بيليتنبروس - أنا أعرفها أكثر منك، فأنا أسير إلى جوارها منذ سبعة أيَّام، ولكن وفق ما رأيت، فإنَّني أخبرك بأنَّها في غاية الجمال وتمتلك شعرا ليس لها أن تحجبه عن الرؤية .

قالت لها بريولانخا :

- أيَّتُها الفتاة، أنا لا أعرف من أنت، ولكن لكلِّ ما ظهر منك هنا من حب، إذا كان صديقك يحبك بالقدر الذي تحبينه، فإنَّ هذا سيكون أفضل شيء استطاع الحبُّ أن يجمعه، وإذا ما كان صديقك ماهرًا فسيعمل هكذا .

أعجبت أوريانا كثيراً بما قالته بريولانخا . وبعد ذلك ودعا الملكة وامتطيا جواديهما كما أتيا من قبل، وخرج معهما الملك والسَّيد جالاؤر، فقال بيلتينبروس للملك :

- سيدي، خذ هذه الفتاة وأكرمها، فهي تستحق ذلك، لأنَّها قد شرَّفت بلاطك بما فعلت. أمسك الملك بلجام جوادها، وأخذ بيلتينبروس يتحدَّث إلى جالاؤر، الذي لم يكن على استعداد لكي يسمع منه شيئًا بصدد أيَّة صداقة بينهما، إذ كان قد عقد العزم آنفًا على منازلته، وحين سارا بعض الوقت أخذ بيلتينبروس أوريانا، وقال للملك :

- سيدي، الآن أتركك في رعاية الله، وإذا ما رغبت في أن أكون واحداً الفرسان من المائة الذين سيخوضون معركتك فسأكون في خدمتك عن طيب خاطرٍ منِّي .

سُرَّ الملك كثيراً لما سمع، وعانقه شاكرًا له عرضه، وأخبره بأنه قد أزاح عنه جزءاً كبيراً من الخوف الذي انتابه بهذه المعونة . هكذا عاد الملك إلى القصر يصحبه جالاؤر .

وأمَّا بيلتينبروس فقد دخل إلى الغابة وبرفقته صديقته وإينيل، الذى كان يحمل أسلحته، وقد غمرتهم السَّعادة للنِّهاية السَّارة التى انتهت بها مغامراتهما، كان بيلتينبروس يحمل السَّيف الأخضر فى عنقه وأوريانا تلك الزِّينة الوردية على رأسها. هكذا بلغوا نبع المواسير الثلاث، وفى حيلٍ كان هناك رأوا حامل سلاحٍ قادمًا على جوادٍ، وما إنْ وصل إليهم حتى قال :

– أيُّها الفارس، إنَّ أركالاوس يأمرك أنْ تحمل هذه الفتاة إليه، وإن لم تفعل فسيمتطى جواده وسيأتى إليك، وبذلك تتسبَّبت فى قطع رءوسكم جميعًا .

– أين يوجد أركالاوس السَّاحر ؟ قال بيلتينبروس .

أشار إليه الرَّجل فوجده جالسا تحت الأشجار، ومعه رجل أخر يحملان أسلحتهما وجواداهما بالقرب منهما، وما إن سمعت أوريانا هذا الكلام حتى انتابها رعبٌ شديدٌ فما كادت تتماسك فوق الجواد .

أتى إليها بيلتينبروس، وقال لها :

– أيتها الفتاة، لا تخافى، فإذا خذلنى هذا السَّيف فسأدافع عنك وأحميك . وهنا حمل أسلحته وقال لحامل السِّلاح :

– أخبر أركالاوس بأنَّنى فارسٌ غريبٌ لا أعرفه ولا أملك سببًا يجعلنى أنفذ ما يأمرنى به

حين سمع أركالاوس هذا غضب غضبًا شديداً، وقال للفارس الذى كان بجواره :

– ابن أخى ليندوراكى، خذ هذه الزِّينة التى تحملها تلك الفتاة، وسنجعلها هديةً لصديقتك ماداسيما، وإذا ما وقف الفارس فى طريقك فاقطع رأسه، وعلِّقها من شعرها فى إحدى الأشجار .

ركب ليندوراكي جواده وانطلق ينفذُ ما أمر به، وهنا قام بيلتينبروس الذي سمع هذا الكلام باعتراض طريقه، عندما رآه ضخم الجثة، أشبه بجثة ابن كارتاداكي عملاق الجبل المحروس. أما ابن أخي أركالاوس فلم يعبأ به رغم الغضب الذي ملك عليه وجدانه والصلافة التي حركته، وقال له :

– أيُّها الفارس، لا تتقدَّم خطوة واحدة .

– لن أدع من أجلك تنفيذ ما أمرني به عمِّي أركالاوس .

– الآن – قال بيلتينبروس – سنرى ماذا أنتما فاعلان بما أنت عليه من صلفٍ وما عليه هو من شر وسوء .

التقيا برمحيهما فتضاربا بشدة، انكسر رمحاهما وأطاح بيلتينبروس بليندوراكي من فوق السرج، وترك جزءًا من رمحه في جسده، غير أنَّه نهض مرَّةً أخرى بما عهد عنه من شجاعة، ولما رأى بيلتينبروس قادمًا إليه ليضربه أراد أنْ يتقي ضربته، فتعثَّر وخرَّ على الأرض، فخرج الجزء المتبقي من الرِّمح في جسده من ظهره ثم فارق الحياة. وحين شاهد أركالاوس هذا المشهد ركب جواده وهرع نحو ابن أخيه لينقذه، غير أنَّ بيلتينبروس توجَّه إليه فأفشل هجمته، وحين مرَّ به ضربه بالسَّيف ضربةً أطاحت برمحه ونصف يده على أرض النِّزال، فما بقي منها سوى الإبهام، ولما رأى ما حلَّ به استشاط غضبًا، وشرع في الهرب، وتبعة بيلتينبروس، وهنا نزع أركالاوس الدِّرع الذي كان يحمله حول عنقه، وبأسرع ما أمكنه ابتعد على متن جواده فما استطاع بيلتينبروس أنْ يلحق به، وهنا عاد مرَّةً أخرى إلى زوجته، وأمر إينيل أن يحمل رأس ليندوراكي ويد أركالاوس، ويذهب بهما إلى الملك ليسوارتي ويحكي له السَّبب الذي أدَّى إلى ذلك .

وبعد ذلك أخذ زوجته وتابع مسيرته، ثم استراحا مدَّةً وجيزة بالقرب من نبع ماء، وما إن أقبل الليل حتى بلغا ميرافلورس، فوجدا جندالين ودورين فأخذا عنهما جواديهما، ووجدا مابيليا والفتاة الدَّانماركية، اللتين كانتا في استقبالهما بكل ترحاب عند حائط مدخل البستان .

فقالت لهما مابيليا :

- أحضرتما الهدايا القيِّمة الجميلة، لكنَّني أخبركما بأنَّنا قد حصلنا عليها بكربٍ عظيمٍ أصاب نفسينا ودموعًا كثيرةً ذرفناها من قلوبنا، والحمد لله أنْ جاءت الأمور على ما يرام .

دخلوا إلى القلعة وتناولوا العشاء واحتفلوا بقدومهما في جو يغمره الفرح والسعادة .

عاد الملك ليسوارتي والسَّيد جالاؤر إلى القصر بعد أنْ ودَّعا بيلتينبروس، ثم أتتهما فتاة وأعطت الملك رسالة، وقالت إنها من أورجاندا لاديسكونوثيدا، ورسالة أخرى لجالاؤر، ودون أنْ تزيد على ذلك رجعت على دابتها، أخذ الملك رسالته وقرأها، فوجدها تقول :

" إليك، أيُّها الملك ليسوارتي، ملك بريطانيا العظمى، أنا أورجاندا لاديسكونوثيدا أرسل إليك تحياتي، وأحيطك علمًا بأنَّه فى هذه المعركة القاسية التى ستقع بينك وبين الملك ثيلداذان سيفقد ذلك الفارس بيلتينبروس الذى تعتمد عليه اسمه وجانبًا كبيرًا من شهرته، حيث سيؤدى بضربةٍ واحدة إلى الإطاحة بكل ما قدَّمت يداه من خير فى عالم النِّسيان، وفي تلك الأثناء ستصبح أنت مهمومًا ومحاطًا بالمخاطر التى لم تُحَط بها من قبل، وحين يسفك بيلتينبروس البتَّار دمك ستصبح محاطًا بخطر الموت، وستكون تلك معركة مؤلمةً وقاسيةً يلقى فيها الكثير من الفرسان الشُّجعان والأشدَّاء حتفهم، ستجرى وسط جو من الغضب الكبير المفعم بالقسوة دون هوادةٍ، ولكن فى النِّهاية وحين يضرب بيلتينبروس ضرباته الثَّلاث سينال أنصاره النصر. تعقَّل أيُّها الملك، وانظر ماذا أنت فاعل، فما أرسلت إليك به الآن سيقع لا محاله ".

وما إن قرأ الملك الرِّسالة، ورغم ما به من صلابةٍ، وجسارة قلبٍ أمام الأحداث الجسام، حتى رأى أنَّ أورجاندا امرأةٌ عليمةٌ بأمورٍ كثيرةٍ؛ فقد تنبأت بأمور جاءت كفلق الصبح، ألم به الخوف والفزع، وأدرك أنَّ بيلتينبروس، الذى أحبَّه كثيرًا، سيعرَّضُ

حياته، وربما حياة الملك أيضا للخطر، غير أنَّه قد رسم الفرحة على أسارير وجهه ثم توجَّه إلى جالاؤر، الذى قد فرغ من قراءة رسالته هو الآخر، وأطرق يفكِّرُ، وقال له :

- صديقى العزيز، أريد نصيحتك بشأن ما أرسلت إلى به أورجاندا فى هذا الخطاب ودون أنْ يعرفه أحد غيرك .

أطلعه على الخطاب، فقال له جالاؤر :

- سيدى، وفقا لما جاء فى الرِّسالة التى أرسلت بها إلىَّ، أصبحت الآن فى حاجة إلى من ينصحنى لا أن أنصح أنا الآخرين، ولكن على كلِّ حال، إذا ما كانت هناك من وسيلة يمكن بها الاعتذار عن هذه المعركة فهذا خير من وجهة نظرى، وإذا لم يكن من الممكن هذا فعلى الأقل لا تذهب حضـرتك إليها، لأنَّنى أرى هنا أمرين خطيرين، أحدهما أنَّ سفك دمك سيكون على يد بيلتينبروس وسيفه، والثَّانى، أنَّه بعد ضربات ثلاث سينفذها سيكون النصر حليفًا لأتباعه، وأنا لا أدرى كيف يفهم هذا الأمر، لأنَّه الآن فى جانبك أنت، وحسب ما ورد بالرِّسالة تقول إنَّه سيكون فى الجانب أعدائك .

قال له الملك :

- صديقى العزيز، إنَّ الحبَّ الكبير الذى تكنه لى لا يجعلك فى موضع تقديم النُّصح لى، لأنَّه إذا ما فقدت الأمل فى ذلك الرَّبِّ الأعلى الذى جاء بى فى هذه المكانة الرفيعة، معتقداً أنه لا أحد من النَّاس يستطيع أن يقف حائلاً أمام تنفيذ إرادته، فهناك العديد من الأسباب، بعد أن أصبحت أحكم من جانبه هو، قد تجعلنى غير أهلٍ لها، لأنَّ قلوب الملوك ورصانتهم وفطنتهم يجب أنْ تكون مطابقةً للحالة التى هم عليها، وحين يفعلون ما يجب عليهم فعله والقيام به مع أتباعهم والدِّفاع عنهم فإنَّ إصلاح الأمور التى يدخلها فى نفوسهم الخوف والرعب لا يكون إلا من الله القادر على كلِّ شىء وهكذا، فمن الأجدر، يا صديقى، أنْ أحضر المعركة، وما سيكون من نتيجة يحكم الله بها على أتباعى أتمنَّى أنْ أنال نصيبى منها أيضاً بأمره هو .

وبعد أنْ رأى جالاوْر كل هذا التَّصميم والشَّجاعة من الملك قال له :

– لم يكن من الفراغ أنْ يمدحك الجميع بأنَّك أفضل وأشرف أميرٍ في هذا الوجود. فإذا ما أعرض الملوك بهذا الشكل عن النَّصائح الهزيلة التي تصدر عن رعاياهم فلن يتجرَّأ أحدٌ على أنْ يدلي إليهم بنصيحةٍ إلا إذا كان فيها الصَّالح العام لهم حقا .

وهنا أطلعه على رسالته التي تقول :

" إليك جالاوْر دي جاولا الشُّجاع الجسور، أنا أورجاندا، أرسل تحياتي إليك منْ أحب وأقدرُ، وأريد أنْ تعلم ماذا سيحدث لك في المعركة المؤلمة إذا ما كنت ستحضرها؛ فبعد مرارة وأعمال قتل من جانبك في جولات المعركة ستخون عضلاتك القوية وجسدك المتين قلبك القوي المحتدم، وحين ترحل عن أرض المعركة، ستصبح رأسك في يد ذلك الذي سيضرب ثلاث ضرباتٍ فيطيح بها ".

وحين رأى الملك ذلك قال له :

– صديقي، إذا ما كان الذي ورد في هذه الرِّسالة حقيقة سيكون من المؤكَّد موتك في المعركة لو أنَّك خضتها، ووفقًا لما قمت به من أمورٍ عظيمةٍ في مجال النزال من قبل، فلن يضرك إلا القليل النَّادر إذا تخليت عن هذه المعركة، وهكذا فسوف أصدر أمراً، بعد أنْ أبدى فيه أنَّك تمتثل في هذا لخدمتي وتشريفي، يصبح بمقدورك من خلاله أن تعتذر عن حضورها .

قال له جالاوْر :

– أمِنَ المعقول – سيدي – أنْ تمتعض للنَّصيحة التي أسديتها إليك، ثم تسديها إليَّ الآن – وأنا صحيح الجسم وبكامل قوتي – بأن أقع في مثل هذا الخطأ الكبير والنقيصة العظيمة اللذين يفتان في شرفي وكرامتي . وأتمنَّى من الله ألا يجعلني مطية لتقديم السمع والطاعة لك في هذا الأمر .

قال له الملك :

– جالاوْر، أجبتني بخير مما أجبتك والآن لندع الحديث عن هذا، وليكن أملنا في الرَّبِّ الذي يجب أنْ نتعلَّق به كما ينبغي، ولنحفظ هاتين الرِّسالتين، لأنَّ ما ورد

فيهما من كلمات تبعث على الخوف والفزع سيكون لها تأثير سلبى على النَّاس لو علموا بها.

بهذا الاتفاق توجَّها إلى القصر، وقبل أنْ يدخلاه رأيا فارسين مدجَّجين بالسِّلاح على متن جوادين مترهلين ومتعبين، وأسلحتهما مكسورة من أحد جوانبها، الأمر الذى يدل على تعرضهما لإهانةٍ كبيرةٍ، أحدهما يسمى برونيو دى بونامار، والآخر يرافانيا أخوه، وقد أتيا لحضور المعركة إذا ما كان للملك أنْ يقبلهما، وقد علم برونيو باختبار السَّيف، وقد بذل جهده من أجل الوصول فى الموعد المحدد له، باعتباره الفارس الذى مرَّ من تحت قوس المحبين الأوفياء، كما سمعتم. ووفقا للحبِّ الكبير الذى يكنُّه لميليثيا شقيقة أماديس، ظن أنَّه بمقدوره أنْ يكسب السَّيف وأى شيءٍ آخر بجانبه. اغتمَّ كثيرًا حين علم أنَّ موعده قد انقضى، ولما أنْ رأوا الملك أتوه فى خضوع، واستقبلهم الملك بكلِّ ترحابٍ.

قال له السَّيد برونيو:

– لقد سمعنا عن معركةٍ مؤجَّلةٍ ستكون طرفًا فيها، وأنَّ عدد الحاضرين سيكون بسيطًا، وعليه فلا بد من انتقاء الحاضرين. وإذا ما كان لكم علم بنا ورأيتم أننا أهل للحضور فنحن فى خدمتكم بكلِّ سرورٍ.

وهنا أقدم الملك، بعد أنْ أطلع جالاؤر على السِّيرة الطَّيِّبة لهذين الرَّجلين. وخاصةً سيرة برونيو الذى كان رغم صباه واحدًا من أشهر الفرسان الذين يمكن أنْ يوجدوا بهذا الكون، أقدم الملك على التَّرحيب بهما وسرَّ بهما وبخدمتهما له، وشكر لهما صنيعهما هذا. وبعد ذلك عرفه جالاؤر بنفسه ورجاه أنْ ينزل بالمكان الذى يعيش فيه، وأنْ يكونا اثنين فى واحد حتى يأتى موعد المعركة الموعودة، مذكِّرًا إياه بفلوريستان شقيقه، وأجراخيس، والسَّيد جالبانيس، فقد كانوا دائمًا فى مجموعةٍ وصحبةٍ طيِّبةٍ.

أكبر السَّيد برونيو منه هذا الأمر، وأخبره بأنَّه يعده من أكبر فرسان الدُّنيا وأحبهم إلى قلبه بعد أماديس شقيقه، الذى تشوَّق كثيرًا للخروج بحثًا عنه بعد أنْ علم الطريقة التى رحل بها عن الجزيرة اليابسة. وما تخلَّف عن الخروج فى طلبه إلا

لحضور هذه المعركة، ولسوف ينفذ ما وعد به. وهكذا ظلَّ برونيو وأخوه في صحبة جالاؤر وفي خدمة الملك ليسوراتي كما سمعتم .

وما إنْ دخل الملك إلى قصره حتى وصل إينيل حامل سلاح بيلتينبروس يحمل رأسًا معلقة من شعرها في حزام جواده، ومعه درعٌ ونصف يد أركالاوس الإنكانتادور (السَّاحر)، وقبل أنْ يدخل إلى القصر تبعه أناسٌ عديدون من البلدة راغبين في معرفة حقيقة هذه الأشياء التي أتى يحملها، ولما وقف أمام الملك قال له ما أمره به بيلتينبروس، فسعد الملك لذلك وعراه السُّرور لذلك الحدث الجلل الذي قام به ذلك الفارس الشُّجاع القوي، وظلَّ يثني عليه بالمدح والإطراء، والآخرون كذلك. ولكنَّ هذا زاد من حنق جالاؤر وفلوريستان، وتمنَّيا ذلك الحين الذي يجمع بينهما وبينه لينازلاه؛ فيموتا أو يحملا إلى الجميع رسالة مفادها أن ما قام به من أعمال لا يمكن أن تتساوى مع ما قام به أماديس شقيقهما .

وفي هذه الأثناء وصل فيليسبينيل، الفارس الذي أرسله الملك ليسوراتي من جانبه ليتحدى العماليق، كما علمتم، وأخذ يسرد أسماء كلِّ أولئك الذين سيحضرون المعركة، التي سيحضرها العديد من العماليق الشُّجعان وغيرهم من الفرسان الذين لهم باع طويل في مجال النِّزال، وقد ذهبوا إلى أيرلندا للاجتماع مع الملك ثيلدادان، وقبل أربعة أيَّام من المعركة سينزلون في ميناء لابيجا، حيث ضرب موعد المعركة، كما قص عليهم كيف وجد في البحيرة المتقدة، التي هي جزيرة مونجاثا، الملك أربان دي نورجاليس وأنجريوتي دي إستراباوس في حوزة جروماداثا، العملاقة الشُّجاعة، سيدة فامونجومادان، حيث كانت تحتجزهما داخل سجن قاسٍ، وتسومهما سوء العذاب، فتجلدهما حينًا وتعذِّبهما بأنواع أخرى من العذاب أحيانًا أخرى، لدرجة أنَّ جسديهما كانت تتدفق منهما دماء غزيرة لا تتوقَّف . وكذلك أحضر معه رسالة خطية للملك، تقول :

" إلى الملك العظيم ليسوارتي، ملك بريطانيا العظمى، وإلى كل أصدقائنا من أتباعه، أنا أربان الملك البائس الذي كان يحكم نورجاليس سابقًا أصبحت أنا

وأنجـريوتي دى إسـتـراباوس في أحضـان سـجنٍ مؤلمٍ، نرسل إليك لنحيطك علمًـا بالمأساة التي أصبحنا فيهـا، التى فاقت الموت فى قسوتها، فقد أصبحنا في حوزة الجسورة جروماداثا سيدة فامونجومادان، التى انتقامًا لموت زوجها وابنها تسومنا مثل هذا العذاب الذى لم يخطر قط ببالنا، لدرجة أنَّنا أصبحنا نتمنَّى الموت مرارًا وتكرارًا، ففيه سيكون خلاصنا، ولكن لرغبتها فى أنْ تذيقنا العذاب يوميا، تجعلنا بين الحياة والموت، وما عادت حياتنا ذات مغزىً، وتمنينا لو أننا نفقد أرواحنا. ولكن بما أنَّنا لم نعد قادرين على تحمل الحياة فقد أردنا أنْ نرسل بهذه الرِّسالة المكتوبة بدمائنا، وفيها وداعنا، متمنين أنْ يمنحكم الله العلي القدير النَّصر على أولئك الخونة فى المعركة، أولئك الذين ألحقوا بنا أذىً كبيرًا ".

حزن الملك كثيرًا لفقد هذين الفارسين من كلِّ قلبه، لكنَّه رأى أنَّ إظهار مثل هذا الحزن لن يكون مفيدًا لهما، فأبدى سرورًا وواسى ذويه، مهيئًا إياهم لمواجهة ما سيتأتَّى من عظائم الأمور، وملهبًا حماسهم من أجل المعركة القادمة، التى إذا ما كسبوها فسيكون فيها الوسيلة لإخراج هذين الفارسين من السِّجن، ثم أرسل فى طلب كل من يتحتَّم عليهم حضور المعركة الموعودة، فعليهم الاستعداد ليوم غد، فهو راغب في الرَّحيل إلي أعدائه. وهكذا فعل، وقد أشعل حماس فرسانه لخوض هذه المعركة، بما عُهِدَ عنه من حماس ومجهودٍ عظيمين في مثل هذه المعارك طوال حياته .

الفصل الثَّامن والخمسون

أمضى بيلتينبروس مع صديقته ثلاثة أيام في ميرافلورس، وفي اليوم الرابع رحل قاصداً قلعة أبرادان، ومن هناك بحثا عن الملك ليسوراتي، الذي كان يعد معركته ضد الملك ثيلدادان، وقد اتفق الجانبان على ألاَّ يشترك في هذه المعركة أكثر من مائة فارس . وما إنْ تجهزت قوات الجيشين حتى بدأت المعركة . فعل بيلتينبروس العجائب بسيفه الأخضر، فثارت حمية كل من جالاؤر وفلوريستان، والفرسان الآخرين فضاعفوا من مجهودهم ضدَّ العماليق التَّابعين لثيلدادان . أُصيب جالاؤر بجراحٍ عميقةٍ على يد العملاق كارتادكي، وكان بيلتينبروس يعتقد أن أخاه قد لقي حتفه، فانطلق بكل ما أوتي من قوةٍ تجاه العدو وألهب من حماس رجاله . وفي نهاية الأمر جاء النَّصرُ حليفًا لرجال ليسوارتي. ظنَّ الجميع أنَّ جالاؤر قد فارق الحياة، وهنا جاءت بعض الفتيات في زينتهن الخلابة وأخذن أخا البطل، وما إن أكدن القيام بمعالجته حتى يشفي، حين حملته ومعه الملك ثيلدادان - الذي يبدو أنَّه قد مات هو الآخر- إلى سفينته كانت قد شراعها وقلاعها واتخذت سبيلها في البحر سربًا .

الفصلُ التَّاسع والخمسون

كيف تمَّ حمل جالاؤر والملك ثيلدادان للعلاج، وتمَّ وضعهما في مكانين منفصلين : أحدهما داخل برج بحري مسور والآخر في بستانٍ ذي حوائط عالية، ومزين بشبابيك حديدية، حيث استعاد كل منهما عافيته، فظنَّ أنَّه في سجن لا يدري من الذي أتي به إلى هذا المكان، والأحداث التي مرَّا بها .

الآن سنحكي لكم ما حدث للملك ثيلدادان وجالاؤر . اعلموا أنَّ الفتيات اللاتي حملنهما قد قمن على أمر تطبيبهن، وفي اليوم الثَّالث استعادا عافيتهما تمامًا . ووجد جالاؤر نفسه داخل أحد البساتين، في بيت أحكمت صنعته وأقيم على أربعة أعمدة من المرمر، وقد سُدَّ الفراغ الكائن بين هذه الأعمدة بشبكات حديديةٍ قويةٍ؛ ولهذا فمن فوق السرير الذي ينام عليه أصبح بمقدوره رؤية البستان، وما أمكنه رؤيته منه بدا له مسورًا بحائط مرتفع كان له باب صغير مغطىً بصفائح حديدية، وقد فزع أن رأى نفسه في هذا المكان، إذ ظن أنَّه قد زُجَّ به في أحد السُّجون، وتألَّم كثيرًا لما أصابه من جروح، فما كان ينتظر في تلك الأثناء شيئًا سوى الموت . وهناك تذكَّر كيف ذهب إلى المعركة، لكنَّه ما درى من ذا الذي أخرجه منها وكيف أتى به إلى هنا .

وما إن استعاد الملك ثيلدادان عافيته تمامًا حتى وجد نفسه داخل قبَّة أحد الأبراج الكبيرة، على سرير غني بالقرب من إحدى النَّوافذ . نظر حوله، فما وجد أحدًا وسمع صوتًا قادمًا من فوق القبة، لكنَّه لم يتمكَّن من رؤية باب أو مدخل يذكر بهذه الغرفة

التي كان فيها . ثم نظر من النافذة وأطلَّ برأسه، فرأى البحر وبرجًا عاليًا، قائمًا فوق صخرةٍ رأسية، ظنَّ أنَّ البحر يحيط بها من ثلاث جهات، وتذكَّر كيف كان في المعركة، غير أنَّه لا يدري من الذى أخرجه منها . لكنَّه فكَّر وقدَّر فتذكر أنَّه كان في وضع مأساوى بالمعركة، وبسجنه هذا لن يكون أنصاره أفضل حظا منه. ولمَّا رأى أنه ليس بمقدوره القيام بشيءٍ على الإطلاق ظلَّ هادئًا في فراشه، يئن ويتألَّم لجروحه كثيرًا، في انتظار ما تأتيه الأقدار به .

والسَّيد جالاؤر الذى كان بمنزله الكائن بالبستان - كما علمتم - رأى الباب الصَّغير يُفتح فرفع رأسه في شوقٍ كبيرٍ، فشاهد فتاةً تدخل من خلاله تتمتَّع بجمال براق وعليها زينةً أخاذةً، وبرفقتها رجلٌ ترهَّل جسده وكبر سنه، تعجَّب كثيرًا من قدرته على السَّير، ولما بلغا الشبكة المحيطة بالغرفة قالا له :

- أيُّها السَّيد جالاؤر، فكَّر في نفسك، فلن ننقذك أو نحميك .

وهنا أخرجت الفتاة صندوقين، أحدهما من الحديد والثَّاني من الفضَّة، وأرتهما لجالاؤر، ثم قالت له :

- من أتى بك إلى هنا لا يودُّ موتك قبل أنْ يعرف ما إذا كنت ستصبح طوع أمره أم لا، ويودُّ الآن أنْ يعالج قروحك ويقدِّم لك الطَّعام .

- أيَّتُها الفتاةُ الطَّيِّبةُ - قال جالاؤر - إذا ما كانت رغبة ذلك الذى يقصدني تعني أنْ أقوم بما لا يجب أنْ أفعله، فهذا يساوى عندى أمرًا أشدَّ على نفسي من الموت . أمَّا إذا كان غير ذلك فأنا على استعداد لعمله حتى أنقذ حياتي .

- ستفعل - قالت الفتاة - ما تراه أفضل في نظرك، فهذا الذى تقول لا يشفي غليلنا إلا قليلاً، ففي يدك أنْ تحافظ على حياتك أو أن تلقي بنفسك إلى التَّهلكة .

وهنا فتح الرَّجل العجوز باب الشَّبكة ودخلا، تناولت الفتاة الصُّندوق الحديدى، وأمرت العجوز بأنْ يخرج من المكان، ففعل ما أمرته به، وقالت للسيد جالاؤر :

- سيدى، كم تألمت لك، فمن أجل الإبقاء على حياتك أودُّ أنْ أغامر بالموت، وسأقصُّ عليك كيف ذلك الذى أمرت به، أمرت أن أملأ هذا الصندوق بالسُّموم والآخر بالمراهم التى تدفع إلى النَّوم العميق، حتى تنفذ السُّموم إلى قروحك، وتعمل الآخرى على أنْ تغطَّ فى نومٍ عميق، فتعمل عملها أثناء النَّوم، فتودى بحياتك بعد ذلك . ولكنَّنى تألمت لهذا الذى سيكون فيه وفاتك وأنت على هذا القدر من الفروسية، ففعلت عكس ما أُمرت به، فقد وضعت هنا هذا الدواء الذى إذا ما تناولته يوميًا فسوف تعافى فى اليوم السَّابع لتناوله، ويصبح بمقدورك الانصراف على متن الجواد دون أيَّة غضاضةٍ .

وحينئذ وضعت له تلك المراهم على قروحه، فهدأت من الورم الذى أصابها، فشعر بالرَّاحة، وقال لها :

- حسنًا أيَّتُها الفتاة، أشكر لك صنيعك معى، وإذا ما خرجت من هنا على يديك فسوف أكون مدينًا لك بحياتى كلِّها، ولكن إذا لم تقدرى على فعل ذلك وأردت أنْ تفعلى شيئًا من أجلى فعليك إيجاد الطريقة التى توصلين بها خبر أسرى هذا بين جدران هذا السِّجن إلى أورجاندا لاديسكونوثيدا، التى أعلِّق عليها آمالاً كثيرةً .

تبسَّمت الفتاة ضاحكةً من قوله، ثم قالت له :

- كيف ! أتعلِّق آمالاً كثيرةً على أورجاندا، التى لا تبدى أى اهتمام لما فيه صالحك أو ضررك ؟

- نعم، أعلِّق عليها آمالاً كثيرة - قال هو - فبما أنَّها تعرف رغبات الآخرين، فهى تعلم أنَّى راغب فى خدمتها .

- لن يكون خلاصك - قالت الفتاة - على يد أورجاندا، بل على يدى أنا، فكما كانت لديك القدرة يا سيد جالاور على أنْ تبذل مجهودًا خارقًا تعرِّض به نفسك للخطر، فسوف يكون لديك القوة نفسها حتى تجد لما أنت فيه حلا، فعلى القلب

الكبير الشجاع أنْ يبدى شجاعته فى أمورٍ أخرى كثيرةٍ غير النِّزال. والخطر الذى أضع فيه نفسى من أجلك حتى أجعلك تتعافى وتخرج من هنا، أود أنْ تعدنى بأمرٍ لن يكون فيه إزعاجٌ لك أو ضررٌ .

– أعدك به – قال هو – إذا ما قدرت عليه .

– سوف أنصرف حتى يأتى موعد رؤيتك مرَّةً أخرى، ولتنم الآن، ولتتظاهر بأنك تغطُّ فى نومٍ عميقٍ .

هكذا فعل، فنادت الفتاة على العجوز وقالت :

– انظر إلى هذا الفارس كيف ينام . الآن سيؤثر السُّم عليه تمامًا .

– هذا ما لابد من حدوثه – قال العجوز– حتى ينتقم منه من أتى به إلى هنا . وبما أنَّك قد وفَّيت بما أرسلوك به، فسوف يكون قدومك إلى هنا من الآن بلا أيِّ حارس، وليظل هو على هذا الوضع خمسة عشر يومًا، يتألَّم طوال هذه المدة بين الحياة والموت، ففى هذه المدة سيفد إلى هنا أولئك الذين، وفقًا لما ألحقه بهم من أسىً وألم، سيعطونه جزاءه .

سمع جالاوُر هذا الكلام كله، وبدا له منه أنَّ العجوز هو عدوه اللدود . لكنَّه علَّق آماله على كل ما قالته له الفتاة، من أنَّها ستشفى قروحه فى مدى سبعة أيَّام، ولو تدخل القدر وأعاد إليه عافيته فسوف يكون فى مقدوره الخروج من هذا الخطر. أصر على أنْ يخرج من هذا المأزق كما نصحته الفتاة . عادت الفتاة إليه ثانيةً، وبرفقتها فتاتان أخريان، فى أبهى زينةٍ وأجمل هيئة، يحملان طعامًا للسَّيد جالاوُر ، وقد تركت معه الفتاتين الجميلتين كى يرافقانه، وكتبًا تحوى قصصًا يقرآنها له وأمرتها ألاَّ يتركاه ينام نهارًا . كان فى كل هذا عزاءٌ للسَّيد جالاوُر وتسليةٌ، فقد تأكَّد أنَّ الفتاة عازمةٌ على الوفاء بما وعدته به، فشكرها كثيرًا على ما تقدِّمه . انصرفت الفتاة، وأغلقت الأبواب، وبقيت الفتاتان فى صحبته .

وهكذا حدث أيضًا للملك ثيلدادان – كما علمتم – الذى وجد نفسه محبوسًا داخل ذلك البرج الحصين فوق مياه البحر. وبعد مدةٍ وجيزةٍ حار فيها تفكيره رأى بابًا

حجريا يفتح بأحد جوانب البرج، وقد نسجت جوانبه بطريقة تظهر جزءاً من حائط البرج حتى لا يكاد النَّاظر إليه يميِّزُ بينه وبين الحائط، ورأى سيدةً فى منتصف العمر تدخل عبر الباب وبرفقتها فارسان مدجَّجان بالسِّلاح . وصلوا إلى مخدعه وما حيوه بأيَّة تحية، بينما حيَّاهم هو وتكلَّم معهم بوجهٍ بشوشٍ، لكنَّهم لم يردوا عليه تحيته . نزعت عنه السَّيدة عباءته التى كان يتدثَّر بها، ثم نظرت إلى ما به من قروح، فداوتها وقدَّمت إليه الطعام . ثم عادوا إلى حيث أتوا دون أنْ يكلِّموه كلمةً واحدةً، وأغلقوا الباب الحجرى كما كان من قبل . ولما رأى الملك هذا أدرك حقا أنه داخل سجنٍ، وأصبح فى يد من لا يأمن على حياته معه، لكنَّه تمالك نفسه قدر استطاعته، دون أن يقدر على فعل شيء أخر .

عادت الفتاة التى كانت تطبِّبُ جالاوز إليه مرَّةً أخرى حين أتى وقت مرورها عليه، وسألته كيف حاله . أخبرها بأنَّه قد بدأ يتحسَّن، وإذا ما استمر الوضع على ذلك فإنه يعتقد أنه سيكون فى أحسن حالٍ فى الموعد المحدَّد .

هذا يسعدنى كثيراً - قالت الفتاة - ولا يك فى صدرك شكٍ ممَّا قلته لك، فسوف يُنفَّذ كما وعدتك غير أنَّنى راغبةٌ فى أنْ تعدنى بشيءٍ بوصفك فارساً وهو : ألا تحاول الهرب من هنا إلا على يدى، لأنَّ فى ذلك خطورة كبيرة وأذىً لا يقارن على حياتك، ولن تتمكَّن من ذلك فى النِّهاية.

ثم انصرفت بعد ذلك، وظلَّ يفكر فى ذلك المعروف فتذكَّر السَّيف الجميل الذى قدمته له أورجاندا، فى الوقت الذى باركه فيه أخوه أماديس فارساً، فتشك أنْ تكون هذه هى، لكنه تشكك فى الأمر، إذ قد رآها يومها عجوزاً بينما هى الآن فى ريعان الشَّباب، ولهذا فما أمكنه أنْ يعرفها . وفكَّر فى الفتيات، لكنه لم ير واحدة منهــن، وإنما رأى بدلاً منهن جاساباك حامل سلاحه، وأدريان قزم أماديس، الأمر الذى أسعده وأثار إعجابه، نادى عليهما، أن يناما، حتى أيقظهما . وحين شاهداه أمامهما انخرطا فى البكاء فرحا، وقبلا يديه، وقالا له :

- آه، ياسيدى، حمداً لله أنْ جمعنا بك حتى نكون فى خدمتك ! سألهما كيف دخلا إلى هذا المكان؛ فأخبراه بأنَّهما لا يعرفان شيئًا سوى أنَّه " قد أرسلنا كلٌ من

أماديس وأجراخيس وفلوريستان معك " . ثمَّ بعد ذلك قصَّا عليه الصُّورة التي كانت عليها حياته، وكيف أنَّه حين أخذه أماديس في حجره ووضع رأسه داخله وصلت الفتيات فطلبنه، وكيف أنَّه باتفاقهن وأصاقائهن كذلك حملوه، بعد أنْ رأوا حياته على وشك النِّهاية، وكيف أدخلوه في السُّفينة، ومعه الملك ثيلدادان. هنا قال لهما جالاؤر :

– كيف كان أماديس هناك في تلك الأثناء ؟

– سيدنا – قالا له – إعلم أنَّ ذلك الفارس الذي كان يدعى بيلتينبروس هو أماديس أخوك، وقد بذل مجهوداً عظيمًا على أرض المعركة مما جعل الملك ليسوارتي يكسبها في النهاية.

ثم قصا عليه كيف تسنى لأماديس أن ينقذ الملك بعد أن حمله العملاق تحت ذراعية، وكيف أصبح أماديس بعد ذلك .

– كثير هذا الذي قدمتموه لي – قال جالاؤر – ولكم أنا سعيدٌ الآن لهذه الأخبار التي أسمعها عن أخي، وإذا لم يقدم لي الدوافع المشروعة لتخفيه عني كل ذلك الوقت فسأغضب منه كثيراً .

وكما سمعتم، كان هذا هو حال الملك ثيلدادان وجالاؤر، أحدهما في ذلك البرج الكبير والآخر في بيت البستان، وقد ظلاً بهذين المكانين حتى شفيا من قروحهما تماماً بالقدر الذي سمح لهما بالذِّهاب إلى حيث أرادا دونما خطورةٍ تذكر . وهنا عرَّفت أورجاندا بنفسها أمامهما، التي كانا في حوزتها طوال هذه المدة في تلك الجزيرة المعروفة باسم فيادا، وأخبرتهما بأن ما غرسته فيهما من خوف كان في صالحهما حتى يكون دافعًا لهما على الشِّفاء والصحة، فقد كان ذلك من المناسب لهما، أخذا في الاعتبار الحرج الشَّديد الذي كان يحيط بهما آنفًا، وأمرت بنتي أختها، فتاتين جميلتين لأب يدعى الملك فالانجريس، الذي كان أخا للملك ليسوارتي، وقد أنجبهما من أخت لأورجاندا كانت تدعى جريموتا حين كانا شابا، وأمرت بأن يقوما على خدمتهما وزياراتهما والعمل على إتمام شفائهما. كانت إحداهما تدعى خوليازدا والأخرى سوليسا، وخلال الزيارات التي قامتا بهما حملتا بولدين :

أمـا ابن جـالاوز فـقـد كـان يدعي تالانكي، وابن ڤيلدادان كـان يدعى مـابينيلي الميسورادو، وأصبحا فيما بعد فارسين عظيمين تمتّعا بالشجاعة والقوة، كما سنروى لكم ذلك فيما بعد، واستمتعًا خلال ذلك الوقت أيما متعة مع تلكما الفتاتين، حتى حان الوقت السيِّدة أورجاندا فأخرجتهما من هناك، كما ستعلمون فيما بعد .

وبعد أنْ تحسنت صحة الملك ليسوارتي، وتعافى أماديس وفرسانه الآخرون من قروحهم، ذهب إلى فيرينسا، حيث كانت تـوجـد الملكة بـريسينا زوجته، وقد تمَّ التَّرحيب به هناك إلى أقصى درجة من زوجته وبريولانخا وأوريانا والسَّيدات والفتيات من علية القوم، وفرح الجميع بقدومه كما لم يفرحوا لإنسان قط، كما رحَّب الجميع أيضا بأماديس، حيـث كانت الملكـة وكلٌ من حولها يعلمون بأنَّه لم ينقذ فقط حياة الملك وإنَّما جاء ما بذله من مجهودٍ عظيمٍ متوَّجا فى النهاية بالفوز بالمعركة، كما رحبن أيضا بجميع الفرسان الذين بقوا أحياء . غير أنَّ ما فعلته الملكة بريولانخا مع أماديس هو أمر لا يمكن كتابته بأيَّة طريقة كانت، وأخذته من يده فأجلسته بينها وبين أوريانا، وقالت له :

– سيدى، إنَّ الألم والحزن اللذين قاسيتهما حين علمت خبر فقدانك لا يمكن أنْ تتخيَّلهما، وبعد ذلك أخذت مائه فارسٍ من أتباعى وأتيت إلى قصر ليسوارتى، حتى يتمكَّن إخوتك من توزيعهم ليخرجوا بحثًا عنك . ولما كانت المعركة التى انتهت هى السَّبب الذى منعنا من تنفيذ هذا الأمر فقد أخذت قرارى بأنْ أبقى هناك حتى تنتهى المعركة . والآن، بفضل الله، وقد انتهت الأمور على ما كنت أتمنَّاه، قل لى ماذا يسعدك أنْ أفعله لك وسوف ينفَّذ فى الحال .

– سيدتى الجميلة – قال أماديس – إذا ما شعرت بالألم لما كنت أنا فيه، فأنت على حق، فبكلِّ تأكيدٍ أنا على يقين من أنَّك ما وجدت رجلاً فى كل هذا الوجود قد حقق لك رغبتك كما كنت تريدين .

وبما أنَّك قد جعلت نفسك طوع أمرى، فأرجو أنْ تبقى هنا معنا عشرة أيام، نُنَاقش فيها أمورك مع الملك، وخلال هذه الفترة سنكون قد عرفنا أخبارًا عن أخى

جالاور، وستكون هناك معركة مؤجلة بين فلوريستان ولاندين، وبعد ذلك سأحملك أنا إلى مملكتك، ومن هناك سأغادر قاصداً جزيرة اليابسة، فلدي هناك مآرب أخرى علي أنْ أقضيها .

- هذا ما سأفعله - قالت بريولانخا - لكنَّني أرجوك سيدي أنْ تقصَّ علينا تلك العجائب التي وجدتها على أرض تلك الجزيرة .

كـان علي وشـك أن يعتذر لها عن رواية كلِّ ذلك، إلا أنَّ أوريانا قد أخذته من يده، وقالت :

- لن ندعك حتى تحكي لنا نصيبك من ذلك .

هنا قال أماديس

- صدِّقوني، سيداتي، فرغم ما أبذل من جهد لأحكي لكم ما حدث فإنه سيكون من الصَّعب عليَّ لأنَّني أقول لكم بأنَّ تلك الغرفة المحمية تبدو أجمل وأثمن غرفة يمكن أن توجد في هذا العالم، وإذا لم تكسبها واحدة منكن، فلا أراها تكون لفتاة أخرى في هذا الوجود .

هنا قالت بريولانخا التي ظلَّت صامتةً حينا :

- أنا لا أجدني أهلاً لخوض هذه المغامرة، ولكن على أية حال، لم لانجرِّبها ولو كنوع من الجنون !

- سيدتي - قال أماديس - أنا لا أرى أي جنون في أنْ نجرِّب ذلك الذي فشل الجميع فيه، وأنت تتمتَّعين بالجمال الوفير، الذي أعطاك الله منه نصيباً كبيراً، بل إنَّني أرى شرفًا كبيراً أنْ تهوى نفسك كسب تلك الشهرة التي تدوم لزمنٍ طويلٍ دون أنْ يلحق بشرفك أيُّ أذى .

جاء ما قاله أماديس عزيزًا على نفس أوريانا، فعبست وتولَّت، لدرجة أنَّ أماديس، الذي لم يصرف ناظريه عنها، قد اهتم بأمرها فيما بعد، وثقل عليه كثيراً أن قال ذلك

الكلام، وبما أنَّه يقصد مدحها وتكريمها، وهو يعلم بناء على مظهر جريمانيسا هذه المغامرة، وهو ما لم يكن يتسلك فيه بالنسبة لسيدته .

غير أنَّ أوريانا تأجَّجت عاطفتها لكلِّ ما جرى. وكانت تخشى أنه لا يمكن أنْ يكون هناك شيءٌ في هذا الوجود يمكن اكتسابه عبر الجمال ولا يصبح في مقدور بريولانخا بلوغه. وبعد أنْ ظلَّت هناك فترة وتوسلَّت إلى بريولانخا، إذا ما دخلت إلى تلك الغرفة المحروسة أنْ تحيطها علمًا بما تراه هناك، ذهبت إلى حيث توجد مابيليا وانزوت معها على حدة وقصَّت عليها ما جرى من أمر أماديس وبريولانخا في حضرتها، قائلةً لها :

هذا ما يحدث لي دائما مع سيدك، فقلبي المسكين هذا لا ينظر إلى شيءٍ آخر سوى سعادته وما فيه رغبته وإرادته، دون النَّظر إلى مراقبة الرَّب أو غضب الأب، وبما أنَّه يعلم ما بي من نبلٍ لا يعبأ بأمري كثيرًا .

اغرورقت عيناها بالدُّموع، فتساقطت على وجنتيها الجميلتين . وهنا قالت لها ما بيليا :

– أتعجَّب لحالك سيدتي كيف هذا القلب الذي تملكين، فما كدت تخرجين من هم إلا وتريدين الدُّخول في آخر ؟ ما هو هذا الخطأ الكبير الذي ارتكبه سيدي، والذي أثارك بهذا الشَّكل، مع العلم بأنه لم يخنك قولا أو عملاً قط، وقد رأيت بعينيك تلك الأدلة التي تجعلك آمنةً مستقرةً ؟ الآن أقول لك، سيدتي، إنَّك تقدَّمين الدَّليل على أنك لا تحبين الحياة له، إذ وفقًا لما مر به، فقد أدى به الحنق الذي أحاط به بسببك أنْ يقف على شفير الموت، ولا أدري ما الذي يدفعك للغضب منه، وليس في مقدوره عمل شيء أكثر ممَّا فعل، فإذا ما ترك أبوليدون هناك الأمر الذي تمت تجربته من قبل الرِّجال والنِّساء بصفةٍ عامة، كيف كان بمقدوره هو أنْ يفشله ظنًّا منه بأن بريولانخا إذا ما خاضت التَّجربة ستفوز بها من دونك ؟ بكلِّ تأكيد، رغم أنَّ هذا لا يسرك، فأنا لا أرى أنَّ جمالك أو جمالها كافيان للفوز بذلك الذي لم يفز به أحد قط منذ ما يزيد على مائة

عام، مهما كانت درجة الجمال التى تمتّع بها . لكن ليس ذلك سوى حظها الكبير، الذى جعلك رغم كراهيتك لها تخدميها وأهلها، معتبرةً إيَّاهم غرباء، كما قدَّم لهم هو الآخر خدماته حيث أمرته أنت بذلك، وهانت الآن تحاولين منعه من ذلك بكلِّ قسوة . آه، ياله من شيءٍ حين خدم وأمر بخدمة أهل عرقه وطبقته وإخوته، إذا كانت المكافأة التى حصل عليها من جرَّاء ذلك هى أنْ وصل إلى حافة الموت ! وأنا، سيدتى، بقدر ما رعيتك وقدمت لك من خدمة، لا أتمنَّى أنْ أرى ابن طبقتى وعرقى يموت أمام عينى، وليحملنى أخى أجراخيس وعمى جالبانيس إلى بلدى، فمن الخطأ الكبير أنْ يخدم المرء ذلك الإنسان الذى لا يعترف ولا يشكر النِّعمة .

ثم انخرطت فى البكاء قائلةً :

لينقل الرَّبُّ هذه الفظاظة التى تلصقينها بأماديس وبطبقته، رغم أنَّنى أرى على وجه اليقين بأنَّ خسارته، مهما كانت كبيرةً، لن تتساوى مع خسارتك، لأنَّه فى نسيناهم من جانبه سيكون حبه لك الذى يفوق كلَّ شيءٍ .

فى الوقت الذى كانت مابيليا تقول فيه ذلك، أصاب الفزع أوريانا فأغلق قلبها، فما تمكَّنت من أنْ تنبذ بكلمةٍ واحدةٍ لفترةٍ طويلةٍ، وما إن هدأت حتى قالت لها باكيةً من كلِّ قلبها.

- آه، كم أنا بائسةٌ عديمة الحظ من بين كلِّ النَّاس ! ماذا عساه أنْ يكون من أمرى نظير هذا الذى تظنين بى ؟ أتيت لأصلح من همى وحزنى، بعد أنْ عدمت النَّصيحة من الآخرين، وهاأنت قد أتعبتنى نفسيا، فظننت بى ما لم يخطر قط ببالى . وليس هذا إلا لسوء حظى الذى جعلك تفسرين شرا ما قصدت به خيراً، قاتلنى الله إذا كنت قد أيقنت بقلبى شيئًا مما قلته لى، وما بى من شك فى أنَّ ما يخصُّنى فى سيدك هذا لا يرضى رغباتى بصورةٍ كاملةٍ، لكن أكثر الأشياء غرابةً بالنسبة لى، بعد أنْ أصبح سيد هذه الجزيرة، أنَّه إذا ما أتت امرأةٌ ما واجتازت ذلك الاختبار فسيكون وقع ذلك علىَّ أشد من الموت

نفسه، ومع هذا الغيظ الذى يحسه قلبى أحسُّ أنَّ ما قاله بحسن نيةٍ، وإنْ كان قد صدر منه عفواً، أمرٌ أسوأ من أىِّ شىءٍ آخر، ولكن بما أنَّه قد قيل وانتهى فإننى أرجو منك العفو عنى فيما لا أستحقه أبداً، وأتوسَّل إليك بالحبِّ الكبير الذى تحبينه لسيدك أنْ تغفرى لى ذلك، ولتنصحينى بما فيه نفعٌ لى وله. وهنا ضحكت من كلِّ قلبها ثم قالت لها بعد أنْ عانقتها :

– صديقتى، أنت أفضل من أصادق فى هذا الوجود، لقد وعدتك أنَّنى لن أتكلَّم مع سيدك فى هذا الأمر أبداً، ولن أجعله يشعر بأنَّنى قد اهتممت به . لكن تكلَّمى معه فيما ترينه خيراً وهذا ما أراه أمراً جيداً .

قالت لها مابيليا :

– سأسامحك شريطة أنَّك، رغم ما تشعرين به من غيظٍ نحوه، لا تبدين ذلك له أولاً وقبل أنْ أتحدَّث إليه فيه؛ حتى لا يقع الخطأ نفسه الذى وقع من قبل .

هكذا تم الاتفاق بينهما، كمن لم يحدث بينهما أىُّ بغض قط . غير أنَّ مابيليا، دون أنْ تتناسى ما قاله أماديس من قول انطوى على درجة عالية من الجفاء، بدأت تواجهه والغيظ يتملَّكها، وعنَّفته على ذلك وقبَّحت من شأن ذلك الذى صرحت به بريولانخا أمام سيدتها، وأعادت إلى ذاكرته ذلك الخطر الذى أحدق بحياته من قبل بسبب هذه السَّيدة، محذرةً إيَّاه بأنَّه كلما هم بالكلام مع بريولانخا عليه أن يكون فى غاية الحذر، متأكداً من أنه يصبح من العسير جدا أنْ ينتزع الغيرة من قلب سيدةٍ تأصَّلت فيها هذه العاطفة، وأخبرته كيف استقبلت سيدته مثل هذا الأمر والطَّريقة التى سلكتها هى معها من أجل تهدئتها . وهنا بدأ أماديس، بعد أن شكر لها ما قالته فى أدبٍ واحترامٍ وأكبر ما فعلته من أجله، يعدهــا لو امتدت به الحياة أنْ يجعل منها ملكة، وقال لها :

– سيدتى، إنَّ الأمر بالنِّسبة لى يختلف تماماً عمَّا تفكِّر فيه سيدتى، لأنَّ الواجب الذى كان على أنْ أؤديه لها فى هذا الصَّدد لا يقتصر فقط على تقديم النُّصح

لبريولانخا بأنْ تخوض تلك المغامرة، ولكن الذَّهاب معها إلى أيِّ مكان تخوض فيه مثلها، والسَّبب هو : يرى الجميع أنَّ بريولانخا هي أجمل سيدات العالم، وإنْ كنَّ بلا شك يدخلن دون ما عقبة تذكر إلى تلك الغرفة . ولكن لأنَّني أؤمن بعكس ذلك، حيث رأيت جريمانيسا، والتي لا تتساوى معها بقدر كبير في الجمال، أرى أنها تفوق كلَّ السَّيدات اللاتي كسبن الاختبار، ولسوف تكسبه بريولانخا، ومالا شك فيه بالنِّسبة لأوريانا هو أنَّها ستجتاز الاختبار بمجرَّد أنْ تتقدم إليه، وإذا ما حدث ذلك قبل مرور بريولانخا فسيقول الجميع إنَّ هذه كتلك وأنها كانت سوف تجتازه وإذا ما أقدمت عليه . وحين تكون بريولانخا الأولى، ولا يمكنها كما أنا متيقنٌ، لن يبقى بعد ذلك سوى نجاح ومجد سيدتي . هذا هو سبب جرأتي .

سُرَّت مابيليا كثيراً لهذا الذي قاله أماديس، وبعد أنْ سمعت أوريانا منها هذا القول ندمت على ذلك الإحساس المتبدل الذي انتابها، وعادت بذاكرتها إلى الصُّورة التي كانت عليها والحالة العصبية التي مرَّ بها سيدها من قبل من جرَّاء مثل هذه العاطفة . ومن أجل تصحيح هذا الخطأ اتفقتا على أنْ تمهدا السَّبيل لأماديس، عبر ممر أرضي مؤدٍ إلى البستان في غرفة أوريانا والملكة بريولانخا، ليتسلَّى ويتحدَّث معها . هكذا تمَّ الاتفاق، وما إن انصرف أماديس من عند مابيليا حتى توسلتا إليه أنْ يخبرهما بالحقيقة عن كلِّ ما سيسألانه عنه . وعدهما بذلك فقالت له أوريانا :

– قل لنا من هي تلك الفتاة التي كانت تضع الزينة الوردية في رأسها حين ربحت السَّيف .

كان وقع هذا السُّؤال عليه ثقيلاً، بعد أنْ وعد بقول الحقيقة، ولكنه توجَّه إلى أوريانا، ثم قال لها :

– لا أدري، سيدتي، عن اسمها شيئًا، ولا من تكون، أكثر مما تعرفينه أنت، رغم أنَّني عشت معها مدَّة سبعة أيامٍ . غير أنَّني أقول لك إنَّ لها شعراً جميلاً وقد رأيتها في غاية الجمال، غير أنَّني لا أدري عنها أكثر مما تعرفينه سيدتي، وأعلم أنَّك ما رأيتها قط .

قالت أوريانا :

- إذا ما حققت فوزًا كبيرًا من اجتياز هذه الاختبار فمعني ذلك أنَّه قد كلَّفها كثيرًا ، فعلى حد علمي أن أركالاوس الإنكنتادور وليندوراكي، ابن أخيه، كانا يـرغبان في انتزاع الزِّينة الوردية منها وتعليقها من شعر رأسها لولا أنك دافعت عنها .

- لا يبدو لي - قالت بريولانخا - أنَّه هو من دافع عنها إذا ما كان هو أماديس، وإنَّما ذلك الذي حقق شهرةً في النِّزال والمعروف باسم بيليتنبروس، والذي لم يكن يقل في مهارته عن أماديس . ومهما قدَّم لي هذا من عظائم الأمور فإنَّ ذلك لا يعني أنْ أكفَّ عن قول الحقيقة . وأقول إنَّه إذا ما كان أماديس، بتفوقه في ميزان القـــوى على ذلك الشُّجاع أبوليدون، أصبح سيدًا لجزيرة فيرمي مما أضاف إليه قدرًا ومجدًا عظيمين، فإنَّ بيلتينبروس الــذي هزم في غضون يوم واحد عشرة فرسان من أفضل ما جمع بلاط والدك وقتل في ساحة النِّزال ذلك العملاق الشُّجاع فـامونجـومادان وابنه باساجانتي قد حقَّق مجـدًا مـوازيًا لمجـد أمـاديس . فإذا ما قلنا إنَّ أماديس، بمروره تحت قوس العشاق المخلصين، قد نال من التِّمثال ما لم ينله أحدٌ غيره من الفرسان. وقد أثبت هكذا إخلاصه في حبه، فلا يجب، في رأيي، أنْ نقلل من قدر ما قام به بيليتنبروس من إخراج ذلك السَّيف المتقد، الذي لم يستطع أحد إخراجه على مدى ستين عامًا . وهكذا، صديقتي، فليس من الحق أن نقتلع المجد الواجب إلصاقه بيلتينبروس لنعطيه عن غير حق لأماديس، إذ من الواجب أن نكون منصفين في الحكم عليهما، فهما متساويان في الخيرية . وهذا هو رأيي .

هكذا كما سمعتم ظلَّت هاتان السَّيدتان تمزحان وتلهوان، وهما من جمعتا جمال وظرف الدُّنيا بأسرها، وقد أبديتا حبهما الكبير لذلك الفارس، وقد سعد هو بذلك أيما سعادة، خاصة حين استعاد تلك الذِّكرى المؤلمة وذلك الحزن القاسي الذي عاناه حين لم

يكن بمقدوره أنْ يضع حدا له في الوقت الذى كان يوجد فيه على أرض الصَّخرة الفقيرة، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت .

والحال هكذا أتت فتاة من جانب الملك تنادى على أماديس، وأخبرته أنَّ السَّيد كوادراجانتى ولادين، ابن أخيه، يريدان التَّحلل من عهدهما، وهكذا أصبح من المناسب، بعد التَّخلى عن هذا الجو من السُّرور والمرح، أنْ يهبَّ إلى حيث يوجد الفارسان، وبرفقته السَّيد برونيو دى بونامار وبرانفيل، وما إن وصلوا إلى حضرة الملك ورفاقه من الفرسان حتى نهض السَّيد كوادراجانتى قائلاً :

– سيدى، لقد انتظرت هنا أماديس دى جاولا، كما تعلمون، أما وقد حضر فإننى أودُّ أنْ أتحلَّل أمامكم من الوعد الذى قطعته له على نفسى .

وهنا قصَّ عليه كلَّ ما أتاه في تلك المعركة حين نازله، وكيف أنه حين هزم على يديه أتى إلى هذا البلاط رغمًا عنه ليكون تحت سلطته ويعفو عنه فى قتله للملك أبييس شقيقه، وأنه، بعد أنْ زالت تلك النَّزعة التى كانت تنتابه حتى تلك اللحظة، والإحساس الهائج الذى تملَّكه، وبدون ما تخل عن الحق، وجد أنَّه قد كان من الصَّلف لا من الحق أنه طالب وحاول الانتقام لتلك الميتة، وهو يعلم بأنَّ هذه المعركة، دونما إدانة تذكر، قد وقعت بين فارسين، وحيث إنَّ الأمر على هذا النَّحو، فقد تخلَّى عن مطالبته بذلك الدَّين وجعله صديقًا له بالطريقة التى تحلو له . وهنا قال الملك .

– يا سيد كوادراجانتى، إذا ما كنت حتى الآن قد حققت مجداً عظيمًا وقدمت أعمالاً كبيرةً فى مجال النِّزال أكسبتك المجد والشُّهرة وأصبحت تذكر على كلِّ لسانٍ، فهذه أمورٌ لا يجب الاستهانة بها، لأنَّ الشَّجاعة والقوة الخاضعتين للعقل يجب أنْ يضعهما النَّاس فى مكانةٍ عاليةٍ .

وهنا جعلهما يتعانقان، شاكراً لأماديس كلَّ ما فعله من أجله والصَّداقة التى ناشده إيَّاها، والتى إنْ كانت قد فسرت بالأمر البسيط يومها، إلا أنَّها استمرت زمنًا طويلاً وتمَّ الحفاظ عليها بينهما مثلما ستحكيه لنا القصة تمامًا . وفيما يتعلق بالمعركة

المؤجلة بين فلوريستان ولاندين فقد كان من الواجب لنفس السَّبب أنْ تلغى على لسان لاندين بتأثير من كوادراجانتي، حيث تدخَّل كوادراجانتي بما له من سلطانٍ ملكيٍ. وهذا الأمر أفرح لاندين كثيراً، فهاهو قد شاهد جرأة وشجاعة فلوريستان في المعركة التي وقعت بين الملكين آنفًا .

وما إن تَّم هذا الأمر - كما سمعتم - حتى ظلَّ الملك ليسوارتي مسروراً بضعة أيام لما تم إنجازه في المعركة التي خاضها ضدَّ ثيلداران، ثم تذكَّر ذلك السَّجن القاسي الذي أصبح فيه أربان ملك نورجاليس، وكذلك سجن أنجريوتي دي إستراباوس، وقرر العبور إلي جزيرة مونجاثا حيث كانا يوجدان، وحدَّث بهذا كلا من أماديس وبعض الفرسان، لكن أماديس قال له :

- الله يعلم، يا صديقي، أنَّه إذا لم يكن في مقدوري أنْ أصلح بعض الأمور، كنت سأبحث عن بعضها بنفسي، ولكن بما أنَّني لا طاقة لي بمثل هذا الأمر، فأري أفضلية أنْ نفعل ما قلته الآن .

وهنا نهض ما يزيد على مائة فارس، كلُّهم من أصحاب القدر والعظمة ومن أصحاب الخبرة والحنكة القتالية، وأعلنوا أنَّهم يريدون أيضًا المشاركة في هذا العمل، فإذا ما كانوا ملزمين بخوض المغامرات الكبيرة فلن يجدوا هناك أكبر من خسارتهم لذلك الفارس . فرح الملك بهذا، وتوسَّل إلى أماديس ألاَّ يرحل، لأنَّه يريد الحديث معه .

الفصلُ الستّون

كيف رأى الملك نيرانا غريبة وسط البحر، والتي كانت عبارة عن سفينةٍ أتت فيها أورجاندا، السّاحرة، وما جرى له معها .

بعد تناول العشاء كان الملك موجودًا بأحد الممرات على وشك أنْ يخلد إلى النَّوم، أخذ ينظر إلى البحر فوجد على سطحه نارين قادمتين صوب مدينته، واللتين فزع لهما الجميع؛ إذ بدا لهم من الغرابة اجتماع النَّار والماء . ولكن حين اقتربتا منهم أكثر رأوا بين النَّارين سفينةً كبيرةً أوقدت في ساريتها شعلتين كبيرتين، فبدت السفينة كواحدةٍ تحترق . كانت الجلبة كبيرة، حتى خرج جميع من هناك إلى الأسوار لإطفاء النَّار، ولن يكون ذلك في استطاعة أيّ شيءٍ آخر وستأتي النَّار على المدينة ومن فيها، وأصبح الناس في فزعٍ شديدٍ لأن النَّار والسَّفينة غدت على مقربةٍ منهم، هكذا ذهبت الملكة ومعها وصيفتها إلى مكان الصَّلوات بعد أن تملّكهنّ خوفٌ شديدٌ . امتطى الملك جواده، وبرفقته خمسون فارسًا يعملون دائما على حراسته، وما إنْ وصل إلى شاطئ البحر حتى وجد جميع فرسانه هناك . ورأى أمام الجميع أماديس وجوليان الكويدادور وإينيل على مقربة من النِّيران، فتعجَّب منهم كيف تحمَّلوها، وهمز جواده الذي كان قد فزع من الجلبة العالية، ووقف إلى جوارهم . وما تأخر الوقت حتى شاهدوا سيدةً تخرج من خيمة بالسَّفينة ترتدي ثيابًا بيضاء وتحمل صندوقًا في يدها، فتحت الصُّندوق أمام أعين الجميع وأخرجت منه شعلةً موقدةً، وبعد أنْ ألقت بها على البحر انطفأت، وأطفأت جميع النِّيران الكبيرة الأخرى، بحيث لم يبق لها أثرٌ بعد، ممَّا أسعد جميع الحاضرين، فزال عنهم الخوف الذي تملّكهم من قبل، وما بقي هناك

سوى الضَّوء المنبعث من المشاعل التى كانت فوق سارية السَّفينة، والتى أضاءت ما حولها من شاطئ البحر . وبإزالة القماش الذى كان يغطى السَّفينة، رأوها وقد غطيت عن آخرها بالأزهار والورود، وانبعثت من داخلها نغمات موسيقية رائعة وعذبة . وبعد أنْ توقَّف العزف خرجت عشر فتيات عليهن أفخم الثِّياب وأغلاها، وأبهى الزِّينات فوق شعورهن، ويحملن فى أيديهن عصيا ذهبية، وأمامهن سارت السَّيدة التى ألقت بالشُّعلة فى مياه البحر فأطفأتها، ثم توجهن صوب الملك على متن السَّفينة أدين التَّحية، وردَّ عليهن الملك التَّحية، وقال :

- سيدتى، أخفتنا كثيرا بهذه النِّيران التى صحبتك، وإذا ما أردت، فأخبرينا من أنت؟ رغم أنَّنى أعلم أنَّ معرفة هذا الأمر لا يحتاج منا لوقتٍ طويلٍ .

- سيدى - قالت - عبثًا يحاول من يتطلع لأن يدخل الخوف فى نفوسكم، ونفوس كل هؤلاء الفرسان الموجودين هنا، ولكن النِّيران التى رأيتموها كانت أمراً ضروريا لحمايتى وحماية النِّسوة اللاتى أتين معى، وإذا ما كنت ترى أنَّنى أنا أورجاندا لاديسكونوثيدا فقد أصبت كبد الحقيقة، وقد أتيت إليك باعتبارك أكبر ملوك الدُّنيا، ولأرى الملكة صاحبة العصمة والشَّرف اللذين لا مثيل لهما .

توجَّهت إلى أماديس، ثم قالت له :

- سيدى، تعال هنا أمامى، وسأروى لك كيف أنَّنى أتيت إلى هنا، حتى أعفيك أنت وأصدقاءك من ذلك العمل، الذى أردتم تحمله وخوضه من أجل البحث عن جالاؤر، شقيقك، لأنَّ كلَّ شىءٍ فى الحياة يضيع هباءً، رغم أنَّ النَّاس جميعا لا يكفون عن التَّعلق بها . وأخبرك بأنَّه قد شفى من قروحه، وأصبح يتمتَّع بصحةٍ وسعادةٍ لم يتمتع بمثلهما فى حياته قط .

- سيدتى - قال أماديس - دائما ما جال بخاطرى أنَّه، بعد عون الله، سيكون فيما تقومين به من عمل صحة وبركة على جالاؤر، وراحة كبيرة لى، فبالصورة التى استدعى بها وحمل أمام عينى، لو أنَّنى لم أكن أعلم هذه الحقيقة، لكنت قدمت حياتى على كفى وما رحلت وتركته. وأفضل شكر أقدمه

إليك لن يكون – كما تعلمين أنت أفضل منِّى – سوى أنْ أجعل نفسى طوع أمرك فيما من شأنه أنْ يشرفك ويخدمك دون خوف يذكر، ولو كان فى قرارى هذا مواجهة الموت فلن أرهبة .

– لا عليك، ولتفرح – قالت هى – فعمًا قريب ستراه فى فرحةٍ عارمةٍ ينالك منها نصيبٌ كبيرٌ .

قال لها الملك :

– سيدتى، لقد حان الوقت لكى تخرجى من السَّفينة، وتذهبى إلى قصرى .

– شكراً جزيلاً – قالت هى – لكنِّنى سأمضى هذه الليلة هنا، وسأفعل ما تأمرنى به غداً . وأنا آتيةٌ من أجل أماديس وأجراخيس والسَّيد برونيو دى بونامار والسَّيد جوليان الكويداور، لأنَّهم من العشاق ويملكون قلوبًا نضرةً مثلى تماما .

– ليكن لك ما طلبت – قال الملك – وأكثر منه وفق رغبتك وإرادتك .

أمر الملك بعودة كلِّ الحاضرين إلى بيوتهم، وودَّع أورجاندا، ثم عاد إلى قصره بعد أنْ ترك هناك عشرين فارسًا للحراسة يعملون على منع أىِّ شخصٍ من الاقتراب من شاطئ البحر . وفى اليوم التَّالى أرسلت الملكة اثنى عشر جواداً فى أبهى زينةٍ لحمل أورجاندا وفتياتها إلى القصر، وذهب فى طلبها كلٌّ من أماديس والفرسان الثَّلاثة الذين عينت أسماءهم، يرتدون ثياب النبل والثراء، وحين وصلوا إليها وجدوا أورجاندا ووصيفاتها فى السَّفينة وقد بتن ليلتهن فى خيمة أقيمت ليلا، ترجلوا وذهبوا إليها، فأحسنت وفادتهم، وكذلك كان ردهم عليهن جميلا، طلبوا منهن أنْ يمتطين الجياد، وسار الفرسان الأربعة حول أورجاندا، وحين رأت نفسها فى هذا الوضع قالت :

– الآن سعد قلبى واستراح كثيرا، حيث يرى من يهواهم وقد أحاطوا به .

لقد قالت هذا لأنَّها، مثلهم، كانت عاشقةً لذلك الفارس الشَّهير صديقها . وما إن وصلوا القصر حتى دخلوا إلى المكان الذى يوجد به الملك، الذى أحسن استقبالها،

وقبلت هي الأخرى يديه، ونظرت حولها، فرأت العديد من الفرسان بالقصر، ثم نظرت إلى الملك قائلةً له :

- سيدى، أنت فى صحبة طيِّبة، إذ إنَّ المحيطين بك صحبة الفرسان الشُّجعان ويحبونك حبا جما، فحبُّ الرَّعية لملوكهم يجعل ملكهم فى أمان . وعليه فلتحافظ عليهم، حتى لا يبدو أنَّ فطنتك لم تشبع بتلك المغامرة الكبيرة التى تتطلع إليها . ابتعدوا عن مستشارى السُّوء؛ فهؤلاء هم السُّم الزعاف الذى يقتل الملوك . وإن شئت أودُّ أنْ أرى الملكة، وسأتحدَّث معك قبل رحيلى حول بعض الأمور .

قال لها الملك :

- أشكر لك كثيراً هذه النَّصيحة التى تسدينها إلىَّ وسوف أنفذها قدر استطاعتى. ولتذهبى الآن لرؤية الملكة، فهى تحبك كثيرا، وتأكَّدى من أنَّها ستفعل كلَّ شىءٍ من أجل راحتك .

ذهبت فى صحبة الفرسان الأربعة إلى الملكة، التى استقبلتها هى وأوريانا والملكة بريولانخا والفتيات والسيِّدات الموجودات برفقتهن بكل ترحابٍ ومودَّة، أخذت تنظر طويلا إلى بريولانخا، فقد أسرها جمالها، غير أنها حين رأت أوريانا أيقنت أنَّ تلك لا تتساوى معها فى جمالها، وسعدت برؤيتهن . وقال للملكة :

- سيدتى، لقد أتيت إلى هذا القصر لأرى عظمة الملك وعظمتك، وعظمة السَّلاح والقوة وزهرة جمال الدُّنيا، وكلُّها أمورٌ أرى أنَّها لم تتجمَّع لإمبراطورٍ أو ملكٍ فى هذا الوجود كله . والحال هكذا، يعززها كسب الجزيرة اليابسة والتَّفوق على ذلك المغلوب أبوليدون، وموت أولئك العماليق الشُّجعان، وتلك المعركة القاسية المؤلمة التى بذل فيها زوجك والمحيطون به مجهوداً كبيراً شهد به الجميع . من ذا الذى يجرؤ ويتجاهل فيرغب فى أن يحوز فى العالم أجمع، جمالا يتساوى مع جمال هذه السيِّدات ؟! لا أحد حقا . وهكذا، فحين رأيت كلَّ هذه الأشياء أصبح قلبى هادئا وسعيداً . وأزيد على ذلك فأقول : إنَّ

هنا حبا يترعرع لا مثيل له في أيِّ زمان خلا، الأمر الذى وضح جليا فى تجربة السَّيف المتقد والزينة الوردية، والذى طاف العالم كله على مدى ستين عاما، فما وجد أحدا يقوم بهذه المهمة، وتلك التى ربحت الزِّينة الوردية قد برهنت بقوة على أنَّها تتميَّز على مثيلاتها فى العالم أجمع بوفائها لصديقها.

حين سمعت أوريانا هذا الكلام تغيَّر لونها وغُشى عليها، حيث اعتقدت أنَّ أورجاندا قد اكتشفت حقيقتها هى وصديقها، وسوف يصبحان في خطرٍ كبيرٍ وخجلٍ من الآخرين، كما فزع الجميع لذلك أيضا، غير أنَّ مابيليا والفتاة الدَّانماركية قد فزعتا أكثر اعتقاداً منهما أنَّ الخطر الأكبر سيحدق بهما . نظرت أوريانا إلى أماديس الذى كان على مقربة منها، ولما فهم خوفها اقترب منها، وقال لها :

– سيدتى، لا تخافى، فلا يدور الكلام هنا على المحمل الذى تظنين .

وهنا قال للملكة :

– صديقتى، أخبرينا، إنْ شئت، عن ذلك الذى يريد أماديس أنْ يعرفه .

قالت هى ضاحكة :

– من الأفضل أنْ يعلم أنَّه لست أنا من أمضى فى صحبتها وقتًا وكان لديه حماسٌ شديدٌ لإطلاق سراحها من بين أيدى أركالاوس الإنكنتادور وليندوراكى .

– أنا سيدتى ؟ – قال أماديس – ليس من الممكن أنْ أكون أنا على صلةٍ بها وأعرفها، ولا أنا نفسى، كما تعلمينه أنت، لأنَّه بإرادتها التَّخفى عنِّى كما فعلت سيكون هباءً البحث عن مثل هذا الأمر .

– بما أنَّ الأمر هكذا – قالت – فإننى أريد أنْ أقول ما أعرفه عن هذا الموضوع، وهنا تكلَّمت بصوتٍ عالٍ سمعه الجميع، قائلة :

– مع أن أماديس أتى بفتاةٍ الاجتياز مثل هذا الاختبار، فإنها فليست سوى سيدة نبيلة، وكان ذلك أحد الأسباب التى مهَّدت لها كسب هذا الاختبار، وإن كانذلك راجعًا فى الأساس لكونها تحب صديقًا حبا جما. ولتعلمى أنَّها تنتمى إلى أصولٍ ملكيةٍ

تمتد جذورها هنا، من ناحية الملك، ومن ناحيتك، ومن ناحية الأم فليست تنتمى إلى هذه الدِّيار، وفى هذه الدِّيار تسكن ولها نصيبٌ من الميراث مؤكَّدٌ فيها . وإذا ما كان هناك شىءٌ ينقصها فهو أنَّها لا تجد محبوبها الذى أحبته حبا جما على هواها ووفق مرادها . ولن أحدِّثكم عنها أكثر من هذا، ولا أتمنَّى أنْ يكشف الرَّب بسببى تلك الأمور التى من الأنسب للبعض أنْ تظلَّ محجوبةً عن الآخرين، ومن أراد أنْ يعرف المزيد فليبحث عنه فى ديار الملك حيث سيضيع حماسه .

وهنا هدأ قلب أوريانا والحاضرون معها . وقالت لها الملكة :

– أصدِّق ما تقولين، ولكن مع ما أعلمه عن ذلك من قبل، ومع التفكير فى أنها كانت فتاةً تقولين إنَّها سيدةٌ نبيلةٌ .

– هذا يكفى دون أنْ تعلمى عنه شيئًا أكثر – قالت أورجاندا – فبتشريفها لبلاطكم أبدت وفاءً كبيرًا .

وبسماع هذا من جانب أوريانا هدأت من حالة الهياج التى انتابتها وكذلك الأخريات . وعندئذ ذهب الجميع لتناول الغذاء، فوجدوه معدا بالصُّورة التى جرت العادة أن يصنع بها الطعام فى هذا القصر . طلبت أورجاندا من الملكة أنْ تتركها تنزل إلى جوار أوريانا والملكة بريولانخا .

– لك هذا – قالت الملكة – لكنَّنى أرى أنَّ ما بهما من جنونٍ سيكون مصدر إزعاجٍ لك.

– سيكون الإزعاج أكثر – قالت أورجاندا– بسبب ذلك الجمال الذى تمتعان به لأولئك الفرسان الذين لا يحتاطون منهما، ففى مواجهتهما لا يكفى المجهود ولا الشَّجاعة ولا الرَّصانة حتى يتجنَّبوا الخطر الأدهى من الموت .

قالت لها الملكة ضاحكةً :

– أعتقد أنه سيتم العفو عن كل من تعذَّب أو مات من الفرسان .

فرحت أورجاندا كثيراً بما قالته الملكة، ودَّعتها ثم انصرفت إلى مخدعها إلى جوار أوريانا، الذى كان عبارة عن غرفة بها أربعة أسرَّةٍ، أحدها خاصٌ بالملكة بريولانخا، والآخر لأوريانا، والثَّالث لمابيليا، والرَّابع لأورجاندا . تسلين جميعًا هناك بالحديث عن كلِّ ما كان فيه سعادتهن، حتى غلبهن النَّوم، ولكن بعد أنْ نام الجميع رأت أورجاندا أن أوريانا مازالت مستيقظةً، فقالت لها :

– صديقتى وسيدتى، إذا لم تكن لك رغبةٌ فى النَّوم، فلابد أنَّ سبب ذلك هو ذلك الشخص الذى بحرمانه من رؤيتك لا ينام ولا يعرف للحياة طعمًا، وهكذا يذهب الانتقام بعضه ببعض .

اعترى الخجل أوريانا لما قالته لها أورجاندا، غير أنَّ هذه الأخيرة التى فهمت ذلك قالت لها :

– سيدتى، لا تخافى لكونى أعرف سرَّك، فسوف أحفظه كما تحفظينه تمامًا، وإذا ما قلت شيئًا فسيكون عن طريق الرمز الخفى، والذى حين يعرف أمره لن يكون هناك أدنى ضررٍ منه .

قالت أوريانا :

– سيدتى، تكلَّمى بصوتٍ خافتٍ، حتى لا تسمع هذا الكلام هؤلاء الفتيات اللاتى معنا بالحجرة .

قالت أورجاندا :

– سأخرجك من هذا الخوف .

– الآن لك أنْ تعلمى أنَّه – مهما حدث لهنَّ – فلن يستيقظن أبدًا، وإذا ما دخلت واحدةٌ إلى هنا فسوف تسقط على الأرض نائمةً .

ذهبت أوريانا إلى الملكة بريولانخا وأرادت أنْ توقظها، لكنها لم تستطع، ثم أخذت تضحك، قيدتها من رأسها وذراعيها، وأمالتها من فوق سريرها، وشيئًا مماثلاً

فعلت بمابيليا، ولكن هذا لم يوقظها أيضًا، نادت على الفتاة الدَّانماركية التى كانت تقف على باب الحجرة، وما إن أصبحت داخل الحجرة حتى سقطت نائمةٍ . وهنا ذهبت بكلِّ سرور لتنام مع أورجاندا في سريرها، وقالت لها :

- سيدتى، أرجوك كثيراً أن تقولى لى، بما لك من فطنة وحسن توقع للأشياء قبل أن تحدث، شيئًا عما يمكن أنْ يحدث لى قبل أوانه .

نظرت إليها أورجاندا ضاحكة كالبلهاء، ثم قالت :

- بنيتى المحبوبة، أتعلمين ماذا سيكون من أمرك حين تعلمين ما سيأتى مستقبلاً وفيه ضررٌ عليك ؟ لا عليك، فإنَّ ما يقدِّره الله تعالى لن يكون فى مقدور أحدٍ أنْ يمنعه أو يعوقه، خيراً كان أم شراً، إذا لم يأت اللطف من جانبه هو، الله الخالق . ولكن بما أنَّك تشتاقين لسماع شيء منِّي، فسأنزل على رغبتك، ولتنظرى حين تعرفين شيئًا عن ذاتك ماذا ستفعلين لصالحك .

هنا قالت لها :

- في ذلك الزَّمان الذى سيخيم فيه الحزن عليك، ويتألَّم الجميع من حولك لهذا الحزن والهم، سيخرج ذلك الأسد القوى وبرفقته مساعدته، وحين يزأر بقوةٍ ينزل الرُّعب والخوف بقلوب من يعملون على حراستك، وستكونين وحيدةً بين أنيابه القوية، وهنا يهم الأسد الشَّهير بنزع التَّاج من على رأسك حتى لا يصبح تبعًا لك، وتصبحين لقمةً سائغةً بين فكَّى الأسد الجائع، ثم يدخلك عرينه، وبهذا تهدأ ثورة الجوع عنده . والآن، بنيتى الطَّيِّبة، انظرى ماذا ستفعلين، فهذا الأمر واقعٌ لا محالة .

- سيدتى - قالت أوريانا - سأكون مسرورةً جدا منك حين لا تسألينني عن شيءٍ، فهأنت قد وضعتنى في ساحة خوفٍ عظيمةٍ بهذه النِّهاية الغريبة والقاسية .

- سيدتى وبنيتى الجميلة - قالت هى - لا تحاولى معرفة ذلك الأمر الذى لن تفلح فطنتك أو أية مجهوداتٍ أخرى فى الوقوف أمامه . ولكن كثيراً من النَّاس

يخشون الأمور الخفية فيعمدون إلى كتمان الفرح، وعليك أنْ تعلمي جيداً أنَّ الله قد جعلك ابنةً لأفضل ملكٍ وملكةٍ في هذا الوجود بكلِّ هذا الجمال، الذى يتناقله النَّاس في كل مكان على أنَّه أعجوبةُ الأعاجيب، وجعلك تحبين ذلك الفارس الذى فاق الجميع وأصبح كالنَّهار وسط الظَّلام فى الشَّف والرِّفعة، الذى هو تبعًا لما مضى من أمور، مدعاة لفخرك، وكذلك عليك أنْ تفخرى بأنَّك أصبحت سيدةً لذلك الذى، عن جدارة واستحقاق، استحق أن يكون سيداً . والآن حان موعد إيقاظ هؤلاء السَّيدات .

وهنا أخرجت الكتاب من الحجرة، فعاد الجميع إلى سيرته الأولى. هكذا – كما سمعتم – أمضت أورجاندا هناك وقتًا ممتعًا، أحاطها الجميع خلاله بكل أنواع التَّرف. وبعد مرور بضعة أيامٍ توسَّلت إلى الملك أنْ يجمع هناك جميع فرسانه، والملكة جميع سيداتها وفتياتها، لأنها ترغب في الحديث إليهم قبل رحيلها . وقد تمَّ ذلك فيما بعد فى صالةٍ كبيرةٍ وجميلةٍ زينت بكلِّ أنواع الزِّينة، وقفت أورجاندا في مكان يسمعها الجميع من خلاله . وهنا قالت للملك :

– سيدى، بما أنك احتفظت بالرِّسالتين اللتين أرسلت بهما إليك وإلى السَّيد جالاؤر حتى وقت رحيل بيلتينبروس، بعد أنْ ربح السَّيف وربحت فتاته الزِّينة الوردية، فأتوسَّل إليك أنْ تأمر بإحضار الرِّسالتين إلى هنا، حتى يفهم الحاضرون ما كنت أعمله من أمورٍ قبل وقوعها .

أمر الملك بإحضار الرسالتين وقرأتهما على جميع الحاضرين، فرأوا كيف أنَّ كل ذلك الذى سُطِّر فيهما قد وقع تمامًا، الأمر الذى أدهشهم، وكان إعجابهم أكثر من جرأة الملك الذى تجرأ، مع كل هذا الكلام المخيف، على دخول المعركة . وهناك تأكَّدوا من أنَّ الضَّربات الثَّلاث التى أطلقها بيلتينبروس هى التى أنهت المعركة لصالح الملك؛ الضربة الأولى عندما هزم الملك ثيلدادان وأسقطه تحت قدمي جالاؤر، والثَّانية حين قتل المتعجرف سارمادان الأسد، والثَّالثة حين أنقذ الملك، الذى حمله ماندانتفابول، ذلك العملاق الشُّجاع صاحب البرج الأبيض المشبع بالحمرة، تحت ذراعيه وأراد أنْ يدخله

السَّفينة، وكسر ذراعه من ناحية المرفق، وحين أنقذ الملك قضى العملاق نحبه . كما تحقَّق ما قالته عن السَّيد جالاوز أيضاً من أن رأسه فى حجرة كمن قضى نحبه فى الوقت الذى سلمه إلى الفتيات اللاتى طلبنه منه .

– ولكن الآن – قالت أورجاندا – أريد أنْ أخبرك بأشياء تخصك ستحصل فيما بعد، والتى ستحدث تباعًا على مرِّ الأيَّام .

وأخذت تقول :

– سيقع نزالٌ بين الثُّعبان الكبير والأسد القوى وسوف تشترك فيها حيوانات مفترسة كثيرة . سيقع بينها غضبٌ وحنقٌ كبيران، بحيث يتسبب ذلك فى قتل العديد منها . وحين يجرح الحيوان الجارح بفعل أظفار الأسد القوى، ويقطع جلده بصورة وحشية يصبح وضع الثعبان الكبير مدعاة للحزن والألم. وفى تلك الأثناء تأتى النَّعجة الوديعة المغطاة بالصُّوف الأسود فتقف بينهما، وبما لها من وداعةٍ وتواضع تعمل على تهدئة الجو الذى أشعل نار الهياج بين قلبيهما، وتفصل بعضهم عن الآخر . ولكن بعد ذلك تهبط الذِّئاب الجائعة من الجبال القاحلة لتواجه الثُّعبان الكبير، وبعد أن يتغلبوا عليه وما معه من الحيوانات سيحجزونه فى أحد الكهوف . وأمَّا وحيد القرن الوديع، بعد أنْ يضع فمه فى أذن الذِّئب القوى، فسيزأر بكلِّ قوةٍ فيوقظه من نومه العميق، ويجعله يحمل معه بعضاً من حيواناته المفترسة، ويتوجَّه بها على عجل صوب المكان الذى يوجد فيه الثعبان الكبير لينقذه، حيث يجده يحتضر وقد ظهرت على جسده آثار العض من قبل الذئاب الجائعةِ، وكان الدم ينزف بغزارة بين صدفاته القوية . وبإخراجه من بين أفواههم الغاضبة تمزَّقت الذِّئاب عن آخرها وأصبحت فى وضعٍ مشينٍ . وما إن تنفيذ حياة الثعبان الكبير، بعد أنْ يقذف من داخله كلَّ سمومه، حتى يسمح بأنْ يوضع بين أظفار الأسد القاسية ذلك الأيل الأبيض، والذى حين يطلق ثغاءه صوب السَّماء طالبًا النَّجدة وسط الغابة المخيفة سيعود مرَّةً أخرى. والآن مُره بكتابة هذا الذى أقول أيها الملك، فسوف يحدث مثلما قصصته عليكم .

قال الملك :

إنه سيفعل ذلك، لكنَّه لم يفهم مما قلته شيئًا .

- سيأتي ذلك اليوم - قالت أورجاندا - الذي سيتضح فيه كلُّ شيءٍ للجميع .

نظرت أورجاندا إلى أماديس، ورأته غارقًا في التَّفكير، وقالت له :

- لماذا تفكر فيما لن يجدي لك نفعا ؟ دعك من هذا الأمر، وفكر في عمل ينفعك ولا بد أن تهم بفعله . في ذلك الوقت ستصل إلى شفير الموت مقابل حياة الآخرين، وستقدم دمك فداء لدماء الآخرين، ومن تلك الصفقة التي تهم بها ستكون الشهادة من نصيبك، والربح من نصيب آخر، والجائزة التي ستحصل عليها من جزاء ذلك هي الغضب وتباعد تحقيق رغباتك . وهذا السيف الحاد والثري الذي تملكه سيخترق عظامك ولحمك حتى تصاب بفقر دم شديد . وستظل على هذا الحال، ولو أنك أصبحت مالكا لنصف هذا العالم لدفعته في مقابل أن يكسر ذلك السيف أو أن يلقي به في أية بحيرة لا يمكن إخراجه منها مرة أخرة . والآن انظر ماذا ستفعل، فكل ما قلته لك سوف يقع لا محالة .

وهنا وحين رأى أماديس أن كل الحاضرين قد صوبوا أنظارهم إليه قال - وقد ارتسمت السعادة على وجهه - ما كان يشعر به :

- سيدتي، نظرا للأشياء السَّابقة التي أخبرتنا بها من قبل يمكننا أنْ نحكم بأنَّ ما تقولينه الآن هو عين الحقيقة، وبما أنَّني أومن بأنَّني سأموت ولن أخلد في الحياة إلا بالقدر الذي يقدِّره لي ربي، وأنا أضع جُلَّ اهتمامي في أنْ أقضي عدلاً في عظائم الأمور وأخطرها فأكسب بذلك شرفًا ومجداً فعلي أن أحاول النجاة بحياتي، وهكذا، إذا ما كنت أنا أرهب الأمور المرعبة، فمن العقل أنْ أفعل ذلك أمام الأشياء الحاضرة التي تقع لي في يومي، لا في الأمور الغيبية التي ننتظر وقوعها .

قالت أورجاندا :

– إنه لمن العسير أنْ نحاول إخراج ذلك الجهد الوفير والقوة القاهرة من قلبك كمن نزح ماء البحر .

وهنا قالت للملك :

– سيدى، أريد أنْ أرحل، ولتتذكَّر دائمًا ما قلته لك آنفا على لسان من تودُّ خدمتك وشرفك؛ اجعل بين الجميع حجابًا، وخاصةً أولئك الذين تعرف فيهم سوء الأفعال .

عند هذا الحد ودعت الجميع، ويرفقتها حرَّاسها الأربعة، ولم ترد أن يصحبها غيرهم حتى بلغت السَّفينة. أقلعت السَّفينة وتوغَّلت في أعماق البحر وتوارت بين الظُّلمات .

الفصلُ الحادى والسِّتون

كيف أنَّ الملك ليسوارتي بدأ مشاوراته مع فرسانه الذين أرادوا مهاجمة جزيرة EL LAGO HIRVI ENTE (البحيرة السَّاخنة)، لإطلاق سـراح الملك أربان دى نورجـاليس وأنجـريوتى دى إسترابارس، وكيف وهم على هذه الحال، أتت فتاة عملاقةٌ عبر البحر وطلبت من الملك أمام الملكة وبلاطه أنْ يسمح لأماديس بمنازلة أردان كابينيليو، وإذا ما هزم أردان كابينيليو فستبقى الجزيرة تحت إمرة الملك وسيخرجون من السُّجن من يأمرون به، وإذا ما هزم أماديس فلا حاجة لهم منه سوى أخذ رقبته ووضعها في يد ماداسيما .

بعد أنْ رحلت أورجاندا كما سمعتم، وبعد مضى بضعة أيَّام، بينما كان الملك يتنزَّه فى الحقول متحدِّثًا إلى فرسانه فى الحملة التى ينوى القيام بها على جزيرة مونجاثا، حيث توجد البحيرة السَّاخنة، لكى يطلق سراح الملك أربان دى نورجاليس وأنجريوتى دى إسترابارس، رأوا سفينةً قادمةً فى البحر تتوجَّه صوب ميناء البلدة لترسو فيه، وبعد ذلك توجَّه الملك إلى هناك ليرى ماذا تحمل إليه هذه السَّفينة . وحين وصل الملك رأى فتاةً وحاملي سلاحٍ فى قاربٍ صغيرٍ، وما إنْ بلغوا اليابسة حتى نهضت الفتاة من مكانها وسألت عمَّا إذا كان الملك ليسوارتي موجودًا هناك . أخبروها بالإيجاب، لكن الجميع قد اندهش لضخامتها، فلا يوجد بين رجال القصر جميعًا من هو فى حجمها، وقد تناسبت أعضاؤها وأجزاء جسدها مع الضَّخامة الواضحة عليها، ومع ذلك فقد كانت جميلةً وترتدى ثيابًا فاخرةً . وقالت للملك :

– سيدى، أتيتك برسالةٍ، وإن شئت فسوف أنيعها أمام الملكة .

– لك ما شئت – قال الملك .

وتوجَّه الملك إلى القصر والفتاة خلفه . وما إن أصبح الجميع أمام الملكة والفرسان ونساء القصر حتى سألت الفتاة عمًّا إذا كان أماديس دى جاولا موجودًا، والذى يعرف من قبل ببيليتنبروس . ردَّ عليها قائلاً :

– أيَّتُها الفتاة الطَّيِّبة، أنا هو .

نظرت إليه بوجه عبوس وثم قالت :

يمكن أنْ تكون أنت، لكن الآن سنرى إذا ما كنت طيِّبًا بنفس القدر الذى يمدحونك به .

وهنا أخرجت رسالتين صادقتين تحملان خاتما ذهبيا، قدَّمت إحداهما للملك والثَّانية للملكة. قال الملك :

– أيَّتُها الفتاةُ، قولى ما تشائين، فنحن نسمح لك .

قالت الفتاة :

– سيدى، إنَّ جروماداثا، عملاقة البحيرة السَّاخنة، وماداسيما الجميلة، وأردان كابينيليو الدورادو الذى وهب نفسه للوقوف إلى جانبيهما، عرفوا كيف أنَّكم تنوون الذِّهاب إلى أراضيهم للاستيلاء عليها، ولأن مثل هذا الأمر لا يمكن له أنْ يحدث دون وقوع خسائر جسيمةٍ فى الأرواح، فإنهم يقولون إن من الأفضل أنْ يكون الحكم فى هذا الأمر لمعركةٍ تجمع بين الطَّرفين بهذا الخصوص وتقوم على ما يلى : أنْ ينازل أردان كابينيليو أماديس، وإذا ما هزمه أو قتله تصبح الأرض خاليةً، وتُترك له الحرية فى حمل رأسه إلى البحيرة السَّاخنة، وأما إذا هُزِمَ هو أو قُتلَ فلك أنْ تأخذ كل أملاكه ياسيدى، وكذلك فلك أنْ تطلق سراح أربان دى نورجاليس وأنجريوتى دى إستراباوس، الموجودين بين أسوار سجونهم،

إلى أرضك هنا . وإذا ما كان أماديس يحبُّهما حبا كبيرا كما يرى هذان الأسيران، ويريد أنْ يجعل هذا الأمل الذى يأملانه فيه حقيقة، فليعد بمثل هذا النِّزال لكى يخلِّص صديقيه من أسرهما، وإذا ما هزم أو قتل فليحملهما أردان كابينليو . وأمَّا إذا لم يرد خوض هذا النِّزل فسوف يرى فيما بعد رأسيهما وقد قطفتا .

- أيَّتُها الفتاة الطَّيِّبة - قال أماديس - إذا ما وعدتك بما تريدين فمن ذا الذى سيضمن لى تنفيذ ما تقولين ؟

- أنا سأخبرك بهذا - قالت هى - ستكون الجميلة ماداسيما ومعها إثنتا عشرة فتاة من علية القوم داخل أسوار السِّجن تحت تصرف الملكة ضمانًا لتنفيذ هذا الأمر وإلا فستقطع رقابهن جميعًا . ومن ناحيتك فلا حاجة إلى ضمان سوى أنَّه إذا ما قتلت أنت أنْ يحمل رأسك، ولتصبح هى فى سلام وحرية . وسيقومون بعمل ما هو أكثر، إذ سوف يدخلون على ذمة هذا اللقاء إلى غياهب السِّجن الملك أندانجيل، العملاق العجوز، مع ابنيه وتسعة فرسان، الذين يملكون فى حوزتهم السُّجناء والمحلات والقلاع التَّابعة للجزيرة .

قال أماديس :

- إذا ما أصبح هؤلاء فى قبضة الملك والملكة، وفق ما تقولين، فهذا خير ضمان . ولكنِّى أخبرك بأنَّك لن تحصلى منِّى على إجابة إلا بعد أنْ تقبلى أنت ومن معك من حاملى السِّلاح تناول الطعام معنا .

- ولماذا تدعوننى لتناول الطعام ؟ - قالت هى - ألا تظهر بأسا وتفقد همتك، إذ أكرهك كراهية الموت .

- أيَّتُها الفتاة الطَّيِّبة - قال أماديس - هذا أمرٌ ثقيلٌ على نفسى، ومع ذلك فأنا سأفعل كل ما تأمريننى به . وإذا ما أردت إجابتى فليكن وعدك لى بما طلبته منك .

قالت الفتاة :

- أعـدك بـه، ولكن هذا الوعد فقط من أجل أنْ تأتينى بالإجابة كما يجب عليك، لا تعبيراً عن رغبتي وإرادتي .

قال أماديس :

- أيَّتُها الفتاة الطَّيِّبة، من ناحيتي فأنا على استعداد للمغامرة من أجل هذين الصَّديقين، ولكى تتوسع أملاك الملك، الأمر الذى أراه عدلاً، وعليه فأنا سأخوض المعركة باسم الله، وليأت هؤلاء الذين تقولين إنَّهم سيكونون رهائن .

- بكلِّ تأكيد - قالت الفتاة - لقد رددت على ما كنت أتمنَّى، وليعدنى الملك أنه، إذا ما تراجعت عن وعدك، لا يقدِّم لك أىَّ عون فى مواجهة أصحاب فامونجومادان .

- لنعفى الملك من هذا التَّعهد - قال أماديس - فالملك لا يمكنه أنْ يضمن شيئًا فى حوزته حتى الآن . هيَّا بنا لنأكل، فقد حان الوقت.

- سأذهب - قالت هى - وأنا سعيدةٌ أكثر مما كنت أظنُّ، وحيث أنَّ فضيلة الملك هى تلك التى تذكرها، ففى هذا إرضاءٌ لى .

ثم قالت للملك والملكة :

إذنْ ستكون هنا ماداسيما وفتياتها والفرسان بين أسوار سجونكما . وسيطالب أردان كاإينيليو بعد ذلك بالنِّزال، وعليكما أنْ تمنعاه من أىِّ أحدٍ سوى أماديس، الذى سيحمل رأسه من هنا .

وهنا قال السَّيد برونيو دى بونامار، الذى كان هناك آنذاك :

- سيدتى الفتاة، أحيانا يفكِّر الواحد منَّا بأنْ يحمل رأس الغير فيخسر رأسه هو، وربما من الممكن أنْ يحدث الأمر نفسه بالنِّسبة لأردان كاإينيليو .

رجاه أماديس أنْ يلتزم الصَّمت، غير أنَّ الفتاة وجَّهت الكلام إلى برونيو قائلةً :

– من عساك أنْ تكون أنت يامن تتكلم باسم أماديس ؟

– أنا فارسٌ – قال هو – مصمم على أنْ يدخل المعركة في مواجهة أيِّ أحدٍ يرغب أردان كابينليو في أنْ يصحبه معه .

قالت له :

– سنعفيك أنت من هذه المعركة، لكن إذا كانت لك رغبة في القتال، فسوف أجعل لك يومًا بعد انقضاء المعركة لتنازل فيه أحد إخوتي، والذى سيكون لديه الرَّدُّ على ما تقول، وهو من ألدِّ أعداء أماديس كما أنت تظهر صداقتك له، وأعتقد، وفق ما هو عليه، أنَّك لن تتكلَّم في حقه بعد ذلك النِّزال أبدًا .

– أيَّتُها الفتاة الطَّيِّبة – قال السيِّد برونيو – إذا ما كان أخوك كما تقولين فيجدر به أنْ يتحمَّل تبعة ما وعدت به الآن وسط كل هذا الهياج والغيظ . وهأنا أحيطك علمًا بقبولي هذه المواجهة، فأنا راغبٌ في المعركة . وهاهي قطعة من ثوبي علامة على ذلك .

ثم بسط عباءته أمام الملك، وقطعت الفتاة من رأسها أحبولةً فضية، وقالت للملك :

– سيدى، إليك ما عندى، فسوف أحيل ما قلته إلى حقيقة .

أخذ الملك القطعتين على غير هوى منه، لأنَّه كان مشغولاً بما سيجرى بين أماديس وأردان كابينليو، الذى كان رجلاً شجاعًا مهاب الجانب أكثر من أيِّ فارس آخر في هذا الوجود، ومازال ينازل الفرسان على مدى أربع سنواتٍ فما أخطأ واحدًا قط ممن تجرَّأوا على الوقوف أمامه . وما إن انتهى هذا الوضع حتى ذهب أماديس إلى مخدعه، وحمل الفتاة معه، وهو ما لم يجب أنْ يفعله داخل أفضل قلعة يملكها والده ؛ وحتى يعلى من شأنها ويشرِّفها جعلها تنزل بحجرة وضع فيها جندالين كلَّ أسلحته وزينته، وبرفقتها حاملي سلاحها. أخذت الفتاة تنظر ما حولها، فرأت سيف أماديس، فوجدته غريبًا، ثم طلبت من حاملي سلاحها اللذين كانوا هناك بأنْ يخرجا ويتركاها وحيدةً بعض الوقت. ظنًّا منهما أنَّها تريد أنْ تقوم بشيء طبيعي

لا يصلح أنْ يطَّلع عليه أحد منهم تركوها وحدها، وهى، بعد أن أغلقت الباب، أخذت السَّيف، وتركت الغمد والزِّينة على حال لا يظنُّ معها أحدٌ أنَّ السَّيف غير موجودٍ . وأدخلته فى ثوب فضفاض أحضرته معها فى غاية الغرابة ؛ وحين فتحت الباب دخل حارساها، فوضعت لأحدهما السَّيف تحت عباءته، وأمرته بأنْ يذهب به إلى السَّفينة دون أنْ يراه أحدٌ، ثم قالت له :

– أحضر لى كأسى التى أشرب فيها، وسوف يظنون أنَّك ذهبت لتحضرها .

هكذا نفذ الحارس ما أمرته به . وفى تلك الأثناء دخل أماديس وبرانفيل إلى الحجرة وأجلسها على دكَّةٍ، وقال لها أماديس :

– سيدتى الفتاة، فى أىِّ ساعةٍ ستصل ماداسيما غداً إن شئنا ؟

– سنأتى – قالت – قبل وقت الظُّهيرة ؛ لكن لماذا السُّؤال ؟

– سيدتى الطَّيِّبة – قال هو – لأننا نودُّ الخروج إليها ومقابلتها وعمل التَّشريفات اللازمة لها وخدمتها، وإذا ما أغضبك ذلك فمرى ماذا ترين، وأنا على استعدادٍ لعمله بدلاً من ذلك .

– إذا لم تتراجع فيما قلته ووعدت به – قالت هى– فأردان كابينيليو منذ أنْ أصبح فارساً هو ذلك الشَّخص الذى يجب أنْ تقدِّم إليه رأسك وحين تعدل عن وعدك فهذا التَّعديل منك لا قيمة له .

– سأحاول ألاَّ أقع فى هذا الشَّرك إنْ استطعت، لكن إذا ما رغبت فى شىءٍ فأنا على استعداد لعمله حتى أنال عفوك .

عندئذٍ خرجوا من الغرفة، وترك معها إينيل وآخر يخدمانها . غير أنَّها رغبت فى الذَّهاب، فقد استاءت من كل هذه الحفاوة بها، وبعد أن انتهوا من تناول الطَّعام نهضت، ثم قالت لإينيل :

- أيُّهـا الفـــارسُ، أبلغ أماديس أنِّى ذاهبةٌ، وليعلم بأنَّه خسـر كلَّ شـىءٍ اتفق عليه معى .

- ليرحمنى الله - قال إينيل - هذا مـا أراه، فنظرا لوضـعك الذى أنت عليـه، كل ما يصنع من أجل سعادتك يذهب هباء .

- أيًّا كان الأمر - قالت هى - ما رأيته منك قليلٌ، ومنه أقل .

- اعلمى - قال إينيل - أنه لا يمكن لأحدٍ مثلى أو مـثل أمـاديس أو أى إنسـانٍ آخر أنْ يشعر بالسَّعادة مع فتاة لا تقدِّر الأمور حق قدرها مثلك .

بهذه الكلمات رحلت الفتاة، وذهبت إلى السُّفينة وهى فى غاية السَّعادة بالسَّيف الذى حصلت عليه، وقصَّت على أردان كابينليو وماداسيما كيف أنَّها أبلغت رسالتها وحددت موعد المعركة، وكيف أنَّها حصلت على كل الضَّمانات اللازمة من الملك، وعليه فما هناك من شىءٍ سوى النُّزول إلى ساحة القتال .

شكر لها أردان كابينليو صنيعها هذا شكرًا جزيلاً، وقال لماداسيما :

- سيدتى، لن أكون فارسًا فى نظرك إلا إذا جعلتك تخرجين من هنا بكلِّ شرفٍ وتقديرٍ وأرضك حرَّةٌ، وإذا لم أقدِّم إليك رأس أماديس قبل أىِّ إنسانٍ آخر، مهما كان خفيف الحركة وسريعًا، فلن أكون أهلاً لكي تمنحينى حبَّك .

صمتت هى، فما قالت شيئًا، ولولا أنَّها كانت تودُّ الانتقام من ذلك الذى قتل والدها وأخاها، لما كان هناك شىءٌ آخر فى هذا الوجود يضطرها للإقتران بأردان كابينليو، فقد كانت هي من بيت عريق وجميلة بينما كان هو قبيحًا وفظا غليظًا أكثر من أىِّ إنسانٍ آخر . ووجود أردان كابينليو لم يكن عن رغبة منها وإنما لرغبة أمها، وذلك للدِّفاع عن المملكة ؛ ولو أنَّه تمكَّن من الانتقام لزوجها وابنها فستزوجه من ماداسيما وتجعله ملكًا على المملكة .

ومنذ أنْ أصبح أردان كابينليو فارسًا يشار إليه بالبنان فى العالم، وأصبحت له مكانةٌ ساميةٌ فى فنون القتال، فإنَّ الحكاية تريد أنْ تتعرض لأصله، ومن أيْن أتى،

وتفاصيل جسده ووجهه، والأشياء الأخرى الخاصة بذاته . اعلموا أنه كان من أهالي منطقة كابينيليو، وكان ينتمي إلى عائلة العماليق، الذين يوجدون هناك أكثر من أيّ مكان آخر، ولم يكن ضخم الجثة، لكنَّه كان أطول من أيّ شخص غير عملاق ؛ كان مفتول العضلات، غليظ الرَّقبة وصدره عريضٌ ومربعٌ، وكذلك يداه وساقاه بالمقارنة مع أيّ إنسانٍ آخر . كان وجهه كبيرًا وأنفه أفطس، ولهذه الصِّفات لقب بكابينيليو . كان أفطس وواسع الأنف، وكان أحمر اللون، وغطى جسده ببقعٍ سوداء كثيرة انتشرت بوجهه ويديه وعنقه، كان بشع الهيئة أشبه بالأسد . كانت شفتاه غليظتين ومقلوبتين، وشعره مجعَّدًا، يصعب عليه تسريحه، ولحيته كذلك . كان يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا، ومنذ أنْ بلغ الخامسة والعشرين لم يخطئْ سيفه أيّ فارس أو عملاق نازله مهما كانت قوتهما . كان كثير العظام وثقيل الوزن، بحيث ما وجد قط حصانًا يحمله . هذا هو الشَّكل الذى كان عليه هذا الفارس ؛ وحين وعد – كما سمعتم – بأنْ يحضر رأس أماديس لماداسيما قالت له هذه :

– سيدى، بكلِّ حق علينا أنْ نعلق آمالاً كثيرة على هذه المعركة، فالقدر يبدى أن المعركة ستكون فى صالحك لا فى صالح عدوك، فهأنت ترى هنا سيفه البتَّار هذا الذى أحضره لك، والذى لا يمكن أنْ تتوافر له الظُّروف المواتية كأفضل ما هى عليه الآن من نصرك عليه وخسارته هو .

وهنا وضعت له السَّيف فى يده، وأخبرته كيف حصلت عليه. أخذه أردان ثم قال :

– أشكر لك هذه الهدية كثيرًا التى أعطيتنى إيَّاها، وشكرى موصول أكثر بالطَّريقة الجميلة التى حصلت بها عليه من الخوف علىَّ من ذلك الفارس الواحد فى المعركة القادمة .

وبعد ذلك أمرت بإخراج الخيام من السَّفينة، وأنْ تقام فى مرجٍ على مقربةٍ من البلدة، إلى حيث ذهبوا جميعًا بفرسانهم وجيادهم، والأسلحة الخاصة بأردان كابينليو، فى انتظار أنْ يكونوا فى اليوم التَّالى أمام الملك ليسوارتى والملكة بريسينا زوجته، هناك ذهب أردان فى غاية السَّعادة بسبب تحديد هذه المعركة لسببين : أولهما أنَّه

أراد بدون شك على الإطلاق أن يحمل رأس أماديس، ذلك الذى حقّق شهرةً فائقةً فى العالم أجمع، وأنْ يصبح كل ذلك المجد الدُّنيوى منحصراً فيه هو، والسبَّب الثَّانى أنه بقتل أماديس سوف يحوز تلك الجميلة ماداسيما التى يحبُّها كثيراً، وهذا سيجعل منه رجلاً مجيداً وناضراً دون أنْ يكون هناك من خطرٍ ما يهدده . هكذا ظلوا فى خيامهم انتظاراً لأمر الملك .

كما أنَّ أماديس كان فى مخدعه برفقة العديد من الفرسان الذين دائماً، ما كانوا يرافقونه، وخاف الجميع هذه المعركة، إذ رأوها على درجةٍ عاليةٍ من الخطر، وارتابوا فى إمكانية أنْ يفقدوا أماديس فيها . وفى تلك الأثناء وصل أجراخيس وفلوريستان وجلبانيس سين تيرا وجيلان الكويدادور، الذين ما كانوا يعلمون عن ذلك شيئاً لأنَّهم قد خرجوا من قبل فى رحلة صيدٍ إلى الغابات المجاورة . وحين علموا بالمعركة المتفق عليها، والتى كانوا بحق يزمعون الدخول فيها، تأثروا بذلك وقد بدا السَّيد جيلان أكثرهم تأثرا، والذى سمع فى مرَّاتٍ كثيرة عن أن أردان هذا من أفضل الفرسان وأقواهم فى أعمال القتال، وثقل عليه أمر الموت، لأنَّه رأى أماديس لن يقوى عليه فى مجال النِّزال رجلاً لرجل، ورغب فى الاشتراك فى هذه المعركة إذا ما كان أردان سيدخلها بمشاركة أحدٍ من فرسانه، وليكن حظه من حظ أماديس . والسَّيد فلوريستان، الذى أخذ يحترق من الغيظ، قال :

– لا رعانى الله، سيدى وأخى، ألا أعنى لك شيئًا، ولا حتى فارسًا، أم أنَّك لا تحبنى، ولهذا فما خطرت ببالك قط فى تلك الأثناء، إنَّك بهذا تعطى دليلك على أنَّنى لا أنفع لك حارساً، ففى هذه الأخطار تعدُّنى غريباً .

وكذلك فقد تكرَّرت الشَّكوى من جانب أجراخيس ودون جلبانيس .

– أيُّها السَّادة – قال أماديس – لا تضجوا بالشَّكوى، ولا يثقل عليكم هذا الأمر مما يجعلكم تلقون باللوم على، فما دعى أحد إلى المعركة سواى، وعلىَّ أن أخوضها، وما كنت أستطيع وما كان يجب على أن أرد على ذلك، غير مظهر للضعف، إلا وفق الطلب الموجه إلى، وإذا ما جاء ردى على صورة أخرى

فإلى من كنت سأحتمى وأطلب العون إلاَّ منكم أنتم ؟ فمجهودكم العظيم زاد مجهودى كلَّه حين كنت معرضًا للمخاطر .

هكذا - كما سمعتم - اعتذر أماديس لهؤلاء الفرسان، وقال لهم :

- من الأفضل أنْ نمتطى جيادنا غداً قبل خروج الملك، ونكون فى استقبال ماداسيما، فهى محل تقديرٍ كبيرٍ من جانب كل من يعرفها .

وهكذا أمضوا ليلتهم يتحدَّثون فيما يهمهم ويسلِّيهم، وحين أسفر الصُّبح، ارتدوا أحسن ثيابهم وحضروا الصلَّوات، ثم امتطوا أحسن الجياد وتوجَّهوا لاستقبال ماداسيما، ويرفقتهم السيِّد برونيو دى بونامار وأخيه برانفيل وإينيل، الذى كان فارساً جميلاً ورشيقًا ومرح القلب ومحبوبًا من الجميع، لما له من سلوكيات طيِّبةٍ وقوةٍ خارقةٍ، هكذا خرج فى هذا الرَّكب ثمانية رفاقٍ . وحين بلغوا الخيام رأوا ماداسيما وأردان كاإينيليو ورفقتهما، وكانت ماداسيما ترتدى ثياب الحداد على أبيهاً وأخيها، غير أنَّها كانت تشعُّ جمالاً أخاذًا وحيويا، فبدت فى أبهى صورةٍ، حتى ليظن الرَّائى لها أنَّ الجميع سيكون أسير جمالها، وحولها تسير فتياتها اللاتى يرتدين نفس ثيابها، وأردان كاإينيليو يسير أمامها ممسكًا بلجام جوادها . وهناك أتى العملاق العجوز وابناه، والفرسان التِّسعة الذين سيصبحون أسرى ورهائن، وحين وصلت إلى مكان الفرسان حيوها أطيب تحيةٍ، وردَّ عليهم بمثلها، وعلامات الرِّضا ترتسم على وجهها ظاهريا أقدم عليها أماديس، ثم قال لها :

- سيدتى، الكل يمتدحك، وهذا، على ما يبدو، حقك، ومحظوظ ذلك الذى يتشرَّف بمعرفتك ليقدِّم لك مراسم التَّشريف ويكون طوع أمرك، وأنا هنا سيدتى، لأكون فى خدمتك فيما تأمريننى به .

وأما كاإينيليو، الذى نظر إليه فرآه فى غاية الجمال، يفوق جماله أىَّ فارس آخر رأته عيناه، فلم يعجبه أنْ يتحدث إلى الملكة، وقال له :

- أيُّها الفارس، ابتعد عنها ولا تتجاسر هكذا على الحديث مع من لا تعرف .

- سيدى - قال أماديس - لهذا أتينا إلى هنا، لنعرفها ونخدمها .

قال له أردان بكلِّ صلفٍ :

- الآن أخبرنى من أنت؟ ولأحكم أنا بعد ذلك إذا ما كنت أهلاً لخدمة سيدة من بيت نبيل أم لا .

- أيًا كنت أنا - قال أماديس - سأخدمها طواعيةً، وليس لأنَّها عالية القدر والمكانة كما يجب أنْ أفهم، فلن أدَّعِ مثل هذه الرَّغبة أبداً، وإن كنت تودُّ معرفة من أكون فقل لى أنت من تكون حتى تبعد عنها ذلك الذى يريد أنْ يكون طوع أمرها ورهن إشارتها؟

نظر إليه أردان كاينيليو بكلِّ غيظٍ، وقال له :

- أنا أردان كاينيليو، وبمقدورى أنْ أخدمها فى يومٍ واحدٍ أفضل من خدمتك لها مدى حياتك، مهما تضاعف قدرك عما تصرح به الآن .

- من الممكن - قال أماديس - لكنَّنى على يقين من أنَّ خدمتك الكبيرة هذه لا تخرج إليها بقلب سليم مثلما تخرج من قلبى الصَّغير هذا، وفقًا لما أراه من تجاوزات وقبح هيئتك، وبما أنَّك ترغب فى التَّعرف على، فاعلم أننى أماديس دى جاولا الذى طلبت أن ينازلك، وإذا ما كنت قد أغضبت هذه السَّيدة وجعلتها تشعر بكلِّ الهم والحزن - الأمر الذى لم أستطع الاعتذار عنه - فلسوف أصحح هذا الوضع عبر خدمة كبيرة .

قال له أردان كاينيليو :

- إذا ما بقيت على وعدك السَّابق، فمن المؤكَّد أنَّ تغيير هذا الوضع سيكون فى رأسك التى سأقدمها إليها .

- مثل هذا الإصلاح - قال أماديس - لن يكون محببًا إلى، لكن سيكون هناك إصلاح آخر أكبر وسيعجبها بصورةٍ أفضل، إذ سأعمل على إفشال زواجك

منـهـا، فـأنـا لا أسـمح بأنْ يـقـتـرن مـثلك بمثل هــذه المرأه التى تعد غـاية فى الجمال .

لم يكن فى هذا الذى قاله أمرًا ثقيلاً على سمع مـاداسيما، وضـحكت كثيرًا ومـعها صـحبتها، غير أنَّ أردان غضب كثيرًا لهذا، وتملَّكه الغضب، وبـدا وحـشيا ومرعبا حتى أصبح أولئك الذين ينظرونه وما لهم دراية بألوان الحرب والنِّزال من قبل يعقدون مـقارنة بينه وبين أمـاديس؛ فوجـدوه يفـوق بكثـير قـوة وقـدرة سـيدهـم، وظنُّوا أنَّ هذا سيكون آخر يوم وهذه آخر مـعركة لـه . هكذا – كما سـمـعتم – ظلُّوا حتى مثلوا أمام الملك، وهنا قال أردان :

– أيُّها الملك، هؤلاء هـم الفرسان الذين سيكونون لديكم رهـائن كضمان لتنفيذ ما وعدت به الفتاة إذا ما تمتَّع أماديس بالجرأة للحفاظ على ما وعد به .

تقدَّم أماديس للأمام، ثم قال :

– سيدى، هـأنذا راغبٌ في تلك المعركة دونما تأخـير، وأخبرك بأنَّنى حتى لو لم أكن قد تعهدت بخوضها فسوف أخوضها حتى أبعد ماداسيما عن هذا الزَّواج الذى لا يناسبها . وأنـا أرغب أيضا فى أن يأتى هنا الملك أربان دى نورجاليس وأنجـريـوتى دى إسـترابـاوس، وأنْ يكـونا في مكان أجـدهـمـا فـيـه إذا مـا كسبت المعركة .

قال أردان كاينيليو :

سـأسـمح لهـمـا بالمجيء إلى حيث تكون المـعركـة، وإذا مـا أخـذت رأسـك مــعى فسوف أحملهما أسيرين، وكذلك فسأحمل ماداسيما وفتياتها، وليكن ذلك فى حضرة الملكة، فهى من ستنفذ مـا تمَّ الاتفـاق عليـه بيننا، ومن الأنسب أنْ آتى بـهـا إلى مكان المعركة لكي تراها وترى الانتقام الذى أحقِّقه لها .

هكذا – كما تسمعون – أصبحت الجميلة ماداسيما وفتياتها فى حوزة الملكة، وفى حوزة الملك أصبح العملاق العجوز وولداه، والفرسـان التِّسعة . غير أنَّنى أقول لكم إنَّ

ماداسيما قد بدت والخجل يملؤها أمام الملكة، حيث إنَّ مجيئها هذا سيكون وبالاً كبيراً على أماديس، الأمر الذى أحزن الجميع، ورغم ذلك أبدى الجميع سعادةً بوجودها وقدَّموا إليها جميع مراسم التَّشريف . غير أنَّ مابيليا وأوريانا، بعد أنْ شاهدتا الهيئة الفظَّة التي أتى عليها أردان كاينيليو، أصابهما الذعر والهلع وانتابتهما حالةٌ من الألم والهم، وذهبتا إلى حجرتهما والدُّموع تنهمر من أعينهما، ظنا منهما أنَّ قوة أماديس لن تصمد أمام قوة هذا الشيطان . ولو بقى لديهما من الأمل، فلن يكون سوى حظه السَّعيد، الذى أخرجه فى مرَّاتٍ كثيرةٍ من وسط مخاطر جمَّةٍ كان الأمل ضعيفًا جداً فى اجتيازها من جانبه أو من جانب أيِّ شخصٍ آخرٍ، رغم أنَّ مابيليا قد بدلَّت بتسرياتها المتكررة يأس أوريانا وأساها إلى أمل رائع، وبحصول هذا كله، وتحديد موعد المعركة فى اليوم التَّالى، أمر الملك قناصيه وصانعى الأقواس أنْ يحيطوا مكانًا قريبًا من القصر بالسَّلاسل والقضبان، حتى لا يفقد الفرسان شرفهم بفعل الجياد . وما ان نظرت أوريانا إلى ذلك المكان من النَّافذة، وتذكَّرت الخطر الذى كان يعدُّ لصديقها الذى تحبُّه حتى سقطت مغشيا عليها بين ذراعى مابيليا فاقدةً الوعى تمامًا، ذهب الملك إلى حيث مخدع أماديس، حيث يوجد عددٌ كبيرٌ من الفرسان، وقال لهم إنه بما أنَّ الملكة وابنتها والملكة بريسينا والسَّيدات والفتيات جميعًا سيذهبن هذه الليلة إلى مكان العبادة لأداء الصَّلوات حتى يكون الرَّبُ فى جانب فرسانهن، فإنَّه يودُّ أنْ يصحبه إلى قصره، ومعه فلوريستان وأجراخيس والسَّيد جالبانيس وجيلان وإينيل، وسيكون فى متعةٍ مماثلةٍ لتلك التى كانوا فيها . وطلب من أماديس إحضار أسلحته إلى مكان العبادة لأنَّه يريد أنْ يلبسه ثياب الحرب أمام تمثال العذراء مريم غداً، حتى يكون الرَّب فى عونه .

وبينما يسيرون مع الملك أمر أماديس جندالين بأنْ يحمل أسلحته إلى حيث أمر الملك، غير أنَّه ما إن حملها حتى ينفِّذ الأمر وما وجد السَّيف فى غمده، حتى فزع لهذا الأمر وحزن حزنًا شديداً وتمنَّى أنْ لو أتاه الموت الآن، وذلك لأنَّ هذا الحدث يأتى فى وقتٍ شديد الخطورة مما يعنى أنَّ موت سيده قد أصبح وشيك الوقوع . بحث عن السَّيف فى كل مكان سائلاً كل من يمكن أنْ يعرف عنه شيئًا، وحين لم يتمكَّن من

الحصول على أيَّة معلومات عنه كان على وشك أنْ يلقى بنفسه من النافذة إلى مياه البحر، لولا أنَّه تذكَّر أنَّه بهذا الفعل سيخسر نفسه، ثم ذهب إلى قصر الملك والأسى يعتصر قلبه، ثم اختلى بأماديس، وقال له :

– سيدى، اقطع رقبتى، فقد خنتك، وإن لم تفعل فسأقتل نفسى .

قال له أماديس :

– أين ذهب عنك عقلك، أو ما هذا القدر المشئوم ؟

– سيدى – قال هو – كان من الأفضل أنْ أموت أو أُجَنَّ على أن تقع فى هذا الوقت مثل هذه المصيبة، ولتعلم أنَّنى قد فقدت سيفك، فقد سرقوه من غمده .

قال له أماديس :

أمن هذا تشكو ؟ ظننت أنَّه قد وقع لك أمرٌ سوءٍ . الآن دعك من هذا، ولن نعدم سيفًا آخر يمدنا الرَّب به إن شاء .

ورغم أنَّه قد قال له ذلك ليواسيه، فإنه قد ثقل عليه فقدانه لسيفه، لأنَّه يعد أحد أهم السُّيوف فى العالم، وقد كان فى أمسِّ الحاجة إليه آنذاك، بما أنَّه قد فاز به نظير إخلاصه فى حبه لسيدته، فقد كان يراها ويتذكَّرها بهذا السَّيف، كما كان وسيلة عظيمة لمواساته أمام رغباته القاتلة التى أحسَّ بها أثناء غيابه عنها . ثم أمر جندالين بألاَّ يخبر بذلك أىَّ مخلوق ويمكن أنْ يأتى إليه به، وإذا ما أمكنه رؤية سيدته أوريانا فليطلب منها باسمه هو أنْ تكون، حين ينزل أماديس وأردان كابينيليو إلى ساحة النِّزال، فى مكان يمكن أنْ يراها فيه، لأن وجهها سيكون سببًا فى فوزه بتلك المعركة أو بأىِّ شىءٍ آخر تحيط به المخاطر . ذهب جندالين لينفذ ما أمره به سيده، وأمرت الملكة بإعطائه السَّيف . غير أنَّ الملكة بريولانخا وأوليندا قالتا له :

– آه، يا جندالين ! ماذا تظنُّ أنَّ سيدك فاعلٌ فى مواجهة هذا الشَّيطان ؟

قال لهما ضاحكًا مستبشرًا:

- سيدتيَ، ليس هذا أول حدثٍ خطيرٍ يواجهه سيدى، وبما أنَّ الله قد حفظه حتى الآن، فسوف يحفظه اليوم، فكم من أحداث أخرى أشد فزعًا وخطورة اجتازها، وسوف يجتاز هذا الحدث أيضًا .

- ليكن هذا من الرَّبِّ - قالتا .

وحينئذ توجَّه إلى مابيليا، وطلب منها أنْ تبلغ أوريانا ما أمره به سيده . وهنا عاد إلى المصلى حيث كانت الأسلحة، وأخبر سيده بأنَّه قد فعل كل ما يصبو إليه، وقد انتابته فرحةٌ غامرةٌ حين علم أنَّ سيدته سوف تكون في مكان يراها فيه ساعة النِّزال . وهنا إاختلى بالملك دون الآخرين، وقال له :

- اعلم، سيدى، أنَّنى قد فقدت سيفى، وما أعلم عنه شيئًا حتى الآن، وقد تركوا لى فقط غمده .

- ثقل على الملك سماع هذا الأمر، ثم قال له :

رغم أنَّنى قد تعهدت بألاَّ أعطى سيفى لأحدٍ من الفرسان الذين يوجدون داخل قصرى، فإننى سأعطيكه الآن اعترافًا منِّى بجميلك علىَّ ووضعك لنفسك في خدمتي .

- سيدى - قال أماديس - لعلَّ مشيئة الله تكمن فى أنَّنى يجب على أنْ أؤكِّد وأثبت الكلمة التى أعطيتها، ولا أصبح سبب نقضها، خاصة وأنك أعطيتها أمام حشدٍ هائلٍ من علية القوم .

اغرورقت عينا الملك بالدُّموع، وقال :

- أنت أهلٌ للوفاء بالحق والولاء، لكن ماذا أنت فاعلٌ وقد ضاع ذلك السَّيف البتار؟

- إنَّ معى الآن - قال أماديس - ذلك السَّيف الذى كان قد وضع معى فى الصَّندوق حين ألقى بى إلى البحر، والذى أتى به جيلان إلى هنا وأمرت الملك بحفظه . بهذا

السَّيف ودعائك لي وتوسلك للربِّ أنْ ينصرني - فهو على كلِّ شيءٍ قدير - يمكن لي أنْ أخرج من هذا المأزق .

وهنا جرَّب السَّيف في غمد الآخر فكان محكمًا، رغم أنَّه كان أضيق قليلاً، فرح الملك لذلك، لأنَّه بحمله الغمد معه، سيكون في مأمن من الحرِّ والبرد الكبيرين، فتلك خاصية يتمتَّع بها عظم الثعابين الذي صنع منه، غير أنَّ هذا السَّيف كان أطول من الآخر، هكذا أمضوا ذلك اليوم حتى أتى موعد النَّوم، فقد كان كلُّ أولئك الفرسان الذين سمعتم عنهم يضعون أسلحتهم حول سرير الملك . وأمَّا فيما يتعلق بأردان كابينيليو فقد أمضى الليل كلَّه مع أصحابه بالخيام التي أقاموها يضحكون ويمرحون ويرقصون، عازفين على آلاتٍ متعدد الأنواع، وفي ختام غنائهم قالوا جميعًا بصوت عالٍ :

- هاهو الصَّباح قد أقبل، أقبل بنهارٍ مشرقٍ، يتيح لأردان كابينيليو أنْ يفي بما وعد به السَّيدة الجميلة ماداسيما .

غير أنَّ القدر كان يحمل في طياته أمرًا مناقضا تمامًا لما ظنُّوه . بات أماديس ليلته تلك في غرفة الملك . غير أنَّه لم يهنأ بالنَّوم، فقد استيقظ في منتصف الليل دون أنْ ينبس بكلمةٍ وتوجَّه إلى المصلى، وأيقظ القائم على أمر المصلي وعترف أمامه بكل خطاياه، وأخذا يصلِّيان أمام مذبح العذراء مريم، راجيًا إيَّاها أنْ تكون مدافعا عنه في تلك المعركة . ولما طلع الفجر استيقظ الملك والفرسان الذين تعلمونهم، أدُّوا صلواتهم، وأقبل بعض الفرسان المهرة فألبسوا أماديس ملابس القتال، وقبل أنْ يرتدي زرده حضرت مابيليا وعلقت في عنقه بعضًا من رفات القديسين في غلاف مزيَّن بالذَّهب، قائلة بأنَّ الملكة والدتها أرسلتها إليه مع الفتاة الدَّانماركية، لكن الحقيقة غير ذلك، فقد قدمته الملكة إيليسينا لأماديس حين اعترفت بأمومتها له، وقدمها هو بدوره إلى أوريانا في ذات الوقت الذي انتزعها من بين يدي أركالاوس والآخرين الذين اختطفوها . وحين حمل سلاحه أتوا إليه بجوادٍ جميلٍ كانت قد أرسلته كوريساندا - إلى جانب هدايا أخرى - إلى فلوريستان صديقها، وأما السَّيد فلوريستان فقد حمل عنه الرُّمح، وجيلان الدِّرع،

وبرونيو الخوذة، وذهب الملك على متن جواد حسن الهيئة ويحمل عصا في يده . ولتعلموا أنَّ أهل البلدة وأفراد القصر كلهم قد أتوا ليحضروا المعركة فتحلَّقوا حول السَّاحة، والفتيات والسَّيدات ظللن ينظرن من النَّوافذ، وأمَّا الجميلة أوريانا ومابيليا فقد كانتا ترقبان النِّزال من خلال نافذة حجرتها، وكانت الملكة في صحبة بريولانخا وماداسيما وأخريات من علية القوم .

ما إن وصل أماديس إلى حلبة النِّزال حتى قاموا برفع السلسلة، ودخل إلى الساحة وأخذ أسلحته، وحين كان على وشك أنْ يرتدى الخوذة نظر إلى سيدته أوريانا، فشعر بقوة تخترق جسده، حتى أدرك أنَّه ليس هناك من قوةٍ في العالم يمكن لها أنْ تواجهه . وهناك داخل إلى الساحة القضاة الذين يجب عليهم أنْ يبصروا كلَّ واحدٍ من المنافسين بحقوقه وواجباته، وكانوا ثلاثةً : أحدهما ذلك العجوز السَّيد جروميدان الذى كان عليمًا بهذا الأمر، والسَّيد كوادراجانتي أحد أتباع الملك، والسَّيد براندو. إيباس وهنا وصل أردان كابينيليو مدجَّجًا بالسَّلاح على متن جوادٍ عظيمٍ، وبزرده ذى الشَّبكة السَّميكة، وكان يحضر درعًا وخوذةً من الصُّلب الخالص والنَّاصع كالمرآة النَّاصعة، وينتطق ذلك السَّيف الجميل الذى سرقته الفتاة من حجرة أماديس، ورمحًا غليظًا يمسك به بقوة، حتى يبدو كأنه يودُّ أنْ يكسره، وهكذا دخل إلى ساحة النِّزال، وحين رأته أوريانا على هذا الحال قالت في هم وحزنٍ :

– آه يا صديقاتي، ياله من موتي الذى اقترب، موت مخيف وشائن، لو أن الله لم يدفعه عنِّي برحمته وكرمه !

– سيدتي – قالت مابيليا – دعك من هذا وكوني مستبشرة، فبهذا تعطين لأماديس القوة .

وهنا أخذ جروميدان أماديس وتركه في جانب من السَّاحة، وإلى الجانب الأخر حمل براندو إيباس أردان كابينيليو، وأصبح الجوادان متواجهين رأسًا برأسٍ، وكان السَّيد كوادراجانتي يقف بينهما يحمل طبلاً حين يدقُّ عليه يصبح الطَّريق مفتوحًا أمام

الفارسين لبدء المعركة، وهنا أخذ أماديس، الذى كان ينظر إلى محبوبته، يصيح بصوتٍ عالٍ قائلاً :

– ماذا يفعل كو دراجانتي فهو لم يدق الطبل بعد ؟

دقَّ كوادراجانتي الطَّبل بعد سماع هذا الكلام، وتحرك الفارسان بأقصى سرعةٍ أمكن للجوادين أنْ ينطلقا بها، وتضاربا بالرُّمح فى الدُّروع، والتى كُسِرَ منها بعضها، والتقيا، فنجم عن ذلك اللقاء أنْ سقط جواد أردان كاپينيليو على عنقه فلقى حتفه، وأما جواد أماديس فقد انكسر ظهره؛ فما استطاع أنْ ينهض مرَّةً أخرى. غير أنَّ أماديس، بما تميَّز به من شجاعة قلب، نهض بعد ذلك، وإن كان ذلك قد تمَّ بصعوبةٍ بالغةٍ، فقد كان جزء من الرُّمح قد غرس فى درعه وفي كم الزرد دون أنْ يبلغ جسده، أخرجه من مكانه، وأمسك بسيفه وتوجَّه صوب أردان كاپينيليو، الذى كان قد نهض بشق الأنفس بينما كان يرتدى خوذته . وحين رآه قادمًا نحوه أمسك بسيفه.

كان هذا هو الحال الذى سار عليه النِّزال، وتضارب الخصمان بسيفهما ضربات قاسية، ومازال الوقت مبكرًا، واشتبكا بالأيدى والأذرع بقوةٍ ضاريةٍ، حتى فزع لذلك أردان كاپينيليو فزعًا كبيرًا أفقده شجاعته. ومما جعل هذا النِّزال يطول هو أنَّه فى كلِّ مرةٍ يجد خصمه وقد أصبح أقوى وأشد مما كان عليه فى البداية، ويجد نفسه وقد حلَّ عليه التَّعب والاجهاد وأصبح جسده مخضبًا بالدِّماء .

وهنا أدركت ماداسيما أنَّه سوف يحنث فيما وعد به، حيث كان عليه أن يهزم أماديس فى وقتٍ بسيطٍ، وهو ما لم يكن له وقعٌ ثقيلٌ عليها، ولا حتى حين تصوَّرت إمكانية موت أردان فى أرض المعركة، لأنَّ فكرها كان يحدِّثها بأنها تودُّ أنْ تفقد كلَّ ما تملك في سبيل ألا يجمع بينها وبين أردان زواج أبدا .

التقى الفارسان يضرب أحدهما الأخر بكلِّ قوةٍ في كل مكان من الجسد يمكن أنْ يكون مؤلمًا وموجعًا، وحرص كل منهما على قتل الآخر، ولو أنَّ أماديس قد أتى إلى المعركة يحمل أسلحة فتَّاكةً وقويةً، لما كان بمقدور خصمه، نظرًا لما يتمتَّع به أماديس

من خفة الحركة وطول نفس، أنْ ينازله، ولكن كلّ ما أقدم عليه كان أمرا ضروريا له، فقد كان ينازل فارسا قويا شجاعا في مجال القتال، ولكن حين تحطّمت كلُّ أسلحة أماديس التي أحضرها معه، وأصبح الدّم يتقاطر بغزارة من جسده، ورأته أوريانا على هذا الحال، لم تستطع أنْ تتحمّل الموقف عاطفيا، فانصرفت من النافذة والغضب يملؤها، وجلست على الأرض، ثم صكّت وجهها، ظنا منها أن الموت قد اقترب من صديقها أماديس . وحين رأتها مابيليا تصك وجهها ثقل ذلك على قلبها، وأعادتها مرّة أخرى إلى حيث كانت، وقد أبدت غيظها منها وأخبرتها بأنَّ من الواجب عليها فى ذلك الوقت وهذا الظرف ألاَّ تفعل شيئًا يقلّل من عزيمة صديقها، ولما أنْ كانت غير قادرةٍ على رؤيته هكذا وهو يتألّم فقد أدارت ظهرها للسّاحة، حتى يرى صديقها شعرها الجميل فيقوى على مواصلة النِّزال، وبينما هم على هذا الحال قال برانئو إيباس الذى كان أحد القضاة :

- من الصّعب على أنْ أرى أماديس هكذا، فليس معه من سلاحٍ يذكر، وحتى الدِّرع قد تهشّم .

- هذا ما أراه - قال جروميدان - فلكم يثقل على هذا .

- سادتى - قال كوادراجانتى - لى تجربةٌ مع أماديس، فحين نازلته من قبل كان شجاعا وقويا وقد بدا عليه أنَّه يتزايد قوةً كلما مضى به وقت النِّزال، وهو أفضل فارسٍ رأيته يعرف كيف يواصل النِّزال ويمسك نفسه، وأطول الفرسان نفسًا، وأنا أراه الآن فى كامل قوته على العكس من أردان كايينيليو، الذى يبدو عليه الضّعف بصورةٍ أكبر كلما مر الوقت، وإذا ما كان هناك شيءٌ ينهك أماديس، فليس سوى أنَّه ينازل خصمه بخفةٍ وسرعةٍ، حتى يضطر خصمه إلى أن يجرى وراءه فيتعبه، غير أنَّ همته وشجاعته لا تسمح له بالرّاحة .

جاء هذا الكلام بالنِّسبة لأوريانا ومابيليا بردًا وسلاما، غير أنَّ أماديس، الذى رأى سيدته قد انصرفت من النّافذة، ولم تعد تنظر من خلالها فيراها، ظنَّ أنَّها فعلت ذلك أسى عليه، فتوجّه والغيظ يملؤه صوب أردان كايينيليو، وأمسك بالسّيف فى يده

وسدَّد إليه ضربةً قويةً أصابت خوذته، فأفقدته توازنه، ونزل بإحدى ركبتيه على الأرض، كانت الضَّربة قوية والخوذة أقوى، مما جعل السَّيف يتطاير من يد أماديس وقد بات موزعًا بين ثلاثة أجزاء، وظلَّ الجزء الأصغر في يده. وهنا داخل أماديس الخوف من دنو أجله، وكذلك فقد ظنَّ كلُّ المحيطين به ذلك . وحين رأى أردان كإبنيليو هذا الأمر ابتعد عنه داخل السَّاحة وأخذ درعه من مقبضه وشهر سيفه، وصاح بصوت عالٍ سمعه الجميع، قائلا لأماديس :

– انظر هنا هذا السَّيف الجميل الذي فزت به ليكون به حتفك، انظر جيداً هل هو، وسوف تموت به .

وبعد ذلك صاح بأعلى صوته :

– أطلي، أطلي من النَّافذة، سيدتي ماداسيما، وسترين الانتقام الجميل الذي أهديه إليك، وكيف أنَّني فزت به بالشكل الذي لم تحلم به أيَّةُ فتاة أخرى، فقد أصبحت تملكين مالا يملكن .

وحين سمعت ماداسيما هذا الكلام حزنت حزنًا شديداً، وألقت بنفسها تحت قدمي الملكة وطلبت منها أنْ تتدخل لتحميها منه، وهو ما كان من الواجب عمله، فقد وعدها أردان بقتل أماديس أو تحقيق النَّصر عليه في وقتٍ وجيز جدا، وإذا لم يفعل ما يقول فليس لها أنْ تمنحه حبًّها . أما وقد مرَّ ما يقرب من أربع ساعاتٍ على بدء النِّزال، فمن حقها أنْ تعرض هذا الطرف . وهنا قالت الملكة :

– لقد سمعت ما قلت وسأفعل ما يجب فعله .

وحين نظر أماديس فرأى يديه خاليةً من أيِّ سلاحٍ حتى السَّيف، تذكَّر ما قالته له أورجاندا حين صرَّحت بأنه ستيقدم نصف العالم، لو أنه يملكه، مقابل أن يلقى بسيفه وسط مياه بحيرة، ثم نظر إلى النَّافذة التي كانت تقف فيها أوريانا، وما إن رآها وقد أدارت ظهرها له حتى أدرك أنَّ موقفه السَّيئ في المعركة هو الذي دفعها لتقف على هذه الهيئة، وهنا أتته قوةٌ خارقةٌ، فصمَّم على أنْ يغامر بحياته، فهوى

سريعًا صوب أردان كابينيليو وهو مصممٌ على تسديد ضربةٍ مؤلمة له، وشهر أردان سيفه وتأهب لملاقاته، وما إن بلغه حتى رغب في ضربه، غير أنَّ أماديس موَّه بجسده فأفشل ضربته والتحم به، فمنع خصمه من استخدام السَّيف نهائيًا، وجذبه جذبةً قويةً من درعه، فحمله بذراعه، وأطاح به على الأرض. ابتعد عنه وقبض الدِّرع، وتناول قطعةً من الرُّمح وجدها، ثم عاد بها ثانية إلى أردان وهو متدثر بدرعه جيدًا، وأردان، الذى تملَّكه غيظٌ كبيرٌ حين رأى نفسه خسر الدِّرع، توجَّه نحوه وأراد أنْ يضربه ضربةً تنال من خوذته، فرفع أماديس الدِّرع وتلقَّى الضَّربة فيه، ورغم أنَّه كان قويا ومصنوعا من الفولاذ الرَّقيق، فقد توغَّل السَّيف فى صدريته ما يقرب من ثلاثة أصابع . وسدد إليه أماديس ضربة بقطعة الرُّمح فى ذراعه الأيمن بالقرب من اليد، فأدخل نصف الحديد داخل عظام ساعده، مما جعله منهك القوى، فما قدر على أنْ ينزع سيفه، فحمله أماديس فى درعه، وإذا ما خرج سعيداً من هذه الجولة فهذا لا يمكن وصفه أو روايته . وهنا ألقى بقطعة الرُّمح بعيداً عنه، ونزع السَّيف من درعه شاكرًا الله على هذا الفضل الذى أعطاه إيَّاه .

وحين رأته مابيليا على هذا الحال لوحَّت بيديها إلى سيدتها أوريانا حتى تعود لترى صديقها وقد حقَّق هذا النصر الكبير والخروج من ذلك المأزق الخطير الذى كان فيه آنفًا . وبعد ذلك توجَّه أماديس صوب أردان كابينيليو، الذى خارت قواه حين رأى الموت يأتيه، ولما أنْ رأى أنه لا حيلة أو وسيلة أراد أنْ ينزع الدِّرع من أماديس، كما نزعه منه من قبل، ولكن أماديس الذى رآه مستقرًا عنده سدَّد إليه ضربة فوق كتفه الأيسر فأطاحت بجزء من أسلحته ولحمه وعظامه، ولما أنْ رأى نفسه قد فقد قوة ذراعه هاج وسط الميدان تائهًا يتملَّكه خوفٌ كبير من السَّيف . غير أن أماديس قد تبع خطاه عندما رآه متعبًا ومنهك الذَّاكرة، أخذه من خوذته بشدَّةٍ فأوقعه تحت قدميه، وأخذ الخوذة فى يده، وانقضَّ عليه فوق الأرض، وأطاح برأسه فأسعد جميع الحاضرين، وخاصة الملك أريان دى نورجاليس وأنجريوتى دى إستراباوس، اللذين مرا بأوقاتٍ عصيبةٍ خوفًا وحزنًا على أماديس حين أحدق به خطر الموت فى بداية النِّزال كما علمتم .

وبعد ذلك حمل أماديس الرَّأس وألقى بها إلى خارج السَّاحة، وسحب الجسد حتى بلغ به صخرة وألقى به فى مياه البحر، نظَّف سيفه من الدم ثم وضعه فى غمده، وهنا أمر الملك بأن يقدِّموا إليه جواداً هبَّ على متنه إلى مخدعه، وسط صحبةٍ من الفرسان بينما ظلَّ الدَّم ينزف بغزارةٍ من جروحه العديدة . ولكنه قد أخرج أولا الملك أربان دى نورجاليس وأنجريوتى دى إستراباوس من السِّجن، وحملهما معه، وأرسل الملك أربان دى نورجاليس إلى الملكة بريسينا خالته، واهتم الجميع بمعالجة أماديس من جراحة التى أصيب بها فى المعركة، وكذلك تمت معالجة أنجريوتى من آثار السياط التى ألهبت جسده إضافة إلى جروح أخرى ألمت به وهو فى السجن . وهناك أقبل عليهم العديد من الفرسان لزيارتهم، فضلاً عن السَّيدات والفتيات اللاتى كنَّ بالقصر، كما أتت مابيليا لزيارة أماديس، حيث أحضرت له ذلك الدَّواء الحقيقى، والذى يمكِّن قلبه من أنْ ينزل إلى المضمار مرَّةً أخرى، بإرادة منه وقوة، الصحة التى تزيل آثارها .

الفصل الثَّاني والسِّتون

كيف أقيمت المعركة بين السَّيد برونيو دى بونامار ومادامان الانبيديوسو شقيق الفتاة المبدِّلة، والاتهام الكاذب الذى فعلوه حسدًا لهذين الفارسين صديقى أماديس، والتى على أثرها ودَّع الملك ليسوارتى القصر .

بعد أنْ انتهت هذه المعركة التي نشبت بين أماديس وأردان كابينيليو - كما علمتم - وفي اليوم التَّالي مثل السَّيد برونيو دى بونامار أمام الملك، ومعه عديد من الفرسان العظام الذين كانوا يقدرونه ويحبونه، فوجد هناك الفتاة المبدِّلة، التي كانت تقول للملك أنَّ شقيقها على أهبة الاستعداد للمعركة، فليرسل ذلك الذى سيكون خصمه فيها، وبما أنَّ الانتقام الذى ينوى لم يتحقق منه إلا القليل حتى الآن، وفقًا لوضع ذلك الشُّجاع أردان كابينيليو، الذى ماكان في الإمكان أبدع مما كان، فبهذا الإصلاح البسيط سيكون ذلك الجميع . وهنا قال السَّيد برونيو، الذى لم يود الرَّد على هذه الكلمات المجنونة بأنه في الذَّهاب إلى المعركة . هكذا أخذ كل من الفارسين سلاحهما وأدخلا إلى ساحة النِّزال، وبرفقتهما الأفراد الذين يحبونهما، على اختلاف في النَّوعية، فالسَّيد برونيو كان مصحوبا بالعديد من كبار الفرسان، وأمَّا مادامان الابنيديوسو (الحاقد)، هكذا كان يُدعى، فقد جاء مصحوبًا بثلاثة فرسانٍ من أتباعه يحملون أسلحته . ومنذ أنْ وضعهما القضاة في الأماكن المناسبة لهما داخل ساحة النِّزال بدأ الفارسان في الانطلاق بجواديهما بأسرع ما يمكن . جاءت اللقاءات الأوَّلية منذرةً بتحطيم الرِّماح إلى قطعٍ بسيطةٍ، ونجم عن هذا الصِّنف أن أصبح مادامان

خارج سرج جواده، وأمَّا السَّيد برونيو فقد حمل في درعه قطعةً من الرُّمح، لم يكن أثرها كبيراً، إذ لم ينجم عنها سوى جرحٍ بسيطٍ في صدره، ولما أنْ عاد بجواده نحو خصمه رآه مستعداً بسيفه للدِّفاع عن نفسه، وقال له :

– يا سيد برونيو، إذا لم تكن تريد أنْ تخسر جوادك، فانزل عنه أو دعني أمتطي جوادي.

– لك هذا، وما تريده – قال السَّيد برونيو – سوف أفعله .

وهنا أدرك مادامان أنَّ النِّزال مترجلا أفضل بالنسبة له، وذلك تبعًا لضخامة جسمه وضآلة جسم خصمه، فقال له :

– بما أنَّك تركت الخيار لي، ترجَّل ولتكن المواجهة بيننا مترجِّلين .

ابتعد السَّيد برونيو ثم ترجَّل، وبدأ فيما بينهما معركةً مميتةً، ففي وقتٍ بسيطٍ تكسرت أسلحةٌ وتطايرت في أماكن عدة، وتناثر اللحم في كلِّ مكان، ونزفت الأجساد دماء غزيرةً، وتحطَّمت السُّيوف في الأيدي فافترشت الأرض . وعندما كان الفارسان يتواجهان بمثل هذه السُّرعة التي تعلمون، وقع أمرٌ في غاية الغرابة أوضح كيف أنَّ الحيوانات تعرف أصحابها، حيث تقابل الجوادان في معركة حامية الوطيس، بعد أن كانا سائمين داخل الحلقة، استخدمت فيها السوق والأعناق، في جو من العداء والكراهية، مما استرعى تعجب الجميع، واستمرت المواجهة بين الجوادين مدةً طويلةً، وفي النِّهاية وجد جواد مادامان نفسه غير قادرٍ على مواصلة النِّزال، ففر هارباً إلى خارج السَّاحة بعد أنْ تخطى السَّلاسل التي كانت تحيط بالمكان، وقد كان في هذا الأمر بيان فال حسن بالنِّسبة لأولئك الذين كانوا يتمنَّون انتصار برونيو في المعركة . وبعد أنْ انتهى الحاضرون من النَّظر إلى معركة الجوادين نظروا فرأوا السَّيد برونيو يسدِّد إلى خصمه ضرباتٍ قويةً ومؤلمةً، مما اضطره للهروب إلى خارج السَّاحة، ثم قال :

– يا سيد برونيو، لماذا تشكو ؟ أليس اليوم طويلاً ؟ تمهَّل قليلاً ولنسترح، فإذا ما نظرت إلى أسلحتك والدَّم الذي ينزف من جروحك فسترى أنَّك بحاجةٍ إلى ما أقول.

– مادامان – قال السَّيد برونيو – لو أنَّ المعركة بيننا كانت من نوعٍ آخر وليست قـائـمـةً على العـداوة المتـزايدة، أكنت سـتـتـخـذ هـذا السَّـبـيل من الأدب والانتظار لا، إنَّك، وحسب ما جبلت عليه من غطرسةٍ مازالت من لوازمك حتى الآن، إذا مـا كنت أنا في الوضـع الذى أنت فيـه، لكان ذلك مـدعـاة لأنْ تسـفك دمـي الـذى فيــه شهرتك وشجاعتك، ولهذا فإنَّني لن أدعك تستريح، ولتدافع عن نفسك .

وهنا التقيا مرَّةً أخرى، ولم يمض زمنٌ طويلٌ حتى أبدى السَّيد برونيو شجاعةً وإقدامًا عظيمين، وأمَّا مادامان فقد ظهر بصورة مزريةٍ وضحت فيها سلبياته القتالية، فما أصبح يفعل شيئًا سوى اتقاء الضَّربات التى انهالت عليه من طرف برونيو، وعندما رأى نفسه في هذا الموقف الحرج احتمى ببعض الصُّخور الموجودة هناك . لكنَّه حين نظر فرأى الهوة سحيقـةً ومرعبةً توقَّف فى مكانه. وصل إليه السَّيد بـرونيـو الـذى اقتفى أثره، وأمسك به فما استطاع الدِّفاع عن نفسه، وأخذه من يده ودرعه ودفعه به بكل ما أوتي من قوة، فـأطاح به من علٍ فتقطع إربا قبل أنْ يصل إلى الماء . وهنا خرَّ برونيو على الأرض ساجدًا لربِّه، يحمده على هذا الفضل الذى آتاه . وحين رأت تاليثا، الفتاة المبدِّلة، هذا المنظر دخلت إلى الساحة تجرى بكل ما أوتيت من قوةٍ، فوصلت إلى تلك الهوة السُّحيقة بحماسٍ شديدٍ، نظرت إليها فرأت كيف أنَّ الأمواج قد أخذت تحمل دماء شقيقها ولحمه من مكانٍ إلى آخر، حملت سيف شقيقها الذى وقع منه فى المكان نفسه، وقالت :

– هنا، حيث تقبع دماء عمِّي أردان كاينيليو وشقيقي، أريد أنْ أدع دمي في هذا المكان أيضا، وذلك حتى تلتقي روحي بروحيهما حيث كانتا .

طعنت نفسها بطرف السَّيف فأصابت جسدها، فهوى جسدها عبر تلك الهوة، فتهشَّمت تمامًا. وما إن بلغ هذا المشهد نهايته حتى امتطى السَّيد برونيو جواده وسط مـديح وإطراء من جانب الملك والحاضـرين هناك، الذى خـرج منهم عـددٌ كـبيـرٌ فى صحبته، وتوجَّه إلى مخدع أماديس، حيث كان هناك فراشٌ معدٌ له ولأنجريوتي، وبينما

ظلَّ في رفقتهما بدأ رحلة العلاج . وهناك توافد عليهم العديد من الفرسان والسَّيدات والفتيات لزيارتهم، فأسعدهم وأمتعهم هذا الأمر .

وهنا طلبت الملكة بريولانخا، بالاتفاق مع أماديس، حين رأت أنَّ حزنها سيدوم، الإذن بالذَّهاب إلى مملكتها . لكنَّها أرادت قبل ذلك أنْ ترى العجائب التي تحظى بها الجزيرة اليابسة، وتخوض التَّجربة داخل الغرفة المحروسة، فحملت إينيل معها، وهو من سيكون عونًا لها، ووعدت أوريانا بأنَّها ستخبرها بكلِّ ما ستراه ويحدث لها هناك، وهو ما سنرويه فيما بعد .

وفي هذا الذي تصدر عند الحكاية التي نرويها يمكنكم أن تروا كيف أنْ قدرة العقل الإنساني تكون قاصرةً حين يسمح الرَّبُ العلي القدير - في الوقت الذي تخمد فيه الهمم، وترفع فيه الأيدي، ويغيب فضل الرَّب - بأنْ يدور عقل الإنسان ورأيه داخل إطار الحرية، الأمر الذي تستشفونه إذا ما كانت المكانة العالية، والسِّيادة يمكن أنْ يجتمعا، في حالة حيازتهما والسَّيطرة عليهما، مع الفطنة والهمة عند بني البشر، أو إذا غابت عناية الرب وفضله تصبح الغطرسة الكبيرة، والطَّمع، وجموع النَّاس المسلحين أمورًا كافيةً لذلك . هأنتم قد سمعتم كيف أنَّ الملك ليسوارتي - بوصفه أميرًا - بمجرَّد أنْ حمل سلاحه وامتطى جواده، برفقة بعض الأعوان، قد سار كالفارس المتجوِّل بحثًا عن المغامرات، ووصل إلى مملكة الدَّانمارك، وقد شاء القدر أنْ يلتقي بتلك الأميرة بريسينا، ابنة ذلك الأمير بحبها، وأخذته من بين كل المتقدمين زوجًا لها . كان هذا هو الحظُّ الحسن الأوَّل الذي وقف في طريقه . وما توقَّف حظه الحسن عند هذا الحد، فقد كان الرَّبُّ راضيًا عنه، إذا عاش أخوه فالانجريس دون وريث يذكر، وبعد أنْ رحل عن هذه الحياة الدُّنيا، ترك مملكة بريطانيا العظمى لتكون في حوزة ذلك الأمير الذي كان بلا إمارة، ولم يكن كأقرانه الذين عاشوا في عهده، أولئك الذين اقتنعوا بأهليهم أو بممالكهم، لكنَّه كسب وورث الآخرين، ووفد إلى قصره أبناء الملوك وآخرون، والدُّوقة الذين من بينهم هؤلاء الأخوة الثَّلاثة، أماديس، والسَّيد جالاور، وفلوريستان، وآخرين يطول ذكرهم . ومن بين أباطرة وملوك الدُّنيا بأسرها سطعت

شمسه هو، وإذا ما انطفأت يومًا لما قطعه على نفسه من عهد لتلك الفتاة المخادعة، والذى كان سببًا لوقوعه أسيراً في يد أركالاوس. فهذا ما يمكن تفسيره بأنَّه شجاعة قلبٍ أكثر منه عدم حذر أو حيطة، لأنَّه في مثل ذلك الوقت كانت الجسارة، والمهارة فى استخدام عز الملوك وعز الأمراء والسَّادة، كانت تسمو وتسطع فوق كل أمور الدُّنيا الأخرى، كما كان الحال عند اليونانيين والطرواديين كما تحكى لنا القصص القديمة .

إذنْ ماذا عسانا أنْ نذكر بعد أنْ عظَّمه وأثنى عليه الملك القادر ؟

شهد قصره مغامراتٍ غريبةً استمرت زمنا طويلاً بين أرجاء العالم دون أنْ تجد حلا لها، وعنده وجدت الحل لما يتمتع به من شهرةٍ ومجدٍ عظيمين، ولهذا فليس من الحق أنْ ننسى تلك النِّهاية التي وضعت لتلك المعركة المؤلمة والمرعبة التي نشبت بينه وبين الملك ثيلدادان، والتي شهدت موت العديد من العماليق الأشدَّاء والفرسان الشُّجعان التَّابعين لهم، وآخرين لما ينتسبون إليهم، ممن ذاعت شهرتهم بين أرجاء العالم، وذلك بفضل ما كان يتمتع به الملك من مثابرة وفضيلة . وبعد زمن قليل من هذه المعركة جاء دور ذلك المتعجرف الشَّهير أردان كاينيليو، الذى لم يجد قط فى أرض وطنتها قدماه أربعةً من الفرسان يمكنهم مواجهته، فهُزِم وقُتِلَ فى بلاط هذا الملك على يد فارسٍ واحدٍ فقط .

إذن هل يمكننا القول بأنَّ هذا الحظ الحسن الذى تمتع به كان سببا فى أن يتصف -- كما كان حقيقة -- بالظُّرف والإنسانية والحرية، والشَّجاعة ؟ بكلِّ تأكيد، هذه الأمور حقيقة، ولسبب بسيط لا يلجأ إلى هدم وإبطال كل ما يمت بصلة لتلك الأمور كما ستسمعون الآن، فكلما يدعو إلى الإيمان بأنه حين يصبح الإنسان محظوظًا بصورة جيدة ولا يمكن لعقله وفطنته الحفاظ على هذا الحظ، فلا يمكن نسبة هذا الأمر إليه، لأن الله العلى القدير هو الذى يعطيه إيَّاه خفية، ولو أردنا أنْ نعرف حقيقة ما يجرى لعز ذلك علينا وبدا منا جنونًا .

والآن لكم أنْ تعلموا أنَّه قد أصبح في بلاط هذا الملك ليسوارتى فارسان عجوزان ظلا فى خدمة شقيقه الملك فالانجريس زمنًا طويلاً، وقد سمحت لهما هذه المدة الطويلة

وما كانا يتمتعان به من فضائل ومن جميل المهارات بأن يتمتعا بسلطة كبيرة داخل القصر، مما جعلهما مهيأين لنصح الملك ومشورته. كان أحدهما يدعى بروكادان والآخر جاندنديل . وكان لهذا الأخير ولدان كانا يتمتعان بشهرةٍ وتقديرٍ عظيمين من الجميع قبل أن يأتي أماديس وأخواه ومن تبعهم، غير أن الشّجاعة والطيبة اللتين فاقتا كل حد عند هؤلاء قد طغت على شهرة هذين الفارسين، الأمر الذي أنزل السخط في قلب والدهما جاندانويل، ففكر كثيراً غير عابئ بمراقبة ربه والخوف منه دون أن يرعى الوفاء الواجب عليه للملك سيده، ولا الأعمال الجميلة والمجيدة التي صنعها أماديس من أجله، وأراد – ليحقق مجداً ونفعًا لشخصه – إثارة حالة من الضّرر العام الذي يصيب الجميع، فحاك ونسج في داخل نفسه الشّريرة خيانة عظمى في هذا الصّدد . وفي حديثه مع الملك ذات يوم قال :

– سيدي، تدعو الضّرورة إلى أنْ أنفرد بك لأتحدّث إليك وتسمعني، فمنذ عدّة أيام وأنا أنتظر هذا الحديث إليك، معتقداً أنّ الأمر يمكن أنْ يعالج بطريقة أخرى، وما أعرفه هو أنّني قد أخطأت في الإساءة إليكم، وبما أنّ الشّر يزداد يومًا بعد آخر، فمن الضّروري أنْ أنصحكم .

حين سمع الملك هذا الكلام أراد أنْ يعرف حقيقة الأمر؛ أخذه معه ودخل إلى غرفته دون أنْ يكون معهما إنسانٌ آخر، وقال له :

– الآن قل ما شئت .

قال له جانداندیل :

– سيدي، دائما ما كنت أحرص على أنْ أصون نفسي وشرفي، ولا أفعل أي شر رغم قدرتي عليه، بحمد الله، وهكذا بعد أن أصبحت حرا وطليقا من أيّ سجنٍ، وقد أصبحت مؤهلاً دونما انتظار لإسداء النصح لك، وأنت، سيدي، قد فعلت ما يجب فعله . وبما أنّني رأيت أنّ في كتماني لما أعلم خيانة عظمى لك وللرب فقد رأيت أن أذكر لك هذا . أنت تعلم، سيدي، أنّ هذا الجزء من

العـالم قد مـر لزمن طويل بخلافاته ونزاعاته، سواء أكان ذلك فى مملكة جاولا أو بريطانيا العظمى، وكيف أنَّ مملكة جاولا قد أصبحت تابعة لملكة بريطانيا العظمى، واعترفت بسيادتها كما يحدث فى كل منطقة مجاورة . وهذا الذى حدث يمثل ألمًا لم يعالج بعد حتى تأتى النِّهاية العادلة للأمر الذى حدث . والآن أرى كيف أنَّ أماديس، باعتباره ليس فقط من أبناء تلك المملكة وإنمـا من الطبقة النبيلة أيضًا، قد أصبح يتدخَّل فى مملكتك بكل قوةٍ وبتشجيعٍ من أتباعك؛ وهو ما لا يعنى سوى أنَّه يريد فرض سيطرته على المملكة كما لو كان الوريث الحقيقى لها . وللحقيقة فأنا لم أر من هذا الفارس وأخويه وأقاربه إلا كل تقدير واحترام، وهو ما أدين لهم به أنا وأولادى وما أملك . ولكن أمرك، سيدى ومليكى، هو شىءٌ مقدمٌ على أمرى وأمره، حتى فى أدنى الأشياء التى تخدمكم، وإلا أصبحت فى هذه الحياة الدُّنيا مشين الجانب، وأدخلت النار فى الحياة الآخرة . هكذا، سيدى، رويت لكم ما كان يحتمه الواجب علىَّ، وبحت بكل ما أدين به لكم، والآن عليكم اتخاذ التَّدابير لمعالجة لهذا الأمر فى أوانه قبل أنْ يأتيك بشر مبين، فإنَّه، وفقًا لعظمتكم وطيبتكم، يصبح بمقدوركم العيش بشرف وراحة وسط أتباعكم، لا وسط الغرباء الذين هم معادون لأتباعكم، ويمثلون خطرًا كبيرًا على ملككم، رغم أنَّهم فى الوقت الرَّاهن يظهرون خلاف ذلك .

قال له الملك دون أنْ يظهر عليه تغيير قط لما سمع :

- هؤلاء الفرسان عملوا فى خدمتى ومن أجل الحفاظ على شرفى وغنيمتى، الأمر الذى لا يدفعنى إلا أنْ أظنَّ بهم خيرًا .

- سيدى - قال جاندانديل - هذا أسوأ جانب تنظر به إليهم، لأنَّهم لو عمدوا إلى التَّقصير فى خدمتك فسترى منهم العداوة، ومع ذلك فإنَّ الخدمة الفائقة للحد تحمل فى طياتها خداع أولئك الذين لا يمكنهم إنكار ما هو طبيعى، كما قلت لكم .

حينئذٍ توقَّف الكلام لأنَّ الملك لم يرد عليه شيئًا آخر ولكن جانداندبل تحدث مع رجلٍ آخر يقال له بروكادان (وهو صهره). ووفقًا لما لدية من نوايا شريرة وما أخبره به من حديثه مع الملك، جعله شريكًا له في نفس الحوار والمهمة. هكذا بفضل ما قاله كل واحد منهما، متعلِّلين بأنَّ الأمر كله لصالح المملكة. تحرك الملك بكل قوة ضد أولئك الذين لم يكن لهم هم سوى التفكير في خدمته، ناسياً ذلك الخطر الكبير الذى أنقذه منه السَّيد جالاؤر حين كان أسيراً في قبضة عشرة فرسان تابعين لأركالاوس، والخطر الآخر الذى أنقذه منه أماديس، الذى كان يسمى بيليتنبروس، حين حمله ماندانفابول العملاق الجسور صاحب البرج الأحمر تحت إبطه ليذهب به إلى السَّفينة، والذى كان الخطر الواحد منهما جديراً بأن يكون مدعاة لافتدائه منه بكل ما يملك .

آه، أيها الملوك والسَّادة العظام يا من تحكمون العالم، لَكَمْ هو قريبٌ منكم وملائم لكم هذا المقال، حتى إذا ما تذكرتموه يتحتَّم عليكم أنْ تضعوا ثقتكم وأموركم في رجالكم الأوفياء من ذوى السرائر الحسنة والنَّوايا الطَّيِّبة، الذين يخبرونكم بالأمور دون خداعٍ أو سوء، ليس فقط في أمور خدمتكم، ولكن أيضًا فيما فيه نجاتكم، وتبعدون عنكم أمثال بروكادان وجانداندبل، ومن على شاكلتهم من النَّاس، الذين يسيرون بين جنبات قصوركم يفكِّرون ويدبِّرون باستخدام المداهنة والتَّملق، وبدسائس خفية وخادعة ليبعدوكم عن خدمة ربِّكم الذى أنتم خلفاؤه، لا شىء سوى أنْ ينالوا هم وأولادهم كل مجدٍ ومصلحةٍ كما يفعل تمامًا هذان الشِّريران . انظروا، انظروا شئونكم، انظروا فإن السَّادة الكبار الذين جعل لهم الله مكانةً ساميةً عليهم أن يحاسبوا طويلاً أمام ذلك الرَّب الذى وهبهم كلَّ ما يتمتَّعون به، وإذا لم يحدث هذا فبسبب هذا المجد وتلك السلطة، والرذائل الأخرى الكثيرة التى ارتكبتموها في هذه الحياة الدُّنيا، تساق أرواحكم وسط الآلام والحسرات إلى العذاب الأليم . ولن تتمتعوا كثيرًا بهذا التَّسويف، وإنَّما في هذه الدُّنيا التى تقدِّرون فيها المجد والشُّهرة، وتبدى نفوسكم اهتمامًا كبيرًا بالحفاظ عليها، فسوف تُذلُّون في الحياة الآخرة كما حدث مع هذا الملك ليسوارتى عندما صدَّق واطمأن إلى كلمات أولئك الذين عرفوا كيف يضمرون له شرا، أكثر من التصديق والتسليم لما شاهده بعينى رأسه من الإهانة

والعار لقصره، دون أنْ يتمكن على مدى أيام حياته من معالجته . وإذا ماكان القدر قد وهبه من الآن فصاعدا بعض الانتصارات، فذلك لكي يصل إلى أسمى مكانةٍ، ثم يهوى منها إلى مكان سحيق فيكون ألمه وحسرته أشدَّ وأنكى على نفسه .

ولنعد الآن إلى حكايتنا، وأقول لكم إنَّ هذه الكلمات التى قيلت للملك بحق كان لها وقعٌ شديدٌ، لدرجه أنَّ الحب الكبير والزَّائد الذى كان يكنه لأماديس وأقاربه قد توارى وتلاشى ظُلما وجوراً، لدرجة أنه دونما اتفاق أو نصيحة أصبح يتمنَّى مجىء تلك اللحظة التى يتركونه فيها ويغادرون المكان. وهكذا تخلَّى عن الكلام والزيارة التى عادة ما كان يقوم بها لأماديس فى الغرفة التى كان يعالج فيها على فراشه، وقد أصبح يمر بمخدعه مرات عديدة دون أنْ يفكر فى السُّؤال عنه والسُّوء الذى ألَّم به أو حتى يتكلَّم، وتحدثوا فى هذا الأمر مرات أمام أماديس . غير أنَّه - باعتقاده أنَّ الجميع يملكون سلامة الأفكار ونزاهتها مثله، ويشاركه الملك فى هذا، فقد عمل فى خدمته بكل إخلاص - فسَّر الأمر على أنَّه مجرَّد انشغال الملك ببعض الهموم والأعمال، وهكذا جاء حديثه لأولئك الذين تشكَّكوا فى أمور أخرى، وخاصة لأخلص أصدقائه وأوفاهم أنجريوتى دى إستراباوس، الذى أبدى حزنًا شديداً لحاله أكثر من أى إنسان آخر .

والحال هكذا - كما سمعتم - أمر الملك بإحضار ماداسيما وفتياتها، والعملاق العجوز وابنتيه والفرسان التِّسعة الذين أتوا إلى قصره رهينة، وأخبرهم بأنه إذا لم يُسلموا إليه جزيرة مونجاثا وفق ما تم الاتفاق عليه، فسوف يأمر بقطع رقابهم، وما إن سمعت ماداسيما هذا الكلام، ورأت الخطر القادم كبيراً ومفجعًا حتى اغرورقت عيناها بالدُّموع الغزيرة، وفكَّرت بأنها إذا سلمت الأرض فسوف تصبح بلا مملكة، وإذا لم تسلمها، فستواجه الموت القاسى . ولما تدبرت فى الأمور ولم تعرف الرَّد على كلمات الملك أخذ جسدها يرتعد . لكن ذلك العملاق العجوز أنداجيل طلب من الملك أنْ يأذن له ويعطيه بعض الرِّجال، ويعده بأنْ يسلِّم إليه الجزيرة أو أنْ يعود للسجن مرَّةً أخرى . استحسن الملك الرَّأى وأعطاه ما طلب من الرِّجال، فرحل بهم العملاق . عادت

ماداسيما إلى أسرها، وبرفقتها العديد من الفرسان، من بينهم السَّيد جالبانيس سين تيـرا (بلا أرض، بلا وطن)، الذى لمَّـا رأى تلك الدُّمـوع التى تسـيل على خـدَّى ماداسيما، لم يتحرَّك قلبه فقط شفقةً عليها. ولكنه عاب تلك الحرية التى يتمتع بها حتى الآن دون أنْ يصبح أسـيرًا لأيَّة امـرأة من أولئـك اللاتى رآهـن، وفـجـأة، ودون أن يعرف بأية طريقة أو كيفية، خاشعًا أسيرًا للغاية ودونـمـا اتفاق وتسويف، بدأ يتكلم فى ذات الـوقت مع ماداسيما كاشفًا لها عن حبه، وقال لها إذا ما رغبت فى الزَّواج منه فإنَّ له طـريقة تمكنـه من إنقـاذ حيـاتها والاحتفاظ بمملكتها . كانت ماداسيما تعـلم شيئًا عن طيبة هذا الفارس وأصله النَّجيب العريق، فأجابته لطلبه، وهنا خرَّ راكعًا أمامها يريد أنْ يقبل يديهـا . وبعد أنْ حصل على هذه الإجابة، أحسَّ السَّيد جلبان باللهـيب يتقـد بين أحشائه، وبدأ يحسه أكثر فعاليةً وبأسا كلما رأى نفسه وقد تخلَّص من تلك المعركة التى بدأها منذ وقتٍ طويلٍ، وما انقضت مدةٌ طويلةٌ، وبعد أن عزم على أنْ يلجأ إلى تنفيذ ما وعد به، حتى ذهب إلى الغرفة التى يوجد بها أماديس . وتحدَّث مع أماديس وأجراخيس، ابن أخيه، فأفصح لهما عن مكنون نفسه، وأخبرهما بأنَّهما إذا لم يبحثا عن حل لهذا الأمر، فسوف تكون حياته فى خطرٍ داهمٍ . اندهشا لما رأياه من تغير فى جانب رجل كان من قبل بعيدًا عن مثل هذا التَّصور، وكان عدوا لأولئك الذين يرهقون أذهانهم واهتمامهم فى مثل هذه القضايا، وأخبراه أنَّهما نظرًا للقدر الذى يتمتَّع به، وما أسداه من خدمات للملك ليسوارتى، وإنَّهما يعتبران اغتصـاب أملاك ماداسيما أمرًا فاحشًا، خاصةً وأنَّها فى ضيافة الملك وأحد أتباعه، حين يستطيع أماديس امتطاء جواده سيذهب إلى الملك ليتحدَّث إليه فى هذا الموضوع .

فى تلك الأثناء كان النَّمام جانداندیل قد ذهب مرَّاتٍ عديدةً لزيارة أماديس وأظهر له حبا كبيرا. وكلما دار الحديث عن الملك كان يقول له إنَّه يرى الملك قد تغيَّر فى حبه لأماديس، وعليه أنْ يحـذر أنْ يناله منه مكروه، وهو الأمـر الذى أسف له لكون هذا الرَّجل قد تقلَّد مناصب عدة نتيجة أفعاله الطَّيِّبة هو وأبناؤه فى قصر الملك . غير أنه مهما تحدث إليه عن أمور عديد وتافهة لم يستطع قط أن يحرك فى قلب أماديس أى

نوع من الغضب أو الرِّيبة، وحين استشاره طلب منه أماديس - وقد ظهر الغضب على أسارير وجهه - أن يكُفَّ عن الكلام فى هذا الأمـر، لأنَّه حتى لو قال له ذلك كلُّ النَّاس، لا يمكن له أنْ يصدق أنَّ رجلاً عاقلاً وذا فضائل كثيرة مثل الملك سيقف منه موقف العداء، وهو الذى لم يفكِّر فى أىِّ شىءٍ، سواءً كان نائمًا أم مستيقظًا، سوى خدمته .
مضت أيامٌ قلائل تمكَّن أماديس وأنجريوتى دى إستراباوس والسَّيد برونيو دى بونامار بعدها من مغادرة فراشهم بعد تحسن كبير فى صحتهم وشفائهم من قروحهم، وركبوا جيادهم ذات صباح، وعاليهم ثيابٌ فاخرةٌ، أدوا صلواتهم وانطلقوا بعد ذلك إلى قصر الملك، حيث أحسن الجميع وفادتهم ما عدا الملك، الذى لم ينظر إليهم أو يستقبلهم كما هى عادته، الأمر الذى لفت انتباه أغلب الحاضرين، غير أنَّ أماديس لم يلتفت لهذا الأمر، فما فكَّر فى أنَّ الملك قد فعل هذا بسوء نيةٍ، ولكن جاندانديل، ذلك النَّمام الذى كان موجوداً هناك، عانق أماديس ضاحكًا، ثم قال له :

- أحيانًا يقولون الحقيقة للناس، غير أنَّهم لا يريدون تصديقها .

لم يرد عليه أماديس بشىءٍ، وتركه حيث كان، ونظر فرأى كيف أنَّ أنجريوتى والسَّيد برونيو قد تأففا؛ نظراً لمعاملة الملك والاستقبال السَّيئ، ثم ذهب إلى الملك، وقال له فى عجالة بحيث لم يسمعه أحد .

- أما ترى، سيدى، تلك الهيئة التى تعلو وجوه هذين الفارسين لما فعلت ؟

صمت الملك، فما أراد أنْ يرد عليه بكلمة، وأمَّا أماديس ذو النِّية الحسنة، الذى لم يكن يشكُّ قط فى وجود مثل هذه المكيدة المدبَّرة دون أساسٍ، فقد وصل إلى الملك بكل تواضع فى رفقة جالبانيس وأجراخيس، ثم قال :

- نودُّ، سيدى، إن شئت، أنْ نتحدث معك، وأن يحضر حديثنا من تشاء وتأمر .

أشار الملك بحضور جاندانديل . فرح أماديس كثيرًا لهذا الرَّأى، حيث كان يرى من كلِّ قلبه أنَّ هذين الرَّجلين صديقان حميمان . وهنا ذهب الجميع إلى بستان استراح فيه الملك تحت ظلِّ الأشجار، وعلى مقربةٍ منه جلس الآخرون، قال له أماديس :

- سيدى، لم يكن فى نيتى أنْ ألاحقك كثيراً بما أريد، غير أنَّنى لفرط ثقتى فى فضلك ونبلك، أتجرأ على أنْ أطلب منك معروفًا فيه شرفٌ لكم، أنْ تقيم الوزن بالقسط .

- بكلِّ تأكيد - قال جانداندبل - إذا كان الأمر هكذا، فاطلب أفضل ماتريد، ولينظر الملك ماذا هو فاعلٌ بطلبك .

- سيدى - قال أماديس - إنَّ ما نطلبه منك أنا وأجراخيس والسَّيد جالبانيس، الذى أفنى نفسه فى خدمتكم، يتمثَّل فى جزيرة مونجاثا، التى حين أصبحت تحت إمرتكم وحوزتكم، يمكنكم تقديمها والسَّيدة ماداسيما إلى السَّيد جالبانيس على نية الزَّواج، وبهذا العمل، سيدى، تكون قد قدمت معروفًا إلى السَّيد جالبانيس، الذى ينتمى إلى أسرة عريقة، لكنَّه أصبح بلا أملاك تُذكر، وإن تصنع معه هذا الصَّنيع فهو أمرٌ طيِّبٌ، وفى ذات الوقت تكون قد فعلت خيراً بماداسيما التى حرمناها نحن من أملاكها وسلطانها .

وما إن سمع بروكادان وجانداندبل هذا الكلام حتى نظرا إلى الملك وأشارا عليه بألا يفعل ذلك، غير أنَّ الملك ظلَّ حينا دون أنْ يردَّ بكلمة، يفكِّر فى تلك الشَّجاعة والمروءة التى يتمتَّع بها جالبانيس، وفى خدمته له، وكيف أنَّه قد كسب تلك الأراضى بعد مخاطر جمة تعرَّض لها أماديس، وهو يراهم الآن وقد أتوه يطلبون منه الحق والعدل والشَّرف . ولكن بما أنَّ نفسه وقد تلوَّثت بالشَّرِّ فلم يدع مجالاً للفضيلة أنْ تلعب دورها الواجب، وجاءت إجابته معربة عن عدم رغبته في تنفيذ ما طلبوه منه، وقال :

- ليس من العقل أنْ يطلب إنسانٌ أمرًا لا يمكن حدوثه . هذا ما أقوله لكم، فما تطلبونه منِّى الآن قد أعطيته للملكة منذ خمسة أيَّام من أجل ابنتها ليونوريتا .

هذا هو ما بدأ به رده، وقد جاء منه هذا الكلام اعتذاراً أكثر منه حقيقة واقعة . كان لهذه الإجابة من الملك وقعٌ حسنٌ عند بروكادان وجانداندبل، وأشارا إليه أنَّ هذا

هو رد حسن. غير أنَّ أجراخيس، الذي تميَّز قلبه من الغيظ وقد رأى إجابة الملك غير سديدةٍ، وكيف أنه اعتذر بصورةٍ غير مرضية، لم يستطع السُكوت على ذلك، فقال وقد اشتدَّ به الغيظ :

– إنَّ في ردِّك هذا، سيدي، إشارة نفهم منها أنَّنا إذا لم نكن نقدر لشخصنا فإنَّ خدماتنا، التي لا تنكر، لن تشفع لنا إلا في القليل النَّادر، غير أنَّني إذا ما كنت مصدقًا لأصبحت حياتنا على شاكلةٍ أخرى .

– ابن أخي – قال السَّيد جاليانيس – لا تحمل الخدمات في طياتها سوى أقل أنواع التقدير، خاصة حين نقدِّمها إلى أناس لا يقدرونها حقَّ قدرها، وعليه، فيجب على كل إنسانٍ أنْ يبحث عن مكان جيدٍ يؤدِّي فيه خدماته .

– سادتي – قال أماديس – لا تضجَّان بالشَّكوى إذا لم يستجب الملك إلى ما طلبناه منه، فقد قدَّمه وأعطاه . لكنَّني أرجوه أنْ يقدِّم إليكما ماداسيما، ويحتفظ هو بالأرض، وسأعطيكما أنا جزيرة فيرمي، حيث تحتفظان بها إلى أنْ يجد الملك شيئًا آخر يقدِّمه إليكما .

قال الملك :

– إنَّ ماداسيما رهينة عندي مقابل أرضها، وإن لم تفعل فسوف آمرُ بقطع رقبتها .

قال له أماديس :

– بكل تأكيد، سيدي، عليك أنْ تجيبنا باعتدال أكثر إن شئت، وإذا ما أردت أن تحكم بالعدل وتشكر ضيفًا فلا تجعل على عينيك غشاوة .

– إذا لم أشكركم جيداً – قال الملك – فأرض الله واسعةٌ، هاجروا فيها وابحثوا عمَّن يشكركم ويقدركم أكثر منِّي .

آه، يالها من كلمات جديرة بالنَّظر فيها ! فبالأمس، كنا نقول إن هذا الفارس الملقب بأماديس دى جاولا قد شغف الملك به حبا، وقدَّره حق التَّقدير، واعترف بفضله وفضل إخوته وأقاربه حتى أصبح ملكًا متوَّجًا للعالم، كما أبدى شفقة كبيرة نحوه حين ضرب موعداً للمعركة بينه وبين أردان كاپينيليو حتى اغرورقت عيناه بالدُّموع، خاصة حين علم أنَّه قد فقد سيفه البتَّار فى ذلك الوقت العصيب، وحنث فى ذلك اليمين الذى أدَّاه أمام رجال قصره يومًا بألا يعطى سيفه لأحدٍ أبداً، فأخذ يتوسَّل إلى أماديس أنْ يأخذه، الأمر الذى لا يمكن له أن يحدث إلا إذا كان وراءه حبٌّ جارفٌ من الملك لأماديس، فتذكَّرا فى ذلك الوقت الخدمات الكبيرة التى تلقاها منه، والتى كانت وراء استقرار مملكته وحياته، والآن كل هذا الحب والعقل والفطنة التى تجمعت له بقدر كبير، والدِّراية بعظائم الأمور، لم يكن كل ذلك كافيًا لمنع بضع كلماتٍ تافهةٍ لا أساس لها - قيلت على لسان رجلٍ شريرٍ، لا يفعل الخير ولا ينوى القيام به، وبدونما تأكيد أو إثبات - من أن تعكِّر صفو هذا الجو ! مثل هذه الأفعال تبدو فى نظرى كبيرة وعظيمة، فلربما خرج منها ما هو أخطر من أسلحة الأعداء والسُّم الزعاف، الخطر الدَّاهم يحدق بالملوك وكبار القوم حين يسلمون أذانهم للغير، لأنَّ السَّماع، سواء أكان خيراً أم شراً، حين يطبع فى الآذان يغيِّر طباع القلوب، ويقود السُّلطة فيوجها إمَّا إلى إقرار العدل وإما إلى الظُّلم . ولهذا، فأنتم يا كبار القوم، يا من حزتم فى أيديكم سلطانًا كبيراً يمكنكم من قضاء شهواتكم، وتنفيذ رغباتكم وإرادتكم، عليكم أن تحذروا الأشرار، فهم لا يتقون الله فى أنفسهم وشخصهم إلا قليلاً، وهذا مدعاةٌ للتَّفكير الجيِّد فى أنَّهم لن يفكروا فيكم ويعنوا بأمركم أكثر من هذا .

وبالعودة مرَّةً أخرى إلى لُبِّ الحكاية، حين سمع أماديس هذا الرَّد غير الشريف وغير اللائق من الملك قال له :

- بكل تأكيد، سيدى، على حسب علمى ودرايتى حتى الآن ما كنت أحسب أنَّ هناك ملكًا آخر غيرك فى هذا الوجود يعرف كيف يقدِّر الأمور حق قدرها، ولكن بما أنَّك تكلَّمت الآن بما يدعو إلى الاستغراب وبما يتناقض مع ما كنت أظنه، فمن الأنسب أنْ تأذن لنا بأنْ يبحث كلٌّ منَّا عن حياته من جديد .

– افعل ما تمليه عليك إرادتك – قال الملك – وأنا أيضاً .

وهنا نهض الملك وقد تملكه الغيظ، ثم توجَّه إلى حيث توجد الملكة وبرفقته كل من بروكادان وجاندانديل، يمتدحانه كثيراً أنْ تصرَّف على هذا النَّحو مع أولئك الذين كانوا يمثلون خطراً كبيراً عليه، وقصَّ على الملكة كلَّ ما جرى بينه وبين أماديس، وكيف أنَّه قد أتى إليها والفرح يغمره أنْ فعل هذا، غير أنَّها أخبرته بأنَّ فرحته هذه تعني حزنها، لأنَّه منذ أنْ حلَّ أماديس وأخواه وأقرباؤه بقصره وشأنه في ازدياد وارتفاع على الدَّوام، دون أنْ يظهر أيٌّ منهم له العداء، وإذا ما كان رحيل هؤلاء قد أتى من رأيه هو فقد خدعت هي في فطنة الملك ودرايته بالأمور، وأما إذا كان نتيجة وشاية من الآخرين فإنَّه ينمُّ عن حقدهم عليهم وعلى ما قدموه من أعمال بطولية، وإنَّ المخاطر والمضار لن تكون في الوقت الحاضر فقط، وإنَّما ستتوالى مستقبلاً، فما أن يرى الآخرون مثل هذا التَّصرف من الملك، حيث أنكر وأساء تقدير قدر أولئك الفرسان الذين تمتَّعوا بمكانة سامية وكانت لهم عليه أياد عظيمة واجبة التَّقدير والاحترام، وهم لا ينتظرون من أتباعهم إلا القليل النَّادر، فما يطاولون الآخرين في المكانة والبطولة، سيفرُّون ومعهم كل الحق من قبضة ملكهم ليبحثوا عن آخر يقدِّر أعمالهم بصورة أفضل . لكن الملك قال لها :

– دعك من الحديث في هذا الأمر، فأنا أدرى بما أفعل، وقولي مثل قولي : إنَّك طلبت مني تلك الأرض لليونوريتا وإنَّني وهبتها لها .

– وأنا سأقول هذا الذي قلت – قالت الملكة – كما تأمرني به، ولتكن مشيئة الله في هذا خيراً .

ذهب أماديس إلى غرفته والغيظ يتملَّكه، والحزن يعتصر قلبه، فبدا ذلك كله على قسمات وجهه، حيث وجد هناك في انتظاره العديد من الفرسان الطَّيِّبين الذين معه دائماً، وما أراد أنْ يخبرهم بشيء مما جرى بينه وبين الملك حتى يتكلَّم إلى سيدته أوريانا، وانفرد بدوران، وكلفه بأنْ يطلب من مابيليا ترتيب موعد له للقاء أوريانا تلك الليلة، وعند الماسورة القديمة بالبستان، حيث كان مكاناً للقاءات أخرى

سابقة، يمكنهما أن ينتظراه . وبعد ذلك عاد إلى أولئك الفرسان، فتناولوا طعامهم وتسامروا كما كانت عادتهم كل يوم . ثم قال لهم :

– سادتي، إذنْ أتوسَّل إليكم كثيرًا أنْ تكونوا هنا جميعًا، لأنَّني أودُّ أنْ أكلِّمكم في أمرٍ قد انقضى .

– هكذا سنفعل – قالوا جميعًا .

انقضى النَّهار وأقبل الليل، وبعد تناول العشاء، وبعد أن هدأ النَّاس في مخادعهم اصطحب أماديس جندالين معه، وتوجَّه إلى البستان . ودخل إلى ذلك الأخدود القديم – كما كان يفعل من قبل – حتى بلغ حجرة أوريانا سيدته، وحين التقيا تعانقا، معبِّرين بهذا عن مكنون العواطف الجيَّاشة داخلهما والتي لم يكن لها مثيلٌ في هذا الوجود، حسب زعمهما . جلسا على الفراش ثم سألته أوريانا عن السَّبب الذي أرسل إليها يطلب الحديث معها لأجله. قال لها:

– بسبَّب أمرٍ في غاية الغرابة، حسب ظني، وقع لي وأجراخيس والسَّيد جلبانيس مع والدك .

وهنا قص عليها الأمر كلَّه كما حدث، وكيف أنَّه في نهاية حديثه معهم أشار إليهم بأن الدُّنيا واسعةٌ، فليهاجروا علهم يجدون من يعرف قدرهم أكثر منه .

– سيدتي – قال أماديس – بما أنَّ ذلك الأمر يرضيه، فمن الأنسب لنا أنْ نفعله، فغير ذلك سيكون فيه خسارةٌ لكلِّ ذلك المجد وتلك الشُّهرة التي كسبتها أنا من جرَّاء مكانتك السامية، بما فيه ضرر وعار لشرفي، حتى لا يكون هناك فارسٌ أكثر منِّي نقيصة في هذا الوجود، ولا أريد أن تأمريني، سيدتي، بشيءٍ آخر، لأنَّني في هذا الحال الذي أصبحت فيه أنت لا أنا، إن قبلت غير ذلك، سيلحق به جانبٌ كبيرٌ من هذا العار، الأمر الذي وإن كان سيخفى على الجميع، حين يصبح معروفًا وظاهرًا لك، سيدتي، ستصبح نفسك في ضيقٍ وألمٍ كبيرين .

ما إنْ سمعت أوريانا هذا الكلام حتى أحسَّت أنْ قلبها يتمزَّق، غير أنها تماسكت قدر استطاعتها، وقالت له :

- صديقي الحميم، ليس لك كلُّ الحق في أن تضج بالشَّكوى من والدى، فقد أتيت أنت بأمره هو إلى هذا القطر لخدمتي أنا لا لخدمته، وأنا المعنية بمجازاتك، وستظلُّ فيه ما دمت حية . وإذا ما كان والدى قد أخطأ فى شيءٍ فإن ذلك لم يكن إلا لأنَّه لا يعلم أن ما تقوم به من أمور يصدر عن أمرى أنا، وهو يظن أنها أتت خدمةً له هو . وهذا هو ما دفعه إلى أنْ يرد عليكم ردا غير معتدلٍ . ومع أنَّ رحيلك عنى سيكون عصيبًا، وحزنًا يتصدَّع له قلبي، فبتحكيم العقل على الرغبة والحب الجامح الذى أكنه لك أرى أن يتم الأمر على النَّحو الذى طلبت، وبما أنَّنى لى سلطان عليك، سأجد لذلك الأمر حلاً يناسبنى وتكون فيه سعادتي، ولكي يعلم والدى أنه بفقدك أصبح كل ما تبقى لديه ليس سوى مصدر خزى وعار وعزلة بالنسبة له .

وحين سمع أماديس هذا الكلام قبل يديها مرَّاتٍ عديدةٍ، ثم قال لها :

- سيدتى، رغم أنَّنى تلقيت منك حتى الآن فضائل عديدة وكبيرة أعادت إلى قلبى الحياة بعد الموت، فإن هذا عمل يستحق أنْ يروى وفقًا للفارق الكبير بين قضايا الشَّرف وقضايا التَّسلية والمتعة .

أمضيا الليلة فى الحديث عن هذه الأمور وقضايا أخرى، وخلطا متعتهما بالدُّموع الغزيرة بينما كانا يفكران في الوحدة الكبيرة التي سيعيش فيها كل منهما مستقبلاً، ولكن مع قرب طلوع النَّهار نهض أماديس، وبصحبته مابيليا والفتاة الدَّانماركية، وتوسَّل إليهما أن يكونا عونًا لأوريانا وعزاءً لها فى غيبته، فانخرطتا فى البكاء واعدتين إيَّاه بذلك، وتركهما وانصرف، وما إن وصل إلى حجرته حتى أمضى ما تبقَّى من الليل وطرفًا من النَّهار نائمًا . وفى الوقت المعلوم قام من فراشه حتى يكون فى استقبال أولئك الفرسان الذين واعدهم من قبل، وقد حضروا إليه، وبعد أنْ أدوا صلواتهم امتطوا جيادهم وسط أحد الحقول . بهذه الطَّريقة تحدَّث إليهم أماديس قائلاً :

– معلوم لديكم، أعزَّائي الفرسان والسَّادة، أنَّه منذ مجيئي من مملكة جاولا في بريطانيا العظمى وبرفقتي إخوتي وأصدقائي كيف صارت الأمور في مملكة ليسوارتي، لقد تحوَّل حالها من حسنٍ إلى أحسن، ولهذا فهو لا يودُّ الاعتراف لكم بهذا الآن . ولا يمكن لي أنْ أصدِّق سوى أنْ يقال لي ولكم إننا أهل للاستحقاق والمكافأة بصورة عظيمة، ولكن ما حدث عكس ذلك تماما. فلا أدري إذا ما كان ذلك بفعل الأقدار التي تتبدَّل، فيتغيَّر كلُّ شيءٍ ويتعكر صفوه، أم هي مشورة بعض الأشرار التي غيرت حال الملك على الرَّغم من العمر الذي بلغه الآن، فأصبح على النَّقيض تمامًا لرأينا فيه، فهانحن قد طلبنا أنا وأجراخيس والسَّيد جالبانيس أن يتفضَّل ويعطي ماداسيما أرضها ثم يجعلها زوجةً للسَّيد جالبانيس، الذي كان في خدمته وواحداً من أتباعه، ودون أنْ يراعي في هذا الرَّجل الفارس قدره وشجاعته وأصله النَّجيب، والخدمات الكبيرة التي أداها إليه، ما كان منه إلا أنْ رفض إجابتنا لطلبنا، وليس هذا فقط لكنه تنكَّر لنا شخصيا في رده غير المنصف والمهين، والذي لصدوره من فم رجل نجيب لا يمكن العفو عمَّا قاله الملك نظرًا للصورة التي جاء عليها كلامه. والأدهى، أيُّها السَّادة، أنَّه في نهاية حديثي معه حين أخبرته أنه قد تجاهل حقنا وما فعلنا من أجله قال مخاطبًا الجميع إنَّ الدنيا واسعة، ولنا أنْ نهاجر فيها بحثًا عن ملك آخر يقدِّر خدماتنا أفضل منه. وهكذا، بما أنَّنا كنا مطيعين له في الودِّ والصَّداقة، فلنكن كذلك أيضًا في الشقاق والعداء، فنفي بما يراه خيرًا يجب عمله . وفي رأيي أنَّه من العدل أن تعلموا هذا الأمر، لأنه لا يخصنا نحن بخاصة، وإنما يخص الجميع بعامة .

حين استمع هؤلاء الفرسان إلى ما قاله أماديس تعجَّبوا كثيرًا، وتحدَّث بعضهم إلى بعضهم الآخر، ورأوا أنَّه في غاية السُّوء أنْ تكافأ خدماتهم الصَّغيرة جيداً، تلك التي قدَّموها للملك ليسوراتي، بينما قوبلت الخدمات الجليلة لأماديس وأخويه بالنكران والنِّسيان؛ وعليه فلم تتحوَّل قُلوبهم حينذاك فقط عن خدمة الملك، بل سيلحقون به

الضَّرر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وأما أنجريوتى دى إستراباوس، الذى رأى أنه قد نال نصيبه من النُّكران، نظراً لما أصاب أماديس، فمن جانبه قال :

– سادتى، أنا أعرف الملك منذ زمن طويل، ودائما ما وجدته هادئًا فى كلِّ أموره، وما يتصرَّف بهذا الشَّكل الانفعالى إلا لأمر خطير وحق عادل، وعليه فهذا الذى حدث لأماديس وهؤلاء الفرسان أنا لا أصدِّقه، ولا حتى يرد على ذهنى أن مثل هذا الأمر يصدر عنه آخذًا فى الاعتبار وضعه وإرادته، وهنا يصبح الافتراض القائل بأنَّ هناك بعض الوشاة الذين أخرجوه عن طبيعته ورصانته . ولهذا فأنا لا أحمِّل الملك تبعات الأمر كلها، وما أراه حقا أنَّنى قد شاهدت هذه الأيام الأخيرة الماضية الملك يتحدَّث، على غير العادة، لمرَّاتٍ كثيرة مع كل من جاندانديل وبروكادان، وبما أنَّهما يتميَّزان بالخداع والغش، ولا يألوان فى أحد إلاً ولا ذمةً، كما أنَّهما لا يخشيان الله، ظنا أنه بمقدورهما أنْ يحصلا هما وأبناؤهما على ما لم تمكنه أعمالهم الشريرة من الحصول عليه، لذلك لجآ إلى هذه الحيلة التى غيرت مزاج الملك فحولته عن أصدقائه . وحتى تتأكَّدوا من أنَّ عدالة الله لابد لها من أن تنفذ، سأخرج الآن وأحمل ملابسى وأسلحتى، وأخبرهما بأنَّهما حقودان وشريران، وأنَّهما قد دبَّرا تلك الخيانة والمكيدة بين الملك وأماديس، وسوف أنازلهما، وإنْ كان سنهما لا يسمح بذلك، فلهما أنْ يوكلا عنهما ابنيهما ليحضرا أمامى فى ذلك النِّزال، وعليهما أن يتحملا وزر ما فعله والداهما .

ولمَّا أراد أنْ يرحل استوقفه أماديس قائلاً له :

– يا صديقى العزيز أنجريوتى، لا جعل الله جسدك الطَّيِّب الوفى فى مكان مغامرة فى مقابل شىءٍ لا نعلمه يقينًا .

قال له أنجريوتى :

– أنا على يقين من أنَّ الأمر قد حدث بهذا الشَّكل، فأنا أعرفهما منذ زمنٍ طويلٍ، وإذا ما كان للملك أنْ يعرف الحقيقة، فأرى أنَّه سيوافق على ما أقول .

قال أماديس :

– إذا كنتم تحبوني فلا تقدم هذه المرة على ما تنوى، حتى لا يمتعض الملك . وإذا كان هذان اللذان تذكر، ويظهران كونهما صديقين لي، بينما هما من ألد أعدائي، فلن يكون بمقدورهما التَّخفي بعد ذلك، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، وحين يكتشف ويعرف أمرهما فمن الممكن حينئذ أنْ نتحرَّك ضدهما، ولتكن على يقين بأنَّني لن أمنعك من ذلك أبداً .

قال أنجريوتي :

– رغم أن هذا الأمر ضد رغبتي وإرادتي، فسأتخلَّى عنه هذه المرَّة إذا كان هذا يسرك، ولنتركه لحينه .

وهنا عاد أماديس إلى هؤلاء الفرسان، وقال لهم :

– سادتي، أنا أرغب في وداع الملك والملكة إذا أراد رؤيتي، وأريد الذَّهاب إلى الجزيرة اليابسة، فمن يرغب في العيش معنا هناك فليتفضَّل، فهذا شرفٌ لي، فضلاً عن السَّعادة التي ستتحقَّق لنا، فإن تلك الأرض أرض المتع والملذَّات يتوافر فيها كلُّ شيءٍ، من حيوانات الصَّيد والنِّساء الحسناوات، اللاتي حيث يوجدن يجعلن الفرسان أكثر نضارةً شباباً وفخراً . ولي فيها جواهر كثيرة ثمينة وقيِّمةٌ تكفي لإشباع احتياجاتنا، وهناك سيفد علينا الكثيرون ممَّن يعرفوننا، وغيرهم من الغرباء، رجالٌ ونساءٌ، سيحتاجون إلى مساعدتنا . وهناك سنعود كلَّما شئنا لنباشر أعمالنا ومهامنا . وبالإضافة إلى ذلك – سواء أكان في حياة والدي الملك بيريون أم بعدها – فإنَّ مملكة جاولا لن تكون بعيدة عن بريطانيا الصُّغرى، وستصلني منها الرَّسائل كما في الأيَّام السَّالفة . كلُّ هذا بوسعكم أنْ تحكوه بلا ريب . وأعيد على ذاكرتكم أنَّ مملكة اسكتلندا سيتولاها أجراخيس، أمَّا مملكة الملكة بريولانخا فلن تفلت منَّا شئنا أم أبينا .

- هذا ما بمقدورك حقًا، يا سيد أماديس، أنْ تقوله - قال ذلك أحد الفرسان الذى يعرف باسم تانتيليس، قهرمان وحاكم مملكة سوبراديسا - والتى ستكون تحت أمرك ومعها تلك الملكة الجميلة التى أعدتم لها مُلكها .

قال له السيِّد كوادراجانتى :

- الآن، سيدى، لتذهب لوداع الملك، وهناك سيظهر محبوك الذين يودون الخروج فى صحبتك .

- هكذا سأفعل - قال أماديس - وسوف يكون تقديرى كبيرًا لأولئك الذين يعربون آنذاك عن خروجهم معى تشريفًا لى، ولا أريد أنْ أجبر أحدًا . وما أنا على يقين منه أنَّه لن يبقى هناك أى رجل من بين أولئك الرِّجال الطَّيِّبين .

مر الملك ممتطيًا جواده وجانداندیل فى حراسته، ومجموعة أخرى من الفرسان، ويبدو أنَّه قد خرج فى رحلة صيدٍ سريعةٍ . وهكذا سار مدةً بالقرب منهم، ولم يكلِّمهم ولا نظر إليهم، ثم عاد إلى قصره .

الفصلُ الثَّالث والستُّون

تألَّم أماديس لهذا النُّكران من قبل الملك، فخرج راحلاً عن القصر فى خمسمائة فارس، من بينهم يوجد أبناء كونتات وملوك، قاصداً الجزيرة اليابسة، حيث أحسن النَّاس وفادتهم وفرحوا لقدومهم . وبعد زيارةٍ سريعةٍ للآثار السَّاحرة العجيبة بالجزيرة، وخاصة حجرات أبوليدون الأربع : حجرة الثُّعبان، وحجرة الأسد، وحجرة الظَّبى، وحجرة الكلاب، والقصر الدوار وحجرة الثَّور. وعلم من قبل بالانيس ذلك التَّهديد الذى أرسله الملك لماداسيما وفتياتها، والذى تضمَّن قطعه لرقابهن إذا لم تقم والدتها، العملاقة جروماداثا، بتسليمه البحيرة السَّاخنة وثلاث قلاع أُخر. وهنا أمر أماديس اثنى عشر فارسا - من بينهم السَّيد جالبانيس وأجراخيس وفلوريستان - بالذِّهاب للدِّفاع عن السَّيدات .

الفصلُ الرَّابع والستُّون

بعد رحيل أماديس اكتشفت أوريانا بأنها أصبحت من أولات الأحمال، وتستعد حين يولد الطِّفل لكى تسلمه على يد الفتاة الدَّانماركية - التى تتظاهر بأنَّه طفلها - لراهبة الدير المعروف باسم ميرافلورس حتى تربيه وترعاه. وفى تلك الأثناء بدأ جانداندِيل وبروكادان يحرِّضان الملك على قتل ماداسيما وفتياتها قبل أن يصل إليها فرسان الجزيرة اليابسة، وقد عزم هؤلاء الفرسان على الدِّفاع عن قضية السَّيدات أمام من يتعرَّض لهن بسوءٍ كائنا من كان، ولكن حين اتخذ الملك ليسوارتى قراره جاءه نبأ وفاة جرومادافا، بعد أن سلمت قلاعها للملك مقابل إطلاق سراح كريماتها . وبعد قليل ظهر داخل القصر ساركيلس وأنجريوتى، اللذان يتهمان بروكادان وجانداندِيل بالخيانة والنميمة، فتصدى نجلا الشَّريرين دفاعًا عن شرفهما لكل من ساركيلس وأنجريوتى لكنَّهما هُزما وقتلا فى المعركة .

نهاية الكتاب الثانى لأماديس

المؤلف فى سطور :

جارثى رودريجيث دى مونتالبو

- من المحتمل أنْ يكون قد وُلِدَ فى زمن السَّيد خوان الثَّاني .
- كان عمر المؤلَّف عام ١٤٩٢ - عام استرداد غرناطة - يناهز الخمسين عامًا .
- كـــان جـارثى رودريجـــيث مـــونتـــالبـــو من أهـــــالى Medina Del Campo وعضوًا بمجلسها البلدى .
- كرَّس نفسه وهو فى ريعان الشَّباب لحمل السِّلاح .
- توفى المؤلف فى عام ١٥٠٥ وفقًا لمعظم الآراء .

المترجمان فى سطور :

صبرى محمدى التهامى

- من مواليد ٢٠/٤/١٩٥١ فى محافظة الشرقية .
- حصل على دكتوراه فى اللغة الإسبانية وآدابها سنة ١٩٩٥.
- عمل بالصحافة الثقافية والترجمة فى مصر والخارج .
- صدرت له (بالاشتراك) ترجمة لتفسير القرآن الكريم فى ٢٠٠١ م - ١٤١٢ هـ.

له العديد من الترجمات منها :

- «ورود الخريف» و «عش الغريب» (مسرحيتان) من تأليف خاثينتو بينابينتى .
- «رحلة إلى الجذور» للكاتب الكولومبى جارثيا ماركيث .
- حوارات مع خوان رامون خيمينيث .
- رواية السيد بيرفيكتا .
- روية السيد سيجوندو / سومبرا .
- روائع أندلسية إسلامية .
- فورتوناتا وخاثينتا .

السيد عبد الظاهر غانم

- تخرج فى كلية اللغـات والترجمة - قسم اللغـة الإسبـانية (جامعة الأزهر) عام ١٩٨٢ ، بتقدير عام ممتاز .

- حصل على درجة أستاذ عام ٢٠٠٢ .

الإنتاج العلمى

- المترجم مجموعة من الأبحاث باللغة الإسبانية حول الأدب الإسبانى نشرت بمجلة كلية اللغات - والمجلة المغربية للدراسات الإسبانية ، والهيئة العامة للكتاب .

- له العديد من المؤلفات :

١ - إشكالية ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة الإسبانية (مؤتمر كلية الدراسات الإنسانية - الأزهر) عام ١٩٨٨ .

٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ترجمة) - مكتبة أوزوريس - القاهرة .

٣ - المرشد فى اللغة الإسبانية (مكتبة أوزوريس - القاهرة) .

٤ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (الجزء الأول) - ترجمة - المجلس الأعلى للثقافة - مصر .

٥ - تاريخ إسبانية الإسلامية (الجزء الثانى) ترجمة - المجلس الأعلى للثقافة - مصر .

٦ - مدخل إلى علم اللغات (ترجمة) المجلس الأعلى للثقافة - مصر .

٧ - تاريخ النقد الإسبانى المعاصر (ترجمة) المجلس الأعلى للثقافة - مصر .

التصحيـــــح اللغـــوى : أحمد عبد العظيم

الإشــــــراف الفــــــنى : حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف : شريف مكى



انتشر نمطٌ أدبى فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر فى إسبانيا باسم الفروسية أو قصص الفروسية. وذاع انتشاره وتحقق له الازدهار فى القرنين السادس عشر و السابع عشر.

وكانت قصة " أماديس دى جاولا " أفضل نموذج لهذا النمط وأكثرها ازدهارًا. وقد نالت القصة إعجاب جميع القراء من الطبقات الاجتماعية المختلفة: من الطبقة الأرستوقراطية والطبقات المتوسطة والطبقات الدنيا. ويكفى دليلاً على ذلك أنه فى الفترة من 1508 -تاريخ ظهور أول طبعة لقصة " أماديس دى جاولا "- وحتى عام 1586 ظهرت تسع عشرة طبعة للقصة. وهذا عدد كبير من الطبعات فى غضون ثمانية وسبعين عامًا.

وتتميز القصة بجمال الأسلوب وسهولة الألفاظ والعبارات وجودة السرد. فعلى الرغم من تكرار البطولات. فإن كثرة الأحداث والبطولات وتنوعها واختلاف أماكنها جعلت القارئ فى منأى عن الملل تمامًا؛ لأن كل بطولة كانت ذات مغزى فريد.

امتدت شهرة قصة " أماديس دى جاولا " إلى العديد من الدول الأوروبية مثل: فرنسا وإنجلترا وهولندا، وكان لها تأثير واضح فى الآداب اللاحقة فى البلدان المذكورة آنفًا.



الإبداع القصصى